الأمثل

في تفسير كتاب الله المنزل

مع تهذيب جديد

تأليف العلامة المفسر
آية الله الشيخ
ناصر مكارم الشيرازي

المجلد الخامس

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

الأمثل

١٠/٩

الأنفال
يونس

الأمثل

في تفسير كتاب الله المنزل

٩ - ١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

شبكة الفكر
alfeker.net

الأمثل

في تفسير كتاب الله المنزل

مع تهذيب جديد

تأليف

العلامة الفقيه المفسر

الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

الجزء التاسع

منشورات
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى المصححة

جميع الحقوق محفوظة و مسجلة للناشر

١٤٣٤ هـ -٢٠١٣م

يحظر نسخ أو تصوير أو ترجمة أو إعادة التنضيد بشكل كامل أو جزئي أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على إسطوانات ضوئية إلا بموافقة خطيّة من الناشر.

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

Published by Alaalami Library
Beirut- Lebanon po. Box 7120
Tel - Fax: 450427
E-mail: alaalami@yahoo.com.

بيروت - شارع المطار - قرب كلية الهندسة
مفرق سنتر زعرور- ص ب : ١١/٧١٢٠
هاتف: ٤٥٠٤٢٦-٠١ فاكس: ٠١/٤٥٠٤٢٧

يطلب في العراق : كربلاء - شارع السدرة - تلفون : ٠٧٨٠١٥٦١٩٨٠

سُورَةُ الأنفَالِ

مدنية وعدد آياتها خمس وسبعون

نظرة خاطفة إلى محتويات هذه السورة

في الآيات الخمس والسبعين التي تتكون منها سورة الأنفال أُثيرت مباحث مهمّة جدّاً.

ففي مستهلها إشارة إلى قسم مهم من المسائل المالية من جملتها الأنفال والغنائم التي يُعدّ كلٌّ منهما دعامة لبيت المال. كما تضمّنت هذه السورة مباحث أُخرى منها:

صفات المؤمنين الصادقين وما يمتازون به، قصّة معركة بدر، وهي أوّل مواجهة مسلحة بين المسلمين وأعدائهم، وما تضمّنت من أحداث عجيبة تلهم العِبَر.

بعض أحكام الجهاد ووظائف المسلمين إزاء هجوم العدوّ المتواصل.

ما جرى للنّبي صلى الله عليه وآله وسلم في ليلته التاريخية «ليلة المبيت».

حال المشركين قبل الإسلام وخرافاتهم.

ضعف المسلمين وعجزهم بادىء الأمر ثمّ زيادة قوّتهم ببركة الإسلام.

حكم الخُمس وكيفية تقسيمه.

وجوب الاستعداد «العسكري والسياسي والاجتماعي» للجهاد في كل زمان ومكان.

رجحان قوى المسلمين المعنوية على عدوّهم بالرغم من قلّة عددهم ظاهراً.

حكم أسرى الحرب وكيفية معاملتهم.

المهاجرون والذين لم يهاجروا.

مواجهة المنافقين وطريقة التعرّف عليهم. وأخيراً نجد في هذه السورة سلسلة مسائل أُخرى أخلاقية واجتماعية بنّاءة.

فلا غرابة أن نقرأ بعض الرّوايات الواردة في شأن هذه السورة وفضيلتها، كالرّواية الواردة عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ سورة الأنفال وبراءة في كل شهر لم يدخله نفاق أبداً، وكان من شيعة أميرالمؤمنين حقّاً، ويأكل يوم القيامة من موائد الجنّة معهم حتى يفرغ الناس من الحساب»(١).

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٥١٦؛ ذيل الآية مورد البحث؛ وسائل الشيعة، ج ٦، ص ٢٥٠.

وكما أشرنا من قبل فإنّ فضائل سور القرآن والثواب العظيم الذي وُعد به من يتلو هذه السور، كل ذلك لا يتأتّى بمجرّد قراءة الألفاظ، بل القراءة مقدمة للتفكّر، والتفكّر وسيلة للفهم، والفهم مقدّمة للعمل، وبما أنّ سورة الأنفال شرحت كيفية البراءة من صفات المنافقين، وكذلك ذكرت صفات المؤمنين الصادقين حقّاً، فمن قرأها وتمثلها في حياته لم يدخله نفاق أبداً.

وكذلك من قرأ صفات المجاهدين في هاتين السورتين، وجوانب من التّضحيات الواردة عن أمير المجاهدين علي عليه السلام وتمثلها، كان من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام حقاً.

❁ ❁ ❁

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾

سبب النّزول

ورد عن ابن عباس أنّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم عيّن في يوم معركة بدر جوائز للمقاتلين المسلمين ترغيباً، كأن يقول صلى الله عليه وآله وسلم مثلاً: من جاءني بفلان من الأعداء أسيراً فله عندي كذا «جائزة».

وكان هذا الترغيب - إضافة إلى إيقاده روح الإيمان والجهاد في وجودهم - مدعاة إلى أن يثب المقاتلون الفتية في تسابق «افتخاري» نحو الهدف.

إلاّ أنّ الكهول والشيوخ ظلّوا ثابتين تحت ظلال الرايات، فلمّا انتهت معركة بدر أسرع المقاتلون الفتيان لأخذ الجوائز من النّبي، إلاّ أنّ الشيوخ وكبار السنّ قالوا: إنّ لنا نصيباً أيضاً، لأنّنا كنّا سنداً وظهيراً لكم، ولو اشتدّ بكم الأمر لرجعتم إلينا حتماً، واحتدم النقاش حينئذ بين رجلين من الأنصار في شأن غنائم المعركة.

فنزلت الآية - محل البحث - وقالت بصراحة: إنّ الغنائم هي للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، فله أن يتصرّف فيها ما يشاء. فقسّمها النّبي صلى الله عليه وآله وسلم بين المسلمين بالتساوي، وأمر أن يصطلح الإخوة المسلمون فيما بينهم[1].

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث؛ بحار الأنوار، ج ١٩، ص ٢١١.

التّفسير

إنّ الآية - محل البحث - كما قرأنا في سبب النّزول، نزلت بعد معركة بدر وتتكلم عن غنائم الحرب وتبيّن حكماً إسلامياً واسعاً بشكل عام، فتخاطب النّبي بالقول: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾!.

فبناءً على ذلك ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

أي إنّ الإيمان ليس بالكلام فحسب، بل هو الطاعة لله والرّسول دون قيد أو شرط وفي جميع مسائل الحياة لا في غنائم الحرب وحدها.

ما هي الأنفال؟

الأنفال في الأصل مأخوذة من مادة «نفل» على زنة «نفع» ومعناها الزيادة، وإنما سمّيت الصلوات المستحبة نافلة لأنّها زيادة على الصلوات الواجبة، وكذلك يُطلَق على الحفيد نافلة لأنّه زيادة في الأبناء.

ويطلق لفظ «نوفل» على من يهب المزيد من العطاء.

وإنّما سمّيت غنائم الحرب أنفالاً أيضاً لأنّها كمية من الأموال الإضافية التي تبقى دون صاحب، وتقع في أيدي المقاتلين دون أن يكون لها مالك خاص، أو لأنّ المقاتلين إنّما يحاربون للانتصار على العدو لا للغنائم، فالغنيمة أو الغنائم موضوع إضافي يقع في أيديهم.

ملاحظات:

١ - بالرّغم من أنّ الآية محل البحث نازلة في شأن غنائم الحرب، إلاّ أنّ لمفهومها حكماً كلّياً وعامّاً، وهي تشمل جميع الأموال الإضافية التي ليس لها مالك خاص. لهذا ورد في الرّوايات عن أهل البيت عليهم السلام أنّ الأنفال لها مفهوم واسع، إذ نقرأ في بعض الرّوايات المعتبرة عن الإمامين «الباقر والصادق عليهما السلام» ما يلي: «إنّها ما أُخذ من دار الحرب من غير قتال، كالذي انجلى عنها أهلها وهو المسمّى فيئاً، وميراث من لا وارث له، وقطائع الملوك إذا لم تكن مغصوبة والآجام وبطون الأدوية والموات، فإنّها لله ولرسوله، وبعده لمن قام مقامه يصرفه حيث يشاء من مصالحه ومصالح عياله»[1].

---

(١) تفسير كنز العرفان، ج ١، ص ٢٥٤.

وبالرّغم من أنّ الحديث - آنف الذكر - لم يتحدّث عن جميع غنائم الحرب، إلاّ أنّنا نقرأ حديثاً آخر عن الإمام الصادق عليه السلام يقول فيه: «إنّ غنائم بدر كانت للنّبي خاصّة فقسمها بينهم تفضلاً منه»(١).

ونستنتج ممّا ذكر آنفاً أنّ مفهوم الأنفال أساساً لا يقتصر على غنائم الحرب فحسب، بل يشمل جميع الأموال التي ليس لها مالك خاص، وهذه الأموال جميعها لله وللرسول ولمن يلي أمره ويخلِفه، وبتعبير آخر: إنّ هذه الأموال للحكومة الإسلاميّة، وتصرف في منافع المسلمين العامّة.

غاية ما في الأمر أنّ قانون الإسلام في غنائم الحرب والأموال المنقولة التي تقع في أيدي المقاتلين المسلمين عند القتال - كما سنفصّل ذلك في هذه السورة - مبنيّ على أن يُعطى أربعةُ أخماسها - ترغيباً - للمقاتلين المسلمين وتعويضاً عن أتعابهم، ويصرف خمسها في المصارف التي أشارت إليها الآية (٤١) من هذه السورة.

وعلى هذا الأساس فإنّ الغنائم داخلة في مفهوم الأنفال العام، وهي في الأصل ملك الحكومة الإسلامية، وإعطاء أربعة أخماسها للمقاتلين عطيّة وتفضل منها.

٢ - قد يُتصور أنّ الآية محل البحث «بناءً على شمولها غنائم الحرب أيضاً» تتنافى والآية ٤١ من هذه السورة التي تقول: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ وسائر المصارف. لأنّ مفهومها أنّ أربعة أخماس الباقية هي للمقاتلين المسلمين.

إلاّ أنّه مع ملاحظة ما ذكرناه آنفاً يتّضح أنّ غنائم الحرب في الأصل كلها لله وللرسول صلى الله عليه وآله وسلم وإعطاء أربعة أخماسها للمقاتلين نوع من التفضل والهديّة، وبتعبير آخر: إنّ الحكومة الإسلامية تهب أربعة أخماس من حقها إلى المجاهدين، فلا يبقى عندئذ أي تنافٍ بين الآيتين.

ويتّضح أيضاً أن آية الخمس لا تنسخ آية الأنفال، - كما تصوّر ذلك بعض المفسّرين - بل كلٌّ منهما باقٍ على قوّتِه!

٣ - كما قرأنا في شأن النّزول آنفاً، أنّ مشاجرةً وقعت بين بعض الأنصار في شأن غنائم الحرب، وقطعاً لهذه المشاجرة فقد نفت الآية أن تكون الغنائم لغير الله والرّسول ثمّ أمرت المسلمين بإصلاح ذات البين.

---

(١) تفسير كنز العرفان، ج ١، ص ٢٥٤.

وأساساً فإنّ إصلاح ذات البين وإيجاد التفاهم وقلع عناصر الكدر والبغضاء من صدور المسلمين، وتبديل كل ذلك بالمحبّة، يعدّ من أهم الأغراض الإسلامية.

وكلمة «ذات» تعني الخلقة والبنية وأساس الشيء، والبين يعني حالة الارتباط والعلاقة بين شخصين أو شيئين، فبناءً على هذا فإنّ إصلاح ذات البين يعني إصلاح أساس الإرتباطات، وتقوية العلاقات وتحكيمها، وإزالة عوامل التفرقة والنفاق.

وقد أولت التعاليم الإسلامية عناية فائقة لهذا الموضوع حتى عدّته من أفضل العبادات.

يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام في آخر وصاياه - بعد ما ضربه ابن ملجم بالسيف - لولديه: «إنّي سمعت جدّكما رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إصلاح ذات البين أفضل من عامّة الصلاة والصيام»(١).

وجاء عن الإمام الصادق عليه السلام في كتاب الكافي أنّه قال: «صَدَقَةٌ يُحبُّها اللهُ إصْلاحُ بَيْنَ النَّاسِ إذا تَفَاسَدُوا، وتَقارُبُ بَيْنَهُمْ إذا تَبَاعَدُوا»(٢).

كما ورد عنه عليه السلام في الكتاب آنف الذكر ذاته أنّه قال للمفضل: «إذا رأيت بين اثنين من شيعتنا منازعة فافتدِها من مالي»(٣).

ولهذا نقرأ في بعض الرّوايات عن أبي حنيفة سابق الحاج قال: مرَّ بنا المفضّل وأنا وختني نتشاجر في ميراث، فوقف علينا ساعة ثمّ قال لنا: تعالوا إلى المنزل فأتيناه فأصلح بيننا بأربعمائة درهم فدفعها إلينا من عنده حتى إذا استوثق كلّ واحد منّا من صاحبه، قال: أمّا إنّها ليست من مالي ولكن أبا عبد الله عليه السلام أمرني إذا تنازع رجلان من أصحابنا في شيء أن أُصلح بينهما وأفتديها من ماله، فهذا من مال أبي عبد الله عليه السلام(٤).

والسبب في كل هذا التأكيد في المسائل الاجتماعية يتجلى بقليل من التأمل، لأنّ عظمة الأُمّة وقدرتها وعزّتها لا يمكن تحقيقه إلاّ في ظل التفاهم والتعاون. فإذا لم يتمّ إصلاح ذات البين، ولم تطو الخلافات الصغيرة والمشاجرات، تنفذ جذور العداوة والبغضاء في القلوب تدريجاً، وتتحول الأُمّة القوية المتّحدة إلى جماعات متفرقة

(١) نهج البلاغة، الرسالة ٤٧؛ أصول الكافي، ج ٧، ص ٥١.
(٢-٤) الحديثان ١ و٢ من أصول الكافي، ج ٢، ص ٢٠٩؛ باب الإصلاح بين الناس.

متناحرة، وتضعف أمام الأعداء والحوادث، كما يحدق الخطر بالمسائل العبادية في مثل هذه الأُمّة من صلاة وصيام، وحتى بحيثية القرآن وسلامته وديمومته.

ولذلك فقد أوجبت الشريعة الإسلامية إصلاح ذات البين في بعض مراحله، وأجازت الإنفاق من بيت المال لتحقق هذا الأمر، وندبت إلى ذلك في مراحله الأُخرى التي لا تتعلق بمصير المسلمين مباشرة، وعدت ذلك مستحباً مؤكّداً....

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾

التّفسير

خمس صفات خاصّة بالمؤمنين

كان الكلام في الآية السابقة عن تقوى الله وطاعته وطاعة رسوله بعد المشاجرة اللفظية بين بعض المسلمين في شأن الغنائم.

وإكمالاً لهذا الموضوع فالآيات - محل البحث - تذكر صفات المؤمنين بحق في عبارات موجزة غزيرة المعنى.

فيشير الذكر الحكيم في هذه الآيات إلى خمس صفات بارزة في المؤمنين: ثلاث منها ذات جانب معنوي وروحاني وباطني، واثنتين منها لها جانب عملي وخارجي...

فالثلاث الأُولى عبارة عن «الإحساس بالمسؤولية» و«الإيمان» و«التوكل».

والاثنتان الأُخريان هما الارتباط بالله، والارتباط بخلق الله سبحانه.

فتقول الآيات أوّلاً: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

و«الوجل» حالة الخوف التي تنتاب الإنسان، وهو ناشئ عن أحد أمرين: فقد ينشأ عند إدراك المسؤولية واحتمال عدم القيام بالوظائف اللازمة التي ينبغي على الإنسان أداؤها بأكمل وجه امتثالاً لأمر الله تعالى.

وقد ينشأ عند إدراك عظمة مقام الله، والتوجه إلى وجوده المطلق الذي لا نهاية له، ومهابته التي لا حدّ لها.

وتوضيح ذلك: قد يتفق للإنسان أن يمضي لرؤية شخص عظيم هو - بحق - جدير بالعظمة من جميع الجوانب، فالإنسان الذي يمضي لرؤيته قد يقع تحت تأثير ذلك المقام وتلك العظمة، بحيث يحس بنوع من الرهبة في داخله ويضطرب قلبه حتى أنّه لو أراد الكلام لتلعثم، وقد ينسى ما أراد أن يقوله، حتى لو كان ذلك الشخص يحب هذا الإنسان ويحب الآخرين جميعاً ولم يصدر عنه ما يدعو إلى القلق.

فهذا الخوف والاضطراب أو المهابة مصدرها عظمة ذلك الشخص، يقول القرآن الكريم في هذا الصدد: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾(١).

كما نقرأ في آية أُخرى من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾(٢).

وهكذا فإن العلاقة قائمة بين العلم والخوف أيضاً، وبناءً على ذلك فمن الخطأ أن نعدّ أساس الخوف والخشية عدم أداء الوظائف المطلوبة فحسب.

ثمّ تبيّن الآية الصفة الثّانية للمؤمنين فتقول: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾.

إنّ النمو والتكامل من خصائص جميع الموجودات الحية، فالموجود الفاقد للنمو والتكامل إمّا أن يكون ميتاً أو في طريقه إلى الموت. والمؤمنون حقّاً لهم إيمان حيّ ينمو غرسه يوماً بعد يوم بسقيه من آيات الله، وتتفتح أزهاره وبراعمه، ويؤتي ثماره أكثر فأكثر، فهم ليسوا كالموتى من الجمود وعدم التحرك، ففي كل يوم جديد يكون لهم فكر جديد وتكون صفاتهم مشرقة جديدة. . .

والصفة الثالثة لهؤلاء المؤمنين هي أنّهم يتّكلون على الله فقط ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ فهم يعيشون سعة الأُفق وسلامة التفكير بحيث يرون ضعف جميع المخلوقات مهما كانت في الظاهر قوية ومقتدرة ولذلك يرفضون الخضوع والاعتماد على أي موجود غير الله تعالى، فمنه يقتبسون قوتهم ومنه يطلبون حاجاتهم.

ولا ينبغي الوقوع في المفهوم الخاطىء للتوكل حيث تصوّر البعض أنّ التوكل يعني عدم الأخذ بقانون العلية والابتعاد عن السعي والعمل، والصحيح أنّ مفهومه الحقيقي هو عدم التعلق والاعتماد بالقوى الظاهرية والاّ فإن الاستفادة من عالم الاسباب المسببات في الطبيعة هو عين التوكل لأنّ كل تغيّر لهذه الأسباب في الواقع الخارجي إنّما يحصل بإذن الله ومشيئته.

---

(١) سورة الحشر، الآية: ٢١.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٢٨.

وبعد أن ذكرت الآيات الصفات الروحانية للمؤمنين الحقيقيين تقول: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

فهؤلاء ينطلقون من الشعور بالمسؤولية وإدراك عمق الحقيقة الإلهيّة وإيمانهم العميق وتوكلهم التام لتقوية ارتباطهم بالخالق جلّ وعلا من موقع العمل والممارسة أيضاً، وتجلى ارتباطهم العملي بالله تعالى بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.

التعبير بـ ﴿يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ﴾ ليس إشارة الى ممارستهم الدائمة للصلاة فحسب، بل إنّهم يتحركون في هذا الاتجاه لتقوية دعائم الصلاة في المجتمع وفي كل مكان. وعبارة ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ تتضمن معنى واسعاً يستوعب المواهب المادية والمعنوية كافة، فهم ينفقون من جميع ما رزقهم الله تعالى من المال والعلم والجاه والمكانة الاجتماعية وأمثال ذلك.

وتتحرك «آخر آية» من الآيات مورد البحث لبيان مقام هؤلاء ومكانتهم عند الله تعالى وما ينتظرهم من الثواب العظيم، فتقول في البداية: ﴿أُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾.

ثم تذكر الآية ثلاثة أنواع من الثواب لهؤلاء: ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

وهذه الدّرجات مبهمة لم يعين مقدارها وميزانها، وهذا الإبهام يشير إلى أنّها درجات كريمة عالية.

وللمؤمنين إضافة لدرجاتهم رحمة من الله ﴿وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

والحق أنّنا - نحن المسلمين - الذين ندّعي الإسلام وقد نرى أنفسنا أُولي فضل على الإسلام والقرآن، نتهم القرآن والإسلام جهلاً بأنّهما سبب التأخر والانحطاط، وتُرى لو أنّنا طبقنا فقط مضامين هذه الآيات محل البحث على أنفسنا والتي تمثل صفات المؤمنين بحق، ولم نتكل على هذا وذاك، وأن نطوي كل يوم مرحلة جديدة من الإيمان والمعرفة، وأن نحس دائماً بالمسؤولية لتقوية علاقتنا بالله وبعباده فننفق ما رزقنا الله في سبيل تقدم المجتمع، أنكون بمثل ما نحن عليه اليوم؟!

وينبغي ذكر هذا الموضوع أيضاً، وهو أنّ الإيمان ذو مراحل ودرجات، فقد يكون ضعيفاً في بعض مراحله حتى أنّه لا يبدو منه أي شيء عملي مؤثر، أو يكون ملوّثاً بكثير من السيّئات. إلاّ أنّ الإيمان المتين الراسخ من المحال أن يكون غير بناءً أو غير مؤثر وما يراه البعض من أنّ العمل ليس جزءاً من الإيمان، فلاقتصارهم على أدنى مراحل الإيمان.

﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦﴾

التّفسير

قرأنا في الآية الأُولى من هذه السورة أنّ بعض المسلمين من جديدي العهد بالإسلام، كانوا غير راضين عن كيفية تقسيم غنائم معركة بدر (إلى حدٍّ ما).

ففي الآيتين محل البحث يقول الله سبحانه لأُولئك: هذه ليست أوّل مرّة تكرهون شيئاً مع أنّه فيه صلاحكم كما كان الأمر في أساس غزوة بدر وكانوا غير راضين بادىء الأمر، إلاّ أنّهم رأوا كيف تمت هذه المعركة لصالح الإسلام والمسلمين.

فإذن لا ينبغي أن تقوّم أحكام الله بالنظرات الضيقة المحدودة، بل ينبغي الانصياع والتسليم لها ليستفاد من نتائجها النهائية.

تقول الآية الأُولى من الآيتين محل البحث: إنّ عدم رضا بعض المسلمين في شأن تقسيم الغنائم يشبه عملية إخراجك من مكّة وعدم رضى بعض المؤمنين بذلك: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾.

والتعبير بالحق إشارة إلى أنّ أمر الخروج كان طبقاً لوحي إلهي ودستور سماوي، وكانت نتيجته الوصول إلى الحق واستقرار المجتمع الإسلامي، إلاّ أنّ هؤلاء الأفراد لا يرون إلاّ ظواهر الأمور، ولهذا: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ﴾.

إلاّ أنّ الحوادث التالية كشفت لهم عن خطئهم في حساباتهم، وأنّ خوفهم وقلقهم دونما أساس، وأنّ هذه المعركة (معركة بدر) حققت للمسلمين انتصارات مشرقة، فمع رؤية مثل هذه النتائج علام يجادلون في الحق وتمتد ألسنتهم بالاعتراض؟!

والتعبير بـ﴿فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يكشف ضمناً - **أوّلاً** - أنّ هذا التشاجر أو المحاورة لم تكن عن نفاق أو عدم إيمان، بل عن ضعف الإيمان وعدم امتلاك النظرة الثاقبة في المسائل الإسلامية.

وثانياً: إنّ الذين جادلوا في شأن الغنائم كانوا قلّة وفريقاً من المؤمنين، غير أنّ بقيتهم وغالبيتهم أذعنوا لأمر رسول الله واستجابوا له.

﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ
ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ
ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٨﴾

أوّل مواجهة مسلحة بين الإسلام والكفر

لما كانت الآيات السابقة قد أشارت إلى معركة بدر، فإنّ الآيتين أعلاه وما بعدهما من الآيات قد أماطت اللثام عن جوانب مهمّة وحساسة في تلك المعركة ليستلهم المسلمون من هذه الآيات الحقائق التي مرّت بهم في الماضي القريب، ويجعلوها أمام أعينهم للعبرة والاتعاظ.

ولإيضاح الآيتين محل البحث والآيات التّالية، من المناسب أن نلقي الضوء على ما جرى في هذه المعركة الحاسمة، وكيف كانت هذه المواجهة المسلحة الأُولى وهذا الجهاد الإسلامي بوجه العدوّ اللدود، لتتجلى لنا دقائق الأُمور ولطائف ما أشارت إليه الآيات الكريمة في شأن معركة بدر الكبرى.

بدأت معركة بدر - طبقاً لما يقوله المؤرخون والمحدّثون والمفسّرون - حين كان أبو سفيان - كبير مكّة - عائداً بقافلة تجارية مهمّة مؤلفة من أربعين شخصاً، وتحوي على ثروة تجارية تقدّر بخمسين ألف دينار من الشام نحو المدينة.

فأمر النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أصحابه أن يتعبأوا ويتهيأوا لمواجهة هذه القافلة الكبيرة التي تحمل جلّ رأس مال العدوّ معها، وبمصادرة أموال القافلة يتمّ توجيه ضربة اقتصادية نحو العدوّ وتعقبها ضربة عسكرية قاصمة.

وكان للنّبي وأصحابه الحق في مثل هذه الحملة أو الهجوم، لأنّه - أوّلاً - عندما هاجر المسلمون من مكّة نحو المدينة استولى أهل مكّة على كثير من أموالهم، ونزلت بهم خسارة كبيرة. فكان لهم الحق أن يجبروا مثل هذه الخسارة.

ومضافاً الى ذلك برهن أهل مكّة طيلة الثلاثة عشر عاماً التي أقام النّبي وأصحابه بمكّة خلالها أنّهم لا يألون جهداً في إيذاء النّبي وأصحابه، بل أرادوا به الوقيعة والمكيدة، فإنّ عدوّاً كهذا لن يسكت عن النّبي ودعوته بمجرّد هجرته إلى المدينة، ومن المسلم به أنّه سيعبئ قواه في المستقبل لمواجهة النّبي والإيقاع به.

إذن فالعقل والمنطق يوجبان أن يسارع المسلمون بمبادرة عاجلة لمصادرة أموال أهل مكّة لتدمير دعامتهم الاقتصادية، وليوفروا على أنفسهم إمكانية التهيؤ العسكري والاقتصادي لمواجهة العدو مستقبلاً.

وهذه المبادرة كانت ولا تزال في جميع الخطط العسكرية قديمها وحديثها، وأمّا من يرى أنّ توجّه النّبي نحو قافلة أبي سفيان - ودون الأخذ بنظر الاعتبار هذه الجهات المشار إليها آنفاً - نوعاً من الإغارة، فإمّا أن يكون جاهلاً لا يعرف جذور المسائل التأريخية في الإسلام، أو أنّه مغرض يريد تحوير الوقائع والثوابت التاريخية.

وعلى كل حال، فإنّ أبا سفيان عرف عن طريق أتباعه وأصدقائه تصميم النّبي على مواجهة قافلته، هذا من جهة، كما أنّ القافلة حينما كانت متجهة نحو الشام للإتيان بمال التجارة تعرضت لتحركات من هذا القبيل. لهذا فإنّ أبا سفيان أرسل من يمضي إلى مكّة بسرعة ليخبر أهلها بما سيؤول إليه أمر القافلة.

فمضى رسول أبي سفيان بحالة مثيرة كما أوصاه أبو سفيان، إذ خرم أنف بعيره وبتر أُذنيه والدماء تسيل على وجه البعير لهيجانه، وقد شقّ ثوبه - أو طمريه - وركب بعيره على خلاف ما يركب الناس «إذ ظهره كان إلى رقبة البعير ووجهه إلى عجزه» ليلفت الناس إليه من كل مكان. فلما دخل مكّة أخذ يصرخ قائلاً: أيّها الناس الأعزة، أدركوا قافلتكم، أدركوا قافلتكم وأسرعوا وتعجلوا إليها، وإن كنت لا أعتقد أنّكم ستدركونها في الوقت المناسب، فإنّ محمّداً ورجالاً مارقين من دينكم قد خرجوا من المدينة ليتعرضوا لقافلتكم.

وكانت عاتكة بنت عبد المطلب عمّة النّبي ﷺ آنئذ قد رأت رؤيا موحشة عجيبة، وقد تناقلت الأفواه رؤياها فازداد الناس هيجاناً، فقد رأت قبل ثلاثة أيّام من مجيء رسول أبي سفيان إلى مكّة، أنّ شخصاً يصرخ: أيّها الناس تعجّلوا إلى قتلاكم، ثمّ صعد هذا المنادي إلى أعلى جبل أبي قبيس وأخذ حجراً كبيراً فرماه فتلاشى الحجر في الهواء، ولم يبق بيت في مكّة لقريش إلاّ نزل فيه منه شيء، كما أن وادي مكّة يجري دماً عبيطاً.

فلمّا استيقظت فزعة مرعوبة من نومها وقصّت رؤياها على أخيها العباس، ذهل الناس لهول هذه الرؤيا.

لكن أبا جهل لما بلغه ذلك قال: ما رأت عاتكة رؤيا، هذه نبيّة ثانية في بني

عبدالمطلب، وباللات والعزّى لننظرنّ ثلاثة أيّام، فإن كان ما رأت حقّاً فهو كما رأت، وإن كان غير ذلك لنكتبنّ بيننا كتاباً: أنّه ما من أهل بيت من العرب أكذب رجالاً ونساءً من بني هاشم.

ولكن لم يكد يمضي اليوم الثّالث حتى كان ما كان من أمر ذلك الرجل الذي هزّ مكّة وأهلها.

ولما كان أكثر أهل مكّة شركاء في هذه القافلة فقد تعبؤوا بسرعة وتحركوا نحو القافلة بحوالي ٩٥٠ مقاتلاً و٧٠٠ بعير ومئة فرس، وكان أبو جهل يقود هذا الجيش. ومن جهة أُخرى ولكي يسلم أبو سفيان من تعرض النّبي وأصحابه لقافلته، فقد غيّر مسيره واتجه نحو مكّة بسرعة.

وكان النّبي ﷺ قد قارب بدراً في نحو من ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً كانوا يمثلون رجال الإسلام آنئذ «وبدر منطقة ما بين مكّة والمدينة» وقد بلغه خبر تهيؤ أبي جهل ومن معه لمواجهتِه.

فتشاور النّبي ﷺ مع أصحابه: هل يلحقون القافلة ويصادرون أموالها، أو أنّ عليهم أن يتهيأوا لمواجهة جيش العدوّ؟ فقالت طائفة من أصحابه: نقاتل عدوّنا، وكرهت طائفة أُخرى ذلك وقالت: إنّما خرجنا لمصادرة أموال القافلة.

ودليلها معها، إذ إنّها لم تخرج إلاّ لهذا السبب (من المدينة) ولم يكن النّبي وأصحابه عازمين على مواجهة جيش أبي جهل ولم يتعبأوا لذلك، في حين أنّ أبا جهل قد تعبأ لهم ويريد قتالهم.

وقد ازداد هذا التردد بين الطائفتين، خاصّة بعد أن عرف أصحاب النّبي أنّ جيش العدوّ ثلاثة أضعافهم وتجهيزاته أضعاف تجهيزاتهم، إلاّ أنّ النّبي بالرغم من كل ذلك قبل بالقول الأوّل «أي قتال العدوّ» فلما التقى الجيشان لم يصدّق العدوّ أنّ المسلمين قد وردوا الميدان بهذه القلّة، بل ظن العدوّ أنّهم مختبئون وأنّهم سيحدقون به عند المواجهة، لذلك فقد أرسل شخصاً ليرصد الأُمور فرجع وأخبرهم بأنّ المسلمين ليسوا أكثر ممّا رأوهم.

ومن جهة أُخرى - كما أشرنا آنفاً - فإنّ طائفة من المسلمين كانت في قلق واضطراب وكانت تصرّ على عدم مواجهة هذا الجيش اللجب، إذ لا موازنة بين أصحاب النّبي وأصحاب أبي جهل! لكن النّبي ﷺ طمأنهم بوعد الله وقال: «إنّ الله

وعدني إحدى الطائفتين ولن يخلف الله الميعاد» قافلة قريش أو جيش قريش، ولن يخلف الله وعده، فوالله لكأنّي أرى مصرع أبي جهل وجماعة من أصحابه بعينيّ.

ثمّ أمر النّبي أن ينزل أصحابه إلى بئر بدر «وبدر في الأصل اسم رجل من قبيلة جُهينة حفر بئراً في ذلك الموضوع فسُميّت باسمه، وسمّيت الأرض بأرض بدر أيضاً».

وفي هذه الأثناء استطاع أبو سفيان أن يفرّ بقافلته من الخطر المحدق به، واتّجه نحو مكّة عن طريق ساحل البحر الأحمر غير المطروق، وأرسل رسولاً إلى قريش: إنّ الله نجّى قافلتكم، ولا أظن أنّ مواجهة محمّد في هذا الظرف مناسبة، لأنّ له أعداءً يكفونكم أمره، إلاّ أنّ أبا جهل لم يرض باقتراح أبي سفيان وأقسم باللات والعزّى أنّه سيواجه محمّداً، بل سيدخل المدينة لتعقيب أصحابه أو سيأسرهم جميعاً ويمضي بهم لمكّة، حتى يبلغ خبر هذا الانتصار آذان العرب.

وأخيراً ورد جيش قريش أرض بدر وأرسلوا غلمانهم للاستقاء من ماء بدر، فأسرهم أصحاب النّبي وأخذوهم للتحقيق إلى النّبي ﷺ فسألهم النّبي: من أنتم؟ فقالوا: يا محمّد نحن عبيد قريش، قال: كم القوم؟! فقالوا: لا علم لنا بعددهم، قال: كم ينحرون في كل يوم جزوراً؟ فقالوا: تسعة إلى عشرة.

فقال النّبي ﷺ: القوم تسعمائة إلى ألف «كل مئة يأكلون بعيراً واحداً».

كان الجوّ مكفهراً بالرعب والوحشة، إذ كان جيش قريش معبّأ مدججاً بالسلاح، ولديه المؤونة والعُدَدِ، حتى النساء اللائي ينشدن الأشعار والمغنيات اللائي يثرن الحماسة، وكان جيش أبي جهل يرى نفسه أمام طائفة صغيرة أو قليلة من الناس، ولا يصدّق أنّهم سينزلون الميدان.

فلمّا رأى النّبي ﷺ أن أصحابه قلقون وربّما لا ينامون الليل من الخوف فيواجهون العدو غداً بمعنويات مهزورة قال لهم كما وعده الله: لا تحزنوا فإن كان عددكم قليلاً فإنّ الله سيمدكم بالملائكة، وسرّى عن قلوبهم حتى ناموا ليلتهم مطمئنين راجين النصر على عدوّهم.

المشكلة الأُخرى التي كان أصحاب النّبي يواجهونها، هي أنّ أرض بدر كانت غير صالحة للنزال لما فيها من الرمال، فنزل المطر تلك الليلة، فأفاد منه أصحاب النّبي فاغتسلوا منه وتوضأوا وأصبحت الأرض صُلبة صالحة للنزال، العجيب في ذلك أنّ المطر كان في جهة العدوّ شديداً بحيث أربكهم وأزعجهم.

والخبر الجديد الذي حصل عليه أصحاب النّبي من جواسيسهم الذين تحسسوا ليلاً حالة العدو أنّ جيش قريش مع كل تلك الإمكانات العسكرية في حالة من الرعب بمكانة لا توصف، فكأنّ الله أنزل عليها جيشاً من الرعب والوحشة.

وعند الصباح اصطفّ جيش المسلمين الصغير بمعنويات عالية ليواجهوا عدوّهم، ولكن النّبي ﷺ - إتماماً للحجّة ولئلا يبقى مجال للتذرع بالذرائع الواهية - أرسل إلى قريش ممثلاً عنه ليقول لهم: إنّ النّبي لا يرغب في قتالكم ولا يحبّ أن تكونوا أوّل جماعة تحاربه، فوافق بعض قادة قريش على هذا الاقتراح ورغبوا في الصلح، إلاّ أنّ أبا جهل امتنع وأبى بشدّة.

وأخيراً اشتعلت نار الحرب، فالتقى أبطال الإسلام بجيش الشرك والكفر، ووقف حمزة عمّ النّبي وعلي ابن عمّ النّبي الذي كان أصغر المقاتلين سنّاً وجهاً لوجه مع صناديد قريش وقتلوا من بارزهم فانهار ما تبقى من معنويات العدوّ، فأصدر أبو جهل أمراً عاماً بالحملة، وكان قد أمر بقتل أصحاب النّبي من أهل المدينة «الأنصار» وأن يؤسر المهاجرون من أهل مكّة. فقال النّبي لأصحابه: «غضّوا أبصاركم وعضوا على نواجذكم ولا تستلوا سيفاً حتى آذن لكم».

ثمّ مدّ النّبي ﷺ يديه إلى الدعاء، ورفع بهما نحو السماء فقال: «يا ربّ إن تهلك هذه العصابة لم تعبد وإن شئت أن لا تعبد لا تعبد...».

فهبت ريح عاصف على العدوّ، وكان المسلمون يحملون على عدوّهم والرياح تهب من خلفهم بوجه العدو، وأثبت المسلمون جدارة فائقة وصمدوا للقتال حتى قتلوا من المشركين سبعين «وأبو جهل من القتلى» وأسروا سبعين، وانهزم الجمع وولّوا الدُّبُر، ولم يُقتل من المسلمين إلاّ نفر قليل، وكانت هذه المعركة أوّل مواجهة مسلحة بين المسلمين وعدوّهم من قريش، وانتهت بالنصر الساحق للمسلمين على عدوّهم(١).

التّفسير

والآن وبعد أن عرفنا باختصار كيف كانت غزوة بدر، نعود ثانية إلى تفسير الآيتين.

في الآية الأُولى - من الآي محل البحث - إشارة إلى وعد الله بالنصر في معركة بدر إجمالاً، إذ تقول الآية: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾.

(١) لمزيد من الإيضاح يراجع تفسير نور الثقلين، ج٢، ص ١٢١ إلى ١٣٦ ومجمع البيان ج ٤، ص ٥٢١، ٥٢٣، وما ذكرناه بتصرف واختصار.

لكنكم لخوفكم من الخسائر وأخطار وبلايا الحرب لم تكونوا راغبين فيها ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾.

وقد جاء في بعض الرّوايات الإسلامية أن النّبي ﷺ قال لهم: «إحدى الطائفتين لكم، إمّا العير وإمّا النفير»(١).

وكلمة العير تعني القافلة، والنفير يعني الجيش.

إلاّ أنّه - كما يلاحظ في الآية الكريمة، أنّ التعبير جاء بذات الشوكة مكان الجيش والنفير، وبغير ذات الشوكة مكان القافلة أو العير.

وهذا التعبير يحمل في نفسه معنى لطيفاً، لأن الشوكة ترمز إلى القدرة وتعني الشدّة، وأصلها مأخوذ من الشوك، ثمّ استعملت هذه الكلمة «الشوكة» في نصول الرماح، ثمّ أطلق هذا الاستعمال توسعاً على كل نوع من الأسلحة، ولما كان السلاح يمثل القوّة والقدرة، والشدّة فقد عُبر عنه بالشوكة.

فبناءً على هذا فإنّ ذات الشوكة تعني الجماعة المسلحة، وغير ذات الشوكة تعني الجماعة غير المسلحة، ولو اتفق أن يوجد فيها رجال مسلحون فهم معدودون لا يكترث بهم. أي إنّ فيكم من يرغب في مواجهة العدو مواجهة غير مسلحة، وذلك بمصادرة أموال تجارته، وذلك ابتغاء الراحة أو حبّاً منه للمنافع المادية، في حين أن الحرب أثبتت بعد تمامها أنّ الصلاح يكمن في تحطيم قوى العدو العسكرية، لتكون الطريق لاحبةً لانتصارات كبيرة في المستقبل، ولهذا فإنّ الآية تعقّب بالقول: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(٢).

فعلى هذا، كانت واقعة بدر درساً كبيراً للمسلمين للإفادة منه في الحوادث الآتية، ويؤكّد لهم أن يتدبروا عواقب الأمور، ولا يكونوا سطحيين يأخذون بالمصالح الآنية، وبالرغم من أنّ بُعد النظر يقترن بالمصاعب عادة، وقصر النظر على العكس من ذلك يقترن بالمنافع المادية والراحة المؤقتة، إلاّ أنّ النصر في الحالة الأُولى يكون شاملاً ومتجذّراً، أمّا في الحالة الثّانية فهو انتصار سطحي مؤقت.

ولم يكن هذا درساً لمسلمي ذلك اليوم فحسب، بل ينبغي لمسلمي اليوم أن يستلهموا

---

(١) بحار الأنوار، ج ١٩، ص ٢١٤؛ وتفسير مجمع البيان، ذيل الآيات مورد البحث.

(٢) الدابر بمعنى ذيل الشيء وعقبه، فبناءً على هذا يكون معنى ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ هو استئصال جذورهم.

من ذلك التعليم السماوي، فعليهم ألاّ يغضوا أبصارهم عن المبادىء الأساسية بسبب المشاكل والأتعاب ويستبدلوها بمناهج غير أساسية قليلة الأتعاب.

وفي آخر آية يماط اللثام عن الأمر بصورة أجلى، إذ تقول الآية الكريمة: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

تُرى هل الآية هذه تأكيد لما ورد في الآية السابقة، كما يبدو لأوّل وهلة، أم هو موضوع جديد تتضمنه الآية؟!

قال بعض المفسّرين، كالفخر الرّازي في تفسيره الكبير، وصاحب المنار: إنّ الحقَّ في الآية المتقدمة إشارةٌ لانتصار المسلمين في معركة بدر، وإنّ الحقّ في الآية محل البحث، «الثّانية» إشارة لانتصار الإسلام والقرآن الذي كان نتيجة الانتصار العسكري في معركة بدر، وهكذا فإنّ الانتصار العسكري - في تلك الظروف الخاصّة - مقدمة لإنتصار الاسلام والمسلمين.

كما يحتمل أن الآية السابقة تشير إلى إرادة الله «الإرادة التشريعية» التي كانت جلية في أوامر النّبي ﷺ، والآية الثّانية تشير إلى نتيجة هذا الحكم والأمر (فلاحظوا بدقة!)...

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾﴾

التّفسير

دروس مفيدة من ساحة المعركة

إنّ هذه الآيات تتحدث عن اللحظات الحساسة من واقعة بدر، والألطاف الإلهيّة الكثيرة التي شملت المسلمين لتثير في نفوسهم الإحساس بالطاعة والشكر، ولتعبيد الدرب نحو انتصارات المستقبل.

وتشير ابتداءً لإمداد الملائكة فتقول: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾.

جاء في بعض الرّوايات أنّ النّبي ﷺ كان يستغيث ويدعو ربّه مع بقية المسلمين، وقد رفع يديه نحو السماء قائلاً: «اللّهم انجز لي ما وعدتني، اللّهم إنّ تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض»[1].

وعند ذلك ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾.

وكلمة ﴿مُرْدِفِينَ﴾ من (الإرداف) بمعنى اتّخاذ محل خلف الشيء، فيكون مفهومها أنّ الملائكة كانت تتابع بعضها بعضاً في النّزول لنصرة المسلمين.

واحتمل معنى آخر في الآية، وهو أنّ مجموعة الألف من الملائكة كانت تتبعها مجموعات أُخرى، ليتطابق هذا المعنى والآية (١٢٤) من سورة آل عمران، والتي تقول عن لسان النّبي ﷺ: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ﴾.

إلاّ أنّ الظاهر أنّ عدد الملائكة في بدر هو الألف، وكلمة مردفين صفة هذا الألف، وآية سورة آل عمران كانت وعداً للمسلمين في إنزال ملائكة أكثر لنصرة المسلمين إذا ما اقتضى الأمر.

ولئلا يعتقد بعضٌ بأنّ النصر كان بسبب نصرة الملائكة فحسب، فإنّ الآية تقول: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. لأنّ الله عزيز ومقتدر لا يستطيع أحد الوقوف مقابل إرادته، وحكيم لا يُنزل نصرته إلاّ للأفراد الصالحين والمستحقين لذلك.

هل قاتلت الملائكة؟

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٥٢٥، ذيل الآية مورد البحث.

لقد جرى البحث في هذه المسألة كثيراً بين المفسّرين، فبعضهم يرى أنّ الملائكة دخلت ساحة القتال وهاجمت الأعداء بأسلحتها الخاصّة، وقتلت بعضهم. ونقلت بعض الرّوايات في تأييد ذلك.

إلاّ أنّ القرائن تؤيد الرأي الذي يقول: إنّ الملائكة نزلت لتقوية قلوب المؤمنين يزداد عزمهم، وهذا الرأي أقرب إلى الواقع لعدّة أدلة:

أوّلاً: لقد قرأنا في الآية قوله تعالى: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ﴾ . فإذا ما علم المسلمون بهذا المدد فإنّهم يقاتلون بصورة أفضل، لا أنّ الملائكة شاركت في الحرب.

ثانياً: إذا كانت الملائكة هي التي قتلت جنود الأعداء، فأيّة فضيلة للمجاهدين في معركة بدر وما ورد عن مقامهم ومنزلتهم من روايات كثيرة؟

ثالثاً: كان عدد المقتولين في بدر هو (٧٠ نفراً) وقد كان الكثير منهم قد سقط بسيف علي عليه السلام، والقسم الآخر بيد المقاتلين الآخرين، وهؤلاء معروفون بأسمائهم في التاريخ، فبناءً على ذلك - من الذي - بقي لتقتله الملائكة؟!

ثمّ تذكر الآية النعمة الثّانية التي اكتنفت المؤمنين فتقول: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾.

و(يغشى) من مادة (الغشيان) بمعنى تغطية الشيء وإحاطته. فكأنّ النوم كالغطاء الذي وُضعَ عليهم فغطّاهم.

و(النعاس) يطلق على بداية النوم، أو النوم القليل أو الخفيف الناعم ولعلها إشارة إلى أنّه بالرغم من هدوئكم النفسي لم يأتكم نوم عميق يمكّن الأعداء من استغلاله والهجوم عليكم. وهكذا استفاد المسلمون من هذه النعمة العظيمة في تلك الليلة.

والرحمة الثّالثة التي وصلتكم هي: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾.

وهذا الرّجز قد يكون وساوس الشيطان، أو رجزاً بدنياً كجنابة بعضهم، أو الأمرين معاً، وعلى أية حال، فإنّ الماء ملأ الوديان من أطراف بدر بعد أن استولى الأعداء على آبار بدر وكان المسلمون بحاجة ماسة للغسل ورفع العطش، فإذا بهذا الماء قد ذهب بكل تلك الأرجاس.

ثمّ إنّ الله تعالى أراد بذلك تقوية معنويات المسلمين وكذلك تثبيت الرمال المتحركة تحت أقدامهم بواسطة المطر: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾... ويمكن أن

يكون المراد من تثبيت الأقدام هو رفع المعنويات وزيادة الثبات والاستقامة ببركة تلك النعمة، أو إشارة إلى هذين الأمرين.

والنعمة الأُخرى التي أنعمها الله على المجاهدين في بدر، هي الرعب الذي أصاب به الله قلوب أعدائهم، فزلزل معنوياتهم بشدّة، فيقول تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾.

وإنّه لمن العجب والغرابة أن ينهار جيش قريش القوي أمام جيش المسلمين القليل، وأن تذهب معنوياتهم - كما ينقل التاريخ - بصورة يخاف معها الكثير منهم من منازلة المسلمين، وحتى أنّهم كانوا يفكرون بأنّ المسلمين ليسوا أشخاصاً مألوفين، وكانوا يقولون بأنّ المسلمين قد جاؤوكم من قرب يثرب (المدينة) بهدايا يحملونها على إبلهم هي الموت.

ولا شك أنّ هذا الرعب الذي أصاب قلوب المشركين، والذي كان من عوامل النصر، لم يكن جزافاً، فلقد أثبت المسلمون شجاعتهم وأقاموا صلاة الجماعة، وكانت شعاراتهم قوية، فإظهار المؤمنين الصادقين وفاءهم وخطبة بعضهم مثل سعد بن معاذ نيابة عن الأنصار أمام النّبي ﷺ قائلاً: «بأبي أنت وأمّي، يا رسول الله ﷺ إنّنا قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أنّ ما جئت به حق من عند الله فمرنا بما شئت وخذ من أموالنا ما شئت، واترك منه ما شئت والذي أخذت منه أحبّ اليّ من الذي تركت منه، والله لو أمرتنا أن نخوض هذا البحر لخضناه معك... إنّنا لنرجو أن يقرّ الله عزّوجلّ عينيك بنا...».

مثل هذا الحديث سرعان ما انتشر بين الأعداء والأصدقاء، أضف إلى ذلك ما رآه المشركون من ثبات راسخ عند المسلمين يوم كانوا في مكّة رجالا ونساءً.

اجتمعت كل هذه الأُمور لترسم صورة الخوف عند المشركين.

ثمّ الريح العاتية التي كانت تهب على المشركين والمطر الشديد عليهم والخواطر المخفية لرؤيا (عاتكة) في مكّة، وغيرها من العوامل التي كانت تبعث فيهم الخوف والهلع الشديد.

ثمّ إنّ القرآن يذكّر المسلمين بالأمر الذي أصدره النّبي ﷺ للمسلمين بأنّ عليهم اجتناب الضرب غير المؤثر في المشركين حال القتال لئلا تضيع قوتهم فيه، بل عليهم توجيه ضربات مؤثرة وقاطعة ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾.

و(البنان) جمع (البنانة) بمعنى رؤوس أصابع الأيدي أو الأرجل، أو الأصابع نفسها، وفي هذه الآية يمكن أن تكون كناية عن الأيدي والأرجل أو بالمعنى الأصلي نفسه، فإنّ قطع الأصابع من الأيدي يمنع من حمل السلاح، وقطعها من الأرجل يمنع الحركة، ويحتمل أن يكون المعنى هو إذا كان العدو مترجلاً، فيجب أن تكون الأهداف رؤوسهم، وإذ كان راكباً فالأهداف أيديهم وأرجلهم.

كما أنّ بعضاً يرى أنّ هذه الجملة هي خطاب للملائكة، إلاّ أنّ القرائن تدل على أنّ المخاطبين هم المسلمون، وإذا كان الملائكة هم المخاطبون فيها فيمكن أن يكون الهدف من الضرب على الرؤوس والأيدي والأرجل، هو إيجاد الرعب فيهم لترتبك أيديهم وأرجلهم فتسقط وتنحني رؤوسهم. (وبالطبع فإنّ هذا التّفسير يخالف الظاهر من العبارة، ويجب إثباته بالقرائن وقد تحدثنا سابقاً في مسألة عدم قتال الملائكة).

وبعد كل تلك الأحاديث، ولكيلا يقول شخص بأنّ هذه الأوامر الصادقة تخالف الرحمة والشفقة وأخلاق الرجولة، فإنّ الآية تقول: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

و﴿شَآقُّوا۟﴾ من مادة (الشقاق) وهي في الأصل بمعنى الانفطار والإنفصال، وبما أنّ المخالف أو العدو ويبتعد عن الآخرين فقد سمي عمله شقاقاً: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

ثمّ يؤكّد هذا الموضوع ويقول: ذوقوا العذاب الدنيوي من القتل في ميدان الحرب والأسر والهزيمة السافرة، وعلاوة على ذلك انتظروا عذاب الآخرة أيضاً: ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾
وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ
بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ
مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾﴾

التفسير

الفرار من الجهاد ممنوع!

كما ذكرنا في تفسير الآيات السابقة، فإنّ الحديث عن معركة بدر وألطاف الله الكثيرة على المسلمين الأوائل كان من أجل أن يتّخذ منه المسلمون العبرة والدرس في المستقبل، لذلك فإنّ هذه الآيات توجّه خطابها للمؤمنين وتأمرهم أمراً عاماً بالقتال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾.

و﴿لَقِيتُمُ﴾ من مادة (اللقاء) بمعنى الاجتماع والمواجهة، وتأتي في أكثر الأحيان بمعنى المواجهة في ميدان الحرب.

و(الزّحف) في الأصل بمعنى الحركة إلى أمر ما بحيث تسحب الأقدام على الأرض كحركة الطفل قبل قدرته على المشي، أو الإبل المرهقة التي تخطّ أقدامها على الأرض أثناء سيرها، ويطلق على الجيش الجرار الذي يشاهد من بعيد وكأنّه يحفر الأرض أثناء مسيره.

واستخدام كلمة (زحف) - في الآية آنفاً - تشير إلى أنّه بالرغم من أنّ عدوكم قوي وكثير، وأنتم قليلون، فلا ينبغي لكم الفرار من ساحة الحرب، وكما كان عدوكم كثيراً في ميدان بدر فثبتّم وانتصرتم.

فالفرار من الحرب يعدّ في الإسلام من كبائر الذنوب، إلاّ أنّ ذلك مرتبط - كما تبيّن بعض الآيات - بكون الأعداء ضِعفي عدد المسلمين، وسنبحث هذا الأمر بعون الله في الآيتين (٦٥) و(٦٦) من هذه السورة. ولذلك تذكر الآية بعدها جزاء من يفر من ميدان الحرب مع الإشارة لمن يستثنون منهم فتقول: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

وكما نرى فقد استثنت الآية صورتين من مسألة الفرار، ظاهرهما أنّهما من صور الفرار، غير أنّهما في الحقيقة والواقع صورتان للقتال والجهاد.

الصورة الأُولى: عُبّر عنها بـ﴿مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾ و«متحرف» من مادة (التحرّف) أي الابتعاد جانباً من الوسط نحو الأطراف والجوانب، والمقصود بهذه الجملة هو أنّ المقاتلين يقومون بتكتيك قتالي إزاء الأعداء، فيفرون من أمامهم نحو الأطراف ليلحقهم الأعداء: ثمّ يغافلونهم في توجيه ضربة قوية إليهم واستخدام فن الهجوم والانسحاب

المتابع وكما يقول العرب: (الحرب كرّ وفرّ)(١).

الصورة الثّانية: أن يرى المقاتل نفسه وحيداً في ساحة القتال، فينسحب للالتحاق بإخوانه المقاتلين وليهجم معهم من جديد على الأعداء.

وعلى كل حال، فلا ينبغي تفسير هذا التحريم بشكل جافّ يتنافى وأساليب الحروب وخدعها، والتي هي أساس كثير من الانتصارات.

وتختتم الآية محل البحث بالقول: إنّ جزاء من يفرّ مضافاً إلى استحقاقه لغضب الله فإنّ مصيره إلى النّار: ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

والفعل «باء» مشتق من «البواء» ومعناه الرجوع واتّخاذ المنزل، جذره في الأصل يعني تصفية محل ما وتسطيحه، وحيث إنّ الإنسان إذا نزل في محل عدّله وسطّحه، فقد جاءت هذه الكلمة هنا بهذا المعنى، وفي الآية إشارة إلى أنّ غضب الله مستمر ودائم عليهم، فكأنّهم قد اتّخذوا منزلاً عند غضب الله.

وكلمة «المأوى» في الأصل معناها «الملجأ» وما نقرؤه في الآية، محل البحث ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ﴾ فهو إشارة إلى أنّ الفارين يطلبون ملجأ ومأوى من فرارهم لينقذوا أنفسهم من الهلكة، إلاّ أنّ ما يحصل هو خلاف ما يطلبون، إذ ستكون جهنم مأواهم، وليس ذلك في العالم الآخر فحسب، بل هو في هذا العالم إذ سيحترقون في جهنم الذلة والانكسار والضياع.

ولذا فقد جاء في «عيون الأخبار» عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام في جواب أحد أصحابه حين سأله عن فلسفة تحريم الفرار من الجهاد فقال: «وحرّم الله الفرار من الزحف لما فيه من الوهن في الدين، والاستخفاف بالرسل والأئمّة العادلة عليهم السلام، وترك نصرتهم على الأعداء، والعقوبة على إنكار ما دعوا إليه من الإقرار بالرّبوبية وإظهار العدل وترك الجور وإماتة الفساد، لما في ذلك من جرأة العدوّ على المسلمين، وما يكون من السبي والقتل وإبطال دين الله عزّ وجلّ وغيره من الفساد»(٢).

ومن ضمن الامتيازات الكثيرة التي كانت عند الإمام علي عليه السلام، وربّما يشير إلى نفسه أحياناً ليكون نبراساً للآخرين قوله: «إنّي لم أفر من الزحف قطّ، ولم يبارزني أحد إلاّ سقيت الأرض من دمه»(٣).

---

(١) جواهر الكلام، ج ٢١، ص ١٨٩؛ منتهى الطلب، ج ٢، ص ٩٤٤.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ١٣٨؛ ووسائل الشيعة، ج ١٥، ص ٨٧.

(٣) نور الثقلين، ج ٢، ص ١٣٩.

والعجيب أنّ بعض المفسّرين من أهل السنّة يصرّ على أنّ حكم الآية السابقة يختص بمعركة بدر، وأنّ التهديد والوعيد من الفرار من الجهاد يتعلق بالمقاتلين في بدر فحسب، مع أنّه لا يوجد دليل في الآية على هذا التخصيص، بل لها مفهوم عام يشمل كل المقاتلين والمجاهدين.

وفي الرّوايات والآيات كثير من القرائن ما يؤيد هذا المعنى «ولهذا الحكم شروط طبعاً سنتناولها في الآيات المقبلة من هذه السورة إن شاء الله».

ولئلا يصاب المسلمون بالغرور في انتصارهم، ولئلا يعتمدوا على قواهم الجسميّة فحسب، وليذكروا الله في قلوبهم دائماً، وليتعلقوا به طلباً لألطافه، فإنّ الآية التّالية تقول: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ﴾.

لقد ورد في الرّوايات والتفاسير أنّ النّبي ﷺ قال لعلي يوم بدر: أعطني حفنة من تراب الأرض وحصاها، فناوله علي ذلك، فرمى النّبي جهة المشركين بذلك التراب وقال: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ﴾(١).

قالوا: كان لهذا الفعل أثر معجز إذ وقع ذلك التراب على وجوه المشركين وعيونهم فملأهم رعباً.

لا شك أنّ الظاهر يشير إلى أنّ النّبي وأصحابه هم الذين أدّوا هذا الدور في معركة بدر، لكن القرآن يقول: إنكم لم تفعلوا ذلك أوّلاً، لأنّ القدرات الروحية والجسمية والإيمانية التي هي أصل تلك النتائج كلها من عطاء الله وقد تحركتم بقوة الله وفي سبيل الله. وثانياً قد حصلت في ساحة بدر معاجز كثيرة أشرنا إليها سابقاً، وقد بعثت في نفوس المجاهدين القوّة، وانهارت بها قوى المشركين ومعنوياتهم، وكان كل ذلك بألطاف الله سبحانه.

وفي الحقيقة فإنّ الآية محل البحث تشير إلى لطيفة في مذهب «لا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين»(٢) لأنّها في الوقت الذي تخبر عن قتل المسلمين للكافرين، وتقول إنّ النّبي رمى التراب بوجوه المشركين... تسلب منهم كل هذه الأمور (فتأمل بدقّة).

ولا شك في عدم وجود تناقض في مثل هذه العبارة، بل الهدف هو القول بأنّ هذا الفعل كان منكم ومن الله أيضاً، لأنّه كان بإرادتكم والله منحكم القوة والمدد.

---

(١) راجع نور الثقلين، ج٢، ص١٤٠. بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٧٢.

(٢) أصول الكافي، ج ١، ص ١٦٠.

وبناءً على ذلك فإنّ الذين اعتقدوا بمذهب الجبر مستدلين بهذه الآية فإنّ الردّ عليهم موجود في الآية ذاتها.

والذين قالوا بوحدة الوجود مستدلين بهذه الآية فإنّ الردّ عليهم موجود في الآية بأسلوب لطيف، لأنّه إذا كان المراد بأنّ الخالق والمخلوق واحد، فلا ينبغي أن ينسب الفعل إليهم تارةً وينفي عنهم تارةً أُخرى، لأنّ النسبة ونفيها دليل على التعدد، وإذا تجردت الأفكار عن الحكم المسبق والتعصب المقيت لرأينا أن الآية لا ترتبط بأيٍّ من المذاهب الضّالة، بل هي تشير إلى المذهب الوسط «أمر بين أمرين» فحسب.

وهذه الإشارة لأجل هدف تربوي، وهو إزالة الغرور وآثاره، إذ يقع ذلك عادة في الأفراد بعد الانتصارات.

وتشير الآية في ختامها إلى لطيفة مهمّة أُخرى، وهي أنّ ساحة بدر كانت ساحة امتحان واختبار، إذ تقول: ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾.

والبلاء معناه الاختبار في الأصل، غاية ما في الأمر تارة يكون بالنعم فيسمى بلاءً حسناً، وتارةً بالمصائب والعقاب فيسمّى بلاءً سيئاً، كما تشير إلى ذلك الآية (١٦٨) من سورة الأعراف في شأن بني إسرائيل ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾.

لقد شاء الله أن يذيق المؤمنين في أوّل مواجهة مسلحة بينهم وبين أعدائهم طعم النصر، وأن يجعلهم متفائلين للمستقبل، وهذه الموهبة الإلهيّة كانت اختباراً لهم جميعاً، إلاّ أنّه لا ينبغي لهم أن يغتروا بهذا الانتصار أبداً، فتكون النتيجة سلبية، وذلك بأن يروا عدوهم حقيراً وينسوا بناء ذواتهم ويغفلوا عن الاعتماد على الله.

لهذا فإنّ الآية تختتم بهذه الجملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

أي إنّ الله سمعَ صوت استغاثة النّبي والمؤمنين، واطلع على صدق نيّاتهم، فأنزل ألطافه عليهم جميعاً ونصرهم على عدوّهم، وأنّ الله يعامل عباده بهذه المعاملة حتى في المستقبل، فيطلع على ميزان صدق نياتهم وإخلاصهم واستقامتهم، فالمؤمنون المخلصون ينتصرون أخيراً، والمراؤون المدّعون ينهزمون ويفشلون.

وفي الآية التالية يقول سبحانه تعميماً لهذا الموضوع وأنّ مصير المؤمنين والكفّار هو ما سمعتم، فيقول: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾[1] ثمّ يعقب القرآن مبيناً العلّة ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

---

(١) في الحقيقة إنّ هذه الكلمة إشارة إلى جملة مقدرة هي «ذلكم الذي سمعتم هو حال المؤمنين والكافرين».

﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٩﴾

التّفسير

لقد جرى بحث كثير بين المفسّرين حول الذين توجهت إليهم الآية بالحديث، فبعضهم يعتقد بأنّهم المشركون، لأنّهم قبل خروجهم من مكّة إلى بدر اجتمعوا حول الكعبة وضربوا على ستائرها (لغرورهم واعتقادهم بأنّهم على الحق). وقالوا: «اللّهم انصر أعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرم الحزبين»(١).

وروي أنّ أباجهل دعا فقال: (اللهم ربّنا ديننا القديم ودين محمّد الحديث، فأي الدينين كان أحبّ إليك وأرضى عندك فانصر أهله اليوم)(٢) . . . ولذلك فقد نزلت هذه الآية لتقول لهم: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

والذي يبعّد هذا التّفسير أنّ الحديث في الآيات السابقة واللاحقة لهذه الآية موجّه للمؤمنين، فيستبعد أن تكون بينها آية واحدة تتحدث مع المشركين، ويضاف لذلك الارتباط المعنوي الموجود بين مضامين كل هذه الآيات، ولذلك اعتبر بعض المفسّرين أنّ المخاطبين في الآية هم المؤمنون، وأحسن صورة لتفسير الآية على هذا الوجه هي:

لقد حصل بين بعض المؤمنين جدال حول تقسيم الغنائم بعد واقعة بدر - كما رأينا - ونزلت آيات توبخهم وتضع الغنائم تحت تصرف الرّسول بشكل كامل فقام بتقسيمها بينهم بالتساوي، بغية تربيتهم وتعليمهم، ثمّ ذكّرهم بحوادث بدر وكيف نصرهم الله على عدوّهم القوي.

وهذه الآية تتابع الحديث عن الموضوع نفسه فتخاطب المسلمين وتقول لهم: إنّكم إذا سألتم الله الفتح والنصر فسوف يستجيب لكم وينصركم، وإذا تركتم الاعتراض والجدال عند النّبي ﷺ فبذلك مصلحتكم، وإذا عدتم لنفس الأُسلوب من الاعتراض

(١) تفسير الصافي - ذيل الآية محل البحث وكذلك التفسير الكبير للفخر الرازي ج ١٥ - ص ١٤٢.
(٢) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث؛ وتفاسير أُخرى.

فسنعود نحن أيضاً، ونترككم وحيدين في قبضة الأعداء وحتى إذا كان عددكم كثيراً فبدون نصرة الله لن تقدروا أن تعملوا أي شيء، وإنّ الله مع المؤمنين المخلصين والطائعين لأوامره وأوامر نبيّه.

ولكن يستفاد من سياق الآيات وخاصّة من إلقاء اللوم على المسلمين لبعض مخالفتهم، وكذلك سياق الآيات السابقة وما فيها من أواصر وروابط معنوية واضحة، أنّ التّفسير الثّاني أقرب إلى أجواء الخطاب القرآني.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾

التّفسير

الذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون!

تتابع هذه الآيات البحوث السابقة، فتدعو المسلمين إلى الطاعة التامة لأوامر الرّسول الأكرم ﷺ في السلم أو الحرب أو في أي أمر آخر، وأسلوب الآيات فيه دلالة على تقصير بعض المؤمنين في التنفيذ والطاعة، فتبدأ بالقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

وتضيف لتؤكّد الأمر من جديد: ﴿وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾.

لاشك في أنّ إطاعة أوامر الله تعالى واجبة على الجميع، المؤمنين وغير المؤمنين، ولكن بما أنّ المخاطبين والمعنيين بهذا الحديث التربوي هم المؤمنون فلهذا كان الكلام في هذه الآية الشريفة موجهاً إليهم.

الآية الثّانية: تؤكّد هذا المعنى أيضاً فتقول: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

إنّ هذا التعبير الطريف يُشير للذين يعلمون ولا يعملون، ويسمعون ولا يتأثرون، وفي ظاهرهم أنّهم من المؤمنين، ولكنّهم لا يطيعون أوامر الرسول ﷺ، فهؤلاء لهم آذان

سامعة لكل الأحاديث ويَعون مفاهيمها، وبما أنّهم لا يعملون بها ولا يطبقونها فكأنّهم صمٌّ لا يسمعون، لأنّ الكلام مقدمة للعمل فلو عدم العمل فلا فائدة من أية مقدمة.

ولكن من هم هؤلاء الأشخاص الذين يحذّر القرآن المسلمين لكيلا يصيروا مثلهم؟

فيرى بعض أنّهم المنافقون الذين اتخذوا لأنفسهم مواقع في صفوف المسلمين، وقال آخرون: إنّما تشير إلى طائفة من اليهود، وذهب بعض بأنّهم المشركون من العرب، ولا مانع من انطباق الآية على هذه الطوائف الثلاث، وكل ذي قول بلا عمل.

ولما كان القول بلا عمل، والاستماع بلا تأثر، أحد الأمراض التي تصاب بها المجتمعات، وأساس الكثير من التخلفات، فقد جاءت الآية الأُخرى لتؤكّد على هذه المسألة بأُسلوب آخر، فقالت: ﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾(١).

ولمّا كان القرآن كتاب عمل فإنّه ينظر إلى النتائج دائماً، فيعتبر كل موجود لا فائده فيه كالمعدوم، وكل حي عديم الحركة والتأثير كالميت، وكل حاسّة من حواس الإنسان مفقودة إذا لم تؤثر فيه تأثيراً إيجابياً في مسيرة الهداية والسعادة، وهذه الآية اعتبرت الذين لهم آذان سالمة لكنّهم لا يستمعون لآيات الله ودعوة الحق ونداء السعادة، كمن لا أذن له ولا سمع لديه، والذين لهم ألسنة سالمة لكنّها ساكتة عن الدعوة إلى الحق ومكافحة الظلم والفساد، فلا يأمرون بمعروف ولا ينهون عن منكر، بل يضيّعون هذه النعمة في التملق والتذلل أمام الطواغيت أو تحريف الحق وتقوية الباطل، فهؤلاء كمن هو أبكم لا يقدر على الكلام، وكذلك الذين يتمتعون بنعمة الفكر والعقل ولكنّهم لا يصححون تفكيرهم، فهؤلاء في عداد المجانين.

وتقول الآية بعدها: إنّ الله لايمتنع من دعوة هؤلاء إن كانوا صادقين في طلبهم وعلى استعداد لتقبل الحق: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾.

وقد ورد في الرّوايات أنّ بعض عبدة الأصنام جاءوا النّبي ﷺ وقالوا: إذا أخرجت لنا جدنا الأكبر (قصي بن كلاب) حيّاً من قبره، وشهد لك بالنبوّة، فسوف نسلم جميعاً! فنزلت الآية لتقول: إنّه لو كان حديثهم صادقاً لفعل الله ذلك لهم بواسطة المعجزة، لكنّهم يكذبون ويأتون بأعذار واهية، بهدف التخلص من الإذعان لدعوة الحق....

ويقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

---

(١) «صم» جمع «الأصم» وهو الذي لا يسمع و«البكم» جمع «الأبكم» وهو فاقد النطق.

فالذين سمعوا دعوة الحق كثيراً، وبلغت آذانهم آيات القرآن، وفهموا مضامينها العالية، لكنّهم أنكروها بسبب عتوهم وعصبيّتهم، فهم غير مؤهلين للهداية لما اقترفت أيديهم، ولا شأن بعدئذ لله ورسوله بهم، فهم في ظلام دامس وضلال بهيم.

كما أنّ هذه الآية تعد جواباً قاطعاً للقائلين بمدرسة الجبر، لأنّها تقرر بأنّ الخير يكمن في الإنسان نفسه وأنّ الله يعامل الناس بما يبدونه من أنفسهم من استعداد وقابلية في طريق الهداية.

بحثان

١ - ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾

لقد حاول بعض الناشئة عمل قياس منطقي من هذه الآية والخروج منه بنتيجة لصالحهم، فقالوا، إنّ القرآن يقول في الآية: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾. وقال أيضاً: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾. فيمكن الاستنتاج من هاتين الجملتين الجملة التّالية وهي: لو علم الله فيهم خيراً فهم سيعرضون. وهذا الاستنتاج خطأ محض.

وقد أخطأ هؤلاء لأنّ معنى جملة: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾. في قسمها الأوّل هو: لو كان لهؤلاء قابلية للهداية فسيوصل الحق لأسماعهم، ولكن القسم الثّاني معناه أنّ هؤلاء إذا لم تتهيأ لهم القابلية للهداية فسوف لن يستجيبوا وسوف يعرضون.

والنتيجة أنّ الجملة المذكورة آنفاً وردت في الآية بمعنيين مختلفين، وعلى هذا لا يمكن تأليف قياس منطقي منهما... (١) (فتأمل).

وهذه المسألة تشبه من يقول: إنّني لو كنت أعتقد بأنّ فلاناً يستجيب لدعوتي لدعوته، لكنّه في الحال الحاضر إذا دعوته فسوف لن يستجيب، ولذلك فسوف لن أدعوه.

٢ - لاستماع الحق مراحل

إنّ الإنسان قد يسمع أحياناً ألفاظاً وعبارات دون التفكير في مضامينها، إلاّ أنّ بعضاً

(١) وبحسب اصطلاح المنطق أنّ الحدّ الوسط غير موجود في القياس آنفاً، لأنّ الجملة الأُولى هي (لأسمعهم حال كونهم يعلم فيهم خيراً). والجملة الثّانية (لأسمعهم حال كونه لا يعلم فيهم فهماً) والنتيجة أنّ الحدّ الوسط المشترك غير موجود بين الجملتين لتمكين تأليف القياس منهما، لأنّ الجملتين مختلفتان ومنفصلتان (فتأمل).

لفرط لجاجتهم، كانوا يرفضون حتى هذا القدر من السمع، كما يقول عنهم القرآن: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾(١).

وتارةً يقبل الإنسان باستماع الأحاديث، لكنّه لا يقرر أبداً العمل بها، كالمنافقين الذين ورد ذكرهم في الآية (١٦) من سورة محمّد ﷺ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾.

وقد يصل وضع هؤلاء أعلى مراحل الخطر، إذ يُسلبون القدرة على معرفة الخبيث والطيب، وحتى إذا استمعوا الحديث الحق لا يكون بإمكانهم استيعابه وهضمه.

والقرآن يقول عن هذه الطوائف الثلاث، إنّ هؤلاء في واقعهم صمٌ بكمٌ، لأنّ الذي يسمع في الحقيقة يجب عليه الإدراك والتفكير والعزم على العمل بإخلاص.

وكم من أُناس في عصرنا وزمننا الحاضر عندما يسمعون آيات القرآن يتفاعلون معها بشكل ملفت للنظر، لكنّهم في العمل لا يتطابقون بأي شكل مع مضمون القرآن الكريم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

التّفسير

دعوة للحياة

تتابع هذه الآيات دعوة المسلمين المتقدمة للعلم والعمل والطاعة والتسليم لكنّها تتابع الهدف ذاته عن طريق آخر، فتقول ابتداءً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ﴾.

فهذه الآية تقول بصراحة: إنّ دعوة الإسلام هي دعوة للعيش والحياة، الحياة

(١) سورة فصلت، الآية: ٢٦.

المعنوية، الحياة المادية، الحياة الثقافية، الحياة الاقتصادية، الحياة السياسية، الحياة الأخلاقية والاجتماعية، وأخيراً الحياة والعيش بالمعنى الصحيح على جميع الأصعدة، وهذه أقصر وأجمع عبارة عن الإسلام ورسالته الخالدة، إذا سأل أحد عن أهداف الإسلام، وما يمكن أن يقدمه، فنقول بجملة قصيرة: إنّ هدفه هو الحياة على جميع الأصعدة، هذا ما يقدمه لنا الإسلام.

السؤال: ترى هل كان الناس موتى قبل بزوغ الإسلام ونزول القرآن ليدعوهم القرآن إلى الحياة...؟

وجواب هذا التساؤل: نعم، فقد كانوا موتى وفاقدي الحياة بمعناها القرآني، لأنّ الحياة ذات مراحل مختلفة أشار إلى جميعها القرآن الكريم...

فتارةً تأتي بمعنى (الحياة النباتية) كما يقول القرآن: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾[1].

وتارةً تأتي بمعنى (الحياة الحيوانية) مثل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ﴾[2].

وتارةً بمعنى (الحياة الفكرية والعقلية) مثل: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾[3].

وتارة بمعنى (الحياة الخالدة في العالم الآخر) مثل: ﴿يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾[4].

وتارة بمعنى (العالم والقادر بلا حد ولا نهاية) كما نقول عن الله: ﴿ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾[5].

وبالنظر إلى هذه الأقسام التي ذكرناها نعرف أنّ الناس في الجاهلية كانوا يعيشون الحياة الحيوانية والمادية، وكانوا بعيدين عن الحياة الإنسانية والمعنوية والعقلية، فجاء القرآن ليدعوهم إلى الحياة.

ومن هنا نعلم أنّ من يضع الدين في قوالب جامدة لا روح فيها بعيداً عن مجالات الحياة، ويختزله في مسائل فكرية واجتماعية صرفة فقد جانب الصواب كثيراً، لأنّ الدين الصحيح هو الذي يبعث الحركة في كل جوانب الحياة، ويحيي الفكر والثقافة والإحساس بالمسؤولية، ويوجد التكامل والرّقي والوحدة والتآلف، فهو إذاً يبعث الحياة في البشرية بكل معنى الكلمة.

---

(١) سورة الحديد، الآية: ١٧.
(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٩.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٢٢.
(٤) سورة الفجر، الآية: ٢٤.
(٥) سورة الفرقان، الآية: ٥٨.

وبذلك تتّضح هذه الحقيقة أيضاً وهي أن الذين فسّروا الآية بمعنى واحد هو الجهاد أو الإيمان أو القرآن أو الجنّة، واعتبروا كل واحد من هذه الأُمور هو العامل الوحيد للحياة في الآية المباركة، هؤلاء في الحقيقة حددوا مفهوم الآية، لأنّه يشتمل على كل ذلك وأكثر حيث يندرج، - ضمن مفهوم الآية - كل شيء، وكل فكر، وكل قانون يبعث الروح في جانب من جوانب الحياة.

ثمّ يقول تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾.

إنّ المقصود بالقلب هنا - كما ذكرنا سابقاً - الروح والعقل، أمّا كيف يحول الله بين المرء وقلبه؟ فقد ذكروا لذلك احتمالات مختلفة.

فتارةً قيل: إنّه إشارة لشدّة قرب الله من عباده، فكأنّ الله في داخل روح العبد وجسمه، وكما يقول القرآن الكريم: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾(١).

وقيل: إشارة إلى أنّ تقلب القلوب والأفكار هو بيد الله، كما نقرأ في الدعاء: «يا مقلب القلوب والأبصار»(٢).

وقيل: إنّ المقصود هو أنّ الانسان لولا اللطف الإلهي غير قادر على معرفة الحق من الباطل.

وقيل أيضاً: إنّ المقصود هو أنّه ما دام للناس فرصة فينبغي عليهم أداء الطاعات وأعمال الخير، لأنّ الله قد يحول بواسطة الموت بين المرء وقلبه.

ويمكن بنظرة شاملة جمع كل التفاسير في تفسير واحد، وهو أنّ الله عزّوجلّ حاضر وناظر ومهيمن على كل المخلوقات. فإنّ الموت والحياة والعلم والقدرة والأمن والسكينة والتوفيق والسعادة، كلّها بيديه وتحت قدرته، فلا يمكن للإنسان كتمان أمر ما عنه، أو أن يعمل أمراً بدون توفيقه، وليس من اللائق التوجه لغيره وسؤال من سواه. لأنّه مالك كل شيء والمحيط بجميع وجود الإنسان. وارتباط هذه الجُمل مع سابقتها من جهة أنّه لو دعا النّبي صلى الله عليه وآله وسلم الناس إلى الحياة، فذلك لأنّ الذي أرسله هو مالك الحياة والموت والعقل والهداية ومالك كل شيء.

وللتأكيد على هذا الموضوع فإنّ الآية تريد أن تقول: إنّكم لستم اليوم في دائرة قدرته فحسب، بل ستذهبون إليه في العالم الآخر، فأنتم في محضره وتحت قدرته هنا وهناك.

---

(١) سورة ق، الآية: ١٦.

(٢) وسائل الشيعة، ج ٦، ص ٦٣؛ بحار الأنوار، ج ١٢، ص ٢٧٨.

ثمّ تشير إلى عاقبة السوء لمن يرفض دعوة الله ورسوله إلى الحياة فتقول: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾.

وكلمة ﴿فِتْنَةً﴾ استعملت في القرآن المجيد بمعانٍ مختلفة، فقد جاءت تارةً بمعنى الاختيار والامتحان، وتارة بمعنى البلاء والعذاب والمصيبة، وهي في الأصل بمعنى إدخال الذهب في بوتقة النّار ليتميز جيده من رديئه، ثمّ استعملت بمعنى الاختبارات التي تكشف الصفات الباطنية للإنسان، واستحدثت في الابتلاء والجزاء الذي يبعث الصفاء في روح الإنسان ويطهّره من شوائب الذنوب، وأمّا في هذه الآية فإنّ كلمة ﴿فِتْنَةً﴾ بمعنى البلاء والمصائب الاجتماعية التي يصاب بها الجميع فيحترق فيها الأخضر مع اليابس.

وفي الحقيقة فشأن الحوادث الاجتماعية هو هكذا، فإذا ما توانى مجتمع ما عن أداء رسالته، وانهارت القوانين على أثر ذلك، وانعدم الأمن، فإنّ نار الفتنة ستحرق الأبرار مع الأشرار، وهذا هو الخطر الذي يحذر الله تبارك وتعالى منه ويحذر في هذه الآية المجتمعات البشرية كلّها.

ومفهوم الآية هنا هو أنّ أفراد المجتمع مسؤولون عن أداء وظائفهم، وكذلك فهم مسؤولون عن حثّ الآخرين لأداء وظائفهم أيضاً، لأنّ الاختلاف والتشتت في قضايا المجتمع يؤدّي إلى انهياره، ويتضرر بذلك الجميع، فلا يصحّ أن يقول أحد بأنّني أؤدي رسالتي الاجتماعية ولا علاقة لي بالآثار السلبية الناجمة عن عدم أداء الآخرين لواجباتهم، لأنّ آثار القضايا الاجتماعية ليست فردية ولا شخصية.

وهذا الموضوع يشبه تماماً ما لو احتجنا لصدّ هجوم الأعداء إلى مئة ألف مقاتل، فإذا قام خمسون ألف مقاتل بأداء وظائفهم فمن اليقين أنّهم سيخسرون عند منازلتهم العدو، وهذا الانكسار سيشمل الذين أدوا وظائفهم والذين تقاعسوا عن أدائها وهذه هي خصوصية المسائل الاجتماعية.

ويمكن إيضاح هذه الحقيقة بصورة أجلى وهي: أنّ الأخيار من أبناء المجتمع مسؤولون في التصدّي للأشرار لأنّهم لو اختاروا السكوت فسيشاركون أُولئك مصيرهم عند الله كما ورد ذلك في حديث مشهور عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال: (إنّ الله عزّ وجلّ لا يعذب العامّة بعمل الخاصّة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه، فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصّة والعامّة)[1].

---

(١) تفسير المنار، ج ٩، ص ٦٣٨.

ويتّضح ممّا قلناه أنّ هذا الحكم يصدق في مجال الجزاء الإلهي في الدنيا والآخرة، وكذلك في مجال النتائج وآثار الأعمال الجماعية(١).

وتُختتم الآية بلغة التهديد فتقول: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لئلا يصاب هؤلاء بالغفلة بسبب الألطاف والرحمة الإلهيّة وينسوا شدّة الجزاء الإلهي، فتأكلهم الفتن وتحيط بهم من كل جانب، كما أحاطت المجتمع الإسلامي، وأرجعته القهقرى بسبب نسيانه السنن والقوانين الإلهيّة.

فنظرة قصيرة إلى مجتمعنا الإسلامي في زماننا الحاضر والانكسارات التي أصابته أمام أعدائه، والفتن الكثيرة، كالاستعمار والصهيونية، والإلحاد والمادية، والفساد الخلقي وتشتت العوائل وسقوط شبابه في وديان الفساد، والتخلف العلمي، كل ذلك يجسد مضمون الآية، وكيف أنّ تلك الفتن أصابت كل صغير وكبير، وكل عالم وجاهل، وسيستمر كل ذلك حتى اليوم الذي تتحرك فيه الروح الاجتماعية للمسلمين، ويهتم الجميع بصلاح المجتمع ولا يتخلفوا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ويأخذ القرآن الكريم مرّة أُخرى بأيدي المسلمين ليعيدهم نحو تاريخهم، فكم كانوا في بداية الأمر ضعفاء وكيف صاروا!!، لعلهم يدركون الدرس البليغ الذي علّمهم إيّاه في الآيات السابقة فيقول: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾.

وهذه عبارة لطيفة تشير إلى الضعف وقلّة العدد التي كان عليها المسلمون في ذلك الزمن، وكأنّهم كانوا شيئاً صغيراً معلقاً في الهواء بحيث يمكن للأعداء أخذه متى أرادوا، وهي إشارة لحال المسلمين في مكّة قبل الهجرة قبال المشركين الأقوياء. أو إشارة لحال المسلمين في المدينة بعد الهجرة في مقابل القوى الكبرى كالفرس والروم: ﴿فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

---

(١) فقد جرى الحديث بين المفسّرين حول كلمة «لا تصيبنّ» في أنّها هل هي صيغة نفي أو نهي، فالذين قالوا بالنهي وفسّروها بمعنى اتّقوا الفتن لأنّها لا تصيب الظالمين وحدهم، وقال بعض: إنّها صيغة نفي ولكن لما يعتقده علماء العربية بأنّ نون التوكيد لا تظهر في النهي وجواب القسم، فقد اعتبروا الجملة جواباً لقسم مقدر.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

سبب النّزول

لقد وردت عدّة روايات في سبب نزول هاتين الآيتين، منها ما ورد عن الإمامين الباقر والصّادق عليهما السلام من أنّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أمر بمحاصرة يهود (بني قريظة) واستمرت هذه المحاصرة واحداً وعشرين يوماً، حتى أُجبروا على المطالبة بالصلح - كما جرى ذلك مع اليهود من (بني النضير) - وذلك بأن يرحلوا عن أرض المدينة إلى أرض الشام، لكن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم رفض ذلك العرض (لعلّه كان يشك في صدق نيّاتهم) وقال: يجب القبول بحكم (سعد بن معاذ) لكنّهم طلبوا من النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يرسل إليهم (أبا لبابة) وهو من أصحاب النّبي صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة، وكانت له معهم صداقة قديمة، وكانت عائلته وأبناؤه وأمواله عندهم.

فقبل النّبي صلى الله عليه وآله وسلم ذلك الطلب وأرسل (أبا لبابة) إليهم فاستشاروه: هل من مصلحتهم القبول بتحكيم (سعد بن معاذ)؟ فأشار أبو لبابة إلى رقبته، بمعنى أنّكم لو قبلتم فسوف تقتلون فلا ترضوا بهذا العرض، فهبط أمين الوحي جبرائيل عليه السلام إلى النّبي صلى الله عليه وآله وسلم فأخبره بذلك.

يقول أبو لبابة: فوالله ما زالت قدماي حتى عرفت أنّي خنت الله ورسوله، وعند ذاك نزلت هذه الآيات في أبي لبابة. وقد عاد أبو لبابة معلناً ندمه الشديد وأتى بحبل وربط نفسه به إلى أحد أعمدة مسجد النّبي صلى الله عليه وآله وسلم. وقال: والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى يموت أو يقبل الله توبته. واستمر على هذه الحال دون أكل وشرب إلى سبعة أيّام، حتى فقد وعيه وسقط على الأرض مغشياً عليه، فقبل الله توبته، وقام المؤمنون بإبلاغه الخبر، لكنّه أقسم أن لا يفكّ نفسه من العمد حتى يأتيه النّبي صلى الله عليه وآله وسلم ويفك عنه الحبل، فجاءه النّبي صلى الله عليه وآله وسلم وفكّ حبله، وقال (أبو لبابة): إنّ من تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها بالذنب وأن انخلع من مالي، فقال النّبي صلى الله عليه وآله وسلم له: «يجزيك الثلث أن تصدّق به»[١].

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ١٤٣؛ وتفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.

وقد جاء هذا المضمون نفسه في كتب أهل السنّة حول سبب النّزول، إلاّ أنّ بعضهم استبعد النّزول في شأن (بني قريظة)، لأنّ سابقاتها من الآيات تتعلق بحادثة بدر، ولأنّ هذه القضية لم تقع إلاّ بعد مدّة طويلة من واقعة بدر، لهذا قالوا: إنّ المقصود في الرّوايات هو أنّ حادثة بني قريظة من مصاديق الآية، لا أنّها نزلت فيها، وإنّ هذه العبارة يوردها الكثيرون في أسباب النّزول، فعلى سبيل المثال فقد جاء في بعض الكتب نقلاً عن بعض الصحابة أنّ الآية الفلانية قد نزلت في قتل عثمان، غير أنّ من المعلوم أنّ قتل عثمان حدث بعد سنين طويلة من وفاة النّبي ﷺ.

ويحتمل أيضاً أنّ الآية قد نزلت في بني قريظة، ولكن بما أنّها كانت تتناسب والآيات النازلة في قضية بدر، فقد أمر النّبي ﷺ بإلحاقها بتلك الآيات.

التّفسير

الخيانة وأساسها

يوجه الله سبحانه في الآية الأُولى من الآي محل البحث الخطابَ إلى المؤمنين فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾.

إنّ الخيانة لله ورسوله، هي وضع الأسرار العسكرية للمسلمين في تصرف أعدائهم، أو تقوية الأعداء أثناء محاربتهم، أو بصورة عامّة ترك الواجبات والمحرمات والأوامر الإلهيّة، ولذلك فقد ورد عن (ابن عباس): إنّ من ترك شيئاً من الأوامر الإسلامية فقد ارتكب خيانة بحق الله ورسوله.

ثمّ تقول الآية: ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾[(١)].

و(الخيانة) في الأصل معناها: الامتناع عن دفع حق أحد مع التعهد به، وهي ضد (الأمانة) والأمانة وإن كانت تطلق على الأمانة المالية غالباً، لكنّها في منطق القرآن ذات مفهوم أوسع يشملُ شؤون الحياة الاجتماعية والسياسية والأخلاقية كافة، ولذلك جاء في الأحاديث: «المجالس بالأمانة»[(٢)].

ونقرأ في حديث آخر: «إذا حدث الرجل بحديث ثمّ التفت فهو أمانة»[(٣)]. ومن ذلك

---

(١) ﴿تَخُونُوٓاْ﴾ في الأصل ﴿لَا تَخُونُوٓاْ﴾ وقد حذفت ﴿لَا﴾ بقرينة الجملة السابقة.

(٢) أصول الكافي، ج ٢، ص ٦٦٠؛ وسائل الشيعة، ج١٢، ص ١٠٤.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٨، ص ١٧٧.

تكون أرض الإسلام أمانة إلهيّة بأيدي المسلمين وأبنائهم أيضاً. وفوق كل ذلك فإنّ القرآن المجيد وتعاليمه كل ذلك يعد أمانة إلهية كبرى، وقد قال بعضهم: إنّ أمانة الله هي أوامره، وأمانة النّبي ﷺ سنّته، وأمانة المؤمنين أموالهم وأسرارهم، ولكن الأمانة في الآية - آنفاً - تشتمل على كل ذلك.

على كل حال، فإنّ الخيانة في الأمانة من أقبح الأعمال وشرّ الذنوب. فإنّ من يخون الأمانة منافق في الحقيقة، كما ورد في الحديث عن الرّسول الأكرم ﷺ. حيث قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان، وإن صام وصلى وزعم أنّه مسلم»[1].

كما أن ترك الخيانة في الأمانة يُعدّ من الحقوق والواجبات الإنسانية، حتى إذا كان صاحب الأمانة غير مسلم فلا تجوز خيانة أمانته.

ويقول القرآن في آخر الآية: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي إنّه قد يصدر منكم على نحو الخطأ ما هو خيانة، ولكن الإقدام على الخيانة مع العلم ومن موقع الوضوح في الرؤية هو مورد النهي الأكيد، فإنّ عملاً كعمل (أبي لبابة) لم يكن لجهل أو خطأ، بل بسبب الحب المفرط للمال والبنين وحفظ المصالح الشخصية الذي قد يوصد في لحظة حساسة كل شيء بوجه الإنسان، فكأنّه لا يرى بعينه ولا يسمع بأذنيه... فيخون الله ورسوله، وهذه في الحقيقة خيانة مع العلم؛ والمهم أن يستيقظ الإنسان بسرعة كما فعل (أبو لبابة) ليصلح ما قام بتخريبه.

والآية بعدها تحذر المسلمين ليجتنبوا الماديات والمنافع العابرة، لئلا تلقي على عيونهم وآذانهم غشاء فيرتكبون خيانة تعرّض المجتمع إلى الخطر فتقول: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾.

وكلمة ﴿فِتْنَةٌ﴾ - كما ذكرنا - تأتي في مثل هذه الموارد بمعنى وسيلة الامتحان، والحقيقة أنّ أهم وسيلة لامتحان الإيمان والكفر والشخصية وفقدانها، وميزان القيم الإنسانية للأفراد هو هذان الموضوعان (المال والأولاد).

فكيفية جمع المال وكيفية إنفاقه، والمحافظة عليه وميزان التعلق به، كل تلك ميادين لامتحان البشر، فكم من أناس يلتزمون بظاهر العبادة وشعائر الدين، حتى المستحبات

(١) أصول الكافي، ج ٢، ص ٢٩٠؛ وسائل الشيعة، ج ١٥، ص ٣٣٩ و ٣٤٠.

يلتزمون بشدّة في أدائها، لكنّهم إذا ما ابتلوا بقضية مالية، تراهم ينسون كل شيء ويدعون الأوامر الإلهيّة ومسائل الحق والعدل والإنسانية جانباً.

أمّا عن الأبناء فهم ثمار قلب الإنسان وبراعم حياته المتفتحة، ولهذا نجد الكثير من الناس المتمسكين بالدين والمسائل الأخلاقية والإنسانية، لا يراعون الحق والدين بالنسبة للمسائل المتعلقة بمصلحة أبنائهم، فكأنّ ستاراً يلقى على أفكارهم فينسون كل الأُمور، ويصير حبّهم لأبنائهم سبباً ليحُلُّوا الحرام ويحرموا الحلال، ومن أجل توفير المستقبل لأبنائهم يستحقون كل حق ويقدمون على كل منكر، فيجب علينا الاعتصام بالله العظيم في هذين الميدانين العظيمين للامتحان، وأن نحذر بشدّة، فكم من الناس زلت أقدامهم وسقطوا فيهما، وظلت لعنة التاريخ تلاحقهم أبداً بذلك. فإذا زلت لنا قدم يوماً، فيجب علينا الإسراع في تصحيح المسير كـ (أبي لبابة) وإذا كان المال هو السبب في الانحراف، فعلينا بذله وإنفاقه في سبيل الله.

وفي نهاية الآية بشارة كبرى لمن يخرج من هذين الامتحانين منتصراً، فتقول: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾.

فمهما كان حبّ الأبناء كبيراً، ومهما كانت الأموال محبوبة وكثيرة، فإنّ جزاء الله وثوابه أعلى وأعظم من كل ذلك.

وهنا تثارُ أسئلة كثيرة، منها: لماذا يمتحن الله الناس مع إحاطته العلمية بكل شيء؟ ولماذا يكون الامتحان شاملاً للجميع حتى الأنبياء؟ وما هي مواد الامتحان الإلهي وما هي السبل للتغلب عليها؟ وقد أجبنا على كل تلك الأسئلة في المجلد الأُول من التّفسير الأمثل.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩﴾

التّفسير

الإيمان ووضوح الرؤية

تناولت الآيات السابقة أوامر حياتية تتضمّن السعادة المادية والمعنوية للإنسان، لكن العمل بها غير ممكن إلاّ في ظلال التقوى، لذلك جاءت هذه الآية المباركة لتؤكّد أهمّية

التقوى وآثارها في مصير الإنسان، وقد بيّنت الآية أربعة ثمار ونتائج للتقوى.

فقالت ابتداءً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا . . .﴾.

وكلمة «فرقان» صيغة مبالغة من مادة (فرق) وهي هنا بمعنى الشيء الذي يفصل بين الحق والباطل تماماً.

إنّ هذه الجملة الموجزة والكبيرة في معناها قد بيّنت إحدى أهم المسائل المؤثرة في مصير الإنسان، وهي أنّ درب الإنسان نحو النصر محفوف دائماً بالمصاعب والحفر فإذا لم يبصرها جيداً ويحسنُ معرفتها واتقاءها فسيسقط فيها لامحالة، فأهم مسألة في هذا الطريق هي معرفة الحق والباطل، معرفة الحسن والقبيح، معرفة الصديق والعدو، معرفة الفوائد والأضرار، معرفة عوامل السعادة والشقاء، فإذا استطاع الإنسان معرفة هذه الحقائق جيداً فسيسهل عليه الوصول إلى الهدف.

إنّ المشكلة التي تعترض الانسان غالباً هي خطأه في تشخيص الباطل واختياره على الحق، وانتخاب العدوّ بدل الصديق، وطريق الضلال بدل طريق الهداية، وهنا يحتاج الإنسان إلى بصر وبصيرة قويّة، ووضوح رؤية. إنّ هذه الآية المباركة تقول: إنّ هذه البصيرة ثمرة لشجرة التقوى. أمّا كيف تعطي هذه التقوى البصيرة للإنسان؟ فقد يكون الأمر مبهماً لدى البعض، لكن قليلاً من الدقّة والتأمل كافية لتوضيح العلاقة الوثيقة بين هذين الاثنين، ولإيضاح ذلك نقول:

أوّلاً: إنّ قوّة عقل الإنسان تستطيع إدراك الحقائق بقدر كاف، ولكن ستائر من الحرص والطمع والشهوة وحبّ النفس والحسد، والحبّ المفرط للمال والأزواج والأولاد والجاه والمنصب كل ذلك يغدُو كالدخان الأسود أمام بصيرة العقل، أو كالغبار الغليظ الذي يملأ الآفاق، وهنا لا يمكن للإنسان معرفة الحق والباطل في أجواء مظلمة، أمّا إذا غسل تلك الغشاوة بماء التقوى وانقشع ذلك الدخان الأسود، عند ذاك تسهل عليه رؤية نور الحق.

ثانياً: إنّنا نعلم أنّ كل كمال في أي مكان إنّما هو قبس من كمال الحق، وكلّما اقترب الإنسان من الله فإنّ نور الكمال المطلق سينعكس في وجوده أكثر، وعلى ذلك فإنّ أي علم ومعرفة فهو نبع من علمه ومعرفته تعالى، وكلّما تقدّم الإنسان نحو الله تعالى في ظلال التقوى واجتناب المعاصي، ذابت قطرة وجوده في بحر وجود العظيم أكثر، وسيحصل على مقدار أكثر من العلم والمعرفة.

وبعبارة أُخرى فإنّ قلب الإنسان كالمرآة، ووجود الله كالشمس الساطعة على الوجود، فإذا تلوثت مرآة قلبه من الأهواء حتى اسودت، فسوف لا تعكس النور، فإذا تمّ جلاؤها بالتقوى وزال الدرن عنها، فإنّ تلك الشمس الوضاءة الساطعة ستنعكس فيها وتنير كل مكان.

ولذلك فإنّنا نرى على مدى التاريخ بعض النساء والرجال المتّقين يملكون وضوحاً من الرؤية لا يمكن بلوغه بوسائل العلم والمعرفة أبداً، فهم يرون الأسباب الخفيّة للكثير من الحوادث التي تعصف بالمجتمع، ويرون عناصر الشر وأعداء الحق وإن حجبتهم آلاف الستائر الخادعة.

وهذا الأثر العجيب للتقوى في معرفة الواقع، جاء ذكره في الكثير من الرّوايات والآيات الأُخرى، ففي سورة البقرة تقول الآية ٢٨٢: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾، وجاء في الحديث المعروف: «المؤمن ينظر بنور الله»[(١)].

وفي نهج البلاغة في قصار الكلم: «أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع».

ثالثاً: بالتحليل العقلي يمكن فهم العلاقة الوثيقة بين التقوى وإدراك الحقائق أيضاً، لأنّ المجتمعات التي تسير في دروب الفساد والرذيلة وأجهزة الإعلام فيها تطبل لذلك المسير، والصحافة والراديو والتلفزيون كلها تدعو للتلوث والانحراف وخدمة الفساد، فمن البديهي أن يصعب على الناس تمييز الحق من الباطل، الجيد من الرديء، ونتيجة الأمر، فإنّ انعدام التقوى يكون سبباً لفقدان القدرة على هذه المعرفة أو سوء المعرفة.

ومثال آخر: فإنّ عائلة غير متقيّة، يشبون صغارها في محيط ملوث بالفساد والرّذيلة، فمن العسير على هؤلاء في المستقبل تمييز الجيد من الرديء، وهكذا إهدار القوى والطاقات في الذنوب يتسبب في بقاء الناس على مستوىً دان من البصيرة والمعرفة ويعيشون التخلّف الثقافي والانحطاط في التفكير حتى وإن كانوا متقدمين في الصناعة والحياة المادية.

وبناءً على ما تقدم فإنّنا نرى أنّ أدنى انحراف عن التقوى يسبب نوعاً من العمى وسوء المعرفة، لذلك نرى في العالم الصناعي اليوم مجتمعات متقدمة جدّاً في العلم والصناعة، ولكنّها في حياتها اليومية مصابة بأمراض ومشاكل شديدة تبعث على الاستغراب والتعجب، وهنا تتجلى عظمة ما قاله القرآن الكريم.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٢٣ - ٢٥؛ أصول الكافي، ج ١، ص ٢١٨.

ونظراً إلى أنّ التقوى لا تنحصر بالتقوى في العمل، بل تشمل التقوى في الفكر والعقل، فإنّ هذه الحقيقة تتّضح بصورة أجلى. فالتقوى في الفكر تعني مواجهة التسيّب وعدم الانضباط في التفكير، بمعنى أن نبحث في دراساتنا وتحقيقاتنا عن أصح الأدلة وأوثق البراهين، وأن لا نلتزم بعقيدة دون التحقيق الكافي والدقة اللازمة.

والذين يراعون التقوى ويلتزمونها في تفكيرهم سيبلغون النتائج الصحيحة أسرع بكثير ممن لا يلتزم بها، كما أنّ الخلط والخطأ يكثر عند من لايتقي الله في استدلالاته وأسلوب تفكيره.

وهناك أمر آخر يجب الانتباه إليه، لأنّ الكثير من مفاهيمنا الإسلامية قد تعرضت للتشويه بين المسلمين، وهو أنّ الكثير من الناس يتصور أنّ الإنسان المتقي هو الذي يكثر من غسل بدنه ولباسه ويعتبر كل فرد وكل شيء نجساً ومشكوكاً فيه، وينزوي جانباً متجنباً الخوض في الأُمور الاجتماعية، ويسكت أمام كل واقعة، فهذه النظرات المغلوطة عن التقوى والمتقين في الحقيقة إحدى عوامل انحطاط المجتمعات الإسلامية، لأنّ هذه التقوى لا تنتج معرفة ولا وضوح رؤية ولا تكون فرقاناً بين الحق والباطل.

وعلى كل حال، وبعد أن اتّضح أوّل ثواب للمتقين نعود لتفسير بقية الآية وسائر الثمار الأربعة لها.

يقول القرآن الكريم: إنّه إضافة إلى معرفة الحق من الباطل فإنّ من آثار التقوى أن يغطي على ذنوبكم ويمحو آثارها من وجودكم ﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾.

مضافاً إلى ذلك، فإنّه تعالى سيشملكم بمغفرته ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾.

وثمار كثيرة أُخرى تنتظركم لا يعلمها إلاّ الله: ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾. فهذه الآثار الأربعة هي ثمرات في شجرة التقوى، ووجود روابط طبيعية بين التقوى وقسم من هذه الآثار لا يمنع من نسبة كل ذلك إلى الله تبارك وتعالى، لأنّنا وكما قلنا مراراً في هذا التّفسير فإنّ أي موجود عندما تصدر من آثار فهي إنّما تحصل بمشيئة الله وقدرته، فيمكن نسبة تلك الآثار إلى الله عزّوجلّ، وإلى ذلك الموجود أيضاً.

وأمّا الفرق بين (تكفير السيئات) و(الغفران). فقد قال بعض المفسّرين بأنّ الأُولى إشارة إلى الحجب من الدنيا، والثّانية إلى النجاة من الجزاء الأخروي، ويردُ احتمال آخر هنا وهو أن (تكفير السيئات) تشير للآثار النفسية والاجتماعية للذنوب والتي تزول بفعل التقوى، ولكن (الغفران) إشارة إلى مسألة العفو الإلهي والخلاص من الجزاء...

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾

سبب النّزول

ذكر المفسّرون والمحدّثون أنّ الآية - محل البحث - تشير إلى الحوادث التي أدّت إلى هجرة الرسول ﷺ من مكّة إلى المدينة.

هذه الحوادث وإن رويت بعبارات مختلفة إلاّ أنّها تتفق جميعاً على حقيقة أنّ الله عزّوجلّ قد أنقذ نبيّه الكريم عن طريق الإعجاز من خطر محدق به، ونروي هذه الحادثة وفقاً لما ورد في الدّر المنثور ومجمع البيان ذيل الآية آنفاً.

قال المفسّرون: إنّها نزلت في شأن «دار النّدوة» وذلك أنّ نفراً من قريش اجتمعوا فيها وهي دار قصيّ بن كلاب، وتآمروا في أمر النّبي ﷺ فقال عروة بن هشام: نتربص به ريب المنون، وقال أبو البختري: أخرجوه عنكم تستريحوا من أذاه، وقال أبوجهل: ما هذا برأي، ولكن اقتلوه بأن يجتمع عليه من كل بطن رجل فيضربوه بأسيافهم ضربة رجل واحد فيرضى بنو هاشم حينئذ بالديّة، فصوّب إبليس هذا الرأي، وكان قد جاءهم في صورة شيخ كبير من أهل نجد، وخطّأ الأوّلين.

فاتفقوا على هذا الرأي وأعدّوا الرجال والسلاح وجاء جبرئيل عليه السلام فأخبر النّبي ﷺ فخرج إلى الغار وأمَر عليّاً فبات على فراشه، فلمّا أصبحوا وفتشوا عن الفراش، وجدوا عليّاً عليه السلام وقد ردّ الله مكرهم فقالوا: أين محمّد؟ فقال: لا أدري، فاقتصّوا أثره وأرسلوا في طلبه، فلمّا بلغوا الجبل ومرّوا بالغار رأوا على بابه نسجَ العنكبوت، فقالوا: لو كان ها هنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه فمكث فيه ثلاثاً ثمّ قدم المدينة»(١).

التّفسير

سرّ بداية الهجرة

يعتقد بعض المفسّرين أنّ هذه الآية، وخمس آيات تليها، نزلت في مكّة لأنّها تشير

(١) تفسير الدرّ المنثور، ج ٣، ص ١٧٩. تفسير مجمع البيان ذيل الآية مورد البحث.

إلى هجرة النّبي ﷺ، ولكن سياقها يدل على نزولها بعد الهجرة، إذ تتكلم على حادثة سابقة.

فبناءً على ذلك تكون هذه الآية قد نزلت في المدينة بالرغم من حديثها عن هجرة النّبي ﷺ فتحدث عن الذكرى الكبرى والنعمة العظمى التي منّ الله بها على النّبي ﷺ والمسلمين، فتقول في بدايتها: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ﴾.

كلمة «المكر» كما ذكرنا سلفاً تعني في اللغة التدبير والتخطيط والحيلة.

ثمّ تضيفُ الآية قائلة: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾.

فإذا أمعنّا النظر في موضوع هجرة النّبي ﷺ فإنّنا سنجد أنّ المشركين قد بذلوا كل ما في وسعهم وجهدهم من طاقات فكرية وجسدية للقضاء على نبيّ الإسلام ﷺ، حتى أنّهم أعدّوا جائزة لهذا الغرض وهي مئة ناقة، وهذا العدد من الإبل كانَ يُعَدُّ ثروة كبرى يومئذ «هذه الجائزة لكلّ من يقبض على النّبي ﷺ حتى بعد أن خرج عن قبضتهم» وقد طفق الكثير يجوبون الفيافي والجبال ليبحثوا عنه طلباً لتلك الجائزة الكبرى حتى بلغوا الغار، ولكن الله سبحانه أذهب بأتعابهم أدراج الرياح بواسطة نسيج العنكبوت!

ونظراً إلى أنّ هجرة النّبي ﷺ تمثل مرحلة جديدة في التاريخ الإسلامي، بل التاريخ الإنساني، فإنّنا نستنتج أنّ الله قد غير مسيرة التاريخ البشري بما نسجته العنكبوت من خيوط!...

وهذا الأمر لا ينحصر بهجرة النّبي ﷺ، بل في جميع تأريخ الأنبياء، فإنّ الله سبحانه أذل أعداءهم ودمرهم وأباد قوى الضلال بأسباب هيّنة كالريح - مثلاً - أو كثرة البعوض، أو الطير الصغيرة التي تُسمّى بالأبابيل، ليبيّن حالة الضعف البشري والعجز إزاء قدرته اللامتناهية وليردع الإنسان عن التفكير بالطغيان والعناد.

وممّا يسترعي النظر أنّ الالتجاء إلى هذه الأساليب الثّلاثة: السجن والنفي والقتل، لم يكن منحصراً بالمشركين في مواجهة النّبي ﷺ فحسب، فإنّ الطغاة يلجأون إلى هذه الأساليب الثّلاثة دائماً للقضاء على المصلحين وإسكاتهم، والحيلولة دون بسط نفوذهم بين المستضعفين، إلاّ أنّه كما كانت النتيجة خلاف ما أراده مشركو مكّة في شأن النّبي وأضحت مقدمة لتحرك إسلامي جديد، فكذلك مثل هذه المواجهات الشديدة قد باءت نتائجها في مواطن أُخرى بعكس ما كان متوقعاً[1].

---

(١) الملاحظة اللطيفة هنا هو أنّ كتابة هذا التّفسير كانت في الأجزاء السابقة تسير مسيراً بطيئاً، ولكن بما =

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾

التّفسير

القائلون شططاً

ذُكر في الآية السابقة مثل من منطق المشركين على مستوى العمل والممارسة، وفي هذه الآيات مثل آخر من منطقهم الفكري، ليتّضح أنّ هؤلاء لم يمتلكوا سلامةً في الفكر ولا صحة في العمل، فجميع أساليبهم خاوية بغير أساس.

تقول الآية الأُولى من الآيات محل البحث: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

كانوا يقولون مثل هذا الكلام عند ما يعجزون عن مواجهة القرآن ومعارضته، وكانوا يعرفون جيداً أنّهم غير قادرين على معارضة القرآن، إلاّ أنّهم ولحقدهم وعصبيتهم، أو لأنّهم يريدون إضلال الناس، كانوا يقولون: إنّ الإتيان بمثل هذه الآيات غير عسير ولو نشاء لقلنا مثلها، ولكنّهم لم يستطيعوا أن يأتوا بمثلها أبداً، وما هذا القول منهم سوى

= أن راقم هذه السّطور حين كتابة هذا الجزء من التّفسير كان قد نُفي من قبل حكومة الطاغوت إلى مدينة «مهاباد» و«أنارك» فإنّ كتابة هذا التّفسير قد سارعت الخطى بحيث إنّني أكملت تمام هذا الجزء في ذلك المنفى.

ادعاء فارغ يهدفون بذلك إلى إبقاء كيانهم الاجتماعي - كسائر الجبابرة في التاريخ - إلى أمد معدود.

والآية التّالية تتحدث عن منطق عجيب آخر فتقول: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

لقد كانوا يقولون ذلك لشدّة تعصبهم وعنادهم، وكانوا يتصورون أنّ الدين الإسلامي لا أساس له أبداً، وإلاّ فإنّ أحداً يحتمل حقانية الإسلام كيف يمكنه أن يدعو على نفسه بمثل هذا الدعاء؟

كما ويحتمل أيضاً أنّ شيوخ المشركين وسادتهم يقولون ذلك الكلام لتضليل الناس وليثبتوا لبسطائهم أنّ رسالة النّبي ﷺ باطلة تماماً، في حين أنّهم لا يعتقدون بما يقولون. وكأنّهم - أي المشركين - يريدون أن يقولوا للنبيّ ﷺ: إنّك تتكلم عن الأنبياء السابقين، وإنّ الله قد أهلك أعداءَهم بحجارة أمطرها عليهم «كما هي الحال في شأن قوم لوط» فإن كنت صادقاً فيما تقول فأمطر علينا حجارة من السماء!

وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام (في مجمع البيان) أنّه لما نصب رسول الله ﷺ علياً عليه السلام يوم غدير خم فقال: من كنت مولاه فعلي مولاه، طار ذلك في البلاد، فقدم على النّبي ﷺ النعمان بن الحارث الفهري، فقال: أمرتنا من الله أن نشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّك رسول الله، وأمرتنا بالجهاد والحج والصوم والصلاة والزكاة فقبلناها، ثمّ لم ترض حتى نصبت هذا الغلام فقلت: من كنت مولاه فعلي مولاه، فهذا شيء منك أو أمر من عند الله؟

فقال ﷺ: «والله الذي لا إله إلاّ هو، إن هذا من الله». فولّى النعمان بن الحارث وهو يقول: اللّهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء، فرماه الله بحجر على رأسه فقتله[1].

وهذا الحديث لا ينافي عدم نزول الآية في قصّة الغدير، لأنّ سبب النّزول لم يكن موضوع النعمان، بل إنّ النعمان قد اقتبس من الآية في الدعاء على نفسه، وهذا يشبه قولنا في الدعاء مقتبسين ذلك من القرآن ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾[2] «وسيأتي تفصيل هذا الموضوع وما ذكرته كتب أهل السنّة من أسانيد كثيرة له في ذيل الآية الأُولى من سورة المعارج ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ بإذن الله».

(١) راجع مجمع البيان، ج ٥، ص ٣٥٢ وتفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ١٥١.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٠١.

وفي ما تقدم من الآيات نلاحظ أنّ المشركين وجّهوا إلى النّبي ﷺ إشكالين:

الأوّل منهما: واضح البُطلان، وهو قولهم: لو نشاء لقلنا مثل هذا. فلم يردّ عليه القرآن. بديهي أنّ هذا الادعاء أجوف كاذب، لأنّهم لو استطاعوا لما توانوا عنه أبداً ولجاءوا به، فلا حاجة إذن للردّ عليه.

والإشكال الثّاني: لو كانت هذه الآيات نازلة من قبل الله فأنزل علينا العقاب والبلاء، فيرد عليهم القرآن في الآية الثّالثة، من الآيات محل البحث، بقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ﴾.

وفي الحقيقة إنّ وجودك - يا رسول الله - الذي هو رحمة للعالمين، يمنع من نزول البلاء بسبب هذه الذنوب، فيهلك قومُك كما هلكت الأُمم السابقة جماعات أو متفرقين.

ثمّ تعقب الآية بالقول: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

وللمفسّرين احتمالات متعددة في تفسير الجملة آنفة الذكر، منها أنّ بعض المشركين ندموا على قولهم الذي ذكرته الآية فقالوا: غفرانك ربّنا، وكان ذلك سبباً لعدم نزول العذاب عليهم حتى بعد خروج النّبي ﷺ من مكّة.

وقال بعضهم: إنّ الآية تشير إلى من بقي من المؤمنين في مكّة، لأنّ بعضاً ممن لم يستطع الهجرة بقي فيها بعد خروج النّبي، فوجودهم الذي هو شعاع من وجود النّبي ﷺ منع من نزول العذاب.

كما يحتمل أن تكون هذه الجملة التي ذكرتها الآية تتضمّن مفهوم جملة شرطية، أي أنّهم لو ندموا على فعلهم وتوجهوا إلى الله واستغفروه فسيرتفع عنهم عقاب الله.

كما لا يبعد - في الوقت ذاته - الجمع بين هذه الاحتمالات كلّها في تفسير الآية، أي يمكن أن تكون الآية إشارة إلى جميع هذه الاحتمالات.

وعلى أيّة حال، فإنّ مفهوم الآية لا يختصّ بمعاصري النّبي ﷺ بل هو قانون عام كليّ يشمل جميع الناس. لهذا فقد روي في مصادرنا عن الإمام علي، وفي مصادر أهل السنّة عن تلميذ الإمام علي «ابن عباس» أنّه قال عليه السلام: «كان في الأرض أمانان من عذاب الله، وقد رفع أحدهما فدونكم الآخر فتمسكوا به. وقرأ هذه الآية»[1].

---

(١) نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ٨٨.

ويتّضح من الآية - محل البحث، والحديث آنف الذكر - أنّ وجود الأنبياء عليهم السلام مدعاة لأمن الناس من عذاب الله وبلائه الشديد، ثمّ الاستغفار والتوبة والتوجه والضراعة نحو الله، إذ يعدُّ الاستغفار والتوبة ممّا يدفع به العذاب.

فإذا انعدم الاستغفار فإنّ المجتمعات البشرية ستفقد الأمن من عذاب الله لما اقترفته من الذنوب والمعاصي.

وهذا العذاب أو العقاب قد يأتي في صورة الحوادث الطبيعية المؤلمة، كالسيل مثلاً، أو الحروب المدمّرة، أو في صور أُخرى. وقد جاء في دعاء كميل بن زياد عن الإمام علي عليه السلام قوله: «اللهم اغفر لي الذنوب التي تنزل البلاء»[١].

فهذا التّعبير يدل على أنّه لولا الاستغفار فإنّ كثيراً من الذنوب قد تكون سبباً في البلاء والكوارث.

وينبغي التذكير بهذه اللطيفة، وهي أنّ الاستغفار لا يعني تكرار ألفاظ معينة، كأن يقول المرءُ: «اللهم اغفر لي» بل المراد منه روح الاستغفار الذي هو حالة العودة نحو الحق والتهيؤ لتلافي ما مضى من العبد قبال ربّه.

والآية التّالية تقول: إنّ هؤلاء جديرون بعذاب الله ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾.

وهذا التعبير في الآية يشير إلى يوم كان المسلمون في مكّة، ولم يكن لهم الحق أن يقيموا صلاة الجماعة بتمام الحرية والاطمئنان عند المسجد الحرام، إذ كانوا يتعرضون للإيذاء والتعذيب.

أو أنّ هذا التعبير يشير إلى منع المشركين المسلمين وصدهم إيّاهم بعد أدائهم مناسك الحج والعمرة، فلم يأذنوا لهم بالتردد إلى المسجد الحرام.

والعجيب أنّ هؤلاء المشركين كانوا يتصورون أنّ لهم حق التصرف كيفَما شاءوا في المسجد الحرام، وأنّهم أولياؤه. إلاّ أنّ القرآن يضيف في هذه الآية قائلاً: ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ وبالرغم من زعمهم أنّهم أولياؤه فـ ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ومع أنّ هذا الحكم ورد في شأن المسجد الحرام، إلاّ أنّه يشمل جميع المراكز

---

(١) إقبال الأعمال للسيد ابن طاووس، ص ٧٠٧.

الدينية والمساجد فإنّ سدنتها ينبغي أن يكونوا من أطهر الناس وأتقاهم وأورعهم وأكثرهم اهتماماً بالمحافظة على مراكز العبادة، ليجعلوها منطلقاً للتعليم وبثّ الوعي والإيقاظ. إذ لا يصلح لإدارة هذه المراكز حفنةٌ من الحمقى أو باعة الضمائر الملوّثين والمرتبطين بالأجانب، الذين يسعون إلى تحويل المساجد ومراكز العبادة إلى محال تجارية، أو جعلها مكاناً لتخدير الأفكار، والابتعاد عن الحقّ. وفي اعتقادنا أنّ المسلمين لو كانوا ملتزمين بتعاليم القرآن في شأن المساجد، لكانت المجتمعات الإسلامية اليوم لها وجه آخر وصورةٌ مشرقةٌ!

والأعجب في هذا الشأن أنّ المشركين كانوا يدّعون أنّهم يصلّون ويعبدون الله بما كانوا يقومون به من أعمال قبيحة كالصفير والتصدية عند البيت، ولهذا فقد قالت الآية التالية عنهم: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾.

ونقرأ في التاريخ أنّ طائفة من الأعراب في زمان الجاهلية عندما كانوا يطوفون بالبيت العتيق، كانوا يخلعون ثيابهم ويصفرون ويصفقون ويسمّون أعمالهم هذه عبادة، وورد أيضاً أنّ النّبي الأكرم ﷺ عند ما كان يقف بجانب الحجر الأسود ويتّجه بوجهه نحو الشمال ليكون في مقابل الكعبة وبيت المقدس، ويشرع بالصلاة، كان يقف إلى يمينه ويساره رجلان من بني سهم فيأخذ أحدهم بالصياح والآخر بالتصفيق ليؤذياه في صلاته.

تعقب الآية على ما تقدم لتقول: إنّ أعمالكم - بل حتى صلاتكم - مدعاة للخجل والسفاهة ولذلك ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

إنّ الإنسان حين يقلّب صفحات التاريخ ويتوغّل فيه باحثاً عن جوانب من تاريخ عرب الجاهلية التي وردت الإشارة إليها في القرآن، يرى - ويا للعجب العجاب! - في عصرنا الحاضر الذي عُرف بعصر الفضاء والذرة من يُعيد تلك الأعمال التي كانت في زمان الجاهلية، ويتصوّر نفسه في عبادة، فيقرؤون الآيات القرآنية أو الأشعار في مدح النّبي ﷺ والإمام علي عليه السلام بالألحان الموسيقية ذات الإيقاع المثير، وتهتزّ أيديهم ورؤوسهم بما يشبه حالة الرقص، ويسمّون ذلك ذكراً ومدائح، ويقيمونها في التكايا وغيرها. مع أنّ الإسلام يبرأ من جميع هذه الأعمال، وهي مثل آخر من أمثلة أعمال «الجاهلية».

ويبقى هنا سؤال واحد، وهو أنّ الآية الثّالثة من الآيات محل البحث قد نفت نزول

العذاب (بتوفر شرطين طبعاً)، والآية الرّابعة أثبتت العذاب، تُرى ألا يقع التضاد بين الآيتين؟

والجواب: إنّ الآية السابقة تشير إلى العقاب الدنيوي، والآية اللاحقة لعلها إشارة إلى العقاب الأُخروي، أو أنّها إشارة إلى أنّ هؤلاء يستحقون العقاب في الدنيا وهو محدق بهم، فإذا مضى النبي ﷺ ولم يتوبوا ويستغفروا ربّهم فإنّه سينزل بهم لا محالة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

سبب النّزول

جاء في تفسير علي بن إبراهيم وكثير من التفاسير الأُخرى، أنّ الآية - محل البحث - نزلت في معركة بدر، وما بذله أهل مكّة للصدّ عن سبيل الله، لأنّهم لما عرفوا ما حصل - إذ جاءهم مبعوث أبي سفيان - قاموا بجمع الأموال الكثيرة ليعينوا بها مقاتليهم، إلاّ أنّهم خابوا وقتلوا وآبوا إلى جهنم وساءت مصيراً، وكان ما أنفقوه في هذا الصدد وبالاً وحسرة عليهم، والآية الأُولى تشير إلى سائر معوناتهم التي قدّموها في سبيل مواجهة الإسلام ومحاربته، وقد طرحت الموضوع في صياغة كلّية.

وقال بعضهم: إنّ الآية نزلت في ما بذله أبوسفيان لألفي مقاتل «مرتزق» في معركة أحد[1].

إلاّ أنّه لما كانت الآية محل البحث واقعة في سياق الآيات النازلة في معركة بدر، فإنّ الرأي الأوّل في شأن نزولها يبدو أقرب للصحة.

التّفسير

مهما يكن شأن نزول الآية، فمفهومها مفهوم جامع يحمل في معناه كلّ ما بذله أعداء

(١) بحار الأنوار، ج ١٧، ص ١٨٠؛ تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.

الحق والعدل من أموال لنيل مقاصدهم المشؤومة، إذ تقول في مستهلها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

إلاّ أنّ هذا الإنفاق والبذل لن يحقق لهم نصراً ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾.

ولا يبتلون بالحسرة والهزيمة في الدنيا فحسب، بل هم كذلك في الآخرة أيضاً ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾.

ملاحظات:

١ - يستفاد من الآية محل البحث أنّ «هؤلاء» يحسّون بعدم جدوى أعمالهم حتى قبل غَلبهم وانهزامهم، وحيث إنّهم لا يرون نتيجة مثمرة لما أنفقوه من الأموال، فسيبتلون بالألم والحسرة، وهذا الأمر هو نوع من جزائهم الدنيوي وأحد عقوباتهم فيها.

أمّا الجزاء الآخر الذي ينالونه، فهو فشل خططهم ومناهجهم، لأنّ الذين يقاتلون وهم متعلقون بالأموال والثروة لا يستطيعون مواجهة المقاتلين من أجل المبدأ والأهداف المقدسة.

وقد برهنت الحوادث في عصرنا هذا على أنّ الدول القوية التي تُغري مقاتليها بالمال والرغبات المادية، كثيراً ما تصاب بالخزي والافتضاح والهزيمة بوجه الأمم المستضعفة التي تقاتل عن إيمان وعقيدة راسخة!...

وبالإضافة إلى هذين الجزاءين فهناك جزاء ثالث ينتظرهم يوم القيامة، وهو «الغضب الإلهي».

٢ - ما ذكرته الآية محل البحث، نجد له أمثلةً في عصرنا الحاضر، كقوى الاستكبار، واتباع الظلم والفساد، ودعاة المذاهب الخرافية الباطلة، وباذلي الأموال الطائلة لتحقيق أهدافهم وتضليل الناس وصدهم عن سبيل الحق، وهم يظهرون بأزياء متعددة، فتارة في صورة المساعدات المالية - ظاهراً - كبناء المستشفيات، وأُخرى في صورة التعاون الثقافي، ومرّة في ثوب المقاتلين المرتزقة.

لكن الهدف النهائي واحد والماهية واحدة، فكل همّهم التوسعة الاستعمارية والظلم والجور، ولو وقف المؤمنون حقّاً صفاً بوجه هذه المحاولات كما وقف أصحاب بدر لأحبطوا جميع هذه المحاولات ولباءت بالفشل، ولجعلوا هذا الإنفاق وبالاً وحسرة على المستكبرين، ولساقوهم إلى جهنم وساءت مصيراً.

٣ - قال بعض المفسّرين: إنّ هذه الآية واحدة من دلائل صدق دعوة النّبي محمّد ﷺ، لأنّها تخبر عن حوادث لم تكن وقعت بعد، وقد غُلب بها أعداء الإسلام، ومع أنّ أُولئك بذلوا أموالاً طائلة لانتصارهم!!

وإذا لم نعتبر الآية من الأخبار بالمغيبات التي تتعلق بالحوادث المقبلة، فإنّها على الأقل تكشف عن محتوى القرآن الدقيق في شأن المواجهة بين الحق والباطل، كما أنّها تكشف عن عظمة القرآن والتعاليم الإسلامية.

وبعد أن تكلمت الآية السابقة على ثلاث نتائج مشؤومة لإنفاق أعداء الإسلام، فإنّ الآية التي تليها تقول: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾.

هذه سنة إلّهية دائمة أن يُعرف المخلص من غير المخلص، والطاهر من غير الطاهر، والمجاهد الصادق من الكاذب، والأعمال الطيبة من الأعمال الخبيثة، فلا يبقى أي من ذلك مجهولاً أبداً، بل لابدّ في النهاية من أن تمتاز الصفوف بعضها عن بعض ويسفر الحق عن وجهه. وهذا الأمر يتحقق - طبعاً - عندما يكون أتباع الحق - كأُولئك المسلمين الأوائل يوم بدر - في مستوى كاف من التضحية والوعي.

ثمّ تضيف الآية ﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ﴾.

فالخبيث من أية طائفة وفي أي شكل كان سيؤول في النهاية إلى الخسران، كما تقول الآية في نهاية المطاف: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾

التّفسير

من المعلوم في أُسلوب القرآن هو الجمع بين البشارة والإنذار، أي أنّه كما ينذر أعداء الحق بالعقاب والعذاب، فإنّه يفتح لهم في الوقت نفسه طريق العودة أمامهم.

والآية الأُولى: من الآيات محل البحث تتبع هذا الأُسلوب ذاته، فتأمر النّبي ﷺ قائلةً: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾.

ويستفاد من الآية المباركة أنّ قبول الإسلام يوجب محو كل سابقة وهو ما ورد في الرّوايات على أنّه أصل عام، كما في عبارة «الإسلام يجبُّ ما قبله»[١] أو ما جاء عن أهل السنّة في تعبير آخر عن النّبي ﷺ أن «الإسلام يهدم ما كان قبله، وإن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وإن الحج يهدم ما كان قبله»[٢].

والمقصود من الحديث آنفاً هو أنّ كل ما عمله الإنسان من سيئات وحتى تركه للفرائض والواجبات قَبلَ إسلامه فسوف يُمحى عنه بقبوله الإسلام، ولا يكون قبوله للإسلام بأثر رجعي لما سبق، لهذا ورد في كتب الفقه عدمُ وجوب قضاء ما فات من العبادات على من أسلم.

وتضيف الآية قائلة: إنّهم إن لم يصححوا أسلوبهم ﴿وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

والمقصود من هذه السنّة هو ما آل إليه أعداء الحق بعد ما واجهوا الأنبياء، وما أصاب المشركين عندما واجهوا النّبي الأكرم ﷺ في معركة بدر.

فنحن نقرأ في سورة غافر، الآية: (٥١): ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾.

ونقرأ في سورة الإسراء، الآية (٧٧): بعد بيان سحق أعداء الإسلام قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾.

ولمّا كانت الآية السابقة قد دعت الأعداء للعودة إلى الحق، وإنّ هذه الدعوة قد تولّد هذه الفكرة لدى المسلمين وهي أنّه قد انتهت فترة الجهاد ولابدّ بعد الآن من اللين والتساهل، ترفعُ هذه الشبهة الآية التالية وتقول: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾.

وكلمة «الفتنة» - كما بيناها في تفسير الآية (١٩٣) من سورة البقرة - ذات معنى واسع تشمل كل أنواع الضغوط، فتارة يستعملها القرآن بمعنى عبادة الأصنام والشرك الذي يشمل كل أنواع التحجر والجمود واضطهاد أفراد المجتمع.

وتطلق الفتنة أيضاً على الضغوط التي يفرضها الأعداء، للوقوف بوجه اتساع دعوة الإسلام، ولإسكات صوت أهل الحق، بل حتى إرجاع المؤمنين نحو الكفر.

---

(١) مستدرك، ج ٧، ص ٤٤٨ و ٤٤٩.
(٢) صحيح مسلم وفقاً لما نقله صاحب المنار في تفسيره، ج ٩، ص ٦٦٥. صحيح مسلم، ج ١، ص ٧٨.

وفي الآية محل البحث فسر الفتنة بعضهم بمعنى الشرك، وفسّرها آخرون بأنّها تعني سعي الأعداء لسلب الحريات الفكرية والاجتماعية من المسلمين. ولكن الحقّ أنّ مفهومها واسع يشمل الشرك، بقرينة قوله: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ ويشمل سائر ضغوط الأعداء على المسلمين.

الهدف من الجهاد وبُشرى كريمة

تشير الآية آنفة الذكر إلى قسمين من أهداف الجهاد المقدسة وهما:

١ - القضاء على عبادة الأصنام وتطهير الارض من معابدها ونحو ذلك وكما ذكرنا في بحثنا عن أهداف الجهاد فإنّ الحريّة الدينية تتعلق بمن يتّبع أحد الأديان السماوية فلا يجوز إكراه هؤلاء من أجل تغيير عقيدتهم، ولكن عبادة الأصنام ليست ديناً ولا فكراً، بل هي خرافة وجهل وانحراف، وعلى الحكومة الإسلامية إزالتها وتطهير البلاد منها عن طريق الإعلام والتبليغ الإسلامي - أوّلاً - وإذا لم يؤدّ ذلك إلى نتيجة فيجب اللجوء إلى القوة لتدمير معابد الأوثان.

٢ - نيل الحرية في نشر الإسلام والتبليغ له، وفي هذا القسم أجاز الإسلام استخدام القوّة في مواجهة من يمنع المسلمين من نشر عقيدتهم لفتح الطريق بوجه الحوار المنطقي السليم.

وقد ورد في تفاسير أهل السنة كتفسير «روح البيان» للآلوسي، وتفاسير شيعية أُخرى، عن الإمام الصادق عليه السلام «لم يجيء تأويل هذه الآية، ولو قام قائمنا بعدُ، سيرى من يدركه ما يكون من تأويل هذه الآية، وليبلغن دين محمّد ما بلغ الليل حتى لا يكون شرك على ظهر الأرض كما قال تعالى»(١).

ولقد أنكر صاحب تفسير المنار - لتعصبه - هذا الحديث الوارد في شأن مسألة قيام المهدي عليه السلام، وذلك لحكمه المُسبق المخطىء في هذه القضية، والعجيب أن له ميلاً خاصاً في تفسيره إلى الفكر الوهابي، مع أنّ الوهابيين بالرغم من تعصّبهم يصرحون بأنّ ظهور الإمام المهدي عليه السلام من الأُمور المسلّم بها، ويعتبرون الرّوايات فيه من المتواترات.

---

(١) راجع مجمع البيان، ذيل الآية، وتفسير نور الثقلين، ج٢، ص١٥٥، تفاسير أُخرى. تفسير مجمع البيان ج ٤، ص ٥٤٣، ذيل الآية مورد البحث.

وسنورد الأدلة والمصادر في هذا الصدد في ذيل الآية (٣٣) من سورة التوبة، كما سنشير إلى النقطة الأساسية في خطأ هذا المفسّر والرد عليها، ولقد فصّلنا الأمر في كتابنا «المصلح العالمي الكبير».

وإذا كانت بعض الرّوايات المتعلقة بظهور المهدي غير صحيحة وفيها بعض الخرافات، فلا ينبغي أن يؤدّي ذلك إلى الإعراض عن بقية الرّوايات الصحيحة والمتواترة!

وأخيراً فإنّ الآية في نهايتها، وتزامناً مع الشدة في العمل، تمدّ يد المحبّة والرأفة إلى الأعداء مرّة أخرى فتقول: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ولكن إذا تمادوا في عنادهم وطغيانهم ولم يستسلموا للحقّ، فاعلموا أنّ النصر حليفكم والهزيمة من نصيب أعدائكم، لأنّ الله مولاكم وهو خير ناصر ومعين: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾.

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾

التّفسير

الخمس فرضٌ إسلامي مهم

وجدنا في بداية هذه السورة كيف أنّ بعض المسلمين تشاجروا في شأن تقسيم الغنائم بعد غزوة بدر، وقد أمر الله سبحانه - درءاً للخلاف - أن توضع الغنائم تحت تصرف النّبي ﷺ لينفقها بما يراه صالحاً، فقام بتقسيمها بالتساوي بين المقاتلين المسلمين.

وفي هذه الآية عود إلى مسألة الغنائم، لتناسب الآيات التي سبقتها، والتي كانت تتكلم عن الجهاد، إذ وجدنا في بعضها إشارات مختلفة لموضوع الجهاد، ولما كان الجهاد يرتبط بمسألة الغنائم غالباً، فكان في المقام تناسب بين الجهاد وبين ذكر أحكام الغنائم «بل سنلاحظ أنّ القرآن تعدى في حكمه إلى أبعد من مسألة الغنائم، ونظر إلى جميع الموارد».

يقول الحق سبحانه: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ (الأئمة من أهل البيت عليهم السلام) وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ - من ذرية الرسول ﷺ أيضاً. ويضيف مؤكّداً ﴿إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾.

وينبغي الالتفات إلى أنّه على الرغم من أنّ الخطاب في الآية موجه إلى المؤمنين، لأنّها تبحث في غنائم الجهاد الإسلامي، وبديهي أنّ المجاهد مؤمن، لكنّها مع ذلك تقول: ﴿إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ﴾ وفي ذلك إشارة إلى أنّ ادعاء الإيمان وحده لا يعدّ دليلاً على الإيمان، بل حتى المشاركة في سوح الجهاد قد لا تكون دليلا على الإيمان، فقد تكون وراء ذلك أمور أُخرى، فالمؤمن الكامل هو الذي يذعن لأوامر الله كافة وينقاد لها، وخاصّة الأوامر والأحكام المالية، ولا يأخذ ببعض ويترك بعضاً، وتشير الآية في نهايتها إلى قدرة الله غير المحدودة، فتقول: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي بالرغم من قلتكم يوم بدر وكثرة عدوّكم في الظاهر، لكن الله القادر خذلهم وأيدكم فانتصرتم عليهم.

بحوث

١ - يوم الفرقان بين الحق والباطل

سمّي يوم معركة بدر بيوم الفرقان بين الحق والباطل، ويوم الالتقاء بين جماعة الكفر وجماعة الإيمان، وفي ذلك إشارة إلى ما يلي:

أوّلاً: إنّ يوم بدر ظهرت فيه الأدلة على صدق النبي ﷺ لأنّه وعد المسلمين بالنصر قبل ذلك، مع أنّ القرائن في الظاهر لم تكن دالة على ذلك، ولقد اتّحدت تلك الأسباب بشكل غير متوقع فكان النصر، وهو ما لا يمكن حمله على المصادفة والاتفاق فبناءً على ذلك فإن صدق الآيات التي نزلت على النّبي ﷺ في ذلك اليوم كان كامناً في الآيات نفسها.

ثانياً: إنّ المعركة في بدر: ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ كانت في الواقع إحدى النعم الإلهيّة الكبرى على المسلمين، لأنّ بعضهم كان يخشاها في البداية، لكن تلك المواجهة والنصر دفعا بهم خطوات كبيرة نحو الأمام، إذ بلغ صداهم واشتهارهم بذلك أنحاء الجزيرة العربية، ودعا الجميع للتفكّر في هذا الدين الجديد وقدرته المذهلة وكان ذلك

اليوم يوماً شديداً على الأُمّة الإسلامية القليلة آنئذ، حيث امتاز به المؤمنون الصادقون عن المدّعين الكاذبين، فكان ذلك اليوم بكل جوانبه يوم الفرقان بين الحق والباطل.

٢ - ذكرنا في بداية السورة عدم وجود تضادّ بين آية الأنفال وهذه الآية، ولا موجب لاعتبار إحداهما ناسخة للأخرى، لأنّه بمقتضى آية الأنفال فإنّ الغنائم الحربية هي للنّبي ﷺ، إلاّ أنّه وهب أربعة أخماسها للمقاتلين المسلمين، وادخر الخمس المتبقي للموارد التي ذكرتها الآية «ولمزيد الإيضاح راجع بحثنا في تفسير الآية الأُولى من هذه السورة».

٣ - ما هو المراد من ذي القربى؟

ليس المراد في هذه الآية الأقرباء كلّهم ولا أقرباء النّبي ﷺ جميعاً، بل هم الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام، والدليل على هذا الأمر هو الرّوايات المتواترة التي وردت عن النّبي ﷺ عن طرق أهل البيت(١)، وتوجد أدلة أُخرى على ذلك في كتب أهل السنّة.

فبناءً على ذلك فإنّ من يرى أنّ سهماً من الخمس يتعلق بكل أقرباء النّبي ﷺ يواجه هذا السؤال وهو: ما هذا الامتياز الذي أولاه الإسلام لأقرباء النّبي ﷺ وقومه، مع أنّ الإسلام بعيد عن القبلية والقومية والعرقية؟!

لكنّنا إذا خصصنا «ذي القربى» بالأئمّة من أهل البيت عليهم السلام مع ملاحظة أنّهم خلفاء النّبي ﷺ وقادة الحكومة الإسلامية، يتّضح السبب في إعطائهم هذا السهم من الخمس.

وبعبارة أُخرى: إنّ السهام الثّلاثة «سهم الله وسهم النّبي وسهم ذي القربي» ترجع جميعها إلى قائد الحكومة الإسلامية، فيصرف منها في شؤون حياته البسيطة، وينفق الباقى منها في ما يوجبه مقام القيادة، أي إنّه يصرفها في الحقيقة في حاجات الناس والمجتمع!.

وبما أنّ بعض المفسّرين من أهل السنّة «كصاحب المنار» يرى أنّ ذا القربى هو جميع الأقارب، فقد تخبط في الإجابة على السؤال آنف الذكر وظلّ في حيرة من أمره، حتى جعل النّبي ﷺ أشبه بالملوك والسلاطين، فأوجب عليه أن يجذب قومه وقبيلته اليه بالأموال التي عنده!

(١) وسائل الشيعة، ج ٦، باب الخمس؛ أصول الكافي، ج ١، ص ٢٩٤، ٤١٤.

ومن الواضح بطلان هذا المنطق، إذ يتنافى ومنطق الحكومة العالمية الإنسانية التي لا تعترف بالامتيازات القبليّة «وسيأتي إيضاح هذا الموضوع بصورة أكثر في البحوث المقبلة، إن شاء الله».

٤ - ما هو المراد من اليتامى والمساكين وابن السبيل؟

إنّ المقصود باليتامى والمساكين وابن السبيل - في الآية - هم هذه الطوائف الثلاث من بني هاشم بالرغم من أنّ ظاهر الآية مطلق غير مقيد، ودليلنا على التقييد هو الرّوايات الكثيرة الواردة عن أهل البيت عليهم السلام (١)، ونعلم بأنّ كثيراً من الأحكام المطلقة في النصوص القرآنية قيدتها السنة النبوية وجعلت لها شروطاً وهذا الأمر غير منحصر بالآية محل البحث حتى تكون مثاراً للغرابة والتعجب.

أضف إلى ذلك أنّ الزكاة محرمة على المحتاجين من بني هاشم، فيلزم توفير مصدر آخر لهم، وهذه قرينة على أنّ الآية تخصُّ المحتاجين من بني هاشم.

لذا نقرأ في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «إنّ الله تعالى لما حرّم علينا الصدقة أنزل لنا الخمس، فالصدقة علينا حرام والخمس لنا حلال»(٢).

٥ - هل الغنائم منحصرة في غنائم الحرب؟

الموضوع المهم الآخر الذي يجب أن يبحث في الآية، وهو في الحقيقة بمثابة العمدة فيها، هو: هل لفظ الغنيمة المذكور فيها يطلق على الغنائم الحربية فحسب، أو الموضوعُ أوسع من ذلك فيشمل كل زيادة في المال؟!

ففي الصورة الأُولى فإنّ الآية تبيّن الخمس في غنائم الحرب فحسب، وأمّا الخمس في سائر الموارد فينبغي معرفته من السنّة والأخبار المتواترة وصحيح الرّوايات، ولا مانع أن يشير القرآن إلى قسم من أحكام الخمس بما يناسب مسائل الجهاد، وأن تتناول السنّة الشريفة بيان أقسامه الباقية.

فمثلاً قد وردت الصلوات الخمس اليومية صريحة في القرآن، كما أشير إلى صلاة الطواف التي هي من الصلوات الواجبة أيضاً، ولم ترد أيّة إشارة في القرآن إلى صلاة الآيات المتفق على وجوبها من قبل الفرق الإسلامية من أهل السنّة والشيعة كافة، ولا

---

(١) وسائل الشيعة، ج ٩، ص ٥٠٩ و ٥١٠.

(٢) وسائل الشيعة، ج ٦، باب الخمس، وتفسير مجمع البيان ذيل الآية مورد البحث.

نجد قائلاً يقول بأنّه لا يجب الإتيان بصلاة الآيات لأنّها لم تذكر في القرآن أو أنّ القرآن أشار إلى بعض الأغسال ولم يذكر غيرها، فيجب ترك ما لم يشر إليه القرآن! فهذا المنطق لا يقره أي مسلم أبداً.

فبناءً على ذلك، لا إشكال في أن يبيّن القرآن قسماً واحداً من أقسام الخمس فحسب، ويترك توضيح الباقي إلى السنّة، وفي الفقه الإسلامي نظائر كثيرة لهذه المسألة.

إلاّ أنّه مع هذه الحال ينبغي أن ننظر إلى معنى «الغنيمة» في اللغة والعرف!

فهل هي منحصرة في غنائم الحرب؟! أم تشمل كل أنواع الأرباح والزيادة في المال؟!

الذي يستفاد من كتب اللغة هو أنّ جذرها اللغوي لم يرد في ما يؤخذ من العدوّ في الحرب، بل تشمل كل أنواع الزيادة المالية وغيرها.

ونشير هنا إلى بعض كتب اللغة المشهورة التي يعتمد عليها علماء العربية وأُدباؤها على سبيل المثال والشاهد. إذ نقرأ في كتاب «لسان العرب» الجزء الثّاني عشر قوله: «الغُنم الفوز بالشيء من غير مشقّة، والغُنم والغنيمة، والمغنم: الفيء، وفي الحديث: الرهن لمن رهنه له غُنمه وعليه غرمه، غنمه زيادته ونماؤه وفاضل قيمته... وغنم الشيء غُنماً فاز به...»[1].

ونقرأ في الجزء التاسع من «تاج العروس»: والغنم: «الفوز بالشيء بلا مشقّة»[2].

وفي كتاب «القاموس» هذا المعنى نفسه للغنيمة أيضاً.

وجاء في كتاب «المفردات» للراغب أنّ أصل الغنيمة من الغَنَم، ثمّ يقول: ثمّ استعملوه في كل مظفور به من العدى وغيره.

وحتى من ذكر أنّ معناها هو غنائم الحرب، لم ينكر أنّ معناها في الأصل واسع وشامل لكل خير يقع بيد الإنسان بدون عناء ومشقة.

وترد الغنيمة في العرف في مقابل الغرامة، فكما أنّ معنى الغرامة واسع شامل لكل أنواع الغرامات، فإنّ معنى الغنيمة واسع شامل لكل أنواع الغنائم.

وقد وردت هذه الكلمة في نهج البلاغة كثيراً بالمعنى المذكور نفسه، إذ نقرأ في الخطبة (٧٦) قوله عليه السلام: «اغتنم المُهل».

---

(١) لسان العرب، ج ١٢، ص ٤٤٥.

(٢) تاج العروس، ج ٩، ص ٧.

وفي الخطبة (١٢٠) يقول عليه السلام: «من أخذها لحق وغنم».

ويقول في كتابه (٥٣) إلى مالك الأشتر: «ولا تكوننّ عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم».

ويقول في كتابه (٤٥) إلى عثمان بن حنيف: «فوالله ما كنزت من دنياكم تبراً ولا ادخرتُ من غنائمها وفراً».

ويقول في بعض كلماته القصار برقم (٣٣١): «إنّ الله جعل الطاعة غنيمة الأكياس».

ويقول في كتابه (٤١): «واغتنم من استقرضك في حال غناك».

ونظير هذه التعابير والكلمات التي تدل على عدم انحصار معنى الغنيمة في غنائم الحرب كثير.

وأمّا ما قاله المفسّرون:

إنّ أكثر المفسّرين الذين تناولوا هذه الآية بالبحث صرّحوا بأنّ للغنيمة معنى واسعاً في اللغة يشمل غنائم الحرب وغيرها ممّا يحصل عليه الإنسان من دون مشقّة، وحتى الذين قالوا بأنّها تختص بغنائم الحرب «الفتوى فقهاء السنة» يعترفون بأنّ معناها في اللغة غير مقيد، بل قيّدوه بدليل آخر.

«القرطبي» مفسّر أهل السنّة المعروف، كتب في ذيل الآية: «إنّ الغنيمة في اللغة هو الخير الذي يناله الفرد أو الجماعة بالسعي والجد»[١].

وينبغي أن يُعلم أنّ علماء أهل السنة متفقون على أنّ المراد من الغنيمة المذكورة في آية ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ﴾ هي الأموال التي يحصل عليها الناس بالقوّة في الحرب، وينبغي ملاحظة أنّ هذا القيد غير وارد في اللغة، لكنّه ورد في العرف الشرعي.

ويقول «الفخر الرازي» في تفسيره: الغنم الفوز بالشيء. ويقول بعد هذا: إنّ المعنى الشرعي للغنيمة في اعتقاد فقهاء أهل السنة هو غنائم الحرب[٢].

كما أنّ «صاحب المنار» قد ذكرها بمعناها الواسع ولم يخصصها بغنائم الحرب، بالرغم من اعتقاده بلزوم تقييد المعنى الواسع بالقيد الشرعي، وتخصيص الآية بغنائم الحرب[٣].

---

(١) راجع تفسير القرطبي، ج ٤، ص ٢٨٠، ٢٨٤.

(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي، ج ١٥، ص ١٦٤، ذيل الآية مورد البحث.

(٣) تفسير المنار، ج ١٠، ص ٧٠٣، ذيل الآية مورد البحث.

وقال «الآلوسي» في تفسيره روح المعاني: «إن الغنم في الأصل معناه كل ربح ومنفعة»[١].

وقال صاحب «مجمع البيان» في بداية كلامه: إنّ الغنيمة بمعنى غنائم الحرب، إلاّ أنّه لما بيّن معنى الآية قال: «قال أصحابنا: إنّ الخمس واجب في كل فائدة تحصل للإنسان من المكاسب وأرباح التجارات، وفي الكنوز والمعادن والغوص، وغير ذلك ما هو مذكور في الكتب، ويمكن أن يستدل على ذلك بهذه الآية، فإنّ في عرف اللغة يطلق على جميع ذلك اسم الغنم والغنيمة»[٢].

والعجيب أنّ بعض المغرضين - وكأنّهم مأمورون ببث السّموم في الأفكار - حرّفوا ما ذكره صاحب مجمع البيان في كتاب ألّفوه في شأن الخمس، حيث ذكروا عبارته الأُولى في تفسير الغنيمة بأنّ المراد منه غنائم الحرب، ولكنّهم لم يشيروا إلى إيضاحاته حول عموميّة المعنى اللغوي ومعنى الآية الذي أورده أخيراً، وقد كذبوا بما لفقوا على هذا المفسّر الإسلامي الكبير، وكأنّهم يتصوّرون أنّ كتاب مجمع البيان في أيديهم ولن يقرأه غيرهم. والأعجب من ذلك أنّهم لم يرتكبوا هذه الخيانة الفكرية فحسب، بل تصرفوا في كتب أُخرى فأخذوا بما ينفعهم وتركوا ما يضرّهم.

وفي تفسير «الميزان» ورد بصراحة - استناداً إلى علماء اللغة - أنّ الغنيمة هي كل فائدة تستحصل عن طريق التجارة والكسب أو الحرب، ومع أنّ سبب نزول الآية هو غنائم الحرب، إلاّ أنّ ذلك لا يخصص مفهوم الآية وعموميتها[٣].

ونستنتج ممّا ذكرناه آنفاً ما يلي:

إنّ آية الغنائم ذات معنى واسع يشمل كل فائدة وربح، لأنّ معنى الغنيمة اللغوي عام ولا دليل على تخصيص الآية.

والشيء الوحيد الذي استند إليه جماعة من مفسّري أهل السنّة، هو أنّ الآيات السابقة والآيات اللاحقة لهذه الآية تتعلق بالجهاد، وهذا الأمر يكون قرينة على أنّ آية ﴿أَنَّمَا غَنِمْتُم﴾ تتعلق بغنائم الحرب.

في حين أنّ أسباب النّزول وسياق الآيات لا يخصص عمومية الآية كما هو معلوم،

---

(١) تفسير روح المعاني: ج ١٠، ص ٢، ذيل الآية مورد البحث.
(٢) تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٥٤٣، ذيل الآية مورد البحث.
(٣) تفسير الميزان، ج ٩، ص ٨٩.

وبعبارة أجلى: لامانع من كون مفهوم الآية ذا معنى عام، وأن يكون سبب نزولها هو غنائم الحرب في الوقت ذاته، فهي من مصاديق هذا المفهوم أو الحكم.

ونظير هذه الأحكام كثير في القرآن الكريم والسنّة المطهرة، بأن يكون حكمها عاماً ومصداقها جزئياً «خاصّاً».

فمثلاً في الآية ٧ من سورة الحشر نقرأ قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ فهذه الآية ذات حكم كلي في وجوب الالتزام بأوامر النّبي ﷺ مع أنّ سبب نزولها هو الأموال التي تقع بأيدي المسلمين من دون حرب، ويطلق على ذلك اصطلاحاً «الفيء».

وكذلك نجد في الآية (٢٣٣) من سورة البقرة حكماً كلياً في قوله: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ مع أنّه يتعلق بالنساء المرضعات والأمر موجه لآباء الأطفال الرضّع أن يعطوا المرضعات أجورهن حسب وسعهم. وكون الآية واردة في هذا الأمر الخاص لا يمنع من عمومية القانون الذي جاءت به وهو عدم التكليف.

الخلاصة، إنّ الآية محل البحث جاءت في سياق آيات الجهاد، إلاّ أنّها تقول: «إنّ أية فائدة أو ربح تحصلون عليه - ومنه غنائم الحرب - فعليكم أن تعطوا خمسه».

وخاصّة أنّ «ما» الموصولة «ومن شيء» لفظان عامان ليس فيهما قيد ولا شرط وهما يؤكّدان هذا الموضوع.

٦ - ألا يعد تخصيص نصف الخمس لبني هاشم تبعيضاً بين المسلمين؟!

يتصوّر بعضٌ أن هذه الضريبة الإسلامية الشاملة لخمس الكثير من الأموال، أي نسبة (عشرين المائة) حيث يعطى نصفها للسادة من أبناء الرسول ﷺ، نوعٌ من التمييز العنصري أو ملاحظة العلاقات العائلية، وأنّ هذا الأمر لا ينسجم وروح العدالة الاجتماعية للإسلام وكونها شاملة لجميع العالم.

الجواب:

إنّ هؤلاء لم يدرسوا ظروف هذا الحكم وخصوصياته بدقة كافية، فالإجابة على هذا السؤال كامنة في تلك الخصوصيات.

وتوضيح ذلك: **أوّلاً**: إن نصف الخمس المتعلق ببني هاشم إنّما يعطى للمحتاجين والفقراء منهم فحسب، ولما يكفيهم لسنة واحدة لا أكثر، فبناءً على ذلك تصرف هذه الأموال على المقعدين عن العمل والمرضى واليتامى من الصغار، أو من يكون في ضيق

وحرج لسبب من الأسباب ولهذا فإنّ القادرين على العمل «بالفعل أو بالقوّة» والذين بإمكانهم أن يديروا حياتهم المعاشية، ليس لهم بأي وجه أن يأخذوا شيئاً من الخمس.

أمّا ما يقوله بعض السواد بأنّ السّادة يمكنهم أخذ الخمس حتى ولو كان ميزاب بيتهم من ذهب فهو كلام ساذج ولا أساس له أبداً.

ثانياً: إنّ المحتاجين والضعفاء من سادات بني هاشم لا يحق لهم أخذ شيء من الزكاة، فلهذا جاز لهم أن يأخذوا من هذا القسم من الخمس فحسب(١).

ثالثاً: إذا زاد القسم المختص لبني هاشم عن احتياجاتهم فإنّه يرجع إلى بيت المال حتى يُنفق في مصارف أُخرى، كما أنّه إذا نقص هذا السهم عن حاجتهم يدفع الباقي من بيت المال إليهم أو من سهم الزكاة.

وبملاحظة تلك النقاط الثلاث يتّضح لنا عدم وجود فرق - في الواقع - من النّاحية الماديّة بين السادة وغيرهم.

فالمحتاجون من غيرهم يمكنهم سدّ حاجتهم من الزّكاة ويحرمون من الخمس، والمحتاجون من السادة يسدّون حاجتهم من الخمس ويحرمون من الزّكاة.

فيوجد في الحقيقة صندوقان، هما صندوق الخمس وصندوق الزكاة، فيحق لكل من القسمين الأخذ من أحد الصندوقين وبصورة متساوية فيما بينهما، أي ما يحتاجه كلٌّ لعام واحد (فتأمل).

فالذين لم يُمعنوا النظر في هذه الشروط والخصوصيات تصوّروا أنّ ذرية النّبي ﷺ لهم الحق في الأخذ من بيت المال أكثر من غيرهم أو أنّهم يتمتعون بامتياز خاص.

والسؤال الوحيد الذي يطرح نفسه هنا هو: إذا قلنا بعدم الفرق بين الاثنين آخر الأمر، فما جدوى هذه الخطة إذاً؟!

ويمكن أن ندرك جواب هذا التساؤل بملاحظة شيء واحد، وهو أنّ بين الزكاة والخمس بوناً شاسعاً، إذ إنّ الزكاة من ضرائب الأموال العامّة للمجتمع الإسلامي فتصرف عموماً في هذه الجهة، ولكن الخمس من ضرائب الحكومة الإسلامية فيصرف على القيادة والحكومة الإسلامية وتؤمن حاجتها منه.

---

(١) إنّ حرمة أخذ بني هاشم الزكاة مسلم بها وقد وردت في أكثر كتب الحديث وفتاوى العلماء وكتبهم الفقهية، فهل يعقل بأنّ الإسلام قد فكّر في شأن الفقراء والمحتاجين من غير بني هاشم ولم يعالج قضية المحتاجين من بني هاشم؟ فتركهم لحالهم. أصول الكافي، ج ١، ص ٥٤٠.

فالتحريم على السادة من مدّ أيديهم للأموال العامّة، «الزّكاة» كان في الحقيقة ليجتنبوا عن هذا المال باعتبارهم أقارب النّبي، ولكيلا تكون ذريعة بيد الأعداء بأنّ النّبي ﷺ سلط أقرباءه على الأموال العامّة.

إلاّ أنّه - من جانب آخر - ينبغي سدّ حاجة الضعفاء والفقراء من السادة، لذلك جعلت هذه الخطة لسدّ حاجتهم من ميزانية الحكومة الإسلامية لا من الميزانية العامّة ففي الحقيقة إنّ الخمس ليس امتيازاً لبني هاشم، بل هو لإبعادهم من أجل الصالح العام ولئلا ينبعث سوء الظن بهم(١).

والذي يسترعي النظر أنّ هذا الأمر أشارت إليه أحاديث الشيعة والسنّة، ففي حديث عن الإمام الصادق نقرأ: «إنّ أُناساً من بني هاشم أتوا رسول الله ﷺ فسألوه أن يستعملهم على صدقات المواشي، وقالوا: يكون لنا هذا السهم الذي جعل الله عزّوجلّ للعاملين عليها فنحن أولى به، فقال رسول الله ﷺ: يا بني عبد المطلب (هاشم) إنّ الصدقة لا تحل لي ولا لكم، ولكنّي وعدت الشفاعة، إلى أن قال: «أتروني موثراً عليكم غيركم»(٢).

ويدل هذا الحديث على أن بني هاشم كانوا يرون في ذلك الأمر حرماناً، وقد وعدهم النّبي ﷺ أن يشفع لهم.

ونقرأ حديثاً في صحيح مسلم الذي يعد من أهم مصادر الحديث عند أهل السنّة، خلاصته أنّ العباس وربيعة بن الحارث جاءا إلى النّبي ﷺ وطلبا منه أن يأمر ابنيهما - وكانا فتيين وهما عبدالمطلب بن ربيعة والفضل بن العباس - بجمع الزكاة ليتمكنا أن يأخذا سهماً منه شأنهما كشأن الآخرين، ليؤمّنا لنفسيهما المال الكافي لزواجهما، فامتنع النّبي ﷺ وأمر بسد حاجتهما عن طريق آخر وهو الخمس.

ويستفاد من هذا الحديث الذي يطول شرحه أنّ النّبي ﷺ كان مصرّاً على إبعاد أقاربه عن الحصول على الزكاة التي هي من أموال عامّة الناس.

من مجموع ما قلناه يتّضح أنّ الخمس ليس امتيازاً للسّادة، بل هو نوع من الحرمان لحفظ المصالح العامّة.

---

(١) وإذا لاحظنا أنّ في بعض الرّوايات التعبير بـ«كرامة لهم من أوساخ الناس» فهو ليُقنع بني هاشم من هذه الحرمة من جانب، وليفهم الناس أن يؤدوا الزّكاة إلى المحتاجين ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

(٢) وسائل الشيعة، ج ٦، ص ١٨٦؛ أصول الكافي، ج ٤، ص ٥٨.

٧ - ما هو المراد من سهم الله؟

إنّ ذكر سهم على أنّه سهم الله، للتأكيد على أهمية مسألة الخمس وإثباتها، ولتأكيد ولاية الرّسول والقيادة الإسلامية وحاكمية النّبي ﷺ أيضاً.

أي كما أنّ الله جعل سهماً باسمه وهو أحق بالتصرف فيه، فقد أعطى النّبي والإمام حق الولاية والتصرف فيه كذلك، وإلاّ فإنّ سهم الله يُجعل تحت تصرف النّبي أو الإمام يصرفه في المكان المناسب، وليس لله حاجة في سهم معين.

﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾

التّفسير

الأمر الذي لابدّ منه

يعود القرآن في هذه الآيات الكريمة - ولمناسبة الكلام في الآيات السابقة عن يوم الفرقان يوم معركة بدر وانتصار المسلمين المؤزر في ذلك الموقف الخطير - يعود ليعرب عن أجزاء من فصول تلك المعركة، ليطلع المسلمون على أهمّية ذلك النصر العظيم.

فتقول الآية الأُولى من الآيات محل البحث: ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ﴾.

«العُدوة» مأخوذة من «العدو» على زنة «السَّرْو» ومعناها في الأصل التجاوز، ولكنّها تطلق على أطراف كل شيء، وحواشيه، لأنّها تتجاوز الحدّ الوسط إلى إحدى الجوانب، وجاءت هذه الكلمة في هذه الآية بهذا المعنى أي «الطرف، والجانب».

«والدنيا» مأخوذة من الدنّو، على وزن العلوّ وتعني الأقرب، ويقابل هذا اللفظ الأقصى والقصوى.

وكان المسلمون في الجانب الشمالي من ميدان الحرب الذي هو أقرب إلى جهة المدينة، وكان الأعداء في الجانب الجنوبي وهو الأبعد.

ويحتمل أن يكون المعنى هو أنّ المسلمين لاضطرارهم كانوا في القسم الأسفل في الميدان، وكان الأعداء في القسم الأعلى منه وهو يعدّ ميزة لهم.

ثمّ تعقب الآية قائلةً: ﴿وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ﴾.

وكما رأينا من قَبلُ فإنّ أبا سفيان حين علم بتحّرك المسلمين غيّر مسير قافلته إلى جهة أُخرى على جانب البحر الأحمر حتى صار قريباً من مكّة، ولو أنّ المسلمين لم يضلّوا أثر القافلة فلعلهم كانوا يتبعونها، ولا يوفّقون لمواجهة الأعداء ومنازلتهم في معركة بدر التي تحقق فيها النصر العظيم والفتح المبين.

وبغض النظر عن كل ذلك فإنّ عدد قوات المسلمين وإمكاناتهم كان أقلّ من قوات الأعداء من جميع الوجوه، لهذا فإنّ الآية الكريمة تقول: ﴿وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ﴾.

لأنّ الكثير منكم سيدركون ضعفهم الظاهري قبال الأعداء فيتقاعسون عن قتالهم، ولكن الله جعلكم إزاء أمر مقدر، وكما تقول الآية: ﴿وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا﴾.

وليعرف الحق من الباطل في ظلال ذلك النصر غير المتوقع والمعجزة الباهرة و ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ﴾.

والمراد من «الحياة» و«الهلكة» هنا هو الهداية والضلال، لأنّ يوم بدر الذي سُمّي يوم الفرقان تجلّى فيه الإمداد الإلهي لنصرة المسلمين، وثبت فيه أن لهؤلاء علاقة بالله وأنّ الحق معهم.

وتعقبّ الآية قائلةً: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

فقد سمع نداء استغاثاتكم، وكان مطلعاً على نيّاتكم، ولذلك أيّدكم بنصره على أعدائكم.

إنّ القرائن تدلّ عن أنّ بعض المسلمين لو كانوا يعرفون حجم قوّة أعدائهم لامتنعوا عن مواجهتهم، مع أنّ طائفة أُخرى من المسلمين كانوا مطيعين للنّبي ﷺ في مواجهة

جميع الشدائد، لهذا فإنّ الله جعل الأمور تسير بشكل يلتقي فيه المسلمون - شاءوا أم أبوا - مع أعدائهم، فكانت المواجهة المصيرية.

وكان النّبي ﷺ قد رأى في منامه من قبل أنّ قلّة من المشركين تقاتل المسلمين، وكانت هذه الرؤيا إشارة إلى النصر وبشارة به، فقد رواه ﷺ للمسلمين فازدادت العزائم في الزحف نحو معركة بدر.

وبالطبع فإنّ رؤيا النّبي ﷺ في منامه كانت صحيحة، لأنّ قوّة الأعداء وعددهم بالرغم من كثرتهم الظاهرية، إلاّ أنّهم كانوا قلّة في الباطن ضعفاء غير قادرين على مواجهة المسلمين، ونحن نعرف أنّ الرؤيا ذات تعبير وإشارة، وأنّ الرؤيا الصحيحة هي التي تكشف الوجه الباطني للأمور.

والآية الثّانية: من الآيات محل البحث تشير إلى الحكمة من هذا الأمر، والنعمة التي أولاها سبحانه وتعالى للمسلمين عن هذا الطريق، فتقول: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ﴾ ولهبطت معنوياتكم، ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ، بل لأدّى ذلك إلى التنازع واختلاف الكلمة ﴿وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ وأنقذ الأمر بواسطة الرؤيا التي أظهرت الوجه الباطني لجيش الأعداء، ولأنّ الله يعرف باطنكم ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

وتُذكّر الآية الأُخرى بمرحلة من مراحل معركة بدر تختلف عن سابقتها، ففي هذه المرحلة وفي ظل خطاب النّبي المؤثر فيهم والبشائر الرّبانية، ورؤية حوادث حال التهيؤ للقتال - كنزول المطر لرفع العَطش ولتكون الرمال الرخوة صالحة لساحة المعركة - تجددت بذلك المعنويات وكبر الأمل بالنصر وقويت عزائم القلوب، حتى صاروا يرون الجيش المعادي وكأنّه صغير ضعيف لا حول ولا قوّة له، فتقول الآية المباركة: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾.

أمّا العدوّ فإنّه لما كان يجهل معنويات المسلمين وظروفهم، فكان ينظر إلى ظاهرهم فيراهم قليلاً جدّاً، بل رآهم أقل ممّا هم عليه، إذ تقول الآية في الصدد: ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾.

حتى روي عن أبي جهل أنّه قال: إنّما أصحاب محمّد أكلة جزور[1]، وفي ذلك كناية

(١) تفسير القرطبي، ذيل الآيات مورد البحث؛ تفسير الدرّ المنثور، ج ٣، ص ١٦٧.

عن منتهى القلّة. أو أنّهم سيحسمون الأمر معهم في يوم واحد من الغداة حتى العشية، وقد جاء في الأخبار أنّهم كانوا ينحرون كل يوم عشرة من الإبل لطعامهم، لأنّ عدد جيش قريش كان حوالي ألف مقاتل.

وعلى كل حال: فقد كان تأثير هذين الامرين كبيراً في نصر المسلمين، لأنّهم من جهة رأوا جيش العدو قليلا فزال كل خوف ورعب من نفوسهم، ومن جهة أُخرى ظهر عدد المسلمين قليلاً في عين العدو، كيلا يترددوا في قتال المسلمين وينصرفوا عن الحرب التي أدت في النهاية إلى هزيمتهم.

لهذا فإنّ الآية تعقب على ما سبق قائلةً: ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾.

فلم تنته هذه المعركة وحدها وفق سنة الله فحسب، بل إنّ إرادته نافذة في كل شيء ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.

وفي الآية (١٣) من سورة آل عمران إشارة إلى المرحلة الثّالثة من قتال يوم بدر، إذ تشير إلى أنّ الأعداء لمّا اشتعل أوار الحرب ورأوا الضربات الشديدة لجيش الإسلام تنزل على رؤوسهم كالصواعق، أصابهم الذعر والخوف الشديد، فأحسوا عندئذ وكأنّ جيش الإسلام قد ازداد عدده وتضاعف أضعاف ما كان عليه، فانهارت معنوياتهم وأدّى هذا الأمر إلى هزيمتهم وتمزقهم.

وممّا ذكرناه آنفاً يتّضح أنّه لا يوجد أي تناقض، لا بين الآيات محل البحث، ولا بينها وبين الآية (١٣) من سورة آل عمران، لأنّ كلاً من هذه الآيات تبيّن مرحلةً من مراحل المعركة.

فالمرحلة الأُولى: هي ما قبل القتال، وهي ما ورد فيها عن رؤيا النّبي ﷺ في منامه ورؤيته جيش المشركين قليلاً.

والمرحلة الثّانية: هي نزولهم في أرض بدر ومعرفة بعض المسلمين بعَدَد الأعداء وعُدَدِه وخوف بعضهم وخشيته من قتالهم.

والمرحلة الثّالثة: هي حصول المواجهة المسلحة وما أنعمه الله عليهم، وما رأوه من مشاهد قللّت عدد أعدائهم في أعينهم «فتأملوا بدقّة!».

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ

وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم
بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ ﴾

التّفسير

ستة أوامر أُخرى في شأن الجهاد

قال المفسّرون: إنّ أبا سفيان بعدما استطاع النجاة بقافلة قريش التجارية من مواجهة المسلمين، أرسل مبعوثاً إلى قريش الذاهبين إلى ساحة بدر ودعاهم إلى العودة، لأنّه رأى أن لا حاجة إلى القتال، لكن أبا جهل هذا المغرور والمتعصب والمتكبر أقسم أن لا يرجعوا حتى يبلغوا أرض بدر «وكانت بدر قبل هذه المعركة من مراكز اجتماع العرب، وتُقام فيها سوق تجارية كل عام» ويمكثون فيها ثلاثة أيّام، وينحرون الإبل ويأكلون ما يشتهون ويشربون الخمر، وتغني لهم المغنيّات، حتى يسمع جميع العرب بهم وتثبت بذلك قوتهم وقدرتهم!. . .

لكن أمرهم آل إلى الهزيمة فشربوا كؤوس المنايا المترعة بدلاً من كؤوس الخمر، وجلست المغنيات ينُحن على جنائزهم!!

والآيات محل البحث تشير إلى هذا الموضوع، وتنهى المسلمين عن مثل هذه الأعمال، وتضع لهم تعاليم جديدة في شأن الجهاد إضافة إلى ما سبق من هذه الأُمور.

وبصورة عاملة فإنّ في الآيات محل البحث ستة أوامر للمسلمين هي:

١ - أنها تقول أوّلاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟﴾ أي إنّ إحدى علائم الإيمان هي ثبات القدم في جميع الأحوال، وخاصّة في مواجهة الأعداء.

٢ - ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

ولا ريب أنّ المراد من ذكر الله هنا ليس هو الذكر اللفظي فحسب، بل حضور القلب، وذكر عِلمه تعالى وقدرته غير المحدودة ورحمته الواسعة، فهذا التوجه إلى الله يقوّي من عزيمة الجنود المجاهدين، ويُشعر الجندي بأنّ سنداً قويّاً لا تستطيع أية قدرة في الوجود أن تتغلب عليه يدعمهُ في ساحة القتال. وإذا قُتل فسينال السعادة الكبرى ويبلغ الشهادة العظمى، وجوار رحمة الله، فذكر الله يبعث على الاطمئنان والقوّة والقدرة والثبات في نفسه.

بالإضافة إلى ذلك، فذكر الله وحبّه يخرجان حبّ الزوجة والمال، والأولاد من قلبه، فإنّ التوجه إلى الله يزيل من القلب كل ما يضعفه ويزلزله، كما يقول الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام في دعائه المعروف - في الصحيفة السجادية - بدعاء أهل الثغور: «وأنسهم عند لقائهم العدوّ ذكر دنياهم الخدّاعة، وامحُ عن قلوبهم خطرات المال الفتون، واجعل الجنّة نصبَ أعينهم».

٣ - كما أنّ من أهم أسس المبارزة والمواجهة هو الالتفات للقيادة وإطاعة أوامر القائد والآمر، الآمر الذي لولاه لما تحقق النصر في معركة بدر، لذلك فإنّ الآية بعدها تقول: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

٤ - ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ﴾ لأنّ النزاع والفرقة أمام الأعداء يؤدّي إلى الضعف وخور العزيمة، ونتيجة هذا الضعف والفتور هي ذهاب هيبة المسلمين وقوتهم وعظمتهم ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾.

«والريح» في اللغة، هي الهواء. فالنزاع يولد الضعف والوهن.

وأمّا ذَهاب الريح، فهو إشارة لطيفة إلى زوال القوّة والعظمة، وعدم سير الأُمور كما يرام، وعدم تحقق المقصود، لأنّ حركة الريح فيما يرام توصل السفن إلى مقاصدها، ولما كانت الريح في ذلك العصر أهم قوّة لتحريك السفن فقد كانت ذات أهميّة قصوى يؤمئذ.

وحركة الرّيح في الرّايات والبيارق تدل على ارتفاع الرّاية التي هي رمز القدرة والحكومة، والتعبير آنف الذكر كناية لطيفة عن هذا المعنى.

٥ - ثمّ تأمر الآية بالاستقامة بوجه العدوّ، وفي قبال الحوادث الصعبة، فتقول: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

والفرق بين ثبات القدم في الأمر الأوّل، والاستقامة والصبر في الأمر الخامس، هو من جهة أنّ ثبات القدم يمثل الناحية الظاهرية «الجسمية» أمّا الاستقامة والصبر فليسا ظاهريين، بل هما أمران نفسيان ومعنويان.

٦ - وتدعو الآية الأخيرة - من الآيات محل البحث - المسلمين إلى اجتناب الأعمال الساذجة البَلهاء، ورفع الأصوات الفارغة، وتشير إلى قضية أبي سفيان وأسلوب تفكيره هو وأصحابه، فتقول: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

فأهدافهم غير مقدّسة، وكذلك أساليبهم في الوصول إليها، ولقد رأينا كيف أُبيدوا وتلاشى كلّ ما جاءوا به من قوّة وعدّة، وسقط بعضهم مضرجاً بدمائه في التراب، وأسبل الآخرون عليهم الدّموع والعبرات في مأتمهم، بدل أن يشربوا الخمر في حفل ابتهاجهم، وتختتم الآية بالقول: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾

التّفسير

المشركون والمنافقون ووساوس الشّيطان

مرّة أُخرى نلاحظ في هذه الآيات تجسيد جانب آخر من معركة بدر بما يتناسب والآيات السابقة في هذا الشأن، أو بما يتناسب والآية الأخيرة التي تكلّمت عن أعمال المشركين الشيطانيّة في يوم بدر.

فكما أنّ دعاة الحق مؤيدون بالله والملائكة في نهجهم الذي سلكوه، فإنّ أتباع الباطل والضالين متأثرون بوساوس الشياطين وإغواءاتهم.

وقد مرّ في بعض الآيات السابقة كيف أنّ الملائكة دافعت عن المقاتلين المسلمين في بدر (ومرّ تفسير ذلك). فإنّ أوّل آية من الآيات محل البحث تتكلم عن دفاع الشياطين عن المشركين، فتبدأ بالقول: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾.

إنّ تزيين الشيطان للعمل يكون عن طريق تحريك الأهواء والشهوات والرّذائل، فيتزين للإنسان عمله حتى ينظر إليه بإعجاب ويعده عملاً عقلائياً من جميع الجهات، ويراه منطقياً نبيلاً.

ثمّ تقول الآية: ﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾.

ولن آلوَ جهداً في الدفاع عنكم، كما يدافع الجار عن جاره ويظهر له وفاءه وإخلاصه، وألازمكم ملازمة الظل للشاخص.

كما ويحتمل في تفسير الجار هنا أنّه ليس المراد من الجار جار الدّار، بل هو من يؤوي غيره ويؤمنه ويلجأ إليه، لأنّ من عادة العرب وخاصّة القبائل أو الطوائف القويّة منها أن تضمن من يلجأ اليها من أصدقائها وأصحابها وتؤمنهم وتدافع عنهم بكل ما أُوتيت من قوّة.

فالشيطان يمنح أصحابه المشركين الأمان وبطاقة اللجوء إليه.

ثمّ تقول الآية: ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ﴾.

واستدل على نكوصه وتراجعه القهقري بدليلين هما:

أوّلاً قوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾.

فإنّه يرى آثار النصر جيداً في وجوه المسلمين الغاضبة ويشاهد عليها سمات اللطف الإلهي والإمداد الغيبي وتأييد الملائكة لهم، فمن الطبيعي أن يتراجع عندما يرى كل ذلك الدعم الرّباني والقوى الغيبية.

والثّاني قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾.

فإنّ الجزاء الإلهي ليس أمراً يسيراً يمكنه أن يقف بوجهه، بل إنّه هو العذاب الأليم ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

هل جاء الشيطان عن طريق الوسوسة أو ظهر متجسداً لهم؟

جرى الكلام بين المفسّرين حول مسألة نفوذ الشيطان إلى قلوب المشركين، وقوله لهم في ساحة معركة بدر، وكيفية حصول ذلك، وتتلخص جميع الآراء القديمة والحديثة في عقيدتين:

١ - يعتقد بعضهم أنّ هذا الأمر حصل على صورة وساوس باطنية، فقد زين لهم أعمالهم في عيونهم وصوّر لهم أنّهم يملكون قوّة لا تقهر، وأغراهم وصوّر لهم أنّه هو ملجؤهم، إلاّ أنّهم بعد قتالهم الشديد للمسلمين، والحوادث الإعجازية التي حققت النصر للمسلمين وزوال الوساوس عن قلوبهم، أحسوا بالانكسار وأنّه لا ملجأ لهم أبداً سوى ما ينتظرهم من الجزاء الإلهي والعذاب الشديد.

٢ - ويرى بعضهم الآخر أنّ الشيطان تجسد لهم في صورة الإنسان، ففي رواية

أوردتها كتب الحديث كثيراً: إنّ قريشاً عندما قررت التحرك والمسير نحو بدر، كانت تخشى الهجوم من طائفة بني كنانة لتشاجر كان بينها وبينهم، وعند ذاك جاءهم إبليس في صورة «سراقة بن مالك» الذي كان من رؤوس بني كنانة وطمأنهم بأنّهم يوافقونهم على هذا الأمر، وأنّهم سينتصرون، لكنّه تراجع لما رأى نزول الملائكة، ولاذ بالفرار وانهزم الجيش عندما رأى ضربات المسلمين الشديدة وانهزام إبليس.

وقالت قريش بعد عودتها لمكّة: إنّ سراقة السبب في انهزام الجيش، فوصل الخبر إلى سراقة فأقسم أنّه لا علم له بذلك، وعندما قصّ عليه بعضهم ما كان منه في يوم بدر أنكر كل ذلك وأقسم أنّه لم يخرج من مكّة ولم يحصل من تلك الأُمور شيء أبداً، فُعلم أنّ ذلك لم يكن سراقة بن مالك(١).

ودليل الطائفة الأُولى أنّ إبليس لا يستطيع أن يتمثل في سورة إنسان.

بينما ترى الطائفة الثّانية عدم وجود دليل على استحالة هذا الأمر أبداً، وخاصّة أنّه نقل ما يشبه هذه القصّة في هجرة النّبي ﷺ ومجيء رجل كبير على هيئة شيخ نجدي إلى دار الندوة، وإضافة إلى أنّ سياق الآية وظاهر المحادثة يتلاءم مع تجسيد الشيطان.

وعلى أية حال، فإنّ الآية تدل على أنّ الناس إذا ساروا في نهج الحق أو الباطل في الأُمور والقضايا الجماعية، فإنّ سلسلة من الإمدادات والقوى الغيبية أو القوى الشيطانية ستتحرك معهم، وهي تظهر في مختلف الصور، فعلى السائرين في سبيل الحق ومنهاج الله الحذر من هذا الأمر.

وتشير الآية بعدها إلى روحيّة جماعة ممن يميلون إلى الشرك في ساحة بدر، فتقول: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ حين تصوروا أنّهم سينتصرون مع قلّة العدد والعدّة، أو أنّهم سينالون الشهادة والحياة الأبدية في هذا المسار.

لكن هؤلاء لعدم إيمانهم وعدم معرفتهم بالإمداد الإلهي أنكروا تلك الحقائق البيّنة، لأنّه كما تقول الآية المباركة: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

وقد اختلف المفسّرون في المراد من (المنافقين) و﴿ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ ولا يُستبعد أن تكون العبارتان تشيران إلى المنافقين في المدينة، لأنّ القرآن الكريم عندما يتعرض

---

(١) نقل باختصار عن مجمع البيان ونور الثقلين، وسائر التفاسير، ذيل الآية مورد البحث.

لموضوع المنافقين في أوّل سورة البقرة يقول: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾[1].

فهؤلاء الذين ذكرتهم الآية - محل البحث - إمّا أنّهم من المنافقين الذين التحقوا بصفوف المسلمين من المدينة، وكانوا يظهرون الإسلام والإيمان ولم يكونوا في حقيقتهم كذلك، أو أنّهم من الذين تظاهروا بالإيمان في مكّة لكنّهم لم يهاجروا إلى المدينة وانضموا في معركة بدر إلى صفوف المشركين، فلمّا رأوا قلّة المسلمين في معركة بدر قبال جيوش الكافرين قالوا: إنّ هؤلاء أصابهم الغرور في دينهم الجديد وجاءوا إلى هذه الساحة.

وعلى أية حال فإنّ الله سبحانه يخبر عن نيّات هؤلاء الباطنية، ويوضح الخطأ في تفكير هؤلاء وأمثالهم.

وتجّسد الآية بعدها كيفية موت الكفار ونهاية حياتهم، فتتوجه بالخطاب إلى النّبي ﷺ فتقول: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

ومع أنّ الفعل «ترى» فعل مضارع، لكنّه مع وجود «لو» يدل على الماضي، فتكون الآية إشارة إلى حالة المشركين السابقة وموتهم الأليم، ولهذا السبب يعتقد بعض المفسّرين أنّ ذلك إشارة إلى قتل هؤلاء على أيدي الملائكة في بدر، وأوردوا في هذا الصدد بعض الرّوايات غير المؤكّدة. إلاّ أنّ القرائن - كما أشرنا سابقاً - تدل على عدم تدخل الملائكة مباشرة في الحرب أو المعركة، فبناء على هذا فإنّ الآية محل البحث تتكلم عن ملائكة الموت وكيفية قبض الأرواح والجزاء الأليم الذي يُمنى به أعداء الحق في تلك اللحظة.

و﴿عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ إشارة إلى جزاء يوم القيامة وعقابه، وقد جاء هذا التعبير في آيات أُخرى من القرآن كالآية (٢٢) من سورة الحج، والآية (١٠) من سورة المعارج بالمعنى ذاته....

ثمّ يُقال لأُولئك: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾.

والتعبير بـ ﴿أَيْدِيكُمْ﴾ إنّما جاء لأنّ أكثر أعمال الإنسان يجريها بالاستعانة باليد، وإلاّ فإنّ الآية تشمل جميع الأعمال البدنية والروحية.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠.

وتضيف الآية الأخيرة معقبة بالقول: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

ومصطلح «الظلاّم» صيغة مبالغة، ومعناها شديد الظلم، وقد أوضحنا السبب في اختيار هذه الكلمة وأمثالها في بحوث حول الظلم في المجلد الثّالث من التّفسير الأمثل فليراجع هناك.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾

التّفسير

سنّة الله لاتقبل التغيير والتبديل

في هذه الآيات إشارة إلى «سنة إلهيّة دائمة» تتعلق بالشعوب والأُمم والمجتمعات، لئلا يتصور بعض أنّ ما أصاب المشركين يوم بدر من عاقبة سيّئة كان أمراً استثنائياً، فإنّ من جاء بمثل تلك الأعمال في السابق، أو سيقوم بها مستقبلاً سينال العاقبة ذاتها.

فتقول الآية الأُولى من الآيات محل البحث: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

فبناءً على هذا فإن قريشاً والمشركين وعبدة الأصنام في مكّة، الذين أنكروا آيات الله ووقفوا بوجه الحق وحاربوا قادة الإنسانية، ليسوا وحدهم الذين نالوا جزاء ما اقترفوه، بل إنّ ذلك قانون دائم، وسنّة إلهيّة تشمل من هم أقوى منهم - كآل فرعون - كما تشمل الشعوب الضعيفة كذلك.

ثمّ توضح الآية التالية أصل هذا الموضوع فتقول: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

وبعبارة أُخرى: إنّ الرحمة الرّبانيّة عامّة تسع جميع الخلق، لكنّها تبلغُ الناس وتصل إليهم بما يناسب كفاءتهم وشأنهم، فإنّ الله سبحانه يغدق مبتدئاً بنعمه الماديّة والمعنويّة

على جميع الأُمم، فإذا استفادوا من تلك النعم في السير نحو الكمال والاستمداد منها في سبيل الحق تعالى والشكر على نعمائه، بالإفادة منها إفادةً صحيحة، فإنّ الله سبحانه سيثبت نعماءه ويزيدها، أمّا إذا استغلت تلك المواهب في سبيل الطغيان والانحراف والعنصرية، وكفران النعمة والغرور والفساد، فإنّ الله سيسلبهم تلك النعم أو يُبدلها إلى بلاء ومصيبة، بناءً على ذلك فإنّ التغيير يكون من قِبلنا دائماً، وإلاّ فإنّ النعماء الإلهيّة لا تزول!...

وتعقيباً على هذا الهدف يعود القرآن ليشير إلى حال الطغاة - كفرعون وأقوام آخرين - فيقول: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَـٰلِمِينَ﴾ ظلموا أنفسهم وظلموا سواهم أيضاً.

الجواب على سؤال:

قد يرد هنا سؤالٌ وهو: لِمَ تكررت عبارة ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ في الآي بفاصلة قليلة مرّتين، ومع اختلاف يسير في التعبير؟!

وللإجابة على هذا التساؤل ينبغي الالتفات إلى لطيفة، وهي أنّه بالرغم من أنّ التكرار أو التأكيد على المسائل الحساسة من أُصول البلاغة، ويلاحظ في أقوال البلغاء والفصحاء، لكنّ في الآيات - آنفة الذكر - فرقاً مهماً يخرج تلك العبارة عن صورة التكرار، وهو أنّ الآية الأُولى تشير إلى الجزاء الإلهي في مقابل إنكار آيات الحق والتكذيب بها، ثمّ تمثل حال هؤلاء بقوم فرعون والأقوام السابقين.

إلاّ أنّ الآية الثّانية تشير إلى تبدل النعم في الدنيا وذهاب المواهب الرّبانية، مثل الانتصارات والأمن والقدرات وما يُفتخر به، ثمّ مثّلت الآية بحال فرعون والأقوام السابقين.

ففي الحقيقة إنّ جانباً من الكلام كان عن سلب النعم وما ينتج عن ذلك من الجزاء، ويقع الكلام في جانب آخر منه على تبدل النعم وتحوّلها.

بحثان

١ - أسباب حياة الشعوب وموتها

يعرضُ التاريخ لنا شعوباً وأُممّا كثيرة، فطائفة اجتازت سلّم الرقي بسرعة، ووصلت طائفة ثانية إلى أسفل مراحل الانحطاط، وطائفة ثالثة عاشت يوماً في تشتت وضياع

وتناحر وتفرقة، ثمّ قويت في يوم آخر، وطائفة رابعة على العكس منها إذ سقطت من أعلى مراتب الفخر إلى قعر وديان الذلة والضياع.

والكثير من الناس يمرّون مرور الكرام على حوادث التاريخ المختلفة دون أي تفكر فيها، والكثير منهم بدلاً من البحث في العلل أو الأسباب الواقعية لحياة الشعوب وموتها يرجعون ذلك إلى أسباب وهمية وخيالية.

ويرجعها آخرون إلى حركة الأفلاك ودورانها إيجاباً وسلباً.

وأخيراً فإنّ بعضهم لجأ إلى مسألة القضاء والقدر بمفهومها المحّرف، أو إلى مسائل حسنِ الطالع والحظ وعدمهما، وما شابه ذلك، فيرجعون كل الحوادث الحسنة أو المرّة إلى هذه الأمور. وكل ذلك بسبب الخوف من الأسباب الحقيقية لتلك الأُمور.

والقرآن الكريم في الآيات المتقدمة يضع أصبع التحقيق على الأصل والمنبع، ويبيّن أنواع العلاج وأسباب النصر والهزيمة فيقول: لأجل معرفة الأسباب الأصيلة لا يلزم البحث عنها في السماوات ولا في الأرضين، ولا وراء الأوهام والخيال، بل ينبغي البحث عنها في وجودكم وفكركم وأرواحكم وأخلاقكم، وفي نظمكم الاجتماعية، فإنّ كل ذلك كامن فيها.

فالشعوب التي فكّرت مليّاً وحرّكت عقولها ووحدّت جموعها وتآخت فيما بينها، وكانت قوية العزم والإرادة، وقامت بالتضحية والفداء عند لزوم ذلك، هذه الشعوب منتصرة حتماً.

أمّا إذا حَلّ الضعف والتخاذل والركود مكان العمل والسعي الحثيث، وحلّ التراجعُ مكان الجرأة والنفاقُ والتفرقة مكان الاتحاد، وحبُّ النفس مكان الفداء، وحل التظاهر والرياء محل الإخلاص والإيمان، فيبدأ عند ذلك السقوط والبلاء.

وفي الحقيقة إنّ جملة: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ تبيّن أسمى قانون في حياة الإنسانية، وتوضح أنّ مدرسة القرآن الكريم هي أكرم مدرسة فكرية لحياة المجتمعات الإنسانية، وأوضحها حتى لأُولئك الذين نسوا في عصر الفضاء والذرّة قيمة الإنسان، وجعلوا حركة التاريخ مرتبطة بالمصانع والمعامل وقضايا الاقتصاد.

فهي تقول لهؤلاء: إنّكم في خطأ كبير إذا أخذتم بالمعلول وتركتم العلة الأصلية أو نسيتموها، وتمسكتم بغصن واحد من شجرة كبيرة وتركتم أصولها.

ولئلا نمضي بعيداً، فإنّ تأريخ الإسلام، أو تأريخ حياة المسلمين - بتعبير أصح - قد شهد انتصارات باهرة في بداياته، وانكسارات وهزائم مرّة صعبة بعدها.

ففي القرون الأُولى كان الإسلام يتقدم في العالم بسرعة، ويبث في كل مكان أنوار العلم والحريّة، ويبسط ظلاله على أقوام جدد بالثقافة والعلوم، فكان ذا قدرة متحركة ومحركة وبنّاءة معاً، وجاء بمدنيّة زاهرة لم يشهد التاريخ مثلها، ولم تمر بضعة قرون حتى أخذ الخمول يعطل تلك الحركة، وأخذت الفرقة والتشتت والضعف والخور والتخلف مكان ذلك الرقي، حتى بدأ المسلمون يمدّون أيديهم إلى الآخرين طلباً لوسائل الحياة الابتدائية، ويبعثون بأبنائهم إلى ديار الأجانب لأخذ الثقافة والعلم، بينما كانت جامعات المسلمين يومئذ من أرقى جامعات العالم العلمية والمراكز التي تهوي إليها أفئدة الأصدقاء والأعداء ابتغاء المعرفة، لكن الأُمور بلغت حداً بحيث إنّهم لم يصدّروا علماً وصناعة، بل استوردوا ما يحتاجونه من خارج بلدانهم.

وأرض فلسطين التي كانت يوماً مركز مجد المسلمين وعظمتهم ولم يتمكن الصليبيون - لمدّة مئتي عام - برغم تقديمهم ملايين القتلى والجرحى من ابتزازها من أيدي المقاتلين المسلمين، إلاّ أنّهم أسلموها «اليوم» خلال ستة أيّام ببساطة، في وقت كان عليهم أن يعقدوا المؤتمرات أشهراً وسنين لإرجاع شبر منها. ولا يعرف بعد هذا إلى أية نتيجة سيصلون؟

ألم يَعِدُ الله عباده بالقول: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾(١).

أو قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾(٢).

أو قوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾(٣).

فهل الله عاجز - والعياذ بالله - من تحقيق وعوده؟! أو قد نسيها! أو غيّرها؟

وإذا لم يكن كذلك، فلِمَ ذهب كل ذلك المجد والعظمة والعزّة؟

إنّ القرآن الكريم يجيب - في آية قصيرة - على كل تلك التساؤلات، ويدعو إلى العودة إلى أعماق الوجدان، والنظر في ثنايا المجتمع، فسترون أن التغيير يبدأ من أنفسكم، وأنّ الألطاف والرحمة الإلهيّة تعم الجميع، فأنتم الذين أذهبتم قدراتكم وطاقاتكم هدراً فصرتم إلى هذا الحال.

---

(١) سورة الروم، الآية: ٤٧.
(٢) سورة المنافقون، الآية: ٨.
(٣) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٥.

ولا تتكلم الآية عن الماضي فحسب ليقال: إنّ ما مضى قد مضى بما فيه من مرارة وحلاوة، وانتهى ولن يعود، والكلام عنه غير مجد وغير نافع، بل تتكلم الآية عن الحاضر والمستقبل أيضاً، فإنّكم إذا عدتم إلى الله وأحكمتم أُسس إيمانكم، ووعت عقولكم، وذكرتم عهودكم ومسؤولياتكم، وتصافحت الأيدي بعضها مع بعض وتعالت الصرخات المدويّة للنهضة، وبدأتم بالجهاد والفداء والسعي والعمل على كل صعيد، فسوف تعود المياه إلى مجاريها، وستنقضي الأيّام السود وترون أُفقاً مشرقاً وضّاءً، وستعود أمجادكم العظيمة، في صورة أجلى وأكبر!

تعالوا لتبديل أحوالكم، وليكتب علماؤكم، ويجاهد مقاتلوكم، ويسعى التجار والعمال، ويقرأ شبابكم أكثر فأكثر ويطهروا أنفسهم وتزداد معارفهم، ليتحرك دم جديد في عروق مجتمعكم فتتجلّى قدراتكم بشكل يعيد له أعداؤكم الأرض المحتلة التي لم يعد منه شبر واحد بالرغم من كل أنواع التذلل والرجاء والاستعطاف!!...

ومن الضروري أن نذكر هذه اللطيفة، وهي أنّ القيادة ذات تأثير مهم في مصير الشعوب، ولا ننسى أنّ الشعوب الواعية تختار لنفسها القيادة الحكيمة اللائقة، أمّا القادة الضعاف أو المتكبرون أو الظالمون فيسحقهم غضب الشعوب وإرادتهم القوية، ولا ينبغي أن ننسى أنّ ما وراء الأسباب والعوامل الظاهرية سلسلة من الإمدادات الغيبية تنتظر المؤمنين والمخلصين، لكنّها لا ينالها كل أحد جزافاً، بل لابدّ من الاستعداد والجدارة!

ونختتم هذا الموضوع بذكر روايتين:

الأولى: ما ورد عن الإمام الصّادق في هذا الشأن إذ قال عليه السلام: «ما أنعم الله على عبد بنعمة فسلبها إياه حتى يذنب ذنباً يستحق بذلك السلب»[(١)].

والثّانية: مَا نقرؤه في حديث آخر له عليه السلام: «إنّ الله عزّ وجلّ بعث نبياً من أنبيائه إلى قومه وأوحى إليه أن قل لقومك: إنّه ليس من أهل قرية ولا ناس كانوا على طاعتي فأصابهم فيها سراء، فتحولوا عمّا أحبّ إلى ما أكره إلاّ تحولت لهم عمّا يحبّون إلى ما يكرهون. وليس من أهل قرية ولا أهل بيت كانوا على معصيتي فأصابهم فيها ضراء فتحولوا عمّا أكره إلى ما أحبّ إلاّ تحولت لهم عمّا يكرهون إلى ما يحبّون».

والحديث طويل أخذنا منه موضع الحاجة.

---

(١) أصول الكافي، ج ٢، ص٢٧٤؛ تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ١٦٣.

٢ - لا جبر في العاقبة ولا في التاريخ، ولا في سائر الأُمور

والموضوع المهم الآخر الذي يستفاد من هذه الآيات بوضوح، هو أنّه ليس للإنسان مصير خاص قد تعين من قبلُ، ولا يقعُ تحت تأثير ما يسمى بـ«جبر التاريخ» و«جبر الزمان» بل إنّ الذي يصنع التاريخ وحياة الإنسانية، ويجعل التحوّلات في الأُسلوب والأخلاق والأفكار وغيرها، هو إرادة الإنسان نفسه!

فبناءً على ذلك فالذين يعتقدون بالقضاء والقَدر الجبري، ويقولون: إنّ الأُمور والحوادث جميعها تجري بمشيئة الله الإجبارية، تردّهم هذه الآية.

وكذلك الجبر المادي الذي يجعل من الإنسان ألعوبة بيد الغرائز التي لا تتغير وأُصول الوراثة.

أو جبر المحيط بحيث يرون أنّه تتحكم فيه الأوضاع الاقتصادية والمعامل والمصانع.

فكل ما تقدم من «الجبر» ترفضه المدرسة الإسلامية، ويرفضه القرآن، فالإنسان حرّ وهو الذي يقرر مصيره بنفسه.

إنّ الإنسان - بملاحظة ما قرأناه في الآيات من قانون - يمسك بزمام مصيره وتأريخه بنفسه، فيصنع لها الفخر والنصر، وهو الذي يسوق نفسه إلى الابتلاء والمذلة، فداؤه منه ودواؤه بيده، فإذا لم يغيّر نفسَه ولم يسعَ في بناء شخصيته لن يكون له دور في صياغة مصيره وشأنه.

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾﴾

التّفسير

مواجهة من ينقض العهد بشدّة!

في هذه الآيات المباركة إشارة إلى طائفة أُخرى من أعداء الإسلام الذين وجهوا

ضربات مؤلمة للمسلمين في حياة النّبي ﷺ المليئة بالأحداث، إلاّ أنّهم ذاقوا جزاء ما اقترفوه مُرّاً وكانت عاقبة أمرهم خُسراً، وهؤلاء هم يهود المدينة الذين عاهدوا النّبي ﷺ عدّة مرات.

وهذه الآيات تبيّن الأسلوب الشديد الذي ينبغي أن يتخذه النّبي ﷺ بحقّهم، الأُسلوب الذي فيه عبرة للآخرين، كما فيه درءٌ لخطر هذه الطائفة.

وتبدأ الآيات فتعرّف هذه الطائفة بأنّها شر الأحياء الموجودة في هذه الدنيا فتقول: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

ولعل التعبير بـ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يشير إلى أنّ كثيراً من يهود المدينة كانوا يعلنون حبّهم للنّبي وإيمانهم به قبل أن يظهر ﷺ وفقاً لما وجدوه مكتوباً عنه في كتبهم، حتى أنّهم كانوا يدعون الناس ويمهدون الأُمور لظهوره، ولكنّهم وبعد أن ظهر وجدوا أنّ مصالحهم المادية مهددة بالخطر، فكفروا به وأظهروا عناداً شديداً في هذا الأمر حتى لم تبق بارقة أمل بإيمانهم، وكما يقول القرآن الكريم: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وتقول الآية الأُخرى: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾(١). والمفروض أن يراعوا الحياد على الأقل فلا يكونوا بصدد الاضرار بالمسلمين وإعانة الأعداء عليهم.

فلا هم يخافون الله تعالى، ولا يحذرون من مخالفة أوامره، ولا يراعون القواعد والأُصول الإنسانية: ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾.

والتعبير بـ«ينقضون» و«لا يتقون» وهما فعلان مضارعان، هذا التعبير بهما يدلّ على الاستمرار، كما أنّه يدل على أنّهم قد نقضُوا عهودهم مراراً(٢).

والآية بعدها توضح كيفية أُسلوب مواجهة هؤلاء فتقول: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ أي قاتلهم بشكل مدمّر بحيث إن الطوائف القابعة خلفهم لإمدادهم يعتبروا بذلك ويتفرقوا عنهم.

وكلمة ﴿تَثْقَفَنَّهُمْ﴾ مأخوذة من مادة «الثقف» على زنة «السقف» بمعنى بلوغ الشيء

---

(١) «من» في جملة ﴿عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ﴾ إمّا للتبعيض فتعني أنّك عاهدت سادتهم أو البارزين من يهود المدينة، أو أنّها للصلة فيكون معناها عاهدتهم...

كما يرد هذا الاحتمال وهو أنّ معنى ﴿عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ﴾ هو أخذت العهد منهم.

(٢) بالإضافة إلى ما ذكرنا في المتن فهناك قرينة لفظية تدل على هذا المعنى أيضاً وهي ﴿فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾...

بدقّة وسرعة، وهي إشارة إلى وجوب التنبه والاطلاع السريع والدقيق على قراراتهم، والاستعداد لإنزال ضربة قاصمة لها وقع الصاعقة عليهم قبل أن يفاجئوك بالهجوم.

وكلمة «شرّد» مأخوذة من مادة «التشريد» وهي بمعنى التفريق المقرون بالاضطراب فينبغي أن يكون الهجوم عليهم بشكل تتفرق معه المجموعات الأُخرى من الأعداء وناقضي العهود، ولا يفكروا بالهجوم عليكم.

وهذا الأمر إنّما صدر ليعتبر به الأعداء الآخرون، بل حتى الأعداء في المستقبل أيضاً ويتجنّبوا الحرب مع المسلمين، وليتجنب نقض العهد - كذلك - الذين لهم عهود مع المسلمين، أو الذين سيعاهدونهم مستقبلاً ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ ولا تبدأهم بالهجوم قبل إبلاغهم بإلغاء العهد ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾.

وبالرغم من أنّ الآية قد منحت النّبي صلاحية نقض العهد إذا أحس بخيانتهم أو نقضهم عهودهم، إلاّ أنّ من الواضح أنّ الخوف من نقضهم العهد لا يكون جزافاً ودون سبب بل عندما يرتكبون ما يدلّ على تفكيرهم بالنقض ويتفقون مع العدوّ على الهجوم، فهذا القدر من القرائن والأمارات يجيز للنّبيّ ﷺ أن يبلّغهم إلغاء العهد.

وجملة ﴿فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ من «الإنباذ» وهي بمعنى «الإلقاء» أو «الإعلام» و«الرّد» أي: ردّ عليهم عهودهم واعلن عن إلغائها جهراً.

والتعبير بـ ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ إمّا بمعنى أنّه كما أنّهم نقضوا العهد بأعمالهم التي اقترفوها، فالغهِ أنت من جهتك أيضاً، فهذا حكم عادل، يتساوى وما فعلوه، أو بمعنى الإعلان عن ذلك بأسلوب واضح صريح لا لبس فيه ولا خدعة.

وعلى كل حال، فإنّ الآية - محل البحث - في الوقت الذي تنذر فيه المسلمين من نقض العهد، وتحذرهم أن يكونوا هدفاً وغرضاً لهجوم العدّو، فهي تدعوهم إلى رعاية مبادىء الإنسانية في حفظ العهود أو إلغائها.

وفي آخر آية - من الآيات محل البحث - يُوجه تعالى الخطاب إلى ناقضي العهد، فيحذرهم من عاقبة ذلك فيقول: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾.

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن

شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

التّفسير

المزيد من التعبئة العسكرية والهدف منها

تشير أوّل آية هنا - وتواصلاً مع الحديث في الآيات المتقدمة عن الجهاد - إلى أصل مهم يجب على المسلمين التمسك به في كل عصر ومصر، وهو لزوم الاستعداد العسكري لمواجهة الأعداء، فتقول: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾.

أي لا تنتظروا حتى يهجم العدوّ فتستعدوا عندئذ لمواجهته، بل يجب أن تكون لديكم القدرة والاستعداد اللازم لمواجهة هجمات الأعداء المحتملة.

وتضيف الآية قائلةً: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾.

«الرّباط» بمعنى شدّ الشيء، ويرد هذا الاستعمال كثيراً بمعنى ربط الحيوان في مكان ما لرعايته والمحافظة عليه، وقد جاء هذا اللفظ هنا بما يناسب ذلك بمعنى الحفظ والمراقبة بصورة عامّة.

و«المرابطة» تعني حفظ الحدود، وتأتي كذلك بمعنى الرقابة على شيء آخر، ويطلق على مكان شدّ وثاق الحيوان بـ«الرباط» ولذلك سمّت العرب أماكن نزول المجاهدين رباطاً أيضاً.

ملاحظات:

١ - في الجملة القصيرة - آنفة الذكر - بيان لأصل مهم في الجهاد وحفظ وجود المسلمين وما لديهم من مجد وعظمة وفخر، والتعبير في الآية واسع إلى درجة أنّه ينطبق على كل عصر ومصر تماماً.

وكلمة «قوّة» وإن قصرت لفظاً، إلاّ أنّها ذات معنى وسيع ومغزى عميق، فهي لا تختص بأجهزة الحرب والأسلحة الحديثة لكل عصر فحسب، بل تتسع لتشمل كلّ أنواع القوى والقدرات التي يكون لها أثر ما في الانتصار على الأعداء، سواء من الناحية المادية أو الناحية المعنوية.

فالذين يرون أنّ السبيل الوحيد للإنتصار على الأعداء هو كمية السلاح، هم على خطأ كبير، لأنّنا شاهدنا في عصرنا الحاضر شعوباً قليلة العدد وأسلحتها غير متطورة انتصرت على شعوب أقوى وذات أسلحة حديثة متطورة، كما حصل للشعب الجزائري المسلم في مواجهة الدولة الفرنسية القوية!

فبناءً على ذلك، ومضافاً إلى ضرورة تحصيل الأسلحة المتطورة في كل زمان بعنوان وظيفة إسلامية حتمية - يجب تقوية عزائم الجنود ومعنوياتهم للحصول على قوّة أكبر وأهمّ.

ولا ينبغي الغفلة عن بقية القوى والقدرات الاقتصادية والثقافية والسياسية، والتي تندرج تحت عنوان «القوّة» ولها تأثير بالغ على الأعداء.

وممّا يسترعي النظر أنّ الرّوايات الإسلامية ذكرت لنا تفاسير مختلفة في شأن «القوّة» ومعناها، وذلك يكشف عن مفهومها الواسع، ففي بعض الرّوايات نجد أنّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم بيّن أنّ المراد من القوّة هو «النّبل»[1].

ونقرأ في رواية أُخرى - وردت في تفسير علي بن إبراهيم - أن المقصود من القوة هو كل أنواع السلاح[2].

كما نقرأ في تفسير العياشي أنّ المراد منه السيف والدرع[3].

ونجد روايةً أُخرى في كتاب من لا يحضره الفقيه تقول: «منه الخضاب بالسواد»[4].

فترى أنّ الإسلام قد أولى لون شعر المقاتلين من كبار السن اهتماماً ليستعملوا الخضاب، فيراهم العدوّ في عمر الشباب فيصاب بالرعب منهم، ويكشف هذا الأمر عن مدى سعة مفهوم القوّة.

وبناءً على ذلك، فمن فسّر القوّة بمصداق واحد محدود قد جانَب الصواب جدّاً.

ولكن مع الأسف، فإنّ المسلمين على الرغم ممّا لديهم من مثل هذا التعليم

(١-٤) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ١٦٤ - ١٦٥.

الصريح، لا نجد فيهم أثراً لتقوية العزائم والمعنويات بين صفوفهم، كأنّهم قد نسوا كل شيء، ولا هم يستغلّون قواهم الاقتصادية والثقافية والعسكرية والسياسية لمواجهة عدوّهم.

والأعجب من ذلك أنّنا مع إهمالنا هذا الأمر العظيم وتركه وراء ظهورنا نزعم أنّنا مازلنا مسلمين!! ونلقي تبعة تأخرنا وانحطاطنا على رقبة الإسلام، ونقول: إذا كان الإسلام داعية ترقٍّ وتقدم، فلم نحن المسلمون في تأخر وتخلف؟!

ونحن نعتقد أنّ هذا الشعار الإسلامي الكبير: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ إذا أضحى شعاراً شاملاً في كل مكان، ينادي به الصغير والكبير، والعالم وغير العالم، والمؤلف والخطيب، والجندي والضابط، والفلاح والتاجر، والتزموا به في حياتهم وطبقوه، كان كافياً لجبران التخلفّ والتأخر.

إنّ سيرة النّبي ﷺ العملية وأئمّة الإسلام تدل على أنّهم لم يدخروا وسعاً، واستغلوا كل فرصة لمواجهة العدوّ، كإعداد الجنود وتهيئة السلاح، وشد الأزر ورفع المعنويات، وبناء معسكرات التدريب، واختيار الزمان المناسب للهجوم، والعمل على استعمال مختلف الأساليب الحربية، ولم يتركوا أية صغيرة ولا كبيرة في ذلك.

والمعروف أنّ النّبي بلغه أن سلاحاً جديداً مؤثراً صنع في اليمن أيّام معركة حنين، فأرسل النّبي جماعة إلى اليمن لشرائه فوراً.

ونقرأ في أخبار معركة أحد أنّ النّبي ﷺ ردّ على شعار المشركين «اعلُ هبل[(١)]، اعلُ هبل» بشعار أقوى منه وهو «الله أعلى وأجل» ورد على شعارهم: «إنّ لنا العزى ولا عزى لكم»[(٢)]، بقوله: «الله مولانا ولا مولى لكم»، وهذا الأمر يدلّ على أنّ النّبي ﷺ والمسلمين - كذلك - لم يغفلوا عن اختيار أقوى الشعارات في مواجهة الأعداء والردّ على عقائدهم وشعاراتهم.

ومن التعاليم الإسلامية المهمّة في هذا الصدد موضوع سباق الخيل والرماية، وما جوّزه الفقه فيهما من الربح والخسارة، فهو مثل آخر على تفكير الإسلام العميق إلى جانب الاستعداد لمواجهة الأعداء وحثّ المسلمين على ذلك.

٢ - واللطيفة المهمّة الأُخرى التي نستنتجها من الآية آنفة الذكر هو عالمية وخلود

(١) بحار الأنوار، ج ٢٠، ص ٢٣، ٤٤ و ٥٦.
(٢) بحار الأنوار، ج ٢٠، ص ٢٣ و ٤٤.

هذا الدين الإلهي، لأنّ مفاهيم هذا الدين ومضامينه ذات أبعاد واسعة لا تَخْلَقُ على مرور الزمان ولا تغدو باليةً أو منسوخة برغم القدم، فجملة: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ كان لها مفهوم حي قبل أكثر من ألف عام، كما هي الحال اليوم، وسيبقى مفهومها حياً إلى عشرات الآلاف من السنين الأُخرى لأنّ أي سلاح يظهر في المستقبل فهو كامن في كلمة «القوّة» الجامعة، إذ إنّ جملة ﴿مَّا ٱسْتَطَعْتُم﴾ عامّة، وكلمة ﴿قُوَّةٍ﴾ نكرة تؤيد عمومية تلك الجملة لتشمل كل قوّة.

٣ - ويرد هنا سؤال وهو: لماذا وردت عبارة «رباط الخيل» بعد كلمة «قوّة» بمالها من المفهوم الواسع؟

وجواب هذا السؤال هو أنّ الآية بالرغم من أنّها تتضمن قانوناً شاملاً لكل عصر وزمان، فهي في الوقت ذاته تحمل تعليماً مهماً خاصاً بعصر النّبي، الذي هو عصر نزول القرآن، وفي الحقيقة إن هذا المفهوم العام جاء بمثال واضح لذلك العصر، لأنّ الخيل كانت في ذلك الزمن من أهم وسائل الحرب، فهي وسيلة مهمّة عند المقاتلين الشجعان والأبطال في هجومهم وقتالهم السريع، وأهميتها تشبه أهمّية الطائرات والدبابات في العصر الحاضر.

الهدف من تهيئة السلاح وزيادة التعبئة العسكرية

ثمّ ينتقل القرآن بعد ذلك التعليم المهم إلى الهدف المنطقي والإنساني من وراء هذا الموضوع، فيقول: إنّ الهدف منه ليس تزويد الناس في العالم أو في مجتمعكم بأنواع الأسلحة المدمرة التي تهدم المدن وتحرق الأخضر واليابس وليس الهدف منه استغلال أراضي الآخرين وممتلكاتهم، وليس الهدف هو توسعة الاستعباد والاستعمار في العالم، بل الهدف من ذلك هو ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾!

لأنّ أكثر الأعداء لا يستمعون لكلمة الحق ولا يستجيبون لنداء المنطق والمبادئ الإنسانية، ولا يفهمون غير منطق القوّة!

فإذا كان المسلمون ضعافاً، فسوف يفرض عليهم الأعداء كل ما يريدون، أمّا إذا اكتسبوا القوّة الكافية، فإنّ أعداء الحق والعدل والاستقلال والحرية سيشعرون بالخوف ولا يفكرون بالتجاوز والعدوان.

واليوم - ونحن في تفسير هذه الآية - فإنّ قسماً من الأراضي الإسلامية في فلسطين وغيرها من الدول المجاورة تسحقها أحذية الجنود الصهاينة، وقد أغاروا بهجومهم

الأخير على لبنان فشردّوا الآلاف من العوائل، وقتلوا المئات من الأبرياء، وهدموا الكثير من الأحياء والدور السكنية، وأحالوها إلى أنقاض، فأضافوا بهذه المأساة المروعة جريمة أُخرى إلى سجلهم الأسود. . . . في وقت استنكر الرأي العام العالمي هذا العمل الوحشي حتى أصدقاء إسرائيل، وأصدرت الأمم المتحدة بياناً دعت فيه إلى إخلاء هذه الأرض، لكن هذا الشعب الذي لا يتجاوز بضعة ملايين لا يريد الاستماع لأية كلمة حق وأي منطق إنساني، وذلك لما لديه من قوّة وأسلحة واستعداد كاف للحرب أعدّه منذ سنين طويلة لمثل هذا العدوان.

فالمنطق الوحيد الذي يمكن به الردّ على هؤلاء هو منطق ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ فكأنّ هذه الآية نزلت في عصرنا الحاضر ومن أجلنا، لتقول لنا: جهزوا أنفسكم وكونوا من القوة بحيث يصاب عدوّكم بالذعر والخوف كيما يغادر أرضكم وينسحب إلى مكانه الأوّل.

وممّا يثير النظر ويسترعيه أنّ الآية هنا جمعت التعبير بـ «عدوّ الله» و«عدوّكم» وذلك إشارة إلى عدم وجود منافع وأغراض شخصية في الجهاد والدفاع عن الإسلام، بل الهدف هو حفظ رسالة الإسلام الإنسانية، فالذين يعادونكم إنّما هم أعداءُ الله وأعداء الحق والعدل والإيمان والتوحيد والأخلاق الإنسانية، فينبغي الردّ عليهم انطلاقاً من هذا المجال.

وفي الحقيقة إنّ هذا التعبير شبيه بالتعبير «في سبيل الله» أو «الجهاد في سبيل الله» الذي يدلّ على أنّ الجهاد أو الدفاع الإسلامي لا يشبه فتح البلدان في ما مضى من التاريخ، ولاغزو الاستعمار التوسعي اليوم، ولا في صورة إغارات القبائل العربية في زمن الجاهلية، بل كل ذلك من أجل الله وفي سبيل الله، وفي مسير إحياء الحق والعدل.

ثمّ تضيف الآية بأنّ المزيد من استعداداتكم العسكرية يخيف أعداء آخرين لاتعرفونهم فتقول: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾.

بحثان

١ - من هم المقصودون في الآية ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾؟

بالرّغم من أنّ المفسّرين احتملوا في هذه الطائفة الذين ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ احتمالات كثيرة، فقال بعضهم: إنّهم يهود المدينة الذين كانوا يضمرون عداءهم، وقال آخرون:

إنّها إشارة إلى الأعداء مستقبلاً، كدولة الروم والفرس اللتين لم يحتمل المسلمون يومئذ أنّهم سيكونون في حرب معهما أو يقع القتال بينهما وبينهم.

إلاّ أنّ الأصح - كما نراه - هو أن المراد منها هم المنافقون الذين دخلوا في صفوف المسلمين دون أن يعلموهم، فإذا قوي جيش الإسلام فإنّ أُولئك سيقعون في حيرة واضطراب ويرحلون، والشاهد على هذا الموضوع هو الآية (١٠١) من سورة التّوبة إذ تقول: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾.

ويحتمل أن مفهوم الآية يشمل جميع أعداء الاسلام غير المعروفين أعم من المنافقين وغيرهم.

٢ - الاستعداد في كل مكان وزمان

وتتضمن الآية تعليماً لمسلمي اليوم أيضاً، وهو أنّه لا ينبغي الاكتفاء بالإستعداد لأعداء الإسلام الذين تعرفونهم، بل عليكم أن تنتبهوا للأعداء الاحتماليين أو «بالقوّة» وأن تتهيأوا حتى تكونوا في أعلى حدّ من القوّة والقدرة، وفي الحقيقة فإنّ المسلمين لو تنبهوا لهذه القضية المهمّة لما مُنوا بهجمات الأعداء المفاجئة.

وفي نهاية الآية إشارة إلى موضوع مهم آخر، وهو أنّ الاستعداد العسكري وجمع الأسلحة والأجهزة الحربية ووسائل الدفاع المختلفة، كل ذلك يحتاج إلى الدعم المالي اللازم له، لذلك تأمر المسلمين بالتعاون الجماعي لتهيئة ذلك المال، وأن ما يبذلونه في هذا الأمر فهو عطاء في سبيل الله، ولن ينقص منه شيء أبداً ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ فيرجع إليكم جميعه، بل أكثر ممّا أنفقتم ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾، وستنالون ثواب ذلك في هذه الدنيا في انتصار الإسلام وقوته وعظمته، لأنّ الشعب الضعيف ستتعرض أمواله للخطر وسيفقد أمنه وحريته واستقلاله أيضاً، فبناءً على ذلك فإنّ ما تنفقونه في هذا السبيل سيعود إليكم عن طريق آخر وفي مستوى أفضل وأسمى.

كما أنّ ثواباً أعظم ينتظركم في العالم الآخر في جوار رحمة الله، فمع هذه الحال لا تظلمون، بل ستنالون خيراً كثيراً.

وممّا يسترعي النظر أنّ الجملة آنفة الذكر جاء فيها لفظ «شيء» وهي ذات مفهوم واسع، أي لا يخفى على الله ما تبذلونه من جميع الأشياء، مالاً كان أو نفساً أو فكراً أو منطقاً أو قوةً أو أي شي آخر ينفق في تقوية بنية المسلمين الدفاعية والعسكرية، فإنّ الله سيدخره ويعيده إليكم في حينه.

وقد احتمل بعض المفسّرين أن جملة ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ معطوفة على جملة «ترهبون» أي أنّكم إذا ما أعددتم القوة اللازمة لمواجهة الأعداء فسيخافون أن يهجموا عليكم، ولن يقدروا على ظلمكم وإيذائكم، وبناءً على ذلك فلن يصيبكم ظلم أبداً.

أهداف الجهاد في الإسلام وأركانه

واللطيفة الأُخرى التي تستفاد من هذه الآية، وتكون جواباً على كثير من أسئلة الجهلاء وإشكالاتهم، هي بيان شكل الجهاد وهدفه ومنهجه، فالآية تقول بوضوح: إنّ الهدف منه ليس قتل الناس أو الاعتداء على حقوق الآخرين، بل الهدف - كما ذكرنا - هو إرهابكم الأعداء لكيلا يعتدوا عليكم وليخافوكم، فينبغي أن تكون جميع جهودكم وسعيكم منصبّاً في سبيل قطع شر أعداء الله والحق والعدل.

فهل يملك الجهلة في أذهانهم مثل هذا التصوّر عن الجهاد في القرآن الكريم، وما صَرّحَ به في هذه الآية - محل البحث - ليسوغ لهم أن يحملوا كل هذه الحملات المسعورة المتتالية على هذا القانون الإسلامي، فتارة يدّعون بأنّ الإسلام هو دين السيف، وتارةً يقولون بأنّ الإسلام يفرض على الناس أفكاره بالحديد، ويقيسون النّبي الأكرم ﷺ بسائر محتلي البلدان في التاريخ.

وفي عقيدتنا أنّ جواب كل هؤلاء هو أن يعودوا إلى القرآن، ويفكروا في الهدف الأصيل لهذا الموضوع، لتتّضح لهم كل تلك الأُمور.

الاستعداد للصّلح

مع أنّ الآية السابقة أوضحت هدف الجهاد في الإسلام بقدر كاف، فإنّ الآية التالية التي تتحدّث عن الصلح بين المسلمين توضح هذا الأمر بصورة أجلى فتقول: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾.

ويحتمل في تفسير هذه الجملة المتقدمة أنّهم إذا بسطوا أجنحتهم للسلم فابسط جناحيك أنت للسلم أيضاً، لأنّ ﴿جَنَحُوا﴾ فعل مصدره «الجنوح» وهو الميل، ويطلق على كل طائر أنّه «جناح» أيضاً، لأنّ كل جناح في الطائر يميل إلى جهة، لذلك يمكن الاستناد في تفسير هذه الآية إلى جذر اللغة تارةً، وإلى مفهومها الثّانوي تارةً أُخرى.

ولمّا كان الناس يتردّدون أغلب الأحيان عندما يراد التوقيع على معاهدة الصلح، فإنّ الآية تأمر النّبي بعدم التردد في الأمر إذا كانت الشروط عادلة ومنسجمة مع المنطق السليم والعقل، فتقول: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

ومع ذلك فهي تحذر النّبي ﷺ والمسلمين من احتمال الاحتيال والخداع في دعوة الأعداء إلى الصلح، فقد تكون دعوةً للتمويه والرّغبة في توجيه ضربة مفاجئة، أو يكون هدفهم هو تأخير الحرب ليتمكنوا من إعداد قوات أكثر، إلاّ أنّ الآية تطمئن النّبي ﷺ أن لا يخشى هذا الأمر أيضاً، لأنّ الله عزّوجلّ سيكفيه أمرهم وسينصره في جميع الأحوال، إذ تقول: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ﴾.

وسيرتك أيّها النّبي - السابقة - شاهدة على هذه الحقيقة، لأنّ الله ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

فكم أرادوا بك كيداً، وكم مهدوا وأعدّوا لك من خطط مدمّرة بحيث لم تكن الغلبة عليها بالوسائل المألوفة ممكنةً، لكنّه عزّوجلّ حفظك ورعاك في مواجهة كل ذلك.

أضف إلى ذلك أنّ المؤمنين المخلصين قد أحاطوا بك من كل جانب ولم يدخروا وسعاً في الدفاع عنك، فقد كانوا قبل ذلك متشتتين متعادين، ولكنّ الله شرح صدورهم بأنوار الهداية ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾.

وقد كانت الحرب لسنوات طويلة قائمة على قدم وساق بين طائفتي الأوس والخزرج وكانت صدورهم تغلي غيظاً وحقداً بعضهم على بعض بشكل لم يكن أي أحد يتصور أنّهم سيعيشون بعضهم مع بعض بالحب والصفاء في يوم ما، وسيكونون صفاً واحداً متراصاً، ولكن الله القادر المتعادل فعل ذلك ببركة الإسلام وفي ظلال القرآن، ولم يكن هذا الأمر مقتصراً على الأوس والخزرج الذين هم من الأنصار، بل كان ذلك بين المهاجرين أيضاً الذين جاءوا من مكّة، إذ لم يكن بينهم - قبل الإسلام - حب ومودّة، بل كانت صدورهم مليئة بالبغضاء والشحناء أيضاً، لكن الله عزّوجلّ غسل كل تلك الأحقاد وأزالها بحيث تمكن معها ثلاثمائة وثلاثة عشر من أبطال بدر، منهم حوالي ثمانين نفراً من المهاجرين والباقي من الأنصار، فكانوا جيشاً صغيراً، لكنّه متحدّ قوي استطاع أن يكسر شوكة العدوّ ويحطم قوته.

ثمّ تضيف الآية أنّ اتّحاد تلك القلوب، أو إيجاد تلك الألفة، لم يكن بوسائل مألوفة أو مادية ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾.

إنّ الذين يعرفون حالة نفوس المتعصبين والحاقدين، كأُولئك الذين كانوا في العصر الجاهلي، يعرفون كذلك أن تلك الأحقاد والضغائن لم يكن بالإمكان إزالتها، لا بالمال ولا بالجاه والمقام، لأنّها كانت لا تزول عندهم إلاّ بالانتقام الذي يتكرر بصورة متوالية

فيما بينهم، وفي كل مرّة يكون في صورة أبشع وأكثر وحشية وإجراماً، والأمر الوحيد الذي أمكن بسببه قلع تلك الجذور الفاسدة من أصولها، هو إحداث ثورة عارمة وتغيير شامل في الأفكار والأرواح والعقائد، ثورة تصنع تحوّلاً في شخصياتهم وتبدل أساليب تفكيرهم، وترفعهم عن الحضيض الذي كانوا فيه، لتتجلى لهم أعمالهم السابقة في وجهها الكالح القبيح، فيطهّروا بذلك أنفسهم، ويدرأوا عنها الأحقاد والأوساخ والعصبية القبلية العمياء.

وهذه أُمور لا يمكن إيجادها بالثروة ولا بالمال، بل في ظلال الإيمان والتوحيد الخالص فحسب.

وتضيف الآية معقبة في الختام ﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

فعزته تقتضي عجز الآخرين من الوقوف في مواجهته، وحكمته تقتضي أن تكون كل أُموره جاريةً وفق حساب دقيق ونظام صحيح، ولهذا فإنّ الخطة الدقيقة وحّدت القلوب المتنافرة المتفرقة وجعلتها تنصاع للنّبي ﷺ لينشروا أنوار الهداية في كل أرجاء العالم.

ملاحظتان:

١ - قال بعض المفسّرين: إنّ الآية محل البحث تشير إلى الخلافات بين الأوس والخزرج، الذين هم من الأنصار فحسب، ولكن نظراً إلى أنّ المهاجرين والأنصار نهضوا جميعاً لنصرة النبيّ فيتّضح اتساع مفهوم الآية.

ولعل أُولئك كانوا يتصورون أنّ الخلافات كانت قائمة بين الأوس والخزرج دون غيرهم، مع أنّ الاختلافات كانت كثيرة في المستويات الطبقية والاجتماعية بين الفقراء والأغنياء، والكبار والصغار، بين هذه القبيلة وتلك، تلك الخلافات و«الانشقاقات» أزالها الإسلام ومحا آثارها، كما يقول القرآن الكريم في مكان آخر: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾(١).

٢ - إنّ هذا القانون لا يختص بالمسلمين الأوائل فحسب، فاليوم حيث يبسط الإسلام ظلاله على ثمانمائة مليون مسلم في أنحاء العالم، وهم من مختلف العناصر والأقوام المتباعدة والمجتمعات المتنوعة. إذ لا يمكن إيجاد أية حلقة اتصال بين كل

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٣.

هؤلاء سوى حلقة الإيمان والتوحيد، فإنّ الأموال والثروات والمؤتمرات لا يمكنها أن تفعل شيئاً مهماً في هذا المجال، بل ما يمكن أن يوحدهم هو إيقاد شعلة الإيمان أكثر في قلوب هؤلاء كما حصل عند المسلمين الأوائل، لأنّ النصر لا يتحقق إلاّ عن هذا الطريق، وهو طريق الأخوّة الإسلامية بين جميع الناس.

وتخاطب الآية الأخيرة من الآيات محل البحث النّبي بالقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ونقل بعض المفسّرين أنّ هذه الآية الكريمة نزلت عندما قالت جماعة من يهود بني قريظة وبني النضير للنّبي ﷺ: نحن نسلم ونتبعك، يعني إنّنا مستعدون لاتباعك ونصرتك، فنزلت هذه الآية محذرةً النّبي لئلا يعتمد على هؤلاء، بل المعول عليه هو الله والمؤمنون(١).

وقد أورد الحافظ أبو نعيم - وهو من أكابر علماء السنة - في كتابه فضائل الصحابة، بسنده، أنّ هذه الآية نزلت في حق علي أمير المؤمنين، فالمقصود بالمؤمنين هو علي عليه السلام(٢).

وقد قلنا مراراً: إنّ مثل هذه التفاسير وأسباب النّزول لا تجعل الآيات محدودة ومنحصرةً، بل المقصود فيها هو أنّ شخصاً كعلي بن أبي طالب عليه السلام الذي كان في أوّل صفوف المؤمنين هو السند الأوّل للنّبي بعد الله من بين المسلمين، مع أنّ بقية المؤمنين هم أنصار النّبي ﷺ وأعوانه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾

(١) تفسير التبيان، ج ٥، ص ١٥٢.
(٢) موسوعة الغدير، ج ٢، ص ٥١.

التفسير

لا ترتقبوا تساوي القوى:

في هاتين الآيتين تتوالى التعاليم العسكرية وأحكام الجهاد أيضاً.

فالآية الأولى منهما تخاطب الرّسول فتقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾.

إنّ الجنود والمقاتلين مهما كانوا عليه من استعداد ينبغي قبل بدء الحرب أن تُرفع معنوياتهم وتشحذ هممهم، وهذا الأمر معروف في جميع النظم العسكرية في العالم، إذ يقوم قادة الجيوش وأمراؤهم قبل التحرك نحو سوح القتال أو عند ساحة القتال، فيلقون خطباً تثيرهم وتقوّي من معنوياتهم وتحذرهم من الهزيمة والجبن.

غاية ما في الأمر أنّ مثل مسألة الترغيب والتشويق إلى القتال محدودة في المدارس الماديّة، ولكنّها واسعة في الأديان السماوية، نظراً للتعاليم الربانية، وتأثير الإيمان بالله، والتذكير بمنزلة الشهداء عند ربّهم ومقامهم عنده، وما ينتظرهم من الثواب الجزيل البعيد المدى، وما سينالونه من العزة والفخر عند انتصارهم، فكل ذلك يحرك روح البطولة والثبات في نفوس الجنود، فتلاوة بعض آيات القرآن في الحروب الإسلاميّة تشحذ الجندي عزماً وقوّة وإقداماً لا حدود له، ويتقد فيه الشوق والعشق للتضحية والفداء.

وعلى كل حال، فإنّ الآية توضح أهميّة الإعلام والتبليغ وشحذ همم المقاتلين والجنود ومعنوياتهم باعتبار ذلك تعليماً إسلامياً مهماً.

وتعقب الآية بالتعليم الثّاني فتقول: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

وبالرغم من أنّ الآية في صورة إخبار عن غلبة الرجل على عشرة، لكن بقرينة الآية بعدها ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ يتّضح أنّ المراد من ذلك هو تعيين الحكم أو الوظيفة والخطة والمنهج، لا أنّه مجرّد خبر وهكذا فينبغي للمسلمين أن لا ينتظروا حتى يبلغ عددهم مقداراً يُكافىء قوّة العدو وأفراده، ليتحركوا إلى ساحة القتال والجهاد، بل يجب عليهم القيام بواجباتهم حتى إذا كان عدوّهم عشرة أضعافهم.

ثمّ تشير الآية إلى علّة هذا الحكم فتقول: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ وهذا التعليل

يبدو عجيباً لأوّل وهلة، إذ ما هي العلاقة بين المعرفة والفقاهة وبين النصر أو بين عدم المعرفة والهزيمة؟! لكن الواقع هو أنّ العلاقة بينهما قريبة ومتينة، لأنّ المؤمنين يعرفون نهجهم الذي سلكوه ويدركون الهدف من خلقهم وإيجادهم، ويؤمنون بنتائجه الإيجابية في هذا العالم، والثواب الجزيل الذي ينتظرهم في العالم الآخر، فهم يعلمون، لِمَ يقاتلون؟ ومن أجل من يجاهدون؟ وفي سبيل أي هدف مقدس يضحّون؟ وعلى من سيكون حسابهم إذا ما ضحّوا واستشهدوا في هذا المضمار؟

فهذا السير الواضح المشفوع بالمعرفة يمنحهم الثبات والصبر والاستقامة.

أمّا الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، كعبدة الأصنام، فلا يعرفون لأي أمر يقاتلون؟ ولأجل من يجاهدون؟ وإذا قُتلوا فمن يؤدّي دية دمهم؟ فهم لتقليدهم الأعمى ولعاداتهم الجاهلية ساروا وراء هذه الأفكار، وهكذا تبعث ظلمات الطريق وعدم معرفتهم الهدف ونتائج أعمالهم على انهيار أعصابهم وتفتّ في عضدهم وثباتهم، وتجعل منهم كائنات ضعيفة.

وبعد ذلك الحكم الثقيل بجهاد الأعداء وان كانوا عشرة أضعاف يخفف الله عن المؤمنين ويتنزل في الحكم الذي يرهقهم فيقول: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾.

ثمّ يقول: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

ولكن على كل حال ينبغي أن لا تنسوا تسديد الله ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾.

بحوث

وهنا لابدّ من الالتفات إلى عدّة أمور:

١ - هل نُسخت الآية الأُولى؟

كما لاحظنا فإنّ الآية الأُولى تأمر المسلمين أن لا يتقاعسوا عن مواجهة الأعداء حتى إذا كانوا عشرة أضعافهم، غير أنّ الآية الثّانية تخفض هذا العدد إلى ضعفين فحسب.

وهذا الاختلاف الظاهر بين الآيتين جعل بعضهم يقول: إن الآية الأُولى - من الآيتين محل البحث - نسختها الآية الثّانية، أو أنّه حمل الآية الأُولى على الاستحباب

والثّانية على الوجوب، أي إذا كان عدد الأعداء ضعف عدد المسلمين فيجب عليهم عدم التراجع عن ساحة الجهاد والقتال، أمّا إذا زاد عددهم عن الضعف حتى بلغ عشرة أضعافهم فلهم عندئذ أن لا يقاتلوهم، وإن كان الأفضل لهم أن لا ينسحبوا عن جهادهم العدوّ.

إلاّ أنّ بعض المفسّرين يرون أن الاختلاف الظاهري الموجود بين الآيتين لا يدل على النسخ، ولا يدل على الاستحباب، بل إن لكل واحدة من الآيتين حكماً معيناً، فعندما يُبتلى المسلمون بالضعف والخور ويكثر فيهم المقاتلون غير المحنّكين أو غير المدرّبين ولا المتهيئين للقتال، فعندئذ يكون معيار العدد هو نسبة الضعف. أمّا إذا كان المقاتلون على استعداد تام، أشدّاء في إيمانهم وعزائمهم كالكثير من أبطال بدر، فالنسبة عندئذ ترتقي إلى عشرة أضعاف.

فبناءً على ذلك فإنّ الحكمين في الآيتين محل البحث يرتبطان بالطائفتين المختلفتين وفي ظرفين متفاوتين.

وبهذا لا يوجد نسخ في الآي هنا، وإذا وجد في الرّوايات التعبير بالنسخ فينبغي الالتفات إلى أن النسخ ذو معنى واسع ويشمل التخصيص في بعض الموارد.

٢ - أسطورة توازن القوى

إنّ الآيتين - محل البحث - تتضمنان هذا الحكم المسلّم به، وهو أنّ على المسلمين ألاّ ينتظروا موازنة القوى الظاهرية بينهم وبين العدو، بل عليهم أن ينهضوا لمواجهته وإن كان ضعف عددهم، بل حتى لو كان عشرة أضعاف عددهم أحياناً، وأن لا يفروا من العدوّ بسبب قلّة العدد أبداً.

وممّا يستجلب النظر أنّ أغلب المعارك التي كانت تجري بين المسلمين وأعدائهم كان فيها ميزان القوى لصالح العدو، وكان المسلمون قلّةً غالباً، ولم يكن هذا الأمر قد وقع في حروب الإسلام في عصر النّبي فحسب - كبدر وأحد والأحزاب أو كمعركة مؤتة التي رووا أنّ جيش المسلمين كان لا يتجاوز ثلاثة آلاف مقاتل، أمّا جيش العدو فأقل ما ذكروا عنه أنّه كان حوالي مئة وخمسين ألفاً، بل حتى الحروب بعد عصر النّبي ﷺ فقد ذكروا أنّ فرقاً مذهلاً كان بين جيش الإسلام الذي حرر فارس وجيش الساسانيين، فقد قيل مثلاً: إنّ الجيش الإسلامي كان لا يتجاوز خمسين ألف مقاتل، بينما كان جيش خسرو درويز خمسمائة ألف مقاتل!

وأمّا في معركة اليرموك التي وقعت بين المسلمين والروم، فقد ذكر المؤرخون أنّ الجيش الذي جمعه هرقل كان حوالي مئتي ألف مقاتل، بينما كان جيش الإسلام لا يتجاوز أربعة وعشرين ألفاً!

والأعجب من ذلك أن المؤرخين يذكرون أنّ قتلى جيش الروم في معركة اليرموك كانوا يزيدون على سبعين ألفاً!!

وما من شك أن الموازنة بين القوى أو التفوق العسكري أحد أسباب النصر بحسب الظاهر، ولكن ما هو السبب الذي كان وراء انتصار المسلمين القلّة في مثل هذه المعارك؟

والإجابة على هذا السؤال المهم ذكرها القرآن في الآيتين محل البحث في ثلاثة تعابير:

التّعبير الأوّل: يقول فيه: ﴿عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ﴾ ثمّ قوله في الآية بعدها: ﴿مِّائَةٌ صَابِرَةٌ﴾ أي ذوو استقامة وثبات.

والمراد هنا أنّ روح الاستقامة والثبات، التي هي ثمرة شجرة الإيمان، كانت سبباً في أن يغلب الرجلُ المسلم عشرة أمثاله من الكفّار.

التّعبير الثّاني: وفي مكان آخر يقول: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أي أنّ عدم معرفة العدو هدفه، ومعرفتكم هدفكم المقدّس، يجبر موضوع قلّتكم إزاء كثرة العدو.

التّعبير الثّالث: هو قوله سبحانه في الآي محل البحث: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾أي إنّ الإمدادات الغيبية ولطف الله ورحمته تشمل مثل هؤلاء المجاهدين الصابرين فتنصرهم على عدوّهم.

وفي عصرنا يواجه المسلمون أعداءً ألدّاء أقوياء أيضاً، لكن العجيب أنّ جيش المسلمين في كثير من المعارك أكثر من جيش العدوّ، ولكن مع ذلك لا أثر لانتصار المسلمين، وكأنّهم يسيرون باتجاه مخالف عمّا كان يسير عليه المسلمون الأوائل.

والسّبب هو أنّ المسلمين اليوم لا يتمتعون بمعرفة كافية ويا للأسف، وقد فقدوا روح الصبر والاستقامة بسبب ركونهم إلى عوامل الفساد وزخرف الحياة المادية وزبرجها، كما أنّ الإمداد الغيبي ورعاية الله قد سُلبا منهم بسبب تلوّثهم بالذنوب، فابتلوا بمثل هذه العاقبة!

إلاّ أنّ طريق العودة ما يزال مفتوحاً، ونأمل أن يأتي اليوم الذي يعي المسلمون مرّة أُخرى مفهوم هاتين الآيتين وأمثالهما ليخلعوا عن أنفسهم حالة الذل والتقهقر.

٣ - ما هو المراد من الآيتين؟

ممّا يستجلب النظر أنّ الكلام في الآية الأولى - من الآيتين محل البحث - كان على نسبة الواحد إلى العشرة، فمثّلت الآية بـ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾.

إلاّ أن الكلام في الآية الثّانية كان عن نسبة الضعف مثل المئة في قبال المئتين، والألف في قبال الألفين: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ﴾ إلخ...

وكأن هذا المثال البليغ يريد أن يبيّن هذا الحقيقة، وهي أنّ الرجال الأشداء من ذوي العزيمة والإيمان يمكنهم أن يشكلّوا جيشاً مقتدراً حتى لو كانوا عشرين رجلاً، إلاّ أنّهم لو كانوا ضعفاء، فليس بإمكانهم أن يصنعوا جيشاً من عشرين، بل لابدّ أن يكونوا أضعاف هذا العدد لتشكيل جيش، «فلاحظوا بدقّة».

﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾

التّفسير

أسرى الحرب

بيّنت الآيات السابقة بعض أحكام الجهاد المهمّة ومواجهة الأعداء، وفي هذه الآيات استكمال لما سبق في عرض قسم من أحكام أسرى الحرب، لأنّ أغلب الحروب تقترن بتأسير جماعة من المقاتلين من قبل الطرف الآخر، وقد أولى الإسلام أهميّة قصوى لمسألة أسرى الحرب، من حيث أُسلوب التعامل معهم، ومن حيث بعض النواحي الإنسانية وأهداف الجهاد أيضاً.

وأوّل موضوع مهم يثار في هذا الشأن، هو ما قالته الآية الكريمة من أنّ كل نبي ليس له الحق في أسر أفراد العدو الاّ بعد أن يثبّت أقدامه في الأرض ويكيل الضربات القاضية للأعداء: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

والفعل ﴿يُثْخِنَ﴾ مأخوذ من «الثّخن» على زنة «المِحَن» ومعناه في الأصل الضخامة والغلظة والثقل، ثمّ استعمل هذا اللفظ بمعنى الفوز والقوّة والنصر والقُدرة، للسبب المذكور آنفاً.

وقال بعض المفسّرين: إنّ معنى ﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يدل على المبالغة والشدّة في قتل الأعداء، وقالوا: إنّ معنى ذلك أن أخذ الأسرى ينبغي أن يكون بعد مقتلة عظيمة في الأعداء ولكن مع ملاحظة كلمة «في الأرض» والالتفات إلى جذر هذه الكلمة الذي يعني الشدّة والغلظة، يتّضح أن معنى الآية ليس هو ما ذكروه، بل القصد هو التفوق على العدو تماماً وإظهار القوّة والقدرة وإحكام السيطرة على المنطقة.

إلاّ أنّه لمّا كان في قتل الأعداء وإبادتهم دليل على السيطرة وإحكام مواقع المسلمين أحياناً، فإنّ من مصاديق هذه الجملة في بعض الشروط قتل الأعداء، وليس هو مفهوم الجملة الأصيل.

على أية حال، فإنّ الآية تنبّه المسلمين إلى نقطة مهمّة في الحرب، وهي أنّ عليهم عدم التفكير والانشغال بأخذ الأسرى قبل اندحار العدوّ بالكامل، لأنّ بعض المسلمين المقاتلين - كما يستفاد من بعض الرّوايات - كان جلّ سعيهم هو الحصول على أكبر عدد من الأسرى في ساحة بدر مهما أمكنهم، لأنّ العادة كانت أن يُدفع عن الأسير مبلغ من المال على شكل فدية ليتم الإفراج عنه بعد نهاية الحرب.

ويعدّ هذا الأمر عملاً حسناً في بعض المواقع، إلاّ أنّه عمل خطير قبل أن يطمأن من اندحار العدو كاملاً، لأنّ الانشغال بأسر العدو وشدّ وثاقهم ونقلهم إلى مكان آمن، كل ذلك يبعد المقاتلين غالباً عن أصل الهدف الذي من أجله كانت الحرب، وربّما يمنح العدو الجريح فرصة لجمع قواه وإعادة هجومه، كما حدث في غزوة أحد، حيث شغل بعض المسلمين أنفسهم بجمع الغنائم، فاستغل العدوّ هذه الفرصة فأنزل ضربته الأخيرة بالمسلمين.

وبناءً على ذلك فإنّ تأسير الأعداء يجوز في صورة ما لو حصل اليقين بالنصر الساحق عليه، أمّا في غير هذه الصورة فيجب توجيه الضربات الشديدة والمتتالية لهدم قوات

العدو وشلّها فإذا حصل الاطمئنان بذلك فإنّ الأهداف الإنسانية توجب إيقاف القتل والاكتفاء بأسرهم.

وقد أوضحت الآية هاتين النقطتين المهمتين: العسكرية، والإنسانية، في عبارة موجزة، ثمّ ألقت باللوم على أولئك الذين خالفوا هذا الأمر فتقول: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾.

«والعرض» يعني الأمور غير الثابتة، ولما كانت الذخائر المادية غير ثابتة في هذه الدنيا فقد عُبّر عنها بالعرض.

وكما قلنا آنفاً فإن الاهتمام بالجانب المادي فيما يتعلق بالأسرى والغفلة عن الهدف النهائي، أي الانتصار على العدو، لا أنّه يحبط الثواب الأُخروي فحسب، بل يسيء إلى الانسان في حياته الدنيا وإلى عزّته ورفعته واستقراره، ففي الحقيقة، هذه الأهداف المذكورة للفرد في الحياة الدنيا تعدّ من أُمور الدنيا الثابتة، فلا ينبغي أن نترك المنافع الطويلة الأمد والمستقبلية رهن الخطر من أجل أن نحصل على منافع مادية عابرة!

وتُختتم الآية بالقول أن التعليم آنف الذكر - في الواقع - مزيج من العزة والنصر والحكمة والتدبير، لأنّه صادر من قبل الله تعالى ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

الآية التالية توجّه اللوم والتقريع ثانية لأولئك الذين يعرّضون المنفعة العامّة والمصلحة الاجتماعية للخطر من أجل الحصول على المنافع المادية العابرة، فتقول الآية: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

وقد أورد المفسّرون في شأن قوله تعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ احتمالات مختلفة كثيرة، إلاّ أنّ أقربها وأكثرها ملاءمة ومناسبةً هو «إذا لم يكن الله قد قرر من قبل أن لا يعذب عباده ما لم يبيّن نبيّه حكمه لهم، لأخذكم أخذاً شديداً بسبب تأسيركم عدوكم رغبة في المنافع المادية وإيقاعكم جيش الإسلام وانتصاره النهائي في الخطر، إلاّ أنّه - كما صرحت الآيات الكريمة في القرآن - فإنّ سُنة الله اقتضت أن تُبين أحكامه ثمّ يجازي الذي يخالفون عن أمره»، إذ قال سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾(1).

(1) سورة الإسراء، الآية: ١٥.

ملاحظات:

١ - إنّ ظاهر الآيات - كما قلنا آنفاً - يعالج موضوع أخذ الأسرى في الحرب لا أخذ «الفدية» بعدها، وبذلك ينحل كثير من الإشكالات التي أثارها جماعة من المفسّرين بشأن مفهوم الآية.

كما أنّ اللوم والتعنيف يختص بجماعة انشغلت - قبل أن يتمّ النصر النهائي - بأسر العدو لأهداف دنيوية، ولا علاقة لها بشخص النّبي وأصحابه المؤمنين الذين كان هدفهم الجهاد في سبيل الله.

وبذلك تنتفي جميع البحوث التي أوردوها، كالقول بأنّ النّبي ﷺ قد ارتكب ذنباً! وكيف ينسجم هذا العمل وعصمته ﷺ؟ فهذا الأمر غير صحيح.

كما يثبت بطلان الأحاديث المختلفة التي نقلتها بعض مصادر أهل السنّة وكذبها في تفسير هذه الآية، والتي تزعم أنّ الآية[1] نزلت في شأن أخذ النّبي وبعض المسلمين الفدية مقابل أسرى الحرب بعد معركة بدر، وقبل أن يأذن الله بذلك. وأنّ الذي خالف هذا الأمر وطالب بقتل الأسرى هو عمر فحسب - أو سعد بن معاذ - وأنّ النّبي ﷺ قال في حق عمر: لو نزل العذاب علينا لما نجا منه إلاّ عمر - أو سعد بن معاذ -.

فإنّ جميع ذلك عار من الصحة ولا أساس له، وإنّ تلك الرّوايات بعيدة كل البعد عن تفسير الآية، وخاصّة أنّ أمارات الوضع ظاهرة على هذه الأحاديث تماماً.

٢ - إنّ الآيات محل البحث لا تخالف أخذ الفداء وإطلاق سراح الأسرى إذا اقتضت مصلحة المجتمع الإسلامي ذلك، بل تقول هذه الآيات: إنّه لا ينبغي على المجاهدين أن يكون همهم الأسر من أجل الفداء، فبناءً على ذلك فهي تنسجم وتتفق والآية ٤ من سورة محمّد ﷺ من جميع الوجوه، إذ تقول تلك الآية: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾.

إلاّ أنّه يجب الالتفات إلى مسألة مهمّة هنا، وهي: إذا كان بين الأسرى من يثير إطلاق سراحهم فتنة نشوب نار الحرب، ويُعرض انتصار المسلمين للخطر، فيحق للمسلمين أن يقتلوا مثل هؤلاء الأشخاص، ودليل هذا الموضوع كامن في الآية محل

(١) تفسير المنار، ج ١٠، ص ٩٠؛ تفسير روح المعاني، ج ١٠، ص ٣٢؛ والتفسير الكبير للفخر الرازي، ج ١٥، ص ١٩٨.

البحث ذاتها، بقرينة «يثخن» والتعبير في الآية ٤ من سورة محمّد ﷺ بـ ﴿أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾.

ولهذا فقد جاء في بعض الرّوايات الإسلاميّة أنّ النّبي ﷺ أمر بقتل اثنين من أسرى معركة بدر، وهما «عقبة بن أبي معيط» و«النضر بن الحارث» ولم يرض بأن يفتديا أنفسهما أبداً[1].

٣ - وفي الآيات محل البحث تأكيد على موضوع حرية إرادة الإنسان مرّة أُخرى، ونفي مذهب الجبر، لأنّها تقول: إنّ الله يريد لكم الآخرة، ولكن بعضكم أغرته المنافع الماديّة العابرة وركن إليها.

وفي الآية التالية إشارة إلى حكم آخر من أحكام أسرى الحرب، وهو حكم أخذ الفداء.

وقد جاء في بعض الرّوايات[2] الواردة في شأن نزول هذه الآيات أنّه بعد انتهاء معركة بدر وأخذ الأسرى، وبعدما أمر النّبي أن تضرب عنقا الأسيرين الخطرين «عقبة بن أبي معيط» و«النضر بن الحارث» خافت الأنصار أن ينفذ هذا الحكم في بقية الأسرى فُيحرموا من أخذ الفداء، فقالوا: يا رسول الله إنّا قتلنا سبعين رجلاً وأسرنا سبعين، وكلّهم من قبيلتك فهب لنا هؤلاء الأسرى لنأخذ الفداء منهم. وكان النّبي يترقب نزول الوحي، فنزلت هذه الآيات فأجازت أخذ الفداء في قبال إطلاق سراح الأسرى.

وروي أنّ أكثر ما عُيّن فداءً على الأسرى من المال هو أربعة آلاف درهم، وأقلّه ألف درهم، فلمّا سمعت قريش أرسلت فداء الواحد تلو الآخر حتى حررت أسراها.

والعجيب أن صهر النّبي على ابنته زينب «أبا العاص» كان من بين أسرى معركة بدر، فأرسلت زوجته زينب قلادتها التي أهدتها أُمّها خديجة عليها السلام إليها في زفافها، لتفتدي بها زوجها، فلمّا وقعت عينا النّبي على تلك القلادة وتذكر تضحية خديجة وجهادها، وتجسّدت مواقفها أمام عينيه، قال ﷺ: «رحم الله خديجة، فهذه قلادة جعلتها خديجة في جهاز بنتي زينب».

ووفقاً لبعض الرّوايات فإنّه امتنع عن قبول القلادة احتراماً لخديجة وإكراماً،

---

(١) راجع تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ١٣٥.

(٢) راجع تفسير علي بن إبراهيم وفقاً لما جاء في نور الثقلين، ج ٢، ص ١٣٦. تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ١٣٦.

واستجاز المسلمين في إرجاع القلادة، فأذنوا له أن يرجع القلادة إلى زينب، ثمّ أطلق[١] النّبي ﷺ سراح أبي العاص، شريطة أن يرسل ابنته زينب - التي كانت قد تزوجت من أبي العاص قبل الإسلام - إلى المدينة، فوافق أبو العاص على هذا الشرط ووفى به بعدئذ[٢].

وعلى أية حال، فإنّ الآية محل البحث أجازت للمسلمين التصرف في غنائم المعركة، والمبلغ الذي يأخذونه فداءً من الأسير، فقالت: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾.

ويمكن أن تكون هذه الجملة ذات معنى واسع يشمل حتى الغنائم الأُخرى غير الفداء.

ثمّ تأمرهم الآية بالتقوى فتقول: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾. وهذا إشارة إلى أنّ جواز أخذ مثل هذه الغنائم لا ينبغي أن يجعل هدف المجاهدين في المعركة هو جمع الغنائم وأن يأسروا العدوّ حتى يأخذوا فداءه، وإذا كان في القلوب مثل هذه النيّات السيئة فعليهم أن يطهّروا قلوبهم منها، ويعدهم الله بالعفو عمّا مضى فتقول الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

هل أن أخذ «الفداء» أمر منطقيّ عادل؟!

قد ينقدح هنا سؤال مهم وهو: كيف ينسجم الفداء قبال إطلاق سراح الأسير وأصول العدالة؟ أو ليس هذا نوعاً من بيع الإنسان؟

والجواب على هذا السؤال يتجلى واضحاً حين نعرف أنّ الفداء هو نوع من الضرائب العسكرية، أو الغرامة الحربية، إذ إن كل حرب تسبب في إهدار كثير من الطاقات الاقتصادية والقوى الإنسانية، فالجماعة التي تقاتل من أجل الحق يحق لها أن تعوّض عن خسائرها بعد الحرب، وأحد طرق التعويض هو «الفداء». ومع ملاحظة أن الفداء كان يومئذ يتراوح بين أربعة آلاف درهم عن الأسير الغني، وألف درهم عن الأسير الفقير، يتّضح أنّ الأموال التي أُخذت من قريش في هذا الصدد لم تكن كثيرة، بل لم تكن كافية لسدّ خسائر المسلمين المالية والإنسانية في تلك المعركة!

ثمّ بعد هذا كلّه، فقد ترك المسلمون أموالاً كثيرة - في مكّة - عند هجرتهم اضطراراً

(١) ورد في الكامل لابن الأثير، ج ٢، ص ١٣٤ أنّه «فلمّا رآها رسول الله ﷺ رقّ لها رقة شديدة وقال: «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها؟ وتردوا عليها الذي لها فافعلوا»، فأطلقوا لها أسيرها وردوا القلادة.

(٢) تفسير الميزان، ج ٩، ص١٣٩ و١٤١.

إلى المدينة، فكانت هذه الأموال عند أعدائهم من قريش، وكان للمسلمين الحق أن يعوّضوا عن خسائرهم وأموالهم في يوم بدر بالفداء.

كما ينبغي الالتفات إلى هذه اللطيفة التي أشارت إليها الآية ٤ من سورة محمّد ﷺ، وهي أنّ مسألة الفداء ليست إلزامية، فللحكومة الإسلامية أن تبادل الأسرى متى ما رأت في ذلك مصلحة، أو أن تمن عليهم فتطلق سراحهم دون تعويض.

والمسألة المهمّة الأخرى في شأن أسرى الحرب هي موضوع إصلاحهم وتربيتهم وهدايتهم، ولعل هذا الأمر غير موجود في المذاهب الماديّة، لكنّه مثار عناية واهتمام أكيد في الجهاد من أجل تحرير الإنسان وإصلاحه وتعميم الحق والعدل.

ولهذا فإنّ الآية الرّابعة من الآيات محل البحث تخاطب النّبي أن يدعو الأسرى إلى الإيمان بالله وإصلاح أنفسهم، ويرغبهم في كل ذلك، فتقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ﴾.

والمراد من كلمة ﴿خَيۡرٗا﴾ في الجملة آنفة الذكر ﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا﴾ هو الإيمان وقبول الإسلام، أمّا المراد من كلمة ﴿خَيۡرٗا﴾ في الجملة الأُخرى «يؤتكم خيراً» فهو الثواب أو الأجر المادي والمعنوي الذي ينالونه ببركة الإسلام، وهو أعظم عند الله من الفداء بمراتب كثيرة!

ثمّ إضافة إلى ذلك فسيشملكم لطف الله ويعفو عن سيئاتكم ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

وحيث إنّ من الممكن أن يستغل بعض الأسرى إظهار الإسلام ليسيء إلى الإسلام ويخون النّبي وينتقم من المسلمين، فإنّ الآية التالية تحذّر النّبي والمسلمين من خيانتهم فتقول: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ﴾.

وأي خيانة أعظم من عدم الاستجابة لنداء الفطرة والعزوف عن نداء الحق والعقل، والشرك بالله وعبادة الأصنام بدلاً من الإيمان بالله وتوحيده؟ ثمّ إنّ عليهم أن لا ينسوا نصرة الله لك ﴿فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ﴾.

وإذا أرادوا الخيانة في المستقبل فلن يُفلحوا وسوف ينالون الخزي والخسران والهزيمة مرّة أُخرى، لأنّ الله مطلع على نيّاتهم، وجميع تعاليم الإسلام في شأن الأسرى وفق حكمته ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

وقد جاء في كتب الفريقين - الشيعة وأهل السنّة - في ذيل الآيتين محل البحث أنّ العباس عم النّبي كان بين أسرى بدر، فطلبت جماعة من الأنصار أن لا يؤخذ عنه فداء إكراماً لرسول الله، فقال ﷺ: «والله لا تذرون منه درهماً»، (أي إذا كان الفداء قانوناً إسلامياً عامّاً، فلا ينبغي أن يفرّق بين عمي وبين أي أسير آخر).

وقال لعمّه العباس: «ادفع عنك وعن ابن أخيك - عقيل - الفداء».

فقال له العباس «وكان شغوفاً بالمال». يا محمّد أتريد أن تجعلني فقيراً حتى أمد يدي إلى قريش؟!

فقال له النّبي: اعط فداءك من المال الذي أودعته عند أم الفضل - زوجتك - وقلت لها: إذا قتلت في ساحة المعركة فأنفقيه على نفسك وعلى أبنائك.

فتعجب العباس من هذا الأمر وقال: من أخبرك بهذا؟ «ولم يطلع عليه أحد أبداً» فقال رسول الله: أخبرني بذلك جبرائيل.

فقال العباس: أحلف بمن يحلف به محمّد لم يعلم بذلك إلاّ أنا وزوجتي، ثمّ قال: أشهد أنّك رسول الله، وأعلن إسلامه.

وعاد جميع أسرى بدر إلى مكّة إلاّ العباس وعقيل ونوفل، إذ أسلموا وبقوا في المدينة، والآيات محل البحث تشير إلى حال أُولئك[1].

وجاء في شأن إسلام العباس في بعض التواريخ أنّه عاد إلى مكّة بعد إسلامه، وكان يكتب إلى النّبي عن مؤامرات المشركين ثمّ هاجر إلى المدينة قبل السنة الثّامنة من الهجرة «عام فتح مكّة».

وفي كتاب قرب الإسناد عن الإمام الباقر عن أبيه الإمام زين العابدين عليه السلام، أنّه جيء إلى رسول الله ذات يوم بأموال كثيرة، فالتفت النّبي ﷺ إلى العباس وقال له: ابسط عباءتك أو «رداءك» وخذ من هذا المال، ففعل العباس وأخذ من ذلك المال، فقال النّبي ﷺ: هذا ما قاله الله سبحانه وتلا قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾[2].

وهو إشارة إلى أنّ وعد الله قد تحقق عملياً في إتيان العباس خيراً ممّا أُخذ منه.

---

(١) يراجع تفسير نور الثقلين، وروضة الكافي، وتفسير القرطبي، وتفسير المنار، ذيل الآية مورد البحث.
(٢) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ١٦٨.

ويعرف من هذا الحديث أنّ النبي كان في صدد أن يعوض الأسرى الذين أسلموا عمّا أخذ منهم، ترغيباً وتشويقاً، وأن يعيد إليهم أموالهم المأخوذة منهم بصورة أحسن.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾﴾

التّفسير

أربع طوائف مختلفة

تبحث هذه الآيات التي تُختتم بها سورة الأنفال - وتُعدّ آخر فصل من فصولها - عن طوائف المهاجرين والأنصار والطوائف الأُخرى من المسلمين وبيان قيمة هؤلاء جميعاً، فتعطي كل طائفة قيمة، وتستكمل ما تناولته الآيات السابقة في شأن الجهاد والمجاهدين.

وبتعبير آخر: إنّ هذه الآيات عالجت نظام المجتمع الإسلامي من حيث العلائق المختلفة، لأنّ خطة الحرب وخطة الصلح كسائر الخطط والمناهج العامّة، لا يمكن أن يتمّ أيّ منها دون تكوين علاقة اجتماعية صحيحة، وأخذها بنظر الاعتبار.

وقد تناولت هذه الآيات خمس طوائف، أربع منها من المسلمين، وواحدة من غير المسلمين، والطوائف الأربع هي:

١ - المهاجرون السابقون.

٢ - الأنصار في المدينة.

٣ - المؤمنون الذين لم يهاجروا.

٤ - الذين آمنوا من بعدُ وهاجروا.

فتقول الآية الأولى من الآيات محل البحث: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾.

فقد أُشير في هذا القسم من الآية إلى الطائفتين، الأولى والثّانية [المهاجرون، والأنصار] أي الذين آمنوا في مكّة ثمّ هاجروا منها إلى المدينة، والذين آمنوا في المدينة ثمّ آزروا النّبي ﷺ ونصروه ودافعوا عنه وعن المهاجرين، وقد وصفتهم الآية بأنّهم بعضهم أولياء بعض، وبعضهم حماة بعض.

والذي يسترعي النظر أنّ الآية وصفت الطائفة الأُولى بأربع صفات هي: الإيمان، والهجرة والجهاد المالي والاقتصادي «وذلك عن طريق الإعراض عن أموالهم في مكّة، وما بذلوه من أموال في غزوة بدر»، والصفة الرّابعة جهادهم بأنفسهم ودمائهم وأرواحهم.

أمّا الأنصار فقد وصفتهم الآية بصفتين هما: الإيواء، والنصرة.

وقد جعلت هذه الآية الجميع مسؤولين بعضهم عن بعض، ويتعهد كلّ بصاحبه بقولها: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾.

فهاتان الطائفتان - في الحقيقة - كانتا تمثلان مجموعتين متلازمتين لا يمكن لأحدهما الاستغناء عن الأخرى، إذ منهما يتكون نسيج المجتمع الإسلامي، فهما بمثابة «المغزل والخيط».

ثمّ تشير الآية إلى الطائفة الثّالثة فتقول: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ﴾.

ثمّ استثنت في الجملة التي بعدها مسؤولية واحدة فحسب، وأثبتتها في شأن هذه الطائفة، فقالت: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ﴾.

وبتعبير آخر: يلزم الدفاع عن أُولئك في صورة ما لو أصبحوا قبال عدوّ مشترك، أمّا إذا واجهوا كفاراً بينكم وبينهم عهد وميثاق، فإنّه يجب الوفاء بالعهد والميثاق، وهي مقدمة على الدفاع في هذه الصورة.

وحضّت الآية على رعاية العهود والمواثيق والدقة في أداء هذه المسؤولية، ومنبهة إلى علم الله بكل الأمور، فقالت: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

فهو يرى جميع أعمالكم ويطلع على ما تفعلون من جهاد، أو أداء للوظيفة الملقاة على عاتقكم، أو إحساس بالمسؤولية، كما يعلم بمن لم يعتنِ بالأمر، وكذلك بالوهن والضعف وعدم الإحساس بالمسؤولية إزاء هذه الوظائف الكبيرة.

أمّا الآية الثّانية فتشير إلى النقطة المقابلة للمجتمع الإسلامي، أي مجتمع الكفر وأعداء الإسلام، فتقول: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾.

أي إنّ علاقاتهم منحصرة فيما بينهم، ولا يحق لكم أن تتعاهدوا معهم، أو تحاموا عنهم، أو تطلبوا منهم النصرة لأنفسكم، أو تلجئوهم وتؤووهم إليكم، أو تأووا وتلتجئوا إليهم.

وبعبارة موجِزَة: لا يحق للكفّار أن يدخلوا في نسيج المجتمع الإسلامي، ولا يحق للمسلمين أن يدخلوا في نسيج الكفّار.

ثمّ تنبّه الآية المسلمين وتحذرهم من مخالفة هذا التعليم، فتقول: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾.

وأي فتنة وفساد أكبر من تهميش انتصاركم، وسريان دسائس الأعداء في مجتمعكم، وتخطيطهم لهدم دينكم دين الحق والعدل.

أمّا في الآية التالية فنجد تأكيداً على مقام المهاجرين والأنصار مرّة أُخرى، وما لهما من موقع وأثر في تحقق أهداف المجتمع الإسلامي، فتثني عليهم الآية بقولها: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾.

لأنّهم هبوا لنصرة الإسلام في الأيام الصعبة الشديدة وفي الغربة والمحنة وقد اشترك كل فرد منهم بنوع من النصرة لله ولرسوله ﷺ: ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

فهم فائزون بثواب الله والنعمة الأخروية، كما أنّهم يتمتعون في هذه الدنيا بالعزة ورفعة الرأس والكرامة.

أمّا الآية الأخيرة فتشير إلى الطائفة الرّابعة من المسلمين، أي أُولئك الذين آمنوا وهاجروا من بعد، فتقول: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ﴾.

أي إنّ المجتمع الإسلامي ليس مجتمعاً منغلقاً ومحصوراً على نفسه ،بل أبوابه مفتوحة لجميع المؤمنين والمهاجرين والمجاهدين، وإن كان للمهاجرين الأوائل مقام خاص ومنزلة كريمة، إلاّ أنّ ذلك لا يعني أن المؤمنين الجدد والمهاجرين في المستقبل لا يعدّون جزءاً من المجتمع الإسلامي ولا يكونون من نسيجه.

وتشير الآية في ختامها إلى ولاية الأرحام بعضهم لبعض، وأوليتها فيما جعله الله في عباده من أحكام، فتقول: ﴿وَأُوْلُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾.

وفي الحقيقة فإنّ الآيات السابقة تتكلم عن ولاية المؤمنين والمسلمين العامّة «بعضهم إلى بعض» أمّا هذه الآية محل البحث فتؤكّد هذا الموضوع في شأن الأرحام والأقارب، فهم إضافة إلى ولاية الإيمان والهجرة يتمتعون بولاية الأرحام أيضاً، ومن هنا فهم يرثون ويورّثون بعضهم بعضاً، إلاّ أنّه لا إرث بين غيرهم من المؤمنين الذين لا علاقة قربى بينهم.

فبناءً على ذلك فإنّ الآية الأخيرة لا تتكلم عن الإرث، بل تتكلم عن موضوع واسع من ضمنه موضوع الإرث.

وإذا وجدنا في الرّوايات الإسلامية، وفي الكتب الفقهية، استدلالاً بهذه الآية والآية المشابهة لها في سورة الأحزاب على الإرث، فلا يعني ذلك أن الآي التي استُدل بها على الإرث منحصرة بهذا الشأن فحسب، بل توضّح قانوناً كليّاً، والإرث جزء منه. ولهذا نجد أنّه استُدل بهذه الآية محل البحث على موضوع خلافة النّبي مع أنّها غير داخلة في موضوع الإرث المالي[1].

واستُدل بها على أولوية غسل الميت، كما صّرحت به الرّوايات الإسلامية[2].

وبملاحظة ما ذكرناه آنفاً يتّضح أنّه لا دليل على ما أصر عليه جماعة من المفسّرين على انحصار هذه الآية بمسألة الإرث، وإذا أردنا أن نختار مثل هذا التّفسير فإنّ السبيل الوحيد له أن نعدّ الإرث مستثنياً من الولاية المطلقة، التي بيّنتها الآيات السابقة لعامّة المهاجرين والأنصار، فنقول: إنّ الآية الأخيرة تقول بأنّ ولاية المسلمين العامّة بعضهم لبعض لا تشمل الإرث.

وأمّا الاحتمال بأنّ الآيات السابقة تشمل الإرث أيضاً ثمّ نسخت الآية الأخيرة هذا الحكم منها، فيبدو بعيداً جدّاً، لأنّ الترابط في المفهوم بين هذه الآيات جميعاً من الناحية المعنوية، بل حتى التشابه اللفظي، كل ذلك يدل على أنّ الآيات نزلت معاً في وقت واحد. وبهذا لا يمكن القول بالتناسخ بين هذه الآيات.

وعلى كل حال فإنّ التّفسير الأكثر تناسباً لهذه الآيات هو ما بيناه آنفاً.

---

(١) أصول الكافي، ج ١، ص ٢٨٥، ٢٨٧ و ٢٨٨.

(٢) راجع جواهر الكلام، ج ٤، ص ٣٣ فما بعد.

وفي آخر جملة من هذه الآية - التي هي آخر جملة من سورة الأنفال أيضاً - يقول الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىۡءٍ عَلِيمُۢ﴾.

فما نزل في هذه السّورة من أحكام تتعلق بالأنفال وغنائم الحرب، وتعاليم الجهاد والصلح، وأحكام الأسرى والحرب، وما يتعلق بالهجرة وغيرها، كل ذلك كان وفق حساب دقيق يتلاءم وروح المجتمع الإنساني، والعواطف البشرية، والمصالح العامّة في جميع جوانبها المختلفة.

بحوث

١ - الهجرة والجهاد

إنّ دراسة التاريخ الإسلامي تدلّ على أنّ هذين الموضوعين كانا من عوامل انتصار المسلمين الرئيسية قبال عدوّهم، فلولا الهجرة لتمّ دفن الإسلام في مكّة، ولولا الجهاد لما اتسعت رقعة الإسلام، فالهجرة أخرجت الإسلام من منطقة خاصّة إلى مداه الرحب وصيّرته عالميّاً، والجهاد علّم المسلمين أنّهم إذا لم يعتمدوا على قدراتهم فإنّ عدوّهم الذي لا يلتزم بأيّة مقررات سوف لا يعترف لهم بأدنى حقّ وسوف لا يعطيهم حقوقهم المشروعة، ولا يصيخ لهم سمعاً أبداً.

واليوم إذا أردنا إنقاذ الإسلام من الطرق المسدودة، وإزاحة الموانع التي جعلها الأعداء في طريقه من كل جهة، فلا سبيل إلى ذلك إلاّ بإحياء هذين الأصلين: الهجرة والجهاد.

فالهجرة توصل صوت المسلمين إلى أسماع العالم كله، وتروي ظمأ القلوب المتعطشة للحق والعدل ومن هو في شوق إلى معرفة الحقيقة.

والجهاد يهب المسلمين التحرك والحياة، ويبعد أعداءهم الذين لا ينفعهم إلاّ منطق القوة عن قارعة الطريق ويبيدهم.

وقد حدثت الهجرة في الإسلام مراراً. فكانت هجرة المسلمين من مكّة إلى الحبشة حيث غرسوا بها الإسلام خارج الجزيرة العربية وبنوا فيها حصناً للمسلمين الأوائل قبال ضغوط أعدائهم.

ثمّ هجرة النّبي والمسلمين الأولى إلى المدينة، ولهؤلاء المهاجرين الذين يطلق عليهم (مهاجرو بدر) أهميّة قصوى في تأريخ الإسلام، لأنّهم اتّجهوا ظاهراً نحو مستقبل مجهول

مظلم، وغضوا أبصارهم عن جميع ما ملكوه في سبيل الله، وأعرضوا عن حطام الدنيا.

هؤلاء المهاجرون أي: «المهاجرون الأوّلون» مثّلوا في الحقيقة الحجر الأساس لصرح الإسلام العظيم، والقرآن يثني عليهم بالتكريم والتعظيم، ويوليهم عناية خاصّة، لأنّهم كانوا من أشد المسلمين تضحيةً.

«الهجرة الثّانية» أُطلقت على هجرة طائفة أُخرى من المسلمين إلى المدينة، وذلك بعد صلح الحديبية والحصول على محيط آمن نسبياً بعد هذا الصلح، وقد تطلق الهجرة على كل مهاجر من مكّة إلى المدينة حتى بعد واقعة بدر، وإلى زمان فتح مكّة.

أمّا بعد فتح مكّة فقد انتفت الهجرة من مكّة إلى المدينة، لأنّ مكّة أصبحت مدينة إسلامية أيضاً، والحديث النبوي المشهور «لا هجرة بعد الفتح» يشير إلى هذا المعنى.

لكن هذا الكلام لا يعني أن مفهوم الهجرة زال من قاموس مبادىء الإسلام كليّاً كما يتصور بعضهم، بل الهجرة من مكّة إلى المدينة انتفى موضوعها، وإلاّ فمتى ما حدثت ظروف كظروف المسلمين الأوائل فقانون الهجرة باقٍ على قوته، وسوف يبقى مادام الإسلام يتسع حتى يستوعب العالم أجمع.

ومع الأسف الشديد فإنّ أغلب المسلمين لنسيانهم هذا الأصل الإسلامي المهم انغلقوا على أنفسهم، بينما نرى المبشرين المسيحيين والفرق الضالة والاستعمار يهاجرون إلى أنحاء المعمورة كلها، ويذهبون حتى إلى القبائل أو الطوائف المتوحشة ممن يأكلون لحوم البشر في مجاهيل أفريقيا، ويجوبون القطبين المتجمدين الشمالي والجنوبي في سبيل تحقيق أهدافهم، مع أن هذه مهمّة المسلمين في الواقع، إلاّ أن العمل أضحى من الآخرين!

والأعجب من ذلك وجود الكثير من القرى في جوار المدن الإسلامية الكبرى، وبمسافة لا تبعد كثيراً عنها، إلاّ أن أهلها لا يعرفون عن الإسلام شيئاً، ولا يعرفون أحكامه، وربّما لم يروا وجه مبلغ إسلامي هناك أبداً. لهذا فإنّ محيطهم مستعد لنشوء جراثيم الفساد والمذاهب المختلقة والبدع التي يفتعلها «الاستعمار» ولا ندري بماذا يجيب المسلمون ربّهم يوم القيامة - وهم ورثة المهاجرين الأوائل - إزاء هذه الحال المزرية؟!

وبالرغم من مشاهدة تحرك في هذا الصدد أخيراً، إلاّ أنّه محدود وغير كاف أبداً.

وعلى أية حال، فإن موضوع الهجرة وأثرها في تاريخ الإسلام ومصير المسلمين أكبر

من أن نأتي على جميع جوانبه بهذا الاختصار (ولنا كلام بهذا الشأن لدى تفسير الآيات التي تتناول هذا الموضوع إن شاء الله).

٢ - المبالغة والإغراق في تنزيه الصحابة

حاول بعض إخواننا أهل السنة أن يستنتج ممّا أولاه القرآن للمهاجرين السابقين «الأوائل» من اهتمام واحترام، أنّهم لن يرتكبوا ذنباً إلى آخر عمرهم وحياتهم. وذهبوا إلى إكرامهم واحترامهم جميعاً دون استثناء، ودون الاعتراض على هذا وذاك، ثمّ عمموا هذا القول على جميع الصحابة - فضلا عن المهاجرين - وذلك لثناء القرآن عليهم في بيعة الرضوان وغيرها، وذهبوا عملاً إلى أنّ الصحابة - دون النظر إلى أعمالهم - أفراد متميزون. فلا يحق لأيّ شخص توجيه النقد لهم والتحقيق في سلوكهم.

ومن جملة هؤلاء المفسّر المعروف صاحب المنار، إذ حمل في ذيل الآيات محل البحث حملة شعواء على الشيعة، لأنّهم ينتقدون المهاجرين الأولين، ولم يلتفت إلى أن مثل هذا الاعتقاد لا يتضاد وروح الإسلام وتاريخه!!

فلا ريب أنّ للصحابة - وعلى الخصوص المهاجرين منهم - حرمةً خاصّة، إلاّ أنّ هذه الحرمة كانت قائمة ما داموا في طريق الحق ويضحّون من أجل الحق، لكن من المقطوع به أنّ نظرة القرآن إلى بعضهم أو حكمه قد تغير منذ انحرف البعض عن النهج القويم والصراط المستقيم.

فمثلاً، كيف يمكننا أن نبرىء طلحة والزبير من نقضهما بيعة إمامهما الذي انتخبه المسلمون «بغض النظر عن تصريح النّبي بمقامه وشأنه» وكانا من ضمن المسلمين الذين بايعوه؟ وكيف يمكن تبرئتهما من دماء سبعة عشر ألف مسلم قُتلوا في حرب الجمل، مع أنّه لا عذر لمن يفسك دم إنسان واحد أمام الله مهما كان، فكيف بهذا العدد الهائل الذين سفكت دماؤهم؟

ترى هل يمكن أن نعدّ عليّاً عليه السلام وأصحابه في حرب الجمل على الحق كما نعدّ أعداءه فيها على الحق أيضاً؟! ونعد طلحة والزبير ومن معهما من الصحابة على الحق كذلك؟! وهل يقبل العقل والمنطق هذا التضاد الفاضح؟

وهل يمكننا أن نغض النظر من أجل عنوان «تنزيه الصحابة» ولا نلتفت إلى التاريخ وننسى كل ما حدث بعد النّبي صلى الله عليه وآله وسلم ونضرب عرض الجدار قاعدة ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[١]؟

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

ما لكم كيف تحكمون؟!

وما يمنع أن يكون الإنسان من أهل الجنّة ومؤيداً للحق يوماً، ويكون من أهل النّار ومؤيداً للباطل ومن أعداء الحق يوماً آخر؟... فهل الجميع معصومون؟ ألسنا نرى التغييرات في أحوال الأشخاص بأم أعيننا؟!

قصة «اصحاب الردّة» وارتداد جمع من المسلمين بعد رحلة الرسول ﷺ مذكورة في كتب أهل السُّنّة والشّيعة، وأن الخليفة الأوّل تصدى لهم وقاتلهم، فهل يعقل أنّ أحداً من «أصحاب الردّة» لم ير النّبي ﷺ ولم يكونوا في عدّة الصحابة؟

والأعجب من ذلك أنّ بعضاً تشبث بالاجتهاد للتخلص من الطريق المسدود والتناقض في ذلك، وقالوا: إنّ أمثال طلحة والزبير ومعاوية ومن لفّ لفهم قد اجتهدوا فأخطأوا وليسوا مذنبين، بل هم مثابون مأجورون بأعمالهم من قبل الله! فما أفضح هذا المنطق؟!

فهل الثورة على خليفة النّبي ﷺ ونقض البيعة وهدر دماء الآلاف من الأبرياء من أجل رئاسات دنيوية وحب المال، موضوع معقد ومبهم ولا يعرف أحد ما فيه من سوء؟!

ترى هل في سفك كل تلك الدماء البريئة أجر وثواب عند الله؟!

فإذا أردنا تبرئة جماعة من الصحابة ممّا ارتكبوه من جرائم، فسوف لا نرى مجرماً أو مذنباً في الدنيا، وسنبرىء بهذا المنطق جميع القتلة والمجرمين والجبابرة.

إنّ مثل هذا الدّفاع غير المنطقي - عن الصحابة - سيسبب النظرة السيئة إلى أصل الإسلام.

والخلاصة، أنّنا لا سبيل لنا إلاّ احترام الجميع خاصّة أصحاب النّبي ﷺ ما داموا لم ينحرفوا عن مسير الحق والعدل ومناهج الإسلام، وإلاّ فلا[1].

٣ - الإرث في قوانين الإسلام

كما أشرنا سابقاً في تفسير سورة النساء، فإنّ الناس في زمان الجاهلية كانوا يتوارثون عن ثلاثة طرق:

١ - عن طريق النسب «وكان منحصراً بالأولاد الذكور، أمّا الأطفال والنساء فهؤلاء محرومون من الإرث».

٢ - وعن طريق «التبني» بأن يجعل ولد غيره ولَده.

---

(١) حول العدالة وتنزيه الصحابة، راجع ذيل الآية ١٠٠ من سورة التوبة.

٣ - وعن طريق العهد الذي يعبر عنه بالولاء[1].

وفي بداية الإسلام كان العمل جارياً بهذه الطرق قبل نزول قانون الإرث، إلاّ أنّه سرعان ما حلّت الأخوّة الإسلامية مكان ذلك، وورث المهاجرون الأنصار فحسب، وهم الذين تآخوا وعقدوا عهد الأخوة الإسلامية، وبعد أن اتسع الإسلام أكثر فأكثر شُرّع حكم الإرث النسبي والسببي، ونسخ حكم الأخوة الإسلامية في الإرث.

وقد أشارت إليه الآيات - محل البحث - والآية ٦ من سورة الأحزاب، إذ تقول: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾.

كل هذا مقطوع به من حيث التاريخ، إلاّ أنّه - كما قلنا من قبل - فإن جملة ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾ الواردة في الآيات محل البحث لا تختص بمسألة الإرث، بل هي ذات معنى واسع، والإرث جزء منه.

٤ - ما المراد من الفتنة والفساد الكبير؟

احتمل المفسّرون في تفسير هاتين الكلمتين الواردتين في الآيات محل البحث احتمالات كثيرة، إلاّ أنّ ما ينسجم أكثر مع مفهوم هذه الآية هو أنّ المراد من «الفتنة» هو الاختلاف والتفرق وتزلزل مباني العقيدة الإسلامية على أثر وسوسة الأعداء، و«الفساد» يشمل كل إخلال وتخريب للنظم الاجتماعية المختلفة وخاصّة سفك الدماء البريئة والإرهاب وأمثال ذلك.

وفي الحقيقة فإنّ القرآن المجيد ينذر المسلمين إذا لم يُحكِموا علائق الأخوة والتعاون فيها بينهم، ولم يقطعوا ارتباطهم بالعدوّ، فإنّ جماعتهم تزداد تشتتاً يوماً بعد يوم، وبنفوذ الأعداء داخل المجتمع الإسلامي ووساوس إغواءاتهم تتزلزل أُسس الإيمان وقواعده، ويُبتلى المسلمون عن هذا الطريق بفتنة عظيمة.

وكذلك إذا لم تكن العلائق الاجتماعية قوية، فإنّ العدو سرعان ما ينفذ إلى المجتمع وتحدث أنواع المفاسد من إرهاب وسفك الدماء، وتضييع الأموال وإغواء الأولاد، ويبدو الضعف والنقص واضحاً في المجتمع، ويعم الفساد الكبير كل مكان.

ربّنا، أيقظ مجتمعنا الإسلامي بلطفك. ونَبهّنا إلى أخطار التعاون مع الأعداء وتكوين العلاقة وإياهم. ونزّه مجتمعنا من الفتنة والفساد الكبير بنور المعرفة ووحدة الكلمة، برحمتك يا أرحم الراحمين.

---

(١) بحثنا موضوع الإرث بالولاء في الجزء الثّالث بصورة مفصلة.

سُورَة التوبَة

مدنيّة وعدد آياتـها مائة وتسع وعشرون

ينبغي الالتفات إلى الأُمور التالية قبل الشروع في تفسير السورة:

١ - أسماء هذه السّورة

ذكر المفسّرون لهذه السّورة أسماءً عديدة تبلغ العشرة، غير أنّ المشهور منها هو ما يلي: سورة البراءة، وسورة التوبة، والسورة الفاضحة. ولكلّ من التسميات سبب جليّ.

فالبراءة، لأنّها تبتدىء بإعلان براءة الله من المشركين، والذين ينقضون عهدهم.

والتوبة، لما ورد من مزيد الكلام عن التوبة في هذه السورة.

والفاضحة، لما فيها من الآيات التي تكشف النقاب عن أعمال المنافقين لتعريتهم وخزيهم وفضيحتهم.

٢ - متى نزلت هذه السورة؟

هذه السورة هي آخر سورة نزلت على النّبي الأكرم ﷺ أو من أواخر السور النازلة عليه في المدينة، وهي كما قلنا ذات ١٢٩ آية فحسب.

والمعروف أنّ بداية نزول هذه السورة كانت في السنة التاسعة للهجرة، ويدلّ تتبع آياتها على أنّ قسماً منها نزل قبل معركة تبوك، وقسماً منها نزل عند الاستعداد للمعركة أو «الغزوة»، وقسماً منها نزل بعد الرجوع من المعركة والفراغ منها.

ومن بداية السورة حتى الآية (٢٨) نزل قُبيل موسم الحج، كما سنبيّن ذلك بعون الله، والآيات الأُولى - هذه - والتي تتعلق بمن بقي من المشركين بلّغها أميرالمؤمنين عليه السلام في موسم الحج.

٣ - محتوى السّورة

لمّا كان نزول هذه السورة إبّان انتشار الإسلام في الجزيرة العربية، وتحطيم آخر مقاومة للمشركين فقد كان لما حوته من مفاهيم ومواضيع أهمّية بالغة، إذ يتعلق قسم منها بالبقية الباقية من عبدة الأوثان والمشركين، وقطع العلاقات معهم، وإلغاء

المعاهدات والمواثيق التي كانت بينهم وبين المسلمين، لنقضهم لها مراراً، ليتم تطهير المحيط الإسلامي من رجس الوثنية إلى الأبد.

وحيث إنّ بعض الأعداء عند انتشار رقعة الإسلام وتحطيم قوى الشرك غيّر مظهره النفاق وسلك في خط بغية النفوذ بين المسلمين، ولتوجيه ضربة قاضية للإسلام، فإنّ قسماً مهماً من آيات هذه السورة تتحدّث عن المنافقين وعاقبتهم، وتحذر المسلمين منهم.

وبعض آيات هذه السورة تتحدث عن الجهاد في سبيل الله وأهمّيته، لأنّ الغفلة عن هذا الأمر الحياتي في ذلك الظرف الحساس تبعث على ضعف المسلمين وتقهقرهم أو انكسارهم.

كما أنّ قسماً منه يكمل البحوث السابقة التي تناولت انحراف أهل الكتاب «اليهود والنصارى» عن حقيقة التوحيد، وتتكلم عن انصراف علمائهم عن واجبهم في التبليغ وقيادة المجتمع.

وفي بعض آيات هذه السورة حثّ للمسلمين على الاتحاد ورصّ الصفوف - تعقيباً على ما جاء آنفاً في الحث على الجهاد - وتوبيخ للمتخاذلين والمهزومين نفسياً الذين يتذرعون بذرائع واهية للتخلص من هذا الواجب، ثمّ إنّ فيها ثناءً على المهاجرين السابقين إلى الهجرة، والصفوة من المؤمنين الصادقين.

وحيث سبّب انتشار الإسلام واتساع رقعة مجتمعه آنئذ ظهور حاجات مختلفة ينبغي توفيرها، فقد عرضت بقية الآيات من هذه السورة موضوع الزكاة وتحريم تراكم الثروات واكتنازها، ووجوب طلب العلم أو التعلّم وتعليم الجهلة، وتناولت بحوثاً متنوعة أُخرى كقصة هجرة النّبي، والأشهر الحرم التي يحرم فيها القتال، وأخذ الجزية من الأقليات الدينية غير الإسلامية كاليهود والنصارى، وما إلى ذلك.

٤ - لِمَ لَمْ تبدأ هذه السورة بالبسملة؟

يُجيب استهلال السورة على السؤال آنف الذكر فقد بُدئت بالبراءة - من قبل الله - من المشركين، وإعلان الحرب عليهم، واتباع أسلوب شديد لمواجهتهم، وبيان غضب الله عليهم، وكل ذلك لا يتناسب والبسملة (بسم الله الرحمن الرحيم) الدالة على الصفاء والصدق والسلام والحب؛ والكاشفة عن صفة الرحمة واللطف الإلهي.

وقد ورد هذا التعليل عن علي عليه السلام (١).

---

(١) جاء في تفسير مجمع البيان بداية سورة التوبة عن الشيخ الطبرسي عن علي عليه السلام أنّه قال «لم تنزل بسم الله=

ويعتقد بعض المفسّرين أنّ سورة براءة - في الحقيقة - تتمة لسورة الأنفال، لأنّ الأنفال تتحدث عن العهود، وبراءة تتحدث عن نقض تلك العهود، فلم تذكر البسملة بين هاتين السورتين لارتباط بعضهما ببعض، وقد ورد عن الإمام الصادق هذا المعنى أيضاً[١].

ولا مانع أن يكون السبب في عدم ذكر البسملة مجموع الأمرين آنفي الذكر - معاً - فالأوّل ناظر إلى الرواية الأُولى «رواية الإمام علي» والثّاني يشير إلى رواية الإمام الصادق عليه السلام.

٥ - فضيلة هذه السورة وآثارها

أولَتْ الرّوايات الإسلامية أهميّة خاصّة لتلاوة سورتي براءة والأنفال، وممّا جاء في شأنهما عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «من قرأ براءة والأنفال في كل شهر لم يدخله نفاق أبداً، وكان من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام حقّاً».

وقد قلنا مراراً: إنّ ما ورد من أهمّية قصوى في الرّوايات الإسلامية في قراءة مختلف السور لا يعني ظهور آثار تلك القراءة من دون تفكّر وتطبيق لمضامينها، فنقول مثلاً: من قرأ سورتي براءة والأنفال دون إدراك لمعانيهما فسيُدرَأ عنه النفاق، ويكون من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام، بل المراد في الحقيقة أن يكون مضمون السورة مؤثّراً في بناء شخصية الفرد والمجتمع، ولا يتحقق ذلك إلاّ بإدراك مغزى السورة واستيعاب معناها، والاستعداد والتهيؤ لتطبيقها.

وحيث إنّ السورتين قد أوضحتا الخطوط العريضة العامّة في حياة المؤمنين الصادقين ومن في قبالهم من المنافقين، وأنارتا الطريق للعاملين لا للمدّعين فحسب، فستكون ثمرة تلاوتهما والاعتبار بمضمونيهما هو ما ذكرته الرواية وبهذا تكون التلاوة مؤثرة بنّاءة.

وأمّا من ينظر إلى القرآن وآياته الشريفة بشكل آخر، فهو أبعد ما يكون عن روح هذا الكتاب التربوي الذي جاء لبناء الإنسانية وهدايتها.

= الرحمن الرحيم على رأس سورة «براءة» لأنّ بسم الله للأمان والرحمة ونزلت براءة لرفع الأمان والسيف فيه!».

(١) قال الطبري نقلاً عن الإمام الصادق عليه السلام «الأنفال وبراءة واحدة!»؛ تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص١٧٦.

وقد ورد عن رسول الله ﷺ في بيان الأهمّية القصوى لما نوّهنا عنه من لطائف، أنّه قال: «نزلت عليّ براءة والتوحيد في سبعين ألف صف من صفوف الملائكة، وكان كل صف منهم يوصيني بأهمّية هاتين السورتين»(١).

٦ - حقيقة تأريخية يسعى بعضهم إلى طمس معالمها

من المتفق عليه بين جميع المؤرخين والمفسّرين تقريباً أنّه لما نزلت الآيات الأُولى من سورة براءة، وأُلْغيَت العهود التي كانت بين المشركين والمسلمين، أمر النّبي أبا بكر أن يبلّغ هذه الآيات في موسم الحج، ثمّ أخذها منه وأعطاها علياً عليه السلام ليقوم بتبليغها، فقرأها علي على الناس في موسم الحج. وبالرغم من اختلاف الرّوايات في جزئيات هذه القصة وجوانبها المتفرقة، إلاّ أن ذكر النقاط التالية يمكن أن يجلو لنا حقيقة ناصعة:

١ - يروي أحمد بن حنبل - إمام أهل السنّة المعروف - في مسنده عن ابن عباس، أنّ النّبي ﷺ أرسل فلاناً «المقصود بفلان هو أبو بكر كما سيتّضح ذلك بعدئذ» وأعطاه سورة التوبة ليبلّغها الناس في موسم الحج، ثمّ أرسل عليّاً خلفه وأخذها منه وقال ﷺ: «لا يذهب بها إلاّ رجل منّي وأنا منه»(٢).

٢ - كما جاء في المسند ذاته عن أنس بن مالك، أنّ النّبي ﷺ أرسل سورة براءة مع أبي بكر ليبلّغها، فلمّا وصل أبو بكر إلى ذي الحليفة - ويدعى بمسجد الشجرة أيضاً - وهو على بُعد مسافة فرسخ عن المدينة تقريباً، قال النّبي ﷺ: «لا يبلغها إلاّ أنا أو رجل من أهل بيتي» فبعث بها مع علي عليه السلام (٣).

٣ - وورد أيضاً في المسند نفسه - بإسناد آخر - عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنّه لما بعثه النّبي ومعه براءة قال: يا رسول الله لست خطيباً، فقال النّبي ﷺ: لا محيص عن ذلك، فإمّا أن أذهب بها أو تذهب بها، فقال علي: إذا كان ولابدّ فأنا أذهب بها. فقال له النّبي ﷺ: «انطلق بها فإنّ الله يثبت لسانك ويهدي قلبك»(٤).

٤ - وينقل النسائي - أحد كبار علماء السنة - في خصائصه، عن زيد بن سبيع، عن

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٥، ص ١، ذيل الآية مورد البحث.
(٢) مسند أحمد بن حنبل، ج ١، ص ٣٣١، ط مصر.
(٣) مسند أحمد بن حنبل، ج ٣، ص ٢١٢.
(٤) مسند أحمد بن حنبل، ج ١، ص ١٥٠.

علي عليه السلام ، أن النّبي أرسل أبا بكر بسورة براءة إلى أهل مكّة، ثمّ بعث عليّاً خلفه ليأخذ الكتاب منه «يعني السورة» فلحقه في الطريق وأخذ الكتاب منه، فعاد أبو بكر حزيناً أسيفاً، وقال: يا رسول الله أنزل فيّ شيء؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم : «لا، إلاّ أنّي أمرت أن أبلغه أنا أو رجل من أهل بيتي»(١) .

٥ - وفي سند آخر أيضاً، عن عبد الله بن أرقم، أنّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم بعث أبا بكر بسورة براءة، فلمّا سار وبلغ بعض الطريق بعث النّبي علياً فلحقه وأخذ منه السورة، فذهب بها علي إلى مكّة، فرجع أبو بكر إلى النّبي متأثراً فقال النّبي صلى الله عليه وآله وسلم : «لا يؤدّي عنّي إلاّ أنا أو رجل منّي»(٢) .

٦ - وأورد ابن كثير - المفسّر المعروف - عن أحمد بن حنبل، عن حَنَش، عن أمير المؤمنين علي عليه السلام ، أنّه عندما نزلت عشر آيات من سورة براءة على النّبي صلى الله عليه وآله وسلم دعا أبا بكر وأعطاه إيّاها ليبلغها أهل مكّة، ثمّ بعث خلفي وأمرني بالذهاب خلفه وأخذ الكتاب منه، فعاد أبو بكر إلى النّبي وقال: أنزل فيّ شيء؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم : «لا، ولكنّ جبرئيل جاءني وقال: لن يؤدّي عنك إلاّ أنت أو رجل منك»(٣) .

٧ - ونقل ابن كثير هذا المضمون عينه عن زيد بن سبيع(٤) .

٨ - كما أنّه روى هذا الحديث عن أبي جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (محمّد الباقر عليه السلام) في تفسيره(٥) .

٩ - وروى العلاّمة ابن الأثير وهو - الآخر - من علماء السنّة الكبار، في «جامع الأُصول» عن الترمذي عن أنس بن مالك، أنّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أرسل سورة براءة مع أبي بكر ثمّ دعاه، وقال: «لا ينبغي لأحد أن يبلّغ هذه إلاّ رجل من أهلي» فدعا علياً فأعطاه إيّاها(٦) .

١٠ - وروى محب الدين الطبري، في كتابه ذخائر العقبى، عن أبي سعيد أو أبي هريرة، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمر أبا بكر أن يتولى أمر الحج، فلمّا مضى وبلغ ضجنان سمع أبو بكر صوت بعير علي فعرفه، فجاء إلى علي وقال: فيم جئت؟ فقال عليه السلام : أرسل النّبي معي سورة براءة. فلمّا رجع أبو بكر إلى النّبي وأظهر تأثره من تغيير «الرسالة» قال له النّبي صلى الله عليه وآله وسلم : «لا يبلغ عنّي غيري أو رجل مني» يعني علياً(٧) .

---

(١) الخصائص للنسائي، ص ٢٨.
(٢-٥) تفسير ابن كثير، ج ٢، ص ٣٢٢.
(٦) جامع الأصول، ج ٩، ص ٤٧٥.
(٧) ذخائر العقبى، ص ٦٩.

وقد صرحت روايات أُخرى أنّ النّبي أعطى ناقته علياً ليركبها ويأتي بها أهل مكّة فيبلّغهم، فلمّا وصل منتصف الطريق سمع أبو بكر صوت ناقة رسول الله فعرفها.

وهذا النص - مع ما ورد آنفاً - يدل على أنّ الناقة كانت ناقة النّبي وقد أعطاها عليّاً، لأهميّة ما أُمر به.

وقد روى هذا الحديث كثير من كتب أهل السنّة مسنداً تارةً، ومرسلاً تارةً أُخرى، وهو من الأحاديث المتفق عليها، ولا يطعن فيه أبداً.

وطبقاً لبعض الرّوايات الواردة عن أهل السنّة أنّ أبا بكر لما صُرف عن إبلاغ سورة براءة، جعل أميراً على الحاج بمكّة.

توضيح وتحقيق

هذا الحديث يثبت - بجلاء - فضيلة للإمام علي عليه السلام، إلاّ أنّنا - ويا للأسف - نجد مثل هذه الأحاديث لا ينظر إليها بعين الإنصاف والحق، إذ يسعى بعضهم إلى محوها ونسيانها كليّاً، أو إلى التقليل من أهمّيتها وقيمتها بأساليب شتى ملتوية:

١ - فمثلاً يتناول صاحب تفسير المنار تارةً - من الحديث آنف الذكر - المقطع الذي يتعلق بجعل أبي بكر أميراً على الحاج، ويختار الصمت والسكوت في بقية الحديث الذي يدور حول أخذ سورة من أبي بكر ليبلّغها علي عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم، وقد قال فيه صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يبلغها إلاّ أنا أو رجل منّي» يعني عليّاً عليه السلام.

مع أنّ سكوت قسم من الأحاديث عن هذا الموضوع لا يكون دليلاً على أن نهمل جميع تلك الأحاديث الواردة في شأن علي عليه السلام ولا نأخذها بنظر الاعتبار!!

فأُسلوب التحقيق يقتضي تسليط الضوء على الأحاديث الواردة في هذا الشأن كافة، حتى ولو كانت على خلاف ما يجنح إليه الكاتب وتميل نفسه، وأن لا يصدر عليها حكماً مسبقاً.

٢ - ويقوم بعض المفسّرين تارةً بتضعيف سند الحديث، كما في بعض الأحاديث الواردة عن حنش والسمّاك «كما فعله المفسّر آنف الذكر».

مع أنَّ هذا الحديث ليس له طريق واحد أو طريقان، بل له طرق شتى في كتبهم المعتبرة.

٣ - ومن العجيب الغريب أن يوجّهوا مثل الحديث آنف الذكر توجيهاً مثيراً، فيقولون:

إنّما أعطى النّبي سورة براءة عليّاً، لأنّ العرب اعتادت عند إلغاء المواثيق أو العهود أن يمضي الشخص بنفسه أو يرسل أحداً من أهله.

مع أنّه ورد التصريح عن النّبي:

أوّلاً: من طرق متعددة، أنّ جبرئيل أمره بأن يبلّغ علي سورة براءة أو هكذا أُمرت!

ثانياً: إنّنا نقرأ في بعض الأحاديث الواردة عن طرقهم أنّ النّبي ﷺ قال لعلي عليه السلام: ينبغي أن تبلغ سورة براءة، وإن لم تفعل فينبغي أن أبلغها أنا (مؤدى الحديث).

تُرى ألم يكن العباس عمّ النّبي أو أحد من أقارب النّبي موجوداً يومئذ بين المسلمين! حتى يقول النّبي لعلي: إن لم تذهب فينبغي أن أذهب، لأنّه لا يبلغها عني إلاّ أنا أو رجل منّي؟!

ثالثاً: لم يذكروا دليلاً لأصل هذا الموضوع، وهو أنّه كان من عادة العرب (كذا وكذا) وأكبر الظن أنّهم وجّهوا الحديث آنف الذكر وفق ميولهم ونزعاتهم!

رابعاً: جاء في بعض الرّوايات المعتبرة أنّ النّبي ﷺ قال: «لا يذهب بها إلاّ رجل منّي وأنا منه»[1] أو ما شابه ذلك.

وهذا التعبير يدل على أنّ النّبي كان يعدّ عليّاً كنفسه، ويعد نفسه كعلي أيضاً، وهذا المضمون تناولته آية المباهلة.

ونستنتج ممّا ذكرناه آنفاً أنّنا لو تركنا التعصب الأعمى والأحكام المسبقة جانباً، وَجدنا النّبي ﷺ بفعله هذا أبان أفضلية علي عليه السلام على جميع الصحابة (إنّ هذا إلاّ بلاغ).

﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١) فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (٢)﴾

التّفسير

إلغاء عهود المشركين

كانت في المجتمع الإسلامي ومحيطه طوائف شتى، وكان النّبي ﷺ يتخذ منها موقفاً خاصّاً يتناسب وموقفها منه.

---

(١) مسند أحمد، ج ١، ص ٣٣١؛ مستدرك، ج ٣، ص ١٣٣.

فطائفة منها مثلاً لم يكن لها أيُّ عهد مع النّبي ﷺ، والنّبي ﷺ كذلك لم يكن له أيّ عهد معها.

وطوائف أُخرى عاهدت النّبي ﷺ في الحديبية - وأمثالها - على ترك المخاصمة والمنازعة، وكانت عهود بعضهم ذات أجل مسمى، وبعض العهود لم تكن ذات أجل مُسمى.

وقد نقضت بعض تلك الطوائف عهودها من جانب واحد، وبدون أي سبب يجيز النقض وذلك بمظاهرتها أعداء الإسلام، أو حاولت اغتيال رسول الله ﷺ كما هو الحال في يهود بني النضير وبني قريظة، فواجههم النّبي بشدّة وطردهم من المدينة، لكن بعض المعاهدات بقيت سارية المفعول، سواء كانت ذات أجل مسمى أو لم تكن.

الآية الأُولى من الآيتين محل البحث تعلن للمشركين كافةً ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

ثمّ أمهلتهم مدّة أربعة أشهر ليفكروا فيها ويحدّدوا موقفهم من الإسلام، فإمّا أن يتركوا عبادتهم للأصنام، أو يتهيأوا للمواجهة والقتال، فقالت: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ[1] وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾.

بحثان

١ - هل يصحّ إلغاء المعاهدة من جانب واحد؟!

نحن نعرف أنّ الإسلام أولى أهمّية قصوى للوفاء بالعهد والالتزام بالمواثيق حتى مع الكفار والمشركين، وهنا ينقدح سؤال وهو: كيف أمر القرآن بإلغاء العهود التي كانت بين المسلمين والمشركين من جانب واحد؟!

ويتّضح الجواب بملاحظة الأُمور التالية:

أوّلاً: كما صرّح في الآيتين ٧ و٨ من هذه السورة فإنّ إلغاء هذا العهد لم يكن دون أية مقدمة، بل هناك قرائن ودلائل ظهرت من جانب المشركين تدلّ على نقضهم عهدهم، وأنّهم كانوا على استعداد - في ما لو استطاعوا - أن يوجهوا ضربةً قاضية للمسلمين دون أدنى اعتناء بعهودهم التي عاهدوها، ومن المنطقي أنّه إذا رأى الإنسان

---

(١) «سيحوا» فعل أمر مشتق من «السياحة» ومعناها الجولة الهادفة.

عدوّه يتربص به ويستعد لنقض عهده، ولديه قرائن على ذلك وعلائم واضحة أن ينهض لمواجهته قبل أن يستغفله ويعلن إلغاء عهده ويردّ عليه بما يستحق.

ثانياً: ما المانع من إلغاء العهود والمواثيق التي تُفرض في ظروف استثنائية على بعض الأُمم والشعوب - فيضطرون مكرهين على قبولهما والرضا بهما - من جانب واحد إذا حصلوا على القدرة الكافية لإلغائها.

وعبادة الأصنام ليست عقيدةً ولا فكراً، بل هي خرافة ووهم باطل خطر، فيجب القضاء عليها وإزالتها من المجتمع الإنساني، فإذا كانت قوة عَبَدة الأصنام وقدرتهم بالغة في الجزيرة العربية، وكان النّبي ﷺ مجبوراً على معاهدتهم ومصالحتهم، فإنّ ذلك لا يعني أنّه لا يحق له إلغاء - معاهدته إذا ما قويت شوكته - وأن يبقى على عهده الذي يخالف العقل والمنطق والدراية.

وهذا يشبه تماماً ظهور مصلح كبير - مثلاً - بين عبدة البقر، فيقوم بعمل إعلامي كبير، وحين يواجه ضغوطاً شديدة يضطر إلى عقد هدنة بينهم وعندما يجتمع له أتباع بقدر كاف ينتفض لإزالة هذه الخرافة، والأفكار المنحطة، ويلغي معاهدته.

ولهذا نلحظ أنّ هذا الحكم مختص بالمشركين، أمّا أهل الكتاب وسائر الأقوام الذين كانوا في أطراف الجزيرة العربية من الذين كانَ بينهم وبين النّبي نوع من المواثيق والمعاهدات، فقد بقيت على حالها ولم يلغ النّبي ﷺ مواثيقهم وعهودهم حتى وفاته.

أضف إلى ذلك أن إلغاء عهود المشركين لم يكن قد حدث بصورة مفاجئة، بل أمهلوا مدّة أربعة أشهر، وأُعلن هذا القرار في الملأ العام، وفي اجتماع الحاج يوم عيد الأضحى، وفي البيت الحرام، لتكون لهم الفرصة الكافية للتفكير، ولتحديد الموقف، لعلهم يرجعون عن تلك الخرافة التي كانت أساس تفرقتهم وتشتتهم وجهلهم، ويرتدعون عن خيانتهم. والله سبحانه لم يرض لهم أن يكونوا غافلين عن هذا القرار، فلم يسلبهم فرصة التفكّر، فإن لم يُسلموا فقد كانت لهم الفرصة الكافية للاستعداد للمواجهة القتالية والحرب، لئلا تكون المواجهة غير متكافئة الطرفين.

فلو لم يكن النّبي ﷺ ليرعى الأُصول الإنسانية والأخلاقية لما كان أمهلهم مدّة أربعة أشهر، والفرصة الكافية لأن توقظهم من نومتهم؛ أو يستعدوا لتهيئة القوّة القتالية المناسبة لمواجهة المسلمين ومحاربتهم إيّاهم بها.

أجل، لو لم يكن النّبي ﷺ كذلك لما أمهلهم ولحاربهم من يوم إلغاء المعاهدة!

ومن هنا فإنّنا نجد الكثير من أُولئك المشركين - عبدة الأصنام - راجعوا أنفسهم وفكروا مليّاً في التعاليم الإسلامية حتى ثابوا إلى رشدهم واعتنقوا الإسلام.

٢ - متى بدأت الأشهر الأربعة؟

هناك بين المفسّرين كلام كثير في الجواب على هذا السؤال، إلاّ أنّ ظاهر الآي يدل على أنّ المدّة بدأت منذ إعلان البلاغ المهم على المشركين، أي من يوم عيد الأضحى، وهو العاشر من شهر ذي الحجة، وانتهت في العاشر من شهر ربيع الثاني من السنة التالية.

ويؤيد ذلك ما ورد من حديث مروي عن الإمام الصّادق عليه السلام في هذا الشأن «راجع تفسير البرهان، ج ٢، ص ١٠٣».

﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾

التّفسير

العهود المحترمة

نلحظ في هاتين الآيتين البيّنتين مزيد تأكيد على موضوع إلغاء المعاهدات التي كانت بين النّبي صلى الله عليه وآله وسلم والمشركين، حتى أنّ تاريخ الإلغاء قد أُعلن في هذه الآية إذ تقول: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ﴾(١).

وفي الحقيقة، إنّ الله سبحانه يريد في هذا الإعلان العام في مكّة المكرمة، وفي ذلك اليوم العظيم، أن يوصد كل ذريعة يتذرع بها المشركون والأعداء، ويقطع ألسنة

---

(١) جملة ﴿وَأَذَٰنٌ﴾ إلخ. معطوفة على جملة: براءة من الله. وهناك احتمالات أُخرى في تركيب الجملة «ونظمها»، غير أن ما ذكرناه أكثر ظهوراً كما يبدو.

المفسدين، لئلا يقولوا: إنّهم استغفلوا في الحملة أو الهجوم عليهم، وإنّ ذلك ليس من الشّهامة والرجولة.

كما أنّ التّعبير بـ «إلى الناس» مكان أن يقال «إلى المشركين» يَدل على وجوب إبلاغ هذا «الأذان» والإعلام لجميع الناس الحاضرين في مكّة ذلك اليوم، ليكون غير المشركين شاهداً على هذا الأمر أيضاً.

ثمّ يتوجه الخطاب في الآية إلى المشركين أنفسهم ترغيباً وترهيباً، لعلهم يهتدون، إذ تقول الآية: ﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

أي إنّ الاستجابة لرسالة التوحيد فيها صلاحكم وفيها خير لكم ولمجتمعكم ودنياكم وآخرتكم، فلو تدبّرتم بجدٍّ وصدق لرأيتم أن قبول الدعوة هو البلسم الشافي لكلّ جراحاتكم وليس في الأمر منفعة لله أو لرسوله.

ثمّ إنّ الآية تُحذر المخالفين المعاندين المتعصبين فتقول: ﴿وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾. فلا يمكنكم الخروج من دائرة قدرته المطلقة بحال.

وأخيراً فإنّ الآية أنذرت المعاندين المتعصبين قائلة: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

وكما أشرنا من قبل فإنّ إلغاء هذه العهود من جانب واحد - ورفض عهد المشركين - يختص بأُولئك الذين دلّت القرائن على استعدادهم لنقض عهدهم وبدت بوادره، لذلك فإنّ الآية استثنت قسماً منهم لوفائهم بالعهد، فقالت: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

ملاحظات:

١ - الحجُّ الأكبرُ!

اختلف المفسّرون في المراد من قوله تعالى: ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ والذي نستفيده من كثير من الرّوايات الواردة عن الفريقين، روايات أهل البيت عليهم السلام وأهل السنّة، أنّه يوم العاشر من ذي الحجة «عيد الأضحى» وبتعبير آخر «يوم النحر»[1].

وانتهاء المدّة باليوم العاشر من شهر ربيع الثّاني «للسنة العاشرة»، وفقاً لما جاء في

(١) بحار الأنوار، ج ٩٦، ص ٣٢١، ٣٢٢ و ٣٢٣.

المصادر الإسلامية، دليل آخر على هذا الموضوع: أضف إلى ذلك كله فإنّ يوم النحر في الواقع ينتهي فيه القسم الأساس من أعمال الحج، ومن هنا فيمكن أن يدعى ذلك اليوم بيوم الحج الأكبر(١).

وأمّا سبب تسميته بالحج الأكبر، فلأنّه اجتمع في ذلك العام جميع الطوائف من المسلمين وعبدة الأوثان والمشركين، [كما اعتادوا عليه في موسم الحج] إلاّ أنّ هذا الأمر لم يتحقق في السنين التالية «لمنع غير المسلمين من الحج».

وهناك تفسير آخر مضافاً إلى التّفسير المذكور آنفاً وهو أنّ المراد منه مراسم الحج في قبال مراسم العمرة التي يعبر عنها بالحج الأصغر.

وهذا التّفسير جاء في بعض الرّوايات الإسلامية، ولا يمنع أن تكون كلتا العلّتين مدعاةً لهذه التسمية(٢).

٢ - المواد الأربع التي أُعلنت ذلك اليوم

وإن كان القرآن الكريم أعلن براءة الله من المشركين بشكل مطلق، إلاّ أنّ الذي يستفاد من الرّوايات أنّ علياً عليه السلام قد أُمر بإبلاغ أربع مواد إلى الناس، وهي:

١ - إلغاء عهد المشركين.

٢ - لا يحق للمشركين أن يحجّوا في المواسم المقبلة.

٣ - منع العراة والحفاة من الطواف الذي كان شائعاً ومألوفاً حتى ذلك الوقت.

٤ - منع المشركين من دخول البيت الحرام.

وقد جاء في تفسير مجمع البيان عن الإمام الباقر عليه السلام أنّ الإمام علياً خطب في موسم الحج ذلك العام فقال: «لا يطوفن بالبيت عريان، ولا يحجن البيت مشرك، ومن كان له مدّة فهو إلى مدّته، ومن لم تكن له مدّة فمدّته أربعة أشهر».

وفي بعض الروايات إشارة إلى المادة الرّابعة، وهي عدم دخول المشركين وعبدة الأصنام البيت الحرام(٣).

---

(١) جاء في تفسير نور الثقلين، عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «إنّما سمّي الأكبر لأنّها كانت سنة حج المسلمون والمشركون ولم يحج المشركون بعد تلك السنّة».

(٢) وجاء في التّفسير المذكور آنفاً عن الإمام الصّادق عليه السلام في جوابه لبعض أصحابه: «الأكبر هو يوم النحر والأصغر العمرة».

(٣) جاء في بعض الرّوايات منع المشركين من دخول المسجد، مستدرك، ج ٩، ص ٤٠٨ و ٤٠٩.

٣ - من هم الذين كانت لهم عهود «إلى مدّة»؟

يظهر من أقوال المؤرخين وبعض المفسّرين أنّ الذين كانت لعهدهم مدّة، هم جماعة من بني كنانه وبني ضمرة، فقد بقي من عهدهم في ترك المنازعة تسعة أشهر، وقد بقي النّبي ﷺ على عهده وفيّاً، لأنّهم بقوا أوفياء لعهدهم ولم يظاهروا المشركين في مواجهة الإسلام حيث انتهت مدّتهم[(١)].

وقد عدّ بعضهم طائفة بني خزاعة من هؤلاء الذين كان لعهدهم مدّة[(٢)].

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾

التّفسير

الشدّة المقرونة بالرّفق

نقرأ في الآيتين أعلاه بيان وظيفة المسلمين بعد انتهاء مدّة إمهال المشركين «الأشهر الأربعة» وقد أصدر القرآن أوامره الصارمة في هذا الصدد فقال: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾[(٣)].

ثمّ يقول: ﴿وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾[(٤)].

ويلاحظ في هذه الآية أربعة أوامر صارمة صادرة في شأن المشركين «إيصاد الطرق بوجههم، محاصرتهم، أسرهم، ثمّ قتلهم». وظاهر النص أنّ الأُمور الأربعة ليست على

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٥، ذيل الآية مورد البحث؛ بحار الأنوار، ج ٣٦، ص ١٣٨.

(٢) تفسير المنار، ج ١٠، ذيل الآية مورد البحث.

(٣) الفعل «انسلخ» مأخوذ من الانسلاخ ومعناه الخروج، وأصله من «سلخ الشاة» أي إخراج الشاة من جلدها عند الذبح.

(٤) المرصد مأخوذ من الرّصد ويعني الطريق أو الكمين.

نحو التخيير، بل ينبغي ملاحظة الظروف والمحيط والزمان والمكان والأشخاص، والعمل بما يناسب هذه الأمور، فلو كان في الأسر والمحاصرة وإيصاد السبيل بوجه المشركين الكفاية فبها، وإلاّ فلا محيص عن قتالهم.

وهذه الشدّة متناغمة ومتوائمة مع منهج الإسلام وخطته في إزالة الوثنية وقلعها من جذورها، وكما أشرنا إلى ذلك سلفاً، فإنّ حرية الاعتقاد «أي عدم إكراه أهل الأديان الأُخرى على قبول الإسلام» تنحصر في أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ولا تشمل عبدة الأوثان، لأنّ الوثنية ليست عقيدة صحيحة، ولا ديناً كي تُلحظ بعين الاحترام، بل هي تخلّف وخرافة وانحراف وجهل، ولابدّ من استئصال جذورها بأي ثمن كان وكيف ما كان.

وهذه الشدّة والقوّة والصرامة لا تعني سدّ الطريق، - طريق الرجوع نحو التوبة - بوجههم، بل لهم أن يثوبوا إلى رشدهم ويعودوا إلى سبيل الحق، ولذلك فإنّ الآية عقبت بالقول: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْۚ﴾.

وفي هذه الحال، أي عند رجوعهم نحو الإسلام، لن يكون هناك فرق بينهم وبين سائر المسلمين، وسيكونون سواءً وإياهم في الحقوق والأحكام.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. يتوب على عباده المنيبين إليه.

وتستكمل الآية التالية هذا الموضوع بأمر آخر، كيما يتّضح بجلاء أن هدف الإسلام من هذا الأمر إنّما هو نشر التوحيد والحق والعدالة، وليس هو الاستثمار أو الاستعمار وامتصاص المال، أو الاستيلاء على أراضي الآخرين، إذ تقول الآية: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾.

أي عليك أن تعامل من يلجأ اليك من المشركين برفق ولطف، وامنحه المجال للتفكير حتى يتبيّن له محتوى دعوتك في كمال الإرادة والحرية، فإذا أشرقت أنوار الهداية في قلوبهم فسيؤمنون بدعوتك.

ثمّ تضيف الآية قائلة: ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ وأوصله إلى مكان آمن حتى لا يعترضه أحد في طريقه.

وأخيراً فإنّ الآية تبين علة هذا الحكم، فتقول: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾.

فبناءً على ذلك لو فُتحت أبواب المعرفة بوجوههم، فإنّه يؤمّل خروجهم من الوثنية التي هي وليدة الجهل - والتحاقهم بركب التوحيد الذي هو وليد العلم والمعرفة.

وقد ورد في كتب السنّة والشيعة أنّ أحد المشركين (عبدة الأصنام) سأل علياً عليه السلام بعد إلغاء المعاهدة فقال: يابن أبي طالب، لو أراد أحد أن يواجه النّبي بعد هذه المدّة «الأشهر الأربعة» ويسأله أو يسمع كلام الله منه، أهو آمن؟!

فقال علي عليه السلام: أجل، إنّ الله يقول: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾[1].

وهكذا تتوازن وتتساوى كفتا الشدّة المستفادة من الآية الأُولى - محل البحث - واللين المستفاد من الآية التي تليها، فإنّ سبيل التربية قائم على الشدة المشفوعة باللين، ليكون منهما الدواء الناجع.

ملاحظات:

١ - ما المراد من الأشهر الحرم؟

بالرّغم من أنّ المفسّرين قد بحثوا كثيراً في هذا الشأن، إلاّ أنّه - مع ملاحظة ما جاء في الآيات المتقدمة - يظهر أنّ المراد منها هي أربعة الأشهر التي كانت مدّة الإمهال للمشركين، والتي بدأت من عاشر ذي الحجة للسنة التاسعة وانتهت بالعاشر من شهر ربيع الثّاني من السنة العاشرة الهجرية.

وهذا التّفسير يعتقد به أغلب المحققين، والأهم من ذلك أنّ كثيراً من الرّوايات صرّحت بهذا المضمون أيضاً[2].

٢ - هل الصّلاة والزّكاة شرطٌ في قبول الإسلام؟

يستفاد من الآيتين محل البحث أنّه لابدّ من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة لقبول توبة المشركين، ولهذا فقد استدل بعض فقهاء أهل السنّة على أن ترك الصلاة والزكاة دليل على الكفر.

إلاّ أنّ الحق هو أنّ المراد من هذين الحكمين الإسلاميين هو متى ما شك في إسلام شخص ما، كما هي الحال في المشركين يومئذ، فعلامة إسلامه أن يؤدّي هاتين الوظيفتين «الصلاة، والزكاة».

---

(١) تفسير البرهان، ج ٢، ص ١٠٦ والتفسير الكبير للفخر الرازي، ص ٢٢٦، ذيل الآية مورد البحث.

(٢) ورد في تفسير نور الثقلين، الجزء الثّاني منه ص ١٠٦ ذيل الآية مورد البحث حديث بهذا الشأن (فراجع إن شئت).

أو أنّ المراد هو أن يُقرّوا بالصلاة والزكاة على أنّهما أمران إلهيان ويلتزموا بهما، ويعترفوا بهما على أنّهما فرضان واجبان وإن قصّروا في أدائهما، لأنّ هناك أدلة وافرة تقضي بأنّ تارك الصلاة أو الزكاة ليس كافراً، بل يعدّ إسلامه ناقصاً.

وبالطبع إن كان ترك الزكاة له دلالة على تحدّي الحكومة الإسلامية والثورة عليها فهو سبب للكفر، إلاّ أن هذا بحث آخر لا علاقة له بموضوعنا هذا.

٣ - الإيمان وليد العلم

يستفاد من الآيات محل البحث أنّ الباعث على عدم الإيمان هو الجهل، وأساس الإيمان الأصيل هو العلم، لهذا فينبغي توفير الإمكانات اللازمة لإرشاد الناس وهدايتهم ليعرفوا طريق الحقّ، ولا يقبلوا الإسلام بواسطة التقليد الأعمى.

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾

التّفسير

المعتدون النّاقضون العهد

كما لاحظنا في الآيات السابقة أنّ الإسلام ألغى جميع العهود التي كانت بينه وبين المشركين وعبدة الأوثان - إلاّ جماعة خاصّة - وأمهلهم مدّة أربعة أشهر ليقرروا موقفهم منه.

والآيات - محل البحث - بيان لعلة إلغاء العهود من قِبل الإسلام، فتقول الآية الأُولى من هذه الآيات مستفهمة استفهاماً إنكارياً: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾؟!

أي إنّهم لا ينبغي لهم أن يتوقعوا أو ينتظروا الوفاء بالعهد من قِبَلِ النّبي ﷺ ومن جانب واحد، في وقت تصدر منهم المخالفات وعدم الوفاء بالعهد.

ثمّ استثنت الآية مباشرةً أُولئك الذين لم ينقضوا عهدهم، بل بقوا أوفياء له، فقالت: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

وفي الآية التالية يُثار هذا الموضوع بمزيد الصراحة والتأكيد، ويُستفهم منه استفهاماً إنكارياً أيضاً، إذ تقول الآية: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾.

وكلمة «الإِلّ» معناها القرابة، وقال بعضهم: إنّها تعني هنا العهد والميثاق.

فعلى المعنى الأوّل أي «القرابة» يكون المراد من ظاهر الآية أنّه بالرغم من أنّ قريشاً تربطها برسول الله ﷺ وبعض المسلمين علاقة قربى، إلاّ أنّها لا ترقب هذه القرابة أو الرحم ولا ترعى حُرمتها، فكيف إذن تتوقع من النّبي والمسلمين احترامَ علاقتهم بها.

وعلى المعنى الثّاني تكون كلمة «إلّ» مؤكّدةً بكلمة (ذمّة) وتعني العهد والميثاق أيضاً، قال الراغب في المفردات: إن «الإل» كل حالة ظاهرة من عهد حلف وقرابة تئل (أي تلمع) فلا يمكن إنكاره(١).

وتضيف الآيه معقبة بأن هؤلاء يريدون أن يخدعوكم بألفاظهم المزوّقة فقالت: ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾.

لأن قلوبهم مليئة بالحقد والقسوة وطلب الانتقام وعدم الاعتناء بالعهد وعلاقة القربى، وإن أظهروا المحبّة بألسنتهم.

وفي نهاية الآية إشارة إلى جذر هذا الموضوع وأساسه وهو فسقهم، فتقول: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾.

وفي الآية التالية بيان لبعض علائم فسقهم وعصيانهم، إذ أعربت الآية عن ذلك على النحو التالي: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ﴾.

وقد جاء في بعض الرّوايات أن أبا سفيان أقام مأدبة ودعا إليها جماعةً من الناس، ليثير حفيظتهم وعداوتهم بوجه رسول الله ﷺ عن هذا الطريق(٢).

---

(١) المفردات، ص ٢٠.

(٢) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث؛ بحار الأنوار، ج ٢١، ص ٢٧٠.

ويعتقد بعض المفسّرين أنّ الآية محل البحث تشير إلى هذه القصة، إلاّ أنّ الظاهر أنّ الآية ذات مفهوم واسع يشمل هذه القصّة وما شاكلها حيث أغمضوا أعينهم وصدوا عن سبيل الله وآياته من أجل منافعهم المادية التي لا تدوم طويلاً.

ثمّ تعقب الآية بالقول: ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ فقد خسروا طريق السعادة وضيعوها، وحرموا الهداية، وهُم في الوقت ذاته أوصدوا الطريق بوجه الآخرين، وأي عمل أسوأ من أن يحمل الإنسان وزره ووزر سواه!

أمّا في آخر آية من الآيات - محل البحث - فهي تأكيد آخر على ما ورد في الآيات. المتقدمة، إذ تقول الآية: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾.

وهذه الخصلة فيهم لم يُبتل بها المؤمنون فحسب بل يعتدون على كل من تناله أيديهم ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ﴾.

وبالرغم من أنّ مضمون هذه الآية تأكيد لما سبق من الآيات المتقدمة، إلاّ أنّ هناك فرقاً بينهما، حيث كان الكلام في ما سبق على عدم رعاية المشركين حرمةً لخصوص النبي ﷺ وأصحابه المتقّين حوله ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ أمّا الآية محل البحث فالكلام فيها عن عدم رعايتهم حرمة لكل مؤمن ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾.

أي إنّ المشركين لا ينظرون اليكم (النبي والخواص من الصحابة) نظرة تمتاز عن سواكم بل هذه النظرة - نظرة العداء والبغضاء - يَنظر بها المشركون إلى كلّ مؤمن، ولا يكترثون بكل شيء ولا يرعون حرمة ولا عهداً، فهم في الحقيقة أعداء الإيمان والحقّ، وهم مصداق ما ذكره القرآن في شأن أقوام سابقين أيضاً حيث يقول: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾(١).

بحثان

١ - من هم المستثنون في هذه الآية؟

جرى الكلام بين المفسّرين في الطائفة المستثناة من الحكم: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ فمن هؤلاء المستثنون في هذه الآية؟!

(١) سورة البروج، الآية: ٨.

إلاّ أنّه بملاحظة الآيات السابقة، يظهر أن المراد من هذه الجملة هم أُولئك الذين بقوا على عهدهم ووفائهم، أي القبائل التي هي من بني ضمرة وبني كنَانة وبني خزيمة وأضرابهم.

وفي الحقيقة فإنّ هذه الجملة بمنزلة التأكيد للآيات السابقة، فإنّ على المسلمين أن يكونوا حذرين واعين، وأن يعرفوا هؤلاء الأوفياء بالعهد ويميزوهم عن سواهم الناكثين للعهد.

واما قوله تعالى: ﴿عَـٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ فلعل هذا التعبير يشير إلى ما كان من معاهدة بين المسلمين والمشركين في السنة السادسة للهجرة، عند صلح الحديبية على بعد خمسة عشر ميلاً عن مكّة، فقد التحق جماعة آخرون من مشركي العرب كالقبائل المشار إليها آنفاً بهذه المعاهدة حيث عاهدوا المسلمين على ترك الخصام، إلاّ أن مشركي قريش نقضوا عهدهم، ثمّ أسلموا في السنة الثامنة عند فتح مكّة. أمّا الجماعة التي التحقت حينئذ من المشركين بمن عاهد المسلمين، فلم يسلموا ولم ينقضوا عهدهم.

ولمّا كانت أرض مكّة تستوعب منطقة واسعة «حوالي ٤٨ ميلاً» فقد عُدّت المنطقة كلها جزءاً من المسجد الحرام، كما نقرأ عن ذلك في الآية (١٩٦) من سورة البقرة، إذ تذكر موضوع حج التمتع وأحكامه فتقول: ﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾.

والمعروف عند الفقهاء وفتاواهم أنّ أحكام حج التمتع إنّما تجب على من تبعد داره «أو دار أهله» أكثر من ٤٨ ميلاً عن مكّة(١).

فبناءً على ذلك لا مانع أبداً من أن يطلق على الحديبية، التي تبعد ١٥ ميلاً عن مكّة، تعبير: عند المسجد الحرام.

وأمّا قول بعضهم: إن الاستثناء الوارد في الآية إنّما هو في شأن مشركي قريش، الذين عدّ القرآن الكريم عهدهم الذي عقدوه في صلح الحديبية محترماً، فهذا القول يبدو بعيداً، بل هو غير صحيح، لأنّه:

أوّلاً: من المعلوم أنّ مشركي قريش نقضوا العهد، فنقضهم مقطوع به، ولا مراء فيه، فإن لم يكونوا قد نقضوا العهد، فمن الذين لم ينقضوا عهدهم إذاً؟!

---

(١) من لا يحضره الفقيه، ج ٢، ص ٣١٢؛ بحار الأنوار، ج ١٠، ص ٤٠٢.

ثانياً: إن صلح الحديبية إنّما كان في السنة السادسة للهجرة، بينما أسلم مشركو قريش في السنة الثامنة للهجرة بعد فتح مكّة، فبناءً على ذلك فالآيات هذه النازلة في السنة التاسعة للهجرة، لا يمكن أن تكون ناظرةً إليهم.

٢ - متى يجوز إلغاء المعاهدة؟

كما قلنا في ذيل الآيات المتقدمة، فإنّ المراد من الآيات محل البحث لا يعني جواز إلغاء العهد بمجرّد تصميم المشركين وعزمهم على نقض العهد عند بلوغهم القدرة، بل إنّهم تحركوا مراراً لممارسة هذا الاسلوب على مستوى العمل، فمتى استطاعوا أن يوجهوا ضربتهم إلى الإسلام سارعوا الى ذلك دون الالتفات إلى المعاهدة، وهذا المقدار من عملهم كاف لإلغاء عهدهم.

﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ
ٱلْءَايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى
دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾
أَلَا تُقَـٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم
بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ
﴿١٣﴾ قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ
صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن
يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

التّفسير

لِمَ تخشونَ مقاتلةَ العدوّ؟!

إنّ أحدَ أساليب الفصاحة والبلاغة أن يكرر المتحدّث المطلب المهم بتعابير مختلفة للتأكيد على أهميته، وليكون له أثر في النفوس. ولما كانت مسألة تطهير المحيط الإسلامي من الوثنية وعبادة الأصنام وإزالة آثارها، من المسائل ذات الأهميّة القصوى، فإنّ القرآن يكرر هذه المطالب بعبارات جديدة - في الآيات محل البحث - ويورد القرآن كذلك لطائف تخرج المطلب عن صورة التكرار، ولو التكرار المجازي.

فتقول الآية الأُولى من هذه الآيات محل البحث: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي الدِّينِ﴾.

وتضيف معقبةً ﴿وَنُفَصِّلُ الْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

وكان التعبير في الآيات المتقدمة أنّهم إذا أدّوا وظيفتهم الإسلامية، أي تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزّكاة ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ أمّا التعبير في هذه الآية ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ أي لا فارق بينهم وبين أحد من المسلمين من حيث الاحترام والمحبّة، كما لا فارق بين الإخوان.

وهذه التعابير تؤثر من الناحية النفسية في أفكار المشركين وعواطفهم لتقبّل الإسلام، إذ تقول في حقّهم تارةً ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ وتارة ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ الخ...

ولكن لو استمر المشركون في نقض العهود، فتقول الآية التالية: ﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾.

صحيح أنّهم عاهدوكم على عدم المخاصمة والمقاتلة، إلاّ أنّ هذه المعاهدة - بنقضها مراراً، وكونها قابلةً للنقض في المستقبل - لا اعتبار لها أصلاً ولا قيمة لها.

وتعقّب الآية مضيفةً ﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾.

وفي الآية الأُخرى خطاب للمسلمين لإثارة هممهم، وإبعاد روح الضعف والخوف والتردد عنهم في هذا الأمر الخطير، إذ تقول الآية: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾.

فعلام تقلقون وأنتم لم تبدأوهم بالقتال وإلغاء العهد من قبلكم ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾؟

وإذا كان بعضكم يتردد في مقاتلتهم خشية منهم، فإنّ هذه الخشية لا محل لها ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

وفي الآية التالية وعد بالنصر الحاسم للمسلمين، إذ تقول: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾.

وليس ذلك فحسب، بل، ﴿وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾.

وبهذا يشعر المؤمنون بالراحة والطمأنينة بعد أن كانوا يقاسون الألم والعذاب تحت وطأة هؤلاء المجرمين، ويزيل الله تعالى عن قلوبهم آلام المحنة بهذا النصر ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾.

قال بعض المفسّرين: إنّ المراد ﴿قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ﴾ هم جماعة المؤمنين من بني خزاعة، وقد استغفلهم عبدة الأوثان من بني بكر فهجموا عليهم غدراً.

وقال بعض المفسّرين: إنّ المراد من هذا التعبير هم جماعة من أهل اليمن استجابوا لدعوة الإسلام، ولما وصلوا مكّة عُذّبوا وأوذوا من قبل عبدة الأصنام.

إلاّ أنّه لا يبعد أن تشمل هذه العبارة جميع أُولئك الذين تعرّضوا لأذى المشركين وعبدة الأصنام وتعذيبهم فكانت قلوبهم تغلي دماً منهم.

أمّا الآية التالية فتضيف: إنّ في انتصار المؤمنين وهزيمة الكافرين سروراً للمؤمنين، وإنّ الله يسدّدهم ﴿وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ﴾.

ويحتمل أن تكون هذه الجملة تأكيداً للجملة السابقة ﴿وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ﴾ كما يحتمل أن تكون مستقلةً عنها. وأن تكون الجملة السابقة إشارة إلى أنّ القلوب التي مرضت وتألمت سنين طوالاً من أجل الإسلام والنّبي الكريم، شُفيت بانتصار الإسلام.

وأمّا الجملة الثّانية ﴿وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ﴾ فهي إشارة الى أنّ أُولئك الذين فقدوا أعزّتهم وأحبّتهم بما لاقوه من تعذيب وحشي من قبل المشركين فأغاظوهم، سَيقّر الله عيونهم بهلاك المشركين ﴿وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ﴾.

وتُختتم الآية بالقول: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

كما تشير العبارة الأخيرة ضمناً إلى إمكانية أن يلج بعضهم باب التوبة، فينبغي على المسلمين أن يعرفوا أنّ الله يقبل توبتهم، فلا يعاملوهم بشدّة وقسوة فلا يجوز ذلك. كما أنّ الجمل بنفسها تحمل البشرى بأنّ مثل هؤلاء سيميلون نحو الإسلام ويشملهم توفيق الله، لما لديهم من التهيؤ الروحي والقابليّة.

وقد ذهب بعض المفسّرين أنّ الآيات الأخيرة - بصورة عامّة من قبيل الإخبار القرآني بالمغيبات، وهي من دلائل صدق دعوة النّبي ﷺ لأنّ ما أخبر عنه القرآن قد تحقق فعلاً.

ملاحظات:

١ - هناك كلام بين المفسّرين في الجماعة الذين عنتهم الآية ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ﴾ من هم؟!

قال بعضهم: إنّ الآية تشير إلى اليهود، وإلى بعض الأقوام الذين نازلوا المسلمين وقاتلوهم بعد حين كالفُرس والرُوم.

وقال بعضهم: هي إشارة إلى كفّار قريش.

وقال بعضهم: بل هي إشارة إلى المرتدين بعد إسلامهم.

إلاّ أنّ ظاهر الآيات يدلّ - بوضوح - على أن موضوعها هو جماعة المشركين وعبدة الأصنام الذين عاهدوا المسلمين على عدم القتال والمخاصمة، إلاّ أنّهم نقضوا عهدهم.

وكان هؤلاء المشركون في أطراف مكّة أو سائر نقاط الحجاز.

كما أنّه لا يمكن القبول بأنّ الآية ناظرة إلى قريش، لأنّ قريشاً ورئيسها - أبا سفيان - أعلنوا إسلامهم - ظاهراً - في السنة الثامنة بعد فتح مكّة، والسورة محل البحث نزلت في السنة التاسعة للهجرة.

كما أنّ الاحتمال بأنّ المراد من الآية هو الفرس أو الروم بعيد جدّاً عن مفهوم الآية، لأنّ الآية - أو الآيات محل البحث - تتكلم عن مواجهة فعلية، لا على مواجهات مستقبلية أضف إلى ذلك فإنّ الفرس أو الروم لم يهمّوا بإخراج الرّسول من وطنه.

كما أنّ الاحتمال بأنّ المراد هم المرتدون بعد الإسلام، بعيد غاية البعد، لأن التاريخ لم يتحدث عن مرتدين أقوياء واجهوا الرّسول ذلك الحين ليقاتلهم بمن معه من المسلمين.

ثمّ إنّ كلمة «أيمان» جمع «يمين» وكلمة «عهد» يشيران إلى المعاهدة بين المشركين والرّسول على عدم المخاصمة، لا إلى قبول الإسلام. فلاحظوا بدقّة.

وإذا وجدنا في بعض الرّوايات الإسلامية أنّ هذه الآية طُبّقَتْ على «النّاكثين» في «معركة الجمل» وأمثالها، فلا يعني ذلك أن الآيات نزلت في شأنهم فحسب، بل الهدف من ذلك أنّ روح الآية وحكمها يصدقان في شأن الناكثين ومن هم على شاكلتهم ممن سيأتون في المستقبل.

والسؤال الوحيد الذي يفرض نفسه ويطلب الإجابة، هو: إذا كان المراد جماعة المشركين الذين نقضوا عهودهم، وقد جرى الكلام عليهم في الآيات المتقدمة، فعلام تعبّر الآية هنا عنهم بالقول: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم﴾ مع أنّهم قد نكثوها فعلاً.

والجواب: إنّ المراد من هذه الجملة - المذكورة آنفاً - أنّهم لو واصلوا نقضهم أو نكثهم للأيمان، ولم يثوبوا إلى رشدهم، فينبغي مقاتلتهم. ونظير ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ ومفهومها أنّنا نطلب من الله أن يوفقنا لأن نسير على الصراط المستقيم وأن تستمّر هدايته إيانا.

والشاهد على هذا الكلام أنّ جملة ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم﴾ جاءت في مقابل ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم﴾ أي لا يخلو الأمر من أحد وجهين، فإمّا أن يتوبوا ويعرضوا عن الشرك ويتجهوا نحو الله، وإمّا أن يستمرا على طريقهم ونكث أيمانهم. ففي الصورة الأُولى هم إخوانكم في الدين، وفي الصورة الثّانية ينبغي مقاتلتهم.

٢ - ممّا يسترعي الانتباه أنّ الآيات محل البحث لا تقول: قاتلوا الكفار، بل تقول: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ وهي إشارة إلى أن (القاعدة الجماهيرية) وعامّة الناس تبع لزعمائهم ورؤسائهم، فينبغي أن يكون الهدف القضاء على رؤسائهم وأئمتهم، لأنّهم أساس الضلال والتضليل والظلم والفساد، فاستأصلوا شجرة الكفر من جذورها وأحرقوها. فمواجهة الكفار لا تجدي نفعاً ما دام أئمتهم في الوجود، أضف إلى ذلك فإنّ هذا التعبير يُعدّ ضرباً من ضروب النظرة البعيدة المدى وعلو الهمة وتشجيع المسلمين، إذ عدّ أئمّة الكفر في مقابل المسلمين، فليواجهوهم فذلك أجدر من مواجهة من دونهم من الكفّار.

والعجيب أنّ بعض المفسّرين يرى أنّ هذا التعبير يعني أبا سفيان وأمثاله من زعماء قريش، مع أنّ جماعة منهم قتلوا في معركة بدر، وأسلم الباقي منهم كأبي سفيان بعد فتح مكّة - بحسب الظاهر - وكانوا عند نزول الآية في صفوف المسلمين، فمقاتلتهم لا مفهوم لها.

واليوم ما يزال هذا الدستور القرآني المهم باقياً على قوته «ساري المفعول» فلكي نزيل الاستعمار والفساد والظلم، لابدّ من مواجهة رؤساء الضلال وأئمّة المنحرفين، وإلاّ فلا جدوى من مواجهة من دونهم من الأفراد، فلاحظوا بدقّة.

٣ - إنّ التّعبير بـ ﴿فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ﴾ الوارد في الآيات المتقدمة، من ألطف التعابير التي يمكن أن يُعبَّر بها في شأن المساواة بين أفراد المجتمع، وبيان أوثق العلائق العاطفية، لأنّ أجلى العلائق العاطفية وأقربها في الناس التي تمثل المساواة الكاملة هي العلاقة ما بين الأخوين.

إلاّ أنّ من المؤسف أن الانقسامات الطبقية والنداءات القومية سحقت هذه الأخوّة الإسلامية التي كان الأعداء يغبطوننا عليها، ووقف الإخوان في مواجهة إخوانهم متراصين بشكل لا يُصدق، وقد يقاتل كلٌّ منهما الآخر قتالاً لا يقاتل العدوّ عدوه بمثل هذا القتال، وهذا واحد من أسرار تأخرنا في عصرنا هذا.

٤ - يستفاد - إجمالاً - من جملة ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ أنّه كان بين المسلمين جماعة يخافون من الاستجابة للأمر بالجهاد، إمّا لقوّة العدوّ وقدرته، أو لأنّهم كانوا يعدون نقض العهد ذنباً.

فالقرآن يخاطبهم بصراحة أن لا تخافوا من هؤلاء الضعاف، بل ينبغي أن تخافوا من عصيان أمر الله، ثمّ إن خشيتكم من نكث الأيمان ونقض العهد ليست في محلها، فهم الذين نكثوا أيمانهم وهم بدأوكم أوّل مرّة!

٥ - يبدو أنّ جملة ﴿وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ إشارة إلى مسألة عزمهم على إخراج الرسول ﷺ من مكّة (عند هجرته إلى المدينة) بادىء الأمر، إلاّ أن نيّاتهم تغيرت وتبدلت إلى الإقدام على قتله، إلاّ أنّ النّبي غادر مكّة في تلك الليلة بأمر الله.

وعلى كل حال، فإنّ ذكر هذا الموضوع ليس على سبيل أنّهم نقضوا عهدهم، بل هو بيان ذكرى مؤلمة من جنايات عبدة الأصنام، حيث اشتركت قريش والقبائل الأُخرى في هذا الأمر. أمّا نقض العهد من قبل عبدة الأصنام المشركين فكان واضحاً من طرق أُخرى.

٦ - ممّا يثير الدهشة والتعجب أنّ بعض أتباع مذهب الجبر يستدل على مذهبه بالآية ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ مع أنّنا لو تجردنا عن التعصب لما وجدنا في الآية أدنى دليل على مرادهم، وهذا يشبه تماماً ما لو أردنا أن ننجز عملاً - مثلاً - فنمضي إلى بعض أصدقائنا ونقول له: نأمل أن يصلح الله هذا الأمر على يدك، فإنّ مفهوم كلامنا هذا لا يعني بأنّك مجبور على أداء هذا الأمر، بل المراد أنّ الله منحك قدرةً ونية طاهرة، وبالإفادة منهما استطعت أن تؤدّي عملك باختيارك وبحرية تامّة.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

التّفسير

في هذه الآية ترغيب للمسلمين في الجهاد عن طريق آخر، حيث تُحمّلُ الآية المسلمين مسؤولية ذات عبء كبير، وهي أنّه لا ينبغي أن تتصوروا أن كلّ شيء سيكون تامّاً بادعائكم الإيمان فحسب، بل يتجلى صدق النيّة وصدق القول والإيمان الواقعي في قتالكم الأعداء قتالاً خالصاً من أي نوع من أنواع النفاق.

فتقول الآية أوّلاً: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾(١).

و«الوليجة» مشتقة من «الولوج» ومعناه الدخول، وتطلق الوليجة على من يُعتمد عليه في الأسرار ومعناها يُشبه معنى البطانة تقريباً.

وفي الحقيقة فإنّ الجملة المتقدمة تُنّبه المسلمين إلى أنّ الأعمال لا تكمل بإظهار الإيمان فحسب، ولا تتجلى شخصية الأشخاص بذلك، بل يعرف الناس باختبارهم عن طريقين:

الأوّل: الجهاد في سبيل الله لغرض محو آثار الشرك والوثنية.

الثاني: ترك أية علاقة أو أي تعاون مع المنافقين والأعداء.

فالأوّل لدفع العدو الخارجي، والثّاني يحصّن المجتمع من خطر العدو الداخلي.

وجملة ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ﴾ التي قد يلاحظ نظيرها في بعض آيات القرآن الأُخر، تعني أنّ أمركم لم يتحقق بعدُ، وبتعبير آخر: إنّ نفي العلم هنا معناه نفي المعلوم، ويستعمل مثل هذا التعبير في مواطن التأكيد. وإلاّ فإنّ الله - طبقاً للأدلة العقلية وصحيح آيات القرآن الكثيرة - كان عالماً بكل شيء، وسيبقى عالماً بكل شيء.

وهذه الآية تشبه الآية الأُولى من سورة العنكبوت، إذ تقول: ﴿أَلَمْ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾.

وكما ذكرنا آنفاً في تفسيرنا لسورة آل عمران أنّ اختبار الله لعباده ليس لكشف أمر مجهول عنده، بل هو لتربيتهم ولأجل إحياء الاستعدادات واستجلاء الأسرار الكامنة في نفوسهم. وتُختتم الآية بما يدلّ على الإخطار والتأكيد ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

فلا ينبغي أن يتصور أحدٌ أنّ الله لا يعرف العلائق السرّية بين بعض الأفراد وبين المنافقين، بل يعرف كل شيء جيداً وهو خبير بالأعمال كلها.

ويستفاد من سياق الآية أنّ بين المسلمين يومئذ من كان حديث العهد بالإسلام ولم

---

(١) «أم» حرف عطف ويُعطف بها جملة استفامية على جملة استفهامية أُخرى، ولهذا فهي تعطي معنى الاستفهام، غاية ما في الأمر أنّها تأتي بعد جملة استفهامية دائماً، وفي الآية مورد البحث عطفت على الجم ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ﴾ التي بُدئت بها الآية (١٣).

يكن على استعداد للجهاد، فيشمله هذا الكلام، أمّا المجاهدون الصادقون فقد بيّنوا مواقفهم في سوح الجهاد مراراً.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾

التّفسير

مَن يعمر مساجد الله؟

من جُملة المسائل التي يمكن أن تراود أذهان البعض بعد إلغاء عهد المشركين والحكم بجهادهم، هو: لِمَ نُبْعِد هذه الجماعة العظيمة من المشركين عن المسجد الحرام لأداء مناسك الحج، مع أنّ مساهمتهم في هذه المراسم عمارة للمسجد من جميع الوجوه «المادية والمعنوية» إذ يستفاد من إعاناتهم المهمّة لبناء المسجد الحرام، كما يكون لوجودهم أثر معنوي في زيادة الحاجّ والطائفين حول الكعبة المشرفة وبيت الله.

فالآيتان - محل البحث - تردّان على مثل هذه الأفكار الواهية التي لا أساس لها، وتصّرح الآية الأُولى منهما بالقول: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ﴾.

وشهادتهم على كفرهم جلية من خلال أحاديثهم وأعمالهم، بل هي واضحة في طريقة عبادتهم ومراسم حجّهم.

ثمّ تشير الآية إلى فلسفة هذا الحكم فتقول: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾.

ولذلك فهي لا تجديهم نفعاً: ﴿وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾.

فمع هذه الحال لا خير في مساعيهم لعمارة المسجد الحرام وبنائه وما إلى ذلك، كما لا فائدة من كثرتهم واحتشادهم حول الكعبة.

فالله طاهر منزّه، وينبغي أن يكون بيته طاهراً منزّهاً كذلك، فلا يصح أن تمسّه الأيدي الملوثة بالشرك.

أمّا الآية التّالية فتذكر شروط عمارة المسجد الحرام - إكمالاً للحديث آنف الذكر - فتبيّن خمسة شروط مهمّة في هذا الصدد، فتقول: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾.

وهذا النص إشارة إلى الشرطين الأوّل والثّاني، اللذين يمثلان الأساس العقائدي، فما لم يتوفر هذان الشرطان لا يصدر من الإنسان أي عمل خالص نزيه، بل لو كان عمله في الظاهر سليماً فهو في الباطن ملّوث بأنواع الأغراض غير المشروعة.

ثمّ تشير الآية إلى الشرطين الثّالث والرّابع فتقول: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

أي إنّ الإيمان بالله واليوم الآخر لا يكفي أن يكون مجرّد ادعاء فحسب، بل تؤيده الأعمال الكريمة، فعلاقة الإنسان بالله ينبغي أن تكون قوية محكمة، وأن يؤدّي صلاته بإخلاص، كما ينبغي أن تكون علاقته بعباد الله وخلقه قوية، فيؤدي الزكاة إليهم.

وتشير الآية إلى الشرط الخامس والأخير فتقول: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

فقلبه مليءٌ بعشق الله، ولا يحسُّ إلاّ بالمسؤولية في امتثال أمره ولايرى لأحد من عبيده أثراً في مصيره ومصير مجتمعه وتقدمه، هم أقل من أن يكون لهم أثر في عمارة محل للعبادة.

ثمّ تضيف الآية معقبة بالقول: ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ فيبلغون أهدافهم ويسعون لعمارة المسجد.

بحوث

١ - ما المراد من العمارة؟

هل تعني عمارة المسجد بناءه وتأسيسه وترميمه، أو تعني الاجتماع فيه والمساهمة في الحضور عنده؟!

اختار بعض المفسّرين أحد هذين المعنيين في تفسير «عمارة المسجد» في الآية - محل البحث - غير أنّ الآية ذات مفهوم واسع يشمل هذه الأُمور وما شاكلها جميعاً، فليس للمشركين أن يحضروا في المساجد، وليس لهم أن يبنوا مسجداً - وما إلى ذلك - بل على المسلمين أن يقوموا بكل ذلك.

ويستفاد من الآية - ضمناً - أنّه لا ينبغي للمسلمين أن يقبلوا من المشركين - بل جميع الفرق غير الإسلامية - هدايا أو إعانات للمساجد وبنائها، لأنّ الآية الأُولى وإن

كانت تتكلم على المشركين، لكنّ الآية الثّانية بدأت بكلمة «إنما» لتدلّ على أنّ عمارة مساجد الله خاصّة بالمسلمين.

ومن هنا يتّضح أيضاً أنّ متولي المساجد ومسؤوليها ينبغي أن يكونوا من أنزه الناس، ولا يُنتخب لهذه المهمّة من لا حريجة له في الدين طمعاً في ماله وثروته، أو مقامه الاجتماعي كما هو الحال في كثير من البلاد، إذ تولّى مساجدها من ليس لها أهلاً.

بل يجب إبعاد جميع الأيدي الملوثة عن هذه الأماكن المقدسة.

ومنذ أن تدخّل في أُمور المساجد والمراكز الإسلامية أو أشرف عليها حكام الجور، أو الأثرياء المذنبون، فقدت تلك المساجد والمراكز الإسلامية «حيثيتها» ومكانتها ومُسخت مناهجها البنّاءة، ولذا فنحن نرى كثيراً من هذه المساجد على شاكلة مسجد ضرار.

٢ - العمل الخالص ينبع من الإيمان فحسب

قد يتساءل بعضنا قائلاً: ما يمنع أن نستعين بأموال غير المسلمين لبناء المساجد وعمارتها؟!

لكن من يسأل مثل هذا السؤال لم يلتفت إلى أنّ الإسلام يعد العمل الصالح ثمرة شجرة الإيمان في كل مكان، فالعمل ثمرة نيّة الإنسان وعقيدته دائماً وهو انعكاس لها ويتخذ شكلهما ولونهما دائماً، فالنيات غير الخالصة لا تنتج عملاً خالصاً.

٣ - الحماة الشجعان

تدل عبارة ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ على أنّ عمارة المسجد والمحافظة عليه لاتكون إلاّ في ظل الشهامة والشجاعة، فلا تكون هذه المراكز المقدسة مراكز لبناء شخصية الإنسان وذات منهج تربوي عال إلاّ إذا كان بانوها وحماتها رجالاً شجعاناً لا يخشون أحداً سوى الله، ولا يتأثرون بأي مقام، ولا يطبقون منهجاً غير المنهج الإلهي.

٤ - هل المراد من الآية هو المسجد الحرام فحسب؟!

يعتقد بعض المفسّرين أنّ الآية محل البحث تختص بالمسجد الحرام، مع أنّ ألفاظ الآية عامّة، ولا دليل على هذا التخصيص، وإن كان المسجد الحرام الذي هو أعظم المساجد الإسلامية في مقدمتها، ويوم نزول الآية كان المسجد الحرام هو محل إشارة الآية، إلاّ أنّ ذلك لايدلّ على تخصيص مفهوم الآية.

٥ - أهمّية بناء المساجد

وردت أحاديث كثيرة في أهمّية بناء المساجد عن طرق أهل البيت وأهل السنّة، تدّلُ على ما لهذا العمل من الشأن الكبير.

فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «من بنى مسجداً ولو كمفحص قطاة بنى الله له بيتاً في الجنّة»(١).

كما ورد عنه ﷺ قوله: «من أسرج في مسجد سراجاً لم تزل الملائكة وحملة العرش يستغفرون له ما دام في ذلك المسجد ضوؤه»(٢).

إلاّ أنّ ما هو أكثر أهميةً هذا اليوم هو عمارة المسجد المعنوية، وبتعبير آخر ينبغي أن نهتم بعمارة شخصية الذين يرتادون المسجد وأهله وحفظته اهتمامنا بعمارة المسجد ذاته.

فالمسجد ينبغي أن يكون مركزاً لكل تحرك إسلامي فاعل يؤدّي إلى إيقاظ الناس، وتطهير البيئة والمحيط، وحثّ المسلمين للدفاع عن ميراث الإسلام.

وينبغي الالتفات إلى أنّ المسجد جدير بأن يكون مركزاً للشباب المؤمن، لا محلاً للعجزة والكسالى والمقعدين، فالمسجد مجال للنشاط الاجتماعي الفعّال، لا مجال العاطلين والبطّالين والمرضى.

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢)﴾

---

(١) ورد هذا الحديث في كتاب وسائل الشيعة، الباب ٨ من أبواب أحكام المساجد كما ورد عن ابن عباس في تفسير المنار، ج ١، ص ٢١٣. وسائل الشيعة، ج ٥، ص ٢٠٤ و ٢٠٥.

(٢) كتاب المحاسن، ص ٥٧ حسب نقل كنزالعرفان، ج ١، ص ١٠٨. المحاسن للبرقي، ص ٥٧؛ وسائل الشيعة، ج ٥، ص ٢٤١.

سبب النّزول

هناك روايات مختلفة في سبب نزول الآيات - محل البحث - منقولة في كتب أهل السنّة والشيعة، ونورد هنا ما يبدو أكثر صحة.

يروي «أبو القاسم الحسكاني» عالم أهل السنّة المعروف، عن بريدة، أنّ «شيبة» و«العباس» كان يفتخر كلٌّ منهما على صاحبه، وبينما هما يتفاخران إذ مرّ عليهما علي بن أبي طالب عليه السلام فقال: فيم تتفاخران؟

فقال العباس: حُبيت بما لم يُحبَ به أحد وهو سقاية الحاج.

فقال شيبة: إنّي أعمر المسجد الحرام، وأنا سادن الكعبة.

فقال علي عليه السلام: على أنّي مستحٍ منكما، فلي مع صغر سني ما ليس عندكما.

فقالا: وما ذاك؟!

فقال: جاهدت بسيفي حتى آمنتما بالله ورسوله صلى الله عليه وآله.

فخرج العباس مغضباً إلى النّبي صلى الله عليه وآله شاكياً عليّاً فقال: ألا ترى ما يقول؟

فقال النّبي صلى الله عليه وآله: ادعو لي عليّاً فلمّا جاءه علي قال صلى الله عليه وآله: لِمَ كلّمت عمّك العباس بمثل هذا الكلام؟ فقال عليه السلام: إذا كنت أغضبته، فلما بيّنتُ من الحق، فمن شاء فليرضَ بالقول الحق ومن شاء فليغضب.

فنزل جبرئيل عليه السلام وقال: يا محمّد، إنّ ربّك يقرئك السلام ويقول: اتل هذه الآيات: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾(١).

وقد وردت هذه الرواية بالمضمون ذاته مع اختلاف يسير في التعابير في كتب كثيرة لأهل السنة، كتفسير الطبري والثعلبي، وأسباب النّزول للواحدي وتفسير الخازن للبغدادي، ومعالم التنزيل للعلاّمة البغوي، والمناقب لابن المغازلي، وجامع الأصول لابن الأثير، وتفسير الفخر الرازي، وكتب أُخرى(٢).

وعلى كل حال، فالحديث آنف الذكر من الأحاديث المعروفة والمشهورة، التي يقرّ بها حتى المتعصبون، وسنتكلم عنه مرّة أُخرى بعد تفسير الآيات.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآيات مورد البحث؛ بحار الأنوار، ج ٣٦، ص ٣٩.

(٢) لمزيد الإيضاح يراجع كتاب إحقاق الحق، ج ٣، ص ١٢٢ - ١٢٧.

التّفسير

مقياس الفخر والفضل

مع أنّ للآيات - محل البحث - شأناً في نزولها، إلاّ أنّها في الوقت ذاته تستكمل البحث الذي تناولته الآيات المتقدمة، ونظير ذلك كثير في القرآن.

فالآية الأُولى من هذه الآيات تقول: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

«السقاية» لها معنى مصدريّ وهو إيصال الماء للآخرين، وكما تعني المكيال، كما جاء في الآية ٧٠ من سورة يوسف ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ وتعني الإناء الكبير أو الحوض الذي يُصب فيه الماء.

وكان في المسجد الحرام بين بئر زمزم والكعبة محل يوضع فيه الماء يدعى بـ «سقاية العباس» وكان معروفاً آنئذ، ويبدو أنّ هناك إناءً كبيراً فيه ماء يستقي منه الحاج يومئذ.

ويحدثنا التاريخ أنّ منصب «سقاية الحاج» قبل الإسلام كان من أهم المناصب، وكان يضاهي منصب سدانة الكعبة، وكانت حاجة الحاج الماسة في أيّام الحج إلى الماء في تلك الأرض القاحلة اليابسة المرمضة(١) التي يقل فيها الماء، وجوّها حار أغلب أيّام السنة، وكانت هذه الحاجه الماسة تولي موضوع «سقاية الحاج» أهميّة خاصّة، ومن كان مشرفاً على السقاية كان يتمتع بمنزلة اجتماعية نادرة، لأنّه كان يقدم للحاج خدمة حياتية.

وكذلك «عمارة المسجد الحرام» أو سدانته ورعايته، كان لها أهمّيتها الخاصّة، لأنّ المسجد الحرام حتى في زمن الجاهلية كان يعدّ مركزاً دينياً، فكان المتصدي لعمارة المسجد أو سدانته محترماً.

ومع كل ذلك فإنّ القرآن يصّرح بأنّ الإيمان بالله وباليوم الآخر والجهاد في سبيل الله أفضل من جميع تلك الأعمال وأشرف.

أمّا الآية التالية فتوضح ما أجملته الآية السابقة وتؤكّده بالقول: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾.

---

(١) «المرمضة» مشتقة من «الإرماض» أي شديدة الحر، والأرض الرمضاء كذلك: شديدة الحر.

وأمّا الآية الثّالثة - من الآيات محل البحث - فتقول: إنّ الله أنعم على المؤمنين والمهاجرين والمجاهدين في سبيله ثلاثَ مواهب هي:

١ - ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾.

٢ - ﴿وَرِضْوَانٍ﴾.

٣ - ﴿وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾.

وتعقب الآية الأخيرة لمزيد التوكيد بالقول: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

بحثان

١ - تحريف التاريخ

كما قرأنا آنفاً في شأن نزول الآيات محل البحث، وطبقاً لرواية وردت في كثير من كتب أهل السنّة الشهيرة، أنّها نزلت في علي عليه السلام وبيان فضائله، على أنّ مفهوم الآيات عام واسع «وقد قلنا مراراً بأن أسباب النّزول لا تحدّد مفاهيم الآي».

إلاّ أنّ بعض مفسّري أهل السنّة لم يرغب في أن تثبت للإمام علي عليه السلام فضائل بارزة مع اعتقادهم بأنّه رابع خلفاء المسلمين! وكأنّهم خافوا إن أذعنوا لما يجدونه عند علي عليه السلام من الفضائل أن يقف الشيعة أمامهم متسائلين: لِمَ قدّمتم على علي غيره؟

فلذلك أغمضوا النظر عن كثير من مناقبه وفضائله، وسعوا جاهدين لأن يقدحوا في سند الرواية التي تذكر فضل علي عليه السلام على غيره أو في دلالتها.

ويا للأسف ما زال هذا التعصب المقيت ممتداً إلى عصرنا الحاضر، حتى أنّ بعض علمائهم المثقفين لم يسلموا من هذا الداء الوبيل والتعصب دون دليل!

ولا أنسى المحاورة التي جرت بيني وبين بعض علماء أهل السنة، إذ أظهر كلاماً عجيباً عند ذكرنا لمثل هذه الأحاديث، فقال: في عقيدتي أنّ الشيعة يستطيعون أن يثبتوا جميع معتقدات مذهبهم «أصولها وفروعها» من مصادرنا وكتبنا، لأنّ في كتبنا أحاديث كافية لصالح آراء الشيعة وصحة مذهبهم.

إلاّ أنّه من أجل أن يريح نفسه من جميع هذه الكتب، قال: أعتقد أن أسلافنا كانوا حسني الظن، وقد أوردوا كل ما سمعوه في كتبهم، فليس لنا أن نأخذ كل ما أوردوه

ببساطة!! «طبعاً كان حديثه يشمل الكتب الصحاح والمسانيد المعتبرة وما هو عندهم في المرتبة الأُولى».

فقلت له: ليس هذا هو الأُسلوب في التحقيق، حيث يعتقد إنسان ما بمذهب معين، لأنّ آباءه كانوا عليه وورثه عن سلفه، فما وجده من حديث ينسجم ومذهبه قال: إنّه صحيح، وما لم ينسجم حكم عليه بعدم الصحة، لأنّ السلف الصالح كان حسن الظن، حتى لو كان الحديث معتبراً.

فما أحسن أن نختار أُسلوباً آخر للتحقيق بدل ذلك، وهو أن نتجرّد من عقيدتنا الموروثة ثمّ ننتخب الأحاديث الصحيحة دون تعصب.

ونسأل الآن: لماذا سكتوا عن الأحاديث الشهيرة التي تذكر فضل علي وعلو مقامه، بل نسوها وربّما طعنوا فيها، فكأن مثل هذه الأحاديث لا وجود لها أصلاً؟

ومع الالتفات إلى ما ذكرناه آنفاً، ننقل كلاماً لصاحب تفسير «المنار» المعروف، إذ أهمل شأن نزول الآيات محل البحث المذكور آنفاً، ونقل رواية لا تنطبق ومحتوى الآيات أصلاً، وينبغي أن نعدّها حديثاً مخالفاً للقرآن، فقال عنها: إنّها معتبرة!

وهي ما نُقَل عن النعمان بن بشير إذ يقول: كنت جالساً في عدة من أصحاب النّبي إلى جوار منبره، فقال بعضهم: لا أرى عملاً بعد الإسلام أفضل من سقاية الحاج وإروائهم، وقال الآخر: إنّ عمارة المسجد الحرام أفضل من كل عمل، فقال الثالث: الجهاد في سبيل الله أفضل ممّا قلتما.

فنهاهم عمر عن الكلام وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله - وكان ذلك اليوم يوم الجمعة - ولكنّي سأسأل رسول الله بعد الفراغ من الصلاة - صلاة الجمعة - في ما اختلفتم فيه.

وبعد أن أتمّ صلاته جاء إلى رسول الله فسأله عن ذلك، فنزلت الآيات محل البحث(١).

إلاّ أنّ هذه الرّواية لا تنسجم والآيات محل البحث من عدّة جهات، ونحن نعرف أن كلّ رواية مخالفة للقرآن ينبغي أن تطرح جانباً ويُعرضَ عنها؛ لأنّه:

أوّلاً: لم يكن في الآيات محل البحث قياس ما بين الجهاد وسقاية الحاج وعمارة

---

(١) تفسير المنار، ج ١٠، ص ٢١٥، ذيل الآية مورد البحث.

المسجد الحرام، بل القياس ما بين سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام من جهة، والإيمان بالله واليوم الآخر والجهاد من جهة أُخرى، وهذا يدل على أنّ من كان يقوم بمثل السقاية والعمارة في زمان الجاهلية كان يقيس عمله بالإيمان والجهاد. فالقرآن يصرّح بأنّ سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام لا يستويان - كل منهما - مع الإيمان بالله والجهاد في سبيله وليس القياس بين الجهاد وعمران المسجد وسقاية الحاج (لاحظ بدقة).

ثانياً: إنّ جملة ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ تدل على أنّ أعمال الطائفة الأُولى كانت معروفة بالظلم، وإنّما يفهم ذلك فيما لو كانت هذه الأعمال صادرة في حال الشرك، لأنّ القرآن يقول: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[1].

ولو كان القياس بين الإيمان وسقاية الحاج المقرونة بالإيمان والجهاد، لكانت جملة ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ لغواً - والعياذ بالله - لأنّها حينئذ لا مفهوم لها هنا.

ثالثاً: إنّ الآية الثّانية - محل البحث - التي تقول: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ مفهومها أنّ أُولئك أفضل وأعظم درجة ممن لم يؤمنوا ولم يهاجروا ولم يجاهدوا في سبيل الله، وهذا المعنى لا ينسجم وكلام النعمان - آنف الذكر - لأنّ المتكلمين وفقاً لحديثه كلهم مؤمنون ولعلهم أسهموا في الهجرة والجهاد.

رابعاً: كان الكلام في الآيات المتقدمة عن إقدام المشركين على عمارة المساجد وعدم جواز ذلك: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ والآيات محل البحث تعقب على الموضوع ذاته، ويدل هذا الأمر على أنّ موضوع الآيات هو عمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج حال الشرك، وهذا لا ينسجم ورواية النعمان.

والشيء الوحيد الذي يمكن أن يُستدلَ عليه هو عبارة ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ حيث تدل على أنّ الطرفين المقيسين كل منهما حسن بنفسه، وإن كان أحدهما أعظم من الآخر.

إلاّ أنّ الجواب على ذلك واضح، لأنّ أفعل التفضيل غالباً تستعمل في الموازنة بين أمرين، أحدهما واجد للفضيلة والآخر غير واجد، كأن يقال مثلاً: الوصول متأخراً خير من عدم الوصول، فمفهوم هذا الكلام لا يعني أن عدم الوصول شيء حسن، لكن الوصول بتأخير أحسن.

---

(١) سورة لقمان، الآية: ١٣.

أو أنّنا نقرأ في القرآن ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ أي من الحرب [سورة النساء الآية ١٢٨] فهذا لا يعني أنّ الحرب شيء حسن.

أو نقرأ مثلاً ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ﴾ [سورة البقرة الآية ٢٢١] ترى هل المشرك حسن وفيه خير؟!

أو نقرأ في سورة التوبة ذاتها (الآية ١٠٨) ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ أي أحق من مسجد ضرار الذي بناه المنافقون للعبادة، مع أنّنا نعرف أنّ العبادة في مسجد ضرار ليست بحق أبداً، فنظير هذه التعابير في القرآن واللغة العربية، بل في سائر اللغات كثير.

من مجموع ما ذكرناه نستنتج أن رواية النعمان بن بشير لأنّها مخالفة لمحتوى القرآن ينبغي أن تطرح وتنبذ جانباً، وأن نأخذ بما ينسجم وظاهر الآي، وهو ما قدمناه بين يدي تفسير هذه الآيات، على أنّه سبب لنزولها، وأنّه لفضيلة كبرى لإمام الإسلام العظيم علي عليه السلام.

نسأل الله أن يثبت أقدامنا على متابعة الحق وأهله من الأئمّة الصالحين، وأن يجنبنا التعصب، ويفتح أبصارنا وأسماعنا وأفكارنا لقبول الحق.

٢ - ما هو مقام الرضوان؟

يستفاد من الآيات - محل البحث - أنّ مقام الرضوان الذي هو من أعظم المواهب التي يهبها الله المؤمنين والمجاهدين في سبيله، هو شيءٌ غير الجنات والنعيم المقيم وغير رحمته الواسعة.

وسنتناول بيان هذا الموضوع ذيل الآية (٧٢) من هذه السورة، في تفسير جملة ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ إن شاء الله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾

التّفسير

كلّ شيء فداء للهدف

إنّ آخر وسوسة أو ذريعة يمكن أن يتذرع بها جماعة من المسلمين للامتناع عن جهاد المشركين (وفعلاً فقد تذرع بعضهم وفقاً لما ورد في قسم من التفاسير) بأن من بين المشركين وعبدة الأوثان أقارب لهم، فقد يُسلم الأب ويبقى ولده في الشرك على حاله، وقد يقع العكس إذ يخطو الابن نحو توحيد الله ويبقى أبوه مشركاً، وهذه الحالة ربّما كانت موجودة بين الأخ وأخيه، والزوج وزوجه، والفرد وعشيرته أو قبيلته، وهكذا.

فإذا كان القرار أن يجاهد جميع المشركين فلابدّ أن يغمضوا أعينهم عن أرحامهم وأقاربهم وعشيرتهم الخ. هذا كلّه من جهة.

ثمّ ومن جهة أُخرى كانت رؤوس الأموال والقدرة التجارية بيد المشركين تقريباً، ولهذا يسبب تردد المشركين إلى مكّة ازدهار التجارة.

ومن جهة ثالثة كان للمسلمين في مكّة بيوت عامرّة نسبياً، فإذا قاتلوا المشركين فمن المحتمل أن يهدمها المشركون، أو تفقد قيمتها إذا عطل المشركون مراسم الحاج ومناسكه بمكّة.

فالآيتان - محل البحث - ناظرتان إلى مثل هؤلاء الأشخاص، وتردّان عليهم ببيان صريح، فتقول الآية الأُولى منهما: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾.

ثمّ تعقب - على وجه التأكيد - مضيفةً: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

وأي ظلم أسوأ من أن يظلم الإنسان نفسه بتعلقه بأعداء الحق والمشركين، ويظلم مجتمعه، ويظلم نبيّه أيضاً؟!

أمّا الآية التالية فهي تتناول هذا الموضوع بنحو من التفصيل والتأكيد والتهديد والتقريع، فتخاطب النبي ﷺ ليعنّف أُولئك الذين لا يرغبون في جهاد المشركين لما ذكرناه آنفاً، فتقول: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦ﴾.

ولما كان ترجيح مثل هذه الأُمور على رضا الله والجهاد في سبيله، يعدّ نوعاً من

العصيان والفسق البيّن، وإن من تشبث قلبه بالدنيا وزخرفها وزبرجها غير جدير بهداية الله، فإنّ الآية تعقب في الختام قائلةً: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

وقد جاء في تفسير علي بن إبراهيم القمي في شأن الآيتين ما يلي: «لما أذّن أمير المؤمنين أن لا يدخل المسجد الحرام مشرك بعد ذلك، جزعت قريش جزعاً شديداً، وقالوا: ذهبت تجارتنا وضاعت علينا وخربت دورنا، فأنزل الله في ذلك ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِن كَانَ﴾ . . .

والآيتان - محل البحث - ترسمان خطوط الإيمان الأصيل وتميزانها عن الإيمان المبطن بالشرك والنفاق.

كما أنّهما تضعان حداً فاصلاً بين المؤمنين الواقعيين وبين ضعاف الإيمان، وتقول إحداهما بصراحة: إن كانت هذه الأُمور الثمانية «في الحياة المادية» التي يتعلق أربعة منها بالأرحام والأقارب ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ﴾.

ويتعلق قسم منها بالمجتمع و«العشيرة».

والقسم السّادس يرتبط بالمال.

والسابع بالتجارة والاكتساب.

وأمّا الثامن - وهو الأخير - فيتعلق بالمساكن ذات الأناقة ﴿وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ﴾.

فإذا كانت هذه الأُمور الثمانية - المذكورة آنفاً - أغلى وأعزّ وأحب عند الإنسان من الله ورسوله، والجهاد في سبيله وامتثال أوامره، حتى أنّ الإنسان لا يكون مستعداً بالتضحية بتلك الأُمور الثمانية من أجل الله والرّسول والجهاد، فيتّضح أنّ إيمانه الواقعي لم يكمل بعدُ!

فحقيقة الإيمان وروحه وجوهره، كل ذلك يتجلّى بالتضحية بمثل هذه الأُمور من دون تردد.

أضف إلى ذلك، فإنّ من لم يكن مستعداً للتضحية بمثل تلك الأُمور، فقد ظلم نفسه ومجتمعه في الواقع، كما أنّه سيقع في ما كان يخاف من الوقوع فيه لأنّ الأُمّة التي تتلكأ في اللحظات الحساسة من تأريخها المصيري، وفي المآزق الحاسمة، فلا يضحي أبناؤها بمثل ذلك، فستواجه الهزيمة عاجلاً أو آجلاً، وسيتعرض كلّ ما تعلقت به القلوب الى خطر الضياع والتلف بيد الأعداء.

ملاحظات:

١ - ما قرأناه في الآيتين - محل البحث - ليس مفهومه قطع علائق المحبّة بالأرحام، وإهمال رؤوس الأموال الاقتصادية، والانسياق إلى تجاوز العواطف الإنسانية وإلغائها، بل المراد من ذلك أنّه ينبغي أن لا ننحرف عند مفترق الطرق إلى الأموال والأزواج والأولاد والدور والمقام الدنيوي، بحيث لا نطبّق في تلك الحالة حكم الله، أو لا نرغب في الجهاد، ويحول عشقنا المادي دون تحقيق الهدف المقدس.

لهذا يلزم على الإنسان إذا لم يكن على مفترق الطرق أن يرعى الجانبين «العلاقة بالله والعلاقة بالرحم».

فنحن نقرأ في الآية (١٥) من سورة لقمان، قوله تعالى في شأن الأبوين المشركين: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾.

٢ - إنّ أحد تفاسير جملة ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ﴾ ما أشرنا إليه آنفاً، وهو التهديد من قبل الله لأُولئك الذين يقدّمون منافعهم المادية ويفضلونها على رضا الله، ولما كان هذا التهديد مجملاً كان أثره أشدَّ وحشة وإشفاقاً، وهذا التعبير يشبه قول من يكلم صاحبه الذي دونه وتحت أمره، فيقول له: إذا لم تفعل ما أمرتك، فسأقوم بما ينبغي أيضاً.

وهناك احتمال آخر لتفسير الجملة - محل البحث - وهو أنّ الله سبحانه يقول: إذا لم تكونوا مستعدين للتضحية، فإنّ الله يفتح لنبيّه عن طريق آخر، إذ ليس ذلك بعسير عليه. ونظير هذا المعنى ما جاء في الآية (٥٤) من سورة المائدة، إذ نقرأ فيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾.

الماضي والحاضر مرهونان بهذا الأمر

٣ - قد يتصور بعضهم بأنّ ما جاء في الآيتين يخص صدر الإسلام والتاريخ الماضي، إلاّ أنّ ذلك خطأ كبير، فالآيتان تستوعبان حاضر المسلمين ومستقبلهم أيضاً.

فإذا قُدّر للمسلمين أن لا يضحوا بأموالهم وأنفسهم وأولادهم ودورهم... الخ في سبيل الله، ولا يكون لهم إيمان متين، ويفضلون الأمور المادية على رضا الله، وتبقى قلوبهم متعلقة بالمال والأولاد وزبارج الدنيا، فيكون مستقبلهم مظلماً، لا مستقبلهم فحسب، بل حتى يومهم هذا، ففي مثل هذا الحال سيحدق بهم الخطر وسيفقدون

موروثهم الحضاري، وتكون مصادر حياتهم بأيدي الأجانب ويفقدون معنى الحياة، لأن الحياة هي حياة الإيمان والجهاد في ظل الإيمان.

فعلينا أن نغرس مدلول هاتين الآيتين في قلوب اطفال المسلمين وشبابهم ونجعله شعاراً لنا، ونحيي في نفوس المسلمين روح التضحية والجهاد، ليحافظوا على ثقافتهم وموروثهم المعرفي.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾

التفسير

الكثرة وحدها لاتجدي نفعاً

في الآيات المتقدمة رأينا أنّ الله سبحانه يدعو المسلمين إلى التضحية والجهاد على جميع الصُّعد في سبيل الله وقلع جذور الشرك وعبادة الأوثان، ويهدد بشدّة من يتقاعس منهم عن الجهاد والتضحية بسبب التعلق بالأزواج والأولاد والأرحام والعشيرة والمال والثروة.

أمّا الآيات محل البحث فتشير إلى مسألة مهمّة، وهي أنّ على كل قائد أن ينّبه أتباعه في اللحظات الحساسة بأنّه إذا كان فيهم بعض الأشخاص من ضعاف الإيمان والذين يحجبهم التعلّق بالمال والولد والأزواج وما إلى ذلك عن الجهاد في سبيل الله، فلا ينبغي أن يقلق المؤمنون المخلصون من هذا الأمر، وعليهم أن يواصلوا طريقهم، لأنّ الله لم يتخلَّ عنهم يوم كانوا قلّةً، كما هو الحال في معركة بدر، ولا يوم كانوا كثرةً ملء العين (كما في معركة حنين) وقد أعجبتهم الكثرة فلم تغن عنهم شيئاً، لكن الله سبحانه أنزل جنوداً لم تروها، وعذب الذين كفروا، فالله في الحالين ينصر المؤمنين ويرسل إليهم مدده...

لهذا فإن الآية الأُولى من الآيات محل البحث تقول: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾.

والمواطن جمع الموطن، ومعناه المحل الذين يختاره الإنسان للسكن الدائم، أو المؤّقت، إلاّ أن من معانيه أيضاً ساحة الحرب والمعركة، وذلك لأنّ المقاتلين يقيمون في مكان الحرب مدّة قصيرة أو طويلة أحياناً.

ثمّ تضيف الآية معقبةً ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ وكان جيش المسلمين يوم حنين زهاء اثني عشر ألفاً، وقال بعض المؤرخين: كانوا عشرة آلاف أو ثمانية آلاف، غير أنّ الرّوايات المشهورة تؤيد ما ذكرناه آنفاً، إذ تقول: إنّهم كانوا اثني عشر ألفاً، وهذا الرقم لم يسبق له مثيل في الحروب الإسلامية قبل ذلك الحين، حتى اغترّ بعض المسلمين وقالوا: «لن نُغلب اليوم».

إلاّ أنّه - كما سنبيّن الموضوع في الحديث عن غزوة حنين - قد فرّ كثير من المسلمين ذلك اليوم، لكونهم جديدي عهد بالإسلام ولم يتوغل الإيمان في قلوبهم فانكسر جيش المسلمين في البداية وكاد العدوّ أن يغلبهم لولا أنّ الله أنزل بلطفه مدده وجنوده فنجّاهم.

ويصوّر القرآن هذه الهزيمة بقوله: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾.

وفي هذه اللحظات الحساسة حيث تفرق جيش الإسلام هنا وهناك، ولم يبق مع النّبي إلاّ القلة، وكان النّبي مضطرباً ومتألّماً جدّاً لهذه الحالة نزل التأييد الإلهي: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾.

وكما قلنا في حديثنا عن غزوة بدر في ذيل الآيات الخاصّة بها، أن نزول هذه الجنود غير المرئية كانَ لشدّ أزر المسلمين وتقوية معنوياتهم، وإيجاد روح الثبات والاستقامة في نفوسهم وقلوبهم، ولا يعني ذلك اشتراك الملائكة والقوى الغيبية في المعركة(١).

ويَذكُر القرآن النتيجة النهائية لمعركة حنين الحاسمة فيقول: ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾.

وكان هذا العذاب والجزاء أن قُتل بعض الكافرين، وأُسر بعضهم، وفرّ بعضهم إلى مناطق بعيدة عن متناول الجيش الإسلامي.

---

(١) لمزيد من الإيضاح يراجع تفسير الآيات ٩ - ١٢ من هذا الجزء نفسه.

ومع هذا الحال فإنّ الله يفتح أبواب توبته للأسرى والفارين من الكفّار الذين يرغبون في قبول مبدأ الحق «الإسلام» لهذا فإنّ الآية الأخيرة من الآيات محل البحث تقول: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وجملة «يتوب» التي وردت بصيغة الفعل المضارع، والتي تدل على الاستمرار، مفهومها أن أبواب التوبة والرجوع نحو الله مفتوحة دائماً بوجه التائبين.

بحوث

١ - غزوة حنين ذات العبرة

«حُنين» منطقة قريبة من الطائف، وبما أنّ الغزوة وقعت هناك فقد سميّت باسم المنطقة ذاتها، وقد عُبّر عنها في القرآن بـ «يوم حنين» ولها من الأسماء: غزوة أوطاس، وغزوة هوازن أيضاً.

أمّا تسميتها بأوطاس، فلأن «أوطاس» أرض قريبة من مكان الغزوة، وأمّا تسميتها بهوازن، فلأن إحدى القبائل التي شاركت في غزوة حنين تُدعى هوازن.

أمّا كيف حدثت هذه الغزوة، فبناءً على ما ذهب إليه ابن الأثير في الكامل، أنّ هوازن لمّا علمت بفتح مكّة، جمع القبيلة رئيسها مالك بن عوف وقال لمن حوله: من الممكن أن يغزونا محمّد بعد فتح مكّة، فقالوا: من الأحسن أن نبدأه قبل أن يغزونا.

فلما بلغ ذلك النّبي ﷺ أمر المسلمين أن يتوجهوا إلى أرض هوازن[1].

وبالرغم من عدم الاختلاف بين المؤرخين في شأن هذه الغزوة والمسائل العامّة فيها، إلاّ أنّ في جُزئياتها روايات متعددة لا يكاد بعضها ينسجم مع الآخر، وما ننقله هنا فقد اقتضبناه عن مجمع البيان للعلامة الطبرسي، بناءً على روايته القائلة: إنّ رؤساء طائفة هوازن جاءوا إلى مالك بن عوف واجتمعوا عنده في أُخريات شهر رمضان أو شوال في السنة الثامنة للهجرة، وكانوا قد جاءوا بأموالهم وأبنائهم وأزواجهم لئلا يفكر أحدهم بالفرار حال المعركة، وهكذا فقد وردوا منطقة أوطاس.

فعقد النّبي ﷺ لواءه، وسلمّه عليّاً عليه السلام وأمر حَمَلة الرايات الذين ساهموا في فتح مكّة أن يتوجهوا براياتهم ذاتها مع علي بن أبي طالب إلى حُنين، واطّلع النّبي أن صفوانَ

(١) راجع الكامل لابن الأثير، ج ٢، ص ٢٦١، نقلنا القصة بشيء من الاختصار.

ابن أمية لديه دروع كثيرة، فأرسلَ النّبي إليه أن أعرنا مئة درع، فقال صفوان: أتريدونها عاريةً أم غصباً؟ فقال النّبي: بل عارية نضمنها ونعيدها سالمة إليك، فأعطى صفوان النّبي مئة درع على أنّها عارية، وتحرك مع النّبي بنفسه إلى حُنين.

وكان ألفا شخص قد أسلم في فتح مكّة، فأضيف عددهم إلى العشرة آلاف الذين ساهموا في فتح مكّة، وصاروا حوالي اثني عشر ألفاً، وتحركوا نحو حنين.

فقال مالك بن عوف - وكان رجلاً جريئاً شهماً - لقبيلته: اكسروا أغماد سيوفكم، واختبئوا في كهوف الجبال والوديان وبين الأشجار، واكمِنوا لجيش الإسلام، فإذا جاءوكم الغداة «عتمةً» فاحملوا عليهم وأبيدوهم.

ثمّ أضاف مالك بن عوف قائلاً: إن محمّداً لم يواجه حتى الآن رجال حرب شجعاناً، ليذوق مرارة الهزيمة!!

فلما صلّى النّبي صلاة الغداة «الصبح» بأصحابه أمر أن ينزلوا إلى حنين، ففوجئوا بهجوم هوازن عليهم من كل جانب وصوب، وأصبح المسلمون مرمى لسهامهم، ففرّت طائفة من المقاتلين جديدي الإسلام (بمكّة) من مقدمة الجيش، فكان أن ذُهل المسلمون واضطربوا وفرّ الكثير منهم.

فخلّى الله بين جيش المسلمين وجيش العدو، وترك الجيشين على حالهما، ولم يحمِ المسلمين لغرورهم - مؤقتاً - حتى ظهرت آثار الهزيمة فيهم.

إلاّ أنّ علياً حامل لواء النّبي بقي يقاتل في عدّة قليلة معه، وكان النّبي ﷺ في (قلب) الجيش وحوله بنو هاشم، وفيهم عمه العباس، وكانوا لا يتجاوزون تسعة أشخاص عاشرهم أيمن ابن أم أيمن.

فمرّت مقدمة الجيش في فرارها من المعركة على النّبي فأمر النّبي عمّه العباس - وكان جهير الصوت - أن يصعد على تل قريب وينادي فوراً: يا معشر المهاجرين والأنصار، يا أصحاب سورة البقرة، يا أهل بيعة الشجرة، إلى أين تفرّون؟ هذا رسول الله ﷺ.

فلّما سمع المسلمون صوت العباس رجعوا وقالوا: لبيّك لبيّك، ولا سيما الأنصار إذ عادوا مسرعين وحملوا على العدوّ من كل جانب حملة شديدة، وتقدّموا بإذن الله ونصره، بحيث تفرقت هوازن شذر مذر مذعورة، والمسلمون ما زالوا يحملون عليها، فقتل حوالي مئة شخص من هوازن، وغنم المسلمون أموالهم كما أسروا عدّة منهم(١).

---

(١) مجمع البيان، ج ٥، ص ١٧ - ١٩ و٣٣. ذيل الآية مورد البحث؛ تفسير الميزان ج٩، ص٢٣٠.

ونقرأ في نهاية هذه الحادثة التأريخية أن ممثلي هوازن جاءوا النّبي وأعلنوا إسلامهم، وأبدى لهم النّبي صفحه وحُبّه، كما أسلم مالك بن عوف رئيس القبيلة، فردّ النّبي عليه أموال قبيلته وأسراه، وصيره رئيس المسلمين في قبيلته أيضاً.

والحقيقة أنّ السبب المهم في هزيمة المسلمين بادىء الأمر - بالإضافة إلى غرورهم لكثرتهم - هو وجود ألفي شخص ممن أسلم حديثاً وكان فيهم جماعة من المنافقين طبعاً، وآخرون كانوا قد جاءوا مع النّبي لأخذ الغنائم، وجماعة منهم كانوا بلا هدف، فأثّر فرار هؤلاء في بقية الجيش.

أمّا السرّ في إنتصارهم النهائي فهو وقوف النّبي ﷺ وعلي عليه السلام وجماعة قليلة من الأصحاب، وتذكرهم عهودهم السابقة وإيمانهم بالله والركون إلى لطفه الخاص ونصره.

٢ - من هم الفارون؟

ممّا لا شك فيه أنّ الأكثرية الساحقة فرّت بادىء الأمر من ساحة المعركة، وما تبقى منهم كانوا عشرةً فحسب، وقيل أربعة عشر شخصاً، وأقصى ما أوصل عددُهم المؤرخون لم يتجاوزوا مئة شخص.

ولما كانت الرّوايات المشهورة تصّرح بأن من بين الفارّين الخلفاء الثلاثة، فإنّ بعض المفسّرين سعى لأن يعدّ هذا الفرار أمراً طبيعياً.

يقول صاحب تفسير المنار ما ملَخصُه: لما رشق العدوّ المسلمين بسهامه، كان جماعة قد التحقوا بالمسلمين من مكّة، وفيهم المنافقون وضعاف الإيمان والطامعون «للغنائم» ففرّ هؤلاء جميعاً وتقهقروا إلى الخلف، فاضطرب باقي الجيش طبعاً، وحسب العادة - لا خوفاً - فقد فرّوا أيضاً، وهذا أمر طبيعي عند فرار طائفة فإنّه يتزلزل الباقي منهم فيفر أيضاً - ففرارهم لا يعني ترك النّبي وعدم نصرته أو تسليمه بيد عدوه، حتى يستحقوا غضب الله!![1]

ونحن لا نعلّق على هذا الكلام، لكن نتركه للقراء ليحكموا فيه حكمهم.

كما ينبغي أن نذكر هذه المسألة وهي أنّ «صحيح البخاري» حين يتكلم عن الهزيمة وفرار المسلمين ينقل ما يلي:

---

(١) راجع تفسير المنار، وإقرار التفصيل فيه، ج ١٠، الصفحات ٢٦٢ و٢٦٣ و٢٦٥.

فإذا عمر بن الخطاب في الناس، وقلت: (الراوي): ما شأن الناس؟ قال: أمر الله، ثمّ تراجع الناس إلى رسول الله[١].

غير أننا لو تجرّدنا من الأحكام المسبقة، والتفتنا إلى القرآن الكريم، وجدناه لا يذم جماعةً بعينها، بل يذم جميع الفارين.

ولا ندري ما الفرق بين قوله تعالى: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ حيث قرأنا هذه العبارة في الآيات محل البحث، وبين عبارة أُخرى وردت في الآية (١٦) من سورة الأنفال إذ تقول: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾؟!

فبناءً على ذلك لو ضممنا الآيتين بعضهما إلى بعض لعرفنا أنّ المسلمين ارتكبوا خطأً كبيراً يومئذ إلاّ القليل منهم، غاية ما في الأمر أنّهم تابوا بعدئذ ورجعوا.

٣ - الإيمان والسكينة

السكينة في الأصل مأخوذة من السكون، وتعني نوعاً من الهدوء أو الاطمئنان الذي يبعد كل نوع من أنواع الشك والخوف والقلق والاستيحاش عن الإنسان، ويجعله راسخ القدم بوجه الحوادث الصعبة والملتوية. والسكينة لها علاقة قربى بالإيمان، أي إنّ السكينة وليدة الإيمان، فالمؤمنون حين يتذكرون قدرة الله التي لا غاية لها، ويتصورون لطفه ورحمته يملأ قلوبهم موج الأمل ويغمرهم الرجاء.

وما نراه من تفسير السكينة بالإيمان في بعض الرّوايات[٢]، أو بنسيم الجنّة متمثلاً في صورة إنسان[٣] كل ذلك ناظر إلى هذا المعنى.

ونقرأ في القرآن في الآية ٤ من سورة الفتح قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾.

وعلى كل حال فهذه الحالة النفسية خارقة للعادة، وموهبة إلهيّة بحيث يستطيع الإنسان أن يهضم الحوادث الصعبة، وأن يحس في نفسه عالماً من الدعة والاطمئنان برغم كلّ ما يراه.

وممّا يسترعي النظر أن القرآن - في الآيات محل البحث - لا يقول: ثمّ أنزل الله سكينته على رسوله وعليكم، مع أنّ جميع الجمل في الآية تحتوي على ضمير الخطاب

---

(١) راجع تفسير المنار، وإقرار التفصيل فيه، ج ١٠، الصفحات ٢٦٢ و٢٦٣ و٢٦٥.

(٢) تفسير البرهان، ج ٢، ص ١١٤. (٣) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص٢٠١.

(كم)، بل تقول الآية: ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهي إشارة إلى أنّ المنافقين وأهل الدنيا والذين كانوا مع النّبي في المعركة لم ينالوا سهماً من السكينة والإطمئنان، بل كانت السكينة من نصيب المؤمنين فحسب.

ونقرأ في بعض الرّوايات أن نسيم الجنّة هذا كان مع أنبياء الله ورسله(١)، فلذلك كانوا - في الحوادث الصعبة التي يفقد فيها كل إنسان توازنه إزاءها - أصحاب عزم راسخ وسكينة واطمئنان، وإرادة حديدية لا تقبل التزلزل.

وكان نزول السكينة على النّبي ﷺ في معركة حنين - كما ذكرنا آنفاً - لرفع الإضطراب الناشىء من فرار أصحابه من المعركة، وإلاّ فهو كالجبل الشامخ الركين، وكذلك ابن عمّه علي عليه السلام وقلّة من أصحابه (المسلمين).

٤ - في الآيات محل البحث إشارة إلى أنّ الله نصر المسلمين في مواطن كثيرة!

هناك كلام كثير بين المؤرخين حول عدد مغازي النّبي وحروبه، التي أسهم فيها ﷺ شخصيّاً، وقاتل الأعداء، أو حضرها دون أن يقاتل بنفسه، أو الحروب التي وقف فيها المسلمون بوجه أعدائهم ولم يكن الرّسول حاضراً في المعركة.

إلاّ أنّه يستفاد من بعض الرّوايات التي وصلتنا عن طرق أهل البيت عليهم السلام أنّها تبلغ الثمانين غزوةً(٢).

وقد ورد في كتاب (الكافي) أن أحد خلفاء بني العباس كان قد نذر مالاً كثيراً إن هو عوفي من مرضه «ويقال إنّه قد سُمَّ»، فلما عُوفي جمع الفقهاء الذين كانوا عنده، فسألهم عن المال الذي يجب أداؤه لإيفاء نذره، فلم يعرفوا للمسألة جواباً. وأخيراً سأل الخليفة العباسي الإمام التاسع محمّد بن علي الجواد عليه السلام فقال: «الكثير ثمانون».

فلمّا سألوه عن دليله في ذلك استشهد الإمام بالآية: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ ثمّ قال: عددنا حروب النّبي التي انتصر فيها المسلمون على أعدائهم فكانت ثمانين(٣).

٥ - إن ما ينبغي على المسلمين أن يعتبروا به ويلزمهم أن يأخذوا منه درساً بليغاً، هو أن ينظروا إلى الحوادث التي هي على شاكلة حادثة حنين، فلا يغتروا بكثرة العَدَد أو

(١) تفسير البرهان، ج ٢، ص ١١٢.
(٢) بحار الأنوار، ج ١٩، ص ١٥٥، ١٦٥.
(٣) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ١٩٧.

العُدد، فالكثرة وحدها لا تغني شيئاً، بل المهم في الأمر وجود المؤمنين الراسخين في الإيمان، ذوي الإرادة والتصميم، حتى لو كانوا قلةً.

كما أنّ طائفة قليلة استطاعت أن تغير هزيمة حنين إلى انتصار على العدو وكانت الكثيرة بادىء الأمر سبب الهزيمة، لأنّها لم تنصهر بالإيمان تماماً.

فالمهم أن يتوفر في مثل هذه الحوادث أناس مؤمنون ذوو استقامة وتضحية، لتكون قلوبهم مركزاً للسكينة الإلهيّة، وليكونوا كالجبال الراسخة بوجه الأعاصير المدمرة.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

التّفسير

لا يحقُّ للمشركين أن يَدخُلوا المسجد الحَرام

قلنا: إنّ واحداً من الأُمور الأربعة التي بلّغها الإمام علي عليه السلام في موسم الحج في السنة التاسعة للهجرة، هو أنّه لا يحق لأحد من المشركين دخول المسجد الحرام، أو الطواف حول البيت، فالآية محل البحث تشير إلى هذا الموضوع وحكمته، فتقول أوّلا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾.

وهل الآية هذه دليل على نجاسة المشرك بالمفهوم الفقهي، أو لاّ؟!

هناك كلام بين الفقهاء والمفسّرين، ومن أجل تحقيق معنى الآية يلزمنا التحقيق في كلمة «نجس» قبل كل شيء...

«النَّجس» على زنة «الهَوس» كلمة ذات معنى مصدري، وتأتي للتأكيد والمبالغة والوصف.

يقول الراغب في مفرداته: إنّ النجاسة والنجس يطلقان على كل قذارة، وهي على نوعين: قذارة حسية، وقذارة باطنية.

ويقول الطبرسي في مجمع البيان: كل ما ينفر منه الإنسان يقال عنه: إنّه نجس.

فلذلك فإنّ كلمة نجس تستعمل في موارد كثيرة - حتى في ما لا مفهوم للنجاسة

الظاهرية فيه - فمثلاً يسمّي العرب الأمراض الصعبة المزمنة أو التي لا علاج لها بـ «النجس» كما يطلق على الشخص الشّرير، أو الساقط خُلقياً، أو الشيخ الهرم، أنّه نَجس.

ومن هنا يتّضح أنّه مع ملاحظة ما جاء في الآية - محل البحث - لا يمكن الحكم بأنّ إطلاق كلمة نجس على المشركين تعني أن أجسامهم قذرة كقذارة البول والدم والخمر وما إلى ذلك أو لعقيدتهم «الوثنية» فهي قذارة باطنية، ومن هنا لا يمكن الاستدلال بهذه الآية على نجاسة الكفّار، بل ينبغي البحث عن أدلة أُخرى.

ثمّ تعقب الآية على ذوي النظرة السطحية الذين كانوا يزعمون بأن المشركين إذا انقطعوا عن المسجد الحرام ذهبت تجارتهم وغدوا فقراء معوزين فتقول: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾.

كما فعل ذلك سبحانه على خير وجه، فباتساع رقعة الإسلام في عصر النّبي ﷺ أخذ سيل الزائرين يتجه نحو بيت الله في مكّة، وما زال هذا الأمر مستمراً حتى عصرنا الحاضر حيث أصبحت مكّة في أحسن الظروف فهي بين سلسلة جبال صخرية لا ماء فيها ولا زرع، لكنّها مدينة عامرة، وقد صارت بإذن الله مركزاً مهماً للبيع والشراء والتجارة.

ويضيف القرآن في نهاية الآية قائلاً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فكل ما يأمركم به الله فهو وفق حكمته، وهو عليم بما سيؤول إليه أمره من نتائج مستقبلية، وهو خبير بذلك.

﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾

التّفسير

مسؤوليتنا إزاء أهل الكتاب

كان الكلام في الآيات السابقة عن وظيفة المسلمين إزاء المشركين، أمّا الآية محل البحث (وما يليها من الآي) فتبيّن تكليف المسلمين ووظيفتهم إزاء أهل الكتاب.

وفي هذه الآيات جعل الإسلام لأهل الكتاب سلسلة من الأحكام تعدّ حدّاً وسطاً بين المسلمين والكفار، لأنّ أهل الكتاب من حيث اتّباعهم لدينهم السماوي لهم شبه بالمسلمين، إلاّ أنّهم من جهة أُخرى لهم شبه بالمشركين أيضاً.

ولهذا فإنّ الإسلام لا يجيز قتلهم، مع أنّه يجيز قتل المشركين الذين يقفون بوجه المسلمين، لأنّ الخطة تقضي بقلع جذور الشرك والوثنية من الكرة الأرضية، غير أنّ الإسلام يسمح بالعيش مع أهل الكتاب في صورة ما لو احترم أهل الكتاب الإسلام، ولم يتآمروا ضده، أو يكون لهم إعلام مضاد.

والعلامة الأُخرى لموافقتهم على الحياة المشتركة السلمية مع المسلمين هي أن يوافقوا على دفع الجزية للمسلمين، بأن يعطوا كل عام إلى الحكومة الاسلامية مبلغاً قليلاً من المال بحدود وشروط معينة سنتناولها في البحوث المقبلة إن شاء الله.

وفي غير هذه الحال فإنّ الإسلام يصدر أمره بمقاتلتهم، ويوضح القرآن دليل شدة هذا الحكم في جمل ثلاث في الآية محل البحث:

إذ تقول الآية أوّلاً: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾.

لكن كيف لا يؤمن أهل الكتاب - كاليهود والنصارى - بالله وباليوم الآخر، مع أنّنا نراهم في الظاهر يؤمنون بالله ويقرون بالمعاد أيضاً؟

والجواب: لأنّ إيمانهم مزيج بالخرافات والأوهام، أمّا في مسألة الإيمان بالمبدأ وحقيقة التوحيد، فلأنّه:

أوّلاً: يعتقد طائفة من اليهود - كما سنرى ذلك في الآيات المقبلة - أنّ عزيراً ابن الله، كما يعتقد المسيحيون عامّة بألوهية المسيح والتثليث [الأب والابن وروح القدس].

وثانياً: كما يُشار إليه في الآيات المقبلة، فانّ كلاً من اليهود والنصارى مشركون في عبادتهم، ويعبدون أحبارهم - عمليّاً - ويطلبون منهم العفو والصفح عن الذنب، وهذا ممّا يختصّ به الله، مضافاً إلى تحريف الأحكام الإلهيّة بصورة رسمية.

وأمّا إيمانهم بالمعاد فإيمان محرّف، لأنّ المعاد كما يستفاد من كلامهم منحصر بالمعاد الروحاني، فبناءً على ذلك فإنّ إيمانهم بالمبدأ مخدوش، وإيمانهم بالمعاد كذلك.

ثمّ تشير الآية إلى الصفة الثّانية لأهل الكتاب، فتقول: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾.

ومن الممكن أن يكون المراد من كلمة «رسوله» نبيّهم موسى أو عيسى عليه السلام، لأنّهم لم يكونوا أوفياء لأحكام دينهم، وكانوا يرتكبون كثيراً من المحرمات الموجودة في دين موسى أو عيسى، ولا يقتصرون على ذلك فحسب، بل كانوا يحكمون بحليتها أحياناً.

ويمكن أن يكون المراد من «رسوله» نبيَّ الإسلام محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم، أي إنّما أمر المسلمون بمقاتلة اليهود والنصارى وجهادهم إيّاهم، لأنّهم لم يذعنوا لما حرّمه الله على يد نبيّه، وارتكبوا جميع أنواع الذنوب.

وهذا الاحتمال يبدو أقرب للنظر، والشاهد عليه الآية (٣٣) من هذه السورة ذاتها، وسنقف على تفسيرها قريباً، إذ تقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾.

أضف إلى ذلك حين ترد كلمة ﴿رَسُولَهُۥ﴾ في القرآن مطلقةً فالمراد منها النّبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

ولو سلّمنا بأنّ المراد من ﴿رَسُولَهُۥ﴾ هنا نبيّهم، فكان ينبغي أن تكون الكلمة (تثنية) أو جمعاً، كما جاء في الآية (١٣) من سورة يونس: ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ ونظير هذا التعبير في القرآن ملحوظ.

ويمكن أن يقال: إنّ الآية في هذه الصورة ستكون من باب تحصيل الحاصل أو توضيح الواضح، لأن من البديهي أن غير المسلمين لا يحرمون ما حرمه الإسلام.

لكن ينبغي الالتفات إلى أنّ المراد من هذه الصفات هو بيان علة جواز جهاد المسلمين لليهود ومقاتلتهم إيّاهم. أي يجوز أن تجاهدوا اليهود والنصارى - لأنّهم لا يحرمون ما حرم الإسلام وقد ارتكبوا كثيراً من الآثام - إذا واجهوكم وخرجوا عن كونهم أقلية مسالمة.

وتذكر الآية الصفة الثّالثة التي كانوا يتصفون بها فتقول: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾.

ويوجد احتمالان في هذه الجملة أيضاً، إلاّ أنّ الظاهر أنّ المراد من دين الحق هو دين الإسلام المشار إليه بعد بضع آيات.

وذكر هذه الجملة بعد عدم اعتقادهم بالمحرمات الإسلامية، هو من قبيل ذكر العام بعد الخاص، أي أن الآية أشارت أوّلاً إلى ارتكابهم لمحرمات كثيرة، وهي محرّمات تلفت النظر كشرب الخمر والربا وأكل لحم الخنزير، وارتكاب كثير من الكبائر التي كانت تتسع يوماً بعد يوم.

ثمّ تقول الآية: إنّ هؤلاء لا يدينون بدين الحق أساساً، أي إنّ أديانهم منحرفة عن

مسيرها الأصيل، فنسوا كثيراً من الحقائق والتزموا بكثير من الخرافات مكانها، فعليهم أن يتقبلوا الإسلام، وأن يعيدوا بناء أفكارهم من جديد على ضوء الإسلام وهداه، أو يكونوا مسالمين - على الأقل - فيعيشوا مع المسلمين، وأن يقبلوا شروط الحياة السلمية مع المسلمين.

وبعد ذكر هذه الأوصاف الثلاثة، التي هي في الحقيقة المسوغ لجهاد المسلمين لأهل الكتاب، تقول الآية: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

وكلمة «من» في الآية بيانية لا تبعيضية، وبتعبير آخر: إنّ القرآن يريد أن يقول: إنّ أهل الكتاب السابقين - وللأسف - لا يدينون بدين الحق وانحرفوا عن المعتقدات الصحيحة، وهذا الحكم يشملهم جميعاً.

ثمّ تبيّن الآية الفرق بين أهل الكتاب والمشركين في مقاتلتهم، بالجملة التالية ﴿حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾.

«والجزية» مأخوذة من مادة الجزاء، ومعناها المال المأخوذ من غير المسلمين الذين يعيشون في ظلّ الحكومة الإسلامية، وهذه التسمية لأنّها جزاء حفظ أموالهم وأرواحهم (هذا ما يستفاد من كلام الراغب في مفرداته فلا بأس بمراجعتها).

«والصاغر» مأخوذ من «الصِغَر» على زنة «الكِبَر» وخلاف معناه، ومعناه الراضي بالذلة.

والمراد من الآية أن الجزية ينبغي أن تُدفع في حال من الخضوع للإسلام والقرآن.

وبتعبير آخر: هي علامة الحياة السلمية، وقبول كون الدافع للجزية من الأقلية المحفوظة والمحترمة بين الأكثرية الحاكمة.

وما ذهب إليه بعض المفسّرين من أنّ المراد من الجزية في الآية هو تحقير أهل الكتاب وإهانتهم والسُّخر منهم، فلا يستفاد ذلك من المفهوم اللغوي لألفاظ الآية، ولا ينسجم وروح تعاليم الإسلام السمحة، ولا ينطبق مع سائر التعاليم أو الدستور الذي وصلنا في شأن معاملة الأقليات.

وما ينبغي التنويه به هنا هو أنّ الآية وإن ذكرت شرط «الجزية» من بين شروط الذمة فحسب، إلاّ أنّ التعبير بـ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ إشارة إجمالية إلى سائر شروط الذمّة، لأنّه يستفاد من هذه الجملة بأنّهم - مثلاً - يعيشون في محيط إسلامي، فليس لهم أن يظاهروا أعداء الإسلام، ولا يكون لهم إعلام مضاد للإسلام، ولا يقفوا حجر عثرة في

رقيه وتقدمه، وما إلى ذلك، لأنّ هذه الأُمور تتنافى وروح الخضوع والتسليم للإسلام والتعاون مع المسلمين.

ما هي الجزية؟!

تُعدّ الجزية ضريبةً مالية «إسلامية» وهي تتعلق بالأفراد لا بالأموال ولا بالأراضي، أو بتعبير آخر: هي ضريبة مالية سنوية على الرؤوس.

ويعتقد بعضهم أنّها ليست من أصل عربي، بل هي فارسية قديمة وأصلها «كزيت» ومعناها الأموال التي تؤخذ للدعم العسكري(١)، أو ما يصطلح عليه في عصرنا بـ«المجهود الحربي». لكن الكثير يعتقدون أن هذه الكلمة «الجزية» عربية خالصة.

وكما ذكرنا آنفاً فهي مأخوذة من الجزاء، لأنّ الضريبة التي تدفع، إنّما هي جزاء الأمن الذي توفره الحكومة الإسلامية للأقليات الدينية.

والجزية، كانت قبل الإسلام، ويعتقد بعضهم أن أوّل من أخذ الجزية هو كسرى أنوشروان الملك الساساني، ولو لم نسلّم بأنّه الأوّل فلا أقل من أن أنوشروان كان يأخذ من أبناء وطنه الجزية، وكان يأخذ ممن لم يكن موظفاً في الدولة وعمره أكثر من عشرين عاماً وأقل من خمسين عاماً، مبلغاً سنوياً يتراوح بين ٤ و٦ و٨ و١٢ درهماً، على أنّه ضريبة سنوية على كل فرد.

وذكروا أنّ فلسفة هذه الضرائب أو حكمتها هي الدفاع عن الوطن واستقلاله وأمنه، وهي وظيفة عامّة على جميع الناس، فبناءً على ذلك متى ما قام جماعة فعلاً بالمحافظة على الوطن ولم يستطع الآخرون أن يجندوا أنفسهم للدفاع عن الوطن، لأنّهم يكتسبون ويتّجرون - مثلاً - فإن على الجماعة الثّانية أن تقوم بمصارف المقاتلين فتدفع ضرائب سنوية للدولة.

وما لدينا من القرائن يؤيد فلسفة الجزية... سواء قبل الإسلام أو بعده.

فمسألة السنّ في من يعطي الجزية في عصر أنوشروان الذي ذكرناه آنفاً «وهي أنّ الجزية تقع على من عمره عشرون عاماً إلى خمسين عاماً» دليل واضح على هذا المطلب، لأنّ أصحاب هذه المرحلة، من العمر كانوا قادرين على حمل السلاح والمساهمة في الحفاظ على أمن البلاد، إلاّ أنّهم كانوا يدفعون الجزية لأعمالهم وكسبهم.

---

(١) الجزية وأحكامها، ص ١١.

والشاهد الآخر على ذلك أنّه لا تجب الجزية «في الإسلام» على المسلمين، لأنّ الجهاد واجب عليهم جميعاً، وعند الضرورة يجب على الجميع أن يتجهوا نحو ساحات القتال ليقفوا بوجه العدوّ، إلاّ أنّه لما كانت الأقليات الدينية في حلٍّ من أمر الجهاد، فعليها أن تدفع المال مكان الجهاد، ليكون لهم نصيب في الحفاظ على أمن الوطن الذي يتمتعون بالحياة فيه.

ثمّ إن سقوط الجزية عن الأطفال والشيوخ والمقعدين والنساء والعُميان، دليل آخر على هذا الموضوع.

ممّا ذكرناه يتّضح أن الجزية إعانة مالية فحسب، يقدمها أهل الكتاب إزاء ما يتحمله المسلمون من مسؤولية في الحفاظ عليهم وعلى أموالهم.

فبناء على ذلك فإنّ من يزعم أنّ الجزية نوع من أنواع حق التسخير، لم يلتفت إلى روحها وحكمتها وفلسفتها، وهي أنّ أهل الكتاب متى دخلوا في أهل الذمة فإنّ الحكومة الإسلامية يجب عليها أن ترعاهم وتحافظ عليهم وتمنعهم من كل أذى أو سوء، وهكذا فإنّ أهل الذمة عند دفعهم الجزية، بالإضافة إلى التمتع بالحياة مع المسلمين في راحة وأمان فليس عليهم أي تعهد من المساهمة في القتال مع المسلمين وفي جميع الأُمور الدفاعية، ويتّضح أنّ مسؤوليتهم إزاء الحكومة الإسلامية أقل من المسلمين بمراتب.

أي إنّهم يتمتعون بجميع المزايا في الحكومة الإسلامية بدفعهم مبلغاً ضئيلاً، ويكونون سواءً هم والمسلمون. في حين أنّهم لا يواجهون الأخطار ومشاكل الحرب.

ومن الأدلة التي تؤيد فلسفة هذا الموضوع، أنّه في المعاهدات التي كانت - في صدر الإسلام بين المسلمين وأهل الكتاب في شأن الجزية، تصريح بأنّ على أهل الكتاب أن يدفعوا الجزية، وفي قبال ذلك على المسلمين أن يمنعوهم «أي يحفظوهم» وأن يدافعوا عنهم إذا داهمهم العدو الخارجي.

وهذه المعاهدات كثيرة، ونورد مثلاً منها، وهي المعاهدة التي تمت بين خالد بن الوليد مع المسيحيين الذين كانوا يقطنون «الفرات»:

نص كتاب المعاهدة:

«هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا وقومه، إنّي عاهدتكم على الجزية والمنعة، فلك الذّمة والمنعة، وما منعناكم فلنا الجزية وإلاّ فلا، كتب سنة اثنتي عشرة في صفر»(١).

---

(١) نقلاً عن تفسير المنار، ج ١٠، ص ٢٩٤.

والذي يسترعي النظر هو أننا نقرأ في هذه المعاهدة وأمثالها أنّه متى ما قصّر المسلمون في الحفاظ على أهل الذمة أو لم يمنعوهم، فالجزية تعاد إليهم أو لا تؤخذ منهم عندئذ أصلاً.

وينبغي الالتفات إلى أنّ الجزية ليس لها مقدار معين وميزانها بحسب استطاعة من تجب عليهم، غير أنّ المستفاد من التواريخ أنّها عبارة عن مبلغ ضئيل قد لا يتجاوز الدينار[1] في السنة، وربّما قُيد في المعاهدة أن على دافعي الجزية أن يدفعوا بمقدار استطاعتهم جزيةً.

ومن جميع ما تقدم ذكره يتّضح أنّ جميع ما أثير من شبهات أو إشكالات في هذا الصدد، باطل لا اعتبار له، ويثبت أنّ هذا الحكم الإسلامي حكم عادل ومنصف.

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾

التّفسير

شرك أهل الكتاب

كان الكلام في الآيات المتقدمة بعد الحديث عن المشركين وإلغاء عهودهم وضرورة إزالة دينهم ومعتقداتهم الوثنية يشير بعد ذلك إلى أهل الكتاب، وقد حدّد الإسلام لهم

(١) من المناسب أن أشير إلى أنّ المقصود بالدينار ليس هو الدينار المتعارف بيننا كالدينار العراقي أو الدينار الأردني أو الدينار الكويتي وهلّم جراً، بل هو الدينار الذهبي الذي يعادل مثقالاً ونصف من الذهب أو أدنى من ذلك بقليل.

شروطاً ليعيشوا بسلام مع المسلمين، فإن لم يفوا بها كان على المسلمين أن يقاتلوهم.

وفي الآيات محل البحث بيان لوجه الشبه بين أهل الكتاب والمشركين، ولا سيما اليهود والنصارى منهم، ليتّضح أنّه لو كان بعض التشدد في معاملتهم، فإنّما هو لانحرافهم عن التوحيد، وميلهم إلى نوع من الشرك في العقيدة، ونوع من الشرك في العبادة.

فتقول الآية الأُولى من الآيات محل البحث: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.

بحوث

١ - من هو عزيزٌ؟!

«عزير» في لغة العرب هو «عزرا» في لغة اليهود، ولمّا كانت العرب تغيّر في بعض الكلمات التي تردها من لغات أجنبية وتجري على لسانها، كما هو الحال في إظهار المحبّة خاصّة فتصغر الكلمة، فصغرت عزرا إلى عُزير، كما بُدلت كلمة يسوع العبرية إلى عيسى في العربية، ويوحنا إلى يحيى[1].

وعلى كان حال، فإن عزيراً - أو عزراً - له مكانة خاصّة في تاريخ اليهود، حتى أنّ بعضهم زعم أنّه واضع حجر الأساس لأُمّة اليهود وباني مجدهم، وفي الواقع فإنّه خدمةً كبرى لدينهم، لأنّ بخت نصر ملك بابل دمر اليهود تدميراً في واقعته المشهورة، وجعل مُدُنَهم، تحت سيطرة جنوده فأبادوها، وهدموا معابدهم، وأحرقوا توراتهم، وقتلوا رجالهم، وسبوا نساءهم، وأسروا أطفالهم، وجيء بهم إلى بابل فمكثوا هناك حوالي قرن.

ولما فتح كورش ملك فارس بابل جاءه عزرا، وكان من أكابر اليهود، فاستشفعه في اليهود فشفّعه فيهم، فرجعوا إلى ديارهم وكتب لهم التّوراة - ممّا بقي في ذهنه من أسلافه اليهود وما كانوا قد حدّثوا به - من جديد.

ولذلك فهم يحترمونه أيما احترام، ويعدّونه منقذهم ومحيي شريعتهم[2].

---

(١) المراد من التصغير عادةً هو بيان كون الشيء صغيراً في قبال شيء آخر كبير، مثل رجيل المصغر عن رجل، لكن للتصغير أغراضاً بلاغية منها إظهار المحبّة وغيرها، كما في إظهار الرجل محبته لولده فيصغّر اسمه.

(٢) يراجع في هذا الشأن الميزان، ج ٩، ص ٢٥٣، وتفسير المنار، ج ١٠، ص ٣٢٢.

وكان هذا الأمر سبباً أن تلقبه جماعة منهم بـ «ابن الله» غير أنّه يستفاد من بعض الرّوايات - كما في الاحتجاج للطبرسي - أنّهم أطلقوا هذا اللقب احتراماً له لا على نحو الحقيقة.

ولكنّنا نقرأ في الرّواية ذاتها أنّ النّبي سألهم بما مؤدّاه (إذا كنتم تُجلّون عزيراً وتكرمونه لخدماته العظمى وتطلقون عليه هذا الاسم، فعلامَ لا تسمّون موسى وهو أعظم عندكم من عزير بهذا الاسم فلم يجدوا للمسألة جواباً وأطرقوا برؤوسهم)[1].

ومهما يكن من أمر فهذه التسمية كانت أكبر من موضوع الإجلال والاحترام في أذهان جماعة منهم، وما هو مألوف عند العامّة أنّهم يحملون هذا المفهوم على حقيقته، ويزعمون أنّه ابن الله حقّاً، لأنّه خلصهم من الدمار والضياع ورفع رؤوسهم بكتابة ا التوراة من جديد.

وبالطبع فهذا الاعتقاد لم يكن سائداً عند جميع اليهود، إلاّ أنّه يستفاد أنّ هذا التصّور أو الاعتقاد كان سائداً عند جماعة منهم، ولا سيما في عصر النّبي محمّد ﷺ، والدليل على ذلك أنّ أحداً من كتب التاريخ، لم يذكر بأنّهم عندما سمعوا الآية آنفة الذكر احتجوا على النّبي أو أنكروا هذا القول «ولو كان لبان».

وممّا قلناه يمكن الإجابة على السؤال التّالي: أنّه ليس بين اليهود في عصرنا الحاضر من يدعي أنّ عزيراً ابن الله ولا من يعتقد بهذا الاعتقاد، فعلام نسب القرآن هذا القول إليهم؟!

وتوضيح ذلك، أنّه لا يلزم أن يكون لجميع اليهود مثل هذا الاعتقاد، إذ يكفي هذا القدر المسلم به، وهو أنّه في عصر نزول الآيات على النّبي محمّد ﷺ كان في اليهود من يعتقد بهذا الاعتقاد، والدليل على ذلك كما نوّهنا، هو أنّه لم ينكر أيّ منهم ذلك على النّبي والشيء الوحيد الذي صدر منهم - وفقاً لبعض الرّوايات - أنّهم قالوا: إنّ هذا اللقب «ابن الله» إنّما هو لاحترام عزير، وقد عجزوا عن الجواب لمّا سألهم ﷺ وأشكل عليهم: لم لا تجعلون هذا اللقب إذاً لنبيّكم موسى عليه السلام؟!

وعلى كل حال فمتى ما نسب قول أو اعتقاد إلى قوم ما، فلا يلزم أن يكون الجميع قد اتفّقوا على ذلك، بل يكفي أن يكون فيهم جماعة ملحوظة تذهب إلى ذلك.

---

(١) نور الثقلين، ج ٦، ص ٢٠٥، حديث طويل نقلنا خلاصته معنىً لا نصاً، وإذا أردتم المزيد راجعوا المصدر المذكور.

٢ - ليس المسيح ابن الله

لا ريب أنّ المسيحيين يعتقدون أنّ عيسى هو الابن الحقيقي لله، ولا يطلقون هذا الاسم إكراماً وتشريفاً له، بل على نحو المعنى الواقعي له، وهم يصرّحون في كتبهم أنّ إطلاق هذا الاسم على غير المسيح بالمعنى الواقعي غير جائز، ولاشك أنّ هذا من بدع النصارى، والمسيح لم يدّعِ مثل هذا الادعاء أبداً، وإنّما كان يقول: بأنّه عبدٌ لله، ولا معنى أساساً لأن ننسب علاقة الأبوة والبنوة الخاصّة بعالم المادة وعالم الممكنات بين الله وعباده أبداً.

٣ - اقتباس هذه الخرافات

يقول القرآن المجيد في الآية محل البحث: إنّهم - أي اليهود والنصارى - يضاهئون - أي يُشبهون بانحرافاتهم - الذين كفروا والمشركين.

وهذا التعبير يشير إلى أنّهم مقلّدون إذ كانوا يعتقدون بأنّ بعض الآلهة هو إله الأب، وبعضها إله الابن، وحتى أنّ بعضهم كان يعتقد بأنّ هناك إله الأُم، وإله الزوج، وقد لوحظت مثل هذه الأفكار في جذور عقائد المشركين في الهند أو الصين أو مصر القديمة ثمّ تسرّبت إلى اليهود والنصارى.

وفي العصر الحاضر خَطَر عند بعض المحقّقين أن يوازن ويقارن بين ما في العهدين «التوراة والإنجيل وما يرتبط بهما» وبين عقائد البوذيين والبرهمائيين، فاستنتجوا أنّ كثيراً من معارف الإنجيل والتوراة تتطابق مع خرافات البوذيين والبرهمائيين تطابقاً ملحوظاً، حتى أنّ بعض الحكايات والقصص الموجودة في الإنجيل هي الحكايات والقصص ذاتها الموجودة في الديانة البوذائية والبرهمائية.

وإذا كان المفكرون توصّلوا اليوم إلى مثل هذه الحقيقة، فإنّ القرآن أشار إليها قبل أربعة عشر قرناً في الآية محل البحث.

٤ - ما هو معنى ﴿قَـٰتَلَهُـمُ ٱللَّهُ﴾؟

جملة ﴿قَـٰتَلَهُـمُ ٱللَّهُ﴾ وإن كان معناها في الأصل أنّ الله مقاتلٌ إيّاهم وما إلى ذلك، لكن كما يقول الطبرسي في مجمع البيان نقلاً عن ابن عباس، إنّ هذه الجملة كناية عن اللعنة أي إنّ الله أبعدهم عن رحمته، فهو دعاء عليهم (١).

---

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث؛ بحار الأنوار، ج ٣، ص ٦١.

وفي الآية التالية إشارة إلى شركهم العملي في قبال الشرك الاعتقادي، أو بعبارة أخرى إشارة إلى شركهم في العبادة، إذ تقول الآية: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾.

«الأحبار» جمع حبر، ومعناه العالم، و«الرهبان» جمع راهب وتطلق على من ترك دنياه وسكن الدير وأكبّ على العبادة.

وممّا لا شك فيه أنّ اليهود والنصارى لم يسجدوا لأحبارهم ورهبانهم، ولم يصلّوا ولم يصوموا لهم، ولم يعبدوهم أبداً، لكن لما كانوا منقادين لهم بالطاعة دون قيد أو شرط، بحيث كانوا يعتقدون بوجوب تنفيذ حتى الأحكام المخالفة لحكم الله من قبلهم، فالقرآن عبّر عن هذا التقليد الأعمى بالعبادة.

وهذا المعنى واردٌ في رواية عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام إذ قالا: «أما والله ما صاموا لهم ولا صلّوا، ولكنّهم أحلّوا لهم حراماً وحرّموا عليهم حلالاً، فاتبعوهم وعبدوهم من حيث لا يشعرون»(١).

وفي حديث آخر، أنّ عديّ بن حاتم قال: وفدت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكان في رقبتي صليب من الذّهب، فقال لي صلى الله عليه وآله وسلم: يا عدي أُلق هذا الصنم عن رقبتك، ففعلت ذلك، ثمّ دنوت منه فسمعته يتلو الآية ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا﴾ فلمّا أتم الآية قلت له: نحن لا نتّخذ أئمتنا أرباباً أبداً، فقال: «ألم يحرموا حلال الله ويحلّوا حرامه فتتبعوهم؟ فقلتُ: بلى، فقال: فهذه عبادتهم»(٢).

والدليل على هذا الموضوع واضح، لأنّ التقنين خاص بالله، وليس لأحد سواه أن يحل أو يحرم للناس، أو يجعل قانوناً، والشيء الوحيد الذي يستطيع الإنسان أن يفعله هو اكتشاف قوانين الله وتطبيقها على مصاديقها.

فبناءً على ذلك لو أقدم أحد على وضع قانون يخالف قانون الله، وقبله إنسان آخر دون قيد أو اعتراض او استفسار فقد عبد غير الله، وهذا بنفسه نوع من أنواع الشرك العملي، وبتعبير آخر: هو عبادة غير الله.

---

(١) مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث وتفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٢٠٩.
(٢) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.

ويظهر من القرائن أنّ اليهود والنصارى يرون مثل هذا الاختيار لزعمائهم، بحيث لهم أن يغيّروا ما يرونه صالحاً بحسب نظرهم، وما يزال بعض المسيحيين يطلب العفو من القسيس فيقول له القسّ، عفوت عنك! وكان - منذ زمن - موضوع صكوك الغفران رائجاً.

وهناك لطيفة أُخرى ينبغي الالتفات إليها، وهي أنّه لما كانت عبادة المسيحيين لرهبانهم تختلف عن عبادة اليهود لأحبارهم، فالمسيحيون يرون المسيح ابن الله واقعاً واليهود يطيعون أحبارهم دون قيد أو شرط، لذا فإنّ الآية أشارت إلى عبادة كل منهما، فقالت: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

ثمّ فصلت المسيح على حدة فقالت: ﴿وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾.

وهذا التعبير يدلّ على منتهى الدقة في القرآن.

وفي ختام الآية تأكيد على هذه المسألة، وهي أنّ جميع هذه العبادات للبشر بدعة، وهي من العبادات الموضوعة ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

درس تعليمي

إنّ القرآن المجيد يعلّم أتباعه في الآية - محل البحث - درساً قيّماً جدّاً، ويبيّن واحداً من أبرز مفاهيم التوحيد فيها، إذ يقول: لا يحقُّ لأيّ مسلم طاعةُ إنسان آخر دون قيد أو شرط، لأنّ هذا الأمر مساوٍ لعبادته، وجميع الطاعات يجب أن تكون في إطار طاعة الله، وإنّما يصح اتّباع الإنسان نظيره متى كانت قوانينه غير مخالفة لقوانين الله، أيّاً كان ذلك الإنسان وفي أيّة مكانة أو منزلة. لأنّ الطاعة بلا قيد أو شرط مساوية للعبادة، أو هي شكل من أشكال الشرك والعبودية، إلاّ أنّه يا للأسف - بُلي المسلمون - لبُعد المسافة الزمنية - بالابتعاد عن تعاليم هذا الدستور الإسلامي المهم، وإقامة الأصنام البشرية، فتفرقوا وتغلب عليهم المستعمرون والمستثمرون، وإذا لم تتكسر هذه الأصنام البشرية فلا ينبغي أن ننتظر زوال هذه البلايا وسدّ الثغرات.

وأساساً فإنّ هذا النوع من الشرك أو العبادة الوثنية أخطر بكثير من عبادة الأصنام والأحجار في زمان الجاهلية، والسجود لها، لأنّ تلك الأصنام والأحجار ليس فيها روح حتى تستعمر عبدتها، إلاّ أنّ الأصنام البشرية وبسبب غرورهم وعدوانهم يجرّون أتباعهم إلى الوبال والذلة والشقاء والانحطاط.

وفي الآية الثّالثة من الآيات محل البحث تشبيه طريف لسعي اليهود والنصارى، أو سعي جميع مخالفي الإسلام حتى المشركين، وجدّهم واجتهادهم المستمر «العقيم» الذي لا يعود عليهم بالنفع أبداً، إذ تقول الآية: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.

ملاحظات:

١ - شُبّه الدين - دين الله - في هذه الآية وفي القرآن وتعاليم الإسلام بالنور، ونحن نعرف أنّ النور أساس الحياة والحركة والنمو والعمران على الأرض ومنشأ كل جمال.

والإسلام دين يحرّك كل مجتمع إنساني نحو التكامل، وهو أساس كل خير وبركة.

كما شُبّه اجتهاد الكافر بالنفخ بالأفواه وكم هو مثير للضحك أن يحاول الإنسان إطفاء نور عظيم كنور الشمس بنفخة؟ ولا تعبير أبلغ من تعبير القرآن لتجسيد هذه المحاولات اليائسة، وفي الواقع فإنّ محاولات مخلوق ضعيف إزاء قدرة الله التي لا نهاية لها، لا تكون أحسن حالاً ممّا ذكرته الآية.

٢ - ورد موضوع محاولة إطفاء نور الله في القرآن في موردين: أحدهما في الآية محل البحث، والآخر في الآية ٨ من سورة الصف، وفي الآيتين انتقاد للكفار ومحاولات أعداء الله اليائسة، إلاّ أنّ بين تعبيري الايتين تفاوتاً يسيراً، إذ جاء التعبير في الآية محل البحث ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا﴾ إلاّ أنّ الآية ٨ من سورة الصف جاء فيها التعبير ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا﴾.

وممّا لا شك فيه أنّ هذا التفاوت أو الاختلاف اليسير في التعبير القرآني لغاية بلاغية.

يقول الراغب في مفرداته موضحاً الفرق بين ﴿أَن يُطْفِئُوا﴾ و﴿لِيُطْفِئُوا﴾: إنّ الآية الأُولى تشير إلى محاولة إطفاء نور الله بدون مقدمات، أمّا الآية الأُخرى فتشير إلى محاولة إطفائه بالتوسل بالأسباب والمقدمات، فالقرآن يريد أن يقول: سواء توسّلوا بالأسباب أم لم يتوسلوا فلن يفلحوا أبداً، وعاقبتهم الهزيمة والخسران.

٣ - كلمة ﴿وَيَأْبَى﴾ مأخوذة من الإباء، ومعناه شدة الامتناع وعدم المطاوعة، وهذا التعبير يثبت إرادة الله ومشيئته الحتمية لإكمال دينه وازدهاره كما أنّ التعبير مدعاة لاطمئنان جميع المسلمين، إن كانوا مسلمين حقّاً! أنّ مستقبل دينهم لابأس عليه، بل هو مؤيد بأمر الله.

المستقبل للإسلام

الآية الأخيرة من الآيات - محل البحث - في نهاية المطاف تزف البُشرى للمسلمين باستيعاب الإسلام العالم بأسره، وتكمل ما أشارت إليه - آنفاً - أنّ أعداء الإسلام لن يفلحوا في محاولاتهم ومناوآتهم بوجه الإسلام أبداً، وتقول بصراحة: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾.

والمقصود من الهدى هو الدلائل الواضحة، والبراهين اللائحة الجليّة التي وُجِدَتْ في الدين الإسلامي.

وأمّا المراد من دين الحق، فهو هذا الدين الذي أُصوله حقّة وفروعه حقّة أيضاً، وكل ما فيه من تاريخ وبراهين ونتائج حق، ولا شك أنّ الدين الذي محتواه حق، ودلائله وبراهينه حقّة، وتأريخه حق جلي، لابدّ أن يظهر على جميع الأديان.

وبمرور الزمان وتقدم العلم وسهولة الارتباطات، فإن الواقع سيكشف وجهه ويطلعه من وراء سُدُلِ الإعلام المضللة، وستزول كل العقبات والموانع والسدود التي وضعت في طريق انتشار الإسلام.

وهكذا فإنّ دين الحق سيستوعب كل مكان، ولا يحول بينه وبين تقدمه شيء أبداً، لأنّ الحركات المضادة للإسلام حركات مخالفة لسير التاريخ وسنن الخلق.

بحوث

١ - المراد بـ«الهدى ودين الحقّ»

هذا التعبير الوارد في الآية محل البحث: ﴿أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ بمثابة الدليل على انتصار الإسلام وظهوره على جميع الأديان، لأنّه لمّا كان محتوى دعوة النّبي الهداية، والعقل يدل على ذلك في كل موطن، ولما كانت أُصوله وفروعه موافقة للحق، ومع الحق، وتسير في مسير الحق، ولأجل الحق. فهذا الدين سينتصر على جميع الأديان طبعاً.

وقد جاء عن أحد علماء الهند أنّه سبر فكره في مطالعة مختلف الأديان فترة من الزمن، وانتهى أمره إلى اختيار الدين الإسلامي من بين جميع أديان العالم، ثمّ نشر كتاباً بالإنجليزية اسمه «لِمَ أسلمتُ؟» وبيّن فيه مزايا الدين الإسلامي على غيره من الأديان.

ومن أهم المسائل التي أثارت انتباهه - كما يقول - أنّ الإسلام هو الدين الوحيد

الذي له تاريخ ثابت محفوظ ويتعجّبُ كيف اختارت أوروبا لها ديناً ترى أنَّ من جاء به أجَلّ من الإنسان وتعدّه ربّها، مع أنّ هذا الدين ليس له تاريخ دقيق[1].

إنّ مطالعة آراء الذين اعتنقوا الإسلام ديناً جديداً وعزفوا عن دينهم السابق، تكشف أنّهم كانوا في السابق في منتهى البساطة والغفلة والتضليل، بينما دلّتهم أُصول الإسلام وفروعه ذات الأدلّة المحكمة إلى الدين الإلهي البعيد عن الخرافات كلّها، والذي يتجلى فيه نور الحق والهداية.

٢ - انتصار المنطق أم انتصار القوّة؟

هناك كلام بين المفسّرين في كيفية ظهور الدين الإسلامي على سائر الأديان، وهذا الظهور أو الانتصار في أيّ شكل هو؟

قال بعض المفسّرين: هذا الانتصار انتصار منطقي استدلالي فحسب، ويقولون بأنّ هذا الموضوع حاصل فعلا، لأنّ الإسلام من حيث منطقه ودلائله لا يقاس به دين آخر.

غير أنّ التحقيق في موارد استعمال مادة «الإظهار» في قوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ يكشف أنّ هذه المادة غالباً ما تستعمل في القدرة الظاهرية والغلبة المادية، كما جاء في قصّة أصحاب الكهف: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾[2] وكما نقرأ في شأن المشركين ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾[3].

فمن البديهي أنّ الغلبة في مثل هذه الموارد ليست غلبة منطقية، بل هي غلبة عينية وفعلية، وعلى كل حال فمن الأفضل والأكثر صحة أن نعتقد بأنّ هذا الظهور والغلبة ظهور مطلق - من جميع الجوانب - لأنّه ينسجم ومفهوم الآية التي هي مطلقة من جميع الجهات أيضاً، فيكون المعنى أنّه سيأتي يوم ينتصر فيه الإسلام انتصاراً منطقياً وانتصاراً ظاهرياً، في امتداد سيطرته ونفوذه المطلق، وحكومته العامّة على جميع الأديان، وسيجعل جميع الأديان تحت شعاعه.

٣ - القرآن وظهور المهدي

إنّ الآية - محل البحث - عينها وبالألفاظ ذاتها، وردت في سورة الصف، كما وردت في أُخريات سورة الفتح باختلاف يسير.

---

(١) تفسير المنار، ج ١٠، ص ٣٨٩.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٢٠.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٨.

والآية تخبر عن حدث مُهِمّ كبير استدعت أهمّيته هذه أن تتكرر الآية في القرآن، وهذا الحدث الذي أخبرت عنه الآية هو استيعابُ الإسلام للعالم بأسرهِ.

وبالرغم من أن بعض المفسّرين فسر الانتصار - في الآية محل البحث - انتصاراً في منطقة معينة ومحدودة، وقد حدث ذلك فعلاً في عصر النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أو ما بعده من العصور للإسلام والمسلمين، إلاّ أنّه مع ملاحظة أن الآية مطلقة لا قيد فيها ولا شرط، فلا دليل على تحديد المعنى، فمفهوم الآية انتصار الإسلام كليّاً - ومن جميع الجهات - على جميع الأديان، ومعنى هذا الكلام أنّ الإسلام سيُهيمن على الكرة الأرضية عامّة، وسينتصر على جميع العالم.

ولا شك أنّ هذا الأمر لم يتحقّق في الوقت الحاضر، لكنّنا ندري أنّ هذا وعد من قبل الله حتمي وأنّه سيتحقق تدريجاً، فسرعة انتشار الإسلام وتقدمه في العالم، والاعتراف الرسمي به من قبل الدول الأوروبية المختلفة ونفوذه السريع في أفريقيا وأمريكا، وإعلان كثير من العلماء والمفكرين اعتناقهم الإسلام، كل ذلك يشير إلى أنّ الإسلام أخذ باستيعاب العالم.

إلاّ أنّه طبقاً للرّوايات المختلفة الواردة في المصادر الإسلامية، فإنّ هذا الموضوع إنّما يتحقق عند ظهور المهدي عليه السلام فيجعل الإسلام عالمياً.

ينقل العلاّمة الشيخ الطبرسي في تفسيره (مجمع البيان) الآية محل البحث عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «إنّ ذلك يكون عند خروج المهدي، فلا يبقى أحدٌ إلاّ أقرّ بمحمّد صلى الله عليه وآله وسلم»(١).

كما ورد في التّفسير ذاته عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «لا يبقى على ظهر الأرض بيت مدر ولا وبر إلاّ أدخله الله كلمة الإسلام»(٢).

كما أنّ الشيخ الصدوق رضوان الله عليه روى عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية - في كتابه إكمال الدين - أنّه قال: «والله ما نزل تأويلها بعدُ، ولا ينزل تأويلها حتى يخرج القائم، فإذا خرج القائم لم يبق كافر بالله العظيم»(٣).

وهناك أحاديث أُخرى بهذا المضمون وردت عن أئمّة المسلمين عليهم السلام.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٥، ص ٤٥، ذيل الآية مورد البحث.

(٢) المصدر السابق.

(٣) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٢١١.

كما أنّ جماعةً من المفسّرين ذكروا هذا التّفسير في ذيل الآية أيضاً.

إلاّ أنّ المدهش أن كاتب «المنار» هنا لم يكتف برفض هذا التّفسير المذكور آنفاً، بل ناقش الأحاديث في المهدي عليه السلام، وحاول أن ينكر بتعصبه الخاص جميع الأحاديث الواردة في شأنه، ولم يألُ جهداً في التذرع بما لديه من الحجج الواهية ليقول: إنّ هذه الأحاديث لا يمكن قبولها بحال، ويزعم أنّ الاعتقاد بوجود المهدي من أفكار الشيعة، ومعتقداتهم، أو معتقدات من يميل إلى التشيّع.

ثمّ بعد هذا كلّه يرى صاحب «المنار» أنّ الاعتقاد بوجود المهدي مدعاة للتخلف والرّكود!

ومن هنا نرى أنّه لابدّ أن نعالج - ولو باقتضاب - الرّوايات الواردة في شأن المهدي «عجّل الله فرجه الشّريف» وآثار هذا الاعتقاد في تقدم المجتمع الإسلامي، ومواجهة الظلم والفساد، ليُعلم أن التعصب إذا دخل من باب خرج العلم والمعرفة من باب آخر.

ومع أنّ صاحب المنار له باع طويل في العلوم والمعارف الإسلامية، إلاّ أنّه لنقطة الضعف التي ابتلي بها «التعصب الشديد» يقلب بعض الحقائق الجليّة وينكرها تماماً.

الرّوايات الإسلامية في المهدي «عجّل الله فرجه الشّريف»

بالرّغم من كثرة الكتب المؤلفة من قبل علماء أهل السنة وعلماء الشيعة، في شأن الأحاديث الواردة في المهدي عليه السلام ونهضته الإصلاحية، إلاّ أنّنا نعتقد أنّ كل ذلك ليس بأبلغ ولا أوجز في الوقت ذاته ممّا كتبه علماء الحجاز من رسائل ردّاً على السائلين في هذا المجال، لذلك نرى من المناسب أن ننقل مضامين تلك الإجابات ومؤداها للقراء الكرام.

لكنّنا نذكر قبلاً، أنّ الرّوايات الواردة في المهدي «عجل الله فرجه الشريف» من الكثرة بحيث لا يستطيع أي محقق إسلامي - من أي مذهب كان - أن ينكر تواترها.

وقد كُتبت حتى الآن كُتب كثيرة في هذا الصدد، وقد اتفق مؤلّفوها على صحة الأخبار الواردة في المصلح المهدي «عجّل الله فرجه الشّريف»، إلاّ أنّ أفراداً معدودين - كأحمد أمين المصري وابن خلدون - ومن تبعهما، يشككون في صدور هذه الأحاديث عن نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم والقرائن المتوفرة في أيدينا تدل على أن الباعث على ترددهم لم يكن لضعف في الأخبار، بل كانوا يرون أن الرّوايات الواردة في

المهدي عليه السلام مشتملة على مسائل لا تكاد تصدّقُ بسهولة أو أنّهم لم يستطيعوا أن يميّزوا الأحاديث الصحيحة عن غيرها، أو لم يجدوا تفسيراً لها.

وعلى كل حال يلزمُنا قبلَ كلّ شيء أن نضع بين يدي القراء الكرام نص السّؤال والجواب الذي نشرته رابطة العالم الإسلامي والتي يقوم عليها أشدّ المتزمتين إفراطاً - في المذاهب الإسلامية - أي الوهابيين، ليتّضح أنّ مسألة ظهور المهدي «عجّل الله فرجه الشّريف» بين المسلمين تعتقد بها الأغلبية الساحقة منهم، ونعتقد أن هذه الرسالة على وجازتها جمعت في طيّها الدلائل على ذلك بما لايتوفر لكل أحد هذا الجمع، وإذا كان الوهابيون المتعصبون قد أذعنوا لهذا الامر، فللسبب ذاته المشار إليه آنفاً في الرسالة.

فقبل بضعة أعوام وجّه شخص من كينيا - يدعى أبا محمّد - سؤالاً إلى رابطة العالم الإسلامي في شأن المهدي المنتظر «عجّل الله فرجه الشّريف».

فأجابه مدير الرّابطة، محمّد صالح القزاز، بردٍّ يتضمّن تصريحاً بأنّ ابن تيميّة يؤمن بالأحاديث الواردة في شأن المهدي أيضاً، وقد كتب هذه الرسالة خمسة علماء معروفين من أهل الحجاز جواباً على سؤال أبي محمّد الكيني.

وقد ورد في هذه الرسالة بعد ذكر اسم المهدي عليه السلام ومحل ظهوره «مكّة» ما يلي:

«عند ظهوره يكون العالم مليئاً بالفساد والكفر والجور، فيملأ الله به «المهدي» العالم عدلاً كما ملىء ظلماً وجوراً، وهو آخر الخلفاء الراشدين الاثني عشر الذين أخبر عندهم النّبي صلى الله عليه وآله وسلم في كتب الصحاح.

والأحاديث المتعلقة بالمهدي نقلها عدّة من أصحاب النّبي صلى الله عليه وآله وسلم منهم: عثمان بن عفان، علي بن أبي طالب، طلحة بن عبيد الله، عبد الرحمن بن عوف، قرة بن أساس المزني، عبد الله بن الحارث، أبو هريرة، حذيفة بن اليمان، جابر بن عبد الله، أبو أمامة، جابر بن ماجد، عبد الله بن عمر، أنس بن مالك، عمران بن الحصين، وأم سلمة.

فهؤلاء عشرون راوياً صحابياً رووا عن النّبي في المهدي «عجّل الله فرجه الشّريف» وغيرهم كثير أيضاً، وهناك أحاديث كثيرة عن الصحابة أنفسهم ورد فيها الكلام عن ظهور المهدي «عجّل الله فرجه الشّريف» ويمكن أن تضاف هذه الرّوايات إلى الرّوايات الواردة عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم، لأنّ ذلك «أي الكلام في المهدي» لم يكن مسألة اجتهادية

ليمكن الاجتهاد فيها، فبناءً على ذلك فإنّ الصحابة قد سمعوا هذا الموضوع من النّبي ﷺ.

ثمّ تضيف الرسالة:

إنّ الأحاديث آنفة الذكر المرويّة عن النّبي ﷺ مذكورة في كتب الحديث والكتب الإسلامية الأُخرى سواء منها السنن أو المعاجم أو المسانيد، وكذلك شهادات الصحابة وأقوالهم التي هي بمثابة الحديث أيضاً، ومن الكتب التي وردت فيها الأحاديث في المهدي أو أقوال الصحابة هي: سنن أبي داود، وسنن الترمذي، وابن ماجه، وابن عمرو الداني، ومسند أحمد، وأبو يعلى، والبزاز، وصحيح الحاكم، ومعجما الطبراني «الكبير والمتوسط» والروياني، والدارقطني، وأبو نعيم في أخبار المهدي، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد، وابن عساكر في تأريخ دمشق، وغيرها.

وتضيف الرسالة: إنّ بعض العلماء المسلمين كتبوا في هذا الشأن كتباً خاصّة، منهم: أبو نعيم في أخبار المهدي، وابن حجر الهيثمي في «القول المختصر في علامات المهدي المنتظر»، والشوكاني، في «التوضيح في تواتر ما جاء في المنتظر والدجال والمسيح» وإدريس العراقي المغربي في كتاب المهدي، وأبوالعباس بن عبدالمؤمن المغربي في كتاب «الوهم المكنون في الردّ على ابن خلدون».

وآخر من كتب في هذا الشأن بحثاً مطوّلاً، وهو مدير الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة «في حلقات متعدّدة في مجلة الجامعة المذكورة».

ثمّ تضيف الرسالة أيضاً، إنّ جماعة من علماء الإسلام قديماً وحديثاً صرّحوا في كتبهم أنّ الأحاديث الواردة في المهدي تقرب من التواتر ولا يمكن إنكارها بأيّ وجه، ومنهم:

السخاوي في «فتح المغيثِ» ومحمّد بن الحسن السفاويني في «شرح العقيدة» وأبوالحسن الأبري في «مناقب الشافعي» وابن تيمية في «فتاواه» والسيوطي في «الحاوي» وإدريس العراقي في كتابه «المهدي» والشوكاني في كتاب «التوضيح في تواتر ما جاء في المنتظر» ومحمّد جعفر الكتاني في «نظم التناثر» وأبو العباس بن عبد المؤمن في «الوهم المكنون...».

وتختم الرسالة بالقول بأنّ ابن خلدون وحده أنكر الأحاديث في المهدي، وعدّها واهية لا أساس لها، وأنّها عارية من الصحة، إذ قال: لا مهدي إلاّ عيسى، إلاّ أنّ علماء الإسلام ورجاله ردّوا على مقالته، وخاصّة أبوالعباس بن عبدالمؤمن في كتابه

«الوهم المكنون في الردّ على ابن خلدون» الذي خصّص في كتابه بحثاً مسهباً في هذا الشأن، وقد نشر الكتاب منذ أكثر من ثلاثين سنة.

ويقول حفاظ الأحاديث والعلماء الكبار بصراحة، إنّ الأحاديث في المهدي تشتمل على الصحيح والحسن، ومجموعها متواتر، فبناءً على ذلك فالاعتقاد بظهور المهدي واجب على كل مسلم، ويُعدّ هذا من عقائد أهل السنّة والجماعة ولاينكرها إلاّ الجهلة أو المبتدعون... الخ.

مدير إدارة مجمع الفقه الإسلامي

محمّد المنتصر الكنائي

***

الانتظار وآثاره البنّاءة

كان الكلام في البحث السابق أن هذا الاعتقاد لم يكن ممّا طرأ على التعاليم الإسلامية، بل هو من أكثر المباحث القطعية المأخوذة عن مؤسس دعائم الإسلام صلوات الله عليه، ويتفق على ذلك عموم الفرق الإسلامية، والأحاديث في هذا الشأن متواترة أيضاً.

والآن لنقف على آثار الانتظار في المجتمعات الإسلامية وما هي عليه من أحوال، لنرى هل أنّ الإيمان بظهور الإمام المهدي عليه السلام يجعل الإنسان غارقاً في الوهم والخيال ثمّ ليستسلم لجميع الظروف، أو هو نوع من الدّعوة إلى النهوض وبناء الإنسان والمجتمع؟!

هل يدعو إلى التحرك، أم إلى الركود؟

هل يبعث في الانسان روح المسؤولية، أم هو مدعاة للفرار منها؟

وأخيراً: أهو مخدّر، أم موقظ؟

إلاّ أنّه قبل أن نوضح الإجابة على هذه الأسئلة - لابدّ من الالتفات إلى هذه الملاحظة وهي أنّ أسمى المفاهيم وأكرم الدساتير متى ما وقعت في أيدي أناس جهلة أو غير جديرين بها، فمن الممكن أن تُمسخ بسوء استفادتهم فتكون النتيجة خلافاً للهدف الأصلي تماماً وتتعاكس في المسار، ومثل هذا واقع بكثرة، وسنرى أنّ مسألة انتظار المهدي عليه السلام من هذه المسائل أيضاً.

ومن أجل تحاشي الأخطاء والاشتباهات في مثل هذه المباحث، ينبغي - كما قيل - أن ننهل الماء من معينه العذب، لئلا نجد فيه كدر الأنهار أو السواقي المشوبة. أي علينا أن نراجع النصوص الإسلامية الأصيلة مباشرة وأن نفهم الانتظار من لسان رواياتها المختلفة، حتى نطّلع على الهدف الأصليّ منها!

الرّوايات الشّريفة:

١ - سأل بعضهم الإمام الصّادق عليه السلام: ما تقول في رجل موال للأئمّة عليهم السلام وينتظر ظهور حكومة الحق، ثمّ يموت وهو على هذه الحال؟!

فقال الإمام الصادق عليه السلام: هو بمنزلة من كان مع القائم في فسطاطه. ثمّ سكت هنيئة، ثمّ قال: هو كمن كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (١).

وهذا المضمون نفسه ورد في روايات متعددة بتعابير مختلفة:

٢ - إذ جاء في بعضها: بمنزلة الضارب بسيفه في سبيل الله.

٣ - وفي بعضها: كمن قارع مع رسول الله بسيفه.

٤ - وفي بعضها: بمنزلة من كان قاعداً تحت لواء القائم.

٥ - وفي بعضها: بمنزلة المجاهدين بين يدي رسول الله.

٦ - وفي بعضها: بمنزلة من استشهد مع رسول الله.

فهذه التشبيهات السبعة في الرّوايات الست المذكورة آنفاً في شأن المهدي عليه السلام، تبيّن هذه الواقعية وهي أنّ هناك علاقة وارتباطاً بين مسألة الانتظار من جانب، وجهاد العدوّ في أشدّ أشكاله من جانب آخر «فتأملوا بدقّة».

٧ - كما ورد في روايات متعددة أن انتظار مثل هذه الحكومة الحقة من أفضل العبادات، وهذا المضمون ورد في بعض أحاديث النّبي صلى الله عليه وآله وسلم وكلام الإمام أميرالمؤمنين علي عليه السلام.

فقد ورد عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «أفضل أعمال أُمّتي انتظار الفرج من الله عزّ وجلّ» (٢).

---

(١) بحار الأنوار، ج ٥٢، ص ١٢٥؛ محاسن البرقي، طبقاً لما ورد في البحار، الطبعة القديمة، ج ١٣، ص ١٣٦. بحار الأنوار، ج ٥٢، ص ١٢٥؛ محاسن البرقي، ج ١، ص ١٧٣.

(٢) الكافي، حسب ما جاء في البحار، ص ١٣٦ و١٣٧. بحار الأنوار، ج ٥٠، ص ٣١٨؛ عيون أخبار الرضا، ج ٢، ص ٣٦.

وقال ﷺ في حديث آخر: «أفضل العبادة انتظار الفرج»[(١)].

وهذان الحديثان يشيران إلى انتظار الفرج، سواء الفرج بمفهومه الواسع العام أو بمفهومه الخاص أي انتظار ظهور المصلح ويبيّنان أهمية الانتظار بجلاء أيضاً.

ومثل هذه التعابير تعني أنّ الانتظار معناه الثورية المقرونة بالتهيؤ للجهاد، فلابدّ أن نتصوّر هذا المعنى لنفهم المراد من الانتظار، ثمّ نحصل على النتيجة المتوخاة.

مفهوم الانتظار!

الانتظار: يطلق عادةً على من يكون في حالة غير مريحة ويسعى لإيجاد وضع أحسن.

فمثلاً المريض ينتظر الشفاء من سقمه، أو الأب ينتظر عودة ولده من السفر، فهما أي المريض والأب مشفقان، هذا من مرضه وذاك من غياب ولده، فينتظران الحال الأحسن ويسعيان من أجل ذلك بما في وسعهما.

وكذلك - مثلاً - حال التّاجر الذي يعاني الأزمة السوقية وينتظر النشاط الاقتصادي. فهاتان الحالتان أي: الإحساس بالأزمة، والسعيُ نَحْوَ الأحسن هما من الانتظار.

فبناءً على ذلك، فإنّ مسألة انتظار حكومة الحق والعدل، أي حكومة «المهدي عليه السلام» وظهور المصلح العالمي، مركبة في الواقع من عنصرين: عنصر نفي، وعنصر إثبات، فعنصر النفي هو الإحساس بغرابة الوضع الذي يعانيه المنتظر، وعنصر الإثبات هو طلب الحال الأحسن.

وإذا قُدّر لهذين العنصرين أن يحلاّ في روح الإنسان فإنّهما يكونان مدعاة لنوعين من الأعمال وهذان النوعان هما:

١ - ترك كل شكل من أشكال التعاون مع أسباب الظلم والفساد، بل عليه أن يقاومها، هذا من جهة.

٢ - وبناء الشخصية والتحرك الذاتي وتهيئة الاستعدادات الجسمية والروحية والمادية والمعنوية لظهور تلك الحكومة العالمية الإنسانية، من جهة أُخرى.

ولو أمعنّا النظر لوجدنا أنّ هذين النوعين من الأعمال هما سبب في اليقظة والوعي والبناء الذاتي.

ومع الالتفات إلى مفهوم الانتظار الأصيل، ندرك بصورة جيدة معنى الرّوايات

---

(١) المصدر السّابق. بحار الأنوار، ج ٥٢، ص ١٢٥.

الواردة في ثواب المنتظرين وعاقبة أمرهم، وعندها نعرف لِمَ سمّت الرّوايات المنتظرين بحقّ بأنّهم بمنزلة من كان مع القائم تحت فسطاطه «عجل الله فرجه»، أو أنّهم تحت لوائه، أو أنّهم كمن يقاتل في سبيل الله بين يديه، أو كالمستشهد بين يديه، أو كالمتشحط بدمه.

تُرى أليست هذه التعابير تشير إلى المراحل المختلفة ودرجات الجهاد في سبيل الحق والعدل، التي تتناسب ومقدار الاستعداد ودرجة انتظار الناس؟

كما أنّ ميزان التضحية ومعيارها ليس في درجة واحدة، إذا أردنا أن نزن تضحية المجاهدين في سبيل الله ودرجاتهم وآثار تضحياتهم، فكذلك الانتظار وبناء الشخصيّة والاستعداد، كل ذلك ليس في درجة واحدة، وإن كان كلّ من هذه «العناوين» من حيث المقدمات والنتائج يشبه العناوين آنفة الذكر. فكلّ منهما جهاد وكل منهما استعداد وتهيؤ لبناء الذات، فمن هو تحت خيمة القائد وفي فسطاطه يعني أنّه مستقر في مركز القيادة، وعند آمرية الحكومة الإسلامية، فلا يمكن أن يكون إنساناً غافلاً جاهلاً، فذلك المكان ليس مكاناً لكل أحد وإنّما هو مكان من يستحقه بجدارة.

فكذلك الأمر عندما يقاتل المقاتل بين يدي هذا القائد أعداء حكومة العدل والصلاح، فعليه أن يكون مستعداً بشكل كامل روحياً وفكرياً وقتالياً.

ولمزيد التعرف على الآثار الواقعية لانتظار ظهور المهدي عليه السلام لاحظوا التوضيح التّالي:

الانتظار يعني الاستعداد الكامل:

إذا كنتُ ظالماً مجرماً، فكيف يتسنى لي أن أنتظر مَن سيفه متعطش لدماء الظالمين؟!

وإذا كنتُ ملوّثاً غير نقي فكيف أنتظر ثورة يحرق لهبها الملوّثين؟!

والقائد الذي ينتظر الجهاد الكبير يقوم برفع معنويات جنوده ويلهمهم روح الثورة، ويصلح نقاط الضعف فيهم إن وجدت، لأنّ كيفية الانتظار تتناسب دائماً والهدف الذي نحن في انتظاره:

١ - انتظار قدوم أحد المسافرين من سفره.

٢ - انتظار عودة حبيب عزيز جداً.

٣ - انتظار حلول فصل اقتطاف الثمار وجني المحاصيل.

كل نوع من أنواع الانتظار هذه مقرون بنوع من الاستعداد، ففي أحدها ينبغي تهيئة

البيت ووسائل التكريم، وفي الآخر ما ينبغي أن يقتطف به من الأدوات والسلال وهكذا والآن سنتصوّر كيف يكون انتظار ظهور مصلح عالمي كبير وكيف نكون في انتظار ثورة وتغيير وتحول واسع لم يشهد تأريخ الإنسانية مثيلاً لها؟

هذه الثورة ليست كسائر الثورات السابقة، إذ هي غير محدودة بمنطقة ما، بل هي عامّة وللجميع، وتشمل جميع شؤون الحياة والناس، فهي ثورة سياسية، ثقافية، اقتصادية، أخلاقية.

الحكمة الأولى، بناء الشّخصية الفرديّة

إنّ بناء الشّخصية - قبل كل شيء - بحاجة إلى عناصر معدّة ذات قيم إنسانية، ليمكن للفرد أن يتحمل العبء الثقيل الإصلاحي للعالم، وهذا الأمر بحاجة - أوّلاً - إلى الارتقاء الفكري والعلمي والاستعداد الروحي، لتطبيق ذلك المنهج العظيم. فالتحجر، وضيق النظر والحسد، والاختلافات الصبيانية، وكل نفاق بشكل عام أو تفرقة لا تنسجم ومكانة المنتظرين الواقعيين.

والمسألة المهمّة - هنا - أنّ المنتظر الواقعي لا يمكنه أن يقف موقف المتفرج ممّا أشرنا إليه آنفاً، بل لابدّ أن يقف في الصف الآخر، أي صف الثائرين المصلحين، فالإيمان بالنتائج وما يؤول إليه هذا التحول، لا يسمح له أبداً أن يكون في صف «المثبطين» المتقاعسين، بل يكون في صف المخلصين المصلحين، ويكون عمله خالصاً وروحه أكثر نقاءً، وأن يكون شهماً عارفاً معرفةً كافية بالأُمور.

فإذا كنتُ فاسداً معوجّاً فكيف يمكنني أن أنتظر نظاماً لا مكان فيه للفاسدين؟ أليس مثل هذا الانتظار كافياً لأن أُطهّر نفسي وفكري، وأغسل جسمي وروحي من التلوّث؟!

والجيش الذي ينتظر جهاداً تحررياً لابدّ له أن يكون في حالة من الاستعداد الكامل، وأن يُهيىء السلاح الجدير بالمعركة، وأن يصنع الملاجىء والمواضع العسكرية اللازمة وأن يرفع المعنويات القتالية في صفوف أفراده، ويقوي روحيّاتهم، ويُسرج في قلوبهم شعلة العشق للمواجهة فإنّ جيشاً ليس فيه مثل هذه الاستعدادات لا يكون جيشاً (منتظراً) وإذا ادعى الانتظار فهو «كاذب»!

إنّ إنتظار المصلح، «العالمي» معناه الاستعداد الكامل فكرياً، وأخلاقياً، مادياً ومعنوياً، الاستعداد لإصلاح العالم كلّه. فتصوّروا أنّ مثل هذا الاستعداد كم يكون بنّاء؟!

فإصلاح المعمورة كلّها، وإنهاء الظلم والفساد والنواقص ليس عملاً بسيطاً، ولا هو بالمزاح أو الهزل، بل الاستعداد لمثل هذا الهدف الكبير ينبغي أن يتناسب معه، وأن يكون بسعته وعمقه!

فلابدّ من وجود رجال كبار مصممين ذوي إرادة أقوياء لاينكصون ولا ينهزمون أبداً، ذوي نظرة واسعة واستعداد تام وتفكير عميق، حتى تتحقق مثل هذه الثورة الإصلاحية العالمية.

وبناء الشخصية لمثل هذا الهدف يستلزم الارتباط بأشد المناهج الأخلاقية، والفكرية والاجتماعية أصالة وعمقاً، فهذا هو معنى الانتظار الواقعي! تُرى هل يستطيع أن ينكر أحد فيقول: إن مثل هذا الانتظار لا يكون فاعلاً؟!

الحكمة الثّانية، التعاون الاجتماعي

إنّ المنتظرين بحق في الوقت الذي ينبغي عليهم أن يهتمّوا ببناء «شخصيتهم» عليهم، أن يراقبوا أحوال الآخرين، وأن يجدّوا في إصلاحهم جدّهم في إصلاح ذاتهم لأنّ المنهج العظيم الذي ينتظرونه ليس منهجاً فردياً، بل هو منهج ينبغي أن تشترك فيه جميع العناصر الثورية، وأن يكون العمل جماعياً عاماً، وأن تتسقَ المساعي والجهود بشكل يتناسب وتلك الثورة العالمية التي هم في انتظارها.

ففي ساحة معركة واسعة يقاتل فيها مجموعة جنباً إلى جنب، لا يمكن لأحد منهم أن يغفل عن الآخرين بل عليه أن يشدّ أزرهم وأن يسدّ الثغرة ويصلح نقطة الضعف إن وُجدت ويرمم المواضع المتداعية ويدعم ما ضعف منها، لأنّه لا يمكن تطبيق مثل هذا المنهج دون مساهمة جماعية نشيطة فعّالة متسقة متناسقة!

فبناءً على ذلك فالمنتظرون بحقّ عليهم أن يصلحوا حال الآخرين بالإضافة إلى إصلاح حالهم.

فهذا هو الأثر الآخر البنّاء، الذي يورثه الانتظار لقيام مصلح عالمي، وهذه حكمة الفضائل التي ينالها المنتظرون بحق.

الحكمة الثّالثة، المنتظرون بحق لا يذوبون في المحيط الفاسد

إنّ الأثر المهم الآخر للانتظار هو عدم ذوبان المنتظرين في المحيط الفاسد، وعدم الانقياد وراء المغريات والتلوّث بها أبداً.

وتوضيح ذلك: أنّه حين يعم الفساد المجتمع، أو تكون الأغلبية الساحقة منه فاسدة، فقد يقع الإنسان النقي الطاهر في مأزق نفسي، أو بتعبير آخر: في طريق مسدود «لليأس من الإصلاحات التي يتوخّاها».

وربّما يتصور «المنتظرون» أنّه لا مجال للإصلاح، وأن السعي والجدّ من أجل البقاء على «النقاء» والطهارة وعدم التلوّث، كل ذلك لا طائل تحته، أو لا جدوى منه، فهذا اليأس أو الفشل قد يجرّ الإنسان نحو الفساد والاصطباغ بصبغة المجتمع الفساد، فلا يستطيع المنتظرون عندئذ أن يحافظوا على أنفسهم باعتبارهم أقليّة صالحة بين أكثريّة طالحة، وأنّهم سيفتضحون إن أصروا على مواصلة طريقهم وينكشفون لأنّهم ليسوا على شاكلة الجماعة.

والشيء الوحيد الذي ينعشُ فيهم الأمل ويدعوهم إلى المقاومة والتجلد وعدم الذّوبان والانحلال في المحيط الفاسد، هو رجاؤهم بالإصلاح النهائي، فهم في هذه الحال - فحسب - لا يسأمون عن الجد والمثابرة، بل يواصلون طريقهم في سبيل المحافظة على الذات وحفظ الآخرين وإصلاحهم أيضاً.

وحين نجد - في التعاليم الإسلامية - أنّ اليأس من رحمة الله وثوابه من أعظم الذنوب والكبائر، فقد يتعجب بعض الجهّال: كيف يكون اليأس من رحمة الله من الكبائر وإلى هذه الدرجة من الأهميّة، حتى أنّه أشدّ من سائر الذنوب الأُخرى، فإنّ حكمته و«فلسفته» في الحقيقة هو ما أشرنا إليه آنفاً، لأنّ العاصي الآيس من رحمة الله لا يرى شيئاً ينقذه ويخلصه من عذاب الله، فلا يفكر بإصلاح الخلل، أو - يكفّ عن الذنب على الأقل لأنّه يقول في نفسه: أنا الغريقُ فهل أخشى من البلل؟ والنهاية الحتمية جهنّم، وقد اشتريتها، فما عسى أن أفعل؟... وما إلى ذلك.

إلاّ أنّه حين تنفتح له نافذة الأمل، فإنّه سيرجو عفو ربّه، ويتجه نحو تغيير نفسه وحاله، ويحصل له منعطف جديد في حياته يدعوه إلى التوقف عن مواصلة الذنوب والعودة نحو الطهارة والنقاء والإصلاح.

ومن هنا يمكننا أن نعتبر أنّ الأمل عامل تربوي مهم ومؤثر في المنحرفين أو الفاسدين، كما أنّ الصالحين لا يستطيعون أن يواصلوا مسيرهم في المحيط الفاسد إذا لم يكن لهم أمل بالانتصار على المفاسد.

والنتيجة أنّ معنى انتظار ظهور المصلح، هو أنّ الدنيا مهما مالت نحو الفساد أكثر

كان الأمل بالظهور أكثر، والانتظار يكون له أثر نفسي كبير، فيضمن للنفوس القوّة في مواجهة الأمواج والتيارات الشديدة كيلا يجرفها الفساد، فهم ليسوا أربط جأشاً فحسب، بل بمقتضى قول الشاعر:

عندما يأزف ميعاد الوصال فترى العشّاق في أيّ اشتغال

إذن فهم يسعون أكثر للوصول إلى الهدف المنشود، وتنشد همتهم لمواجهة الفساد ومكافحته بشوق لا مزيد عليه.

وممّا ذكرناه - آنفاً - نستنتج أن الأثر السلبي للانتظار إنّما يكون في صورة ما لو مسخ مفهومه أو حُرّف عن واقعه، كما حرفه المخالفون والأعداء، ومسخه الموافقون، غير أنّه لو أخذ بمفهومه الواقعي لكان عاملاً تربويّاً مهمّاً بنّاءً محرّكاً باعثاً على الأمل والرجاء.

وممّا يؤيد هذا الكلام ما ورد عن الأئمّة الطّاهرين عليهم السلام في تفسير هذه الآية: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[١] إذ جاء أنّ المراد من الآية هو «القائم وأصحابه»[٢].

كما جاء في حديث آخر أنّها، أي هذه الآية نزلت، في المهدي عليه السلام[٣].

وقد عبّرت هذه الآية عن الإمام المهدي وأصحابه بـ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

فبناءً على ذلك فإنّ تحقّق هذه الثورة الإصلاحية بدون إيمان مستحكم يقضي على كل أنواع الضعف والتحلّل وبدون عمل صالح يفتح الطريق لإصلاح العالم، فإن هذا التحقّق مستبعد جدّاً.

والطالبون لهذا التحقّق عليهم أن يزدادوا إيماناً ومعرفة، وأن يجدّوا في العمل الصالح وإصلاح ذاتهم.

وهؤلاء هم طليعة تلك الحكومة العالمية وأملها المشرق، لا من ركن إلى الظلم والجور....

وليس المنتظر لتلك الحكومة الأشخاص الضعاف الهمة والجبناء الذين يخافون حتى من ظلّهم.

---

(١) سورة النّور، الآية: ٥٥.

(٢) راجع البحار الطبعة القديمة ج ١٣، ص ١٤. بحار الأنوار، ج ٥١، ص ٥٨.

(٣) بحار الأنوار، ج ٥١، ص ٥٤.

ولا البطّالون الساكتون عن الحق التّاركون للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في محيطهم الفاسد. أجل... هذا هو الأثر الإيجابي البناء لانتظار قيام المهدي عليه السلام في المجتمع الإسلامي.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾

التّفسير

كنز الأموال

كان الكلام في الآيات المتقدمة عن أعمال اليهود والنصارى المشوبة بالشرك، إذ كانوا يعبدون الأحبار والرهبان من دون الله.

الآية الأُولى محل البحث تقول: إنّ أُولئك مضافاً إلى كونهم غير جديرين بالأُلوهية فهم غير جديرين بقيادة الناس أيضاً، وخير دليل على ذلك أعمالهم المتناقضة المضطربة.

فالآية هنا تلتفت نحو المسلمين فتخاطبهم بالقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

الطريف هنا أنّنا نواجه الأُسلوب نفسه في القرآن على ما عهدناه في أمكنة أُخرى من آياته، فالآية هنا لم تقل: إنّ الأحبار والرهبان جميعهم ليأكلون، بل قالت: ﴿إِنَّ كَثِيرًا﴾ فهي تستثني الأقلية الصالحة منهم، وهذا النوع من الدقة ملحوظ في سائر آيات القرآن، وقد أشرنا إلى ذلك سابقاً.

لكن كيف يأكلون أموال الناس دون مسوّغ أو مجوّز، أو كما عبّر القرآن «بالباطل» فقد أشرنا سابقاً إلى ذلك في آيات أُخرى كما ورد في التاريخ شيء منه أيضاً، وذلك:

أوّلاً: إنّهم كتموا حقائق التعاليم التي جاء بها موسى عليه السلام في توراته وعيسى عليه السلام في إنجيله، لئلا يميل الناس إلى الدين الجديد، «الدين الإسلامي» فتنقطع هداياهم وتغدو منافعهم في خطر، كما أشارت إلى ذلك الآيات (٤١) و(٧٩) و(١٧٤) من سورة البقرة.

والثّاني: إنّهم بأخذهم «الرّشوة» كانوا يقلبون الحق باطلاً والباطل حقّاً، وكانوا يحكمون لصالح الأقوياء، كما أشارت إلى ذلك الآية (٤١) من سورة المائدة.

ومن أساليبهم غير المشروعة في أخذ المال هو ما يسمّى بـ«صكوك الغفران وبيع الجنّة» فكانوا يتسلمون أموالاً باهظة من الناس، ويبيعون الجنّة بـ«صكوك الغفران» والغفران ودخول الجنّة منحصران بإرادة الله وأمره، وهذا الموضوع - أي صكوك الغفران - يضجُّ به تأريخ المسيحيّة! كما أثار نقاشات وجدالاً عندهم.

وأمّا صدّهم عن سبيل الله فهو واضح، لأنّهم كانوا يحرفون آيات الله، أو أنّهم كانوا يكتمونها رعاية لمنافعهم الخاصّة، بل كانوا يتهمون كل من يرونه مخالفاً لمقامهم ومنافعهم، ويحاكمونه - في محاكم تدعى بمحاكم التفتيش الديني بأسوأ وجه، ويصدرون عليه أحكاماً جائرة قاسية جدّاً.

ولو لم يقوموا بمثل هذه الأعمال ولم يُقدموا على صدّ أتباعهم عن سبيل الله، لكان آلاف الآلاف من أتباعهم ملتفين اليوم حول راية الإسلام ودين الحق من صميم أرواحهم وقلوبهم، فبناءً على ذلك يمكن أن يقال - بكل جرأة ودون تحفظ - إنّ آثام الآلاف من الجماعات في رقاب أُولئك «الرهبان والأحبار» لأنّهم كانوا سبباً في بقائهم في الظلمات، ظلمات الكفر والضلال....

وما زالت الكنيسة لحدّ الآن تبذل قصارى وسعها - ولا يقصر في ذلك اليهود أيضاً - لتغيير أفكار عامّة الناس، وإلفاتهم عن الإسلام، كما وجه اليهود تهماً كثيرة عجيبة إلى النّبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وهذا الموضوع من الوضوح والشمول أنّ جماعة من علماء المسيحية المثقفين اعترفوا بأنّ أُسلوب الكنيسة في مواجهة الإسلام ومحاربته أحد أسباب جهل الغربيين بالإسلام وعدم اطلاعهم على هذا الدين الطاهر.

وتعقيباً على موضوع حب اليهود والنصارى لدنياهم وأكل المال بالباطل، فإنّ القرآن

يتحدث عن قانون كلّي في شأن أصحاب المال وذوي الثراء، الذين يكنزون أموالهم، فيقول: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

والفعل ﴿يَكْنِزُونَ﴾ مأخوذ من مادة «الكنز» وهو المال المدفون في الأرض، وهو في الأصل جمع أجزاء الشيء، ومن هنا فقد سمّي البعير ذو اللحم الكثير بأنّه «كناز اللحم» ثمّ استعمل الكنز في جمع المال وادخاره ودفنه، أو في الأشياء القيمة غالية الثمن.

فبناءً على ذلك فإنّ الكنز ملحوظ فيه الجمع والإخفاء والمحافظة.

﴿الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ معدنان مشهوران، وكان النقد أو العملة سابقاً بالدينار الذهبي والدرهم الفضيّ.

ولبعض العلماء تعريف طريف في شأن هذين المعدنين ولُغتيهما «كما ذكر ذلك العلاّمة الطبرسي في مجمع البيان» فقال: إنّما سمّي الذهب ذهباً لذهابه عن اليد عاجلاً، وإنّما سمّيت الفضة لانفضاضها أي لتفرّقها، ولمعرفة مآل وحقيقة هذه الثروة فإنّ هذه التسمّية كافية (لكلّ من المالين - الذهب والفضة).

ومنذ كانت المجتمعات البشرية كانت مسألة المبادلة - سلعةً بسلعة - رائجة بين الناس، فكان كلٌّ يبيعُ ما يجده زائداً على حاجته من المحاصيل الزراعية أو الدواجن بجنس آخر، أو بضاعة أُخرى، لأنّ النقد «الدينار أو الدرهم» لم يكن آنئذ، لكن لما كانت المبادلة - أعني مبادلة الأجناس أو البضائع - تُحدث بعض المشاكل أو المصاعب، لعدم وجود ما يحتاجه البائع، دائماً فقد يكون هناك شيء آخر - مثلاً - يراد تبديله، فقد دعت الحاجة إلى اختراع النقد.

وقد كان وجود الفضة، بل الأهم منه وجود الذهب، مدعاة إلى تحقق هذه الفكرة، وهي أن تمثل الفضة القيمة الدانية، وأن يمثل الذهب القيمة الغالية، وبهما اتّخذت المعاملات رونقاً جديداً بارزاً.

فبناء على ذلك فإنّ الحكمة الأصيلة من النقد - الذهب والفضة - هي سرعة تحرك عَجلةِ المبادلات الاقتصادية.

أمّا الذين يكنزون الذهب والفضة، فهم لا يكونون سبباً لركود الوضع الاقتصادي والضرر بالمجتمع فحسب، بل إنّ عملهم هذا مخالف لفلسفة ابتداع النقد واختراعه.

فالآية محل البحث تحرم الكنز وجمع المال، والثروة بصراحة، وتأمر المسلمين أن ينفقوا أموالهم في سبيل الله وما فيه نفع عباد الله، وأن يتجنبوا كنزها ودفنها وإبعادها عن تحرك السوق، وإلاّ فلينتظروا «العذاب الأليم».

وهذا العذاب الأليم ليس جزاءهم في يوم القيامة فحسب، بل يشملهم في الدنيا - لإرباكهم الحالة الاقتصادية ولإيجاد الطبقية بين الناس «الفقير والغني» أيضاً.

وإذا لم يكن أهل الدنيا يعرفون أهمّية هذا الدّستور الإسلامي بالأمس، فنحن نستطيع أن ندركه جيداً، لأنّ الأزمات الاقتصادية التي ابتلي بها البشر نتيجة احتكار الثروة من قبل جماعة «أنانية»؛ وظهورها على صورة حروب وثورات وسفك دماء، غير خافٍ على أحد أبداً.

متى يعدّ جمع الثروة كنزاً؟

هناك كلام بين المفسّرين في شأن الآية - محل البحث - فهل كلّ جمع للمال أو ادخار له يعدّ كنزاً، لأنّه زائد على حاجة الإنسان، فهو حرام وفق مفهوم الآية...

أو أنّ الحكم خاصّ ببداية الإسلام وقبل نزول حكم الزّكاة ثم ارتفع حكم الكنز بنزول حكم الزّكاة...

أو أنّه يجب على الإنسان دفع زكاته سنوياً لا غير، فإذا دفع الإنسان زكاة سنته فلا يكون مشمولاً بحكم الكنز وإن جمع المال؟

في كثير من الرّوايات الصادرة عن أهل البيت عليهم السلام وروايات أهل السنّة، يلوح لنا التّفسير الثّالث، ففي حديث عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «أي مال أدّيت زكاته فليس بكنز»(١).

كما نقرأ في بعض الرّوايات أنّه لمّا نزلت آية الكنز ثقل على المسلمين الأمر، فقالوا: ليس لنا أن ندخر شيئاً لأبنائنا إذاً، ثمّ سألوا النّبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «إن الله لم يفرض الزكاة إلاّ ليطيب بها ما بقي من أموالكم، وإنّما فرض المواريث من أموال تبقى بَعْدَكم»(٢).

أي أنّ جمع المال لو كان - بشكل عام ممنوعاً - لما وجدنا لقانون الإرث موضوعاً.

---

(١) تفسير المنار، ج ١٠، ص ٤٠٤.

(٢) المصدر السّابق. التفسير الكامل لابن كثير، ج ٢، ص ٣٦٥.

وفي كتاب الأمالي للشيخ الطوسي (قدس سره) ورد هذا المضمون ذاته عن النبي ﷺ: «من أدى زكاة مال فما تبقّى منه ليس بكنز»(١).

إلاّ أنّنا نقرأ روايات أُخرى في المصادر الإسلامية لا تنسجم ظاهراً - ولأوّل وهلة -.

والتّفسير الآنف الذكر، ومنها ما ورد عن الإمام علي عليه السلام في مجمع البيان أنّه قال: «ما زاد على أربعة آلاف(٢) فهو كنز أدّى زكاته أو لم يؤدّها، وما دونها فهي نفقة، فبشرهم بعذاب أليم»(٣).

وقد ورد في الكافي عن معاذ بن كثير، أنّه سمع عن الصادق عليه السلام يقول: «الشيعتنا أن ينفقوا ممّا في أيديهم في الخيرات، وما بقي فهو حلال لهم، إلاّ أنّه إذا ظهر القائم حرم جميع الكنوز والأموال المدخرة حتى يؤتى بها إليه ويستعين بها على عدوه، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾(٤).

ونقرأ في سيرة أبي ذر رضوان الله عليه في كثير من الكتب أنّه لما كان في الشام، كان يقرأ الآية - محل البحث - في شأن معاوية، ويقول بصوت عال صباح مساء: «بشر أهل الكنوز بكيّ في الجباه وكيّ بالجنوب وكيّ بالظهور أبداً حتى يتردّد الحرّ في أجوافهم»(٥).

كما يظهر من استدلال أبي ذر رضي الله عنه بالآية في وجه عثمان، أنّه كان يعتقد أنّ الآية لا تختص بمانعي الزّكاة، بل تشمل غيرهم أيضاً.

ويمكن الاستنتاج من مجموع الأحاديث - آنفة الذكر - منضمةً إليها الآية محل البحث، أنّه في الظروف الاعتيادية المألوفة، حيثُ يرى الناس آمنين، أو غير محدق بهم الخطر، والمجتمع في حال مستقر، فيكفي عندئذ دفع الزكاة وما تبقى لا يعد كنزاً، وينبغي الالتفات بطبيعة الحال إلى أنه مع رعاية الموازين الإسلامية، وما هو مقرر في شأن رؤوس

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٢١٣.
(٢) المقصود بها أربعة آلاف درهم لأنّها مخارج السنة.
(٣) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث، وتفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٢١٣.
(٤) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٢١٣.
(٥) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٢١٣، ٢١٤؛ وتفسير البرهان، ج ١، ص ١٢٢. وتفسير علي بن إبراهيم القمي، ج ١، ص ٢٨٩.

الأموال والأرباح، فإنّ الأموال لا تتراكم بشكل غير مألوف فوق العادة، لأنّ الإسلام وضع قيوداً وشروطاً للمال لا يتسنى للإنسان معها جمع الأموال وادّخارها.

وأمّا في الحالات غير الطبيعية وغير الاعتيادية، وعندما يقتضي حفظُ مصالح المجتمع الإسلامي ذلك، فإنّ الحكومة الإسلامية، تحدّد لجمع المال مقداراً، كما مرّ في حديث الإمام علي عليه السلام أو تطالب الناس بالكنوز وما جمعوه من المال كليّاً، كما هو الحال في قيام المهدي، إذ مرّت رواية الإمام الصادق عليه السلام مع ذكر العلّة... «فيستعين به (أي المال) على عدوّه»[(١)].

إلاّ أنّنا نكرر القول بأنّ هذا الموضوع يختص بالحكومة الإسلامية، وهي التي لها حق البتّ والتصميم في مواطن الضرورة والاقتضاء «فلاحظوا بدقّة».

وأمّا قصّة أبي ذر رضي الله عنه فلعلّها ناظرة إلى هذا الموضوع ذاته، إذا كان المجتمع الإسلامي في حاجة ماسة وشديدة للمال، وكان جمع المال وكنزه مخالفاً لمنافع المجتمع وحفظ وجوده.

ومع أن أبا ذر رضي الله عنه كان ناظراً إلى أموال «بيت المال» التي كانت عند عثمان ومعاوية، ونحن نعرف أنّه مع وجود المستحقين لا يجوز تأخير دفع المال عنهم لحظة واحدة، بل يجب دفعه إلى أصحابه فوراً، ولا علاقة لمسألة الزكاة بهذا الموضوع أبداً.

على أنّ التواريخ الإسلامية - سنّية وشيعية - مجمعة وشاهدة على أنّ عثمان وزّع أموال بيت المال الضخمة الطائلة على أقاربه، وأنّ معاوية بنى من بيت مال المسلمين قصراً ضخماً أحيا به أساطير قصور الساسانيين، وكان لأبي ذر رضوان الله عليه الحق في أن يحتج بالآية محل البحث أمامه.

أبو ذر والاشتراكية!!

من المؤاخذات على الخليفة الثّالث مسألة إبعاد أبي ذر رضي الله عنه المصحوب بالقسوة والخشونة إلى الرّبذة، تلك المنطقة التي كان يبغضها أبو ذر والتي كانت غير صالحة من حيث الماء والهواء، حتى انتهى الأمر إلى موت هذا الصحابي الجليل والمجاهد المضحي في سبيل الإسلام، وهو الذي قال فيه النّبي صلى الله عليه وآله وسلم: «ما أظلّت الخضراء ولا أقلّت الغبراء من ذي لهجة أصدق من أبي ذرّ»[(٢)].

---

(١) أصول الكافي، ج ٤، ص ٦١؛ تفسير العياشي، ج ٢، ص ٨٧.

(٢) بحار الأنوار، ج ٣٠، ص ٣٧٢.

ونعرف أنّ الاختلاف بين أبي ذر وعثمان لم يكن لأنّ أبا ذر كان يتمنى المال أو المقام، بل على العكس فقد كان أبو ذر زاهداً عابداً ورعاً من جميع الوجوه، بل منشأ الخلاف وأساسه، هو أن عثمان فرّق بيت مال المسلمين على ذوي قرباه وأصحابه وأنفقه بلا حساب.

وكان أبو ذر رضي الله عنه متشدداً في الأُمور المالية، ولا سيّما ما كان منها متعلقاً ببيت مال المسلمين، وكان يرغب في أن يسير جميع المسلمين على سنّة النّبي في هذا المجال، والتصرف بالمال، لكننا نعرف أنّ الأُمور أخذت طابعاً آخر في عصر الخليفة الثّالث عثمان.

وعلى كل حال، فإنّ أبا ذر رضي الله عنه لما واجه الخليفة الثّالث بشدّة، وعنّفه في إنفاق المال، أرسله عثمان إلى الشام بادىء الأمر، فواجه أبو ذر معاوية هناك بصورة أشدّ نقداً وأكثر صراحة، حتى أنّ ابن عباس قال: لقد برم معاوية من كلام أبي ذر وكتب إلى عثمان: إنّه إن كانت لك حاجة في الشام فخذ أبا ذر، فإنّه إن بقي فيها فسوف يصرف أهلها عنك.

فكتب عثمان كتاباً وأحضر أبا ذر إلى المدينة، وكما يقول بعض المؤرّخين: كتب عثمان إلى معاوية، أن ابعث أبا ذر في جماعة من شرطتك ولا ترفّه عليه، وليجدّوا به السير ليل نهار، ولا يدعوه يستريح لحظة، حتى أنّ أبا ذر لما وصل المدينة مرض هناك ولما لم يكن وجوده في المدينة هيّناً على عثمان وأتباعه، فقد نفوه إلى «الرّبذة» حتى مات رضي الله عنه فيها[1].

وهناك من يحاول الدفاع عن الخليفة الثّالث ويتّهم أبا ذر أحياناً بأنّه اشتراكي، إذ كان يرى أنّ جميع الأموال عائدة إلى الله، وكان ينكر الملكية الفردية!!

وهذا الاتهام في منتهى الغرابة، فمع أنّ القرآن يحترم الملكية الفردية بصراحة - وفق شروط معينة - وكان أبو ذر رضي الله عنه من المقرّبين إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتربّى في حضن الإسلام والقرآن، وما أظلت الخضراء أصدق منه، فكيف يتهم أبو ذر بمثل هذا الإتهام؟!

إنّ قاطني الصحراء البعيدين يعرفون هذا الحكم الإسلامي، وكانوا قد سمعوا الآيات التي تتعلق بالتجارة والإرث، فكيف يمكن أن يُصدق بأن أقرب تلامذة رسول الله كان جاهلاً بهذا الحكم؟

---

(١) أصول الكافي، ج ٨، ص ٢٠٦.

أليس ذلك لأنّ المتعصبين الألداء من أجل تبرئة الخليفة الثّالث والأعجب من ذلك تبرئة معاوية وحكومته - اتهموا أباذرّ بمثل هذا الاتهام، وما يزال بعض من عمي العيون صمّ الآذان يقلدون أسلافهم؟!

أجَل إنّ أبا ذر رضي الله عنه - بوحي واستلهام من آيات القرآن وخاصّة آية الكنز - كان يعتقد ويصرّح بعقيدته أنّ بيت المال لا ينبغي أن يتحول إلى ملكية فردية بيد الأشخاص، ويجب ألاّ يُحرم المستضعفون والمحتاجون منه، وينبغي أن ينفق في سبيل تقوية الإسلام ومصالح المسلمين، فلايجوز تبذير الأموال، وأنّ بيت المال ليس ملكاً لمعاوية وأضرابه كي يشيد بهذه الأموال القصور على شاكلة قصور الأكاسرة والقياصرة!

ثمّ إنّ أبا ذر كان يعتقد يومئذ أنّه بإمكان الأغنياء أن يقنعوا بما دون الإسراف، ليواسوا إخوانهم الفقراء، وينفقوا أموالهم في سبيل الله.

فإذا كان أبو ذر رحمه الله ذا وزر فوزره ما ذكرناه إلاّ أنّ المؤرّخين المتملقين، أو الذين يؤرخون للارتزاق ويبيعون دينهم بدنياهم، غيرّوا صورة هذا الصحابي المجاهد الناصع فجعلوه اشتراكياً!!

وما يؤخذ على أبي ذر من وزر أيضاً هو حبّه الشديد للإمام علي عليه السلام، فقد كان هذا كافياً لأن يقوم بنو أمية بأساليبهم وأراجيفهم الخبيثة الجهنمية بإسقاط حيثية أبي ذر، إلاّ أنّ نقاءه وطهارته ومعرفته بالأحكام الإسلامية كانت ناصعة إلى درجة أنّهم افتضحوا ولم يفلحوا في مرامهم.

ومن جُملة الأكاذيب العجيبة التي ألصقوها بأبي ذر لتبرئة الخليفة الثّالث، ما ذكره ابن سعد في «الطبقات»: إنّ جماعة من أهل الكوفة جاؤوا أبا ذر عندما نفاه عثمان إلى الرّبذة فقالوا: إنّ هذا الرجل (أي عثمان) فعل ما فعل بك، فهل أنت مستعد أن ترفع راية تقاتل بها عثمان، ونحن نقاتله تحت رايتك؟ فقال أبو ذر: كلاّ، لو أرسلني عثمان من المشرق إلى المغرب لكنت مطيعاً لأمره[١].

ولم يلتفت هؤلاء الوضّاعون إلى أنّه لو كان مطيعاً لأمره، لما كان عثمان يضيق ذرعاً به فيكون عليه - في المدينة - عبئاً ثقيلاً لايستطيع حمله أبداً.

---

(١) تفسير المنار، ج ١٠، ص ٤٠٦؛ الغدير، ج ٨، ص ٣٢٥.

والأعجب من ذلك ما ذكره صاحب المنار - ذيل الآية محل البحث - مشيراً إلى قصّة أبي ذر وما جرى بينه وبين عثمان، فيقول: إن قصّة أبي ذر تدل على أنّ عصر الصحابة - ولا سيما عصر عثمان - كان إظهار العقيدة فيه مألوفاً، وكان العلماء محترمين، والخلفاء ذوي ولاء، حتى أنّ معاوية لم يجرؤ أن يقول شيئاً لأبي ذر، بل كتب كتاباً إلى من هو فوقه مرتبة - أي عثمان - وطلب منه أن يرى فيه رأيه!!

والحق أنّ التعصّب قد يصنع الأعاجيب، فهل كان - التبعيد والنفي إلى الأرض اليابسة الحارة المحرقة «الرّبذة» أرض الموت والنّار تعبير عن احترام حرية الفكر ومحبّة العلماء!!

هل أنّ تسليم هذا الصحابي الجليل «بيد الموت» يعدّ دليلاً على حرية العقيدة!!

وإذا كان معاوية لم يستطع أن يجرؤ على قتل أبي ذر أو التآمر عليه - خوفاً من إنكار عامّة الناس - فهل يعدّ ذلك احتراماً لأبي ذر من قبل معاوية؟!

ومن عجائب هذه القصّة - أيضاً - أنّ المدافعين عن الخليفة الثّالث يقولون: إنّ تبعيد أبي ذر كان بحكم قانون [تقديم دفع المفسدة على جلب المصلحة!] لأنّه وإن كان لوجود أبي ذر في المدينة مصلحة كبيرة، وكان الناس يستفيدون من علمه، إلاّ أنّ عثمان كان يرى أنّ بقاءه في المدينة يجر المفسدة - لطريقة تفكيره - ويحدث انعطافاً شديداً لا يمكن تحمله، فلأجل ذلك أغضى عثمان عن المصلحة في وجوده وأخرجه إلى الرّبذة دفعاً للمفسدة ولما كان كلٌّ من أبي ذر وعثمان مجتهداً، فلا يمكن توجيه النقد أو الإشكال أو أي شيء آخر إليه(١).

ونحن بدورنا نتساءل: أية مفسدة كانت تترتب على وجود أبي ذر في المدينة؟!

ترى هل في إعادة الناس إلى سنّة النّبي صلى الله عليه وآله وسلم مفسدة؟!

ولم لا يشكل أبو ذر رضي الله عنه على الخليفة الأوّل ولا الثّاني اللذين لم يفعلا ما فعله عثمان في أموال المسلمين «وبيت المال»؟!

وهل في إعادة الناس إلى المناهج المالية التي كانت في صدر الإسلام مفسدة؟!

وهل في نفي أبي ذر وقطع لسان الحق مصلحة؟!

ألم تؤد أعمال عثمان واستمراره بإنفاق بيت المال إلى أن أصبح ضحية لكل ذلك؟!

(١) تفسير المنار، ج ١٠، ص ٤٠٧.

ألم يكن ذلك مفسدة وتركه مصلحة؟!

ولكن ما عسى أن نفعل، فإذا دخل التعصب من باب فرّ المنطق من باب آخر!!

وعلى كل حال، فإنّ سيرة هذا الصحابي الجليل لا تخفى على أي محقق منصف، ولا مجال لتبرئة الخليفة الثّالث ممّا نال من أبي ذر من الأذى أبداً، والمنطق الحق يدين أعمال عثمان.

جزاء من يكنز!

في «الآية التّالية» إشارة إلى واحد ممّا يحيق بمثل هؤلاء ممّن يكنز المال، في العالم الآخر، إذ تقول الآية: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾.

ويخاطبهم ملائكة العذاب وهم في هذه الحال: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾.

وهذه الآية توكّد مرّة أُخرى هذه الحقيقة، وهي أنّ أعمال الإنسان لا تمضي سدى، بل تبقى وتتجسّد له يوم القيامة، وتكون مدعاة سروره أو مدعاة شقائه.

وهناك كلام بين المفسّرين في سبب ذكر الجباه والظهور والجنوب وحدها من بين سائر أعضاء الجسم.

غير أنه روي عن أبي ذرّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنّه كان يقول: «حتى يتردد الحرّ في أجوافهم» أي إنّ الحرارة المحرقة التي تمس هذه الأعضاء الثلاثة تنفذ إلى سائر الجسم وتستوعبه كلّه.

كما قيل: إنّ الوجه في ذكر هذه الأعضاء الثلاثة دون غيرها، هو أنّ أصحاب المال حين كان يأتيهم المحروم أو الفقير، كان ردّ فعلهم يظهر على جباههم أحياناً، فيظهرون عدم الاعتناء بهم، وتارةً ينحرفون عنهم، وتارةً يديرون ظهورهم لهم، فهذه الأعضاء الثلاثة تكوى في نار جهنم، بما حُمي عليه من الذهب أو الفضة وما كنزوه دون أن ينفقوه في سبيل الله.

ومن نافلة القول أن نشير إلى لطيفة بلاغية، في الآية محل البحث وهي التعبير بـ ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا﴾ أي يُحمى على الذهب والفضة، والتعبير المطّرد أن يقال: يوم تحمى الفضة أو يُحمى الذهب، لا أنّه يحمى عليه، كما يقال مثلاً: يحمى الحديد في النّار.

ولعل هذا التعبير يشير إلى إحراق الذهب والفضة إلى درجة قصوى بحيث توضع النّار عليها. إذ إن جعل الفضة والذهب على النّار لا يكفي لأن تكون محرقة «للغاية».

فالقرآن لا يقول: يوم تحمى في نار جهنم، بل يقول: يحمى عليها، أي توضع النّار عليها لتكون في أسفل النّار كيما تشتد حرارتها وهذا التعبير الحيّ يجسّد شدة عذاب أولي الثروة الذين يكنزونها في يوم القيامة.

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦) إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧)﴾

التّفسير

وقف القتال «الإجباري»

لما كانت هذه السورة تتناول أبحاثاً مفصلةً حول قتال المشركين، فالآيتان - محل البحث - تشيران إلى أحد مقرّرات الحرب والجهاد في الإسلام، وهو احترام الأشهر الحُرم.

فتقول الأولى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾.

والتعبير بـ﴿كِتَابِ اللَّهِ﴾ يمكن أن يكون إشارة إلى القرآن المجيد أو سائر الكتب السماوية، إلاّ أنّه بملاحظة جملة ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ يبدو أنّ المعنى الأكثر مناسبة هو كتاب الخلق وعالم الوجود.

وعلى كل حال، فمنذ ذلك اليوم الذي استقرت عليه المجموعة الشمسية بنظامها الخاص حدثت السنين والأشهر، فالسنة عبارة عن دوران الأرض حول الشمس دورة كاملة والشهر دوران القمر حول الأرض دورة كاملة.

وهذا في الحقيقة تقويم طبيعي قيّم غير قابل للتغيير حيث يمنح حياة الناس جميعاً نظاماً طبيعياً، وينظّم على وجه الدقة حسابهم التاريخي، وتلك نعمة عظمى من نعم الله

للبشر كما بيّنا تفصيل ذلك في ذيل الآية (١٨٩) من سورة البقرة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ﴾.

ثمّ تضيف الآية - آنفة الذكر - معقبّةً: ﴿مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ﴾.

يرى بعض المفسّرين أنّ تحريم القتال في هذه الأشهر الأربعة كان من عهد «إبراهيم الخليل عليه السلام»، وكان نافذاً حتى في زمان الجاهلية على أنّه سنة متّبعة إلاّ أنّ عرب الجاهلية كانوا يغيرون هذه الأشهر أحياناً تبعاً لميولهم وأهوائهم، إلاّ أنّ الإسلام أقرّ حرمتها على حالها ولم يغيّرها، وثلاثة من الأشهر متوالية وتسمى بالأشهر السّرد وهي: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم. وشهر منها منفصل عنها، وهو رجب ويسمى بالشهر الفرد.

وينبغي التنويه على أنّ تحريم هذه الأشهر إنّما يكون نافذ المفعول إذا لم يبدأ العدو بقتال المسلمين فيها، أمّا لو فعل فلا شك في وجوب قتاله على المسلمين لأنّ احترام الشهر الحرام لم يُنتقض من قبلهم، بل انتقض من قبل العدوّ «وقد بيّنا تفصيل ذلك ذيل الآية (١٩٤) من سورة البقرة».

ثمّ تضيف الآية مؤكّدة: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ﴾.

ويستفاد من بعض الرّوايات[1] أنّ تحريم القتال في هذه الأشهر الحرم، كان مشرّعاً في الديانة اليهودية والمسيحية وسائر الشرائع السماوية، إضافة إلى شريعة إبراهيم الخليل عليه السلام. ولعلّ التعبير بـ ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ﴾ إشارة إلى هذه اللّطيفة، أي إنّ هذا التحريم كان في أوّل الأمر على شكل قانون ثابت:

ثمّ تقول الآية: ﴿فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ﴾.

إلاّ أنّه لمّا كان تحريم هذه الأشهر قد يتخذ ذريعة من قبل العدو لمهاجمة المسلمين فيها، فقد عقبت الآية بالقول: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ﴾ فبالرغم من أنّ هؤلاء مشركين، والشرك أساس التشتت والتفرقة، إلاّ أنّهم يقاتلونكم في صف واحد، «كافة» فينبغي عليكم أن تقاتلوهم كافة، فذلك منكم أجدر لأنّكم موحّدون فلابدّ من توحيد كلمتكم أمام عدوكم ولتكونوا كالبنيان المرصوص.

وتختتم الآية بالقول: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾.

وفي «الآية الثّانية» - من الآيتين محل البحث - إشارة إلى إحدى السُّنن الخاطئة في

---

(١) تفسير البرهان، ج ٢، ص ١٢٢.

الجاهلية، وهي سنة النسيء «تغيير الأشهر الحرم» إذ تقول الآية: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ففي أحد الأعوام يقرّرون حليّة الشهر الحرام ويحرمون أحد الأشهر الحلال للمحافظة على العدد أربعة ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾!

فهؤلاء يضيعون بتصرفهم هذا فلسفة تحريم الأشهر، ويتلاعبون بحكم الله بحسب ما تمليه عليهم أهوائهم، والعجيب أنّهم يرضون عن عملهم، وفعلهم هذا كما تقول الآية: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ﴾.

فهم يغيرون الأشهر الحرم ويبدلونها، ويعدّون ذلك تدبيراً لحياتهم ومعاشهم، أو يتصوّرون أنّ طول فترة إيقاف القتال يقلل من حماس المقاتلين فلابدّ من إثارة الحرب.

فالله سبحانه إذا علم أن في عباده من ليس أهلاً للهداية والتوفيق، خلاه ونفسه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

بحوث

١ - فلسفة الأشهر الحُرُم!

كان تحريم القتال في هذه الأشهر الأربعة أحَدَ الطرق لإيقاف الحروب الطويلة الأمد ووسيلة للدعوة نحو الصلح والدعة، لأنّ المحاربين إذا وضعوا أسلحتهم في هذه الأشهر الأربعة، وأخمدت نيران الحرب ووجدت الفرصة للتفكير، فمن غير المستبعد أن تنتهي الحرب ويحل السلام محلّه، لأنّ الشروع المجدد بعد إيقاف القتال وانطفاء نار الحرب في غاية الصعوبة، ولا ننسى أنّ المقاتلين في حرب فيتنام خلال العشرين سنةً من الحرب كانوا يواجهون صعوبة كبيرة لإيقاف القتال خلال أربع وعشرين ساعة لبداية العام الميلادي الجديد، إلاّ أنّ الإسلام جعل لأتباعه قراراً بإيقاف القتال خلال أربعة أشهر، وهذا الأمر بنفسه يدل على روح السلام في الإسلام والمطالبة بالصلح.

إلاّ أنّ العدو إذا أراد أن يستغلّ هذا القانون الإسلامي، وأن ينتهك حرمة هذه الأشهر فعلى المسلمين أن يواجهوه بالمثل.

٢ - مفهوم النسيء وفلسفته في الجاهليّة

«النسيء» على وزن «الكثير» من مادة «نسأ» ومعناها التأخير ويمكن أن تكون هذه الكلمة اسم مصدر أو مصدراً، وتطلق على ما يؤجل من إعطاء المال أو قبضه.

وكان عرب الجاهلية يؤخرون بعض الأشهر الحرم، فمثلاً كانوا ينتخبون شهر «صفر» بدل شهر محرم في عام فيحرمونه، كما حدث لأحد زعماء قبيلة بني كنانة، إذ خطب في اجتماع كبير نسبيّاً في موسم الحج بمنى وقال: إنّني أخرت المحرم هذا العام وانتخبت شهر صفر مكانه(١).

وقد روي عن ابن عباس: إنّ أوّل من سنّ هذه السنّة هو عمرو بن لحي(٢)، وقال بعضهم: بل هو قلمس «من بني كنانة»(٣).

وفلسفة هذا العمل «التأخير والنسيء» في عقيدتهم أن توالي ثلاثة أشهر حُرم تباعاً كذي القعدة وذي الحجة والمحرم يسبب إضعاف معنويات المحاربين، لأنّ عرب الجاهلية كانوا يتوقون إلى الإغارة وسفك الدماء والحرب، وأساساً فإنّ الحرب والإغارة وما شاكلهما كان يمثل جزءاً من حياتهم، وكان من الصعب عليهم أن يتحملوا ثلاثة أشهر حرم (يتوقف فيها القتال) لذا فقد كانوا يسعون لفصل شهر المحرم عن هذه الأشهر (أو يؤخروه)!

كما يرد هذا الاحتمال أيضاً، وهو أنّ شهر ذي الحجة قد يقع في الصيف أحياناً، ممّا يسبب عليهم، حرجاً في موضوع الحج، ونعرف أن الحج لم يكن مسألة عبادية عند العرب فحسب، بل كان موسماً كبيراً منذ زمن إبراهيم الخليل عليه السلام يجتمع فيه خلق كبير، وتقام فيه الأسواق التجارية والاقتصادية والمحافل الشعرية والخطابية، ويفيدون منها فوائد عامّة، لذلك كانوا يبدلون شهر ذي الحجة حسب ميولهم ويجعلون مكانه شهراً آخر طيب الأجواء لطيف الهواء.

وربّما كانت كلتا الغايتين صحيحتين.

وعلى كل حال، كان هذا العمل باعثاً على إشعال نار الحرب أكثر فأكثر، وأن تُسحق الغاية من الأشهر الحرُم، وأن يتلاعب بمواسم الحج حسب الأهواء ابتغاء المنافع المادية.

وقد عدّ القرآن هذا العمل زيادةً في الكفر، لأنّهم إضافةً إلى شركهم وكفرهم الاعتقادي فإنّهم بسحقهم هذا الدستور كانوا يرتكبون كفراً عملياً، ولا سيما أنّهم كانوا يرتكبون مخالفتين في آن واحد إذ كانوا يحرّمون ما أحل الله ويحلّون ما حرّم الله.

(١-٣) بحار الأنوار، ج ٩، ص ٩٨ و ٢١١؛ تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٢١٧.

٣ - وحدة الكلمة مقابل العدوّ

إنّ القرآن يعلمنا في الآيتين آنفتي الذكر أن نقف صفاً واحداً بوجه العدو عند الحرب، ويستفاد من هذا النص القرآني أنّه ينبغي التنسيق حتى في المواجهات السياسية، والثقافية، والاقتصادية، والعسكرية، فنحن نكتسب القوّة في ظل هذه الوحدة التي تنتهل من روح الإسلام، وهذا الأمر قد جُعل في طي النسيان وكان مدعاة إلى انحطاط المسلمين وتأخرهم.

٤ - كيف يُزيَّنُ للناسِ سوءُ أعمالهم؟!

إنّ فطرة الإنسان إذا كانت نقيّة تميز الصالح من الطالح بصورة جيدة، إلاّ أنّه حين يذنبُ الإنسان ويخطو في طريق الآثام فإنّه يفقد هذا الإحساس «بتمييز الصالح من الطالح» تدريجاً.

ومتى ما واصل الإقدام على السيئات، تبدو له سيئاته وكأنّها أمر حسن وتتزين له، وهذا ما أشارت إليه آيات القرآن - في هذا المورد - وفي موارد أُخرى.

وقد يُنسب تزيين الأعمال السيئة للشيطان، كما في الآية (٦٣) من سورة النحل ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ وقد يسند الفعل إلى ما لم يُسمَّ فاعله ويُبنى للمجهول كما في الآية محل بحثنا، وقد يكون الفاعل وسوسة الشيطان أو النفس الأمارة بالسوء. وقد ينسب إلى الشركاء أي الأصنام، كما في الآية (١٣٧) من سورة الأنعام، وقد يُنسب تزيين الأعمال السيئة إلى الله، كما في الآية (٤) من سورة النمل ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

وقد قلنا مراراً: إنّ نسبة مثل هذه الأُمور إلى الله مع أنّها تخصّ عمل الإنسان نفسه لأنّ خواص الأشياء بيد الله، فهو مسبب الأسباب. وقلنا بأن مثل هذه النسبة لا تنافي مسألة الاختيار وحرية إرادة الإنسان.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

سبب النّزول

جاء عن ابن عباس وآخرين أنّ الآيتين - محل البحث - نزلتا في معركة تبوك حين كان النّبي ﷺ عائداً من الطائف إلى المدينة، وهو يهيىء الناس ويعبئهم لمواجهة الروم.

وقد ورد في الرّوايات الإسلاميّة أنّ النّبي لم يكن يبيّن أهدافَه وإقدامه على المعارك للمسلمين قبل المعركة لئلا تقع الأسرار العسكرية بيد أعداء الإسلام، ولكن في معركة تبوك، لما كانت المسألة لها شكل آخر، فقد بيّن كل شيء للمسلمين بصراحة، وأنّهم سيواجهون الروم، لأنّ مواجهة امبراطورية الروم لم تكن مواجهة بسيطة كمواجهة مشركي مكّة أو يهود خيبر، وينبغي على المسلمين أن يكونوا في منتهى الاستعداد وبناء الشخصية

أضف إلى كل ذلك أنّ المسافة بين المدينة وأرض الروم كانت بعيدة غاية البعد، وكان الوقت صيفاً قائظاً، وهو أوان اقتطاف الثمار وحصد الحبوب والغلات.

هذه الأُمور اجتمعت بعضها إلى بعض فصعب على المسلمين الخروج للقتال. حتى أنّ بعضهم تردد في استجابته لدعوة الرّسول الأكرم ﷺ.

فالآيتان - محل البحث - نزلتا في هذا الظرف، وأنذرتا المسلمين بلهجة صارمة لمواجهة هذه المعركة الحاسمة(١).

التّفسير

التّحرك نحو سوح الجهاد مرّة أُخرى

كما أشرنا آنفاً في شأن نزول الآيتين، فإنّهما نزلتا في غزوة «تبوك».

وتبوك منطقة بين المدينة والشام، وتعدّ الآن من حدود الحجاز، وكانت آنئذ على مقربة من أرض الروم الشرقية المتسلطة على الشامات(٢).

وقد حدثت هذه الواقعة في السنة التاسعة للهجرة، أي بعد سنة من فتح مكّة تقريباً.

---

(١) ذكر شأن النّزول هذا جماعة من المفسّرين كالطبرسي في مجمع البيان، والفخر الرازي في تفسيره الكبير، والآلوسي في روح المعاني، ذيل الآيات مورد البحث.

(٢) الفاصلة بين تبوك والمدينة ٦١٠ كم والفاصلة بينها وبين الشام ٦٩٢ كم.

وبما أن المواجهة في هذا الميدان كانت مواجهةً لإحدى الدول الكبرى في ذلك العصر، لا مواجهة لإحدى القبائل العربية، فقد كان جماعة من المسلمين قلقين مشفقين من المساهمة والحضور في هذه المواجهة، ولذلك فقد كانت الأرضية مهيأة لوساوس المنافقين وبذر السموم، فلم يألوا جهداً في إضعاف المعنويات وإحباط المؤمنين أبداً، فقد كان الموسم موسم اقتطاف الثمار وجمع المحاصيل الزراعية، وكان هذا الموسم للمزارعين يعدّ فصلاً مصيرياً، إذ فيه رفاه سنتهم هذا من جهة.

ومن جهة أُخرى، فإنّ بعد المسافة وحرارة الجوّ - كما أشرنا آنفاً - كلّ ذلك كان من العوامل المثبطة للمسلمين في حركتهم نحو مواجهة الأعداء.

فنزل الوحي ليشدَّ من أزر الناس، والآيات تترى الواحدة بعد الأُخرى لإزالة الموانع والأسباب المثبطة.

ففي الآية الأُولى - من الآيتين محل البحث - يدعو القرآن المسلمين إلى الجهاد بلسان الترغيب تارةً وبالعتاب تارةً أُخرى وبالتهديد ثالثة فهو يدعوهم ويهيّئُهم إلى الجهاد، ويدخل إليهم من كل باب.

إذ تقول الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾.

﴿ٱثَّاقَلۡتُمۡ﴾ فعل مشتق من الثقل، ومعناه واضح إذ هو خلاف «الخفيف» وجملة ﴿ٱثَّاقَلۡتُمۡ﴾ كناية عن الرغبة في البقاء في الوطن وعدم التحرك نحو سوح الجهاد، أو الرغبة في عالم المادة واللصوق بزخارفها والانشداد نحو الدنيا، وعلى كل حال فالآية تخاطب من كان كذلك من المسلمين - ضعاف الإيمان - لا جميعهم، ولا المسلمين الصادقين وعاشقي الجهاد في سبيل الله.

ثمّ تقول الآية مخاطبة إيّاهم بلهجة الملامة: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

فكيف يتسنى للإنسان العاقل أن يساوم مساومة الخُسران، وكيف يعوّض متاعاً غالياً لا يزول بمتاع زائل لا يعد شيئاً؟!

ثمّ تتجاوز الآية مرحلة الملامة والعتاب إلى لهجة أشدّ وأسلوب تهديديّ جديد، فتقول: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

فإذا كنتم تتصورون أنّكم إذا توليتم وأعرضتم عن الذهاب إلى سوح الجهاد، فإنّ عجلة

الإسلام ستتوقف وينطفىء نور الإسلام، فأنتم في غاية الخطأ والله غني عنكم ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ قوماً أفضل منكم من كل جهة، لا من حيث الشخصيّة فحسب، بل من حيث الإيمان والإرادة والشهامة والاستجابة والطاعة ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾.

وهذه حقيقة وليست ضرباً من الخيال أو أمنيّة بعيدة المدى، فالله عزيز حكيم: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ملاحظات:

١ - في الآيتين آنفتي الذكر تأكيد على الجهاد من سبعة وجوه:

الأوّل: أنّها تخاطب المؤمنين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

الثّاني: أنّها تأمر بالتحرك نحو ميدان الجهاد ﴿انفِرُوا﴾.

الثّالث: أنّها عبرت عن الجهاد بـ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

الرّابع: الاستفهام الإنكاري في تبديل الدنيا بالآخرة ﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾؟

الخامس: التهديد ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

السّادس: الاستبدال بالمخاطبين ﴿قَوْمًا﴾ غيرهم.

السّابع: أنّ الله على كل شيء قدير ولا يضره شيء وإنّما يعود الضرر على المتخلفين.

٢ - يستفاد من الآيتين - آنفتي الذكر - أن تعلق قلوب المجاهدين بالحياة الدنيا يضعف همتهم في أمر الجهاد، فالمجاهدون ينبغي أن يكونوا معرضين عن الدنيا، زُهّاداً غير مكترثين بزخارفها وزبارجها.

ونقرأ دعاءً للإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام لأهل الثغور وحُماة الحدود، إذ يقول: «وانسهم عند لقائهم العدوّ ذكر دنياهم الخدّاعة وامحُ عن قلوبهم خطرات المال الفتون».

ولو عرفنا قيمة الدنيا وحالها شأن الآخرة ودوامها معرفة حقّة، لوجدنا أنّ الدنيا زهيدة بالمقارنة والموازنة مع الآخرة إلى درجة أنّها لاتحسب شيئاً، ونقرأ حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في هذا الصدد يقول فيه: «والله ما الدنيا في الآخرة إلاّ كما يجعل أحدكم أصبعه في اليم ثمّ يرفعها فينظر بِمَ ترجع»!

٣ - هناك كلام بين المفسّرين في المراد من قوله تعالى: ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ الوارد في الآية محل البحث فمن هم هؤلاء؟!

قال بعضهم: هم الفرس وقال آخرون: بل هم أهل اليمن. ولكلّ منهم أثره في تقدم الإسلام. وقال آخرون: إنّ المراد بالنص السابق هم أُولئك القوم الذين ضحوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وتقبلوا الإسلام، بعد أن نزلت الآيتان آنفتا الذكر.

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

التّفسير

المدد الإلهي للرّسول في أشد اللحظات

كان الكلام في الآيات المتقدمة عن موضوع الجهاد ومواجهة العدوّ، وكما أشرنا فقد جاء الكلام عن الجهاد مؤكّداً بعدّة طرق، من ضمنها أنّه لا ينبغي أن تتصوروا أنّكم إذا تقاعستم من الجهاد ونصرة النّبي ﷺ فستذهب دعوته والإسلام أدراج الرياح.

فالآية محل البحث تعقّب على ما سبق لتقول: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾(١).

وكان ذلك عندما تآمر مشركو مكّة على اغتيال النّبي ﷺ وقتله، وقد مرّ بيان ذلك في ذيل الآية (٣٠) من سورة الأنفال بالتفصيل، حيث قرّروا بعد مداولات كثيرة أن يختاروا من كل قبيلة من قبائل العرب رجلاً مسلّحاً ويحاصروا دار النّبي ﷺ ليلاً، وأن يهجموا عليه الغداة ويحملوا عليه حملَة رجل واحد فيقطعوه بسيوفهم.

ولكن النّبي ﷺ اطّلع - بأمر الله - على هذه المكيدة، فتهيأ للخروج من (مكّة)

(١) في هذه الجملة حذف من الناحية الأدبية، وكانت الجملة في الأصل: إن لا تنصروه ينصره الله، لأنّ الفعل الماضي الذي يدل (مفهومه) على وقوعه في الماضي أيضاً، لا يمكن أن يقع جزاءً للشرط إلاّ أن يكون الفعل الماضي بمعنى المضارع.

والهجرة إلى (المدينة) إلاّ أنّه توجّه نحو (غار ثور) الذي يقع جنوب مكّة وفي الجهة المخالفة لجادة المدينة واختبأ فيه، وكان معه (أبو بكر) في هجرته هذه.

وقد سعى الأعداء سعياً حثيثاً للعثور على النّبي، إلاّ أنّهم عادوا آيسين، وبعد ثلاثة أيّام من اختباء النّبي ﷺ وصاحبه في الغار واطمئنانه من رجوع العدوّ توجّه ليلاً نحو المدينة (في غير الطريق المطرّق) وبعد بضعة أيّام وصل ﷺ المدينة سالماً، وبدأت مرحلة جديدة من تأريخ الإسلام هناك.

فالآية آنفة الذكر تشير إلى أشدّ اللحظات حرجاً في هذا السَّفَر التاريخي، فتقول: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وبالطبع فإنّهم لم يريدوا إخراجه بل أرادوا قتله، لكن لما كانت نتيجة المؤامرة خروج النّبي من مكّة فراراً منهم، فقد نسبت الآية إخراجه إليهم.

ثمّ تقول: كان ذلك في حال هو ﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾.

وهذا التعبير إشارة إلى أنّه لم يكن معه في هذا السفر الشاق إلاّ رجل واحد، وهو أبو بكر ﴿إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ أي غار ثور، فاضطرب أبو بكر وحزن فأخذ النّبي ﷺ يسرّي عنه، وكما تقول الآية: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾.

ولعل هذه الجنود الغيبيّة هي الملائكة التي حفظت النّبي ﷺ في سفره الشاق المخيف، أو الملائكة التي نصرته في معركتي بدر وحنين وأضرابهما.

﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ﴾.

وهي إشارة إلى أنّ مؤامراتهم قد باءت بالخيبة والفشل وحبطت أعمالهم وآراؤهم، وشعّ نور الله في كل مكان، وكان الانتصار في كل موطن حليف محمّد ﷺ، ولم لا يكون الأمر كذلك ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؟

فبعزته وقدرته نصر نبيّه، وبحكمته أرشده سبل الخير والتوفيق والنجاح.

قصّة صاحب النّبي في الغار

هناك كلام طويل بين مفسّري الشيعة وأهل السنّة في شأن صحبة أبي بكر للنّبي ﷺ في سفره وهجرته، وما جاءت من إشارات مغلقة في شأنه في الآية آنفاً. فمنهم مَن أفرط، ومنهم من فرّط.

فالفخر الرازي في تفسيره سعى بتعصبه الخاص أن يستنبط من هذه الآية اثنتي عشرة

فضيلة لأبي بكر، ومن أجل تكثير عدد فضائله أخذ يفصّل ويسهّب بشكل يطول البحث فيه ممّا يتلف علينا الوقت الكثير.

وعلى العكس من الفخر الرازي هناك من يصرّ على استنباط صفات ذميمة لأبي بكر من سياق الآية.

وينبغي أن نعرف - أوّلاً - هل تدل كلمة «الصاحب» على الفضيلة؟ والظاهر أنّها ليست كذلك، لأنّ الصاحب في اللغة تدلّ على الجليس أو الملازم للمسافر بشكل مطلق، سواء كان صالحاً أم طالحاً، كما نقرأ في الآية (٣٧) من سورة الكهف عن محاورة رجلين فيما بينهما، أحدهما مؤمن والآخر كافر: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾؟!

كما يصرّ بعضهم على أنّ مرجع الضمير في «عليه» في قوله تعالى ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ يعود على أبي بكر، لأنّ النّبي ﷺ لم يكن بحاجة إلى السكينة، فنزول السكينة إذن كان على صاحبه، أي أبي بكر.

إلاّ أنّه مع الالتفات إلى الجملة التي تليها ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ ومع ملاحظة اتحاد المرجع في الضمائر، يتّضح أن الضمير في «عليه» يعود على النّبي ﷺ أيضاً، ومن الخطأ أن نتصور بأنّ السكينة إنّما هي خاصّة في مواطن الحزن والأسى، بل ورد في القرآن - كثيراً - التعبير بنزول السكينة على النّبي ﷺ وذلك حين يواجه الشدائد والصعاب، ومن ذلك ما جاء في الآية (٢٦) من هذه السورة أيضاً في شأن معركة حنين ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

كما نقرأ في الآية (٢٦) من سورة الفتح أيضاً: ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ مع أنّه لم يَرِد في الجمل والتعابير المتقدمة على هاتين الجملتين أي شيء من الحزن وما إلى ذلك، وإنّما ورد التعبير عن مواجهة الصعاب والتواء الحوادث...

وعلى كل حال، فإنّ القرآن يدلّ أن نزول السكينة إنّما يكون عند الشدائد، وممّا لا ريب فيه أنّ النّبي ﷺ كان يواجه اللحظات الصعبة وهو في (غار ثور).

والأعجب من كل ما تقدم أن بعضاً قال: بأنّ التعبير ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ يعود على أبي بكر، مع أنّ جميع المحاور في هذه الآية تدور حول نصرة الله نبيّه ﷺ، والقرآن يريد أن يكشف أنّ النّبي ليس وحده، وإذا لم ينصره أحد من أصحابه وجماعته، فإنّ الله سينصره. فكيف يمكن لأحد أن يترك الشخص الذي تدور حوله بحوث الآية،

ويتّجه نحو شخص ثانوي وتبعي في منظور الآية؟! وهذا يَدلّ على أن التعصب بلغ حدّاً بأصحابه، بحيث منعهم حتى من الالتفات إلى معنى الآية.

﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾

التّفسير

الكسالى الطّامعون

قلنا: إنّ معركة تبوك كانت لها حالة استثنائية، وكانت مقترنة بمقدمات معقّدة وغامضة تماماً، ومن هنا فإن عدداً من ضعاف الإيمان أو المنافقين أخذ «يتعلّل» في الاعتذار عن المساهمة في هذه المعركة. وقد وردت في الآيات المتقدمات ملامة للمؤمنين من قبل الله سبحانه لتباطئهم في نصرة نبيّهم عند صدور الأمر بالجهاد، وعدم الإسراع إلى ساحة الحرب وأكّدت بأنّ الأمر بالجهاد لصالحكم، وإلاّ فإنّ بإمكان الله أن يهيىء جنوداً مؤمنين شجعاناً مكان الكسالى الذين لاحظّ لهم في الثبات والإرادة، بل حتى مع عدمهم فهو قادر على أن يحفظ نبيّه، كما حفظه «ليلة المبيت»، وفي «غار ثور».

والعجيب أنّ عدداً من «خيوط العنكبوت» المنسوجة على مدخل الغار كانت سبباً لانحراف فكر الأعداء الألداء، وأن يعودوا آيسين بعد وصولهم إلى هذا الغار، وأن يسلم النّبي ﷺ من كيدهم.

فحيث إنّ بإمكان الله أن يغيّر مسير التاريخ، ببضعة خيوط من نسيج العنكبوت، فأية حاجة بهذا أو ذاك ليبدي كلّ معاذيره!!

وفي الحقيقة فإنّ جميع هذه الأوامر هي لتكامل المسلمين أنفسهم، لا لرفع الحاجة لدى الله سبحانه... وتعقيباً على هذا الكلام يدعو المؤمنين جميعاً مرّة أُخرى - دعوة عامّة - نحو الجهاد ويعنف المتسامحين فيقول سبحانه: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾.

«الخفاف» جمع الخفيف، «الثقال» جمع الثقيل، ولهاتين الكلمتين مفهوم شامل يستوعب جميع حالات الإنسان. أي انفروا في أية حالة كنتم شباباً أم شيوخاً، متزوجين أم غير متزوجين، تعولون أحداً أم لا تعولون، أغنياءَ أم فقراء، مبتلين بشيء أم غير مبتلين، أصحابَ تجارة أو زراعة أم لستم من أُولئك!

فكيف ما كنتم فعليكم أن تستجيبوا لدعوة الداعي إلى الجهاد، وأن تنصرفوا عن أيّ عمل شغلتم به، وتنهضوا مسرعين إلى ساحات القتال، وفي أيديكم السلاح.

وما قاله بعض المفسّرين من أنّ هاتين الكلمتين تعنيان مثلاً واحداً ممّا ذكرنا آنفاً، لا دليل عليه أبداً، بل إنّ كل واحد ممّا ذكرناه مصداق جلي لمفهومها الوسيع.

ثمّ تضيف الآية قائلة: ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي جهاداً مطلقاً عاماً من جميع الجهات، لأنّهم كانوا يواجهون عدوّاً قويّاً مستكبراً، ولا يتحقق النصر إلاّ بأن يجاهدوا بكل ما وسعهم من المال والأنفس.

ولئلا يتوهّم أحد أنّ هذه التضحية يريدها الله لنفسه ولا تنفع أصحابها، فإنّ الآية تضيف قائلة: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

أي إن كنتم تعلمون بأنّ الجهاد مفتاح عزتكم ورفعتكم ومنعتكم.

وإن كنتم تعلمون بأنّ أية أُمّة في العالم لن تصل بدون الجهاد إلى الحرية الواقعية والعدالة.

وإن كنتم تعلمون بأنّ سبيل الوصول إلى مرضاة الله والسعادة الأبدية وأنواع النعم والمواهب الإلهية، كل ذلك إنّما هو في هذه النهضة المقدسة العامّة والتضحية المطلقة.

ثمّ يتناول القرآن ضعاف الإيمان الكسالى الذين يتشبثون بالحجج الواهية للفرار من ساحة القتال، فيخاطب النّبي مبيّناً واقعهم فيقول: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ[1] وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾[2].

والعجيب أنّهم لا يكتفون بالأعذار الواهية، بل ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾. فعدم ذهابنا إلى ساحات القتال إنّما هو لضعفنا وعدم اقتدارنا وابتلائنا!! ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

---

(١) العَرَض ما يعرض ويزول عاجلاً ولا دوام له، ويطلق عادةً على مواهب الدنيا المادية، والقاصد معناه السهل. لأنّه في الأصل من قصد، والناس يسعون في قصدهم إلى المسائل السهلة.

(٢) الشقة تعني الأرض الصخرية أو الطريق الطويل البعيد الذي يجلب على عابره المشقة والنصب.

فهم قادرون على الذهاب إلى ساحات القتال، لكن حيث إنّ السفر ذو مشقة، ويواجهون صعوبةً وحرجاً، فإنّهم يتشبثون بالكذب والباطل.

ولم يكن هذا الأمر منحصراً بغزوة تبوك وعصر النّبي ﷺ فحسب، ففي كل مجتمع فئة من الكسالى والمنافقين والطامعين والانتهازيين الذين ينتظرون لحظات الانتصار ليقحموا أنفسهم في الصفوف الأُولى، ويصرخوا بعالي الصوت أنّهم المجاهدون الأوائل والمخلصون البواسل، ليصادروا ثمرات جهود الآخرين في انتصارهم دون أن يبذلوا أيّ جهد!

غير أنّ هؤلاء «المجاهدين»!! المخلصين!! كما يزعمون، حين يواجهون الشدائد والأزمات يلوذون بالفرار ويتشبثون بالأعذار الباطلة والحجج الواهية، كأن يقول أحدهم: إنّي مريض، ويقول الآخر: إني مبتلىً بطفلي، ويقول الثّالث: زوجي مُقرب وعلى وشك الولادة، ويقول الرّابع: ياليتني كنت معكم لولا ضعف في عينيّ لا أبصر بهما، ويقول الخامس: أنا أتدارك مقدمات الأمر وأنا على أثركم، وهكذا...

إلاّ أنّ على القادة والصفوة من النّاس أن يعرفوا هذه الفئة من بداية الأمر، وإذا لم يكونوا أهلاً للإصلاح فينبغي إخراجهم وطردهم من صفوف المجاهدين.

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾

التّفسير

التعرّف على المنافقين

يُستفاد من الآيات - محل البحث - أنّ جماعة من المنافقين جاؤوا إلى النّبي ﷺ وبعد أن تذرعوا بحجج واهية مختلفة - حتى أنّهم أقسموا على صدق مدعاهم - استأذنوا النّبي في الانصراف عن المساهمة في معركة تبوك، فأذن لهم النّبي بالانصراف.

فالله سبحانه يعتب على النّبي في الآية الأُولى من الآيات محل البحث فيقول: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾.

وهناك كلام طويل بين المفسّرين في المراد من عتاب الله نبيّه المشفوع بالعفو عنه، أهو دليل على أنّ إذن النّبي ﷺ كان مخالفة، أم هو من باب ترك الأُولى، أم لا هذا ولا ذاك؟!

وقد جنح البعض إلى الإفراط إلى درجة أنّهم أساؤوا إلى مقام النّبي ﷺ وساحته المقدّسة، وزعموا أن الآيات المذكورة أنفاً دليل على إمكان صدور العصيان والذنب من قبل النّبي ﷺ، ولم يراعوا - على الأقل - الأدب الذي رعاه الله العظيم في تعبيره عن نبيّه الكريم، إذ بدأ بالعفو ثمّ ثنى بالعتاب والمؤاخذة، فوقعوا في ضلال عجيب.

والإنصاف أنّه لا دليل في الآية على صدور أي ذنب أو معصية من النّبي ﷺ، وحتى ظاهر الآية لا يدلّ على ذلك، لأنّ جميع القرائن تثبت أنّ النّبي سواءً أذن لهم أم لم يأذن، فإنّهم لم يكونوا ليساهموا في معركة تبوك، وعلى فرض مساهمتهم فيها لم يحلّوا مشكلة من أمر المسلمين، بل يزيدون الطين بلّة، كما سنقرأ في الآيات التالية قوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾.

فبناءً على ذلك فإنّ المسلمين لم يخسروا شيئاً بإذن النّبي لأُولئك بالانصراف، غاية الأمر أنّه لو لم يأذن النّبي ﷺ لهم فسرعان ما ينكشف أمرهم ويعرفهم المسلمون، غير أنّ هذا الموضوع لم يكن من الأهميّة بحيث إنّ ذهابهم وفقدانهم موجبٌ لارتكاب ذنب أو عصيان.

وربّما كان ذلك تركاً للأولى فحسب، بمعنى أنّ إذن النّبي لهم في تلك الظروف، وبما أظهره أُولئك المنافقون من الأعذار بأيمانهم، وإن لم يكن أمراً سيئاً، إلاّ أن ترك الإذن كان أفضل منه، لتُعرف هذه الجماعة بسرعة.

كما يُحتمل في تفسير الآية هو أنّ العتاب أو الخطاب المذكور آنفاً إنّما هو على سبيل الكناية، ولم يكن في الأمر حتى «تركُ الأُولى» بل المراد بيان روح النفاق في المنافقين ببيان لطيف وكناية في المقام.

ويمكن أن يتّضح هذا الموضوع بذكر مثال، فلنفرض أنّ ظالماً يريد أن يلطم وجه ابنك، إلاّ أنّ أحد أصدقائك يحول بينه وبين مراده فيمسك يده، فقد تكون راضياً عن سلوكه هذا، بل وتشعر بالسرور الباطني، إلاّ أنّك ولإثبات القبح الباطني للطرف

المقابل تقول لصديقك: لِمَ تركته يضربه على وجهه ويلطمه؟ وهدفك من هذا البيان إنّما هو إثبات قساوة قلب هذا الظالم ونفاقه، الذي ورد في ثواب عتاب الصديق وملامته من قِبَلِك.

وهناك شبهة أُخرى في تفسير الآية، وهي أنّه: ألم يكن النّبي ﷺ يعرف المنافقين حتى يقول له الله سبحانه: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾؟

والجواب على هذا السؤال، هو:

أوّلاً: أنّ النّبي ﷺ لم يكن يعرف المنافقين ويعلم حالهم عن طريق العلم الظاهري، ولا يكفي علم الغيب للحكم في الموضوعات، بل ينبغي أن ينكشف أمرهم عن طريق الأدلة المألوفة و(المعتادة).

ثانياً: لم يكن الهدف الوحيد أن يعلم النّبي حالهم فحسب، بل لعل الهدف كان أن يعلم المسلمون جميعاً حالهم، وإن كان الخطاب موجّهاً للنّبيّ ﷺ.

ثمّ يتناول القرآن أحد علامات المؤمنين والمنافقين، فيقول: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾.

بل ينهضون مسرعين دون سأم أو ملل عند صدور الأمر بالجهاد ويدعوهم الإيمان بالله واليوم الآخر ومسؤولياتهم وإيمانهم بمحكمة القيامة، كلّ ذلك يدعوهم إلى هذا الطريق ويوصد بوجوههم الأعذار والحجج الواهية ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾.

ثمّ يضيف القرآن: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾.

ويعقّب مؤكّداً عدم إيمانهم بالقول: ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾.

وبالرّغم من أنّ الصفات الواردة في الآيات آنفاً جاءت بصيغة الفعل المضارع، إلاّ أنّ المراد منها بيان صفات المؤمنين وصفات المنافقين وأحوالهم، ولا فرق بين الماضي والحال والاستقبال في ذلك.

وعلى كل حال فإن المؤمنين - بسبب إيمانهم - لديهم إرادة ثابتة وتصميم أكيد لا يقبل التهاون والرجوع حيث يرون طريقهم بجلاء ووضوح، فمقصدهم معلوم وهدفهم واضح، ولذلك فهم يمضون بخطى واثقة نحو الأمام ولا يترددون أبداً.

أمّا المنافقون فلأنّ هدفهم مظلم وغير معلوم، فهم مترددون حائرون ذاهلون، ويبحثون دائماً عن الأعذار والحجج الواهية للتخلص والفرار من تحمل المسؤولية الملقاة على عواتقهم.

وهاتان العلامتان لا تختصان بالمؤمنين والمنافقين في صدر الإسلام ومعركة تبوك فحسب، بل يمكن في عصرنا الحاضر أن نميز المؤمنين الصادقين من المدَّعين الكاذبين بهاتين الصفتين.

فالمؤمن شجاع ذو إرادة وتصميم وخطى واثقة، والمنافق جبان وخائف ومتردد وحائر ويبحث عن المعاذير دائماً.

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾

التّفسير

عدم وجودهم أفضل

في الآية الأُولى - من الآيات أعلاه - بيان لعلامة أُخرى من علائم كذبهم، وهي في الحقيقة تكمل البحث الوارد في الآيات المتقدمة آنفاً، إذ جاء فيها ﴿يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فالآية محل البحث تقول: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾، ولم ينتظروا الإذن لهم: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ(١) وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾.

وهناك كلام بين المفسّرين في المراد بـ«قيل اقعدوا» فمن هو القائل؟! أهو الله سبحانه، أم النّبي، أم باطنهم؟!

الظاهر أنّه أمر تكويني نهض من باطنهم المظلم، وإنّه مقتضى عقيدتهم الفاسدة وأعمالهم القبيحة، وكثيراً ما يُرى أن مقتضى الحال يظهرونه في هيئة الأمر أو النهي، ويستفاد من الآية محل البحث أنّ لكلّ عمل ونيّة اقتضاءً يُبتلى به الإنسان شاء أم أبى، وليس لكلّ أحد قابلية السير في سبيل الله وتحمّل الأعباء الكبرى، بل هو توفيق من قِبَل الله يوليه من يجد فيه طهارة النيّة والاستعداد والإخلاص.

---

(١) ثبّطهم مشتق من التثبيط ويعني الوقوف بوجه العمل المزمع إجراؤه بوجه من الوجوه.

وفي الآية التالية إشارة إلى هذه الحقيقة، وهي أنّ عدم مساهمة مثل هؤلاء الأفراد في ساحة الجهاد ليس مدعاة للتأثر والأسف فحسب، بل لعله مدعاة للسرور، لأنّهم لا ينفعونكم فحسب، بل سيكونون بنفاقهم ومعنوياتهم المتزلزلة وانحرافهم الأخلاقي مصدراً لمشاكل أُخرى جديدة.

والآية في الحقيقة تعطي درساً للمسلمين أن لا يكترثوا بكثرة المقاتلين أو قلّتهم وكميتهم وعددهم، بل عليهم أن يفكروا في اختيار المخلصين المؤمنين وإن كانوا قِلّة، فهذا درس لمسلمي الماضي والحاضر والمستقبل.

وتقول الآية: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم﴾ أي إلى تبوك للقتال ﴿مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾.

«الخبَال» بمعنى الاضطراب والتردد.

والخَبَل على زنة «الأجَل» معناه الجنون.

والخَبْلُ على زنة «الطَّبْل» معناه فساد الأعضاء.

فبناءً على ذلك فإنّ حضورهم بتلك الروحيّة الفاسدة المقرونة بالتردد والنفاق لا أثر له سوى إيجاد الشك والتردد وتثبيط العزائم بين جنود الإسلام.

وتضيف الآية قائلة: ﴿وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾[1].

ثمّ تنذر المسلمين مِن المتأثرين بهم في صفوف المسلمين ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾.

«السمّاع» تطلق على من يسمع كثيراً دون تروٍّ أو تدقيق، فيصدّق كل كلام يسمعه.

فبناءً على ذلك فإنّ وظيفة المسلمين الراسخين في الإيمان مراقبة مثل هؤلاء الضعفاء لئلا يقعوا فريسة المنافقين الذئاب. كما يَرِدُ هذا الاحتمال، وهو أنّ المراد من السمّاع في الآية هو الجاسوس الذي يتجسّس بين المسلمين ويجمع الأخبار للمنافقين.

وتُختتم الآية بالقول: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وفي آخر آية من الآيات محل البحث إنذار للنبيّ ﷺ بأنّ هؤلاء المنافقين لم يبادروا لأوّل مرّة إلى التخريب والتفرقة وبذر السموم، بل ينبغي أن تتذكر - يا رسول الله - أنّ هؤلاء ارتكبوا من قبل مثل هذه الأُمور وهم يتربصون الفرص الآن لينالوا مُناهم ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ﴾.

---

(١) أوضعوا من مادة الإيضاع ومعناه، الإسراع في الحركة، ومعناه هنا الإسراع في النفوذ بين صفوف المقاتلين، والفتنة هنا بمعنى التفرقة واختلاف الكلمة.

وهذه الآية تشير إلى ما جرى في معركة أُحد حيث رجع عبد الله بن أبي وأصحابه وانسحبوا وهم في منتصف الطريق، أو أنّها تشير إلى مؤامرات المنافقين عامّة التي كانوا يكيدونها للنّبي ﷺ أو للمسلمين، ولم يغفل التاريخ أن يسجلها على صفحاته!

﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ وخطّطوا للإيقاع بالمسلمين، أو لمنعهم من الجهاد بين يديك، إلاّ أنّ كل تلك المؤامرات لم تفلح، وإنما رَقَموا على الماء ورشقوا سهامهم على الحجر ﴿حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾.

غير أن مشيئة العباد وإرادتهم لا أثر لها إزاء مشيئة الله وإرادته، فقد شاء الله أن ينصرك وأن يُبلغَ رسالتك إلى أصقاع المعمورة، ويزيل العراقيل والموانع عن منهاجك، وقد فعل.

إلاّ أنّ ما يهمنا هنا أن نعرف أنّ مدلول الآيات آنفة الذكر لا يختص بعصر النّبي ﷺ وزمانه، ففي كل جيل وكل عصر جماعة من المنافقين تحاول أن تنثر سموم التفرقة في اللحظات الحسّاسة والمصيرية، ليحبطوا روح الوحدة ويثيروا الشكوك والتردد في أفكار الناس، غير أنّ المجتمع إذا كان واعياً فهو منتصر بأمر الله ووعده الذي وعد أولياءه، وهو - سبحانه - الذي يذر ما يرقم المنافقون ومخططاتهم سُدىً، شريطة أن يجاهد أولياؤه في سبيله مخلصين، وأن يراقبوا بحذر أعداءهم المتوغلين بينهم.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾

سبب النّزول

قال جماعة من المفسّرين: إنّ النّبي ﷺ كان يُعبّىء المسلمين ويُهيّئهم لمعركة تبوك ويدعوهم للتحرك نحوها، فبينا هو على مثل هذه الحال إذا برجل من رؤساء طائفة «بني سلمة» يُدعى «جدّ بن قيس» وكان في صفوف المنافقين، فجاء إلى النّبي ﷺ مستأذناً أن لا يشهدَ المعركة، متذرعاً بأنّ فيه شبقاً إلى النساء، وإذا ما وقعت عيناه على بنات الروم فربّما سيهيم وَلَهاً بهنّ وينسحب من المعركة!! فأذن له النّبي بالانصراف.

فنزلت الآية أعلاه معنفةً ذلك الشخص!

فالتفت النّبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى بني سلمة وقال: من كبيركم؟ فقالوا: جدّ بن قيس، إلاّ أنّه رجل بخيلٌ وجبان، فقال: وأي شيء أبشع من البخل؟ ثمّ قال: إنّ كبيركم ذلك الشاب الوضيء الوجه بشر بن براء «وكان رجلاً سخياً سمحاً بشوشاً»(١).

التّفسير

المنافقون المتذرّعون

يكشف شأن النزول المذكور أنّ الإنسان متى أراد أن يتنصل من تحمل المسؤولية يسعى للتذرّع بشتى الحيل، كما تذرع المنافق جد بن قيس لعدم المشاركة في المعركة وميدان الجهاد، بأنّه ربّما تأسره الوجوه النضرة من بنات الروم وتختطف قلبه، فينسحب من المعركة ويقع في إشكالٍ شرعي!!...

ويذكرني قول جد بن قيس بكلام بعض الضالعين في ركاب الطاغوت، إذ كان يقول: إذا لم نضغط على الناس فإنّ ما نتسلمه من الراتب والحقوق المالية مشكل شرعاً، فمن أجل التخلص من هذا الإشكال الشرعي لابدّ من إيذاء الناس وظلمهم!.

وعلى كل حال فإنّ القرآن يوجه الخطاب للنّبي صلى الله عليه وآله وسلم ليردّ على مثل هذه الذرائع المفضوحة قائلاً: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي﴾ بالنساء والفتيات الروميات الجميلات.

كما ويحتمل في شأن نزول الآية أن جد بن قيس كان يتذرع ببقاء امرأته وأطفاله وأمواله بلا حام ولا كفيل بعده ليتخلّص من الجهاد.

ولكن القرآن يقول مجيباً عليه وأمثاله: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾.

أي إنّ أمثال أُولئك الذين تذرّعوا بحجّة الخوف من الذنب - هم الآن واقعون فيه فعلاً، وإن جهنم محيطة بهم، لأنّهم تركوا ما أمرهم الله ورسوله به وراء ظهورهم وانصرفوا عن الجهاد بذريعة الشبهة الشرعية!!

ملاحظتان:

١ - إنّ أحد طرق معرفة جماعة المنافقين في كل مجتمع، هو التدقيق في أسلوب استدلالهم وأعذارهم التي يذكرونها ليتركوا ما عليهم من الوظائف، فهذه الأعذار

(١) بحار الأنوار، ج ٢١، ص ١٩٣، ٢١٢، ٢١٣.

تكشف - بجلاء - ما يدور في خلدهم وباطنهم. فهم غالباً ما يتشبثون بسلسلة من الموضوعات الجزئية والمضحكة أحياناً بدلاً من الاهتمام بالمواضيع المهمّة، ويستعملون المصطلحات الشرعية لإغفال المؤمنين ويتذرّعون بالأحكام الشرعية وأوامر الله ورسوله، في حين أنّهم غارقون في دوّامة الخطايا، جادّون في عداوتهم للرسول ودينه القويم.

٢ - للمفسّرين أقوال مختلفة في تفسير جملة ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ فقال بعضهم: هذه العبارة كناية عن إحاطة عوامل ورودهم إلى جهنم بهم، أي إنّ ذنوبهم تحيط بهم!

وقال بعضهم: إنّ هذا التعبير من قبيل الحوادث الحتمية المستقبلية التي تذكر بصيغة الفعل الماضي أو الحال، أي أنّ جهنم ستحيط بهم بشكل قاطع.

كما ويحتمل أن نفسر الجملة بمعناها الحقيقي، وهو أنّ جهنم موجودة فعلاً، وهي عبارة عن باطن هذه الدنيا، فالكفّار قابعون في وسط جهنّم في حياتهم الدنيوية وإن لم يصدر الأمر بتأثيرها، كما أنّ الجنّة موجودة في هذه الدنيا أيضاً وتحيط بالجميع، غاية ما في الأمر لما كان أهل الجنّة جديرين بها فسيكونون مرتبطين بها؛ وأهل النّار جديرون بالنّار فهم من أهلها أيضاً.

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ (٥٠) قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ (٥٢)﴾

التّفسير

في الآيات - آنفة الذكر - إشارة إلى إحدى صفات المنافقين وعلاماتهم وبهذا تتابع البحث الذي يتناول صفات المنافقين في ذيل الآيات المتقدمة والآيات اللاحقة.

تقول الآيات أوّلاً: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾.

سواء كانت هذه الحسنة انتصاراً على العدوّ، أو الغنائم التي تنالونها في المعارك أو أيّ تقدّم آخر.

وهذه المساءَة دليل على العداوة الباطنيّة وفقدان الإيمان. فكيف يمكن لمن له أدنى إيمان أن يسوءه انتصار النّبي ﷺ أو أي مؤمن آخر؟!

ولكنّهم على خلاف هذه الحال عند الشدّة والخطب: ﴿وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾.

هؤلاء المنافقون عُمي القلوب ينتهزون أيّة فرصة لصالحهم ومنافعهم، ويزعمون أن ما نالوه كان بتدبيرهم وعقلهم، إذ لم نُساهم في المعركة الفلانية ولم نقع في أيّ مأزق!! كما ابتلي به الآخرون الذين لم يكن لهم نصيب من التعقل والتدبر، وبهذه المزاعم يعودون إلى أوكارهم وهم يكادون أن يطيروا فرحاً.

ولكنك - يا رسول الله - عليك أن تردّ عليهم بجواب منطقيّ متين وذلك:

أوّلاً: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا﴾ أجلْ فلا يريد بنا إلاّ الخير والصلاح: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

فهم يعشقون الله فحسب، ومنه يطلبون المدد والعون، ويتوكلون عليه ويلتجئون إليه عند الخطوب.

وهذا خطأ كبير ابتلي به المنافقون، إذ يتخيّلون أنّهم بعقولهم القاصرة وفكرهم المحدود يستطيعون أن يواجهوا جميع المشكلات والحوادث، وأن يكونوا في غنىً عن رحمة الله ولطفه!!... إنّهم لا يعلمون أنّ جميع وجودهم لا يعدو ورقة يابسة في مهبّ العاصفة. أو كقطرة ماء في صحراء محرقة في يوم قائظ فلولا لطف الله ومدده فما عسى أن يفعل الإنسان الضعيف أمام الشدائد والخطوب؟!

ثانياً: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾؟!

فإمّا أن نُبير الأعداء في ساحة الحرب ونُبيدهم ونعود منتصرين، أو نُقتل فننهل ورد الشهادة العذب، فكلاهما محبّب لنا ومصدر افتخارنا.

وهكذا يختلف حالنا عن حالكم، فنحن نتوقع لكم مساءتين: إمّا أن تصيبكم سهام البلايا والمصائب والعقوبات الإلهيّة سواء في الدنيا أو الآخرة، أو يكون هلاككم على أيدينا: ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ تربصوا غبطتنا وسعادتنا ونحن نتربص شقاءكم وسوء عاقبتكم.

بحوث

١ - المقادير وسعي الإنسان

ممّا لا شك فيه أن مآلنا وعاقبة أمرنا - بأيدينا - ما دام الأمر يدور في دائرة سعينا وجدّنا، والقرآن الكريم يصرّح بهذا الشأن أيضاً، كقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾(١)، وكقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾(٢) وفي آيات أخر. بالرغم من أنّ الجدَّ والسعي هما من السنن الإلهيّة وبأمره تعالى أيضاً.

إلاّ أنّه عند خروج الأمر عن دائرة سعينا وجدّنا، فإنّ يد القدر هي التي تتحكم بمآلنا وعاقبة أمرنا، وما هو جار بمقتضى قانون العليّة الذي ينتهي إلى مشيئة الله وعلمه وحكمته وهو مقدّر علينا، فهو ما سيكون ويقع حينئذ، غاية ما في الأمر أنّ المؤمنين بالله وعلمه وحكمته ولطفه ورحمته، يفسّرون هذه المقادير بأنّها جارية وفقاً «للنظام الأحسن» وما فيه مصلحة العباد، وكلٌّ يُبتلى بمقادير تناسبه حسب جدارته التي اكتسبها.

فالجماعة إذا كانوا من المنافقين الجبناء والكسالى والمتفرقين فهي محكومة بالفناء حتماً، إلاّ أنّ الجماعة المؤمنة الواعية المتّحدة المصمّمة، ليس لها إلاّ النصرُ والتوفيق مآلاً.

فبناءً على ذلك يتّضح أنّ الآيات آنفة الذكر لا تنافي أصل الحرية [حرية الإرادة والاختيار] وليست دليلاً على العاقبة الجبرية للإنسان أو أن سعي الإنسان لا أثر له.

٢ - لا وجود للهزيمة في قاموس المؤمنين

نواجه في آخر آية - من الآيات محل البحث - منطقاً مُحكماً متيناً يستبطن السّر الأساس لانتصارات المسلمين الأوائل جميعاً، ولو لم يكن للنّبي ﷺ من تعليم ودستور إلاّ ما نجده في هذه الآية لكان كافياً لانتصار أتباعه ومقتفي منهاجه، وهو أنّه لا مفهوم للهزيمة في صفحات أرواحهم فقد أثبتت الحوادث أنّهم منتصرون على كل حال، منتصرون إن استشهدتم!... منتصرون إن قتلتم أعداءكم!

وإنّ للمؤمنين مسلكين لا ثالث لهما، في أيّ منهما ساروا وسلكوا وصلوا إلى هدفهم وغايتهم.

---

(١) سورة النّجم، الآية: ٣٩. (٢) سورة المدثر، الآية: ٣٨.

أحدها هو طريق الشهادة التي تمثل أوج الفخر للمؤمنين، وأعظم موهبة يمكن أن تُتصور للإنسان أن يبيعَ اللهَ نفسه، ويشتري الحياة الأبدية الخالدة وجوار الله، والتنعم بما لا يمكن وصفه من النعم.

والآخر هو الانتصار على العدوّ وتدمير قواه الشيطانية، وتطهير البيئة والمحيط الإنساني من لوث الظالمين والمنحرفين الضالين، وهذا بنفسه فيض ولطف كبير وفخر مسلّم به.

فالجندي الذي يدخل ساحة المعركة بهذه الروحية والمعنوية لا يفكر بالفرار والإدبار أبداً، ولا يخاف من أي أحد ولا من أي شيء، فالخوف والاستيحاش والاضطراب والتردد ليس لها طريق إلى قلبه ووجوده. والجيش الذي يتألف من جنود بهذه الروحية لا يعرف الهزيمة اطلاقاً.

ولا يحصل الإنسان على هذه المعنويات العالية إلاّ عن طريق اعتماد التعليمات الإسلامية، فلو أنّ هذه التعليمات تجلّت مرّة أُخرى في نفوس المسلمين بالتربية السليمة والتعليم الصحيح لأمكن جبران كل أشكال التخلف الذي أصاب المسلمين.

أُولئك الذين يطالعون ويدرسون أسباب تقدّم المسلمين الأوائل وانتصارهم، وأسباب تأخرهم في الوقت الحاضر، ويعدّون الأمر أحجية ولغزاً لا ينحلّ، من الأفضل لهم أن يأتوا ويفكروا في هذه الآية ليتّضح لهم الجواب على ما يرد في خواطرهم.

ممّا ينبغي الالتفات إليه أنّ الآية آنفة الذكر عندما تتحدث عن هزيمتي المنافقين واندحارهم، تبيّن ذلك بتفصيل ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ إلاّ أنها تمرّ على بيان انتصار المؤمنين بإجمال، فكأنّ المسألة من الوضوح بمكان حتى أنّها لا تحتاج إلى بيان وشرح، وهذه لطيفة بلاغيّة تناولتها الآية الكريمة.

٣ - صفات المنافقين

نؤكّد مرّة أُخرى على أنّه لا ينبغي أن نقرأ هذه الآيات ونعدّ موضوعها مسألة تاريخية ترتبط بما سبق، بل علينا أن نعتبرها درساً ليومنا وأمسنا وغدنا، ولجميع الناس. فليس من مجتمع يخلو من مجموعة منافقين، قلّت أو كثرت، وصفاتهم على شاكلة واحدة تقريباً.

فالمنافقون عادة أناس جهلة أنانيون متكبرون، يزعمون بأنّهم يتمتّعون بقسط وافر من العقل والدراية! إنّهم في عذاب وحسرة ما دام الناس في راحة وسرور ويفرحون عندما تحلّ بهم كارثة!.

إنّهم يتخبطون في دوامة من الوهم والشك والحيرة، ولذلك فهم يخطون تارة نحو الأمام، وأُخرى إلى الوراء!!

وعلى خلافهم المؤمنون، فهم يشاركون الناس في السراء والضرّاء، ولا يزعمون أنّهم أولو علم ودراية، ولا يستغنون عن رحمة الله ولطفه، وقلوبهم تعشق الله ولا تخاف في سبيله من سواه.

﴿قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٣) وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ (٥٤) فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥)﴾

التّفسير

تشير هذه الآيات إلى قسم آخر من علامات المنافقين وعواقب أعمالهم ونتائجها، وتبيّن بوضوح كيف أن أعمالهم لا أثر لها ولا قيمة، ولا تعود عليهم بأيّ نفع.

ولما كانَ - من بين الأعمال الصالحة - الإنفاق في سبيل الله «الزكاة بمعناها الواسع» والصلاة «وهي العلاقة بين الخلق والخالق» - لهما موقع خاص، فقد اهتمّت الآيات بهذين القسمين اهتماماً خاصاً!

تخاطب الآيات النّبي الكريم فتقول: ﴿قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾(١).

ثمّ تشير الآية إلى سبب ذلك فتقول: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾.

فنيّاتكم غير خالصة، وأعمالكم غير طاهرة، وقلوبكم مظلمة، وإنّما يتقبل الله العمل الطاهر من الورع التقي.

وواضح أنّ المراد من الفسق هنا ليس هو الذنب البسيط والمألوف، لأنّه قد يرتكب الإنسان ذنباً وهو في الوقت ذاته قد يكون مخلصاً في أعماله، بل المراد منه الكفر والنفاق، أو تلوّث الإنفاق بالرياء والتظاهر.

---

(١) جملة ﴿أَنفِقُواْ﴾ وإن كانت في صورة الأمر، إلاّ أنّ فيها مفهوم الشرط، أي لو أنفقتم طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم.

كما لا يمنع أن يكون الفسق - في التعبير آنفاً - في مفهومه الواسع شاملاً للمعنيين، كما ستوضح الآية التالية ذلك.

وفي الآية التالية يوضح القرآن مرّة أُخرى السبب في عدم قبول نفقاتهم فيقول: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾.

والقرآن يعوّل كثيراً على أنّ قبول الأعمال الصالحة مشروط بالإيمان، حتى أنّه لو قام الإنسان بعمل صالح وهو مؤمن، ثمّ كفر بعد ذلك فإنّ الكفر يحبط عمله ولا يكون له أي أثر «بحثنا هذا الموضوع في المجلد الثّاني من التّفسير الأمثل».

وبعد أن أشار القرآن إلى عدم قبول نفقاتهم، يشير إلى حالهم في العبادات فيقول: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ كما أنّهم ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾.

وفي الحقيقة أنّ نفقاتهم لا تقبل لسببين:

الأوّل: هو أنّهم ﴿كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾.

والثّاني: أنّهم إنّما ينفقون عن كره وإجبار.

كما أنّ صلواتهم لا تُقبل لسببين أيضاً:

الأوّل: لأنّهم ﴿كَفَرُواْ بِٱللَّهِ﴾.

والثّاني: أنّهم ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾!...

العبارات المتقدمة في الوقت الذي تبيّن حال المنافقين في عدم النفع من أعمالهم، فهي في الحقيقة تبيّن علامة أُخرى من علائمهم في الوقت ذاته، وهي أنّ المؤمنين الواقعيين يمكن معرفتهم من نشاطهم عند أداء العبادة، ورغبتهم في الأعمال الصالحة التي تتجلى فيهم بإخلاصهم.

كما يمكن معرفة حال المنافقين عن طريق كيفية أعمالهم، لأنّهم يؤدّون أعمالهم عادةً دون رغبة ومكرهين، فكأنّما يُساقون إلى عمل الخير سوقاً.

وبديهي أنّ أعمال الطائفة الأُولى (المؤمنين) لما كانت تصدر عن قلوب تعشق الله مقرونةً بالتحرق واللهفة، فإنّ جميع الآداب ومقرراتها مرعية فيها. إلاّ أنّ الطائفة الثّانية لما كانت أعمالها تصدر عن إكراه وعدم رغبة، فهي ناقصة لا روح فيها، وهكذا تكون البواعث المختلفة في أعمال الطائفتين تضفي على الأعمال شكلين مختلفين.

وفي آخر الآية - من الآيات محل البحث - يتوجه الخطاب نحو النّبي قائلاً: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾.

فهي وإن كانت نعمةً بحسب الظاهر، إلاّ أنّه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

وفي الواقع فإنّهم يعذبون عن طريقين بسبب هذه الأموال والأولاد، أي القوة الاقتصادية والإنسانية:

فالأوّل: إنّ مثل هؤلاء الأبناء لا يكونون صالحين عادة، ومثل هذه الأموال لا بركة فيها، فيكونان مدعاة قلقهم وأَلَمِهِم في الحياة الدنيا، إذ عليهم أن يسعوا ليل نهار من أجل أبنائهم الذين هم مدعاة أذاهم وقلقهم، وأن يجهدوا أنفسهم لحفظ أموالهم التي اكتسبوها عن طريق الإثم والحرام.

والثّاني: لما كانوا متعلقين بهذه الأَموال والأولاد، ولا يؤمنون بالحياة بعد الموت ولا بالدار الآخرة الواسعة ولا بنعيمها الخالد، فليس من الهيّن أن يغمضوا عن هذه الأموال والذّرية، وبالتالي يخرجون من هذه الدنيا - بحال مزرِيَة وفي حال الكفر.

فالمال والبنون قد يكونان موهبة وسعادة ومدعاة للرفاه والهدوء والاطمئنان والدعة إذا كانا طاهرين طيبين وإلاّ فهما مدعاة العذاب والشقاء والألم.

ملاحظتان:

١ - يسأل بعضهم: إنّ الآية الأُولى - من الآيات محل البحث - تقول: ﴿أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ مع أنّ الآية الأُخرى تقول بصراحة: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾.

ترى ألا توجد منافاة بين هذين التعبيرين؟!

لكن مع قليل من الدقة يتّضح الجواب على هذا السؤال، وهو أنّ بداية الآية الأُولى في صورة القضية الشرطية، أي لو أنفقتم طوعاً أو كرهاً فعلى أية حال لن تتقبل منكم، ونعرف أنّ القضية الشرطية لا تدل على وجود الشرط، أي على فرض أن ينفقوا طوعاً واختياراً فإنفاقهم لا فائدة فيه، لأنّهم غير مؤمنين.

إلاّ أنّ ذيل الآية الأُخرى بيان قضية خارجيّة، وهي أنّهم ينفقون عن إكراه دائماً.

٢ - والدرس الذي نستفيده من الآيات الآنفة، هو أنّه لا ينبغي الانخداع بصلاة الناس وصيامهم، لأنّ المنافقين يؤدون ذلك أيضاً، كما أنّهم ينفقون بحسب الظاهر في سبيل الله، بل ينبغي تمييز الصلاة والإنفاق بدافع النفاق من غيرهما عن أعمال المؤمنين البنّاءة والهادفة، ويمكن معرفة ذلك بالتدقيق والإمعان في النظر، ونقرأ في الحديث:

«لا تنظروا إلى طول ركوع الرجل وسجوده، فإنّ ذلك شيءٌ اعتاده، ولو تركه استوحش ولكن انظروا إلى صدق حديثه وأداء أمانته»(١).

﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ۝٥٦ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ۝٥٧﴾

التّفسير

علامة أخرى للمنافقين

ترسم الآيتان أعلاه حالة أُخرى من أعمال المنافقين بجلاء، إذ تقول الآية الأُولى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ ومن شدّة خوفهم وَفرقِهم يخفون كفرهم ويظهرون الإيمان.

و﴿يَفْرَقُونَ﴾ من مادة «الفرق» على زنة «الشفق» ومعناه شدّة الخوف.

يقول «الراغب» في «المفردات» إن الفرق في الأصل معناه التفرّق والتشتت، فكأنّهم لشدّة خوفهم تكاد قلوبهم أن تتفرق وتتلاشى.

وفي الواقع إنّ مثل هؤلاء لما فقدوا ما يركنون إليه في أعماقهم، فهم في هلع واضطراب عظيم دائم، ولا يمكنهم أن يكشفوا عمّا في باطنهم لما هم عليه من الهلع والفزع، وحيث إنّهم لا يخافون الله «لعدم إيمانهم به»، فهم يخافون من كل شيء غيره، ويعيشون في استيحاش دائم، غير أنّ المؤمنين الصادقين ينعمون في ظل الإيمان بالهدوء والاطمئنان.

والآية التالية تصوّر شدّة عداوة المنافقين للمؤمنين ونفورهم منهم، في عبارة موجزة إلاّ أنّها في غاية المتانة والبلاغة، إذ تقول: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾.

«الملجأ» معناه معروف، وهو ما يأوي إليه الخائف عادة، كالقلاع والكهوف وأضرابهما.

و«المغارات» جمع مغارة.

---

(١) أصول الكافي، ج ٢، ص ١٠٥؛ وسائل الشيعة، ج ١٩، ص ٦٨ و ٦٩.

و«المدّخل» هو الطريق الخفي تحت الأرض، كالنقب مثلاً.

و﴿يَجْمَحُونَ﴾ مأخوذ من الجماح، ومعناه الحركة السريعة والشديدة التي لا يتأتى لأيّ شيء أن يصدها، كحركة الخيول المسرعة الجامحة التي لا تطاوع أصحابها، ولذلك سُمّي الجواد الذي لا يطاوع صاحبه جموحاً أو جامحاً.

وعلى كل حال، فهذه الآية واحدة من أبلغ الآيات والتعابير التي يسوقها القرآن في وصف المنافقين، وبيان هلعهم وخوفهم وبغضهم إخوانهم المؤمنين، بحيث لو كان لهم سبيل للفرار من المؤمنين، ولو على قمم الجبال أو تحت الأرض، لَولّوا إليه وهم يجمحون، ولكن ما عسى أن يفعلوا مع الروابط التي تربطهم معكم من القبيلة والأموال والثروة، كل ذلك يضطرهم إلى البقاء على رغم أنوفهم.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾

سبب النّزول

جاء في تفسير «الدر المنثور» عن «صحيح البخاري» و«النسائي» وجماعة آخرين، أنّ النّبي ﷺ كان مشغولاً بتقسيم الأموال (من الغنائم أو ما شاكلها)، وإذا برجل من بني تميم يدعى ذو الخويصرة - وهو حرقوص بن زهير - يأتي فيقول له: يا رسول الله، اعدل. فقال رسول الله: «ويلك من يعدل إذا لم أعدل!» فصاح عمر: يا رسول الله ائذن لي أضرب عنقه. فقال رسول الله: «دعه فإنّ له أصحاباً يحتقر أحدكم صلاته مع صلواتهم وصومهم مع صومه، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميّة...»(١).

فنزلت الآيتان عندئذ ونصحت مثل هؤلاء الناس ووعظتهم.

التّفسير

الأنانيون السفهاء

في الآية الأُولى أعلاه إشارة إلى حالة أُخرى من حالات المنافقين، وهي أنّهم لا

(١) نور الثقلين، ج٢، ص٢٢٧. بحار الأنوار، ج ٢١، ص ١٧٣.

يرضون أبداً بنصيبهم، ويرجون أن ينالوا من بيت المال أو المنافع العامّة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، سواءً كانوا مستحقين أم غير مستحقين، فصداقتهم وعداوتهم تدوران حول محور المنافع سلباً وإيجاباً.

فمتى مُلئت جيوبهم رضوا (عن صاحبهم) ومتى ما أُعطوا حقّهم وروعي العدل في إيتاء الآخرين حقوقهم سخطوا عليه، فهم لا يعرفون للحق والعدالة مفهوماً «في قاموسهم» وإذا كان في قاموسهم مفهوم للحق أو العدل، فهو على أساس أنّ من يعطيهم أكثر فهو عادل، ومن يأخذ حق الآخرين منهم فهو ظالم!!

وبتعبير آخر: إنّهم يفقدون الشخصية الاجتماعية، ويتمسكون بالشخصية الفردية والمنافع الخاصّة، وينظرون للأشياء جميعاً من هذه الزّاوية (المشار إليها آنفاً).

لذا فإنّ الآية تقول: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ لكنّهم في الحقيقة ينظرون إلى منافعهم الخاصّة ﴿فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾.

فهؤلاء يرون أنّ النّبي ﷺ غير منصف ولا عادل!! ويتهمونه في تقسيمه المال!.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾.

تُرى ألا يوجد أمثال هؤلاء في مجتمعاتنا الإسلامية المعاصرة؟! وهل الناس جميعاً قانعون بحقّهم المشروع! فمن أعطاهم حقهم حسبوه عادلاً؟!

ممّا لا ريب فيه أنّ الجواب على السؤال الآنف بالنفي، ومع كل الأسف فما يزال الكثيرون يقيسون العدل ويزنون الحق بمعيار المنافع الشخصيّة ولايقنعون بحقوقهم!! ولو قُدّر لأحد أن يوصل إلى جميع الناس حقوقهم المشروعة ولا سيما المحرومين منهم - لتعالى صراخهم وعويلهم!!

فبناءً على ذلك، لا داعي لأن نقلب ونتصفح سجل التاريخ لمعرفة المنافقين. فبنظرة واحدة إلى من حولنا، بل بنظرة إلى أنفسنا، نستطيع أن نميزَ حالنا من حال الآخرين!

اللهم، أحيِي فينا روح الإيمان، وأمت في أنفسنا النفاق وأفكار الشيطان.

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾

التّفسير

موارد صرف الزكاة ودقائقها

في تاريخ صدر الإسلام مرحلتان يمكن ملاحظتهما بوضوح، إحداهما في مكّة، حيث كان هدف النّبي ﷺ والمسلمين فيها تعليم الأفراد وتربيتهم ونشر التعاليم الإسلامية. والثّانية في المدينة، حيث أقدم النّبي ﷺ على تشكيل حكومة إسلاميّة أجرى من خلالها الأحكام والتعاليم الإسلامية.

وممّا لا شك فيه أنّ أوّل وأهم مسألة واجهت تشكيل الحكومة هي إيجاد بيت المال، إذ عن طريقه تُؤمَّن حاجات الدولة الاقتصادية، وهي حاجات طبيعية توجد في كل دولة بدون استثناء، ومن هنا كان إيجاد بيت المال من أوائل أعمال النّبي ﷺ في المدينة، وتشكل الزكاة أحد موارده، وعلى المشهور فإنّ هذا الحكم شُرّع في السنة الثّانية للهجرة النبوية.

وكما سنشير - بعد حين - إلى إرادة الله وحكمه، فإنّ حكم الزكاة قد نزل من قبل في مكّة، لكن لا على نحو وجوب جمعها في بيت المال، بل كان الناس يؤدونها ذاتياً، أمّا في المدينة فإنّ قانون جباية الزكاة وجمعها في بيت المال قد صدر من الله تعالى في الآية (١٠٣) من سورة التوبة.

إنّ الآية التي نبحثها، والتي نزلت يقيناً بعد آية وجوب الزكاة - وإن لم يسبق لها ذكر في القرآن الكريم - تبيّن الموارد المختلفة التي تصرف فيها الزكاة. وممّا يلفت النظر أنّ الآية بدأت بكلمة (إنّما) الدالّة على الحصر، وهي توحي بأنّ بعض الأفراد الأنانيين أو المغفلين كانوا يطمعون في أن يحصلوا على نصيب من الزكاة بدون أي وجه لاستحقاقهم لها، لكن كلمة (إنّما) ردّت أيديهم في أفواههم. وهذا المعنى تبيّنه الآيتان اللتان سبقت هذه الآية، حيث ذكرت أنّ هؤلاء كانوا يعترضون على النّبي ﷺ في عدم إعطائهم شيئاً من الزكاة، ويرضون عنه إذا أعطاهم شيئاً منها.

وعلى أي حال، فإنّ الآية قد بيّنت - بوضوح - الموارد الحقيقية التي تصرف فيها الزّكاة، وأنهت التوقعات غير المنطقية وحددت موارد صرف الزّكاة في ثمانية أصناف:

١ - الفقراء.

٢ - المساكين: وسيأتي البحث في نهاية تفسير الآية عن الفرق بين الفقير والمسكين.

٣ - العاملون عليها: وهم الذين يسعون في جباية الزكاة، وإدارة بيت المال، وما يُعطى لهم هو في الواقع بمنزلة أجرة عملهم، ولهذا لا يشترط فيهم الفقر على أي حال.

٤ - المؤلفة قلوبهم: وهم الذين لا يوجد لديهم الحافز والدافع المعنوي القوي من أجل النهوض بالأهداف الإسلامية وتحقيقها، ولكن يمكن استمالتهم بواسطة بذل المال لهم، والاستفادة منهم في الدفاع عن الإسلام وتحكيم دولته، وإعلاء كلمته، وسيأتي توضيح أوسع حول هذا القسم.

٥ - في الرقاب: وهذا يعني أن قسماً من الزكاة يخصّص لمحاربة العبودية والرق وإنهاء هذه الحالة غير الإنسانية، وكما قلنا في محله فإنّ برنامج الإسلام في معالجة مسألة الرقيق هو اتباع نظام (التحرير التدريجي) الذي ينتهي إلى تحرير جميع العبيد بدون مواجهة ردود فعل اجتماعية غير متوقعة، ويشكّل تخصيص قسم من الزكاة لهذا الموضوع جانباً من هذا البرنامج المتكامل.

٦ - الغارمون: وهم الذين عجزوا عن أداء ديونهم، ولم يكن هذا العجز نتيجة لتقصيرهم.

٧ - في سبيل الله: والمراد منه - كما سنشير إليه في آخر تفسير الآية - جميع السبل التي تؤدّي إلى تقوية ونشر الدين الإلهي، وهي أعم من مسألة الجهاد والتبليغ وأمثالها.

٨ - ابن السبيل: وهم الذين تخلفوا في الطريق لعلة ما، وليس معهم من الزاد والراحلة ما يوصلهم إلى بلدانهم أو إلى الجهة التي يقصدونها، حتى ولو لم يكونوا فقراء في واقعهم، لكنّهم افتقروا الآن نتيجة سرقة أموالهم أو مرضهم أو قلّة أموالهم أو لأسباب أخر، ومثل هؤلاء يجب أن يُعطَوا من الزكاة ما يوصلهم إلى مقصدهم أو بلدهم.

وفي خاتمة الآية نلاحظ التأكيد على صرفها في الجهات السابقة، ولذلك قال سبحانه: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ ولا شك أنّ هذه الفريضة قد حُسبت بصورة دقيقة جدّاً، وبصورة تحفظ مصالح الفرد والمجتمع، لأنّ ﴿ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

بحوث

وهنا أُمور ينبغي ملاحظتها:

١ - الفرق بين الفقير والمسكين

هناك بحث بين المفسّرين في مفهومي الفقير والمسكين، هل أنّ مفهومهما واحد،

وتكرار اللفظين معاً في الآية من باب التأكيد فتصبح موارد صرف الزكاة سبعة لا ثمانية، أم أنّهما لهما معنيان مختلفان؟

أغلب المفسّرين والفقهاء قالوا بالثّاني، لكن وقع البحث حتى بين أنصار هذا القول في تفسير وتحديد مفهوم كل من الكلمتين، والذي يبدو أقرب للنظر، أنّ(الفقير) هو الشخص الذي يعاني من حاجة مالية في حياته ومعاشه مع أنّه يعمل ويكتسب، لكنّه لا يسأل أحداً مطلقاً رغم حاجته لعفته وعزّة نفسه، أمّا (المسكين) فهو أشد حاجة من الفقير، وهو العاجز عن العمل، فهو مضطر لأنّ يستعطي الناس ويسألهم. والدليل على ذلك أنّ الأصل اللغوي لكلمة مسكين مأخوذ من مادة السكون، لأنّ المسكين لشدّة فقره كأنّه سكن وأخلد إلى الأرض.

ثمّ إنّ ملاحظة استعمال الكلمتين في مواضع متعددة من القرآن يؤيد هذا الرأي، فمثلاً: نقرأ في الآية (١٦) من سورة البلد: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ وفي الآية (٤) من سورة النساء: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُولُوا ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم﴾ ويُفهم من هذا التعبير أنّ المراد بالمساكين هم الذين يسألون ويستعطون إذا حضروا مثل هذه المواضع.

وفي الآية (٢٤) من سورة القلم نقرأ: ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾ وهي إشارة إلى السائلين.

وكذلك التعبير بـ(إطعام مسكين) أو (طعام مسكين)، فإنّه يوحي بأنّ المساكين هم الجياع الذين يحتاجون إلى الطعام، في حين أنّنا نستطيع أن نفهم بوضوح - من خلال بعض الآيات القرآنية التي وردت فيها كلمة الفقير - أنّ المراد من الفقراء هم أفراد محتاجون للمال لكنّهم لحفظ ماء الوجه ولعزة أنفسهم لا يسألون الناس مطلقاً، كما تبين ذلك الآية (٢٧٣) من سورة البقرة: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾.

وبعد كل هذا ففي رواية رواها محمّد بن مسلم عن الإمام الصادق أو الإمام الباقر عليه السلام، أنّه سأله عن الفقير والمسكين فقال: «الفقير الذي لا يسأل، والمسكين الذي هو أجهد منه، الذي يسأل»[1]. وبهذا المضمون وردت رواية عن أبي بصير عن الصادق عليه السلام، وكلتاهما صريحتان في المعنى السابق.

---

(١) وسائل الشيعة، ج ٦، ص ١٤٤، باب ١ من أبواب مستحقي الزكاة، ح ٢.

ونذكّر هنا بأنّ قسماً من القرائن قد يظهر منه أحياناً خلاف ما قلناه، إلاّ أنّنا إذا نظرنا إلى مجموع القرائن اتّضح أنّ الحق ما قلناه.

٢ - هل يجب تقسيم الزّكاة إلى ثمانية أجزاء متساوية؟

يعتقد بعض المفسّرين والفقهاء أنّ ظاهر الآية يدلّ على وجوب تقسيم الزكاة إلى ثمانية أجزاء متساوية، وصرف كل جزء في مورده الخاص إلاّ أن يكون مقدار الزكاة من القلّة بحيث لا يمكن تقسيمه إلى ثمانية أقسام.

أمّا الأكثرية الساحقة من الفقهاء فقد ذهبوا إلى أن ذكر الأصناف الثمانية في الآية يبيّن جواز صرف الزكاة في هذه الموارد، لا أنّه يجب تقسيم الزكاة إلى ثمانية أجزاء. والسيرة الثابتة للنبي ﷺ وأئمّة أهل البيت عليهم السلام تؤيّد هذا المعنى، إضافة إلى أنّ الزكاة إحدى الضرائب الإسلامية، والحكومة الإسلامية هي المسؤولة عن جبايتها من الناس، والهدف من تشريعها هو تأمين الحاجات المختلفة للمجتمع الإسلامي.

أمّا كيفية صرف الزكاة في هذه الموارد الثمانية، فإنّه يرتبط بالضرورات الاجتماعية من جهة، وبرأي ووجهة نظر الحكومة الإسلامية من جهة أُخرى.

٣ - متى شُرعت الزّكاة؟

يستفاد من الآيات القرآنية المختلفة - ومن جملتها الآية (١٥٦) من سورة الأعراف، والآية ٣ من سورة النمل، والآية ٤ من سورة لقمان، والآية ٧ من سورة فصلت، وكلها سور مكّية - أن حكم وجوب الزكاة نزل في مكّة، وكان المسلمون ملزمين بأدائها كواجب شرعي، لكن لما قدم النبي ﷺ إلى المدينة وأسس الدولة الإسلامية، وكان لابدّ من إيجاد بيت المال، أمره الله سبحانه بأن يأخذ الزكاة من الناس بنفسه - لا أنّهم يصرفون الزكاة بأنفسهم حسب ما يرونه - فنزلت الآية (١٠٣) من سورة التوبة: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾.

والمشهور أنّ ذلك كان في السنة الثّانية للهجرة، ثمّ بيّنت الآية التي نبحثها - الآية (٦٠) من سورة التوبة - موارد صرف الزكاة بصورة دقيقة، ولا ينبغي التعجب من أن تشريع أخذ الزكاة في الآية (١٠٣)، وبيان موارد صرفها - والذي يقال إنّه نزل في السنة التاسعة للهجرة - في الآية (٦٠)، لأنا نعلم أن آيات القرآن لم تجمع وترتب حسب تأريخ نزولها، بل بأمر النّبي ﷺ، حيث أمر بوضع كل آية في مكانها المناسب.

٤ - من هم المقصودون بـ ﴿وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾؟

الذي يُفهم من تعبير ﴿وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ أن أحد موارد صرف الزكاة هم الأفراد الذين يراد استمالتهم وجلب محبّتهم بالزكاة، لكن هل المراد منهم الكفّار الذين يمكن الاستعانة بهم في أمر الجهاد ببذل الزكاة لهم، أم يدخل معهم المسلمون ضعيفو الإيمان؟

وكما قلنا في المباحث الفقهية، فإنّ لهذه الآية، وكذلك للروايات الواردة في هذا الموضوع مفهوماً واسعاً، ولهذا فإنّها تشمل كل من يمكن استمالته من أجل نفع وتحكيم الإسلام، ولا دليل على تخصيصها بالكفّار.

٥ - دور الزّكاة في الإسلام

إذا علمنا أنّ الإسلام هو مذهب أخلاقي أو فلسفي أو عقائدي بحت، بل ظهر إلى الوجود كدين وقانون كامل وشامل عولجت فيه كل الحاجات المادية والمعنوية في الحياة، وكذلك إذا علمنا أن تشكيل وتأسيس الدولة الإسلامية قد لازم ظهور الإسلام منذ عصر النّبي الأكرم ﷺ، وإذا علمنا أنّ الإسلام يهتم اهتماماً خاصّاً بنصرة المحرومين ومكافحة الطبقية في المجتمع اتضح لنا أنّ دور بيت المال والزكاة التي تشكل أحد موارده، من أهم الأدوار.

لا شك أنّ في كل مجتمع أفراداً عاجزين عن العمل، مرضى، يتامى، معوقين، وأمثالهم، وهؤلاء يحتاجون حتماً إلى من يحميهم ويرعاهم ويقوم بشؤونهم، وكذلك يحتاج هذا المجتمع إلى جنود مضحين من أجل حفظ وجوده وكيانه، أمّا مصاريف هؤلاء الجنود ونفقاتهم فإنّ الدولة هي التي تلتزم بتأمينها ودفعها إليهم، وكذلك العاملون في الدولة الإسلامية، الحكام والقضاة، ووسائل الإعلام والمراكز الدينية وغيرها، فكل قسم من هذه الأقسام يحتاج إلى ميزانية خاصّة ومبالغ طائلة لا يمكن تهيئتها دون أن يكون هناك نظام مالي محكم منظم.

وعلى هذا الأساس أولى الإسلام الزكاة - التي تعتبر في الحقيقة نوعاً من الضرائب على الإنتاج والأرباح، وعلى الأموال الراكدة - اهتماماً خاصاً، حتى أنّه اعتبرها من أهم العبادات، وقد ذكرت - جنباً إلى جنب - مع الصلاة في كثير من الموارد، بل إنّه اعتبرها شرطاً لقبول الصلاة.

وأكثر من هذا إنّنا نقرأ في الرّوايات الإسلامية أنّ الدولة الإسلامية إذا طلبت الزكاة من شخص أو أشخاص وامتنع هؤلاء من ذلك فسوف يحكم بارتدادهم، وإذا لم تنفع النصيحة معهم ولم تؤثر الموعظة فيهم، فإنّ الاستعانة بالقوّة العسكرية لمقابلتهم أمر جائز.

وفي رواية عن الإمام الصادق عليه السلام: «من منع قيراطاً من الزكاة فليس هو بمؤمن، ولا مسلم، ولا كرامة»(١).

وممّا يلفت النظر أنّ الرّوايات قد أظهرت أن تعين الزكاة بهذا المقدار يبيّن دقة حسابات الإسلام، فإنّ المسلمين جميعاً لو أدّوا زكاة أموالهم بصورة دقيقة وكاملة فسوف لن يبقى فقير أو محروم في كافة أنحاء البلاد الإسلامية. ففي رواية عن الصادق عليه السلام: «ولو أنّ الناس أدّوا زكاة أموالهم ما بقي مسلم فقيراً محتاجاً... وإن الناس ما افتقروا، ولا احتاجوا، ولا جاعوا، ولا عروا إلاّ بذنوب الأغنياء»(٢).

وكذلك يفهم من الرّوايات أنّ أداء الزكاة سبب لحفظ أصل الملك والأموال وتحكيم أسسها، بحيث إنّ الناس إذا أهملوا تطبيق هذا الأصل الإسلامي المهم فإنّ الفاصلة والتفاوت بين الطبقات سيصل إلى حدٍّ يعرض أموال الأغنياء إلى الخطر.

في حديث عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: «حَصّنوا أموالكم بالزكاة»(٣). وبهذا المضمون نقلت روايات أُخرى عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم وأمير المؤمنين عليه السلام.

ولمزيد الاطلاع على هذه الأحاديث راجع الأبواب: الأوّل والثّالث والرّابع والخامس من أبواب الزكاة من المجلد السّادس من وسائل الشيعة.

٦ - ما الفرق بين العطف بـ«اللام» أو «في»؟

النقطة الأخيرة التي ينبغي الالتفات إليها، هي أنّ في الآية التي نبحثها أربعة أقسام ذكرت معطوفة على حرف اللام: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ﴾، وهذا التعبير عادة يفيد الملكية. أمّا الأقسام الأربعة الأُخرى فقد سبقها حرف

(١) وسائل الشيعة، ج ٦، ص ٢٠، باب ٤، حديث ٩.
(٢) وسائل الشيعة، ج ٦، ص ٤، باب ١ من أبواب الزكاة حديث ٦.
(٣) وسائل الشيعة، ج٦، ص ٦، باب ١، من أبواب الزكاة، حديث ١١.

﴿فِي﴾ : ﴿وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾، وهذا التعبير عادة يُستعمل لبيان مورد الصرف[١].

هناك بحث ونقاش بين المفسّرين في سبب اختلاف التعبير، فالبعض يعتقد أنّ الأصناف الأربعة الأُولى يملكون الزكاة، أمّا الأصناف الأربعة الأُخرى فإنّهم لا يملكونها، بل إنّ الزكاة يجوز أن تصرف فيهم.

والبعض الآخر يعتقد أنّ الاختلاف في التعبير يشير إلى مسألة أُخرى، وهي أنّ الطائفة الثّانية أكثر استحقاقاً للزكاة، لأن كلمة (في) لبيان الظرفية، لهذا فإنّ هذه المجموعة الرباعية تمثل محتوى ومصرف الزكاة، والزكاة وعاء لها، في حين أنّ المجموعة الأُولى ليست كذلك.

لكننا نحتمل ونرجح احتمالاً آخر، وهو أنّ الستة أقسام - وهم: الفقراء والمساكين والعاملون عليها والمؤلفة قلوبهم والغارمون وابن السبيل - التي لم تذكر قبلها ﴿فِي﴾ متساوون وقد عطفت على بعضها البعض، أمّا القسمان الآخران - وهما في الرقاب وفي سبيل الله -.

اللذان عطفا بكلمة (في) فإنّ لهما وضعاً خاصاً، وربّما كان السبب في اختلاف التعبير من جهة إمكان تملك الزكاة من قبل الأصناف الستة، ويمكن أداء الزكاة إليهم (حتى المدينين والعاجزين عن أداء ديونهم، لكن بشرط الاطمئنان إلى أنّ هؤلاء يصرفونها في سداد ديونهم).

أمّا الصنفان الآخران فلا يملكون الزكاة، ولا يمكن دفع الزكاة إليهم، بل تصرف في جهتهم، فمثلاً يجب شراء العبيد وتحريرهم عن طريق الزكاة، ومن الواضح أنّهم لا يملكون الزكاة في هذه الحالة، بل صرفت الزكاة في جهة تحريرهم، وكذلك الحال بالنسبة إلى الموارد التي تندرج تحت عنوان: ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ كنفقات الجهاد، وإعداد الأسلحة، أو بناء المساجد والمراكز الدينية، وأمثال هذه المفردات لا تملك الزكاة بل إنّها مورد لصرف الزكاة.

وعلى أي حال، فإنّ التفاوت والاختلاف في التعبير يوضح الدقة المتناهية في التعبيرات القرآنية.

---

(١) ينبغي الانتباه إلى أنّ ﴿فِي﴾ قد ذكرت صريحاً في موردين، وعُطف على مجرور ﴿فِي﴾ في موردين، كما أنّ اللام قد ذكرت في مورد واحد، وعطف الباقي عليها.

﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١)﴾

سبب النّزول

هذا حسن لا قبيح!

ذكرت عدّة أسباب متباينة لنزول الآية المذكورة ومنها أنّ الآية نزلت في جماعة من المنافقين كانوا يذكرون النّبي ﷺ بسوء، فنهاهم أحدهم وقال: لا تتحدثوا بهذا الحديث لئلا يصل إلى سمع محمّد فيذكرنا بسوء ويؤلب الناس علينا، فقال له أحدهم - واسمه جلاس -: لا يهمّنا ذلك، فنحن نقول ما نريد، وإذا بلغه ما نقول سنحضر عنده وننكر ما قلناه، وسيقبل ذلك منّا فإنّه سريع التصديق لما يقال له، ويقبل كل ما يقال من كل أحد، فهو أُذُن، فنزلت الآية وأجابتهم[1].

التّفسير

تتحدّث الآية - كما يفهم من مضمونها - عن فرد أو أفراد كانوا يؤذون النّبي ﷺ بكلامهم ويقولون إنّه أذن ويصدّق كل ما يقال له سريعاً: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾.

«الأذن» في الأصل تطلق على الجزء الظاهر من الحاسة السامعة (الصيوان)، لكنّها تطلق على الأفراد الذين يصغون كثيراً لكلام الناس أو كما يقال: سَمّاع.

هؤلاء المنافقون اعتبروا هذه الصفة - والتي هي سمة إيجابية للنّبي ﷺ، والتي يجب توفرها في أي قائد كامل - نقطة ضعف في سيرته ومعاملته ﷺ، وكأنّهم غفلوا عن أنّ القائد إذا أراد أن يحبّه الناس لابدّ أن يظهر لهم كل محبّة ولطف، وأن يقبل عذر المعتذر ما أمكن، ويستر على عيوبهم، (إلاّ أن تكون هذه الصفة الحميدة سبباً لاستغلالها من قبل البعض).

---

(١) تفسير الميزان، ج ٩، ص ٣٢٣؛ بحار الأنوار، ج ٢٢، ص ٩٥، ح ٤٨.

من هنا نلاحظ أنّ القرآن قد ردّهم مباشرة، وأمر النّبي ﷺ أن يقول لهم بأنّه إذا كان يصغي لكلامكم، ويقبل أعذاركم، أو كما تظنون بأنّه أُذن، فإنّ ذلك في مصلحتكم ولمنفعتكم ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾، فإنّه بذلك يحفظ ماء وجوهكم وشخصيتكم، ولا يجرح شعوركم وعواطفكم، وبذلك - أيضاً - يسعى لحفظ وحدتكم واتحادكم ومودتكم، ولو أراد أن يرفع الستار عن أفعالكم القبيحة، ويفضح الكاذبين على رؤوس الأشهاد، لضرّكم ذلك وشق عليكم، وافتضح عدّة منكم، وعندها سيُغلق أمامهم باب التوبة ممّا يؤدّي إلى توغلهم في الكفر والابتعاد عن النّبي ﷺ بعد أن كان من المحتمل هدايتهم.

إنّ القائد الرحيم والمحنّك يجب أن يكون مطّلعاً على كل شيء، لكن لا ينبغي له أن يجابه أفراده بأُمورهم الخاصّة والمجهولة عند الآخرين حتى يتربى من لهم الاستعداد والقابلية وتبقى أَسرار الناس في طي الكتمان.

ويحتمل في تفسير الآية أن يراد معنى آخر، وهو أنّ الله سبحانه وتعالى يقول في جواب هؤلاء الذين يعيبون على النّبي ﷺ إصغاءه للآخرين: ليس الأمر كما تظنون بأنّه يسمع كل ما يقال له، بل إنّه يصغي إلى الكلام الذي فيه نفعكم، أي إنّه يسمع الوحي الإلهي، والاقتراح المفيد، ويقبل اعتذار الأفراد إذا كان هذا القبول في صالح المعتذرين والمجتمع[(١)].

ومن أجل أن لا يستغل المتتبعون لعيوب الناس ذلك، ولا يجعلون هذه الصفة وسيلة لتأكيد كلامهم، أضاف الله تعالى أنّ النّبي ﷺ يؤمن بالله ويطيع أوامره، ويصغي إلى كلام المؤمنين المخلصين، ويقبله ويرتب عليه الأثر، ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، وهذا يعني أنّ النّبي ﷺ كان له طريقان وأسلوبان في عمله:

أحدهما: الحفاظ على الظاهر والحيلولة دون هتك الأستار وفضح أسرار الناس.

والثّاني: في مرحلة العمل، فقد كان ﷺ في البداية يسمع من كل أحد، ولا ينكر على أحد ظاهراً، أمّا في الواقع العملي فإنّه لا يعتني ولا يقبل إلاّ أوامر الله واقتراحات

---

(١) في الحقيقة، بناء على التفسير الأوّل فإنّ ﴿أُذُنُ خَيْرٍ﴾ التي هي مضاف ومضاف إليه من قبيل إضافة الموصوف إلى الصفة، وعلى التفسير الثّاني فهي من قبيل إضافة الوصف إلى المفعول، فعلى الاحتمال الأوّل يكون المعنى، إنّه إنسان يقبل الكلام وهو خير لكم، وعلى الاحتمال الثّاني فالمعنى: إنّه يسمع الكلام المفيد الذي ينفعكم، لا أنّه يسمع كل كلام.

وكلام المؤمنين المخلصين، والقائد الواقعي يجب أن يكون كذلك فإن تأمين مصالح المجتمع لا يتم إلاّ عن هذا الطريق، لذلك عبر عنه بأنّه رحمة للمؤمنين ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

ويمكن أن يطرح هنا سؤال، وهو أننا نلاحظ في بعض الآيات التعبير عن النّبي ﷺ بأنّه ﴿رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾(١)، لكننا نقرأ هنا أنّه رحمة للمؤمنين، فهل يتطابق ذلك العموم مع هذا التخصيص؟

إلاّ أنّنا إذا لاحظنا نقطة دقيقة سيتّضح جواب هذا السؤال، وهي أنّ للرحمة درجات ومراتب متعددة، فإحداها مرتبة (القابلية والاستعداد)، والأُخرى (الفعلية).

فمثلاً: المطر رحمة إلهية، أي أنّ هذه القابلية واللياقة موجودة في كل قطرات المطر، فهي منشأ الخير والبركة والنمو والحياة، لكن من المسلّم أنّ آثار هذه الرحمة لا تظهر إلاّ في الأراضي المستعدّة، وعلى هذا فإنّه يصح قولنا: إنّ جميع قطرات المطر رحمة، كما يصح قولنا: إنّ هذه القطرات أساس الرحمة في الأراضي التي لها القابلية والاستعداد لتقبل هذه الرحمة، فالجملة الأُولى إشارة إلى مرحلة (الاقتضاء والقابلية)، والجملة الثّانية إشارة إلى مرحلة (الوجود والفعل)، وعلى هذا فإنّ النّبي ﷺ أساس الرحمة لكل العالمين بالقوة، أمّا بالفعل فهو مختص بالمؤمنين.

بقي هنا شيء واحد، وهو أنّ هؤلاء الذين يؤذون النّبي ﷺ بكلامهم ويتتبعون أحواله لعلّهم يجدون عيباً يشهّرون به يجب أن لا يتصوروا أنّهم سوف يبقون بدون جزاء وعقاب، فصحيح أن النّبي ﷺ مأمور، ومن واجبه - كقائد - أن يقابل هؤلاء برحابة صدر ولايفضحهم، لكن هذا لا يعني أنّهم سوف يبقون بدون جزاء، ولهذا قال تعالى في نهاية الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾

(١) [illegible]

سبب النّزول

يُستفاد من أقوال بعض المفسّرين أنّ الآيتين المذكورتين مكملتان للآية السابقة، ومن الطبيعي أن يكون سبب نزولها نفس السبب السابق، إلاّ أنّ جمعاً آخر من المفسّرين ذكر سبباً آخر لنزول هاتين الآيتين، وهو أنّه لما نزلت الآيات التي ذمت المتخلفين عن غزوة تبوك ووبختهم قال أحد المنافقين: أقسم بالله أنّ هؤلاء أشرافنا وأعياننا، فإن كان ما يقوله محمّد حقّاً فإنّ هؤلاء أسوأ حالاً من الدواب، فسمعه أحد المسلمين وقال: والله إنّ ما يقوله لحق، وإنّك أسوأ من الدابّة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فبعث إلى ذلك المنافق فأُحضر، فسأله عن سبب قوله ذلك الكلام، فحلف أنّه لم يقل ذلك، فقال الرجل المؤمن الذي كان طرفاً في خصومة الرجل وأبلغ كلامه لرسول الله: اللّهم صدّق الصادق وكذّب الكاذب. فنزلت الآيتان أعلاه[1].

التّفسير

المنافقون والتظاهر بالحق

إنّ إحدى علامات المنافقين وأعمالهم القبيحة والتي أشار إليها القرآن مراراً هي إنكارهم الأعمال القبيحة والمخالفة للدين والعرف، وهم إنّما ينكرونها من أجل التغطية على واقعهم السيّىء وإخفاء الصورة الحقيقية لهم، ولما كان المجتمع يعرفهم ويعرف كذبهم في هذا الإنكار فقد كانوا يلجؤون إلى الأيمان الكاذبة من أجل مخادعة الناس وإرضائهم.

وفي الآيات السابقة الذكر نرى أنّ القرآن المجيد يكشف الستار عن هذا العمل القبيح ليفضح هؤلاء من جهة، ويحذّر المسلمين من تصديق الأيمان الكاذبة من جهة أُخرى.

في البداية يخاطب القرآن الكريم المسلمين وينبههم إلى أنّ هدف هؤلاء من القَسَم هو إرضاؤكم ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾، ومن الواضح إذن أن هدف هؤلاء من هذه الأيمان لم يكن بيان الحقيقة، بل إنّهم يسعون عن طريق المكر والخديعة إلى أن يصوروا لكم الأشياء والواقع على غير صورته الحقيقية، ويصلون عن هذا الطريق إلى مقاصدهم، وإلاّ فلو كان هدفهم هو إرضاء المؤمنين الحقيقيين عنهم، فإنّ إرضاء الله

(١) بحار الأنوار، ج ٢٢، ص ٣٩؛ تفسير مجمع البيان، ذيل الآيات مورد البحث.

ورسوله أهم من إرضاء المؤمنين، غير أنا نرى أنّهم بأعمالهم هذه قد أسخطوا الله ورسوله، ولذا عقبت الآية فقالت: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

ممّا يلفت النظر أن الجملة المذكورة لما كانت تتحدث عن الله ورسوله، فعلى القاعدة النحوية ينبغي أن يكون الضمير في «يرضوه» ضمير التثنية غير أنّ المستعمل هنا هو ضمير المفرد، وهذا الاستعمال والتعبير يشير إلى أنّ رضا النّبي ﷺ من رضا الله. بل إنّه لا يرتضي من الأعمال إلاّ ما يرتضيه الله سبحانه، وبعبارة أُخرى: فإنّ هذا التعبير يشير إلى حقيقة (توحيد الأفعال)، لأنّ النّبي الأكرم ﷺ لا يملك استقلالية العمل في مقابل الله، بل إن غضبه ورضاه وكل أعماله تنتهي إلى الله، فكل شيء من أجل الله وفي سبيله.

روي أنّ رجلاً في زمن النّبي ﷺ قال ضمن كلامه: من أطاع الله ورسوله فقد فاز، ومن عصاهما فقد غوى. فلما سمع النّبي ﷺ كلامه غضب - حيث إنّ الرجل ذكر الله ورسوله بضمير التثنية فكأنّه جعل الله ورسوله في درجة واحدة - وقال: «بئس الخطيب أنت، هلا قلت: ومن عصى الله ورسوله»[1]؟!

وفي الآية الثّانية نرى أنّ القرآن يهدد المنافقين تهديداً شديداً، فقال: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ ومن أجل أن يؤكّد ذلك أضاف تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾.

﴿يُحَادِدِ﴾ مأخوذ من (المحادّة) وأصلها (حدّ)، ومعناها نهاية الشيء وطرفه، ولما كان الأعداء والمخالفون يقفون في الطرف الآخر المقابل، لذا فإن مادة (المحادّة) قد وردت بمعنى العداوة أيضاً، كما نستعمل كلمة (طرف) في حياتنا اليومية ونريد منها المخالفة والعداوة.

﴿يَحْذَرُ الْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ اسْتَهْزِءُوٓا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾

---

(١) تفسير روح الجنان، ذيل الآية مورد البحث؛ تفسير القرطبي، ج ١٤، ص ٢٣٢.

سبب النّزول

ذكرت عدّة أسباب لنزول هذه الآيات، وكلّها ترتبط بأعمال المنافقين بعد غزوة تبوك. فمن جملتها: إنّ جمعاً من المنافقين كانوا قد اجتمعوا في مكان خفي وقرّروا قتل النّبي ﷺ عند رجوعه من غزوة تبوك، وكانت خطتهم أن ينصبوا كميناً في إحدى عقبات الجبال الصعبة، وعندما يمر النّبي ﷺ من تلك العقبة يُنفرون بعيره، فأطلع الله نبيّه على ذلك، فأمر جماعة من المسلمين بمراقبة الطريق والحذر، فلمّا وصل النّبي ﷺ إلى العقبة - وكان عمار يقود الدابّة وحذيفة يسوقها - اقترب المنافقون متلثّمين لتنفيذ مؤامرتهم، فأمر النّبي ﷺ حذيفة أن يضرب وجوه دوابهم ويدفعهم، ففعل حذيفة ذلك(١).

فلمّا جاوز النّبي ﷺ العقبة - وقد زال الخطر - قال لحذيفة: هل عرفتهم؟ فقال: لم أعرف أحداً منهم، فعرّفه رسول الله ﷺ بهم، فقال حذيفة: ألا ترسل إليهم من يقتلهم؟ فقال: «إني أكره أن تقول العرب: إنّ محمّداً لما انقضت الحرب بينه وبين المشركين وضع يده في قتل أصحابه».

وقد نقل سبب النزول هذا عن الإمام الباقر عليه السلام، وجاء أيضاً في العديد من كتب التّفسير والحديث.

وذُكر سبب آخر للنزول وهو: أنّ مجموعة من المنافقين لما رأوا النّبي ﷺ وقد تهيّأ للقتال واصطف أمام الأعداء، قال هؤلاء بسخرية: أيظن هذا الرجل أنّه سيفتح حصون الشام الحصينة ويسكن قصورها، إنّ هذا الشيء محال، فأطلع الله نبيّه على ذلك، فأمر رسول الله ﷺ أن يسدوا عليهم المنافذ والطرق، ثمّ ناداهم ولامهم وأخبرهم بما قالوا، فاعتذروا بأنّهم إنّما كانوا يمزحون وأقسموا على ذلك.

التّفسير

مؤامرة أُخرى للمنافقين

لاحظنا في الآيات السابقة كيف أنّ المنافقين اعتبروا نقاط القوّة في سلوك

(١) بحار الأنوار، ج ٢١، ص ١٩٦، ١٩٧؛ وتفسير مجمع البيان، ذيل الآيات مورد البحث.

النّبي ﷺ نقاط ضعف، وكيف حاولوا استغلال هذه المسألة من أجل بثّ التفرقة بين المسلمين، وفي هذه الآيات إشارة إلى نوع آخر من برامجهم وطرقهم.

فمن الآية الأُولى يستفاد أنّ الله سبحانه وتعالى يكشف الستار عن أسرار المنافقين أحياناً، وذلك لدفع خطرهم عن النّبي ﷺ وفضحهم أمام الناس ليعرفوا حقيقتهم، ويحذروهم وليعرف المنافقون موقع اقدامهم ويكفّوا عن تآمرهم، ويشير القرآن إلى خوفهم من نزول سورة تفضحهم وتكشف خبيئة أسرارهم فقال: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾.

إلاّ أنّ العجيب في الأمر أن هؤلاء ولشدة حقدهم وعنادهم لم يكفّوا عن استهزائهم وسخريتهم، لذلك تضيف الآية: بأنّهم مهما سخروا من أعمال النّبي ﷺ فإنّ الله لهم بالمرصاد وسوف يظهر خبيث أسرارهم ويكشف عن دنيء نيّاتهم، فقال: ﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾.

تجدر الإشارة إلى أنّ جملة ﴿ٱسْتَهْزِءُوٓاْ﴾ من قبيل الأمر لأجل التهديد كما يقول الإنسان لعدوّه: اعمل كل ما تستطيع من أذى وإضرار لترى عاقبة أمرك، ومثل هذه الأساليب والتعبيرات تستعمل في مقام التهديد.

كما يجب الالتفات إلى أنّنا نفهم من الآية بصورة ضمنية أنّ هؤلاء المنافقين يعلمون بأحقيّة دعوة النّبي ﷺ وصدقها، ويعلمون في ضميرهم ووجدانهم ارتباط النّبي ﷺ بالله سبحانه وتعالى، إلاّ أنّهم لعنادهم وإصرارهم بدل أن يؤمنوا به ويسلموا بين يديه، فإنّهم بدأوا بمحاربته وإضعاف دعوته المباركة، ولذلك قال القرآن الكريم: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾.

وينبغي الالتفات إلى أنّ جملة ﴿تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ﴾ لا تعني أنّ أمثال هذه الآيات كانت تنزل على المنافقين، بل المقصود أنّها كانت تنزل في شأن المنافقين وتبيّن أحوالهم.

أمّا الآية الثّانية فإنّها أشارت إلى أُسلوب آخر من أساليب المنافقين، وقالت: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾(١). أي إذا سألتهم عن الدافع لهم

---

(١) خوض على وزن حوض، وهو - كما ورد في كتب اللغة - بمعنى الدخول التدريجي في الماء، ثمّ أطلقت على الدخول في مختلف الأعمال من باب الكناية، إلاّ أنّها جاءت في القرآن غالباً بمعنى الدخول أو الشروع بالأعمال أو الأقوال القبيحة البذيئة.

على هذه الأعمال المشينة قالوا: نحن نمزح وبذلك ضمنوا طريق العودة، فهم من جهة كانوا يخططون المؤامرات، ويبثون السموم، فإذا تحقق هدفهم فقد وصلوا إلى مآربهم الخبيثة، أمّا إذا افتضح أمرهم فإنّهم سيتذرّعون ويعتذرون بأنّهم كانوا يمزحون، وعن هذا الطريق سيتخلصون من معاقبة النّبي ﷺ والناس لهم.

إنّ المنافقين في أي زمان، تجمعهم وحدة الخطط، والضرب على نفس الوتر، لذا فلهم نغمة واحدة، وهم كثيراً ما يستفيدون ويتبعون هذه الطرق، بل إنّهم في بعض الأحيان يطرحون أكثر المسائل جدية لكن بلباس المزاح الساذج البسيط، فإن وصلوا إلى هدفهم وحققوه فهو، وإلاّ فإنّهم يفلتون من قبضة العدالة بحجّة المزاح.

غير أنّ القرآن الكريم واجه هؤلاء بكل صرامة، وجابههم بجواب لا مفرّ معه من الإذعان للواقع، فأمر النّبي ﷺ أن يخاطبهم: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾، أي إنّه يسألهم: هل يمكن المزاح والسخرية حتى بالله ورسوله وآيات القرآن؟!

هل إنّ هذه المسائل التي هي أدق الأُمور وأكثرها جدية قابلة للمزاح؟!

هل يمكن إخفاء قضية تنفير البعير وسقوط النّبي ﷺ من تلك العقبة الخطيرة، والتي تعني الموت، تحت عنوان ونقاب المزاح؟ أم أنّ السخرية والاستهزاء بالآيات الإلهيّة وإخبار النّبي بالانتصارات المستقبلية من الأُمور التي يمكن أن يشملها عنوان اللعب؟ كل هذه الشواهد تدل على أنّ هؤلاء كان لديهم أهداف خطيرة مستترة خلف هذه الأستار والعناوين.

ثمّ يأمر القرآن النّبي ﷺ أن يقول للمنافقين بصراحة: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟﴾، والسبب في ذلك أنّكم ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾، فهذا التعبير يُشعر أن هذه الفئة لم تكن منذ البداية في صف المنافقين، بل كانوا مؤمنين لكنّهم ضعيفو الإيمان، بعد هذه الحوادث الآنفة الذكر سلكوا طريق الكفر.

ويحتمل أيضاً في تفسير العبارة أعلاه أن هؤلاء كانوا منافقين من قبل، إلاّ أنّهم لم يظهروا عملاً مخالفاً، فإنّ النّبي ﷺ والمسلمين كانوا مكلّفين أن يعاملوهم كأفراد مؤمنين، لكن لما رفع النقاب بعد أحداث غزوة تبوك، وظهر كفرهم ونفاقهم أُعلِم هؤلاء بأنّهم لم يعودوا من المؤمنين.

واختتمت الآية بهذه العبارة: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟

مُجْرِمِينَ﴾ فهي تبيّن أنّ طائفة قد استحقت العذاب نتيجة الذنوب والمعاصي، وهذا دليل على أنّ أفراد الطائفة الأُخرى إنّما شملهم العفو الإلهي لأنّهم غسلوا ذنوبهم ومعاصيهم بماء التوبة من أعماق وجودهم.

وفي الآيات القادمة - كالآية ٧٤ - قرينة على هذا المبحث.

وقد وردت روايات عديدة في ذيل الآية، تبيّن أنّ بعض هؤلاء المنافقين الذين مرّ ذكرهم في هذه الآيات قد ندموا على ما بدر منهم من أعمال منافية للدين والأخلاق فتابوا، غير أنّ البعض الآخر قد بقي على مسيرته حتى النهاية(١).

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾

التّفسير

علامات المنافقين

البحث في هذه الآيات يدور كالسابق حول سلوك المنافقين وعلاماتهم وصفاتهم، فالآية الأُولى من هذه الآيات تشير إلى أمر كلّي، وهو أنّ روح النفاق يمكن أن تتجلّى

(١) ولمزيد من التوضيح والاطلاع راجع: تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٢٣٩.

بأشكال مختلفة وتبدو في صور متفاوتة بحيث لا تلفت النظر في أوّل الأمر، خصوصاً أنّ روح النفاق هذه يمكن أن تختلف بين الرجل والمرأة، لكن يجب أن لا يُخدع الناس بتغيير صور النفاق بين المنافقين، فالمنافقون يشتركون في مجموعة من الصفات تعتبر العامل المشترك فيما بينهم، لذلك يقول الله سبحانه: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ﴾.

وبعد ذلك يشرع القرآن الكريم في ذكر خمس صفات لهؤلاء:

الأُولى والثّانية: إنّهم يدعون الناس إلى فعل المنكرات ويرغبونهم فيها من جهة، ويُبعدونهم وينهونهم عن فعل الأعمال الصالحة من جهة أُخرى ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي إنّهم يسلكون طريقاً ويتّبعون منهاجاً هو عكس طريق المؤمنين تماماً، فإنّ المؤمنين يسعون دائماً - عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - إلى أن يصلحوا المجتمع وينقوه من الشوائب والفساد، بينما يسعى المنافقون إلى إفساد كل زاوية في المجتمع واقتلاع جذور الخير والأعمال الصالحة من بين الناس من أجل الوصول إلى أهدافهم المشؤومة، ولا شك أنّ وجود مثل هذا المحيط الفاسد والبيئة الملوّثة ستساعدهم كثيراً في تحقيق أهدافهم.

الثّالثة: إنّ هؤلاء بخلاء لا يتمتعون بروح الخير للناس فلا ينفقون في سبيل الله، ولا يعينون محروماً، ولا يستفيد أقوامهم ومعارفهم من أموالهم، فعبّر عنهم القرآن: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ﴾ ولا شك أنّ هؤلاء إنّما يبخلون بأموالهم لأنّهم لا يؤمنون بالآخرة والثواب والجزاء المضاعف لمن أنفق في سبيل الله، بالرغم من أنّهم كانوا يبذلون الأموال الطائلة من أجل الوصول إلى أغراضهم وآمالهم الشريرة الدنيئة، وربّما بذلوها رياءً وسمعة، لكنّهم لا يقدمون على البذل على أساس الإخلاص لله سبحانه وتعالى.

الرّابعة: إنّ كل أعمالهم وأقوالهم وسلوكهم توضح أن هؤلاء قد نسوا الله، والوضع الذي يعيشونه يبيّن أنّ الله قد نسيهم في المقابل، وبالتالي فإنّهم قد حُرموا من توفيق الله وتسديده ومواهبه السنية، أي إنّه سبحانه قد عاملهم معاملة المنسيين، وآثار وعلامات هذا النسيان المتقابل واضحة في كل مراحل حياتهم، وإلى هذا تشير الآية: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۚ﴾.

وهنا نودّ الإشارة إلى أنّ نسبة النسيان إلى الله جلّ وعلا ليست نسبة واقعية وحقيقية - كما هو المعلوم بديهة - بل هي كناية عن معاملة لهؤلاء معاملة الناسي، أي إنّه لا يشملهم برحمته وتوفيقه لأنّهم نسوه في البداية، ومثل هذا التعبير متداول حتى في الحياة

اليومية بين الناس، فقد نقول لشخص مثلاً: إنّنا سوف ننساك عند إعطاء الأجرة أو الجائزة لأنّك قد نسيت واجبك، وهذا تعبير يعني أنّنا سوف لا نعطيه أجره ومكافأته. وهذا المعنى ورد كثيراً في روايات أهل البيت عليهم السلام (١).

وممّا ينبغي الالتفات إليه أنّ موضوع نسيان الله تعالى قد عطف بفاء التفريع على نسيان هؤلاء القوم، وهذا يعني أنّ نتيجة نسيان هؤلاء لأوامر الله تعالى وطغيانهم وعصيانهم هي حرمانهم من مواهب الله ورحمته وعنايته.

الخامسة: إنّ المنافقين فاسقون وخارجون من دائرة طاعة أوامر الله سبحانه وتعالى، وقالت الآية: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

ونلاحظ أنّ هذه الصفات المشتركة متوفرة في المنافقين في كل الأعصار. فمنافقو عصرنا الحاضر وإن تلبسوا بصور وأشكال جديدة، إلاّ أنّهم يتحدون في الصفات والأُصول المذكورة أعلاه مع منافقي العصور الغابرة، فإنّهم كسابقيهم يدعون الناس إلى الفساد ويرغبونهم فيه، وينهون الناس عن فعل الخير ويمنعونهم إن استطاعوا، وكذلك في بخلهم وإمساكهم وعدم إنفاقهم، وبعد كل ذلك فإنّهم يشتركون في الأصل الأهم، وهو أنّهم قد نسوا الله سبحانه وتعالى في جميع مراحل حياتهم، وتعديهم على قوانينه وفسقهم. وممّا يثير العجب أنّ هؤلاء بالرغم من كل هذه الصفات القبيحة السيئة يدّعون الإيمان بالله والاعتقاد الرصين بأحكام الدين الإسلامي وأُصوله ومناهجه!

في الآية التي تليها نلاحظ الوعيد الشديد والإنذار بالعذاب الأليم والجزاء الذي ينتظر هؤلاء حيث تقول: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ وأنّهم سيخلدون في هذه النّار المحرقة ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ وأنّ هذه المجازاة التي تشمل كل أنواع العذاب والعقوبات تكفي هؤلاء، إذ ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ وبعبارة أُخرى: إنّ هؤلاء لا يحتاجون إلى عقوبة أُخرى غير النّار، حيث يوجد في نار جهنم كل أنواع العذاب: الجسمية منها والروحية.

وتضيف الآية في خاتمتها أنّ الله تعالى قد أبعد هؤلاء عن ساحة رحمته وجازاهم بالعذاب الأبدي ﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾، بل إنّ البعد عن الله تعالى يعتبر بحدّ ذاته أعظم وأشد عقوبة وألمها.

(١) راجع تفسير نور الثقلين، ج٢، ص ٢٣٩ - ٢٤٠.

تكرر التاريخ والاعتبار به

من أجل توعية هؤلاء المنافقين، وضعت الآية الآتية مرآة التاريخ أمامهم، ودعتهم إلى ملاحظة حياتهم وسلوكهم ومقارنتها بالمنافقين والعتاة المردة الذين تمردوا على أوامر الله سبحانه وتعالى، وأعطتهم أوضح الدروس وأكثرها عبرة، فذكّرتهم بأنّهم كالمنافقين الماضين ويتبعون نفس المسير وسيلقون نفس المصير: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ علماً أنّ هؤلاء ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾.

وكما أنّ هؤلاء قد تمتعوا بنصيبهم في هذه الحياة الدنيا، وصرفوا أعمارهم في طريق قضاء الشهوات والمعصية والفساد والانحراف، فإنّكم قد تمتعتم بنصيبكم كهؤلاء: ﴿فَاسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ﴾ والخلاق في اللغة بمعنى النصيب والحصة، يقول الراغب في مفرداته: إنّها مأخوذة من مادة (خلق)، ويحتمل - على هذا - أن الإنسان قد يستفيد ويتمتع بنصيبه في هذه الحياة الدنيا بما يناسب خلقه وخصاله.

ثمّ تقول بعد ذلك: إنّكم كمن مضى من أمثالكم قد أوغلتم وسلكتم مسلك الاستهزاء والسخرية، تماماً كهؤلاء: ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِى خَاضُوٓاْ﴾(١).

ثمّ تبيّن الآية عاقبة أعمال المنافقين الماضين لتحذّر المنافقين المعاصرين للنّبي ﷺ وكل منافقي العالم في جملتين:

الأولى: إن كل أعمال المنافقين قد ذهبت أدراج الرياح، في الدنيا والآخرة، ولم يحصلوا على أي نتيجة حسنة، فقالت: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾.

الثّانية: إنّ هؤلاء هم الخاسرون الحقيقيون بما عملوه من الأعمال السيئة: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْخَٰسِرُونَ﴾.

إنّ هؤلاء المنافقين يمكن أن يستفيدوا ويحققوا بعض المكاسب والامتيازات من أعمال النفاق، لكن ما يحصلون عليه مؤقت ومحدود، فإنّنا إذا أمعنّا النظر فسنرى أنّ هؤلاء لم يجنوا من سلوك هذا الطريق شيئاً، لا في الدنيا ولا في الآخرة، كما يعكس التاريخ هذه الحقيقة، ويبيّن كيف أنّ المنافقين على مرّ الدهور والأيّام قد توالت عليهم

(١) إنّ جملة ﴿كَالَّذِى خَاضُوٓاْ﴾ في الواقع بمعنى: كالذي خاضوا فيه، وبعبارة أُخرى، فإنّها تشبيه لفعل منافقي اليوم بفعل المنافقين السابقين، كما شبهت الجملة السابقة استفادة هؤلاء من النعم والمواهب الإلهيّة في طريق الشهوات كالسابقين منهم، وعلى هذا فإنّ هذا التشبيه ليس تشبيه شخص بشخص لنضطر إلى أن نجعل ﴿الَّذِى﴾ بمعنى ﴿الَّذِينَ﴾ أي المفرد بمعنى الجمع، بل هو تشبيه عمل بعمل.

النكبات وأزرت بهم وحكمت عليهم بالفناء والزوال، كما أنّ ممّا لا شك فيها أنّ هذه العاقبة الدنيوية تبيّن المصير الذي ينتظرهم في الآخرة.

إنّ الآية الكريمة تنبه المنافقين المعاصرين للنّبي ﷺ فتقول لهم: إنّكم ترون أنّ هؤلاء السابقين رغم تلك الإمكانات والقدرات والأموال والأولاد لم يصلوا إلى نتيجة، وأنّ أعمالهم قد أصبحت هباء منثوراً لأنّها لم تستند إلى أساس محكم، بل كانت أعمال نفاق ومراوغة، فإنّكم ستواجهون ذلك المصير بطريق أولى، لأنّكم أقل من هؤلاء قدرة وقوة وإمكانات.

وبعد هذه الآيات يتحول الحديث من المنافقين ويتوجه إلى النّبي ﷺ ويتبع أُسلوب الاستفهام الإنكاري، فتقول الآية: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾[1] فإنّ هذه الأقوام كانت في الأزمان السالفة تسيطر على مناطق مهمّة من العالم، إلاّ أن كل فئة قد ابتليت بنوع من العقاب الإلهي نتيجة لانحرافها وطغيانها وإجرامها، وفرارها من الحق والعدالة، وإقدامها على الظلم والاستبداد والفساد.

فقوم نوح عوقبوا بالطوفان والغرق، وقوم عاد (قوم هود) بالرياح العاصفة والرعب، وقوم ثمود (قوم صالح) بالزلازل والهدم والدمار، وقوم إبراهيم بسلب النعم، وأصحاب مدين (قوم شعيب) بالصواعق المحرقة، وقوم لوط بخسف المدن وفنائهم جميعاً، ولم يبق من هؤلاء إلاّ الجثث الهامدة، والعظام النخرة تحت التراب أو في أعماق البحار.

إنّ هذه الحوادث المرعبة تهز وجدان وأحاسيس كل إنسان إذا امتلك أدنى إحساس وشعور عند مطالعتها وتحقيقها.

ورغم طغيان هؤلاء وتمرّدهم فإنّ الله الرؤوف الرحيم لم يحرم هؤلاء من رحمته وعطفه لحظة، وقد أرسل إليهم الرسل بالآيات البينات لهدايتهم وإنقاذهم من الضلالة إذ ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ إلاّ أنّ هؤلاء لم يصغوا إلى أيّة موعظة ولم يقبلوا نصيحة من أنبياء الله وأوليائه، ولم يقيموا وزناً لجهاد ومتاعب هؤلاء الأبرار وتحملهم كل المصاعب في سبيل هداية خلق الله، وإذا كان العقاب قد نالهم فلا يعني أن الله عزّ وجلّ قد ظلمهم، بل هم ظلموا أنفسهم بما أجرموا فاستحقوا العذاب ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

---

(١) المؤتفكات مأخوذة من مادة الائتفاك، بمعنى انقلاب الأسفل إلى الأعلى وبالعكس، وهي إشارة إلى مدن قوم لوط التي قلب عاليها سافلها نتيجة الزلزلة.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾

التّفسير

صفات المؤمنين الحقيقيين

مرّ في الآيات السابقة، ذكر بعض الصفات المشتركة بين المنافقين، الرجال منهم والنساء، وتلخصت في خمس صفات: الأمر بالمنكر، والنهي عن المعروف، والبخل وعدم الإنفاق، ونسيان الله سبحانه وتعالى، ومخالفة وعصيان أوامر الله.

وتذكر هذه الآيات صفات وعلامات المؤمنين والمؤمنات، وتتلخص في خمس صفات أيضاً، فتقابل كل صفة منها صفة من صفات المنافقين، واحدة بواحدة، لكنّها في الاتجاه المعاكس.

وتشرع الآية بذكر صفات المؤمنين والمؤمنات، وتبدأ ببيان أنّ بعضهم لبعض ولي وصديق ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾.

إنّ أوّل ما يلفت النظر أنّ كلمة ﴿أَوْلِيَاءُ﴾ لم تُذكر أثناء الكلام عن المنافقين، بل ورد (بعضهم من بعض) التي توحي بوحدة الأهداف والصفات والأعمال، ولكنّها تشير ضمناً إلى أنّ هؤلاء المنافقين وإن كانوا في صف واحد ظاهراً ويشتركون في البرامج والصفات، إلاّ أنّهم يفتقدون روح المودة والولاية لبعضهم البعض، بل إنّهم إذا شعروا في أي وقت بأنّ منافعهم ومصالحهم الشخصية قد تعرضت للخطر فلا مانع لديهم من خيانة حتى أصدقائهم فضلاً عن الغرباء، وإلى هذه الحالة تشير الآية (١٤) من سورة الحشر: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾.

وبعد بيان هذه القاعدة الكلية، تشرع ببيان الصفات الجزئية للمؤمنين:

١ - ففي البداية تبيّن أنّ هؤلاء قوم يدعون الناس إلى الخيرات ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

٢ - إنّهم ينهون الناس عن الرذائل والمنكرات ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾.

٣ - إنّهم بعكس المنافقين الذين كانوا قد نسوا الله، فإنّهم يقيمون الصلاة، ويذكرون الله فتحيا قلوبهم وتشرف عقولهم ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ﴾.

٤ - إنّهم - على عكس المنافقين والذين كانوا يبخلون بأموالهم - ينفقون أموالهم في سبيل الله وفي مساعدة عباد الله وبناء المجتمع وإصلاح شؤونه، ويؤدون زكاة أموالهم ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾.

٥ - إنّ المنافقين فسّاق ومتمردون، وخارجون من دائرة الطاعة لأوامر الله، أمّا المؤمنون فهم على عكسهم تماماً، إذ ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾.

أمّا ختام الآية فإنّه يتحدث عن امتيازات المؤمنين، والمكافأة والثواب الذي ينتظرهم، وأوّل ما تعرضت لبيانه هو الرحمة الإلهيّة التي تنتظرهم فـ ﴿أُولَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾.

إنّ كلمة (الرحمة) التي ذكرت هنا لها مفهوم واسع، ويدخل ضمنه كل خير وبركة وسعادة، سواء في هذه الحياة أو في العالم الآخر، وهذه الجملة في الواقع جاءت مقابلة لحال المنافقين الذين لعنهم الله وأبعدهم عن رحمته.

ولا شك أنّ وعد الله للمؤمنين قطعي ويقيني لأنّ الله قادر وحكيم، ولا يمكن للحكيم أن يعد بدون سبب، وليس الله القادر بعاجز عن الوفاء بوعده حين وعد ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

الآية الثّانية شرحت جانباً من هذه الرحمة الإلهيّة الواسعة التي تعم المؤمنين في بُعديها المادي والمعنوي. فهي أوّلاً تقول: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ﴾، ومن خصائص هذه النعمة الكبيرة أنّها لا زوال لها ولا فناء، بل الخلود الأبدي، لذا فإن المؤمنين والمؤمنات سيكونون ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

ومن المواهب الإلهيّة الأُخرى التي سوف ينعمون بها هي المساكن الجميلة، والمنازل المرفهة التي أعدها الله لهم وسط الجنان ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾.

﴿عَدْنٍ﴾ في اللغة تعني الإقامة والبقاء في مكان ما، ولهذا يطلق على المكان الذي توجد فيه مواد خاصّة اصطلاح (معدن)، وعلى هذا المعنى فإنّ هناك شبهاً بين الخلود

وعدن، لكن لما أشارت الجملة السابقة إلى مسألة الخلود، يفهم من هذه الجملة أنّ جنات عدن محل خاص في الجنّة يمتاز على سائر حدائق الجنّة.

لقد وردت هذه الموهبة الإلهيّة بأشكال وتفسيرات مختلفة في الرّوايات وكلمات المفسّرين، فنطالع في حديث عن النّبي ﷺ: «عدن دار الله التي لم ترها عين، ولم يخطر على قلب بشر، لا يسكنها غير ثلاثة: النّبيين، والصّديقين، والشّهداء»[1].

وفي كتاب الخصال نُقل عن النّبي ﷺ قوله: «من سرّه أن يحيا حياتي، ويموت مماتي، ويسكن جنتي التي واعدني الله ربّي، جنات عدن... فليوال علي بن أبي طالب عليه السلام وذريته عليهم السلام من بعده»[2]. ويتّضح من هذا الحديث أنّ جنات عدن حدائق خاصّة في الجنّة سيستقر فيها النّبي ﷺ وجماعة من خلّص أصحابه وأتباعه، وهذا المضمون قد ورد في حديث آخر عن علي عليه السلام، ويدل على أنّ جنات عدن مقر إقامة نبي الإسلام ﷺ.

بعد ذلك تشير الآية إلى الجزاء المعنوي المعد لهؤلاء، وهو رضى الله تعالى عنهم المختص بالمؤمنين الحقيقيين، وهو أهم وأعظم جزاء، ويفوق كل النعم والعطايا الأُخرى ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾.

إنّ اللذة المعنوية والإحساس الروحي الذي يحس ويلتذ به الإنسان عند شعوره برضى الله سبحانه وتعالى عنه لا يمكن أن يصفه أي بشر، وعلى قول بعض المفسّرين فإنّ نسمة ولحظة من هذه اللذة الروحية تفوق نعم الجنّة كلها ومواهبها المختلفة والمتنوعة واللامتناهية.

من الطبيعي أنّنا لا نستطيع أن نجسم ونرسم صورة في أفكارنا عن أي نعمة من نعم الحياة الأُخرى ونحن في قفص الحياة الدنيا وحياتها المحدودة، فكيف سنصل إلى إدراك هذه النعمة المعنوية والروحية الكبرى؟!

نعم، يمكن إيجاد تصور ضعيف عن الاختلافات المادية والمعنوية التي نعيشها في هذه الدنيا، فمثلاً يمكن إدراك الاختلاف في اللذة بين اللقاء بصديق عزيز جداً بعد فراق طويل ولذّة الإحساس الروحي الخاص الذي يعتري الإنسان عند إدراكه أو حلّه لمسألة علمية معقدة صرف في تحصيلها والوصول إلى دقائقها الشهور، بل السنين، أو الانشداد

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث؛ بحار الأنوار، ج ٨، ص ١٧١.
(٢) كتاب الخصال، على ما نقل في نور الثقلين، ج ٢، ص ٢٤١.

الروحي الذي يبعث على النشاط والجد في لحظات خلوص العبادة، أو النشوة عند توجه القلب وحضوره في مناجاة تمتزج بهذا الحضور، وبين اللذة التي نحس بها من تناول طعام لذيذ وأمثالها من اللذائذ، ومن الطبيعي أن هذه اللذائذ المادية لا يمكن مقارنتها باللذائذ المعنوية، ولا يمكن أن تصل إلى مصافها.

من هنا يتّضح التصور الخاطىء لمن يقول بأنّ القرآن الكريم عندما يتحدث عن الجزاء والعطاء الإلهي الذي سيناله المؤمنون الصالحون يؤكّد على النعم المادية، ولا يتطرق إلى النواحي المعنوية، لأنّ الجملة أعلاه - أي: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ - ذكرت أن رضوان الله أكبر من كل النعم، خاصّة وأنّها وردت بصيغة النكرة، وهي تدل على أنّ قسماً من رضوان الله أفضل من كل النعم المادية الموجودة في الجنّة، وهذا يبيّن القيمة السامية لهذا العطاء المعنوي.

إنّ الدليل على أفضلية الجزاء المعنوي واضح أيضاً، لأنّ الروح في الواقع بمثابة (الجوهر) والجسم بمكان (الصدف)، فالروح كالآمر والقائد، والجسم كالجندي المطيع والمنفذ، فالتكامل الروحي هو الهدف، والجسم وسيلة ولهذا السبب فإنّ إشعاعات الروح وآفاقها أوسع من الجسم واللذائذ الروحية لا يمكن قياسها ومقارنتها باللذائذ المادية والجسمية، كما أنّ الآلام الروحية أشدّ ألماً من الآلام الجسمية.

وفي النهاية أشارت الآية إلى جميع هذه النّعم المادية والمعنوية، وعبرت عنها بأنّ ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾

التّفسير

جهاد الكفّار والمنافقين

وأخيراً، صدر القرار الإلهي للنّبي الأكرم ﷺ في وجوب جهاد الكفّار والمنافقين بكل قوّة وحزم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ ولا تأخذك بهم رأفة ورحمة، بل شدد ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾. وهذا العقاب هو العقاب الدنيوي، أمّا في الآخرة فإن محلهم ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

إن طريقة جهاد الكفّار واضحة ومعلومة، فإنّ جهادهم يعني التوسل بكل الطرق والوسائل في سبيل القضاء عليهم، وبالذات الجهاد المسلح والعمل العسكري، لكن البحث في أسلوب جهاد المنافقين، فمن المسلّم أنّ النّبي ﷺ لم يجاهدهم عسكرياً ولم يقابلهم بحدّ السيف، لأنّ المنافق هو الذي أظهر الإسلام، فهو يتمتع بكل حقوق المسلمين وحماية القانون الإسلامي بالرغم من أنّه يسعى لهدم الإسلام في الباطن فكم من الأفراد لاحظّ لهم من الإيمان، ولا يؤمنون حقيقة بالإسلام، غير أنّنا لا نستطيع أن نعاملهم معاملة غير المسلمين.

إذن، فالمستفاد من الرّوايات وأقوال المفسّرين هو أنّ المقصود من جهاد المنافقين هو الأشكال والطرق الأُخرى للجهاد غير الجهاد الحربي والعسكري، كالذم والتوبيخ والتهديد والفضيحة، وربّما تشير جملة ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ إلى هذا المعنى.

ويحتمل في تفسير هذه الآية: أنّ المنافقين يتمتعون بأحكام الإسلام وحقوقه وحمايته ما دامت أسرارهم مجهولة، ولم يتّضح وضعهم على حقيقته، أمّا إذا تبيّن وضعهم وانكشفت خبيئة أسرارهم فسوف يحكمون بأنّهم كفار حربيون، وفي هذه الحالة يمكن جهادهم حتى بالسيف.

لكن الذي يضعف هذا الاحتمال أنّ إطلاق كلمة المنافقين على هؤلاء لا يصح في مثل هذه الحالة، بل إنّهم يعتبرون من جملة الكفّار الحربيين، لأنّ المنافق - كما قلنا سابقاً - هو الذي يظهر الإسلام ويبطن الكفر.

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾

سبب النّزول

ذكرت في سبب نزول هذه الآية أقوال وآراء مختلفة، وكلّها تتفق على أنّ بعض المنافقين قد تحدثوا بأحاديث سيئة وغير مقبولة حول الإسلام والنّبي ﷺ، وبعد أن

فشا أمرهم وانتشرت أسرارهم أقسموا كذباً بأنّهم لم يتفوهوا بشيء، وكذلك فإنّهم قد دبروا مؤامرة ضد النّبيّ ﷺ، غير أنّها قد أُحبطت.

ومن جملتها: أنّ أحد المنافقين - واسمه جلاس - سمع بعضاً من خطب الرّسول ﷺ أيّام غزوة تبوك، وأنكرها بشدّة وكذبها، وبعد رجوع المسلمين إلى المدينة حضر رجل يقال له: عامر بن قيس - كان قد سمع جلاساً - عند النّبي ﷺ وأبلغه كلام جلاس، فلما حضر جلاس وسأله النّبي ﷺ عن ذلك أنكر، فأمرهما النّبي ﷺ أن يقسما بالله - في المسجد عند المنبر - أنّهما لا يكذبان، فاقتربا من المنبر في المسجد وأقسما، إلاّ أنّ عامراً دعا بعد القسم وقال: اللّهم انزل على نبيّك آية تُعرِّف الصادق، فأمّن النّبي ﷺ والمسلمون على دعائه. فنزل جبرئيل بهذه الآية، فلمّا بلغ قوله تعالى: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ قال جلاس: يا رسول الله، إنّ الله اقترح عليَّ التوبة، وإنّي قد ندمت على ما كان منّي، وأتوب منه، فقبل النّبي ﷺ توبته[1].

وكما أشرنا سابقاً فقد ذكر أنّ جماعة من المنافقين صمموا على قتل النّبي الأكرم ﷺ في طريق عودته من غزوة تبوك، فلمّا وصل إلى العقبة نفروا بعيره ليسقط في الوادي، إلاّ أنّ النّبي ﷺ قد اطلع بنور الوحي على هذه النّية الخبيثة، فردّ كيدهم في نحورهم وأبطل مكرهم. وكان زمام الناقة بيد عمار يقودها، وكان حذيفة يسوقها لتكون الناقة في مأمن تام، وأمر النّبي ﷺ المسلمين أن يسلكوا طريقاً آخر حتى لا يخفي المنافقون أنفسهم بين المسلمين وينفّذوا خطتهم.

ولما وصل إلى سمع النّبي ﷺ وقع أقدام هؤلاء أو حوافر خيولهم أمر بعض أصحابه أن يدفعوهم ويبعدوهم، وكان عدد هؤلاء المنافقين اثني عشر أو خمسة عشر رجلاً، وكان بعضهم قد أخفى وجهه، فلمّا رأوا أنّ الوضع لا يساعدهم على تنفيذ ما اتفقوا تواروا عن الأنظار، إلاّ أنّ النّبي ﷺ عرفهم وذكر أسماءهم واحداً واحداً لبعض أصحابه[2].

لكن الآية - كما سنرى - تشير إلى خطتين وبرنامجين للمنافقين: إحداهما: أقوال هؤلاء السيئة. والأُخرى: المؤامرة والخطة التي أحبطت، وعلى هذا الأساس فإنا نعتقد أنّ كلا سببي النزول صحيحان معاً.

---

(١) بحار الأنوار، ج ١٧، ص ١٨٤؛ وتفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.

(٢) ما ذكرناه اقتباس من تفسير مجمع البيان والمنار وروح المعاني وتفاسير أُخر.

التّفسير

مؤامرة خطرة:

إنّ ارتباط هذه الآية بالآيات السابقة واضح جدّاً، لأنّ الكلام كان يدور حول المنافقين، غاية ما في الأمر أنّ هذه الآية تزيح الستار عن عمل آخر من أعمال المنافقين، وهو أنّ هؤلاء عندما رأوا أن أمرهم قد انكشف، أنكروا ما نُسب إليهم بل أقسموا باليمين الكاذبة على مدّعاهم.

في البداية تذكر الآية أنّ هؤلاء المنافقين لا يرتدعون عن اليمين الكاذبة في تأييد إنكارهم، ولدفع التهمة فإنّهم ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ في الوقت الذي يعلمون أنّهم ارتكبوا ما نسب إليهم من الكفر ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾ وعلى هذا فإنّهم قد اختاروا طريق الكفر بعد إعلانهم الإسلام ﴿وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾. ومن البديهي أنّ هؤلاء لم يكونوا مسلمين منذ البداية، بل إنّهم أظهروا الإسلام فقط، وعلى هذا فإنّهم بإظهارهم الكفر قد هتكوا ومزّقوا حتى هذا الحجاب المزيف الذي كانوا يتسترون به.

وفوق كل ذلك فقد صمّموا على أمر خطير لم يوفقوا لتحقيقه ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ ويمكن أن يكون هذا إشارة إلى تلك المؤامرة لقتل النّبي ﷺ في ليلة العقبة، والتي مرّ ذكرها آنفاً، أو أنّه إشارة إلى كل أعمال المنافقين التي يسعون من خلالها إلى تحطيم المجتمع الإسلامي وبثّ بذور الفرقة والفساد والنفاق بين أوساطه، لكنّهم لن يصلوا إلى أهدافهم مطلقاً.

ممّا يستحق الانتباه أن يقظة المسلمين تجاه الحوادث المختلفة كانت سبباً في معرفة المنافقين وكشفهم، فقد كان المسلمون - دائماً - يرصدون هؤلاء، فإذا سمعوا منهم كلاماً منافياً فإنّهم يخبرون النّبي ﷺ به من أجل منعهم وتلقي الأوامر فيما يجب عمله تجاه هؤلاء. إنّ هذا الوعي والعمل المضاد المؤيّد بنزول الآيات أدّى إلى فضح المنافقين وإحباط مؤامراتهم وخططهم الخبيثة.

الجملة الأُخرى تبيّن واقع المنافقين القبيح ونكرانهم للجميل فتقول الآية: إنّ هؤلاء لم يروا من النّبي ﷺ أي خلاف أو أذى، ولم يتضرروا بأي شيء نتيجة للتشريع الإسلامي، بل على العكس، فإنّهم قد تمتعوا في ظل حكم الإسلام بمختلف النعم

المادية والمعنوية ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦۚ﴾(١) وهذه قمة اللؤم.

ولا شك أنّ إغناءهم وتأمين حاجاتهم في ظل رحمة الله وفضله وكذلك بجهود النّبي ﷺ لا يستحق أن ينقم من جرائه هؤلاء المنافقون، بل إنّ حقّه الشكر والثناء، إلاّ أنّ هؤلاء اللؤماء المنكرين للجميل والمنحرفي السيرة والسلوك قابلوا الإحسان بالإساءة.

ومثل هذا التعبير الجميل يستعمل كثيراً في المحادثات والمقالات، فمثلاً نقول للذي أنعمنا عليه سنين طويلة وقابل إحساننا بالخيانة: إنّ ذنبنا وتقصيرنا الوحيد أنّنا أويناك ودافعنا عنك وقدّمنا لك منتهى المحبّة على طبق الإخلاص.

غير أنّ القرآن - كعادته - رغم هذه الأعمال لم يغلق الأبواب بوجه هؤلاء، بل فتح باب التوبة والرجوع إلى الحق على مصراعيه إن أرادوا ذلك، فقال: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْۖ﴾. وهذه علامة واقعية الإسلام واهتمامه بمسألة التربية، ومعارضته لاستخدام الشدّة في غير محلّها وهكذا فتح باب التوبة حتى بوجه المنافقين الذين طالما كادوا للإسلام وتآمروا على نبيّه وحاكوا الدسائس والتهم ضده، بل إنّه دعاهم إلى التوبة أيضاً.

هذه في الحقيقة هي الصورة الواقعية للإسلام، فما أظلم هؤلاء الذين يرمون الإسلام بأنّه دين القوة والإرهاب والخشونة!

هل توجد في عالمنا المعاصر دولة مستعدة لمعاملة من يسعى لإسقاطها وتحطيمها كما رأينا في تعامل الإسلام السامي مع مناوئيه، مهما ادّعت أنّها من أنصار المحبة والسلام؟! وكما مرّ علينا في سبب نزول الآية، فإنّ أحد رؤوس النفاق والمخططين له لما سمع هذا الكلام تاب ممّا عمل، وقبل النّبي ﷺ توبته.

وفي نفس الوقت ومن أجل أن لا يتصور هؤلاء أنّ هذا التسامح الإسلامي صادر من منطق الضعف، حذّرهم بأنّهم إن استمروا في غيهم وتنكّروا لتوبتهم، فإنّ العذاب الشديد سينالهم في الدّارين ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِۚ﴾ وإذا كانوا يظنون أنّ أحداً يستطيع أن يمدّ لهم يد العون مقابل العذاب الإلهي فإنّهم في خطأ

---

(١) ممّا يستحق الانتباه أن الجملة أعلاه بالرغم من أنّها تتحدث عن فضل الله ورسوله، إلاّ أنّ الضمير في ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ جاء مفرداً لا مثنى، والسبب في ذلك هو ما ذكرناه قبل عدة آيات من أنّ أمثال هذه التعبيرات لأجل إثبات حقيقة التوحيد، وأنّ كل الأعمال بيد الله سبحانه، وأنّ النّبي ﷺ إذا ما عمل عملاً فهو بأمر الله سبحانه، ولا ينعزل عن إرادته سبحانه.

كبير، فإنّ العذاب إذا نزل بهم فساء صباح المنذرين: ﴿وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

من الواضح بديهة أنّ عذاب هؤلاء في الآخرة معلوم، وهو نار جهنم، أمّا عذابهم في الدنيا فهو فضيحتهم ومهانتهم وتعاستهم وأمثال ذلك.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾

سبب النّزول

المعروف بين المفسّرين أنّ هذه الآيات نزلت في رجل من الأنصار يدعى ثعلبة بن حاطب، وكان رجلاً فقيراً يختلف إلى المسجد دائماً، وكان يصر على النّبي ﷺ أن يدعو له بأن يرزقه الله مالاً وفيراً، فقال له النّبي ﷺ: «قليل تؤدّي شكره خيرٌ من كثير لا تطيقه» أو ليس الأولى لك أن تتأسى بنبيّ الله ﷺ، وتحيا حياة بسيطة وتقنع بها؟ لكن ثعلبة لم يكف ولم يصرف النظر عن أمله، وأخيراً قال للنّبي ﷺ: والّذي بعثك بالحق نبيّاً، لئن رزقني الله لأُعطين كل الحقوق وأؤدي كل الواجبات، فدعا له النّبي ﷺ.

فلم يمض زمان - وعلى رواية - حتى توفي ابن عم له، وكان غنيّاً جدّاً، فوصلت إليه ثروة عظيمة، وعلى رواية أُخرى أنّه اشترى غنماً، فلم تزل تتوالد حتى أصبح حفظها ورعايتها في المدينة أمراً غير ممكن، فاضطر أن يخرج إلى أطراف المدينة، فألهته أمواله عن حضور الجماعة، بل وحتى الجمعة.

وبعد مدّة أرسل النّبي ﷺ عاملاً إلى ثعلبة ليأخذ الزكاة منه، غير أنّ هذا الرجل البخيل الذي عاش لتوّه حياة الرفاه امتنع من أداء حقوق الله تعالى، ولم يكتف بذلك، بل اعترض على حكم الزّكاة وقال: إنّ حكم الزكاة كالجزية، أي إنّنا أسلمنا حتى لا نؤدي الجزية، فإذا وجبت علينا الزكاة فأي فرق بيننا وبين غير المسلمين؟

قال هذا في الوقت الذي لم يفهم معنى الجزية ولا معنى الزكاة، أو أنّه فهمه، إلاّ أن حبّ الدنيا وتعلقه بها لم يسمح له ببيان الحقيقة وإظهار الحق، فلمّا بلغ النّبي ﷺ ما قاله قال: «يا ويح ثعلبة! يا ويح ثعلبة»(١)، فنزلت هذه الآيات.

وقد ذكرت أسباب أُخر لنزول هذه الآيات تشابه قصّة ثعلبة مع اختلاف يسير، ويُفهم من أسباب النزول المذكورة ومن مضمون الآيات أنّ هذا الشخص - أو الأشخاص المذكورين - لم يكونوا من المنافقين في بداية الأمر، لكنّهم لهذه الأعمال ساروا في ركابهم.

التّفسير

المنافقون وقلّة الاستيعاب

هذه الآيات في الحقيقة تضع إصبعها على صفة أُخرى من صفات المنافقين السيّئة، وهي أنّ هؤلاء إذا مسّهم البؤس والفقر والمسكنة عزفوا على وتر الإسلام بشكل لا يصدق معه أحد أنّ هؤلاء يمكن أن يكونوا يوماً من جملة المنافقين، بل ربّما ذمّوا ولاموا الذين يمتلكون الثروات والقدرات الواسعة على عدم استثمارها في خدمة المحرومين ومساعدة المحتاجين!

إلاّ أنّ هؤلاء أنفسهم، إذا تحسّن وضعهم المادي فإنّهم سينسون كل عهودهم ومواثيقهم مع الله والناس، ويغرقون في حبّ الدنيا، وربّما تغيّرت كل معالم شخصياتهم، ويبدؤون بالتفكير بصورة أُخرى وبمنظار مختلف تماماً، وهكذا يؤدّي ضعف النفس هذا إلى حبّ الدنيا والبخل وعدم الإنفاق وبالتالي يكرّس روح النفاق فيهم بشكل يوصد أمامهم أبواب الرجوع إلى الحق.

فالآية الأُولى تتحدث عن بعض المنافقين الذين عاهدوا الله على البذل والعطاء لخدمة عباده إذا ما أعطاهم الله المال الوفير ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾.

إلاّ أنّهم يؤكّدون هذه الكلمات والوعود ما دامت أيديهم خالية من الأموال ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ غير أنّ عملهم هذا ومخالفتهم للعهود

---

(١) بحار الأنوار، ج ٢٢، ص ٤٠؛ وتفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.

التي قطعوها على أنفسهم بذرت روح النفاق في قلوبهم وسيبقى إلى يوم القيامة متمكناً منهم ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ وإنّما استحقوا هذه العاقبة السيئة غير المحمودة ﴿بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾.

وفي النهاية وبّخت الآية هؤلاء النفر ولامتهم على النوايا السيئة التي يضمرونها، وعلى انحرافهم عن الصراط المستقيم، واستفهمت بأنّهم ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾.

ملاحظات:

وهنا يجب الانتباه إلى عدّة ملاحظات:

١ - يمكن أن نرى بوضوح تام من خلال جملة ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أنّ النسبة والعلاقة بين الكثير من الذنوب والصفات السيئة، بل وحتى بين الكفر والنفاق، هي نسبة وعلاقة العلة والمعلول، لأنّ الجملة الآنفة الذكر تبيّن وتقول بصراحة: إنّ سبب النفاق الذي نبت في قلوبهم وحرفهم عن الجادة هو بخلهم ونقضهم لعهودهم، وكذلك الذنوب والمخالفات الأُخرى التي ارتكبوها، ولهذا فإنّنا نقرأ في بعض العبارات أنّ الكبائر في بعض الأحيان تكون سبباً في أن يموت الإنسان وهو غير مؤمن، إذ ينسلخ منه روح الإيمان بسببها.

٢ - إنّ المقصود من ﴿يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ والذي يعود ضميره إلى الله سبحانه وتعالى هو يوم القيامة، لأن تعبير ﴿لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ وأمثاله في القرآن يستعمل عادة في موضوع القيامة، صحيح أنّ فترة العمل - التي هي الحياة الدنيا - تنتهي بموت الإنسان، وبموته يُغلق ملف أعماله الصالحة والطالحة، إلاّ أنّ آثار تلك الأعمال تبقى تؤثر في روح الإنسان إلى يوم القيامة.

وقد احتمل جماعة أنّ ضمير ﴿يَلْقَوْنَهُ﴾ يعود إلى البخل، فيكون المعنى: حتى يلاقوا جزاء بخلهم وعقابه، ويحتمل كذلك أن يكون المراد من لقاء الله: لحظة الموت، إلاّ أنّ جميع هذه خلاف ظاهر الآية، والظاهر ما قلناه.

ولنا بحث في أنّه ما هو المقصود من لقاء الله في ذيل الآية (٦٤) من سورة البقرة.

٣ - ويُستفاد أيضاً - من الآيات أعلاه - أنّ نقض العهود والكذب من صفات المنافقين، فهؤلاء سحقوا جميع العهود المؤكّدة مع ربّهم ولم يعيروها أيّة أهميّة، فإنّهم يكذبون حتى على ربّهم، والحديث المعروف المنقول عن النّبي ﷺ يؤكّد هذه

الحقيقة، حيث يقول ﷺ: «للمنافق ثلاث علامات: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتُمن خان»(١).

ومن الملفت للنظر وجود هذه العلامات الثلاث مجتمعة في القصّة المذكورة - قصّة ثعلبة - فإنّه كذب، وأخلف وعده، وخان أمانة الله، وهي الأموال التي رزقه الله إيّاها، وهي في الحقيقة أمانة الله عنده.

وقد ورد الحديث المذكور في الكافي بصورة أشد تأكيداً عن الإمام الصادق عليه السلام عن النّبي ﷺ حيث يقول: «ثلاث من كن فيه كان منافقاً، وإن صام وصلى وزعم أنّه مسلم: من إذا ائتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف»(٢).

نذكر هنا أنّ من الممكن أن تصدر الذنوب المذكورة من المؤمنين، إلاّ أنّها نادرة، أمّا استمرار صدورها فهو علامة روح النفاق في ذلك الشخص.

٤ - وهنا ملاحظة أُخرى ينبغي أن ننبه عليها، وهي أنّ ما قرأناه في هذه الآيات ليس بحثاً تاريخياً مختصاً بحقبة مضت من الزمان، بل هو بيان واقع أخلاقي واجتماعي يوجد في كل عصر وزمان، وفي كل مجتمع - بدون استثناء - توجد نماذج كثيرة تمثل هذا الواقع.

إذا لاحظنا واقعنا الذي نعيشه ودققنا فيه - وربّما إذا نظرنا إلى أنفسنا - فسنكتشف نماذج من أعمال ثعلبة بن حاطب، وطريقة تفكيره في صور متعددة وأشخاص مختلفين، فإنّ الكثيرين في الأوضاع العادية أو عند إعسارهم وفقرهم يكونون من المؤمنين المتحرقين على دينهم والثابتين على عهدهم حيث يحضرون في الحلقات الدينية، وينضوون تحت كل لواء يدعو إلى الإصلاح وإنقاذ المجتمع، ويضمون أصواتهم إلى كل منادٍ للحقّ والعدالة، ولا يألون جهداً في سبيل أعمال الخير، ويصرخون ويقفون بوجه كل فساد.

أمّا إذا فتحت أمامهم أبواب الدنيا ونالوا بعض العناوين والمراكز القيادية أو تسلطوا على رقاب الناس، فستتغير صورهم وسلوكهم، والأدهى من كل ذلك أن تتبدل ماهيتهم، وعندئذ سيخمد لهيب عشقهم لله، ويهدأ ذلك الهيجان والتحرق على دين الله، وتفتقدهم تلك الحلقات والجلسات الدينية، فلايساهمون في أيّة خطة إصلاحية ولا يسعون من أجل ذلك الحق، ولا تثبت لهم قدم في مواجهة الباطل.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث؛ من لا يحضره الفقيه، ج ٤، ص ٣٦١.

(٢) سفينة البحار، ج٢، ص ٦٠٧؛ وأصول الكافي، ج ٢، ص ٢٩٠، ح ٨.

هؤلاء وقبل أن يصلوا إلى مآربهم لم يكن لهم محل من الإعراب، أو أثر في المجتمع، لذا سيعاهدون الله وعباده بألف عهد وميثاق بأنّهم إن تمكنوا من الأمر، أو امتلأت أياديهم من القدرات والأموال فسيفعلون كذا وكذا، ويتوسلون للوصول إلى أهدافهم بطرح آلاف الإشكالات والانتقادات في حق المتصدين ويتهمونهم بعدم معرفتهم بإدارة الأُمور، وعدم إحاطتهم بوظائفهم وواجباتهم، أمّا إذا وصلوا إلى ما يرومونه وتمكنوا من الأمر، فسينسون كل تلك الوعود والعهود ويتنكرون لها، وستتبخر كل تلك الإيرادات والانتقادات وتذوب كما يذوب الجليد في حرارة الصيف.

نعم، إنّ ضعف النفس هذا واحدة من العلامات البارزة والواضحة للمنافقين، وهل النفاق إلاّ كون صاحبه ذا وجهين، وبتعبير آخر: هل هو إلاّ ازدواج الشخصية؟ إنّ سيرة هكذا أفراد وتاريخهم نموذج للشخصية المزدوجة، لأنّ الإنسان الأصيل ذا الشخصية المتينة لا يكون مزدوج الشخصية.

ولا شك أنّ للنفاق درجات مختلفة، كالإيمان تماماً، فالبعض قد ترسخت فيهم هذه الخصلة الخبيثة إلى درجة اقتلعت كل زهور الإيمان بالله من قلوبهم، ولم تبق لها أثراً، بالرغم من أنّهم ألصقوا أنفسهم بالمؤمنين وادّعوا أنّهم منهم.

لكن البعض الآخر مع أنّهم يملكون إيماناً ضعيفاً، وهم مسلمون بالفعل، إلاّ أنّهم يرتكبون أعمالاً تتفق مع سلوك المنافقين، وتفوح منها رائحة الازدواجية، فهؤلاء ديدنهم الكذب، إلاّ أنّ ظاهرهم الصدق والصلاح، ومثل هؤلاء يصدق عليهم أيضاً أنّهم منافقون وذوو وجهين.

أليس الذي عرف بالأمانة لظاهره الصالح، واستطاع بذلك أن يكسب ثقة واطمئنان الناس فأودعوه أماناتهم، إلاّ أنّه يخونهم في أماناتهم، هو في واقع الحال مزدوج الشخصية؟

وكذلك الذين يقطعون العهود والمواثيق، لكنّهم لا يفون بها مطلقاً، ألا يعتبر عملهم عمل المنافقين؟

إنّ من أكبر الأمراض الاجتماعية، ومن أهم عوامل تخلف المجتمع وجود أمثال هولاء المنافقين في المجتمعات البشرية ونحن نستطيع أن نحصي الكثير منهم في مجتمعاتنا الإسلامية إذا كنّا واقعيين ولم نكذب على أنفسنا. والعجب أنّنا رغم كل هذه العيوب والمخازي والبعد عن روح التعليمات والقوانين الإسلامية، فإننا نحمّل الإسلام تبعة تخلفنا عن الركب الحضاري الأصيل!

الأمثل

في تفسير كتاب الله المنزل

مع تهذيب جديد

تأليف

العلامة الفقيه المفسر

الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

الجزء العاشر

منشورات
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا
يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾
ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ
ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾

سبب النّزول

وردت عدّة روايات في سبب نزول هذه الآيات في كتب التّفسير والحديث، يستفاد من مجموعها أن النّبي ﷺ كان قد صمّم على إعداد جيش المسلمين لمقابلة العدو - وربّما كان ذلك في غزوة تبوك - وكان محتاجاً لمعونة الناس في هذا الأمر، فلما أخبرهم بذلك سارع الأغنياء إلى بذل الكثير من أموالهم، سواء كان هذا البذل من باب الزكاة أو الإنفاق، ووضعوا هذه الأموال تحت تصرف النّبي ﷺ.

أمّا الفقراء، كأبي عقيل الأنصاري أو سالم بن عمير الأنصاري، لما لم يجدوا ما ينفقونه لمساعدة جنود الإسلام، فقد عمدوا إلى مضاعفة عملهم، واستقاء الماء ليلاً، فحصلوا على صاعين من التمر، فادخروا منه صاعاً لمعيشتهم ومعيشة أهليهم، وأتوا بالآخر إلى النّبي ﷺ وقدموه، وشاركوا بهذا الشيء اليسير - الذي لا قيمة له ظاهراً - في هذا المشروع الإسلامي الكبير.

غير أنّ المنافقين الذين لا همّ لهم إلاّ تتبع ما يمكن التشهير به بدلاً من التفكير بالمساهمة الجدية فإنّهم عابوا كلا الفريقين، أمّا الأغنياء فاتهموهم بأنّهم إنّما ينفقون رياءً وسمعة، وأمّا الفقراء الذين لا يستطيعون إلاّ جهدهم، والذين قدموا اليسير وهو عند الله كثير، فإنّهم سخروا منهم بأنّ جيش الإسلام هل يحتاج إلى هذا المقدار اليسير؟ فنزلت هذه الآيات، وهددتهم تهديداً شديداً وحذرتهم من عذاب الله[1].

(١) بحار الأنوار، ج ٢٢، ص ٩٦؛ تفسير العياشي، ج ٢، ص ١٠١، ح ٩٣.

التّفسير

خبث المنافقين

في هذه الآيات إشارة إلى صفة أُخرى من الصفات العامّة للمنافقين، وهي أنّهم أشخاص لجوجون معاندون وهمهم التماس نقاط ضعف في أعمال الآخرين واحتقار كل عمل مفيد يخدم المجتمع ومحاولة إجهاضه بأساليب شيطانية خبيثة من أجل صرف الناس عن عمل الخير وبذلك يزرعون بذور النفاق وسوء ظن في أذهان المجتمع، وبالتالي إيقاف عجلة الإبداع وتطور المجتمع وخمول الناس وموت الفكر الخلاّق.

لكن القرآن المجيد ذم هذه الطريقة غير الإنسانية التي يتبعها هؤلاء، وعرّفها للمسلمين لكي لا يقعوا في حبائل مكر المنافقين ومن ناحية أُخرى أراد أن يفهم المنافقون أنّ سهمهم لا يصيب الهدف في المجتمع الإسلامي.

ففي البداية يقول: إنّ هؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿يَلۡمِزُونَ﴾ مأخوذة من مادة (لَمْز) بمعنى تتبع العيوب والعثرات، و﴿ٱلۡمُطَّوِّعِينَ﴾ مأخوذة من مادة (طوع) على وزن (موج) بمعنى الطاعة، لكن هذه الكلمة تطلق عادة على الأفراد الذين دأبهم عمل الخيرات، وهم يعملون بالمستحبات علاوة على الواجبات.

ويستفاد من الآية أعلاه أنّ المنافقين كانوا يعيبون جماعة، ويسخرون من الأُخرى، ومن المعلوم أنّ السخرية كانت تنال الذين يقدمون الشيء القليل، والذين لا يجدون غيره ليبذلوه في سبيل الإسلام، وعلى هذا لابدّ أن يكون لمزهم وطعنهم مرتبطاً بأُولئك الذين قدموا الأموال الطائلة في سبيل خدمة الإسلام العزيز، فكانوا يرمون الأغنياء بالرياء، ويسخرون من الفقراء لقلّة ما يقدمونه.

ونلاحظ في الآية التي تليها تأكيداً أشد على مجازاة هؤلاء المنافقين، وتذكر آخر تهديد بتوجيه الكلام وتحويله من الغيبة إلى الخطاب، والمخاطب هذه المرّة هو النّبي ﷺ فقالت: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾.

وإنّما لن يغفر الله لهم لأنّهم قد أنكروا الله ورسالة رسوله، واختاروا طريق الكفر،

وهذا الاختيار هو الذي أرداهم في هاوية النفاق وعواقبه المشؤومة ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾. ومن الواضح أنّ هداية الله تشمل السائرين في طريق الحق وطلب الحقيقة، أمّا الفساق والمجرمون والمنافقون فإنّ الآية تقول: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَٰسِقِينَ﴾.

ملاحظات:

وهنا نلفت الأنظار إلى عدّة ملاحظات:

١ - إنّ نوع العمل هو المهم لا مقداره، وهذه الحقيقة في القرآن واضحة جلية، فالإسلام لم يستند في أي مورد إلى كثرة العمل ومقداره، بل هو يؤكّد دائماً - وفي كل الموارد - على أن الأساس هو نوع العمل وكيفيته، وهو يولي الإخلاص في العمل أهمّية خاصّة، والآيات المذكورة نموذج واضح لهذا المنطق القرآني.

وكما رأينا - أنّ القرآن الكريم مجّد عملاً مختصراً لعامل مسلم بقي يعمل إلى الصباح في استقاء الماء بقلب يغمره عشق الله ومحبّته، وينبض بالمسؤولية تجاه مشاكل المجتمع الإسلامي ليحصل على صاعٍ من تمر ويقدّمه لمقاتلي الإسلام في لحظات حساسة وفي مقابل ذلك نرى القرآن قد ذمّ الذين حقّروا هذا العمل الصغير ظاهراً، الكبير واقعاً، وهدّدهم وأوعدهم بالعذاب الأليم الذي ينتظرهم.

ومن هذه الواقعة تتّضح حقيقة أُخرى، وهي أنّ المسلمين في المجتمع الإسلامي الواقعي السالم يجب أن يحسّوا جميعاً بالمسؤولية تجاه المشاكل التي تعترض المجتمع وتظهر فيه، ولا يجب أن ينتظروا الأغنياء والمتمكنين أن يقوموا وحدهم بحلّ هذه المشاكل والمصاعب، بل على الضعفاء أيضاً أن يساهموا بما يستطيعون، مهما صغر وقل ما يقدمونه، لأنّ الإسلام يتعلق بالجميع لا بفئة منهم، وعلى هذا، فعلى الجميع أن يسعوا في حفظ الإسلام ولو ببذل النفوس والدماء، ويعملوا بكل وجودهم من أجل حياته وصيانته، المهم أنّ كل فرد يجب أن يبذل ما يستطيع، ولا يلتفت إلى مقدار عطائه، فليس المعيار كثرة العطاء وقلّته، بل الإحساس بالمسؤولية والإخلاص في العمل.

ومن المناسب في هذا المقام أن نطالع حديثاً نقل عن النّبي ﷺ، حيث سئل: أي الصدقة أفضل؟ فقال ﷺ: «جهد المقل»[1].

(١) مستدرك، ج ٧، ص ١٦٣؛ من لا يحضره الفقيه، ج ٢، ص ٧٠.

٢ - إنّ الصفة التي ذكرتها الآيات السابقة كسائر صفات المنافقين الأُخرى لا تختص بمنافقي عصر النبوة، بل هي مشتركة بين منافقي كل العصور والأزمنة، فإنّ هؤلاء يسعون بسوء ظنهم ودناءة سريرتهم أن يقلّلوا من أهمّية أعمال الخير بأساليب مختلفة، وإماتة الحوافز الخيّرة في الناس والسخرية والاستهزاء، والاستهانة بأعمال الفقراء المخلصة والخالية من كل شائبة، وتحطيم شخصية هؤلاء، كل ذلك من أجل إطفاء جذوة الخير في المجتمع لينالوا ما يطمحون إليه من الشر والفساد.

إلاّ أنّ الواجب على المسلمين الواعين في كل عصر وزمن أن ينتبهوا إلى أهداف المنافقين وخططهم، وأن يشمروا الساعد ويحثوا السير في الاتجاه المضاد لعمل هؤلاء، فيدعون الناس إلى عمل الخير، ويوقرون ويعظمون العمل الصغير إذا صدر من الفقراء، ويُكْبرون فيهم تلك النفوس التي لم تُقصّر عن خدمة الإسلام حسب طاقتهم، وعن هذا الطريق سيشجعون الصغير والكبير على الاستمرار في هذه الأعمال، بل ويكثرون منها إذا قدروا، وكذلك عليهم أن يبينوا لهم خطط المنافقين الهدامة في سبيل تحطيمهم، فإذا عرفها المجتمع فسوف لا تؤثر فيه دعاياهم وسمومهم، وعندها سيستمر في طريق الخير وخدمة الدين الحنيف وتثبيت هذه العقيدة التي اختارها.

٣ - ليس المراد من جملة ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ﴾ أنّ الله سيعمل أعمالاً تشابه أعمالهم، بل المراد - كما قاله المفسّرون - أنّ الله سبحانه تعالى سيجازيهم على ما عملوا من الأعمال السيئة، أو أنّه تعالى سيحقرهم كما حقروا عباده وسخروا منهم.

٤ - لا شك أنّ عدد السبعين الوارد في الآية يدل على الكثرة لا على نفس العدد، وبعبارة أُخرى: إنّ معنى الآية، أنّك مهما استغفرت لهؤلاء فلن يغفر الله لهم، تماماً كما يقول شخص لآخر: إذا أصررت وكررت قولك مائة مرّة فلن أقبل منك، ولا يعني هذا أنّه لو كرر قوله مائة مرّة وزاد واحدة فسوف يُقبل قوله، بل المراد أنّ قوله سوف لن يقبل مطلقاً مهما كرره.

إنّ مثل هذا التعبير يفيد تأكيد المراد، ولهذا فقد ذكر هذا الموضوع بنفسه في الآية من سورة «المنافقون»، وقد نفي نفياً مطلقاً، حيث تقول الآية: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ﴾.

والدليل الآخر على هذا الكلام، العلة التي ذكرت في آخر الآية، وهي: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ وهي توضح أنّ الاستغفار لأمثال

هؤلاء مهما كثر وعظم فإنّه سوف لا ينجيهم، ولا يمكن أن يكون سبباً في خلاصهم ممّا ينتظرهم.

العجيب في الأمر أنّ عدّة روايات نقلت من مصادر أهل السنة، ورد فيها أنّ النبي ﷺ قال بعد أن نزلت هذه الآية: «لأزيدن في الاستغفار لهم على سبعين مرّة»! رجاء منه أن يغفر الله لهم، فنزلت: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾(١).

وهذه الرّوايات تعني أنّ النّبي ﷺ قد فهم من هذه الآية أنّ المراد من السبعين هو العدد بالذات، ولهذا قال: «لأزيدن في الاستغفار لهم على سبعين مرّة» في الوقت الذي تريد الآية - كما قلنا - أن تقول لنا: إنّ العدد المذكور ذُكر على وجه الكثرة والمبالغة، وكناية عن النفي المطلق المقترن بالتأكيد، خصوصاً مع ملاحظة العلة التي ذكرت في ذيل الآية التي توضح ما ذكرناه.

وعلى هذا الأساس فإنّ هذه الرّوايات لا يمكن قبولها لأنّها تخالف القرآن، خاصّة وأن أسانيدها غير معتبرة عندنا.

التوجيه الوحيد الممكن لهذه الرّوايات - بالرغم من أنّه خلاف الظاهر - هو أنّ النّبي ﷺ كان يقول ذلك قبل نزول الآيات المذكورة، ولما نزلت هذه الآيات كفّ النّبي ﷺ عن الاستغفار لهؤلاء.

ونقلت رواية أُخرى في هذا الموضوع، قد تكون هي الأصل للرّوايات الأُخرى المذكورة، وإنّما اختلفت الرّوايات لأنّها نقلت بالمعنى لا بالنص، وهي أنّ النّبي ﷺ قال: «لو علمت أنّني لو زدت على السبعين مرّة غفر لهم لفعلت»(٢)، ومعنى هذا الكلام - خاصة مع ملاحظة (لو) الدالة على الامتناع - أنّي أعلم أن الله سبحانه لا يغفر لهؤلاء، غير أنّ قلبي يحرص على هداية عباد الله ونجاتهم، بحيث لو علمت - فرضاً - أنّ الزيادة في الاستغفار عن السبعين مرّة ستنجيهم لفعلت ذلك.

وعلى كل حال، فإن معنى الآيات المذكورة واضح، وكل حديث يخالفها فإمّا أن يوجه بحيث يوافقها أو يطرح جانباً.

---

(١) لقد وردت روايات كثيرة بهذا المضمون ذكرت في تفسير الطبري، ج١٠، ص ١٣٨.

(٢) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾

التّفسير

إعاقة المنافقين مرّة أُخرى

يستمر الحديث في هذه الآيات حول تعريف المنافقين وأساليب عملهم وسلوكهم وأفكارهم ليعرفهم المسلمون جيداً، ولا يقعوا تحت تأثير وسائل إعلامهم وخططهم الخبيثة وسمومهم.

في البداية تتحدث الآية عن هؤلاء الذين تخلفوا عن الجهاد في غزوة تبوك، وتعذّروا بأعذار واهية كبيت العنكبوت، وفرحوا بالسلامة والجلوس في البيت بدل المخاطرة بأنفسهم والاشتراك في الحرب رغم أنّها مخالفة لأوامر الله ورسوله: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ وبدل أن يضعوا كل وجودهم وإمكاناتهم في سبيل الله لينالوا افتخار الجهاد وعنوان المجاهدين، فإنّهم امتنعوا ﴿وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

إلاّ أنّ هؤلاء النفر لم يكتفوا بتخلفهم وتركهم لهذا الواجب المهم، بل إنّهم سعوا في تخذيل الناس عن الجهاد بوساوسهم الشّيطانية ومحاولة إخماد جذوة الحماسة الملتهبة في صدور المسلمين وتشبث المنافقون بكل عذر يمكن أن يحقق الهدف حتى ولو كان العذر الحرّ!! ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾. وفي الحقيقة إنّ هؤلاء كانوا يطمعون في إضعاف إرادة المسلمين، ومن جهة أُخرى كانوا يحاولون سحب أكبر عدد ممكن إلى مستنقع رذيلتهم، حتى لا ينفردوا بالجرم.

ثمّ تتغير وجهة الخطاب إلى النبي ﷺ، فيأمره الله سبحانه وتعالى أن يجيبهم بلهجة شديدة وأُسلوب قاطع: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾. لكنّهم للأسف لضعف

إيمانهم، وعدم الإدراك الكافي لا يعلمون أية نار تنتظرهم، فشرارة واحدة من تلك النّار أشدّ حرارة من جميع نيران الدّنيا وأشدّ حرقة وألماً.

وتشير الآية الثّانية إلى أنّ هؤلاء ظنوا بأنّهم قد حققوا نصراً بتخلفهم وتخذيلهم المسلمين وصرف أنظارهم عن مسألة الجهاد، وضحكوا لذلك وقهقهوا بملء أفواههم، وهذا هو حال المنافقين في كل عصر وزمن، إلاّ أنّ القرآن حذّرهم من مغبة أعمالهم فقال: ﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا﴾.

نعم، ليبكوا على مستقبلهم المظلم: ليبكوا على العذاب الأليم الذي ينتظرهم: ليبكوا على أنّهم أغلقوا كل أبواب العودة بوجوههم، وأخيراً ليبكوا على ما أنفقوا من قوتهم وقدراتهم وعمرهم الثمين، واشتروا به الخزي والفضيحة وسوء العاقبة وتعاسة الحظ.

وفي نهاية الآية يبيّن الله تعالى أنّ هذه العاقبة التي تنتظرهم هي ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾.

ممّا قلناه يتّضح أنّ المقصود هو: إنّ هذه الجماعة يجب أن يضحكوا قليلاً في هذه الدنيا ويبكوا كثيراً، لأنّهم لو اطلعوا على ما ينتظرهم من العذاب الأليم لبكوا كثيراً ولضحكوا قليلاً بالفعل.

إلاّ أنّ بعض المفسّرين يذكر رأياً آخر في تفسير هذه الآية، وهو أنّهم مهما ضحكوا فإنّ ضحكهم قليل لقصر عمر الدنيا، وسيبكون في الآخرة بكاء بحيث إنّ كل بكاء الدنيا لا يعادل شيئاً من ذلك البكاء(١).

غير أن التّفسير الأوّل أنسب وأوفق لظاهر الآية، وللتعبيرات المشابهة لها سواء وردت في الأقوال أم الكتابات، خاصّة إذا علمنا أن اللازم من التّفسير الثّاني أن يكون معنى الأمر في الآية هو الإخبار لا الأمر، وهذا خلاف الظاهر.

ويشهد للمعنى الأوّل الحديث المعروف عن النّبي ﷺ، والذي ذكره كثير من المفسّرين، حيث قال: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً»(٢). (فتأمل جيداً).

وفي آخر آية - من الآيات محل البحث - إشارة إلى طريقة أُخرى دقيقة وخطرة من

---

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث. (٢) بحار الأنوار، ج ٥٥، ص ١٠٧.

طرق المنافقين، وهي أنّهم حينما يرتكبون ما يخالف القانون الإسلامي، فإنّهم يُظهرون أعمالا يحاولون بها جبران ما صدر منهم، ومحاولة تبرئة ساحتهم ممّا يستحقون من العقوبة، وبهذه الأعمال المناقضة لأعمالهم المخالفة للقانون فإنّهم يخفون وجوههم الحقيقية، أو يسعون إلى ذلك.

إنّ الآية الكريمة تقول: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا﴾ أي إنّ النبي ﷺ يجب أن يزرع اليأس في نفوس هؤلاء، ويُعلمهم أن هذا التلون سوف لا ينطلي على أحد، ولن يُخدع بهم أحد، والأولى لهم أنّ يحزموا أمتعتهم ويرحلوا من هذا المكان إلى مكان آخر، فإنّ أحداً سوف لايقع في مكائدهم وحبائلهم في هذه المدينة.

وتوجد هنا مسألة ينبغي التنبيه إليها، وهي أنّ جملة ﴿طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ توحي أنّ هؤلاء المنافقين لم يكونوا بأجمعهم يمتلكون الشجاعة حتى يحضروا ويطلبوا من النّبي ﷺ السماح لهم في الخروج إلى الجهاد، ربّما لأنّ بعضهم كانوا مفضوحين إلى حد يخجلون معه من الحضور في مجلس النّبي ﷺ وطلب الخروج معه.

ثمّ تبيّن الآية أنّ سبب عدم قبول اقتراح هؤلاء وطلبهم بـ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾.

ملاحظات:

١ - لا شك أنّ هذه المجموعة من المنافقين لو كانوا قد ندموا على تخلفهم وتابوا منه، وأرادوا الجهاد في ميدان آخر من أجل غسل ذنبهم السابق، لقبل الله تعالى منهم ذلك، ولم يردهم النّبي ﷺ، فعلى هذا يتبيّن لنا أنّ طلبهم هذا بنفسه نوع من المراوغة والشيطنة وعمل نفاقي، أو قل: إنّه كان تكتيكاً من أجل إخفاء الوجه القبيح لهم، والاستمرار في أعمالهم السابقة.

٢ - إنّ كلمة (خالف) تأتي بمعنى المتخلف، وهي إشارة إلى المتخلفين عن الحضور في ساحات القتال، سواء كان تخلفهم لعذر أو بدون عذر.

وذهب البعض إلى أنّ خالِف بمعنى مخالِف، أي اذهبوا أيّها المخالفون وضموا أصواتكم إلى المنافقين لتكونوا جميعاً صوتاً واحداً.

وفسّرها البعض بأنّ معناها (فاسد) لأنّ الخُلوف بمعنى الفساد، وخالِف: جاء في اللغة بمعنى فاسِد.

ويوجد احتمال آخر، وهو أنّه قد يراد من الكلمة جميع المعاني المذكورة، لأنّ المنافقين وأنصارهم توجد فيهم كل هذه الصفات الرذيلة.

٣ - وكذا ينبغي أن نذكر بأنّ المسلمين يجب أن يستفيدوا من طرق مجابهة المنافقين في الأعصار الماضية، ويطبقوها في مواجهة منافقي محيطهم ومجتمعهم، كما يجب اتباع نفس أسلوب النّبي الأكرم ﷺ معهم، ويجب الحذر من السقوط في شباكهم وأن لا ينخدع المسلم بهم، ولا يرق قلبه لدموع التماسيح التي يذرفونها، «فإنّ المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين»[1].

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

التّفسير

أسلوب أشدّ في مواجهة المنافقين

بعد أن أزاح المنافقون الستار عن عدم مشاركتهم في ميدان القتال، وعلم الناس تخلفهم الصريح، وفشا سرّهم، أمر الله سبحانه وتعالى نبيّه بأن يتبع أسلوباً أشدّ وأكثر صراحة ليقتلع وإلى الأبد - جذور النفاق والأفكار الشيطانية، وليعلم المنافقون بأنّهم لا محل لهم في المجتمع الإسلامي، وكخطوة عملية في مجال تطبيق هذا الأسلوب الجديد، صدر الأمر الإلهي ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾.

إنّ هذا الأسلوب - في الواقع - هو نوع من الكفاح السلبي الفاعل في مواجهة المنافقين، لأنّ النّبي ﷺ لم يستطع - للأسباب التي ذكرناها آنفاً - أن يأمر بقتل هؤلاء صراحة لتطهير المجتمع الإسلامي منهم، أمّا هذا الأسلوب السلبي فهو مؤثر في احتقار هؤلاء وتحجيم دورهم، وتقزيمهم وطردهم من المجتمع الإسلامي.

من المعلوم أنّ المؤمن الحقيقي محترم في الشرع الإسلامي حيّاً وميتاً، ولهذا نرى الدين الإسلامي الحنيف قد أصدر ضمن تشريعاته الأمر بتغسيل الميت وتكفينه والصلاة

(١) أصول الكافي، ج ٢، ص ٢٤١، ح ٣٨.

عليه ودفنه، وأوجب أن يولى احتراماً كبيراً، وأن يودع التراب بمراسم خاصّة، وحتى بعد دفنه فإنّ من حقوقه أن يزور المؤمنون قبره، ويستغفروا له، ويطلبوا الرحمة له.

إنّ عدم إجراء هذه المراسم لفرد معين يعني طرده من المجتمع الإسلامي، وإذا كان الطارد له هو النّبي ﷺ نفسه، فإنّ الصدمة والأثر النفسي على نفسيته ووجوده سيكون شديداً جدّاً.

إنّ هذا البرنامج والأسلوب الدقيق - في الواقع - كان قد أعد لمقابلة منافقي ذلك العصر، ويجب أن يستفيد المسلمون من هذه الأساليب، أي إنّ هؤلاء المنافقين ما داموا يُظهرون الإسلام، فمن الواجب عليهم أن يعاملوهم كمسلمين وإن كان باطنهم شيئاً آخر، أمّا إذا أظهروا نفاقهم، وكشفوا اللثام عن وجوههم الحقيقية، فعندئذ يجب أن يعاملوهم كأجانب عن الإسلام.

وفي آخر الآية يتّضح سبب هذا الأمر الإلهي بـ ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ورغم ذلك فإنّهم لم يفكروا بالتوبة ولم يندموا على أفعالهم ليغسلوها بالتوبة، بل إنّهم بقوا على أفعالهم ﴿وَمَاتُواْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴾.

وهنا يمكن أن يسأل أحدكم: إنّ المنافقين إذا كانوا - حقيقة - بهذا البعد عن رحمة الله، وعلى المسلمين أن لا يُظهروا أي ودٍّ أو محبّة تجاههم، فلماذا فضّلهم الله تعالى ومنحهم كل هذه القوى الاقتصادية من الأموال والأولاد؟

في الآية الأُخرى يوجه الله سبحانه وتعالى الخطاب إلى النّبي ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَـٰدُهُمْ﴾ فإنّها ليست منحة ومحبّة من الله تعالى لهؤلاء المنافقين، بل على العكس تماماً، فإنّ هذه الأموال والأولاد ليست لسعادتهم، بل ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴾.

إنّ هذه الآية - كنظيرتها التي مرّت في هذه السورة، وهي الآية ٥٥ - تشير إلى حقيقة، وهي أنّ هذه الإمكانيات والقدرات الاقتصادية والقوى الإنسانية للأشخاص الفاسدين ليست غير نافعة لهم فحسب، بل هي - غالباً - سبب لابتلائهم وتعاستهم، لأنّ أشخاصاً كهؤلاء لا هم يصرفون أموالهم في مواردها الصحيحة ليستفيدوا منها الفائدة البناءة، ولا يتمتعون بأبناء صالحين كي يكونوا قرة عين لهم ومعتمدهم في حياتهم. بل إنّ أموالهم تصرف غالباً في طريق الشهوات والمعاصي ونشر الفساد وتحكيم أعمدة الظلم والطغيان، وهي السبب في غفلتهم عن الله سبحانه وتعالى،

وكذلك أولادهم في خدمة الظلمة والفاسدين، ومبتلين بمختلف الانحرافات الأخلاقية، وبذلك سيكونون سبباً في تراكم البلايا والمصائب.

غاية الأمر إنّ الذين يظنون أنّ الأصل في سعادة الإنسان هو الثروة والقوة البشرية فقط، أمّا كيفية صرف هذه الثروة والقوّة فليس بذلك الأمر المهم، تكون لوحة حياتهم مفرحة ومبهجة ظاهراً، إلاّ أنّنا لو اقتربنا منها واطلعنا على دقائقها، وعلمنا أنّ الأساس في سعادة الإنسان هو كيفية الاستفادة من هذه الإمكانيات والقدرات لعلمنا أنّ هؤلاء ليسوا سعداء مطلقاً.

وهنا يجب الانتباه لمسألتين:

١ - لقد وردت في سبب نزول الآية الأُولى روايات متعددة لا تخلو من تعارض.

فيستفاد من بعض الرّوايات، أنّ النّبي ﷺ لما مات عبد الله بن أُبي - المنافق المشهور - صلى عليه، ووقف على قبره ودعا له، بل لَفَّه بقميصه ليكون كفناً له، فنزلت الآية ونهت النّبي ﷺ عن تكرار هذا الفعل[١].

في الوقت الذي يُفهم من روايات أُخرى أنّ النّبي ﷺ كان قد صمّم أن يصلي عليه، فنزل جبرئيل وتلا هذه الآية، ومنعه من هذا العمل.

وتقول عدة روايات أُخرى أنّ النّبي ﷺ لم يصل عليه، ولم يكن عزم على هذا العمل، غاية ما في الأمر إنّ النّبي ﷺ أرسل قميصه ليكفن به لترغيب قبيلة عبد الله بن أُبي في الإسلام، ولما سئل النّبي ﷺ عن سبب فعله هذا أجاب ﷺ بأنّ قميصه سوف لن ينجيه من العذاب، لكنّه يأمل أن يسلم الكثير بسبب هذا العمل، وبالفعل قد حدث هذا، فإنّ الكثير من قبيلة الخزرج قد أسلموا بعد هذه الحادثة.

وبالنظر إلى اختلاف هذه الرّوايات اختلافاً كثيراً، فإنّا قد صرفنا النظر عن ذكرها كسبب للنزول، خصوصاً على قول بعض المفسّرين الكبار بأنّ وفاة عبد الله بن أُبي كانت سنة ٩ هجرية، أمّا هذه الآيات فقد نزلت في حدود السنة الثّامنة[٢].

غير أنّ الذي لا يمكن إنكاره، أنّ الظاهر من أسلوب الآية ونبرتها أنّ النّبي ﷺ كان يصلي على المنافقين، وكان يقف على قبورهم قبل نزول هذه الآيات، لأنّ هؤلاء كانوا مسلمين ظاهراً[٣]، لكنّه امتنع من هذه الأعمال بعد نزول هذه الآية.

---

(١) بحار الأنوار، ج ٢١، ص ١٩٩. (٢) راجع الميزان، ج٩، ص٣٦٧.

(٣) يستفاد من مجموعة من الرّوايات أنّ النّبي ﷺ كان يصلي على المنافقين بعد نزول هذه الآية أيضاً، =

٢ - وكذلك يستفاد من الآية المذكورة جواز الوقوف على قبور المؤمنين والدعاء لهم والترحم عليهم، لأنّ النهي الوارد في الآية مختص بالمنافقين، وعلى هذا فإنّ هذه الآية تعني بمفهومها جواز زيارة قبور المؤمنين، أي: الوقوف على قبورهم والدعاء لهم. إلاّ أنّ الآية قد سكتت عن مسألة إمكان التوسل بقبور هؤلاء المؤمنين، وطلب قضاء الحاجات ببركتهم من الله تعالى، رغم جواز ذلك من وجهة نظر الرّوايات الإسلامية.

﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾

التّفسير

دناءة الهمّة

الكلام في هذه الآيات يدور كذلك حول المنافقين، إلاّ أنّ هذه الآيات تقارن بين الأعمال القبيحة للمنافقين وأعمال المؤمنين الحقيقيين الحسنة، وتوضح من خلال هذه المقارنة انحراف هؤلاء المنافقين ودناءتهم.

فالآية الأُولى تتحدث عن حال المنافقين إذا ما دعا الرّسول ﷺ الناس إلى الثبات على الإيمان والجهاد في سبيل الله، فإنّهم - أي المنافقون - رغم قدرتهم الجسمية والمالية سيطلبون العذر والسماح لهم بعدم المشاركة والبقاء مع ذوي الأعذار: ﴿وَإِذَآ

= إلّا أنّه يكبرّ أربعاً لا أكثر، أي أنّه كان يصرف النظر عن التكبير الخامس الذي هو دعاء للميت. إنّ هذه الرّواية يمكن قبولها فيما لو كان معنى الصلاة هنا الدعاء، و﴿تُصَلِّ﴾ في الآية هو ﴿وَلَا تَدْعُ﴾، أمّا لو كان المراد ﴿تُصَلِّ﴾ فإنّ هذه الرّواية تخالف ظاهر القرآن، ولا يمكن قبولها. ولا يمكن إنكار أنّ جملة ﴿وَلَا تُصَلِّ﴾ ظاهرة بالمعنى الثاني، ولذلك فإنّنا لا نستطيع - من وجهة نظر الحكم الإسلامي - أن نصلي على المنافقين الذين اشتهر نفاقهم بين الناس، وأن نرفع اليد عن ظهور الآية لرواية مبهمة.

أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾.

كلمة «الطول» على وزن فعل - جاءت بمعنى القدرة والاستطاعة المالية، وعلى هذا فإنّ ﴿أُو۟لُوا ٱلطَّوْلِ﴾ بمعنى المستطيعين والقادرين مالياً وجسمياً على الحضور في ميدان الحرب، ورغم ذلك فهم يميلون إلى التخلف مع أُولئك الذين لا قدرة لديهم - مادياً أو بدنياً - على الحضور والمشاركة في الجهاد.

وأصل هذه الكلمة مأخوذ من «الطول» ضد العرض، والاشتراك والارتباط بين هذين المعنيين واضح، لأنّ القدرة المالية والجسمية تعطي معنى الاستمرارية والدوام وطول القدرة.

وفي الآية التي تليها وبخ القرآن هؤلاء وذمّهم وقبّحهم بأنّهم ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾، وكما أشرنا سابقاً، فإنّ خوالف جمع خالفة، وأصلها من (خلف)، ولذلك يقال للمرأة إذا خرج الرجل من المنزل، وبقيت في المنزل: إنّها خالفة. والمقصود من الخوالف في هذه الآية كل الذين عُذِروا عن المشاركة في الجهاد بشكل أو آخر، أعم من أن يكونوا نساء أو مسنّين أو مرضى أو صبيان. وقد أشارت بعض الأحاديث الواردة في تفسير الآية إلى هذا الموضوع.

ثمّ أضافت الآية: بأنّ هؤلاء نتيجة لكثرة الذنوب والنفاق وصلوا إلى مرحلة ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾. وقد بحثنا في بداية سورة البقرة معنى الطبع على القلب[1].

ثمّ تحدثت الآية التي تليها في الجانب المقابل عن صفات وروحيات الفئة التي تقابل المنافقين، وهم المؤمنون المخلصون، وعن أعمالهم الحسنة، وبالتالي عاقبة أعمالهم المعاكسة تماماً لعاقبة أُولئك، فهي تقول: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ جَٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ فكانت عاقبتهم أن يتمتعوا بكل الخيرات والسعادة واللذائذ المادية والمعنوية في الدنيا والآخرة ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

كلمة ﴿ٱلْخَيْرَٰتُ﴾ صيغة جمع محلّى بالألف واللام، ومن ذلك يستفاد عموميتها، فهي تعبير جامع لكل توفيق وخير ونصر وموهبة، وهي تشمل المادية منها والمعنوية.

---

(١) راجع المجلد الأوّل من الأمثل (ذيل الآية ٧ من سورة البقرة).

كما أنّ تعبير هاتين الجملتين - حسب القواعد التي قررت في المعاني والبيان - يدل على الحصر، أي أنّ هذا التعبير يدل على أن (المخلصين) وحدهم يمثلون هذا الجانب المقابل، ويدل على أنّ هؤلاء وحدهم الذين يستحقون كل خير وسعادة، هؤلاء الذين يجاهدون بكل وجودهم وبكل ما يمتلكون.

ويستفاد بوضوح من هذه الآية أنّ «الإيمان» و«الجهاد» إذا اتحدا في شخص، فسيصحبهما كل خير وبركة، ولا سبيل إلى الفلاح والإخلاص، أو إلى شيء من الخيرات والبركات المادية والمعنوية إلاّ في ظل هذين العامَلَيْن.

وهناك نقطة أُخرى تستحق التنبيه لها، وهي أنّنا نستفيد من خلال مقارنة صفات هاتين المجموعتين أنّ المنافقين - لفقدانهم الإيمان، وتلوثهم المضاعف بالمعاصي والذنوب - أفراد جاهلون، لذلك فهم محرومون من (علو الهمة) التي هي وليدة الفهم والشعور والوعي، فهم يرضون أن يكونوا مع القاعدين من المرضى والصبيان، ويأبون الحضور في سوح الجهاد رغم افتخاراته وامتيازاته.

أمّا في المقابل، فإنّ المؤمنين قد اتضحت لهم الأُمور وأدركوا عواقبها فعلت همتهم بحيث رأوا أنّ الجهاد هو الطريق الوحيد للانتصار على المشاكل التي تعترضهم، فسعوا إليه بكل وجودهم وقدراتهم.

إن هذا الدرس الكبير هو الذي علمنا القرآن إياه في كثير من آياته، ومع ذلك فنحن غافلون عنه.

وفي آخر آية من الآيات التي نبحثها إشارة إلى قسم من الجزاء الأُخروي المعد لهؤلاء المؤمنين، فهي تبشرهم بأنّهم قد ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ وتؤكّد لهم بأنّ هذه المواهب والنعم سوف لا تفنى ولا تنفد، بل سيبقون ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، ثمّ تبيّن أنّ ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

إنّ تعبير ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ﴾ علامة جلية على مدى الاحترام الذي أولى الله هؤلاء المؤمنين به، حيث أعدَّ لهم من قبل كل هذه المواهب والنعم.

﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾

التّفسير

في هذه الآية - ولمناسبة البحث هنا للأبحاث السابقة حول المنافقين الذين يتعذرون بكل عذر ويتمسكون بأتفه الحجج - إشارة إلى وضع وواقع مجموعتين من المتخلفين عن الجهاد:

الأولى: وهم المعذورون فعلاً في عدم مشاركتهم في القتال.

والثّانية: وهم المتخلفون عن أداء هذا الواجب الكبير تمرداً وعصياناً، وليس لهم أي عذر في تخلفهم هذا.

ففي البداية تقول الآية إنّ هؤلاء الأعراب رغم أنّهم كانوا معذورين في عدم الاشتراك في الجهاد، فإنّهم حضروا بين يدي النّبي ﷺ وطلبوا منه أن يأذن لهم في الجهاد: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾. وفي مقابل ذلك فإنّ الفئة الأُخرى التي كذبت على الله ورسوله قد تخلف أفرادها دون أي عذر، ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾. وفي النهاية هددت الآية المجموعة الثّانية تهديداً شديداً وأنذرتهم بأنّه ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

إنّ ما قلناه في تفسير الآية المذكورة هو الأنسب للقرائن الموجودة، فإنّنا نرى من جهة أنّ هاتين الفئتين تقابل إحداهما الأُخرى، ومن جهة أُخرى فإنّ كلمة ﴿مِنْهُمْ﴾ تدل على أنّ أفراد المجموعتين لم يكونوا كفّاراً بأجمعهم، ومن هاتين القرينتين يفهم أنّ (المعذرين) هم المعذورون حقيقة.

إلاّ أنّه ذُكر في مقابل هذا التّفسير تفسيران آخران:

الأوّل: إنّ المقصود من (المعذرين) هم الذين كانوا يتمسكون بالأعذار الواهية والكاذبة للفرار من الجهاد. والمقصود من المجموعة الثّانية هم الذين لا يكلفون أنفسهم حتى مشقّة الاعتذار، بل إنّهم يمتنعون علناً وبكل صراحة عن إطاعة أوامر الله عزّ وجلّ.

الثّاني: إنّ كلمة (المعذرين) تشمل كل الفئات التي تعتذر بأعذار ما عن الذهاب إلى ميادين الحرب والجهاد، سواء كانت هذه الأعذار صادقة أم كاذبة.

إلاّ أنّ القرائن تدل على أنّ (المعذرين) هم المعذورون الحقيقيون.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾

سبب النّزول

نقل في سبب نزول الآية الأُولى أنّ أحد أصحاب رسول الله ﷺ المخلصين قال للنّبي ﷺ : يا رسول الله، إني شيخ كبير أعمى وعاجز، وليس لي حتى من يأخذ بيدي ليذهب بي إلى ميدان القتال، فهل أُعذر إذا لم أحضر وأشارك في الجهاد؟ فسكت النّبي ﷺ ، فنزلت الآية وعذرت مثل هؤلاء الأفراد[1] .

ويستفاد من سبب النزول هذا أنّ المسلمين - حتى الأعمى منهم - لم يكونوا ليسمحوا لأنفسهم أن يمتنعوا عن الحضور في ميدان الجهاد، وربّما كان ذلك لأنّهم كانوا يحتملون أن وجودهم بهذه الحالة قد يرغّب المجاهدين في الانضمام إلى جيوش المسلمين ومشاركتهم في أمر الجهاد، أو أنّهم يكثرون السواد على أقل التقادير.

وبالنسبة للآية الثّانية فقد ورد في الرّوايات أنّ سبعة نفر من فقراء الأنصار جاءوا إلى رسول الله ﷺ وطلبوا منه وسيلة للمشاركة في الجهاد، ولمّا لم يكن لدى الرّسول ﷺ شيء من ذلك خرجوا من عند رسول الله ﷺ وأعينهم تفيض من الدمع، ثمّ عُرفوا بعد ذلك بـ «البكّائين»[2] .

التّفسير

العشق للجهاد ودموع الحسرة

هذه الآيات قسمت المسلمين في مجال المشاركة في الجهاد لتوضيح حال سائر

(١-٢) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث؛ بحار الأنوار، ج ٢١، ص ٢٠٠.

المجاميع من ناحية القدرة على الجهاد، أو العجز عنه، وأشارت إلى خمس مجموعات: أربع منها معذورة حقيقة وواقعاً، والخامسة هم المنافقون.

الآية الأُولى تقول: إنّ الضعفاء، والعاجزين لكبر أو عمى أو نقص في الأعضاء، والذين لا وسيلة لهم يتنقلون بها ويستفيدون منها في المشاركة في الجهاد، لا حرج عليهم إذا تخلفوا عن هذا الواجب الإسلامي المهم: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾. هذه الأقسام الثلاثة تعذر في كل قانون إذا لم تشارك، والعقل والمنطق يمضي هذا التسامح، ومن المسلم أنّ القوانين الإسلامية لا تنفصل عن المنطق والعقل في أي مورد.

كلمة «الحرج» في الأصل تعني مركز اجتماع الشيء، ولما كان اجتماع الناس وكثرتهم في مكان ومركز ما ملازماً لضيق ذلك المكان، فقد استعملت هذه الكلمة بمعنى الضيق والإزعاج والمسؤولية والتكليف، ويكون معناها في هذه الآية هو المعنى الأخير، أي المسؤولية والتكليف.

ثمّ بيّنت الآية شرطاً مهماً في السماح لهؤلاء بالانصراف، وهو إخلاصهم وحبّهم لله ورسوله، ورجاؤهم وعملهم كل خير لهذا الدين الحنيف، لذا قالت: ﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي إنّ هؤلاء إذا لم يكونوا قادرين على حمل السلاح والمشاركة في القتال، فإنّهم قادرون على استعمال سلاح الكلمة والسلوك الإسلامي الأمثل، وبهذا يستطيعون ترغيب المجاهدين، ويثيرون الحماس في نفوس المقاتلين، ويرفعون معنوياتهم بذكرهم الثمرات المترتبة على الجهاد وثوابه العظيم.

وكذلك يجب أن لا يقصروا في هدم وتضعيف معنويات العدو، وتهيئة أرضية الهزيمة في نفوس أفراده قدر المستطاع لأنّ كلمة (نصح) في الأصل بمعنى (الإخلاص) وهي كلمة جامعة شاملة لكل شكل من أشكال طلب الخير والإقدام المخلص في هذا السبيل، ولما كان الكلام عن الجهاد، فإنّها تنظر إلى كل جهد وسعي يبذل في هذا المجال.

ثمّ تذكر الآية الدليل على هذا الموضوع، فتذكر أن مثل هؤلاء الأفراد الذين لا يألون جهداً في عمل الخير، لا يمكن أن يعاتبوا أو يُوبَّخوا أو يُعاقبوا، إذ ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ﴾.

بعد ذلك اختتمت الآية بذكر صفتين عظيمتين من صفات الله عَزَّوَجَلَّ - وكل صفاته

عظيمة - كدليل آخر على جواز تخلف هؤلاء المندرجين ضمن المجموعات الثلاث فقالت: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿غَفُورٌ﴾ مأخوذة من مادة الغفران، أي الستر والإخفاء، أي إنّ الله سبحانه وتعالى سيلقي الستار على أعمال هؤلاء المعذورين ويقبل أعذارهم، وكون الله «رحيماً» يقتضي أن لا يكلف أحداً فوق طاقته، بل يعفيه من ذلك، وإذا أُجبر هؤلاء على الحضور في ميدان القتال، فإنّ ذلك لا يناسب غفران الله ورحمته، وهذا يعني أنّ الله الغفور الرحيم سيعفي هؤلاء عن الحضور حتماً، ويعفو عنهم.

ويستفاد من جملة من الرّوايات التي نقلها المفسّرون في ذيل هذه الآية، أنّ هذه المجموعات المعذورة لا يقتصر الأمر فيهم على السماح لهم في التخلف وعدم مؤاخذتهم فحسب، بل إنّ أفرادها لهم من الجزاء والثواب كثواب المجاهدين الذين حضروا وقاتلوا، كل على قدر اشتياقه وتحرقه للمشاركة، فنحن نقف على حديث عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم ونقرأ: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما قفل من غزوة تبوك فأشرف على المدينة قال: «لقد تركتم بالمدينة رجالاً ما سرتم في مسير، ولا أنفقتم من نفقة، ولا قطعتم وادياً إلاّ كانوا معكم فيه قالوا: وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟ قال: حبسهم العذر»[1].

ثمّ تشير الآية إلى الفئة الرّابعة من المعفو عنهم وهؤلاء هم الذين حضروا - بشوق - عند النّبي صلى الله عليه وآله وسلم وطلبوا منه أن يحملهم على الدواب للمشاركة في الجهاد، فاعتذر النّبي صلى الله عليه وآله وسلم بأنّه لا يملك ما يحملهم عليه، فخرجوا من عنده وعيونهم تفيض من الدمع حزناً وأسفاً على ما فاتهم، وعلى أنّهم لا يملكون ما ينفقونه في سبيل الله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾.

«تفيض» من مادة الفيضان، أي الانسكاب والتساقط بعد الامتلاء، فإنّ الإنسان إذا أهمّه أمر أو دهمته مصيبة، فإذا لم تكن شديدة اغرورقت عيناه بالدموع وامتلأت دون أن تجري، أمّا إذا وصلت إلى مرحلة يضعف الإنسان عن تحملها سالت دموعه.

إنّ في هذه دلالة على أنّ هؤلاء النفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كانوا عشاقاً ومولهين بالجهاد إلى درجة أنّهم لما رُخص لهم في البقاء لم يكتفوا بالتأسف والهمّ لهذه

---

(١) تفسير الدر المنثور، طبقاً لنقل الميزان، ج٩، ص ٣٨٦.

الرخصة، بل إنّهم جرت دموعهم كما لو فقد إنسان أعز أصدقائه وأحبائه، وبكوا بكاءً مرّاً لهذا الحرمان.

لا شك أن الفئة الرّابعة لا تفترق عن الفئة الثّالثة المذكورة في الآية ولكنّهم لهذه الحالة الخاصّة من العشق، ولامتيازهم بها عن السابقين، ولتكريمهم جسّمت الآية وضعهم بصورة مستقلة ضمن نفس الآية، وكانت خصائصهم هي:

أوّلاً: إنّهم لم يقتنعوا بعدم امتلاكهم لمستلزمات الجهاد، فحضروا عند النّبي ﷺ طمعاً في الحصول عليها، وأصروا عليه إصراراً شديداً في تهيئتها إن أمكنه ذلك.

ثانياً: إنّ النّبي ﷺ لما اعتذر عن تلبية طلبهم لم يكتفوا بعدم الفرحة بذلك، بل انقلبوا بهمّ وحزن فاضت دموعهم بسببه، ولهاتين الخصلتين ذكرهم الله سبحانه وتعالى مستقلاً في الآية.

أمّا آخر الآية فتبين وضع الفئة الخامسة، وهم الذين لم يعذروا، ولن يُعذروا عند الله تعالى، فإنّهم قد توفرت فيهم كل الشروط، ويملكون كل مستلزمات الجهاد، فوجب عليهم حتماً، لكنّهم رغم ذلك يحاولون التملّص من أداء هذا الواجب الإلهي الخطير، فجاؤوا إلى النّبي ﷺ يطلبون الإذن في الانصراف عن الحرب، فبيّنت الآية أنّهم سيؤاخذون بتهرّبهم ويعاقبون عليه: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ﴾.

وتضيف الآية بأنّ هؤلاء يكفيهم عاراً وخزياً أن يرضوا بالبقاء مع العاجزين والمرضى رغم سلامتهم وقدرتهم، ولم يهتموا بأنّهم سيحرمون من فخر الاشتراك في الجهاد: ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾. وكفى به عقاباً أن يسلبهم الله القدرة على التفكر والإدراك نتيجة أعمالهم السيئة هذه، ولذلك أبغضهم الله ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ملاحظات:

١ - تتّضح من هذه الآيات - بصورة جلية وواضحة - المعنويات القوية العالية لجنود الإسلام، وكيف أن قلوبهم كانت تتطلع بشوق، وتتحرق عشقاً للجهاد والشهادة، وهذا الفخر والوسام مقدم على جميع الأوسمة والصفات الأُخرى التي كانوا يمتلكونها، ومن هنا يتّضح عامل هو من أهم عوامل التقدم السريع للإسلام وتطوره وانتشاره في ذلك اليوم، وتخلفنا في الوقت الحاضر لفقداننا هذا الوسام.

كيف يمكننا أن نجعل من يبكي ألماً وحسرة لحرمانه من الجهاد، وإن كان لعذر،

ومن يحاول التذرع بألف عذر وعذر من أجل الفرار من صف المجاهدين، في صف واحد ومرتبة واحدة؟

إذا رجعت إلينا روح الإيمان وحبّ الجهاد وعشقه، والافتخار بالشهادة في سبيل الله، ودبت في واقعنا الميت، فإنّنا سنحصل على نفس الامتيازات والانتصارات التي حققها وحصل عليها مسلمو الصدر الأوّل.

إنّ تعاستنا وتخلفنا يكمن في أنّنا التزمنا بالإسلام ظاهراً، واتخذناه رداءً دون أن ينفذ إلى أعماقنا ووجودنا، ورغم ذلك فإنّنا نتوقع أن نصل بهذا الواقع إلى مستوى المسلمين الأوائل!

٢ - ونستفيد من الآيات السابقة أيضاً، أنّه لا يستثنى أحد - بصورة عامّة - من المشاركة في أمر الجهاد، من دعم المجاهدين، وإسنادهم في جهادهم، حتى المرضى والعاجزين عن حمل الأسلحة والمشاركة في ميدان الحرب، فإنّهم إن عجزوا عن ذلك فهم قادرون أن يُرغّبوا المجاهدين ويثيروا حماسهم بكلامهم وبيانهم وسلوكهم، وأن يدعموا جهادهم بذلك، وفي الحقيقة فإنّ للجهاد مراحل متعددة، فإذا عُذر الإنسان عن إحدى مراحله فإنّ ذلك لا يعني سقوط بقية المراحل عن ذمته.

٣ - إنّ جملة ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ أصبحت منبعاً قانونياً واسعاً في المباحث الفقهية حيث استفاد الفقهاء منها أحكاماً كثيرة، فمثلاً: إذا تلفت الوديعة في يد الأمين بدون أي إفراط أو تفريط منه، فإنّه لا يكون ضامناً، ومن جملة الأدلّة على هذه المسألة هي الآية المذكورة، لأنّه محسن، ولم يرتكب مخالفة، فإذا اعتبرناه مسؤولاً وضامناً، فإنّ هذا يعني أنّ المحسن مؤاخذ.

ليس هناك شك في أنّ الآية المذكورة قد وردت في المجاهدين، إلاّ أنا نعلم أن مورد الآية لا يحدّد عموميتها، وبعبارة أُخرى، فإنّ مورد الآية لا يخصص الحكم مطلقاً.

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ

﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ۝٩٥ يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ۝٩٦﴾

سبب النّزول

يقول بعض المفسّرين: إنّ هذه الآيات نزلت في جماعة من المنافقين يبلغ عددهم ثمانين رجلاً، لأنّ النّبي ﷺ لما رجع من غزوة تبوك أمر أن لا يجالسهم أحد ولا يكلمهم، فلمّا رأى هؤلاء هذه المقاطعة الاجتماعية الشديدة بدأوا يعتذرون عمّا بدر منهم، فنزلت هذه الآيات لتبيّن حال هؤلاء وحقيقتهم(١).

التّفسير

لا تصغوا إلى أعذارهم وأيمانهم الكاذبة

تستمر هذه السلسلة من الآيات في الحديث عن الأعمال الشيطانية للمنافقين، وتزيح الستار عنها الواحد تلو الآخر، وتحذر المسلمين من الانخداع بريائهم أو الوقوع تحت تأثير كلماتهم المعسولة.

الآية الأُولى تبيّن للمسلمين أنّ هؤلاء إذا علموا بقدومكم فسيأتون: ﴿يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ﴾. إنّ التعبير بـ ﴿يَعۡتَذِرُونَ﴾ بصيغة المضارع، يظهر منه أنّ الله تعالى قد أطلع النّبي ﷺ من قبل على كذب المنافقين، وأنّهم سيأتونهم ليعتذروا إليهم، ولذلك فإنّه تعالى علمهم كيفية جواب هؤلاء إذا قدموا إليهم ليعتذروا منهم.

ثمّ يتوجه الخطاب إلى النّبي ﷺ - باعتباره قائد المسلمين - بأن يواجه المنافقين ﴿قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ﴾ لأنّا على علم بأهدافكم الشيطانية وما تضمرون وما تعلنون، إذ ﴿قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ﴾. إلاّ أنّه في الوقت نفسه سيبقى باب التوبة والرجوع إلى الصواب مفتوحاً أمامكم ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ﴾.

واحتمل البعض في تفسير هذه الآية أنّ التوبة ليست هي المقصودة من هذه الجملة، بل المقصود أنّ الله ورسوله سيطلعان على أعمالكم ويريانها في المستقبل كما رأياها

---

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث؛ والبحر المحيط، ج ٥، ص ٤٨٥، ذيل الآية مورد البحث.

الآن، وسيحبطان كل مؤامراتكم، وعلى هذا فلا يمكن أن تصنعوا شيئاً، لا اليوم ولا غداً، ولنا بحث مفصّل حول هذه الجملة، ومسألة عرض أعمال الأمة على نبيّها ﷺ سيأتي في ذيل الآية ١٠٥ من هذه السورة.

ثمّ قالت الآية: إنّ كل أعمالكم ونيّاتكم ستثبت اليوم في كتبكم ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وفي الآية التالية إشارة أُخرى إلى أيمان المنافقين الكاذبين، وتنبيه للمسلمين على أنّ هؤلاء سيتوسلون باليمين الكاذبة لتغفروا لهم خطيئاتهم وتصفحوا عنهم ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ﴾.

في الحقيقة، إنّ هؤلاء يطرقون كل باب ليردوا منه، فتارةً يريدون إثبات براءتهم وعدم تقصيرهم بالاعتذار، وتارةً يعترفون بالتقصير ثمّ يطلبون العفو عن ذلك التقصير، إذ ربّما استطاعوا عن إحدى هذه الطرق النفوذ إلى قلوبكم، لكن لا تتأثروا بأي أُسلوب من هذه الأساليب، بل إذا جاؤوكم ليعتذروا إليكم ﴿فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ﴾.

إنّ هؤلاء يطلبون منكم أن تعرضوا عن أفعالهم، أي أن تصفحوا عنهم، لكنكم يجب أن تعرضوا عنهم، لكن لا بالصفح والعفو، بل بالتكذيب والإنكار عليهم، وهذان التعبيران المتشابهان لفظاً لهما معنيان متضادان تماماً، ولهما هنا من جمال التعبير وجزالته وبيانه ما لا يخفى على أهل الذوق والبلاغة.

ولتأكيد المطلب وتوضيحه وبيان دليله عقّبت الآية بأنّ السبب في الإعراض عن هؤلاء ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾، ولأنّهم كذلك فإنّ مصيرهم ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ لأنّ الجنّة أُعدت للمتقين الذين يعملون الصالحات، وليس فيها موضع للأرجاس الملوّثين بالمعاصي، إنّ كل العواقب السيئة التي سيلقونها إنّما يرونها ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾.

في الآية الأخيرة التي نبحثها هنا إشارة إلى يمين أُخرى من أيمان هؤلاء، الهدف منها جلب رضى المسلمين ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ﴾.

الفرق بين اليمين في هذه الآية واليمين في الآية السابقة، أنّ المنافقين في الآية السابقة أرادوا تهدئة خواطر المؤمنين في الواقع العملي، أمّا اليمين التي في هذه الآية فإنّها تشير إلى أنّ المنافقين أرادوا من المؤمنين مضافاً إلى سكوتهم العملي إظهار الرضا القلبي عنهم.

الملفت للنظر هنا أن الله تعالى لم يقل: لا ترضوا عنهم، بل عبّر سبحانه بتعبير تُشم

منه رائحة التهديد، إذ يقول عزّ وجلّ: ﴿فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

لا شكّ أنّ هؤلاء من الناحية الدينية والأخلاقية لا يعيرون اهتماماً لرضى المسلمين، بل إنّ الهدف من عملهم هذا هو رفع النظرة السلبية والغضب عليهم من أفكار وقلوب المسلمين، ليكونوا في المستقبل في مأمن من ردود الفعل ضدهم إذا بدرت منهم أعمال منافية، إلاّ أنّ الله تعالى لما عبّر بقوله: ﴿لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ نبّه المسلمين على أنّ هؤلاء فاسقون، ولا معنى لرضاكم عنهم، فإنّ هؤلاء دأبهم يضحكوا على الأذقان، فانتبهوا وعوا أمر هؤلاء ولا تقعوا في شراكهم.

كم هو مهم وجيد أن يراقب المسلمون في كل زمان خطط المنافقين الشيطانية ويعرفوهم، حتى يجهضوا لهم كلّ محاولة للوصول إلى أهدافهم المشؤومة عبر هذه الوسائل والخطط الخبيثة.

﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾

التّفسير

الأعراب القساة والمؤمنون

في هذه الآيات الثّلاث - استمراراً للبحث المتقدم حول منافقي المدينة - حديث وبحث حول وضع منافقي الأعراب - وهم سكان البوادي - وعلاماتهم وأفكارهم، وكذلك قد تحدثت حول المؤمنين الخلص منهم.

وربّما كان السبب في تحذير المسلمين من هؤلاء، هو أن لا يتصور المسلمون أنّ المنافقين هم - فقط - هؤلاء المتواجدون في المدينة، بل إنّ المنافقين من الأعراب

أشدّ وأقسى، وشواهد التاريخ الإسلامي تدل على أنّ المسلمين قد تعرضوا عدّة مرات لهجوم منافقي البادية، ولعل الانتصارات المتلاحقة لجيش الإسلام هي التي جعلت المسلمين في غفلة عن خطر هؤلاء.

على كل حال، فالآية الأُولى تقول: إنّ الأعراب، بحكم بعدهم عن التعليم والتربية، وعدم سماعهم الآيات الرّبانية وكلام النّبي ﷺ، أشدّ كفراً ونفاقاً من مشابهيهم في المدينة: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ ولهذا البعد والجهل فمن الطبيعي، بل الأولى أن يجهلوا الحدود والأحكام الإلهيّة التي نزلت على النّبي ﷺ: ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾.

كلمة «الأعراب» من الكلمات التي تعطي معنى الجمع، ولا مفرد لها في لغة العرب، وعلى ما قاله أئمّة اللغة - كمؤلف القاموس والصحاح وتاج العروس وآخرون - فإنّ هذه الكلمة تطلق على سكان البادية فقط، ومختصة بهم، وإذا أرادوا إطلاقهم على شخص واحد فإنّهم يستعملون نفس هذه الكلمة ويلحقون بها ياء النسب، فيقولون: أعرابي. وعلى هذا فإنّ أعراب ليست جمع عرب كما يظن البعض.

أمّا ﴿وَأَجْدَرُ﴾ فهي مأخوذة من الجدار، ومن ثمّ أُطلقت على كل شيء مرتفع ومناسب، ولهذا فإنّ ﴿وَأَجْدَرُ﴾ تستعمل - عادةً - بمعنى الأنسب والأليق.

وتقول الآية أخيراً: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي إنّه تعالى عندما يحكم على الأعراب بمثل هذا الحكم، فلأنّه يناسب الوضع الخاص لهم، لأنّ محيطهم يتصف بمثل هذه الصفات.

لكن ومن أجل أن لا يُتوهم بأنّ كل الأعراب أو سكان البوادي يتصفون بهذه الصفات، فقد أشارت الآية التالية إلى مجموعتين من الأعراب.

ففي البداية تتحدث عن أنّ قسماً من هؤلاء الأعراب - لنفاقهم أو ضعف إيمانهم - عندما ينفقون شيئاً في سبيل الله، فإنّهم يعتبرون ذلك ضرراً وخسارة لحقت بهم، لا أنه توفيق ونصر وتجارة رابحة: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا﴾[1].

---

(١) مغرم - كما ورد في مجمع البيان - مأخوذة من مادة (غرم) على وزن ﴿جَرَمَ﴾، وهي في الأصل بمعنى ملازمة الشيء، ولهذه المناسبة قيل للدائن والمدين اللذين لا يدع كل منهما صاحبه: غريم، وأيضاً قيل: غرامة، لنفس هذه المناسبة لأنّها تلازم الإنسان ولا تنقطع عنه إلاّ بأدائها. ويقال للعشق الشديد: غرام، لأنّه ينفذ إلى روح الإنسان بصورة لا يمكن تصور الانفصال معها. ومغرم يساوي غرامة من حيث المعنى.

ومن الصفات الأُخرى لهؤلاء أنّهم دائماً ينتظرون أن تحيط بكم المصائب والنوائب والمشاكل، ويرميكم الدهر بسهمه: ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾.

﴿ٱلدَّوَآئِرَ﴾ جمع دائرة، ومعناها معروف، ولكن العرب يقولون للحادثة الصعبة والأليمة التي تحل بالإنسان: دائرة، وجمعها (دوائر).

في الواقع إنّ هؤلاء أفراد ضيقو النظر، وبخلاء وحسودون، وبسبب بخلهم فإنّهم يرون كل إنفاق في سبيل الله خسارة، وبسبب حسدهم فإنّهم ينتظرون دائماً ظهور المشاكل والمشاغل والمصائب عند الآخرين. ثمّ تقول الآية - بعد ذلك - إنّ هؤلاء ينبغي أن لا يتربصوا بكم، وينتظروا حلول المصائب والدوائر بكم، لأنّها في النهاية ستحل بهم فقط: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾(١).

ثمّ تختم الآية الحديث بقولها: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، فهو تعالى يسمع كلامهم، ويعلم بنياتهم ومكنون ضمائرهم.

أمّا الآية الأخيرة فقد أشارت إلى الفئة الثّانية من الأعراب، وهم المؤمنون المخلصون، إذ تقول: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ ولهذا السبب فإنّهم لا يعتبرون الإنفاق في سبيل الله خسارة أبداً، بل وسيلة للتقرب إلى الله ودعاء الرّسول ﷺ، لإيمانهم بالجزاء الحسن والعطاء الجزيل الذي ينتظر المنفقين في سبيل الله: ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾.

هنا يؤيّد الله تعالى ويصدّق هذا النوع من التفكير، ويؤكّد على أنّ هذا الإنفاق يقرب هؤلاء من الله قطعاً: ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ ولهذا ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ﴾ وإذا ما صدرت من هؤلاء هفوات وعثرات، فإنّ الله سيغفرها لهم لإيمانهم وأعمالهم الحسنة، فـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

إنّ التأكيدات المتوالية والمكررة التي تلاحظ في هذه الآية تجلب الانتباه حقّاً، فإنّ (ألا) و (إن) يدل كلاهما على التأكيد، ثمّ جملة ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ﴾ خصوصاً مع ملاحظة (في) التي تعني الدخول والغوص في الرحمة الإلهيّة، وبعد ذلك الجملة الأخيرة التي تبدأ بـ(إن) وتذكر صفتين من صفات الرحمة وهما ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ كل هذه التأكيدات تبيّن منتهى اللطف والرحمة الإلهيّة بهذه الفئة.

---

(١) يستفاد من جملة ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ الحصر، أي إنّ حوادث السوء ستنال هؤلاء فقط. واستفادة الحصر هذه من أن ﴿عَلَيْهِمْ﴾ خبر مقدم على المبتدأ.

وربّما كان هذا الاهتمام بهؤلاء لأنّهم رغم حرمانهم من التعليم والتربية، وعدم الفهم الكافي لآيات الله وأحاديث النّبي صلى الله عليه وآله وسلم، فإنّهم قبلوا الإسلام وآمنوا به بكل وجودهم، ورغم قلّة إمكانياتهم المالية - التي يحتمها وضع البادية - فإنّهم لم يمتنعوا عن البذل والإنفاق في سبيل الله، ولذلك استحقوا كل تقدير واحترام، وأكثر ممّا يستحقه سكان المدينة المتمكنون.

ويجب الالتفات إلى أن القرآن قد استعمل ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ في حق الأعراب المنافقين، التي تدل على إحاطة التعاسة وسوء العاقبة بهم، أمّا في حق المؤمنين فقد ذكرت عبارة ﴿فِى رَحْمَتِهِۦٓ﴾ لتبيّن إحاطة الرحمة الإلهية بهؤلاء، فقسم تحيط به الرحمة الإلهية، والآخر تحيط به الدوائر والمصائب.

بحثان

وهنا بحوث تسترعي الانتباه:

١ - التّجمعات الكبيرة

يبدو بوضوح - من الآيات المذكورة - مدى الأهمّية التي يوليها الإسلام للمجتمعات الكبيرة، والأماكن المزدحمة بالسكان، والجميل في الأمر أنّ الإسلام قد نهض وبزغ نوره من محيط متخلف، محيط لا تشم منه رائحة التمدن والتطور، إلاّ أنّه في الوقت نفسه يهتم اهتماماً خاصّاً بالعوامل البناءة التي تنهض بالمجتمع، وتحلّق به في أجواء التطور والرقي، فنراه يقرر أنّ هؤلاء الذين يعيشون في مناطق نائية عن المدينة أكثر تخلفاً من أهل المدن، لأنّهم لا يملكون الوسائل الكافية للتعليم والتربية فتخلفوا، ولهذا نقرأ في نهج البلاغة قول أميرالمؤمنين عليه السلام: «الزموا السواد الأعظم، فإنّ يد الله مع الجماعة»(١).

إلاّ أنّ هذا الكلام لا يعني أن يتجه كل الناس إلى المدن، ويتركوا القرى - التي هي أساس عمران المدن - تعبث بها يد الخراب، بل يجب السّعي في إيصال علم وتقدم المدينة إلى القرية، وتقوية أُسس التربية والتعليم وأُصول الدين والوعي ونشرها بين صفوف القرويين.

ولا شك أنّ سكان القرى إذا تُركوا على حالتهم ولم تفتح عليهم نافذة من العلوم

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٢٧.

المدنية وآيات الكتب السماوية، وتعليمات وتوجيهات النّبي ﷺ والهداة الكرام، فسيحل بهم الكفر والنفاق سريعاً ويأخذ منهم مأخذاً عظيماً، إنّ هؤلاء لهم استعداد أكبر لقبول التربية السليمة والتعليم الصحيح لصفاء قلوبهم، وبساطة أفكارهم، وقلّة انتشار المكر والمراوغة التي تعم المدن بينهم.

٢ - الأعراب من سكان المدن

إنّ كلمة (الأعرابي) وإن كانت تعني ساكن البادية، إلاّ أنّها استعملت بمعنى أوسع في الأخبار والرّوايات الإسلامية، وبتعبير آخر: فإنّ مفهومها الإسلامي لا يرتبط أو يتحدد بالمنطقة الجغرافية التي يشغلها الأعراب، بل تعبر عن منهجية في التفكير، فإنّ من كان في منأى عن الآداب والسنن والتربية الإسلامية فهو من الأعراب وإن كان سكان المدن، أمّا سكّان البادية الملتزمون بالآداب والسنن الإسلامية فليسوا بأعراب.

الحديث المشهور المنقول عن الإمام الصادق عليه السلام: «من لم يتفقه منكم في الدين فهو أعرابي»(١) دليل قوي وشاهد واضح على الكلام أعلاه.

وفي خبر آخر نقرأ: «من الكفر التعرب بعد الهجرة»(٢).

ونقل أيضاً عن علي عليه السلام في نهج البلاغة أنّه خاطب جماعة من أصحابه العاصين لأمره فقال: «واعلموا أنّكم صرتم بعد الهجرة أعراباً»(٣).

في الحديثين أعلاه جعل «التعرب» مقابل «الهجرة»، وإذا لاحظنا أنّ للهجرة أيضاً مفهوماً واسعاً لا يتحدد بالجانب المكاني، بل إنّ أساسها انتقال الفكر من محور الكفر إلى محور الإيمان، اتّضح معنى كون الفرد أعرابياً، أي إنّه يعني الرجوع عن الآداب والسنن الإسلامية إلى الآداب والعادات الجاهلية.

٣ - الأعراب والإنفاق

نطالع في الآية المذكورة أعلاه الواردة في حق المؤمنين من الأعراب، أنّ هؤلاء يعتبرون إنفاقهم أساس القرب من الله تعالى، خاصّة وأنّ هذه الكلمة قد وردت بصيغة الجمع (قربات)، وهي توحي أنّ هؤلاء لا يبتغون من إنفاقهم قربة واحدة، بل قربات.

وممّا لا شك فيه أنّ القرب والقربة بالنسبة إلى الله سبحانه وتعالى لا تعني القرب

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٢٥٤.
(٢) أصول الكافي، ج ٢، ص ٢٧٦ و ٢٧٧.
(٣) نهج البلاغة، الخطبة القاصعة، ص ١٩٢.

المكاني، بل القرب المقامي، أي السير إلى الذات المقدّسة والكمال المطلق والتعرض لأنوار صفات جماله وجلاله وفي دائرة الفكر والروح.

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾

التّفسير

السّابقون إلى الإسلام

بالرغم من أنّ المفسّرين قد نقلوا أسباباً عديدة للنزول، إلاّ أنّ أيّاً منها - كما سنرى - ليس سبباً للنزول، بل إنّها في الواقع بيان المصداق والوجود الخارجي لها.

على كل حال، فإنّ هذه الآية - التي وردت بعد الآيات المتحدثة عن حال الكفار والمنافقين - تشير إلى مجموعات وفئات مختلفة من المسلمين المخلصين، وقسمتهم إلى ثلاثة أقسام:

الأوّل: السابقون في الإسلام والهجرة: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ﴾.

الثّاني: السابقون في نصرة وحماية النّبي ﷺ وأصحابه المهاجرين: ﴿وَالْأَنصَارِ﴾.

الثّالث: الذين جاؤوا بعد هذين القسمين واتبعوا خطواتهم ومناهجهم، وقبولهم الإسلام والهجرة، ونصرتهم للدين الإسلامي، فإنّهم ارتبطوا بهؤلاء السابقين: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ﴾(١).

ممّا قلناه يتبيّن أنّ المقصود من ﴿بِإِحْسَانٍ﴾ في الحقيقة هو بيان الأعمال والمعتقدات لهؤلاء السابقين إلى الإسلام التي ينبغي اتّباعها، وبتعبير آخر فإنّ (إحسان) وصف لبرامجهم التي تُتَّبَع.

وقد احتمل أيضاً في معنى الآية أنّ (إحسان) بيان لكيفية المتابعة، أي إنّ هؤلاء

---

(١) لقد عدّ الكثير من المفسّرين ﴿مِنَ﴾ الواردة في جملة ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ﴾ تبعيضية، وظاهر الآية أيضاً كذلك، لأنّ حديث الآية عن طلائع الإسلام والسابقين إليه، لا عن جميع المسلمين. أمّا الباقون فإنّهم يدخلون في مفهوم الجملة التالية، أي: (التابعون).

يتبعونهم بالصورة اللائقة والمناسبة. ففي الصورة الأُولى الباء في ﴿بِإِحْسَٰنٍ﴾ بمعنى (في)، وفي الصورة الثّانية بمعنى (مع)، إلاّ أنّ ظاهر الآية مطابق للتفسير الأوّل.

وبعد ذكر هذه الأقسام الثّلاثة قالت الآية: ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾.

إنّ رضى الله سبحانه وتعالى عن هؤلاء هو نتيجة لإيمانهم وأعمالهم الصالحة التي عملوها، ورضاهم عن الله لما أعد لهم من الجزاء والعطايا المختلفة التي لا تدركها عقول البشر. وبتعبير آخر، فإنّ هؤلاء قد نفذوا كل ما أراده الله منهم، وفي المقابل أعطاهم الله كل ما أرادوا، وعلى هذا فكما أنّ الله سبحانه راض عنهم، فإنّهم راضون عن الله تعالى.

ومع أنّ الجملة السابقة قد تضمنت كل المواهب والنعم الإلهيّة، المادية منها والمعنوية، الجسمية والروحية، لكن الآية أضافت من باب التأكيد، وبيان التفصيل بعد الإجمال: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ ومن امتيازات هذه النعمة أنّها خالدة، وسيبقى هؤلاء ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ وإذا نظرنا إلى مجموع هذه المواهب المادية والمعنوية أيقنا أن ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

أيّ فوز أعلى وأكبر من أن يدرك الإنسان أن خالقه ومعبوده ومولاه قد رضي عنه، وقد وقّع على قبول أعماله؟ وأي فوز أعلى من أن يحصل الإنسان على مواهب خالدة نتيجة أعمال محدودة يعملها في أيّام هذا العمر الفاني؟

بحوث

١ - موقع السّابقين

في كل ثورة اجتماعية جبارة تقوم ضد أوضاع المجتمع الفاسدة، فإنّ طلائع الثورة هم أعمدتها، وعلى عاتقهم يقع حملها وثقلها، وهؤلاء في الحقيقة هم أوفى عناصر الثورة، لأنّهم نصروا قائدهم وقدوتهم في أحلك الظروف والتفوا حوله في ساعات المحنة والوحدة رغم أنّهم محاصرون وتحيط بهم أنواع الأخطار إلاّ أنّهم لم يتخلوا عن دعمهم ونصرتهم وتضحيتهم. خاصّة وأنّ مطالعة تأريخ صدر الإسلام تعطي صورة واضحة عن مدى ضخامة المشاكل التي واجهها السابقون والرعيل الأوّل من المسلمين!

كيف كانوا يؤذونهم ويعذبونهم لكنّهم لم يصرخوا ولم يتأوهوا رغم شدة آلامهم، كانوا يتهمونهم، يسحبونهم بالسلاسل، وبالتالي يقتلونهم. ورغم كل ذلك، فإنّ هؤلاء

قد وضعوا قدماً في هذا السبيل بإرادة حديدية، وعشق ملتهب، وعزم راسخ، وإيمان عميق، ووطنوا أنفسهم على تحمل أنواع المخاطر والمصاعب.

ومن بين هؤلاء كان سهم المهاجرين الأوّلين هو الأرجح، ومن بعدهم الأنصار الأوائل، أي الذين دعوا النّبي ﷺ إلى المدينة واستقبلوه برحابة وأسكنوا أصحابه واعتبروهم كإخوانهم، ودافعوا عنهم بكل وجودهم، بل قدموهم حتى على قومهم. وإذا كانت الآية أعلاه قد أولت هذين القسمين اهتماماً خاصاً، فلهذه العوامل.

إلاّ أنّ القرآن الكريم في الوقت نفسه - كما هي طريقته دائماً - لم يبخس حقّ الآخرين، وذكر كل الأقسام والفئات الأُخرى الذين التحقوا في عصر النّبي ﷺ أو الأعصار التالية، والذين هاجروا، أو آووا المهاجرين ونصروهم تحت عنوان ﴿اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ﴾، وبشر الجميع بالأجر والجزاء الحسن.

٢ - من هم التابعون؟

اصطلح جماعة من العلماء على أنّ كلمة «التابعين» تعني تلامذة الصحابة، وجعلوها من مختصاتهم، أي أُولئك الذين لم يروا النّبي الأكرم ﷺ، لكنّهم تصدوا لاكتساب العلوم الإسلامية ووسعوها، وبعبارة أُخرى: إنّهم اكتسبوا علومهم الإسلامية من صحابة النّبي ﷺ.

ولكن مفهوم الآية - كما قلنا قبل قليل - من الناحية اللغوية لاينحصر بهذه المجموعة ولا يختص بها، بل يشمل كل الفئات والمجموعات التي اتّبعت برامج وأهداف الطلائع الإسلامية والسابقون إلى الإسلام في كل عصر وزمان.

وتوضيح ذلك أنّه على خلاف ما يعتقده البعض من أن الهجرة والنصرة - اللتين هما من المفاهيم الإسلامية البناءة - مختصتان بعصر النّبي ﷺ، فإنّهما توجدان في كل عصر - وحتى في عصرنا الحاضر - ولكن بأشكال أُخرى، وعلى هذا فإنّ كل الأفراد الذين يسيرون في هذا المسير - مسير الهجرة والنصرة - يدخلون تحت هذين المفهومين.

إذن، المهم أن نعلم أن القرآن الكريم بذكره كلمة (إحسان) يؤكّد على أنّ اتباع خط السابقين إلى الإسلام، والسير في طريقهم يجب أن لا يبقى في حدود الكلام والادّعاء، بل وحتى مجرّد الإيمان الخالي من العمل، بل يجب أن تكون هذه المتابعة أو الاتباع اتباعاً فكرياً وعملياً وفي كل الجوانب.

٣ - من هو أوّل من أسلم؟

إنّ أكثر المفسّرين يطرح هنا سؤالاً - لمناسبة بحث الآية - وهو: من هو أوّل من أسلم، وثبت هذا الافتخار العظيم باسمه في التأريخ؟

وفي جواب هذا السؤال، فقد قالوا بالإجماع، إنّ أوّل من أسلم من النساء خديجة زوجة النّبي ﷺ الوفية المضحية، وأمّا من الرجال فكل علماء الشيعة ومفسريهم، وفريق كبير من أهل السنّة قالوا: إنّ عليّاً عليه السلام أوّل من أسلم ولبّى دعوة النّبي الأكرم ﷺ.

إنّ اشتهار هذا الموضوع بين علماء أهل السنّة بلغ حداً ادّعى جماعة منهم الإجماع عليه واتفقوا على ذلك، ومن جملة هؤلاء الحاكم النيسابوري في (المستدرك على الصحيحين) وفي كتاب (المعرفة)، فإنّه يقول في ص ٢٢: لا أعلم خلافاً بين أصحاب التواريخ أنّ علي بن أبي طالب رضي الله عنه أوّلهم إسلاماً، وإنّما اختلفوا في بلوغه[١].

وكتب ابن عبد البر في (الاستيعاب) ج٢، ص ٤٥٧: اتفقوا على أنّ خديجة أوّل من آمن بالله ورسوله وصدقه فيما جاء به، وآمن علي بعدها[٢].

وكتب أبو جعفر الإسكافي: قد روى الناس كافة افتخار علي بالسبق إلى الإسلام[٣].

وبعد هذا، فإنّ الرّوايات الكثيرة التي نقلت عن النّبي ﷺ وعن علي عليه السلام نفسه، والصحابة - في هذا الباب بلغت حدَّ التواتر، وكنموذج لها نورد هنا بعض الأحاديث:

١ - قال النّبي ﷺ: «أوّلكم وروداً على الحوض أوّلكم إسلاماً، علي بن أبي طالب عليه السلام»[٤].

٢ - نقل جماعة من علماء أهل السنّة عن النّبي ﷺ أنّه أخذ بيد علي عليه السلام وقال: «إنّ هذا أوّل من آمن بي، وهذا أوّل من يصافحني، وهذا الصديق الأكبر»[٥].

٣ - نقل أبو سعيد الخدري عن النّبي ﷺ أنّه وضع يده بين كتفي علي عليه السلام وقال:

---

(١) تفسير القرطبي، ج ٥، ص ٣٠٧٥.

(٢) الغدير، ج ٣، ص٢٣٧ و٢٣٨.

(٣) المصدر السّابق.

(٤) الحديث أعلاه - حسب نقل الغدير - جاء في مستدرك الحاكم، ج ٢، ص ١٣٦، والاستيعاب، ج٢، ص ٤٥٧، وشرح ابن أبي الحديد، ج٣، ص ٢٥٨.

(٥) في المصدر السابق إنّ هذا الحديث قد نقل عن الطبراني، والبيهقي، والهيثمي في المجمع، والحافظ الكنجي في الكفاية، والإكمال، وكنز العمال.

«يا علي، لك سبع خصال لا يحاجك فيهن أحد يوم القيامة: أنت أوّل المؤمنين بالله إيماناً، وأوفاهم بعهد الله، وأقومهم بأمر الله...»(١).

وكما أشرنا سابقاً، فإنّ عشرات الرّوايات في مختلف كتب التاريخ والتّفسير والحديث قد نقلت عن النّبي ﷺ وآخرين في هذا الباب، ومن أراد مزيد الاطلاع فليراجع الجزء الثّالث من الغدير ص ٢٢٠ - ٢٤٠، وكتاب إحقاق الحق الجزء ٣ ص ١١٤ - ١٢٠.

وهنا التفاتة لطيفة، وهي أنّ جماعة لما لم يستطيعوا إنكار سبق علي عليه السلام في الإيمان والإسلام سعوا إلى إنكار ذلك بأساليب أُخر، أو التقليل من أهميّة هذا الموضوع، والبعض يحاول أن يجعل أبا بكر مكان علي عليه السلام، ويدعي أنّه أول من أسلم.

فهم يقولون تارةً إنّ علياً عليه السلام في ذلك الوقت كان في العاشرة من عمره، وهو غير بالغ طبعاً، وعلى هذا فإنّ إسلامه يعني إسلام صبي، ومثل هذا الإسلام لم يكن له تأثير في تقوية جبهة المسلمين وزيادة اقتدارهم في مقابل الأعداء (هذا القول ذكره الفخر الرازي في تفسيره في ذيل الآية).

وهذا عجيب حقّاً، وهو في الحقيقة إيراد واعتراض على شخص النّبي ﷺ، لأنا نعلم أنّ النّبي ﷺ قد عرض الإسلام على عشيرته وقومه يوم الدار، ولم يقبله إلاّ عليّ عليه السلام حين قام وأعلن إسلامه، فقبل النّبي ﷺ إسلامه، بل وخاطبه بأنّك: أخي ووصي وخليفتي.

إنّ هذا الحديث الذي نقله جماعة من حفاظ الحديث، من الشيعة والسنّة، في كتب الصحاح والمسانيد، وكذلك جمع من مؤرخي الإسلام، واستندوا عليه، يبيّن أنّ النّبي ﷺ مضافاً إلى قبوله إسلام علي عليه السلام في ذلك السن الصغير، فإنّه عرفه للحاضرين - وللناس فيما بعد - بأنّه أخوه ووصيه وخليفته(٢).

ويعبرون تارة أُخرى بأنّ أوّل من أسلم من النساء خديجة، ومن الرجال أبو بكر، ومن

---

(١) هذا الحديث - حسب نقل الغدير، ج ٣، ص ٢٢١. قد نقل في كتاب حلية الأولياء، ج ١، ص ٦٦.

(٢) هذا الحديث نقل بعبارات مختلفة، وما أوردناه أعلاه هو ما نقله أبو جعفر الإسكافي في كتاب (نهج العثمانية)، وبرهان الدين في (أنباء نجباء الأبناء)، وابن الأثير في (الكامل)، وآخرون. لمزيد الاطلاع والاستيضاح راجع الجزء الثّاني من الغدير، ص ٢٧٨ - ٢٨٦.

الصبيان علي عليه السلام، وأرادوا بهذا التعبير أن يقللوا من أهميّة إسلام علي عليه السلام. (ذكر هذا التعبير المفسّر المعروف والمتعصّب صاحب المنار في ذيل الآية المبحوثة).

ولكن أوّلاً: كما قلنا، إنّ سن علي عليه السلام الصغير في ذلك اليوم لا يقدح في أهميّة الأمر بأي وجه، ولا يقلل من شأنه، خاصّة وأنّ القرآن الكريم قال في شأن يحيى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾(١)، وكذلك نقرأ ما قاله في شأن عيسى عليه السلام من أنّه تكلم وهو في المهد، وخاطب أُولئك الذين وقعوا في حيرة وشك من أمره وقال: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾(٢).

إنّنا إذا ما ضممنا مثل هذه الآيات إلى الحديث الذي نقلناه آنفاً من أنّه صلى الله عليه وآله وسلم جعل عليّاً عليه السلام وصيه وخليفته اتّضح أن كلام صاحب المنار لم يصدر إلاّ عن تعصب مقيت.

ثانياً: إنّ من غير المسلم تأريخياً أنّ أبا بكر هو ثالث من أسلم، بل ذكروا في كثير من كتب التاريخ والحديث جماعة أُخرى أسلمت قبله.

وننهي هذا البحث بذكر هذا المطلب، وهو أنّ علياً عليه السلام أشار مراراً وتكراراً في خطبه إلى أنّه أوّل من أسلم، وأوّل من آمن، وأوّل من صلّى مع النّبي صلى الله عليه وآله وسلم، وبيّن موقعه من الإسلام، وهذه المسألة قد نقلت عنه في كثير من الكتب.

إضافة إلى أنّ ابن أبي الحديد نقل عن العالم المعروف أبي جعفر الإسكافي المعتزلي، أنّ البعض يقول: إذا كان أبو بكر قد سبق إلى الإسلام، فلماذا لم يستدل لنفسه بذلك في أي موقف؟ بل ولم يدّع ذلك أي أحد من مواليه من الصحابة(٣).

٤ - هل كان الصحابة كلهم صالحين؟

لقد أشرنا سابقاً إلى هذا الموضوع، وإلى أنّ علماء أهل السنّة يعتقدون - عادة - بأنّ جميع أصحاب النّبي فاضلون وصالحون ومن أهل الجنّة، ولمناسبة الآية لهذا البحث، والتي جعلها البعض دليلاً قاطعاً على هذا المُدعى، فإنّنا هنا نحلّل ونفصل هذا الموضوع المهم الذي يعتبر أساساً ومنبعاً لاختلافات كثيرة أُخرى في المسائل الإسلامية.

إنّ كثيراً من مفسّري أهل السنّة نقلوا حديثاً في ذيل هذه الآية، وهو أنّ حميد بن زياد

(١) سورة مريم، الآية: ١٢.
(٢) سورة مريم، الآية: ٣٠.
(٣) الغدير، ج٣، ص ٢٤٠.

قال: ذهبت إلى محمّد بن كعب القرظي وقلت له: ما تقول في أصحاب رسول الله ﷺ؟ فقال: جميع أصحاب رسول الله ﷺ في الجنّة، محسنهم ومسيئهم! فقلت: من أين قلت هذا؟ فقال: اقرأ هذه الآية: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ ثمّ قال: لكن قد اشترط في التابعين أن يتبعوا الصحابة في أعمال الخير (والسابقون الأوّلون من المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم ورضوا عنه ففي هذه الصورة فقط هم من الناجين، أمّا الصحابة فلم يشترط عليهم هذا الشرط)(١).

إلاّ أنّ هذا الادعاء لا يمكن قبوله، وهو مردود بأدلة كثيرة:

أوّلاً: إنّ الحكم المذكور في الآية يشمل التابعين أيضاً، والمقصود من التابعين - كما أشرنا سابقاً - كل الذين يتبعون المهاجرين والأنصار السابقين في معتقداتهم وأهدافهم وبرامجهم، وعلى هذا فإنّ كل الأُمّة بدون استثناء ناجية.

وأمّا ما ورد في حديث محمّد بن كعب، من أنّ الله سبحانه وتعالى قد ذكر قيد الإحسان في التابعين، أي أتباع الصحابة في أعمالهم الحسنة، لا في ذنوبهم، فهو أعجب البحوث وأغربها، لأنّ مفهوم ذلك إضافة الفرع إلى الأصل، فعندما يكون شرط نجاة التابعين أن يتبعوا الصحابة في أعمالهم الحسنة، فاشتراط هذا الشرط على الصحابة أنفسهم يكون بطريق أولى.

وبتعبير آخر فإنّ الله تعالى يبيّن في الآية أنّ رضاه يشمل كل المهاجرين والأنصار السابقين الذين كانت لهم برامج وأهداف صالحة، وكل التابعين لهم، لا أنّه قد رضي عن المهاجرين والأنصار، الصالح منهم والطالح، أمّا التابعون فإنّه يرضى عنهم بشرط.

ثانياً: إنّ هذا الموضوع لا يناسب الدليل العقلي بأي وجه من الوجوه، لأنّ العقل لا يعطي أي امتياز لأصحاب النّبي ﷺ، فما الفرق بين أبي جهل وأمثاله، وبين من آمنوا أوّلاً ثمّ انحرفوا عن الدين؟

ولماذا لا تشمل رحمة الباري والرضوان الإلهي الأشخاص الذين جاؤوا بعد النّبي ﷺ بسنوات وقرون، ولم تكن تضحياتهم وجهادهم أقل ممّا عمله أصحاب النّبي ﷺ، بل قد امتازوا بأنّهم لم يروا نبي الإسلام ﷺ، لكنّهم عرفوه وآمنوا به؟

---

(١) تفسير المنار، وتفسير الفخر الرازي في ذيل الآية أعلاه.

إنّ القرآن الذي يقول: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[1] كيف يرضى هذا التبعيض والتفرقة غير المنطقية؟

إنّ القرآن الذي يلعن الظالمين والفاسقين في آياته المختلفة، ويعدهم ممّن استوجب العقاب والعذاب الإلهي، كيف يوافق ويقرّ هذه الصيانة غير المنطقية للصحابة في مقابل الجزاء الإلهي؟!

هل إنّ مثل هذه اللعنات والتهديدات القرآنية قابلة للاستثناء، وأن يخرج من دائرتها قوم معينون؟ لماذا ولأجل أي شيء؟!

وإذا تجاوزنا عن كل ذلك، ألا يعتبر مثل هذا الحكم بمثابة إعطاء الضوء الأخضر للصحابة ليرتكبوا من الذنب والجريمة ما يحلو لهم؟

ثالثاً: إنّ هذا الحكم لا يناسب المتون التأريخية الإسلامية، لأنّ كثيراً ممّن كان في صفوف المهاجرين والأنصار قد انحرف عن طريق الحق، وتعرض لغضب الرّسول ﷺ الملازم لغضب الله عزّ وجلّ . ألم نقرأ في الآيات السابقة قصّة ثعلبة بن حاطب الأنصاري، وكيف انحرف وأصبح مورد لعنة وغضب رسول الله ﷺ ؟!

ونقول بصورة أوضح: إذا كان مقصود هؤلاء أنّ أصحاب النبي ﷺ لم يرتكبوا أي معصية، وكانوا معصومين، فهذا من قبيل إنكار البديهيات.

وإن كان مقصودهم أنّ هؤلاء قد ارتكبوا المعاصي، وعملوا المخالفات، إلاّ أنّ الله تعالى راضٍ عنهم رغم ذلك، فإنّ معنى ذلك أنّ الله سبحانه قد رضي بالمعصية!

من يستطيع أن يبرىء ساحة طلحة والزبير اللذين كانا في البداية من خواص أصحاب النبي ﷺ ، وكذلك عائشة زوجة النّبي الأكرم ﷺ من دماء سبعة عشر ألف مسلم أُريقت دماؤهم في حرب الجمل؟ هل أنّ الله عزّ وجلّ كان راضياً عن إراقة هذه الدماء؟!

هل أنّ مخالفة علي عليه السلام خليفة رسول الله ﷺ - الذي إذا لم نقبل النّص على خلافته فرضاً، فعلى الأقل كان قد انتخب بإجماع الأُمّة - وشهر السلاح بوجهه وبوجه أصحابه الأوفياء شيء يرضى الله عنه؟

في الحقيقة، إنّ أنصار نظرية (تنزيه الصحابة) بإصرارهم على هذا المطلب والمبحث قد شوّهوا صورة الإسلام الطاهر الذي جعل الإيمان والعمل الصالح هو المعيار والأساس الذي يستند عليه في تقييم الأشخاص في كل المجالات وعلى أي الأحوال.

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

وآخر الكلام إنّ رضى الله سبحانه وتعالى في الآية التي نبحثها قد اتخذ عنواناً كلياً، وهو الهجرة والنصرة والإيمان والعمل الصالح، وكل الصحابة والتابعين تشملهم رحمة الله ورضاه ما داموا داخلين تحت هذه العناوين، فإذا خرجوا منها خرجوا بذلك عن رضى الله تعالى.

ممّا قلنا يتّضح بصورة جلية أنّ قول المفسّر العالم - لكنّه متعصب - أي صاحب المنار، الذي يشن هنا هجوماً عنيفاً وتقريعاً لاذعاً على الشيعة لعدم اعتقادهم بنزاهة الصحابة جميعاً، لا قيمة له، إذ الشيعة لا ذنب لهم إلاّ أنّهم قبلوا حكم العقل وشهادة التاريخ، وشواهد القرآن وأدلّته التي وردت في هذه المسألة، ولم يعتبروا الامتيازات الواهية، والأوسمة التي أعطاها المتعصبون للصحابة بدون استحقاق.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾

التّفسير

مرّة أُخرى يدير القرآن المجيد دفة البحث إلى أعمال المنافقين وفئاتهم، فيقول: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ﴾ أي يجب أن لا تركزوا اهتمامكم على المنافقين الموجودين داخل المدينة، بل ينبغي أن تأخذوا بنظر الاعتبار المنافقين المتواجدين في أطراف المدينة، وتحذروهم، وتراقبوا أعمالهم ونشاطاتهم الخطرة. وكلمة (أعراب) كما أشرنا تقال عادة لسكان البادية.

ثمّ تضيف الآية بأنّ في المدينة نفسها قسماً من أهلها قد وصلوا في النفاق إلى أقصى درجاته، وثبتوا عليه، وأصبحوا ذوي خبرة في النفاق: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾.

﴿مَرَدُوا﴾ مأخوذة من مادة (مرد) بمعنى الطغيان والعصيان والتمرد المطلق، وهي في الأصل بمعنى التعري والتجرّد، ولهذا يقال لمن لم ينبت الشعر في وجهه: (أمرد)، وشجرة مرداء، أي خالية من أي ورقة، والمارد هو الشخص العاصي الذي خرج على القانون وعصاه كلية.

وقال بعض المفسّرين وأهل اللغة: إنّ هذه المادة تأتي بمعنى (التمرين) أيضاً، (ذكر

في تاج العروس والقاموس أن التمرين واحد من معاني هذه الكلمة)، وربّما كان ذلك، لأنّ التجرد المطلق من الشيء، والخروج الكامل من هيمنته لا يمكن تحققه بدون تمرين وممارسة.

على كل حال، فإنّ هؤلاء المنافقين قد انسلخوا من الحق والحقيقة، وتسلطوا على أعمال النفاق إلى درجة أنّهم كانوا يستطيعون أن يظهروا في مصاف المؤمنين الحقيقيين، دون أن ينتبه أحد إلى حقيقتهم ومراوغتهم.

إنّ هذا التفاوت في التعبير عن المنافقين الداخليين والخارجيين في الآية يلاحظ جلياً، وربّما كان ذلك إشارة إلى أنّ المنافقين الداخليين أكثر تسلطاً على النفاق، وبالتالي فهم أشد خطراً، فعلى المسلمين أن يراقبوا هؤلاء بدقّة، لكن يجب أن لا يغفلوا عن المنافقين الخارجين، بل يراقبونهم أيضاً. لذلك تقول الآية مباشرة بعد ذلك ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ ومن الطبيعي أنّ هذا إشارة إلى العلم الطبيعي للنّبي ﷺ، ولكن هذا لا ينافي أن يقف كاملاً على أسرارهم عن طريق الوحي والتعليم الإلهي.

وفي النهاية تبيّن الآية صورة العذاب الذي سيصيب هؤلاء: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾.

لا شكّ أنّ العذاب العظيم إشارة إلى عذاب يوم القيامة، إلاّ أنّ بين المفسّرين نقاشاً واحتمالات عديدة في نوعية العذابين الآخرين وماهيتهما، إلاّ أنّ الذي يرجّحه النظر أنّ واحداً من هذين العذابين هو العقاب الاجتماعي لهؤلاء، والمتمثل في فضيحتهم وهتك أسرارهم، والكشف عمّا في ضمائرهم من خبيث النوايا، وهذا يستتبع خسرانهم لكل وجودهم الاجتماعي، والدليل على ذلك ما قرأناه في الآيات السابقة، وقد ورد في بعض الأحاديث أنّ أعمال هؤلاء عندما كانت تبلغ حدَّ الخطر، كان النّبي ﷺ يعرف هؤلاء الناس بأسمائهم وصفاتهم، بل وربّما طردهم من المسجد[١].

والعذاب الثّاني هو ما أشارت إليه الآية (٥٠) من سورة الأنفال، حيث تقول هناك: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾.

ويحتمل أيضاً أن يكون العذاب الثّاني إشارة إلى المعاناة النفسية والعذاب الروحي الذي كان يعيشه هؤلاء نتيجة انتصارات المسلمين في كل الجوانب والأبعاد والمجالات.

---

(١) بحار الأنوار، ج ٢١، ص ١٢١.

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾

سبب النّزول

نقلت روايات عديدة في سبب نزول هذه الآية، ونواجه في أكثرها اسم (أبي لبابة الأنصاري) فهو - حسب رواية - قد امتنع مع اثنين - أو أكثر - من أصحاب رسول الله ﷺ من الاشتراك في غزوة تبوك، لكنّهم لما سمعوا الآيات التي نزلت في ذم المتخلفين ندموا أشدّ الندم، فجاؤوا إلى مسجد النبي ﷺ وربطوا أنفسهم بأعمدته، فلمّا رجع رسول الله ﷺ وبلغه أمرهم قالوا بأنّهم أقسموا أن لا يفكّوا رباطهم حتى يفكّه رسول الله ﷺ، فأجابهم رسول الله ﷺ بأنّه يقسم أيضاً أن لا يفعل ذلك حتى يأذن له الله، فنزلت الآية، وقبل الله توبتهم، ففكّ رسول الله ﷺ رباطهم.

فأراد هؤلاء أن يشكروا ذلك، فقدموا كل أموالهم بين يدي رسول الله ﷺ وقالوا: إنّ هذه الأموال هي التي صرفتنا ومنعتنا عن الجهاد، فاقبلها منّا، وأنفقها في سبيل الله، فأخبرهم النّبي ﷺ بأنّه لم ينزل عليه شيء في هذا، فلم تمض مدّة حتى نزلت الآية التي تلي هذه الآية، وأمرت النّبي ﷺ أن يأخذ قسماً من أموال هؤلاء، وحسب بعض الرّوايات فإنّه قبل ثلثها.

ونقرأ في بعض الرّوايات، أنّ هذه الآية قد نزلت في قصّة بني قريظة مع أبي لبابة، فإن بني قريظة قد استشاروا أبا لبابة في أن يسلّموا لحكم النّبي ﷺ وأوامره، فأشار إليهم بأنّهم إن سلّموا له فسيقتلهم جميعاً، ثمّ ندم على ما صدر منه، فتاب وشدّ نفسه بعمود المسجد، فنزلت الآية، وقبل الله تعالى توبته[(١)].

التّفسير

التّوابون

بعد أن أشارت الآية السابقة إلى وضع المنافقين في داخل المدينة وخارجها، أشارت هذه الآية هنا إلى وضع جمعٍ من المسلمين العاصين الذين أقدموا على التوبة

(١) تفسير مجمع البيان في ذيل الآية مورد البحث، وتفاسير أُخرى.

لجبران الأعمال السيئة التي صدرت منهم، ورجاء لمحوها: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ ويشملهم برحمته الواسعة فـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

إنّ التعبير بـ ﴿عَسَى﴾ في الآية، والتي تستعمل في الموارد التي يتساوى فيها احتمال الفوز وعدمه، أو تحقق الأمل وعدمه، ربّما كان ذلك كيما يعيش هؤلاء حالة الخوف والرجاء، وهما وسيلتان مهمتان للتكامل والتربية.

ويحتمل أيضاً أنّ التعبير بـ ﴿عَسَى﴾ إشارة إلى وجوب الالتزام بشروط أُخرى في المستقبل، مضافاً إلى الندم على ما مضى والتوبة منه وعدم الاكتفاء بذلك بل يجب أن تجبر الأعمال السيئة التي ارتكبت فيما مضى بالأعمال الصالحة مستقبلاً.

إلاّ أنّنا إذا لاحظنا أنّ الآية تُختم ببيان المغفرة والرحمة الإلهيّة، فإن جانب الأمل والرجاء هو الذي يرجح.

وهناك ملاحظة واضحة أيضاً، وهي أنّ نزول الآية في أبي لبابة، أو سائر المتخلفين عن غزوة تبوك لا يخصص المفهوم الواسع لهذه الآية، بل إنّها تشمل كل الأفراد الذين خلطوا الأعمال الصالحة الحسنة بالسيئة، وندموا على أعمالهم السيئة.

ولهذا نقل عن بعض العلماء قولهم: إنّ هذه الآية أرجى آيات القرآن الكريم، لأنّها فتحت الأبواب أمام المذنبين العاصين، ودعت التّوابين إلى الله الغفور الرحيم.

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

التّفسير

الزّكاة مطهرة للفرد والمجتمع

في الآية الأُولى من هذه الآيات إشارة إلى أحد الأحكام الإسلامية المهمّة، وهي مسألة الزكاة، حيث تأمر النّبي ﷺ بشكل عام أن ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾.

إنّ كلمة ﴿مِنْ﴾ التبعيضية توضح أنّ الزكاة تشكل - دائماً - جزءاً من الأموال، لا أنّها تستوعب جميع الأموال، أو الجزء الأكبر منها.

ثمّ تشير إلى قسمين من الفلسفة الأخلاقية والاجتماعية للزكاة، حيث تقول: ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ فهي تطهرهم من الرّذائل الأخلاقية، ومن حبّ الدنيا وعبادتها، ومن البخل وغيره من مساوىء الأخلاق، وتزرع مكانها خلال الحب والسخاء ورعاية حقوق الآخرين في نفوسهم. وفوق كل ذلك فإنّ المفاسد الاجتماعية والانحطاط الخلقي والاجتماعي المتولّد من الفقر والتفاوت الطبقي والذي يؤدّي إلى وجود طبقة محرومة، كل هذه الأُمور ستقتلع بتطبيق هذه الفريضة الإلهيّة وأدائها، وهي التي تطهر المجتمع من التلوث الذي يعيشه ويحيط به، وكذلك سيفعّل التكافل الاجتماعي، وينمو ويتطور الاقتصاد في ظل مثل هذه البرامج.

وعلى هذا فإنّ حكم الزكاة مطهر للفرد والمجتمع من جهة ويكرّس الفضيلة في النفوس من جهة أُخرى، وهو سبب في تقدم المجتمع أيضاً، ويمكن القول بأنّ هذا التعبير أبلغ ما يمكن قوله في الزكاة، فهي تزيل الشوائب من جهة، ووسيلة للتكامل من جانب آخر.

ويحتمل أيضاً في معنى هذه الآية أن يكون فاعل ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ هو الزكاة، وفاعل ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾ (النّبي ﷺ)، وعلى هذا سيكون معنى هذه الآية هو: إنّ الزكاة تطهرهم، وإنّ النّبي ﷺ هو الذي يربيهم ويزكيهم.

إلاّ أنّ الأظهر أنّ الفاعل في كلا الفعلين هو النّبي ﷺ، كما شرحنا وبيّنا ذلك في البداية، رغم أنّه ليس هناك فرق كبير في النتيجة.

ثمّ تضيف الآية في خطابها للنّبي ﷺ بأنّك حينما تأخذ الزكاة منهم فادع لهم ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾. إنّ هذا يدل على وجوب شكر الناس وتقديرهم، حتى إذا كان ما يؤدونه واجباً عليهم وحكماً شرعياً يقومون به، وترغيبهم بكل الطرق، وخاصّة المعنوية والنفسية، ولهذا ورد في الرّوايات أنّ الناس عندما كانوا يأتون بالزكاة إلى النّبي ﷺ كان يدعو لهم ويقول: «اللهم صل عليهم»[١].

---

(١) نيل الأوطار للشوكاني، ج ٤، ص ٢١٧.

ثمّ تقول الآية: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ لأنّ من بركات هذا الدعاء أن تنزل الرحمة الإلهيّة عليهم، وتغمر قلوبهم ونفوسهم إلى درجة أنّهم كانوا يحسون بها. مضافاً إلى ثناء النّبي ﷺ، أو من يقوم مقامه في جمع زكاة أموال الناس بحدّ ذاته يبعث على خلق نوع من الراحة النفسية والفكرية لهم، بحيث يشعرون بأنّهم إن فقدوا شيئاً بحسب الظاهر، فإنّهم قد حصلوا - قطعاً - على ما هو أفضل منه.

اللطيف في الأمر، أنّنا لم نسمع لحدّ الآن أنّ المأمورين بجمع الضرائب مأمورون بشكر الناس وتقديرهم، إلاّ أنّ هذا الحكم الذي شُرع كحكم مستحب في الأوامر والأحكام الإسلامية يعكس عمق الجانب الإنساني في هذه الأحكام.

وفي نهاية الآية نقرأ: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وهذا الختام هو المناسب لما سبق من بحث في الآية، إذ إنّ الله سبحانه يسمع دعاء النّبي ﷺ، ومطّلع على نيّات المؤدين للزّكاة.

ملاحظات:

١ - يتّضح من سبب النزول المذكور لهذه الآية، أنّ هذه الآية ترتبط بالآية التي سبقتها في موضوع توبة أبي لبابة ورفاقه، لأنّهم - وكشكر منهم لقبول توبتهم - أتوا بأموالهم ووضعوها بين يدي النّبي ﷺ ليصرفها في سبيل الله، إلاّ أنّه ﷺ اكتفى بأخذ قسم منها فقط.

إلاّ أنّ سبب النزول هذا لا ينافي - مطلقاً - أن هذه الآية بيّنت حكماً كلياً عاماً في الزكاة، ولا يصحّ ما طرحه بعض المفسّرين من التضاد بين سبب نزولها وما بيّنته من حكم كلي، كما قلنا ذلك مكرراً في سائر آيات القرآن وأسباب نزولها.

السؤال الوحيد الذي يبقى هنا، هو أنّ النّبي ﷺ - حسب رواية - قد قبل ثلث أموال أبي لبابة وأصحابه، في الوقت الذي لا يبلغ مقدار الزكاة الثلث في أي مورد، ففي الحنطة والشعير والتمر والزبيب العشر أحياناً، وأحياناً جزء من عشرين جزءاً، وفي الذهب والفضة (٢،٥)، وفي الأنعام (البقر والغنم والإبل) لا يصل إلى الثلث مطلقاً.

لكن يمكن الإجابة على هذا السؤال بأنّ النّبي ﷺ قد أخذ قسماً من أموالهم بعنوان الزكاة، والمقدار الإضافي الذي يكمل الثلث بعنوان الكفّارة عن ذنوبهم، وعلى هذا فإنّ النّبي ﷺ قد أخذ الزكاة الواجبة عليهم، ومقداراً آخر لتطهيرهم من ذنوبهم وتكفيرها فكان المجموع هو الثلث.

٢ - إنّ حكم ﴿خُذْ﴾ دليل واضح على أنّ رئيس الحكومة الإسلامية يستطيع أن يأخذ الزكاة من الناس، لا أنّه ينتظر الناس فإن شاؤوا أدّوا الزكاة، وإلاّ فلا.

٣ - إنّ جملة ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ وإن كانت خطاباً للنّبي ﷺ، إلاّ أنّه من المسلّم أنّها في معرض بيان حكم كلّي - لأنّ القانون الكلّي يعني أنّ الأحكام الإسلامية تجري على النّبي ﷺ وباقي المسلمين على السواء، ومختصات النّبي من جانب الأحكام يجب أن تثبت بدليل خاصّ - وعلى هذا فإنّ المسؤولين عن بيت المال في كلّ عصر وزمان يستطيعون أن يدعوا لمؤدّي الزكاة بجملة: «اللّهم صلّ عليهم».

وممّا يثير العجب أنّ بعض المتعصبين من العامّة لم يجوز الصلاة مستقلة على آل الرّسول ﷺ، أي إنّ شخصاً لو قال: (اللّهمَّ صلِّ على عليّ أمير المؤمنين) أو: (صلِّ على فاطمة الزّهراء) فإنّهم اعتبروا ذلك ممنوعاً وحراماً! في الوقت الذي نعلم أنّ منع مثل هذا الدعاء هو الذي يحتاج إلى دليل، لا جوازه!

إضافةً إلى أنّ القرآن الكريم - كما قلنا سابقاً - قد أجاز بصراحة مثل هذا الدعاء في حق أفراد عاديين، فكيف بأهل بيت رسول الله ﷺ وخلفائه؟! لكن، ماذا يمكن عمله؟ فإنّ التعصبات قد تقف أحياناً مانعة حتى من فهم آيات القرآن.

ولمّا كان بعض المذنبين - كالمتخلفين عن غزوة تبوك - يصرّون على النّبي ﷺ في قبول توبتهم، أشارت الآية الثّانية من الآيات التي بين يدينا إلى أنّ قبول التوبة ليس مرتبطاً بالنّبي ﷺ، بل بالله الغفور الرحيم، لذا قالت: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾. ولا ينحصر الأمر بتوقّف قبول التوبة على قبول الله لها، بل إنّه تعالى هو الّذي يأخذ الزكاة والصدقات الأُخرى التي يعطيها العباد تقرباً إليه، أو تكفيراً لذنوبهم: ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾.

لا شكَّ في أنَّ الذي يأخذ الزكاة هو النّبي ﷺ أو الإمام المعصوم عليه السلام أو خليفة المسلمين وقائدهم، أو الأفراد المستحقون، وفي كلّ هذه الأحوال فإنّ الله تبارك وتعالى لا يأخذ الصدقات ظاهراً، ولكن لمّا كانت يد النّبي ﷺ والنّواب الحقيقيين يد الله سبحانه - لأنّهُم خلفاء الله ووكلاؤه - قالت الآية: إنّ الله يأخذ الصدقات. وكذلك العباد المحتاجون، فإنّهُم بأمر الله يأخذون مثل هذه المساعدات، وهم في الحقيقة وكلاء الله، وعلى هذا فإنّ يدهم يد الله أيضاً.

إنَّ هذا التعبير من ألطف التعبيرات التي تجسّد عظمة هذا الحكم الإسلامي - أي

الزكاة - فبالرغم من ترغيب كلّ المسلمين ودعوتهم إلى القيام بهذه الوظيفة الإلهيّة الكبيرة، فإنّها تحذرهم بشدّة وتأمرهم بأن يراعوا الآداب الإسلامية ويتقيّدوا باحترام من يؤدّونها إليه، لأنَّ من يأخذها هو الله عزّوجلّ ، وإنَّما حذرتهم حتى لا يتصور بعض الجهال، أنّه لا مانع من تحقير المحتاجين، أو إعطائه الزكاة بشكل يؤدّي إلى تحطيم شخصية آخذ الزكاة، بل بالعكس عليهم أن يؤدّوها بكلِّ أدب وخضوع، كما يوصل العبد شيئاً إلى مولاه.

ففي رواية عن النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم : «إنَّ الصدقة تقع في يد الله قبل أن تصل إلى يد السائل»(١)!

وفي حديث آخر عن الإمام السّجاد عليه السلام : «إنَّ الصدقة لا تقع في يد العبد حتى تقع في يد الرّب»(٢).

بل إنّ رواية صرّحت بأنّ كلَّ أعمال ابن آدم تتلقاها الملائكة إلاّ الصدقة، فإنّها تصل مباشرة إلى يد الله سبحانه(٣).

هذا المضمون قد ورد في روايات أهل البيت عليهم السلام بعبارات مختلفة، ونقل أيضاً عن النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم عن طريق العامّة، فقد جاء في صحيح مسلم والبخاري: «ما تصدق أحدكم بصدقة من كسب حلال طيب - ولا يقبل الله إلاّ الطيب - إلاّ أخذها الرحمن بيمينه، وإن كانت تمرة، فتربو في كفِّ الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل»(٤).

إنَّ هذا الحديث المشحون بالتشبيهات والكنايات، والعظيم المعنى، مؤشر ودليل على الأهمية الخاصّة للخدمات الإنسانية ومساعدة المحتاجين والمحرومين في الأحكام الإسلامية.

لقد وردت عبارات حديثية أُخرى في هذا المجال، وهي مهمّة وملفتة للنظر إلى درجة أن أتباع هذا الدين يرون أنفسهم خاضعين لمن يأخذ منهم صدقاتهم، وكأنّ ذلك المحتاج يمن على المتصدّق ويتفضل عليه بقبول صدقته.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.

(٢) تفسير العياشي، ج ٢، ص ١٠٨، على ما نقل في تفسير الصافي في ذيل الآية مورد البحث.

(٣) المصدر السابق.

(٤) تفسير المنار، ج ١١، ص ٣٣. وقد نقل هذا الحديث عن طريق أهل البيت عليهم السلام عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً. راجع: بحار الأنوار، ج ٩٦، ص ١٣٤، الطبعة الجديدة.

فمثلاً نجد في بعض الأحاديث، أنّ الأئمّة المعصومين عليهم السلام كانوا أحياناً يقبلون الصّدقة احتراماً وتعظيماً للصدقة، ثمّ يعطونها الفقراء، أو أنّهم كانوا يعطونها للفقير ثمّ يأخذونها منه يقبّلونها ويشمّونها ثمّ يعيدونها إليه، لماذا؟ لأنّهم وضعوها في يد الله سبحانه!

وبهذا ندرك عظيم الفاصلة بين الآداب الإسلامية وبين الأشخاص الذين يحقرون المحتاجين فيما إذا أرادوا أن يعطوا الشيء اليسير، أو يعاملونهم بخشونة وقسوة، بل ويرمون مساعدتهم أحياناً بلا أدب وخلق؟!

وكما قلنا في محلّه، فإنّ الإسلام يسعى بكلّ جدّ على أن لا يبقى فقير واحد في المجتمع الإسلامي، إلاّ أنّه ممّا لا شك فيه أنّ في كلّ مجتمع أفراداً عاجزين أطفال، يتامى، مرضى... وأمثال هؤلاء ممّن لا قدرة له على العمل، وهؤلاء يجب تأمين احتياجاتهم عن طريق بيت المال والأغنياء، لكن هذا التأمين يجب أن يرافقه احترامهم وصيانة شخصياتهم.

ثمّ قالت الآية في النهاية من باب التأكيد: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

التّوبة والجبران

يستفاد من عدّة آيات في القرآن الكريم أنّ التوبة لا تعني الندم على المعصية فحسب، بل يجب أن يرافقها ما يجبر ويكفّر عن الذنب، ويمكن أن يتمثل جبران هذا الخطأ بمساعدة المحتاجين ببذل ما يحتاجونه، كما هو في هذه الآيات، وكما مرّ في قصّة أبي لبابة.

ولا فرق في كون الذنب المقترف ذنباً مالياً، أو أي ذنب آخر، كما هو الحال في قضية المتخلفين عن غزوة تبوك، فإنّ الهدف في الواقع هو تطهير الروح التي تلوّثت بالمعصية من آثار هذه المعصية، وذلك بالعمل الصالح، وهذا هو الذي يُرْجِع الروح إلى طهارتها الأُولى التي كانت عليها قبل الذنب.

وتؤكّد الآية التي تليها البحوث التي مَرّت بصورة جديدة، وتأمر النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يبلغ الناس: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فهي تشير إلى أن لا يتصور أحد أنه إذا عمل عملاً، سواء في خلوته أو بين الناس فإنّه سيخفى على علم الله سبحانه، بل إنّ الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين يعلمون به إضافةً إلى علم الله عزّ وجلّ.

إنّ الالتفات إلى هذه الحقيقة والإيمان بها له أعمق الأثر في تطهير الأعمال

والنيّات، فإنّ الإنسان - عادة - إذا أحسّ بأنّ أحداً ما يراقبه ويتابع حركاته وسكناته، فإنّه يحاول أن يتصرّف تصرفاً لا نقص فيه حتى لا يؤاخذه عليه من يراقبه، فكيف إذا أحسّ وآمن بأنّ الله ورسوله والمؤمنين يطلعون على أعماله؟!

إنّ هذا الاطلاع هو مقدمة للثواب أو العقاب الذي ينتظره في العالم الآخر، لذا فإنّ الآية الكريمة تعقب على ذلك مباشرة وتقول: ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

بحوث

١ - مسألة عرض الأعمال

إنّ بين أتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام، ونتيجة للأخبار الكثيرة الواردة عن الأئمّة عليهم السلام، عقيدة معروفة ومشهورة، وهي أنّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمّة عليهم السلام يطلعون على أعمال كل الأُمّة، أي أنّ الله تعالى يعرض أعمالها بطرق خاصّة عليهم.

إنّ الرّوايات الواردة في هذا الباب كثيرة جدّاً، وربّما بلغت حدّ التواتر، وننقل هنا أقساماً منها كنماذج:

روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «تعرض الأعمال على رسول الله أعمال العباد كل صباح، أبرارها وفجارها، فاحذروها، وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ وسكت»[1].

وفي حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام: «إنّ الأعمال تعرض على نبيّكم كل عشية الخميس، فليستح أحدكم أن يعرض على نبيّه العمل القبيح»[2].

وفي رواية أُخرى عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، أنّ شخصاً قال له: ادع الله لي ولأهل بيتي، فقال: «أولست أفعل؟ والله إنّ أعمالكم لتعرض عليَّ في كل يوم وليلة». يقول الراوي، فاستعظمت ذلك، فقال لي، «أما تقرأ كتاب الله عزّ وجلّ: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾، هو والله علي بن أبي طالب»[3].

---

(١) أصول الكافي، ج ١، ص ١٧١ ٢١٩، باب عرض الأعمال..

(٢) تفسير البرهان، ج٢، ص ١٥٨.

(٣) أصول الكافي، ج ١، ص ٢١٩، باب عرض الأعمال.

إنّ بعض هذه الأخبار ورد فيها ذكر النّبي ﷺ فقط، وفي بعضها علي عليه السلام، وفي بعضها الآخر ذكر النّبي ﷺ والأئمّة عليهم السلام، كما أنّ بعضها قد خص وقت عرض الأعمال بعصر الخميس، وبعضها جعله كل يوم، وبعضها في الأسبوع مرّتين، وبعضها في أوّل كل شهر، وبعضها عند الموت والوضع في القبر.

ومن الواضح عدم المنافاة بين هذه الرّوايات، ويمكن أن تكون كلّها صحيحة، تماماً كما هو الحال في دستور عمل المؤسسات الخيرية، فالمحصلة اليومية تعرض في نهاية كل يوم، والأسبوعية منها في نهاية كل أسبوع، والشهرية أو السنوية في نهاية الشهر أو السنة على المسؤولين في المراتب العليا.

وهنا يطرح سؤال، وهو: هل يمكن استفادة هذا الموضوع من نفس الآية مع غضّ النظر عن الرّوايات التي وردت في تفسيرها؟ أم أنّ الأمر كما قاله مفسّرو العامّة، وهو أنّ الآية تشير إلى أمر طبيعي، وهو أنّ الإنسان إذا عمل أي عمل، فإنّه سيظهر، شاء أم أبى، ومضافاً إلى علم الله سبحانه، فإنّ النّبي ﷺ والمؤمنين سيطلعون على ذلك العمل بالطرق الطبيعة؟

وفي الجواب عن هذا السؤال يجب أن يقال: الحق أنّ لدينا شواهد على هذا الموضوع من نفس الآية، وذلك:

أوّلاً: إنّ الآية مطلقة، وهي تشمل جميع الأعمال، فإنّا نعلم أنّ جميع الأعمال لا يمكن أن تتّضح للنّبي ﷺ والمؤمنين بالطرق العادية الطبيعية، لأنّ أكثر المعاصي ترتكب في السر، وتبقى مستترة عن الأنظار والعلم غالباً، بل إنّ الكثير من أعمال الخير أيضاً تُعمل في السرّ، ويلفها الكتمان. ودعوى أنّ كل الأعمال، الصالحة منها والطالحة، أو أغلبها تتّضح للجميع واضحة البطلان وبعيدة كل البعد عن المنطق والحكمة. وعلى هذا فإنّ علم النّبي ﷺ والمؤمنين بأعمال الناس يجب أن يكون عن طريق غير طبيعي، بل عن طريق التعليم الإلهي.

ثانياً: إنّ آخر الآية يقول: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ولا شك أنّ هذه الجملة تشمل كل أعمال البشر - العلنية منها والمخفية - وظاهر تعبير الآية أنّ المقصود من العمل الوارد في أولها وآخرها واحد، وعلى هذا فإنّ أول الآية يشمل أيضاً كل الأعمال - الظاهرة منها والباطنة - ولا شك أنّ الوقوف عليها كاملاً لا يمكن بالطرق المعروفة الطبيعية.

وبتعبير آخر، فإنّ نهاية الآية تتحدث عن جزاء جميع الأعمال، وكذلك تبحث بداية

الآية عن علم الله ورسوله والمؤمنين بكل الأعمال، فهنا مرحلتان: إحداهما: مرحلة الاطلاع والعلم، والأُخرى: مرحلة الجزاء، والموضوع واحد في المرحلتين.

ثالثاً: إنّ ضميمة المؤمنين في الآية إلى الله ورسوله يصح في صورة يكون المقصود فيها كل الأعمال وبطرق غير طبيعية، وإلاّ فإنّ الأعمال العلنية يراها المؤمنون وغير المؤمنين على السواء، ومن هنا تتّضح مسألة أُخرى بصورة ضمنية، وهي أنّ المقصود من المؤمنين في الآية - كما ورد في الرّوايات الكثيرة أيضاً - ليس جميع المؤمنين، بل فئة خاصّة منهم، وهم الذين يطلعون على الأسرار الغيبية بإذن الله تعالى، ونعني بهم خلفاء النّبي ﷺ الحقيقيين.

والمسألة الأُخرى التي يجب الانتباه لها هنا، وهي - كما أشرنا سابقاً - أنّ مسألة عرض الأعمال لها أثر عظيم على المعتقدين بها، فإنّي إذا علمت أنّ الله الموجود في كل مكان معي، وبالإضافة إلى ذلك فإنّ نبيي ﷺ وأئمّتي عليهم السلام يطلعون على كل أعمالي، الحسنة والسيئة في كل يوم، أو في كل أسبوع، فلا شك أنّي سأكون أكثر مراقبة ورعاية لما يبدر منّي من أعمال، وأحاول تجنب السيئة منها ما أمكن، تماماً كما لو علم العاملون في مؤسسة ما بأنّ تقريراً يومياً أو أسبوعياً، تسجل فيه جزئيات أعمالهم، يُرفع إلى المسؤولين ليطلعوا على دقائق أعمالهم.

٢ - هل الرّؤية هنا تعني النظر؟

المعروف بين جمع من المفسّرين أنّ الرؤية الواردة في قوله تعالى: ﴿فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ . . .﴾ تعني المعرفة، لا العلم، لأنّها لم تأخذ أكثر من مفعول واحد ولو كانت الرؤية بمعنى العلم لأخذت مفعولين.

لكن لا مانع أن تكون الرؤية بمعناها الأصلي، وهو مشاهدة المحسوسات، لا بمعنى العلم، ولا بمعنى المعرفة، فإنّ هذا الموضوع بالنسبة إلى الله سبحانه وتعالى الموجود في كل مكان، والمحيط بكل المحسوسات لا مناقشة فيه.

وأمّا بالنسبة للنّبي ﷺ والأئمّة عليهم السلام، فلا مانع من ذلك أيضاً، حيث إنّهم يرون نفس الأعمال عند عرضها، لأنّا نعلم أنّ أعمال الإنسان لا تفنى، بل تبقى إلى يوم القيامة.

٣ - الأعمال وعلم الله سبحانه:

لا شك أنّ الله عزّ وجلّ يعلم بالأعمال قبل وقوعها، والذي في جملة: ﴿فَسَيَرَى اللَّهُ﴾ إشارة إلى تلك الأعمال بعد تحققها في عالم الوجود.

﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾

سبب النزول

قال جماعة من المفسّرين: إنّ هذه الآية نزلت في ثلاثة من المتخلفين عن غزوة تبوك، وهم: «هلال بن أُمية» و«مرارة بن ربيع» و«كعب بن مالك»، وسيأتي بيان ندمهم على ذلك(١) وكيفية توبتهم في ذيل الآية ١١٨ من هذه السورة، إن شاء الله تعالى.

ويستفاد من بعض الرّوايات الأُخرى أنّ هذه الآية نزلت في بعض الكفّار الذين قتلوا الشخصيات الإسلامية الكبرى - كحمزة سيد الشهداء - في ساحات الحروب، ثمّ اهتدوا ودخلوا في دين الإسلام(٢).

التّفسير

في هذه الآية إشارة إلى مجموعة من المذنبين الذين لم تتّضح جيداً عاقبة أمرهم، فلا هم مستحقون حتماً للرحمة الإلهيّة، ولا من المغضوب عليهم حتماً، لذا فإنّ القرآن الكريم يقول في حقّهم: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾.

﴿مُرْجَوْنَ﴾ مأخوذ من مادة (إرجاء) بمعنى التأخير والتوقيف، وفي الأصل أخذت من (رجاء) بمعنى الأمل، ولما كان الإنسان قد يؤخر شيئاً ما أحياناً رجاء تحقق هدف من هذا التأخير، فإنّ هذه الكلمة قد جاءت بمعنى التأخير، إلاّ أنّه تأخير ممزوج بنوع من الأمل.

إنّ هؤلاء في الحقيقة ليس لهم من الإيمان الخالص والعمل الصالح بحيث يمكن عدّهم من أهل السعادة والنجاة، وليسوا ملوّثين بالمعاصي ومنحرفين عن الجادة بحيث يُكتبون من الأشقياء، بل يوكل أمرهم إلى اللطف الإلهي كيف سيعامل هؤلاء، وهذا طبعاً حسب أوضاعهم الروحية ومواقعهم.

---

(١) بحار الأنوار، ج ٢١، ص ٢٠٢ و ٢٠٤.

(٢) أصول الكافي، ج ٢، ص ٤٠٧.

وتضيف الآية - بعد ذلك - أنّ الله سبحانه سوف لا يحكم على هؤلاء بدون حساب، بل يقضي بعلمه وحكمته: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

سؤال:

وهنا يطرح سؤال مهم قلّما بحثه المفسّرون بصورة وافية، وهو ما الفرق بين هذه الفئة، والفئة التي مرّ بيان حالتها في الآية (١٠٢) من هذه السورة؟ فإنّ كلتا الجماعتين كانوا من المذنبين، وكلتا المجموعتين تابوا، لأنّ المجموعة الأُولى اعترفوا بذنوبهم، وأظهروا الندم عليها، والمجموعة الثّانية تستفاد توبتهم من قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾. وكذلك فإنّ كلا الفئتين ينتظر أفرادها الرحمة الإلهيّة ويعيشون حالة الخوف والرجاء.

الجواب:

وللجواب على هذا السؤال نقول: إنّه يمكن التفرقة بين هاتين الطائفتين عن طريقين:

١ - إنّ الطائفة الأُولى تابوا بسرعة، وأظهروا ندمهم بصورة واضحة، فمثلاً نرى أبا لبابة قد أوثق نفسه بعمود المسجد، وبعبارة موجزة: إنّ هؤلاء أعلنوا ندمهم صريحاً، وأظهروا استعدادهم لتحمل الكفارة البدنية والمالية مهما كانت.

أمّا أفراد الطائفة الثّانية فإنّهم لم يظهروا ندمهم في البداية، ولو أنّهم ندموا في أنفسهم ووجدانهم، ولم يُظهروا استعدادهم لتحمل ما يترتب على ذنبهم ومعصيتهم، فهم في الواقع كانوا يطمحون إلى العفو عن ذنوبهم الكبيرة بكل بساطة ويسر.

إنّ هؤلاء - ومثالهم الواضح هو الثلاثة الذين أُشير إليهم، وسيأتي بيان وضعهم - بقوا في حالة الخوف والرجاء، ولهذا نرى أنّ النّبي ﷺ أمر الناس أن يقاطعوهم ويبتعدوا عنهم، وبهذا فقد عاشوا محاصرة اجتماعية شديدة اضطروا نتيجتها أن يسلكوا في النهاية نفس الطريق الذي سلكه أتباع الفريق الأوّل، ولما كان قبول توبة هؤلاء في ذلك الوقت يظهر بنزول آية، فقد بقي النّبي ﷺ في انتظار الوحي، حتى قبلت توبتهم بعد خمسين يوماً أو أقل.

ولهذا فإنّا نرى الآية نزلت في حق الطائفة الأُولى قد ختمت بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وهو دليل على قبول توبتهم، أمّا الطائفة الثّانية فما داموا لم يغيّروا مسيرهم فقد جاءت جملة: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ التي لا تدل من قريب أو بعيد على قبول توبتهم.

ولا مجال للتعجب من أنّ الندم لوحده لم يكن كافياً لقبول التوبة من المعاصي

الكبيرة، خاصّة في عصر نزول الآيات، بل يشترط مع ذلك الإقدام على الاعتراف الصريح بالذنب، والاستعداد لتحمل كفارته وعقوبته، وبعد ذلك نزول الآية التي تبشر بقبول التوبة.

٢ - الفرق الثّاني بين هاتين الطائفتين، هو أنّ الطائفة الأُولى بالرغم من أنّهم عصوا بتخلفهم عن أداء واجب إسلامي كبير، أو لتسريبهم بعض الأسرار العسكرية إلى الأعداء، إلاّ أنّهم لم يرتكبوا الكبائر العظيمة كقتل حمزة سيد الشهداء، ولهذا فإنّهم بمجرّد أن تابوا واستعدوا للجزاء قبل الله توبتهم. غير أن قتل حمزة وأمثاله لم يكن بالشيء الذي يمكن جبرانه، ولهذا فإنّ نجاة هذا الفريق مرتبطة بأمر الله وإرادته، إمّا يعفو عنهم أو يعاقبهم.

وعلى أي حال، فإنّ الجواب الأوّل يناسب تلك المجموعة من الرّوايات الواردة في سبب النزول، والتي تربط الآية بالثلاثة المتخلفين عن غزوة تبوك، أمّا الجواب الثّاني فإنّه يوافق الرّوايات العديدة الواردة من طرق أئمّة أهل البيت عليهم السلام، والتي تقول إنّ هذه الآية تشير إلى قاتلي حمزة وجعفر وأمثالهما(١).

ولو دققنا النظر حقاً لرأينا أن لا منافاة بين الجوابين، ويمكن أن يكون كل منهما مقصوداً في تفسير الآية.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ ۖ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠)﴾

---

(١) للاطلاع على هذه الرّوايات، راجع تفسير نور الثقلين، ج٢، ص ٢٦٥، وتفسير البرهان، ج٢، ص١٠٦.

سبب النّزول

تتحدث الآيات أعلاه عن جماعة أُخرى من المنافقين الذين أقدموا - من أجل تحقيق أهدافهم المشؤومة - على بناء مسجد في المدينة، عرف فيما بعد بـ(مسجد الضرار).

وقد ذكر هذا الموضوع كل المفسّرين الإسلاميين، وكثير من كتب التاريخ والحديث، مع وجود اختلافات في جزئياته.

وخلاصة القضية - كما تستفاد من التفاسير والأحاديث المختلفة - أنّ جماعة من المنافقين أتوا إلى النبي ﷺ وطلبوا منه أن يسمح لهم ببناء مسجد في حي بني سليم - قرب مسجد قبا - حتى يصلي فيه العاجزون والمرضى والشيوخ، وكذلك ليصلي فيه جماعة من الناس الذين لا يستطيعون أن يحضروا مسجد قبا في الأيّام الممطرة، ويؤدّوا فرائضهم الإسلامية، وكان ذلك في الوقت الذي كان فيه النّبي ﷺ عازماً على التوجه إلى تبوك.

فأذن لهم النّبي ﷺ، إلاّ أنّهم لم يكتفوا بذلك، بل طلبوا منه أن يصلي فيه، فأخبرهم بأنّه عازم على السفر الآن، وعند عودته بإذن الله فسوف يأتي مسجدهم ويصلي فيه.

فلمّا رجع النّبي ﷺ من تبوك حضروا عنده وطلبوا منه الحضور في مسجدهم والصلاة فيه، وأن يدعو الله لهم بالبركة، وكان النّبي ﷺ لم يدخل بعد أبواب المدينة، فنزل الوحي وتلا عليه هذه الآيات، وكشف الستار عن أعمال هؤلاء، فأمر النّبي بحرق المسجد المذكور، وبهدم بقاياه، وأن يُجعل مكانه محلاً لرمي القاذورات والأوساخ.

إذا نظرنا إلى الوجه الظاهري لهذا العمل، فسوف نتحير في البداية، فهل أنّ بناء مسجد لحماية المرضى والطاعنين في السن من الظروف الطارئة، والذي هو في حقيقته عمل ديني وخدمة إنسانية، يعدّ عملاً مضراً وسيئاً حتى يصدر في حقّه هذا الحكم؟ إلاّ أنّنا إذا دققنا النظر في الواقع الباطني وحققناه رأينا أنّ هذا الأمر بهدمه في منتهى الدقّة.

وتوضيح ذلك، أنّ رجلاً في زمن الجاهلية يقال له: أبو عامر، كان قد اعتنق النصرانية، وسلك مسلك الرهبانية، وكان يُعدّ من الزهاد والعباد وله نفوذ واسع في طائفة الخزرج.

وعندما هاجر النّبي ﷺ إلى المدينة واحتضنه المسلمون ونصروه وبعد انتصار

المسلمين على المشركين في معركة بدر، رأى أبو عامر - الذي كان يوماً من المبشرين بظهور النّبي ﷺ - أنّ الناس قد انفضوا من حوله، وبقي وحيداً، وعند ذلك قرر محاربة الإسلام، فهرب من المدينة إلى كفّار مكّة، واستمد منهم القوّة لمحاربة النّبي ﷺ، ودعا قبائل العرب لذلك فكان ينفذ ويقود جزءاً من مخططات معركة أُحد، وهو الذي أمر بحفر الحفر بين الصفين والتي سقط النبي ﷺ في أحدها فجرحت جبهته وكُسرت رباعيته.

فلمّا انتهت غزوة أُحد بكل ما واجه المسلمون فيها من مشاكل ونوائب، دوى صوت الإسلام أكثر من ذي قبل، وعمّ كل الأرجاء، فهرب أبو عامر من المدينة وذهب إلى هرقل ملك الروم ليستعين به في قتال النّبي ﷺ، وليرجع إلى المسلمين ويقاتلهم في جحفل لجب وجيش عظيم.

ويلزم هنا أن نذكر هذه النقطة، وهي أنّ النّبي ﷺ لما رأى ما صدر منه من التحريض والدعوة لقتال المسلمين ونبيّهم سمّاه ﴿فَاسِقًا﴾.

يقول البعض: إنّ الموت لم يمهله حتى يُطلع هرقل على نواياه ومشاريعه، إلاّ أنّ البعض الآخر يقول: إنّه اتصل بهرقل وتحمس لوعوده!

على كل حال، فإنّه قبل أن يموت أرسل رسالة إلى منافقي المدينة يبشرهم فيها بالجيش الذي سيصل لمساعدتهم، وأكّد عليهم بالخصوص على أن يبنوا له مركزاً ومقرّاً في المدينة ليكون منطلقاً لنشاطات المستقبل.

ولما كان بناء مثل هذا المقر، وباسم أعداء الإسلام غير ممكن عملياً، رأى المنافقون أن يبنوا هذا المقر تحت غطاء المسجد، وبعنوان مساعدة المرضى والعاجزين.

وأخيراً تمّ بناء المسجد، ويقال إنّهم اختاروا شاباً عارفاً بالقرآن من بين المسلمين يقال له: «مجمع بن حارثة» أو «مجمع بن جارية» وأوكلوا له إمامة المسجد.

إلاّ أنّ الوحي الإلهي أزاح الستار عن عمل هؤلاء، وربّما لم يأمر النّبي ﷺ بشيء قبل ذهابه إلى تبوك ليواجه هؤلاء بكل شدّة، من أجل أن يتّضح أمرهم أكثر من جهة، ولئلا ينشغل فكرياً وهو في مسيره إلى تبوك بما يمكن أن يحدث فيما لو أصدر الأمر.

وكيف كان، فإنّ النّبي ﷺ لم يكتف بعدم الصلاة في المسجد وحسب، بل إنّه - كما قلنا - أمر بعض المسلمين - وهم مالك بن دخشم، ومعن بن عدي، وعامر بن

سكر أو عاصم بن عدي - أن يحرقوا المسجد ويهدموه، فنفذ هؤلاء ما أُمروا به، فعمدوا إلى سقف المسجد فحرقوه، ثمّ هدموا الجدران، وأخيراً حولوه إلى محل لجمع الفضلات والقاذورات(١).

التّفسير

معبد وثني في صورة مسجد!

أشارت الآيات السابقة إلى وضع مجاميع مختلفة من المخالفين، وتُعَرِّف الآيات التي نبحثها مجموعة أُخرى منهم، المجموعة التي دخلت حلبة الصراع بخطة دقيقة وذكية، إلاّ أنّ اللطف الإلهي أدرك المسلمين، وبدّد أحلام المنافقين بإبطال مكرهم وإحباط خطتهم.

فالآية الأُولى تقول: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا﴾(٢) وأخفوا أهدافهم الشريرة تحت هذا الاسم المقدس، ثمّ لخصت أهدافهم في أربعة أهداف:

١ - إنّ هؤلاء كانوا يقصدون من هذا العمل إلحاق الضرر بالمسلمين، فكان مسجدهم ﴿ضِرَارًا﴾.

«الضرار» تعني الإضرار العمدي، وهؤلاء في الواقع بعكس ما كانوا يدّعونه من أنّ هدفهم تأمين مصالح المسلمين ومساعدة المرضى والعاجزين عن العمل، كانوا يسعون من خلال هذه المقدمات إلى المكيدة بالنّبي ﷺ ورسالته، وسحق المسلمين، بل إذا استطاعوا أن يقتلعوا الدين الإسلامي وجذوره من صفحة الوجود فإنّهم سوف لا يقصرون في هذا السبيل.

٢ - تقوية أُسس الكفر، ومحاولة إرجاع الناس إلى الحالة التي كانوا يعيشونها قبل الإسلام: ﴿وَكُفْرًا﴾.

٣ - إيجاد الفرقة بين المسلمين، لأنّ اجتماع فئة من المسلمين في هذا المسجد

---

(١) تفسير مجمع البيان، وتفسير أبي الفتوح للرازي، وتفسير المنار، وتفسير الميزان، وتفسير نور الثقلين، وكتب أُخرى.

(٢) بالرغم من أنّ المفسّرين قد أبدوا وجهات نظر مختلفة من الناحية الأدبية حول تركيب هذه الجملة، إلاّ أنّ الظاهر هو أنّ هذه الجملة معطوفة على الجمل السابقة التي وردت في شأن المنافقين، وتقديرها هكذا: «ومنهم الذين اتخذوا مسجداً...».

سيقلّل من عظمة التجمع في مسجد قبا الذي كان قريباً منه، أو مسجد النّبي ﷺ الذي كان يبعد عنه، ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ويظهر من هذه الجملة - وكذلك فهم بعض المفسّرين - أنّ المسافة بين المساجد يجب أن لا تكون قليلة بحيث يؤثر الاجتماع في مسجد على جماعة المسجد الآخر، وعلى هذا فإنّ الذين يبنون المساجد أحدها إلى جانب الآخر بدافع من التعصب القومي، أو الأغراض الشخصية ويفرقون جماعات المسلمين بحيث تبقى صفوف الجماعة خالية لا روح فيها ولا جاذبية، يرتكبون ما يخالف الأهداف الإسلامية.

٤ - والهدف الأخير لهؤلاء هو تأسيس مقرّ ومركز لإيواء المخالفين للدين وأصحاب السوابق السيئة، والانطلاق من هذا المقر في سبيل تنفيذ خططهم ومؤامراتهم: ﴿وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾.

إلاّ أنّ ممّا يثير العجب أنّ هؤلاء قد أخفوا كل هذه الأغراض الشريرة والأهداف المشؤومة في لباس جميل ومظهر خداع، وأنّهم لايريدون إلاّ الخير: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ﴾ وهذا هو دين المنافقين وديدنهم في كل العصور، فإنّهم إضافة إلى تلبسهم بلباس حسن، فإنّهم يتوسلون عند الضرورة بأنواع الأيمان الكاذبة من أجل تضليل الرأي العام، وانحراف الأفكار.

إلاّ أنّ القرآن الكريم يبيّن أن الله تعالى الذي يعلم السرائر وما في مكنون الضمائر، والذي تساوى لديه الظاهر والباطن، والغيب والشهادة يشهد على كذب هؤلاء: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

في هذه الجملة نلاحظ عدة تأكيدات لتكذيب هؤلاء، فهي جملة اسمية أوّلاً، ثمّ إنّ كلمة ﴿إِنَّ﴾ للتأكيد، وأيضاً اللام في ﴿لَكَاذِبُونَ﴾، والتي تسمى لام الابتداء تفيد التأكيد، وكذلك فإنّ مجيء كلمة (كاذبون) مكان الفعل الماضي دليل على استمرارية كذب هؤلاء، وبهذه التأكيدات فإنّ الله سبحانه وتعالى قد كذّب أيمان هؤلاء المغلظة والمؤكدة أشد تكذيب.

يؤكّد الله سبحانه وتعالى في الآية التالية تأكيداً شديداً على مسألة حياتية مهمّة، ويأمر نبيّه بصراحة أن ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ بل ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ لا المسجد الذي أُسس من أوّل يوم على الكفر والنفاق وتقويض أركان الدين.

إنّ كلمة ﴿أَحَقُّ﴾ وإن كانت أفعل التفضيل، إلاّ أنّها لم تأت هنا بمعنى المقارنة بين

شيئين في التناسب والملاءمة، بل هي تقارن بين التناسب وعدمه، والملاءمة وعدمها، ومثل هذا التعبير يستعمل كثيراً في آيات القرآن الكريم والأحاديث، بل وفي محادثاتنا اليومية، وله نماذج عديدة:

فمثلاً نقول للشخص المجرم والسارق: إنّ الاستقامة والعمل الصالح الصحيح أحسن لك، فإنّ هذا الكلام لا يعني أنّ السرقة والتلوث بالجريمة شيء حسن، وأن الاستقامة والطهارة أحسن، بل معناه أنّ الاستقامة وحسن السيرة شيء حسن، وأنّ السرقة عمل سيّء وغير مناسب.

وقال المفسّرون: إنّ المسجد الذي أشارت الآية إلى أنّه يستحق أن يصلي فيه النبي ﷺ هو «مسجد قبا» حيث بنى المنافقون مسجد ضرار على مقربة منه.

واحتُمل أيضاً أن يكون المقصود منه مسجد النّبي ﷺ، أو كل المساجد التي بُنيت على أساس التقوى، إلاّ أنّنا إذا لاحظنا تعبير ﴿أَوَّلِ يَوۡمٍ﴾ وأن مسجد قبا هو أوّل مسجد بُني في المدينة[1]، علمنا أنّ الاحتمال الأوّل هو الأنسب والأرجح، ولو أنّ هذه الكلمة تناسب أيضاً مساجد أُخرى كمسجد النّبي ﷺ.

ثمّ يضيف القرآن الكريم أنّه بالإضافة إلى أنّ هذا المسجد قد أُسس على أساس التقوى، فإنّ ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾.

ولكن هل المراد من الطهارة في هذه الآية هي الطهارة الظاهرية والجسمية، أم المعنوية؟

هناك بحث بين المفسّرين في الرّواية التي نقلت في تفسير (التبيان) و(مجمع البيان) في ذيل هذه الآية عن النّبي ﷺ أنّه قال لأهل قبا: «ماذا تفعلون في طهركم، فإنّ الله تعالى قد أحسن عليكم الثناء؟» قالوا: نغسل أثر الغائط[2].

وقد نقلت روايات أُخرى بهذا المضمون عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام[3]، لكن - كما قلنا سابقاً وأشرنا مراراً - مثل هذه الرّوايات لا تدل على انحصار مفهوم الآية في هذا المصداق، بل - وكما يشير ظاهر إطلاق الآية - أنّ للطهارة هنا معنى واسعاً يشمل كل أنواع التطهير، سواء التطهير الروحي من آثار الشرك والذنوب، أو التطهير الجسمي من الأوساخ والنجاسات.

---

(١) الكامل لابن الأثير، ج٢، ص ١٠٧؛ ووسائل الشيعة، ج ٥، ص ٢٨٥، ح ٦٥٦٢.
(٢) بحار الأنوار، ج ٢١، ص ٢٥٤؛ وفقه القرآن، ج ١، ص ٦٧.
(٣) وسائل الشيعة، ج ١، ص ٣٥٧؛ وبحار الأنوار، ج ٢١، ص ٢٥٥ و ٢٥٦.

وفي الآية الثّالثة من الآيات مقارنة بين فريقين وفئتين: المؤمنين الذين بنوا مساجد كمسجد قبا على أساس التقوى، والمنافقين الذين بنوه على أساس الكفر والنفاق والتفرقة والفساد. فهي تقول أوّلاً: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾.

﴿بُنْيَـٰنَهُۥ﴾ مصدر بمعنى اسم مفعول، ويعني المبنى، و﴿شَفَا﴾ بمعنى حافة الشيء وطرفه، و﴿جُرُفٍ﴾ بمعنى حافة النهر أو حافة البئر التي جرف الماء ما تحتها. و﴿هَارٍ﴾ بمعنى الشخص أو البناء المتصدع المشرف على السقوط، أو هو في حال السقوط.

إنّ التشبيه الوارد أعلاه يعطي صورة في منتهى الوضوح عن عدم ثبات أعمال المنافقين وتزلزلها، وفي المقابل استحكام ودوام أعمال المؤمنين ونشاطاتهم وبرامجهم، فهو يشبه المؤمنين بمن أراد أن يبني بناء، فإنّه ينتخب الأرض الجيدة القوية التي تتحمل البناء، ومختار من مواد البناء الأولية ما كان جيداً.

أمّا المنافقون فإنّه يشبّههم بمن يبني بيته على حافة النهر - ومثل هذه الأرض جوفاء - لأن جريان الماء قد نخرها، وبالتالي فهي عرضة للسقوط في أي لحظة، وكذلك النفاق، فإنّ ظاهره حسن لكنّه عديم المحتوى كالبناية الجميلة ذات الأساس النخر.

إنّ هذه البناية يمكن أن تنهار في أيّة لحظة، ومذهب أهل النفاق أيضاً يمكن أن يُظهر واقع أتباعه وباطنهم، وبالتالي فضيحتهم وخزيهم.

إنّ التقوى والسعي في مرضاة الله تبارك وتعالى يعني التعامل مع الواقع، والسير وفقاً لقوانين الخلقة وهي بدون شك عامل البقاء والثبات.

أمّا النفاق فإنّه يعني الانفصال عن الواقع والابتعاد عن قوانين الوجود، وهذا بلا شك هو عامل الزوال والفناء.

ومن هنا، فإنّ المنافقين يظلمون أنفسهم ويظلمون المجتمع أيضاً ولذلك فإنّ الآية اختتمت بقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾. وكما قلنا مراراً، فإنّ الهداية الإلهيّة تعني تهيئة المقدمات للوصول إلى الغاية، وهي تشمل - فقط - أُولئك الذين لديهم الاستعداد لتقبل هذه الهداية ويستحقونها، أمّا الظالمون الفاقدون لمثل هذا الاستعداد فسوف لا يشملهم هذا اللطف مطلقاً، لأنّ الله حكيم، ومشيئته وإرادته وفق حساب دقيق.

وفي آخر آية إشارة إلى إصرار المنافقين وعنادهم، فهي تعبّر عن تعصبهم وإصرارهم

في أعمالهم، وعنادهم في نفاقهم، وحيرتهم في ظلمة كفرهم، فهم في شك من بنيانهم الذي بنوه، أو في النتيجة المرجوة منه، وسيبقون في هذه الحال حتى موتهم: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾.

إنّ هؤلاء يعيشون حالة دائمة من الحيرة والاضطراب، وإن مقرَّ النفاق الذي أقاموه، ومسجد ضرار الذي بنوه، سيبقى عامل تردد ولجاجة في أرواح هؤلاء، فبالرغم من أنّ النّبي ﷺ قد أحرق هذا البناء وهدمه، إلاّ أنّ أثره وأهدافه قد لا تزول من القلوب.

وتقول الآية أخيراً: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فإنّه تعالى إنّما أمر نبيّه ﷺ بهدم هذا البناء الذي يحمل صفة الحق ظاهراً، حتى تتبيّن نيّات السوء التي انطوى عليها هؤلاء، وتنكشف حقائقهم وبواطنهم وهذا الحكم الإلهي هو عين الحكمة، وحسب صلاح المجتمع الإسلامي، وقد صدر على هذا الأساس، لا أنّه حكم عجول صدر نتيجة انفعال أو في لحظة غضب.

بحوث

١ - درس كبير

إنّ قصّة مسجد الضرار درس لكل المسلمين من جميع الجهات، فإنّ قول الله سبحانه وعمل النّبي ﷺ يوضحان تماماً بأنّ المسلمين يجب أن لا يكونوا سطحيين في الرؤية مطلقاً، وأن لا يكتفوا بالنظر إلى الجوانب التي تصطبغ بصبغة الحق، ويغفلون عن الأهداف الأصلية المراد تحقيقها، والمستترة بهذا الظاهر البراق.

المسلم هو الذي يعرف المنافق وأساليب النفاق في كل زمان، وفي كل مكان، وبأي لباس تلبس، وبأي صورة يظهر بها، حتى ولو كانت صورة الدين والمذهب، أو لباس مناصرة الحق والقرآن والمساجد.

إنّ الاستفادة من مذهب ضد مذهب آخر ليس شيئاً جديداً، بل هو طريق الاستعمار وأُسلوبه على الدوام، فإنّ وسيلة الجبارين والمنافقين وأُسلوبهم في العمل هو الوقوف على رغبة الناس في مسألة ما، واستغلال تلك الرغبة في سبيل إغفالهم وبالتالي استعمارهم، ويستعينون بقدرات مذهب ما في ضرب وهدم مذهب آخر إن استدعى الأمر ذلك.

وأساساً فإنّ جعل الأنبياء المزورين والمذاهب الباطلة، هو تحوير الميول المذهبية للناس عن هذا الطريق وصبّها في القنوات التي يريدونها ويديرونها.

ومن البديهي أنّ محاربة الإسلام بصورة علنية في محيط كمحيط المدينة، وذلك في عصر النّبي ﷺ، ومع ذلك النفوذ الخارق للإسلام والقرآن، أمر غير ممكن، بل يجب إلباس الكفر لباس الدين، وتغليف الباطل بغلاف الحق لجذب البسطاء والسذج من الناس.

إلاّ أنّ المسلم الحقيقي ليس سطحياً إلى تلك الدرجة بحيث يخدع بهذه الظواهر، بل إنّه يدقق في العوامل والأيادي التي وضعت هذه البرامج، ويحقق القرائن الأُخرى التي لها علاقة بالبرامج وماهيتها، وبذلك سيرى الصورة الباطنية للأفراد المختبئة خلف الصورة الظاهرية.

المسلم ليس بذلك الفرد الذي يقبل كل دعوة تصدر من أي فم بمجرّد موافقتها الظاهرية للحق، ويلبي تلك الدعوة.

المسلم ليس ذلك الشخص الذي يصافح كل يد تمد إليه، ويؤيد ويدعم كل حركة يشاهدها بمجرّد رفعها شعاراً دينياً، أو يتعهد بالانضمام تحت أي لواء يُرفع باسم المذهب والدين، أو ينجذب إلى كل بناء يشيد باسم الدين.

المسلم يجب أن يكون حذراً، واعياً، واقعياً، بعيد النظر، ومن أهل التحليل والتحقيق في كل المسائل الاجتماعية.

المسلم يعرف المتمردين العصاة في لباس الملائكة والوداعة، ويميز الذئاب المتلبسة بلباس الحراس والرعاة، ويُعد نفسه لمحاربة الأعداء الظاهرين بصورة الأصدقاء.

هناك قاعدة أساسية في الإسلام، وهي أنّه يجب معرفة النيات قبل كل شيء، وأنّ قيمة كل عمل ترتبط بنيّته، لا بظاهره، فبالرغم من أنّ النيّة أمر باطني، إلاّ أنّ أحداً لا يمكنه إضمار نيّته دون أن يظهر أثرها على جوانب عمله وفلتاته، حتى ولو كان ماهراً ومقتدراً في إخفائها.

ومن هذا سيتّضح الجواب عن هذا السؤال، وهو: لماذا أصدر النّبي ﷺ أمراً بحرق المسجد الذي هو بيت الله، ويأمر بهدم المسجد الذي لا يجوز شرعاً إخراج حصاة واحدة من حصاه، ويجعل المكان الذي يجب تطهيره فوراً إذا ما تنجس محلاً لجمع الفضلات والقاذورات!!

وجواب كل هذه الأسئلة موضوع واحد، وهو أنّ مسجد الضرار لم يكن مسجداً بل معبداً للأصنام... لم يكن مكاناً مقدساً، بل مقراً للفرقة والنفاق... لم يكن بيت الله،

بل بيت الشيطان. . . ولا يمكن أن تبدل الأسماء والعناوين والأقنعة من واقع الأشياء شيئاً مطلقاً.

كان هذا هو الدرس الكبير الذي أعطته قصّة مسجد الضرار لكل المسلمين، وفي كل الأزمنة والأعصار.

وتتّضح من هذا البحث - أيضاً - أهمية الوحدة بين صفوف المسلمين من وجهة نظر الإسلام، والتي تبلغ حداً بحيث إذا كان بناء مسجد جنب مسجد يؤدّي إلى التفرقة والاختلاف بين صفوف المسلمين فلا قدسية لذلك المسجد إطلاقاً.

٢ - النفي لا يكفي لوحده!

الدرس الثّاني الذي يمكن أخذه من هذه الآيات، هو أنّ الله سبحانه وتعالى أمر نبيّه ﷺ في هذه الآيات أن لا يصلي في مسجد الضرار، بل يصلي في المسجد الذي وضعت قواعده وأُسسه على أساس التقوى.

إنّ النفي والإثبات يتجلى في الإسلام من شعاره الأصلي ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ إلى أُموره الصغيرة والكبيرة الأُخرى، يبيّن هذه الحقيقة، وهي ضرورة وجود الإثبات إلى جانب النفي دائماً على أرض الواقع العملي، فإنّا إذا نهينا الناس عن الذهاب إلى مراكز الفساد، فيجب أن نبني ونوفر لهم في المقابل المراكز النقية الصالحة لإشباع روح الحياة الجماعية في الفرد وإرضائها. . . إذا منعنا وسائل اللهو المنحرفة، فيجب توفير وسائل لهو سالمة وهادفة. . . إذا حاربنا الثقافة الاستعمارية، فيجب أن نهيىء الثقافة الصحيحة والمراكز السليمة والمدارس الصالحة للتربية والتعليم. . . إذا شجبنا الانحلال الخلقي والسقوط الاجتماعي، فيجب أن نوفر وسائل الزواج البسيطة ونضعها تحت تصرف الشباب.

الأشخاص الذين صبّوا كل اهتماماتهم في جانب النفي، دون الاهتمام بالجانب الإيجابي والإثباتي، عليهم أن يتيقنوا بأن نفيهم لوحده لا يثمر شيئاً، لأنّ سنّة الحياة أن تشبع كل الغرائز والأحاسيس عن الطريق الصحيح، ولأنّ قانون الإسلام المسلّم به أن كل (لا) يجب أن تصحبها (إلا) ليتولد منها التوحيد الذي يهب الحياة.

وهذا هو الدرس الذي نسيه الكثير من المسلمين مع الأسف رغم تقصيرهم هذا يشكون من عدم تقدم وتطور البرامج الإسلامية! هذا في الوقت الذي لا ينحصر برنامج الإسلام بالنفي كما يتخيل هؤلاء، فإنّهم إذا قرنوا النفي بالإثبات فإنّ تقدمهم سيكون حتمياً.

٣ - شرطان أساسيان

الدرس القيم الثّالث الذي يمكن استنباطه من الآيات محل البحث هو أنّ المقر والمركز النشط والإيجابي دينياً واجتماعياً، هو الذي يتشكل من عنصرين:

الأوّل: أن يكون الأساس الذي يستند إليه، والهدف الذي يطمح إلى تحقيقه، طاهرين من البداية: ﴿أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾.

الثّاني: أن يكون رواد هذا المركز وحماته أناساً طاهرين ومخلصين ومؤمنين: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾.

إنّ فقدان أحد هذين الركنين الأساسيين يعني انهيار البناء وعدم وصوله إلى الهدف المنشود.

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ۚ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢)﴾

التّفسير

تجارة لا نظير لها

لما كان الكلام في الآيات السابقة عن المتخلفين عن الجهاد، فإنّ هاتين الآيتين قد بيّنتا المقام الرفيع للمجاهدين المؤمنين مع ذكر مثال رائع.

لقد عرّف الله سبحانه وتعالى نفسه في هذا المثال بأنّه مشتر، والمؤمنين بأنّهم بائعون، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾.

ولما كانت كل معاملة تتكون في الحقيقة من خمسة أركان أساسية، وهي عبارة عن: المشتري، والبائع، والمتاع، والثمن، وسند المعاملة أو وثيقتها، فقد أشار الله سبحانه

إلى كل هذه الأركان، فجعل نفسه مشترياً، والمؤمنين بائعين، وأموالهم وأنفسهم متاعاً وبضاعة، والجنّة ثمناً لهذه المعاملة، غاية ما في الأمر أنّه بيّن طريقة تسليم البضاعة بتعبير لطيف، فقال: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَ﴾ وفي الواقع فإنّ يد الله سبحانه حاضرة في ميدان الجهاد لتقبل هذه البضاعة، سواء كانت روحاً أم مالاً يبذل في أمر الجهاد.

ثمّ يشير بعد ذلك إلى سند المعاملة الثابت، والذي يشكل الركن الخامس فيها، فقال: ﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾.

إذا أمعنا النظر في قوله: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يتّضح جلياً أنّ الله تعالى يشتري الأرواح والجهود والمساعي التي تبذل وتصرف في سبيله، أي سبيل إحقاق الحق والعدالة، والحريّة والخلاص لجميع البشر من قبضة الكفر والظلم والفساد.

ثم، ومن أجل التأكيد على هذه المعاملة، تضيف الآية: ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ أي إنّ ثمن هذه المعاملة وإن كان مؤجلاً، إلاّ أنّه مضمون، ولا وجود لأخطار النسيئة، لأنّ الله تعالى لقدرته واستغنائه عن الجميع أوفى من الكل بعهده، فلا هو ينسى، ولا يعجز عن الأداء، ولا يفعل ما يخالف الحكمة ليندم عليه ويرجع عنه، ولا يخلف وعده والعياذ بالله، وعلى هذا فلا يبقى أي مجال للشك في وفائه بعهده، وأدائه الثمن في رأس الموعد المقرر.

والأروع من كل شيء أنّه تعالى قد بارك للطرف المقابل صفقته، ويتمنى لهم أن تكون صفقة وفيرة الربح، تماماً كما هو المتعارف بين التجار، فيقول عزّ وجلّ: ﴿فَٱسۡتَبۡشِرُواْ(١) بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

وقد جاء نظير هذا المبحث بعبارات أُخرى، ففي الآيات ١٠ - ١٢ من سورة الصف يقول الله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾.

إنّ الإنسان ليقع في حيرة هنا من كل هذا اللطف والرحمة الإلهية، فإنّ الله المالك

---

(١) ﴿فَٱسۡتَبۡشِرُواْ﴾ مأخوذة من مادة البشارة، والتي أخذت في الأصل من البشرة، أي وجه الإنسان، وهي إشارة إلى آثار الفرحة والسرور التي تبدو بوضوح على وجه الإنسان.

لكل عالم الوجود، والحاكم المطلق على جميع عالم الخلقة، وكل ما يملكه أيّ موجود فإنما هو من فيضه ومنحته، يبدو في مقام المشتري لنفس هذه المواهب التي وهبها لعباده، ويشتري ما أعطاه بمئات الأضعاف.

والأعجب من ذلك، أنّ الجهاد الذي هو السبب في عزّة الإنسان وافتخار الأُمّة، وثمراته تعود في النهاية عليها، قد اعتبر دفعاً وتسليماً لهذه البضاعة.

ومع أنّ المتعارف أنّ الثمن يجب أن يعادل المثمن أو البضاعة، إلاّ أنّ هذا التعادل لم يلاحظ في هذه المعاملة، وجعلت السعادة الأبدية في مقابل بضاعة متزلزلة يمكن أن تفنى في أية لحظة، (سواء كان على فراش المرض أو ساحة القتال).

والأهم من هذا أنّ الله سبحانه وتعالى مع أنّه أصدق الصادقين، ولا يحتاج إلى سند وضمان، فإنّه تعهد بأهم الوثائق والضمانات أمام عبيده.

وفي نهاية هذه المعاملة العظيمة، والصفقة الكبيرة، فإنّه قد بارك لهم وبشّرهم، فهل تُتصور رحمة ومحبّة أعلى من هذه؟!

وهل يوجد معاملة أكثر ربحاً من هذه؟!

ولهذا ورد في حديث عن جابر بن عبدالله الأنصاري أنّه لما نزلت هذه الآية كان النّبي ﷺ في المسجد، فتلا هذه الآية بصوت عال، فكبر الناس، فتقدم رجل من الأنصار وسأل رسول الله ﷺ: يا رسول الله، أنزلت هذه الآية؟ فقال النّبي ﷺ: «نعم». فقال الأنصاري: بيع ربيح لا نقيل ولا نستقيل(١).

كما هي طريقة القرآن المجيد، حيث إنّه يُجمِل الكلام في آية، ثمّ يعمد إلى التفصيل في الآية التي تليها، فقد بيّن سبحانه في الآية الثّانية حال البائعين للروح والمال لربّهم عزّوجلّ، فذكر تسع صفات مميزة لهم:

١ - فهم يغسلون قلوبهم وأرواحهم من رين الذنوب بماء التوبة: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾.

٢ - وهم يطهرون أنفسهم في نفحات الدعاء والمناجاة مع ربّهم: ﴿ٱلْعَٰبِدُونَ﴾.

٣ - وهم يحمدون ويشكرون كل نعم الله المادية والمعنوية: ﴿ٱلْحَٰمِدُونَ﴾.

٤ - وهم يتنقلون من مكان عبادة إلى آخر: ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾.

وبهذا الترتيب فإنّ برامج تربية النفس عند هؤلاء لا تنحصر في العبادة، أو في إطار

---

(١) تفسير الدّر المنثور، ج ٣، ص ٢٨٠؛ كما ورد في تفسير الميزان، ج ٩، ص ٤٠٥.

محدود، بل إنّ كل مكان هو محل عبادة لله وجهاد للنفس وتربية لها بالنسبة لهؤلاء، وكل مكان يوجد فيه درس وعبرة لهؤلاء فإنّهم سيقصدونه.

(سائح) في الأصل مأخوذ من (سيح)، و(سياحة) والتي تعني الجريان والاستمرار.

وهناك بحث بين المفسّرين فيما هو المقصود من السائح في الآية، وأي نوع من الجريان والاستمرار والسياحة هو؟ فالبعض يرى - كما قلنا أعلاه - إن السير في تربية النفس وجهادها إنّما يكون في أماكن العبادة، ففي حديث عن النّبي ﷺ: «سياحة أُمّتي في المساجد»(١).

والبعض الآخر يقول: إنّ السائح يعني الصائم، لأنّ الصوم عمل مستمر طوال اليوم، وفي حديث آخر عن النّبي ﷺ: «إنّ السّائحين هم الصّائمون»(٢).

والبعض الآخر من المفسّرين يرى أنّ السياحة تعني التنقل والتجوال في الأرض لمشاهدة آثار عظمة الله، ومعرفة المجتمعات البشرية، والتعرف على عادات وتقاليد وعلوم الأقوام التي تحيي فكر الإنسان وتنميه وتطوره.

وفريق آخر من المفسّرين يرى أنّ السياحة تعني التوجه إلى ميدان الجهاد ومحاربة الأعداء، ويستشهدون بالحديث النبوي: «إنّ سياحة أُمّتي الجهاد في سبيل الله»(٣).

وأخيراً فإنّ البعض يرى أنّها سير العقل والفكر في المسائل العلمية المختلفة المرتبطة بعالم الوجود والتفكر فيها، ومعرفة عوامل السعادة والانتصار، وأسباب الهزيمة والفشل.

إلاّ أنّ أخذ الأوصاف - التي ذكرت قبل السياحة وبعدها - بنظر الاعتبار يرجح المعنى الأوّل، ويجعله الأنسب من بين المعاني الأُخرى، وإن كانت كل هذه المعاني ممكنة في هذه الكلمة، لأنّها جمعت في مفهوم السير والسياحة.

٥ - وهم يركعون مقابل عظمة الله: ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ﴾.

٦ - ويضعون جباههم على التراب أمام خالقهم ويسجدون له: ﴿ٱلسَّٰجِدُونَ﴾.

٧ - وهم يدعون الناس لعمل الخير: ﴿ٱلْأَٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.

---

(١) تفسير الميزان، ذيل الآية مورد البحث؛ ومستدرك الوسائل، ج ٧، ص ٥٠٧.

(٢) تفسير نور الثقلين، وكثير من التفاسير الأُخرى، ذيل الآية مورد البحث؛ ومستدرك الوسائل، ج ١٦، ص ٥٤.

(٣) تفسير الميزان، وتفسير المنار في ذيل الآية مورد البحث؛ ووسائل الشيعة، ج ١٥، ص ١٧.

٨ - ولم يقتنعوا بهذه الدّعوة للخير، بل حاربوا كل منكر وفساد: ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾.

٩ - وبعد أدائهم وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يقومون بأداء آخر وأهم واجب اجتماعي، أي حفظ الحدود الإلهية وإجراء قوانين الله، وإقامة الحق والعدالة: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾.

وبعد ذكر هذه الصفات التسع فإنّ الله يرغّب - مرّة أُخرى - أمثال هؤلاء المؤمنين المخلصين الذين هم ثمرة منهج الإيمان والعمل، ويقول للنّبي ﷺ: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ولما لم يذكر متعلق البشارة، وبتعبير آخر: إنّ البشارة لما جاءت مطلقة فإنّها تعطي مفهوماً أوسع يدخل ضمنه كل خير وسعادة، أي بشّر هؤلاء بكل خير وسعادة وفخر.

وينبغي الالتفات إلى أن الصفات الست الأُولى ترتبط بجانب جهاد النفس وتربيتها، والصفة السّابعة والثّامنة ترتبطان بالواجبات الاجتماعية الحساسة، وتشيران إلى تطهير محيط المجتمع من السلبيات، والصفة الأخيرة تتحدث عن المسؤوليات المختلفة المتعددة المرتبطة بتشكيل الحكومة الصالحة، والمشاركة الجدية في المسائل السياسية الإيجابية.

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾

سبب النّزول

جاء في مجمع البيان في سبب نزول الآيات أعلاه، أنّ جماعة من المسلمين كانوا يقولون للنّبي ﷺ: ألا تستغفر لآبائنا الذين ماتوا في الجاهلية؟ فنزلت هذه الآيات تنذرهم بأن لا حقّ لأحد أن يستغفر للمشركين[1].

١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث؛ وبحار الأنوار، ج ٢٢، ص ٤٢.

وقد ذكرت في سبب نزول هذه الآيات أُمور أُخرى، سنوردها في نهاية تفسير هذه الآية.

التفسير

ضرورة قطع العلاقات مع الأعداء

نهت الآية الأُولى النّبي ﷺ والمؤمنين عن الاستغفار للمشركين بلهجة قاطعة وحادة، فهي تقول: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ ولكي تؤكّد ذلك قالت: ﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ﴾.

ثمّ إنّ القرآن الكريم بيّن سبب ودليل هذا الحكم فقال: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ الْجَحِيمِ﴾ فإنّ هذا العمل - أي الاستغفار للمشركين - عمل لا معنى له وفي غير محله، لأنّ المشرك لايمكن العفو عنه بأي وجه، ولا سبيل لنجاة من سار في طريق الشرك، إضافةً إلى أنّ طلب المغفرة نوع من إظهار المحبة والارتباط بالمشركين، وهذا هو الأمر الذي نهى عنه القرآن مراراً وتكراراً.

ولما كان المسلمون العارفون بالقرآن قد قرأوا من قبل أن إبراهيم استغفر لعمه آزر، ولذا فمن الممكن جدّاً أن يتبادر إلى أذهانهم هذا السؤال: ألم يكن آزر مشركاً؟ وإذا كان هذا العمل منهياً عنه فكيف يفعله هذا النّبي الكبير؟

لهذا نرى أن الآية الثّانية تتطرق لهذا السؤال وتجيب عليه مباشرة لتطمئن القلوب، فقالت: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾.

وفي آخر الآية توضيح بأنّ إبراهيم كان إنساناً خاضعاً بين يدي الله عزّوجلّ، وخائفاً من غضبه، وحليماً واسع الصدر، فقالت: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾.

إنّ هذه الجملة قد تكون بياناً لسبب الوعد الذي قطعه إبراهيم لآزر بالاستغفار له، لأنّ حلمه وصبره من جهة، وكونه أوّاهاً - والذي يعني كونه رحيماً طبقاً لبعض التفاسير - من جهة أُخرى، كانا يوجبان أن يبذل قصارى جهده في سبيل هداية آزر، حتى وإن كان بوعده بالاستغفار له، وطلب المغفرة عن أعماله السابقة.

ويحتمل أيضاً أن تكون هذه الجملة دليلاً على أنّ إبراهيم لخضوعه وخشوعه وخوفه من مخالفة أوامر الله سبحانه لم يكن مستعداً لأن يستغفر للمشركين أبداً، بل إنّ هذا

العمل كان مختصاً بزمان كان أمل هداية آزر يعيش في قلبه، ولهذا فإنّه بمجرّد أن اتّضح أمر عداوته ترك هذا العمل.

فإن قيل: من أين علم المسلمون أنّ إبراهيم قد استغفر لآزر؟

قلنا: إن آيات سورة التوبة هذه - كما أشرنا في البداية - قد نزلت في أواخر حياة النّبي ﷺ، وقد قرأ المسلمون من قبل في سورة مريم، الآية (٤٧) أن إبراهيم بقوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ كان قد وعد آزر بالاستغفار، ومن المسلّم أنّ نبي الله إبراهيم عليه السلام لا يَعِدُ كذباً، وكلما وعد وفى بوعده.

وكذلك كانوا قد قرأوا في الآية (٤) من سورة الممتحنة أنّ إبراهيم قد قال له: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ وكذلك في الآية (٨٦) من سورة الشعراء، وهي من السور المكية، حيث ورد الاستغفار صريحاً بقوله: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾.

بحوث

١ - رواية موضوعة!

إنّ الكثير من مفسّري العامّة نقلوا حديثاً موضوعاً عن صحيح البخاري ومسلم وكتب أُخرى عن سعيد بن المسيب عن أبيه، أنّه لما حضرت أبا طالب الوفاة أتى إليه النّبي ﷺ، وكان عنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية، فقال له النّبي ﷺ: «ياعم، قل لا إله إلاّ الله أحاج لك بها عند الله»، فالتفت أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية إلى أبي طالب وقالوا: أتريد أن تصبو عن دين أبيك عبد المطلب؟! وكرر النّبي ﷺ قوله، إلاّ أنّ أبا جهل وعبد الله منعاه من ذلك. وكان آخر ما قاله أبو طالب: على دين عبد المطلب، وامتنع عن قول: لا إله إلاّ الله، فقال النّبي ﷺ عندئذ: «سأستغفر لك حتى أنهى عنه» فنزلت الآية: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ...﴾[1].

إلاّ أنّ الأدلة والقرائن على كذب ووضع هذا الحديث واضحة، لما يلي:

أوّلاً: المعروف والمشهور بين المفسّرين والمحدثين أنّ سورة براءة نزلت في السنة التاسعة للهجرة، بل يعتقد البعض أنّها آخر سورة نزلت على النّبي ﷺ، في حين أنّ المؤرخين ذكروا أنّ وفاة أبي طالب كانت في مكّة، وقبل هجرة النّبي ﷺ.

(١) تفسير المنار، وتفاسير أُخرى لأهل السنة؛ والغدير، ج ٨، ص ٨.

ولهذا نرى التخبط والتناقض الصريح الذي وقع فيه بعض المتعصبين كصاحب تفسير المنار، فإنّهم قالوا تارةً: إنّ هذه الآية نزلت مرّتين! مرّة في مكّة، ومرّة في المدينة في السنة التاسعة للهجرة وظنوا أنّهم لما ادّعوا هذا الدليل رفعوا التناقض الذي سقطوا فيه.

وقالوا تارةً أُخرى: إنّ من الممكن أن تكون هذه الآية نزلت حين وفاة أبي طالب، ثمّ أمر النّبي ﷺ بوضعها في سورة التوبة. إلاّ أنّ هذا الادعاء كسابقه عار من الدليل.

ألم يكن من الأجدر بهم بدل أن يتخبطوا في هذه التوجيهات التي لا أساس لها، أن يترددوا ويشككوا في صحة الرّواية السابقة؟!

ثانياً: لا شك في أنّ الله سبحانه وتعالى قد نهى المسلمين في آيات من القرآن عن محبّة المشركين قبل موت أبي طالب، ونحن نعلم أن الاستغفار من أظهر مصاديق إبراز المحبّة والصداقة، فكيف يمكن والحال هذه أن يرحل أبوطالب من الدنيا ويقسم النّبي ﷺ بأنّه سيستغفر له حتى ينهاه الله؟!

العجيب أنّ الفخر الرازي، الذي عرف بتعصبه في أمثال هذه المسائل، لما لم يستطع إنكار أنّ هذه الآية قد نزلت - كبقية سورة التوبة - في أواخر عمر النّبي ﷺ عمد إلى توجيه محير وعجيب، وهو أن النّبي ﷺ استمر بعد وفاة أبي طالب في الاستغفار له حتى نزلت هذه الآية ونهته عن الاستغفار! ثمّ يقول: ما المانع من أن يكون هذا الأمر - أي الاستغفار - مجازاً للنّبي ﷺ والمؤمنين إلى ذلك الوقت؟!

إنّ الفخر الرازي إذا حرّر نفسه من قيود التعصب، سيلتفت إلى عدم إمكان أن يستغفر النّبي ﷺ لفرد مشرك طوال هذه المدّة، في الوقت الذي كانت آيات كثيرة من القرآن الكريم قد نزلت إلى ذلك الزمان تدين وتشجب أي نوع من مودة المشركين ومحبّتهم[1].

ثالثاً: إنّ الشخص الوحيد الذي روى هذه الرّواية هو «سعيد بن المسيب»، وبغضه وعداؤه لأمير المؤمنين علي عليه السلام أشهر من نار على علم، وعلى هذا لايمكن الاعتماد على روايته في شأن علي عليه السلام أو أبيه أو أبنائه مطلقاً.

لقد نقل «العلاّمة الأميني (قدس سره)» - بعد أن أشار إلى الموضوع أعلاه - كلاماً

---

(١) لقد ورد النهي عن محبّة وموالاة الكافرين صريحاً في الآية (١٣٩) من سورة النساء، والتي نزلت قبل سورة التوبة مسلماً، وكذلك في الآية (٣٨) من سورة آل عمران، وهي كذلك نزلت قبل سورة براءة، وفي هذه السورة قال الله سبحانه لنبيّه ﷺ في الآيات التي سبقت هذه الآية: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ﴾.

عن «الواقدي» يستحق التوقف عنده، حيث يقول: إن سعيد بن المسيب مرّ بجنازة الإمام السجاد علي بن الحسين عليه السلام ولم يصلّ عليها، واعتذر بعذر واهٍ[1]، إلاّ أنّه على قول ابن حزم - لما سئل: أتصلي خلف الحجاج أم لا؟ قال: نحن نصلّي خلف من هو أسوأ من الحجاج[2]!.

رابعاً: كما قلنا في الجزء الخامس من هذا التّفسير، فإنّ ممّا لا شك فيه أنّ أبا طالب قد آمن بالنّبي صلى الله عليه وآله، وبيّنا الأدلة الواضحة على ذلك، وأثبتنا بأنّ ما قيل في عدم إيمان أبي طالب هو تهمة كبيرة، وقد صرّح بذلك كل علماء الشيعة، وجماعة من علماء السنّة كابن أبي الحديد في (شرح نهج البلاغة) والقسطلاني في (إرشاد الساري) وزيني دحلان في (حاشية السيرة الحلبية).

وقلنا إنّ المحقق المدقق إذا لاحظ المدّ السياسي المغرض الذي تزعمه حكام بني أُمية ضد علي عليه السلام، استطاع أن يقدر بأن كل من ارتبط بأمير المؤمنين عليه السلام لم يبق بمنأى عن التعرض المغرض.

في الحقيقة، إنّ أباطالب لم يكن له ذنب سوى أنّه أبو علي بن أبي طالب عليه السلام إمام المسلمين، وقائدهم العظيم! ألم يتهموا أباذر، ذلك المجاهد الإسلامي الكبير لحبّه وعشقه لعلي عليه السلام، وجهاده ضد مذهب عثمان؟!

(لمزيد الاطلاع على إيمان أبي طالب الذي كان حامياً لرسول الله صلى الله عليه وآله في جميع مراحل حياته، ومدافعاً عنه، ومطيعاً لأوامره، راجع الآيتين (٢٥) و(٢٦) من سورة الانعام في المجلد الرّابع من تفسيرنا هذا).

٢ - لماذا وعد إبراهيم آزر بالاستغفار؟

وهنا يطرح سؤال آخر، وهو: كيف وعد إبراهيم عمّه آزر بالاستغفار، وحسب ظاهر هذه الآية وآيات القرآن الأُخرى، فإنّه قد وفى بوعده، مع العلم أنّه لم يؤمن أبداً، وكان من المشركين وعبدة الأصنام إلى آخر حياته، والاستغفار لمثل هؤلاء ممنوع؟

وللإجابة على هذا السؤال ينبغي الانتباه أوّلاً إلى أنّه يستفاد من الآية - بوضوح - أنّ إبراهيم كان يأمل أن يجذب آزر إلى الإيمان والتوحيد عن هذا الطريق، وكان استغفاره في الحقيقة هو: اللّهم اهده، وتجاوز عن ذنوبه السابقة.

---

(١) الغدير، ج ٨، ص ٩.
(٢) المصدر السابق.

لكن لما ارتحل آزر من هذه الدنيا وهو مشرك - وأصبح من المحتم عند إبراهيم أنّه مات وهو معادٍ لله، ولم يبق سبيل لهدايته - ترك استغفاره لآزر، وعلى هذا فإنّ المسلمين أيضاً يستطيعون أن يستغفروا لأصدقائهم وأقربائهم المشركين ما داموا على قيد الحياة، وكان هناك أمل في هدايتهم، بمعنى طلب الهداية والمغفرة من الله سبحانه لهؤلاء، إلاّ أنّهم إذا ماتوا وهم كفار فلا مجال للاستغفار بعد ذلك.

أمّا ما ورد في بعض الرّوايات من أنّ الإمام الصادق عليه السلام ذكر أنّ إبراهيم عليه السلام كان قد وعد آزر بالاستغفار إن هو أسلم - لا أنّه يستغفر له قبل إسلامه - فلمّا تبيّن له أنّه عدوّ لله تنفر منه وابتعد عنه[1]، وعلى هذا فإنّ وعد إبراهيم كان مشروطاً، فلمّا لم يتحقق الشرط لم يستغفر له أبداً، فإنّ هذه الرّواية إضافة إلى أنّها مرسلة وضعيفة، فإنّها تخالف ظاهر أو صريح الآيات القرآنية، لأنّ ظاهر الآية التي نبحثها أنّ إبراهيم قد استغفر، وصريح الآية ٨٦ من سورة الشعراء أن إبراهيم قد طلب المغفرة له، حيث يقول: ﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾.

والشاهد الآخر ما ورد عن ابن عباس أنّه قال: إن إبراهيم قد استغفر مراراً لآزر ما دام حياً، فلمّا مات على كفره وتبيّن عداؤه لدين الحق، امتنع عن هذا العمل[2].

ولما كان فريق من المسلمين راغبين في أن يستغفروا للمحسنين الذين ماتوا وهم مشركون، فقد نهاهم القرآن بصراحة عن ذلك، وصرّح بأن وضع إبراهيم يختلف تماماً عن وضعهم، فإنّه كان يستغفر لآزر في حياته رجاء هدايته وإيمانه، لا بعد موته.

٣ - ضرورة قطع كل رابطة بالأعداء

إنّ هذه الآية ليست الوحيدة التي تتحدث عن قطع كل رابطة بالمشركين، بل يستخلص من عدّة آيات في القرآن الكريم أنّ كلّ ارتباط وتضامن وعلاقة، العائلية منها وغيرها، يجب أن تخضع لإطار العلاقات العقائدية، ويجب أن يحكم الانتماء إلى الله ومحاربة كل أشكال الشرك والوثنية، كل إشكاليات الترابط بين المسلمين، لأنّ هذا الارتباط هو الأساس والحاكم على كل مقدراتهم الاجتماعية، ولا تستطيع العلاقات والروابط السطحية والفوقية أن تنفيه.

إنّ هذا درس كبير للأمس واليوم، وكل الأعصار والقرون.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث؛ وتفسير العياشي، ج ٢، ص ١١٤.
(٢) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث؛ وبحار الأنوار، ج ١١، ص ٨٩.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾

سبب النّزول

قال بعض المفسّرين: إنّ فريقاً من المسلمين ماتوا قبل نزول الفرائض والواجبات وتشريعها، فجاء جماعة إلى النّبي ﷺ وأظهروا قلقهم على مصير هؤلاء - وكانوا يظنون أن هؤلاء ربّما سينالهم العقاب الإلهي لعدم أدائهم الفرائض، فنزلت الآية ونفت هذا التصور[١].

وقال بعض الآخر من المفسّرين: إنّ هذه الآية نزلت في مسألة استغفار المسلمين للمشركين، وإظهارهم محبّتهم لهم قبل النهي الصريح الوارد في الآيات السابقة، لأنّ هذه المسألة كانت باعثاً لقلق المسلمين، فنزلت الآية وطمأنتهم إلى أنّ استغفارهم قبل النهي لا يوجب حسابهم ومعاقبتهم[٢].

التّفسير

العقاب بعد البيان

إن الآية الأُولى تشير إلى قانون كلّي وعام، يؤيده العقل أيضاً، وهو أنّ الله سبحانه وتعالى ما دام لم يبيّن حكماً، ولم يصل شيء من الشرع حوله، فإنّه تعالى سوف لا يحاسب عليه أحداً، وبتعبير آخر: فإنّ التكليف والمسؤولية تقع دائماً بعد بيان الأحكام، وهذا هو الذي يعبر عنه في علم الاصول بقاعدة (قبح العقاب بلا بيان).

ولذلك فأوّل ما تطالعنا به الآية قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾.

إنّ المقصود من (يضل) - في الأصل الإضلال والتضييع، أو الحكم بالإضلال -

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث؛ وبحار الأنوار، ج ٢٢، ص ٤٣.
(٢) المصدر السابق.

كما احتمله بعض المفسّرين (كما يقال في التعديل والتفسيق، أي الحكم بعدالة الشخص وفسقه)[١] أو بمعنى الإضلال من طريق الثواب يوم القيامة، وهو في الواقع بمعنى العقاب.

أو أنّ المقصود من «الإضلال» ماقلناه سابقاً، وهو سلب نعمة التوفيق، وإيكال الإنسان إلى نفسه، ونتيجة ذلك هو الضياع والحيرة والانحراف عن طريق الهداية لا محالة، وهذا التعبير إشارة خفيّة ولطيفة إلى حقيقة ثابتة، وهي أنّ الذّنوب دائماً هي مصدر وسبب الضلال والضياع والابتعاد عن طريق الرشاد[٢].

وأخيراً تقول الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي إن علم الله يحتم ويؤكّد على أنّ الله سبحانه ما دام لم يبيّن الحكم الشرعي لعباده، فإنّه سوف لايؤاخذهم أو يسألهم عنه.

جواب في سؤال:

يتصور بعض المفسّرين والمحدّثين أنّ الآية دليل على أن «المستقلات العقلية» - (وهي الأُمور التي يدركها الإنسان عن طريق العقل لا عن طريق حكم الشرع، كإدراك قبح الظلم وحسن العدل، أو سوء الكذب والسرقة والاعتداء وقتل النفس وأمثال ذلك) - ما دام الشرع لم يبيّنها، فإن أحداً غير مسؤول عنها. وبتعبير آخر فإنّ كل الأحكام العقلية يجب أن تؤيد من قبل الشرع لإيجاد التكليف والمسؤولية على الناس، وعلى هذا فإنّ الناس قبل نزول الشرع غير مسؤولين مطلقاً، حتى في مقابل المستقلات العقلية.

إلاّ أنّ بطلان هذا التصور واضح، فإنّ جملة ﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ﴾ تجيبهم وتبيّن لهم أنّ هذه الآية وأمثالها خاصّة بالمسائل التي بقيت في حيز الإبهام وتحتاج إلى التّبيين والإيضاح، ومن المسلّم أنّها لاتشمل المستقلات العقلية، لأنّ قبح الظلم وحسن العدل ليس أمراً مبهماً حتى يحتاج إلى توضيح.

الذين يذهبون إلى هذا القول غفلوا عن أنّ هذا القول - إن صحّ - فلا وجه لوجوب تلبية دعوة الأنبياء، ولا مبرر لأن يطالعوا ويحققوا دعوى مدعي النّبوة ومعجزاته حتى

---

(١) يتصور البعض أنّ باب (تفعيل) هو الوحيد الذي يأتي أحياناً بمعنى الحكم، في حين يلاحظ ذلك في باب (إفعال) أيضاً، كالشعر المعروف المنقول عن الكميت، حيث يقول في بيان عشقه وحبّه لآل محمّد صلى الله عليه وآله وسلم: (وطائفة قد أكفروني بحبّكم)، (بحار الأنوار، ج ٥، ص ١٧٠).

(٢) لمزيد التوضيح حول معنى الهداية والضلال في القرآن، راجع ذيل الآية (٢٦) من سورة البقرة.

يتبيّن لهم صدقه أو كذبه، لأنّ صدق النّبي والحكم الإلهي لم يُبيّن لحد الآن لهؤلاء، وعلى هذا فلا داعي للتحقق من دعواه.

وعلى هذا فكما يجب التثبت من دعوى من يدعي النّبوة بحكم العقل، وهو من المستقلات العقلية، فكذلك يجب اتباع سائر المسائل التي يدركها العقل بوضوح.

والدليل على هذا الكلام التعبير المستفاد من بعض الأحاديث الواردة عن أهل البيت عليهم السلام، ففي كتاب التوحيد، عن الصادق عليه السلام أنّه قال في تفسير هذه الآية: «حتى يُعَرِّفَهم ما يرضيه وما يسخطه»(١).

وعلى كلِّ حال، فإنّ هذه الآية وأمثالها تعتبر أساساً لقانون كلّي أُصولي، وهو أننا ما دمنا لا نملك الدليل على وجوب أو حرمة شيء، فإنّنا غير مسؤولين عنه، وبتعبير آخر فإنّ كل شيء مباح لنا، إلاّ أن يقوم دليل على وجوبه أو تحريمه، وهو ما يسمونه بـ(أصل البراءة).

وتستند الآية التالية على هذه المسألة وتؤكّد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وأن نظام الحياة والموت أيضاً بيد قدرته، فإنّه هو الذي ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ وعلى هذا: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، وهو إشارة إلى أنّه لما كانت كل القدرات والحكومات في عالم الوجود بيده، وخاضعة لأمره، فلا ينبغي لكم أن تتكلوا على غيره، وتلتجئوا إلى البعيدين عن الله وإلى أعدائه وتوادّوهم، وتوثّقوا علاقتكم بهم عن طريق الاستغفار وغيره.

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾

(١) تفسير نور الثقلين، ج٢، ص ٢٧٦؛ وأصول الكافي، ج ١، ص ١٦٣.

سبب النّزول

درس كبير!

قال المفسّرون: إنّ الآية الأُولى نزلت في غزوة تبوك، وما واجهه المسلمون من المشاكل والمصاعب العظيمة، هذه المشاكل التي كانت من الكثرة والصعوبة بمكان بحيث صمّم جماعة على الرجوع، إلاّ أنّ اللطف الإلهي والتوفيق الرّباني شملهم، فثبتوا في مكانهم.

ومن جملة ما قيل إن الآية نزلت فيهم أبوخيثمة، وكان من أصحاب النّبي ﷺ، لا من المنافقين، إلاّ أنّه لضعفه امتنع عن التوجه إلى معركة تبوك مع النّبي ﷺ.

مرّت عشرة أيّام على هذه الواقعة، وكان الهواء حاراً محرقاً، فحضر يوماً عند زوجتيه، وكانتا قد هيأتا خيمته، وأحضرتا الطعام اللذيذ والماء البارد، فتذكر فجأة النّبي ﷺ، وغاص في تفكير عميق، وقال في نفسه: إنّ رسول الله ﷺ الذي غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر، وضمن له آخرته، قد حمل سلاحه على عاتقه وسار في الصحاري المحرقة، وتحمل مشقّة هذا السفر، أمّا أبو خيثمة - يعني نفسه - فهو في ظل بارد، يتمتع بأنواع الأطعمة، والنساء الجميلات!! إنّ هذا ليس من الإنصاف.

فالتفت إلى زوجتيه وقال: أقسم بالله أن لا أكلم إحداكن كلمة، ولا أستظل بهذه الخيمة حتى ألتحق بالنّبي ﷺ. قال ذلك وحمل زاده وجرابه وركب بعيره وسار، وجهدت زوجتاه أن تكلمانه فلم يعبأ بهما ولم ينبس ببنت شفة، وواصل سيره حتى اقترب من تبوك.

فقال المسلمون بعضهم لبعض: من هذا الراكب على الطريق؟، فقال النّبي ﷺ: «كن أبا خيثمة» فلمّا اقترب وعرفه الناس، قالوا: نعم، هو أبو خيثمة، فأناخ راحلته وسلّم على النّبي ﷺ، وحدثه بما جرى له، فرحبّ به النّبي ﷺ، ودعا له[1].

وبذلك فإنّه كان من جملة الذين مال قلبهم إلى الباطل، إلاّ أنّ الله سبحانه وتعالى لما رأى استعداده الروحي أرجعه إلى الحق وثبّت قدمه.

وقد نقل سبب آخر لنزول الآية الثّانية، خلاصته:

---

(١) تفسير الميزان، ج ٩، ص ٣٠١؛ وتفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.

إنّ ثلاثة من المسلمين وهم: «كعب بن مالك» و«مرارة بن ربيع» و«وهلال بن أمية»، امتنعوا من المسير مع النّبي ﷺ والاشتراك في غزوة تبوك، إلاّ أنّ ذلك ليس لكونهم جزءاً من المنافقين، بل لكسلهم وتثاقلهم، فلم يمض زمان حتى ندموا.

فلمّا رجع النّبي ﷺ من غزوة تبوك حضروا عنده وطلبوا منه العفو عن تقصيرهم، إلاّ أن النّبي ﷺ لم يكلمهم حتى بكلمة واحدة، وأمر المسلمين أيضاً أن لا يكلّموهم.

لقد عاش هؤلاء محاصرة اجتماعية عجيبة وشديدة، حتى أنّ أطفالهم ونساءهم أتوا إلى النّبي ﷺ، وطلبوا الإذن منه في أن يفارقوا هؤلاء إلاّ أنّ النّبي ﷺ لم يأذن لهم بالمفارقة، لكنّه أمرهم أن لا يقتربوا منهم.

إنّ فضاء المدينة بوسعته قد ضاق على هؤلاء النفر، واضطروا للتخلص من هذا الذل والفضيحة الكبيرة إلى ترك المدينة والالتجاء إلى قمم الجبال.

ومن المسائل التي أثرت تأثيراً روحياً شديداً، وأوجدت صدمة نفسية عنيفة لدى هؤلاء ما رواه كعب بن مالك قال: كنت يوماً جالساً في سوق المدينة وأنا مغموم، فتوجه نحوي رجل مسيحي شامي، فلمّا عرفني سلمني رسالة من ملك الغساسنة كتب فيها: إذا كان صاحبك قد طردك وأبعدك فالتحق بنا، فتغيّر حالي وقلت: الويل لي، لقد وصل أمري إلى أن يطمع بي العدو!

خلاصة الأمر: إنّ عوائل هؤلاء وأصدقاءهم كانوا يأتونهم بالطعام، إلاّ أنّهم لا يكلّمونهم قط، ومضت مدّة على هذه الحال وهم يتجرّعون ألم الانتظار والترقب في أن تنزل آية تبشّرهم بقبول توبتهم، لكن دون جدوى.

في هذه الأثناء خطرت على ذهن أحدهم فكرة وقال: إذا كان الناس قد قطعوا علاقتهم بنا واعتزلونا، فلماذا لا يعتزل كل منّا صاحبه، صحيح أنّنا مذنبون جميعاً، لكن يجب أن لا يفرح أحدنا لذنب الآخر. وبالفعل اعتزل بعضهم بعضاً، ولم يتكلموا بكلمة واحدة، ولم يجتمع اثنان منهم في مكان. وأخيراً... وبعد خمسين يوماً من التوبة والتضرع إلى الله سبحانه وتعالى قُبلت توبتهم ونزلت الآية في ذلك(١).

(١) مجمع البيان، وسفينة البحار، وتفسير أبي الفتوح للرازي. وتفسير روح الجنان وتفسير جامع البيان، ذيل الآية مورد البحث؛ وبحار الأنوار، ج ٢١، ص ٢١٨ - ٢٢٠.

التّفسير

الحصار الاجتماعي للمذنبين

تتحدّث هذه الآيات أيضاً عن غزوة تبوك، والمسائل والأحداث التي ترتبط بهذا الحدث الكبير، وما جرى خلاله.

فتشير الآية الأُولى إلى رحمة الله اللامتناهية التي شملت النّبي ﷺ والمهاجرين والأنصار في اللحظات الحساسة، وتقول: ﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾.

ثمّ تُبيّن أن شمول هذه الرحمة الإلهيّة لهم كان في وقت اشتدت فيه الحوادث والضغوط والاضطرابات إلى الحدِّ الذي أوشكت أن تزل فيه أقدام بعض المسلمين عن جادة الصواب، (وصمّموا على الرجوع من تبوك) فتقول: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾. ثمّ تؤكّد مرّة أُخرى على أنّ الله سبحانه قد تاب عليهم، فتقول: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

ولم تشمل الرحمة الإلهيّة هذا القسم الكبير الذي شارك في الجهاد فقط، بل شملت حتى الثلاثة الذين تخلفوا عن القتال ومشاركة المجاهدين في ساحة الجهاد: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾.

إلاّ أنّ اللطف الإلهي لم يشمل هؤلاء المتخلفين بهذه السهولة، بل عندما عاش هؤلاء - وهم كعب بن مالك ومرارة بن ربيع وهلال بن أمية، الذين مرّ شرح حالهم في سبب النزول - مقاطعةً اجتماعية شديدة، وقاطعهم كل الناس بالصورة التي تصورها الآية، فتقول: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾.

بل إنّ صدور هؤلاء امتلأت همّاً وغمّاً بحيث ظنوا أن لا مكان لهم في الوجود، فكأنّه ضاق عليهم ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ فابتعد أحدهم عن الآخر وقطعوا العلاقة فيما بينهم.

عند ذلك رأوا كل الأبواب مغلقة بوجوههم. فأيقنوا ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾ فأدركتهم رحمة الله مرّة أُخرى، وسهلت ويسّرت عليهم أمر التوبة الحقيقية، والرجوع إلى طريق الصواب ليتوبوا: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

بحوث

وهنا بحوث نلفت النظر إليها:

١ - المراد من توبة الله على النّبي ﷺ

قرأنا في الآية الأُولى أن الله سبحانه قد تاب على النّبي ﷺ والمهاجرين والأنصار، وقَبِل توبتهم. ولا شك أنّ النّبي معصوم من الذنوب، ولم يرتكب معصية ليتوب فيقبل الله توبته، وإن كان بعض مفسّري العامّة قد اعتبروا التعبير في هذه الآية دليلاً على صدور السهو والمعصية من النّبي ﷺ في أحداث تبوك.

إلاّ أنّ التدقيق في نفس هذه الآية وسائر آيات القرآن سيرشدنا إلى عدم صحة هذا التّفسير، لأن:

أوّلاً: إنّ معنى توبة الله سبحانه رجوعه بالرحمة والرعاية على عباده، ولا يوجد في هذا المعنى أثر للزلل أو المعصية، كما قال في سورة النساء بعد ذكر قسم من الأحكام: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾. ففي هذه الآية والتي قبلها لم يرد حديث عن الزلل والمعصية، بل الكلام - عن تبيين الأحكام والإرشاد إلى سنن الماضين القيمة المفيدة، وهذا بنفسه يوضح أنّ التوبة هنا بمعنى شمول رحمة الله سبحانه لعباده.

ثانياً: لقد ورد في كتب اللغة أنّ أحد معاني التوبة هو ما ذكرناه، ففي كتاب (القاموس) المعروف ورد في أن هذا هو أحد معاني التوبة ما لفظة: رجع عليه بفضله وقبوله.

ثالثاً: إنّ الآية تحصر الانحراف عن طريق الحق والتخلف عنه بجماعة من المؤمنين، مع أنّها تصرح بأنّ الرحمة الإلهيّة تعم الجميع، وهو بنفسه يبيّن أنّ توبة الله هنا ليست بمعنى قبول عذر العباد، بل هي الرحمة الإلهيّة الخاصّة التي أدركت النّبي ﷺ وكل المؤمنين بدون استثناء في اللحظات الحساسة، وثبّتت أقدامهم في أمر الجهاد.

٢ - غزوة تبوك وساعة العسرة

«السّاعة» من الناحية اللغوية بمعنى مقطع زمني، سواء كان قصيراً أم طويلاً، ولا يقال للزمن الطويل جداً: ساعة. «والعسرة» بمعنى المشقة والصعوبة.

إن تاريخ الإسلام يُبيّن أنّ المسلمين لم يعانوا مثل ما عانوه في غزوة تبوك من الضغوط والمشقة، لأنّ المسير إلى تبوك كان في وقت اشتداد حر الصيف من جهة. ومن جهة أُخرى فإنّ القحط قد أثّر في الناس وأنهك قواهم. وكذلك فإنّ الفصل كان فصل اقتطاف الثمار، ولابدّ من جمع ما على الأشجار والنخيل لتأمين قوت سنتهم.

وإذا تجاوزنا جميع ذلك، فإنّ المسافة بين المدينة وتبوك طويلة جداً.

والعدو الذي كانوا يريدون مواجهته هو إمبراطورية الروم الشرقية، التي كانت يومها من أقوى الإمبراطوريات العالمية.

إضافةً إلى ما مرّ، فإنّ وسائل النقل بين المسلمين كانت قليلة إلى الحد الذي قد يضطر أحياناً عشرة أشخاص إلى أن يتناوبوا ركوب وسيلة واحدة، وبعض المشاة لم يكونوا يمتلكون حتى النعل، وكانوا مضطرين إلى العبور على رمال الصحراء الحارقة بأقدام عارية...

أمّا من ناحية الطعام والشراب، فإنّهم كانوا يعانون من قلّة المواد الغذائية. بحيث إنّ عدّة أشخاص يشتركون في تمرة واحدة أحياناً، فيمصّ كل منهم التمرة ويعطيها لصاحبه حتى لا يبقى منها إلاّ النواة... وكان عدّة أفراد يشتركون في جرعة ماء!!

لكن، ورغم كل هذه الأوضاع، فإنّ المسلمين كانوا يتمتعون بمعنويات عالية وراسخة، وبالرغم من كل المشكلات، فإنّهم توجهوا برفقة النّبي ﷺ نحو العدو، وبهذه الاستقامة والرجولة فإنّهم سجّلوا للمسلمين. وفي كل العصور والقرون، درساً كبيراً خالداً في ذاكرة الزمن... درساً كافياً لكل الأجيال، وطريقاً للانتصار على أكبر الأعداء وأخطرهم وأكثرهم عدّة...

ولا شك أنّ بين المسلمين من كان يمتلك معنويات أضعف، وهم الذين دارت في رؤوسهم فكرة الرجوع والذين عبّر عنهم القرآن الكريم بـ ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ﴾ لأنّ ﴿يَزِيغُ﴾ مأخوذة من (زيغ) بمعنى الميل والانحراف عن الحق نحو الباطل.

لكن، وكما رأينا، فإنّ المعنويات العالية للأكثرية من المسلمين، ولطف الله سبحانه بهم، هو الذي صرف هؤلاء عن هذه الفكرة، ليلتحقوا بجماعة المجاهدين في طريق الحق.

٣ - ما هو معنى ﴿خُلِّفُوا﴾؟

لقد عبّرت الآيات عن هؤلاء الثلاثة المقصّرين المهملين بـ ﴿خُلِّفُوا﴾ **بمعنى الذين تركهم الجيش وراء ظهره، وذلك لأن المسلمين عندما كانوا يصادفون من يتخاذل ويكسل عن الجهاد، فإنّهم لا يعبؤون به، بل يتركونه وراء ظهورهم ويتوجهون إلى جبهات الجهاد.**

أو لأنّ هؤلاء عندما حضروا عند النّبي ﷺ ليعتذروا ويطلبوا الصفح عن ذنبهم لم يقبل عذرهم، وأخّر قبول توبتهم.

٤ - درس كبير دائمي

من المسائل المهمّة التي تستفاد من هذه الآيات، مسألة مجازاة المجرمين والفاسدين عن طريق الحصار الاجتماعي وقطع الروابط والعلاقات، فنحن نرى أن قطع الروابط هذا قد وضع هؤلاء الثلاثة في شدة كانت أصعب عليهم من كل السجون بحيث ضاقت عليهم الدنيا تحت وطأة الحصار الاجتماعي وقطعوا الأمل من كل شيء.

إنّ هذا الأُسلوب قد أثّر في المجتمع الإسلامي آنذاك تأثيراً قوياً جدّاً، بحيث قلّ بعد هذه الحادثة من يجرؤ على ارتكاب مثل هذه المعاصي.

إنّ هذا النوع من العقاب لا يحتاج إلى متاعب وميزانية السجون، وليس فيه خاصية تربية الكسالى والأشرار كما هو حال السجون، إلاّ أنّ أثره أكبر وأشدّ من تأثير أي سجن، فهو نوع من الإضراب والجهاد السلبي للمجتمع مقابل الأفراد الفاسدين، فإنّ المسلمين إذا أقدموا على مثل هذه المجابهة في مقابل المتخلفين عن أداء الواجبات الاجتماعية الحساسة، فإنّ النصر سيكون حليفهم قطعاً، وسيكون بإمكانهم تطهير مجتمعهم بكل سهولة.

أمّا روح المجاملة والمساومة والاستسلام التي سرت اليوم - مع الأسف - في كثير من المجتمعات الإسلامية كمرض عضال، فإنّها لا تمنع ولا تقف أمام أمثال هؤلاء المتخلفين، بل وتشجعهم على أعمالهم القبيحة.

٥ - غزوة تبوك ونتائجها

منطقة «تبوك» هي أبعد نقطة وصل إليها النّبي ﷺ في غزواته، وهذه الكلمة في الأصل اسم قلعة محكمة وعالية كانت في الشريط الحدودي بين الحجاز والشام، ولذلك سمّيت تلك المنطقة بأرض تبوك.

إنّ انتشار الإسلام السريع في جزيرة العرب كان سبباً في أن يدوي صوت الرّسول ﷺ ونداؤه في جميع الدول المجاورة للجزيرة العربية، ولم يكن أحد يعير للحجاز أهمّية لغاية ذلك اليوم، فلما بزغ فجر الإسلام، وظهرت قوّة جيش النّبي ﷺ الذي وحّد الحجاز تحت راية واحدة، خاف هؤلاء من عاقبة الأمر.

إنّ دولة الروم الشرقية المتاخمة للحجاز، كانت تحتمل أن تكون من أوائل ضحايا تقدم الإسلام السريع، لذلك فقد جهزت جيشاً قوامه أربعون ألف مقاتل، وكان مجهزاً بالأسلحة الكافية التي كانت تمتلكها قوّة عظمى كإمبراطورية الروم، واستقر الجيش في حدود الحجاز، فوصل الخبر إلى مسامع النّبي ﷺ عن طريق المسافرين، فأراد النّبي ﷺ أن يلقّن الروم وباقي جيرانه درساً يكون لهم عبرة. فلم يتأخر عن إصدار أمره بالتهيؤ والاستعداد للجهاد، وبعث الرسل إلى المناطق الأُخرى يبلّغون المسلمين بأمر النّبي ﷺ فلم يمض زمن حتى اجتمع لديه ثلاثون ألفاً لقتال الروميين، وكان من بينهم عشرة آلاف راكب وعشرون ألف راجل.

كان الهواء شديد الحرّ، وقد فرغت المخازن من المواد الغذائية، والمحصولات الزراعية لتلك السنة لم تحصد وتجمع بعدُ، فكانت الحركة في مثل هذه الأوضاع بالنسبة للمسلمين صعبة جدّاً، إلاّ أنّ أمر الله ورسوله يقضي بالمسير في ظل أصعب الظروف وطي الصحاري الواسعة والمليئة بالمخاطر بين المدينة وتبوك.

إنّ هذا الجيش نتيجة للمشاكل الكثيرة التي واجهها من الناحية الاقتصادية، والمسير الطويل، والرياح السّموم المحرقة، وعواصف الرمال الكاسحة، وعدم امتلاك الوسائل الكافية للنقل، قد عرف بـ(جيش العسرة)(١)، ولكنّه تحمل جميع هذه المشاكل، ووصل إلى أرض تبوك في غرة شعبان من السنة التاسعة للهجرة، وكان النّبي ﷺ قد خلّف علياً عليه السلام مكانه، وهي الغزوة الوحيدة التي لم يشارك فيها أمير المؤمنين عليه السلام.

إنّ قيام النّبي ﷺ بإقامة علي عليه السلام مكانه كان عملاً ضرورياً وفي محله، فإنّه كان من المحتمل جداً أن يستفيد المتخلفون من المشركين أو المنافقين - الذين امتنعوا بحجج مختلفة عن الاشتراك في الجهاد - من غيبة النّبي ﷺ الطويلة، ويجمعوا أفرادهم ويحملوا على المدينة ويقتلوا النساء والأطفال ويهدموا المدينة، إلاّ أنّ وجود علي عليه السلام كان سدّاً منيعاً في وجه مؤامراتهم وخططهم.

---

(١) بحار الأنوار، ج ٩، ص ٢٥١.

وعلى كل حال، فإنّ النبي ﷺ حينما وصل إلى تبوك لم ير أثراً لجيوش الروم، وربّما كان ذلك لأنّهم سمعوا بخبر توجه هذا الجيش الإسلامي العظيم، وقد سمعوا من قبل بشجاعة واستبسال المسلمين العجيبة، وما أبدوه من بلاء حسن في الحروب، فرأوا أنّ الأصلح سحب قواتهم إلى داخل بلادهم، وليبيّنوا أنّ خبر تجمع جيش الروم على الحدود، ونيّته بالقيام بهجوم على المدينة، شائعة لا أساس لها، لأنّهم خافوا من التورط بمثل هذه الحرب الطاحنة دون مبررات منطقية، فخافوا من ذلك.

إلاّ أنّ حضور جنود الإسلام إلى ساحة تبوك بهذه السرعة قد أعطى لأعدائه عدة دروس:

أولاً: إنّ هذا الموضوع أثبت أنّ المعنويات العالية والروح الجهادية لجنود الإسلام، كانت قوية إلى الدرجة التي لا يخافون معها من الاشتباك مع أقوى جيش في ذلك الزمان.

ثانياً: إنّ الكثير من القبائل وأمراء أطراف تبوك أتوا إلى النبي ﷺ وأمضوا عهوداً بعدم التعرض للنّبي ﷺ ومحاربته، وبذلك فقد اطمأن المسلمون من هذه الناحية، وأمنوا خطرهم.

ثالثاً: إنّ إشعاع الإسلام وأمواجه قد نفذت إلى داخل حدود إمبراطورية الروم، ودوّى صدى الإسلام في كل الأرجاء باعتباره أهم حوادث ذلك اليوم، وهذا قد هيّأ الأرضية الجيّدة لتوجّه الروميين نحو الإسلام والإيمان به.

رابعاً: إنّ المسلمين بقطعهم هذا الطريق، وتحملهم لهذه الصعاب، قد عبّدوا الطريق لفتح الشام في المستقبل، وقد اتضح للجميع بأنّ هذا الطريق سيقطع في النهاية.

وهكذا، فإنّ هذه المعطيات الكبيرة تستحق كل هذه المشاق والتعبئة والزحف.

وعلى كل حال، فإنّ النبي على عادته - قد استشار جيشه في الاستمرار في التقدم أو الرجوع، وكان رأي الأكثر بأنّ الرجوع هو الأفضل والأنسب لروح التعليمات الإسلامية، خاصّة وأنّ جيوش المسلمين كانت قد تعبت نتيجة المعاناة الكبيرة في الطريق، وضعفت مقاومتهم الجسمية، فأقر النّبي ﷺ هذا الرأي وردّ جيوش المسلمين إلى المدينة.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾

التّفسير

كونوا مع الصّادقين

في الآيات السابقة كان الحديث حول جماعة من المتخلفين الذين نقضوا عهدهم مع الله ورسوله، وأظهروا عملياً تكذيبهم للإيمان بالله واليوم الآخر، ورأينا كيف أنّ المسلمين قد أرجعوهم إلى حظيرة الإيمان بمقاطعتهم، ونبّهوهم على خطئهم.

أمّا هذه الآية فقد أشارت إلى النقطة المقابلة لهؤلاء، فهي تأمر بتحكيم الروابط مع الصادقين الذين حافظوا على عهدهم وثبتوا عليه.

في البداية تقول الآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ ولأجل أن يستطيعوا سلوك طريق التقوى المليء بالمنعطفات والأخطار بدون اشتباه وانحراف أضافت: ﴿وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾.

وقد احتمل المفسّرون احتمالات مختلفة في المقصود من الصادقين، ومن هم؟ إلاّ أنّنا إذا أردنا اختصار الطريق، يجب أن نرجع إلى القرآن الكريم نفسه الذي فسّر معنى الصادقين في آيات متعددة.

فنقرأ في سورة البقرة، الآية ١٧٧: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾.

فنحن نرى في هذه الآية أنّها بعد نهي المسلمين عن البحث والمناقشة حول مسألة تغيير القبلة، تفسر لهم حقيقة العمل الصالح والبر بأنّه الإيمان بالله ويوم القيامة والملائكة والكتب السماوية والأنبياء، ثمّ الإنفاق في سبيل الله ومساعدة المحتاجين والمحرومين، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والوفاء بالعهد، والاستقامة والصمود أمام المشاكل حين الجهاد، وبعد ذكر كل هذه الصفات تقول: إنّ الذين يمتلكون هذه الصفات هم الصادقون وهم المتقون.

وعلى هذا، فإنّ الصادق هو الذي يؤمن بكل المقدسات، ثمّ يعمل بموجبها في جميع النواحي،

وفي الآية (١٥) من سورة الحجرات نقرأ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ فإنّ هذه الآية أيضاً تُعرِّف الصدق بأنّه مجموع الإيمان والعمل الذي لا تشوبه أية شائبة من التردد أو المخالفة.

ونقرأ في الآية (٨) من سورة الحشر: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ فهذه الآية عَرّفت الصادقين بأنّهم المؤمنون المحرومون الذين استقاموا وثبتوا رغم كل المشاكل، وأخرجوا من ديارهم وأموالهم، ولم يكن لهم هدف وغاية سوى رضى الله ونصرة رسوله ﷺ.

من مجموع هذه الآيات نحصل على نتيجة، وهي أنّ الصادقين هم الذين يؤدون تعهداتهم أمام الإيمان بالله على أحسن وجه دون أي تردد أو تماهل ولا يخافون سيل المصاعب والعقبات، بل يُثبتون صدق إيمانهم بأنواع الفداء والتضحية.

ولا شك أنّ لهذه الصفات درجات، فقد يكون البعض في قمّتها، وهم الذين نسمّيهم بالمعصومين، والبعض في درجات أقل وأدنى منها.

هل المراد من الصّادقين هم المعصومون فقط؟

بالرغم من أنّ مفهوم الصادقين - كما ذكرنا سابقاً - مفهوم واسع، إلاّ أنّ المستفاد من الرّوايات الكثيرة أنّ المراد من هذا المفهوم هنا هم المعصومون فقط.

يروي سليم بن قيس الهلالي: إنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان له يوماً كلام مع جمع من المسلمين، ومن جملة ما قال: «فأنشدكم الله أتعلمون أن الله أنزل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾. فقال سلمان: يا رسول الله أعامّة هي أم خاصّة؟ قال: أمّا المأمورون فالعامّة من المؤمنين أُمروا بذلك، وأمّا الصادقون فخاصّة لأخي علي والأوصياء من بعده إلى يوم القيامة»؟ قالوا: اللّهم نعم(١).

ويروي نافع عن عبد الله بن عمر: إنّ الله سبحانه أمر أوّلاً المسلمين أن يخافوا الله ثمّ قال: ﴿وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ يعني مع محمّد وأهل بيته(٢).

---

(١) تفسير البرهان، ج ٢، ص ١٧٠؛ وبحار الأنوار، ج ٣١، ص ٤١٣ و ٤١٤.

(٢) المصدر السابق، ج ٢٤، ص ٣٣.

وبالرغم من أنّ بعض مفسّري أهل السنة - كصاحب المنار - قد نقلوا ذيل الرّواية أعلاه هكذا: مع محمّد وأصحابه[١]، ولكن مع ملاحظة أن مفهوم الآية عام وشامل لكل زمان، وصحابة النّبي ﷺ كانوا في زمن خاص، تبيّن لنا أنّ العبارة التي وردت في كتب الشيعة عن عبدالله بن عمر هي الأصح.

ونقل صاحب تفسير البرهان نظير هذا المضمون عن طرق العامّة، وقال: إنّ موفق بن أحمد بإسناده عن ابن عباس، يروي في ذيل هذه الآية: هو علي بن أبي طالب[٢]، ثمّ يقول: أورد ذلك أيضاً عبدالرزاق في كتاب رموز الكنوز[٣].

أمّا المطلب الأهم، فهو أنّ الآية تأمر أوّلاً بالتقوى، ثمّ بالكون مع الصادقين، فلو أنّ مفهوم الصادقين في الآية عامّاً وشاملاً لكل المؤمنين الحقيقيين المستقيمين، لكان اللازم أن يقال: وكونوا من الصادقين، لا مع الصادقين. (فتأمل جيداً).

إنّ هذه بذاتها قرينة واضحة على أنّ ﴿ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ في الآية هم فئة خاصّة.

ومن جهة أُخرى، فليس المراد من الكون معهم أن يكون الإنسان مجالساً ومعاشراً لهم، بل المراد قطعاً هو اتباعهم والسير في خطاهم.

إذا كان الشخص غير معصوم هل يمكن صدور أمر بدون قيد أو شرط باتباعه والسير في ركابه؟ أليس هذا بنفسه دليلاً على أن هذه الفئة والمجموعة هم المعصومون؟

وعلى هذا، فإنّ ما استفدناه من الرّوايات يمكن استفادته من الآية إذا دققنا النظر فيها.

إنّ الملفت للنظر هنا، أنّ المفسّر المعروف الفخر الرازي، المعروف بتعصبه وتشكيكه، قد قبل هذه الحقيقة - وإن كان أغلب مفسّري السنّة سكتوا عنها عند مرورهم بهذه الآية - ويقول: إنّ الله قد أمر المؤمنين بأن يكونوا مع الصادقين، وعلى هذا فإنّ الآية تدل على أن من يجوز الخطأ عليهم يجب عليهم الاقتداء بالمعصوم حتى يبقوا مصونين عن الخطأ في ظلّه وعصمته، وسيكون هذا الأمر في كل زمان، ولا نملك أي دليل على اختصاص ذلك بعصر النّبي ﷺ.

إلاّ أنّه يضيف بعد ذلك: إنّنا نقبل أنّ مفهوم الآية هو هذا، ويجب أن يوجد معصوم في كل وقت، إلاّ أنّنا نرى أن هذا المعصوم هو جميع الأُمّة، لا أنّه فرد واحد! وبتعبير

---

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث؛ وبحار الأنوار، ج ٣٥، ص ٤١٧ و ٤١٨.

(٢-٣) تفسير البرهان، ج ٢، ص ١٧٠؛ وبحار الأنوار، ج ٣٥، ص ٤١١.

آخر: إنّ هذه الآية دليل على حجية إجماع المؤمنين، وعدم خطأ مجموع الأُمّة(١).

وبهذا الترتيب، فإنّ الرازي قد طوى نصف الطريق جيداً، إلاّ أنّه زاغ في النصف الثّاني، ولو أنّه التفت إلى النكتة التي وردت في متن الآية لأكمل النصف الثّاني أيضاً بسلامة، وهي أنّه لو كان المقصود من الصادقين مجموع الأُمّة، فإنّ الأتباع سيكونون جزءاً من ذلك المجموع وهو في الواقع اتباع الجزء للقدوة والإمام، وسيعني ذلك اتحاد التابع والمتبوع، في حين نرى أنّ ظاهر الآية هو أنّ القدوة غير المقتدي، والتابعين غير المتبوعين، بل يختلفون عنهم. (دققوا ذلك).

ونتيجة ذلك: إنّ هذه الآية من الآيات التي تدل على وجود المعصوم في كل عصر وزمان.

ويبقى سؤال أخير، وهو أنّ الصادقين جمع، وهل يجب على هذا الأساس أن يكون في كل زمان معصومون متعددون؟

والجواب على هذا السؤال واضح أيضاً، وهو أنّ الخطاب ليس مختصاً بأهل زمن وعصر معين، بل إنّ الآية تخاطب كل العصور والقرون، ومن البديهي أنّ المخاطبين على مرّ العصور لا بدّ وأن يكونوا مع جمع من الصادقين. وبتعبير آخر، فإنّه لما كان في كل زمان معصوم، فإنّنا إذا أخذنا كل القرون والعصور بنظر الاعتبار، فإنّ الكلام سيكون عن جمع المعصومين لا عن شخص واحد.

والشاهد الناطق على هذا الموضوع هو أنّه لا يوجد في زمن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أحد تجب طاعته غير شخص النّبي صلى الله عليه وآله وسلم وفي الوقت نفسه فإنّ من المسلّم أنّ الآية تشمل المؤمنين في زمانه، وعلى هذا الأساس سنفهم أنّ الجمع الوارد في الآية لا يراد منه الجمع في زمان واحد، بل هو في مجموعة الأزمنة.

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي، ج ١٦، ص ٢٢٠ - ٢٢١.

أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾

التّفسير

معاناة المجاهدين لا تبقى بدون ثواب

كان البحث في الآيات السابقة حول توبيخ وملامة الممتنعين عن الاشتراك في غزوة تبوك، وتبحث هاتان الآيتان البحث النهائي لهذا الموضوع كقانون كلّي.

فالآية الأولى تقول: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ لأنّه قائد الأُمّة، ورسول الله، ورمز بقاء وحياة الأمّة الإسلامية، وإن تركه وحيداً لا يعرض حياة رسول الله ﷺ للخطر فحسب، بل يعرّض دين الله، وكذلك وجود وحياة المؤمنين أيضاً أمام الخطر الجدي.

إنّ القرآن - في الواقع - يرغّب كل المؤمنين بملازمة النّبي ﷺ وحمايته والدفاع عنه في مقابل كل الأخطار والعقبات باستعمال نوع من البيان والتعبير العاطفي، فهو يقول: إنّ أرواحكم ليست بأعزّ من روح النّبي ﷺ وحياتكم ليست بأفضل من حياته، فهل يسمح لكم إيمانكم أن تدعوا النّبي ﷺ يواجه الخطر وهو أفضل وأعز موجود إنساني، وقد بُعث لنجاتكم وقيادتكم نحو الهدى وتستثقلون التضحية في سبيله حفاظاً على أرواحكم وسلامتكم؟!

من البديهي أنّ التأكيد على أهل المدينة وأطرافها إنّما هو لأنّ المدينة كانت مقرّ الإسلام يومئذ ومركزه المشع، وإلاّ فإنّ هذا الحكم غير مختص بالمدينة وأطرافها، وغير مختص بالنّبي ﷺ، فإنّ واجب كل المسلمين، وفي جميع العصور أن يحترموا ويكرموا قادتهم كأنفسهم، بل أكثر، ويبذلون قصارى جهدهم في سبيل الحفاظ عليهم، ولا يتركوهم يواجهون الصعاب والأخطار وحدهم، لأنّ الخطر الذي يحدق بهؤلاء يحدق بالأُمّة جميعاً.

ثمّ تشير الآية إلى مكافآت المجاهدين المعدة مقابل كل صعوبة يلاقونها في طريق الجهاد، وتذكر سبعة أقسام من هذه المشاكل والصعاب وثوابها، فتقول: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ

ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾، ومن المحتم أنّهم سيقبضون جوائزهم من الله سبحانه، واحدة بواحدة، فـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾. وكذلك فإنّهم لا يبذلون شيئاً في أمر الجهاد:

﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ ولا يقطعون أرضاً في ذهابهم للوصول إلى ميدان القتال، أو عند رجوعهم منه إلاّ ثبت كل ذلك في كتبهم:

﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ وإنّما يثبت ذلك ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وهنا يجب الانتباه لمسائل:

١ - إنّ جملة ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ قد فسّرها أغلب المفسّرين كما ذكر أعلاه، وقالوا: إنّ المقصود هو أن المجاهدين في سبيل الله لا يتلقون ضربة من قبل العدوّ، سواء جُرحوا بها أو قُتلوا أو أُسروا وأمثال ذلك، إلاّ وتُسَجَّل في صحائف أعمالهم ليُجزَوا عليها، ومقابل كل تعب وصعوبة ما يناسبها من الأجر، ومن الطبيعي أننا إذا لاحظنا أنّ الآية في مقام ذكر المصاعب وحسابها، فإن ذلك ممّا يناسب هذا المعنى.

إلاّ أنّنا إذا أردنا أن نفسر هذه العبارة بملاحظة ترتيب الفقرات وموقع هذه الجملة منها، وما يناسبها لغوياً، فإنّ معنى الجملة يكون: إنّهم لا يُنزلون بالعدو ضربة إلاّ كتبت لهم، لأنّ معنى (نال من عدوه) في اللغة: ضربه، إلاّ أنّ النظر إلى مجموع الآية يرجح التّفسير الأوّل.

٢ - ذكر المفسّرون تفسيرين لجملة: ﴿أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: أحدهما على أساس أنّ كلمة ﴿أَحْسَنَ﴾ وصف لأفعالهم، والآخر على أنّها وصف لجزائهم.

فعلى التّفسير الأوّل وهو ما اخترناه، وهو الأوفق لظاهر الآية - فإنّ أعمال المجاهدين هذه قد اعتُبرت وعُرِّفت بأنّها أحسن أعمالهم في حياتهم، وإنّ الله سبحانه سيعطيهم من الجزاء ما يناسب أعمالهم.

وعلى التّفسير الثّاني الذي يحتاج إلى تقدير كلمة (ما) بعد كلمة ﴿أَحْسَنَ﴾ فإنّها تعني إنّ جزاء الله أفضل وأثمن من أعمالهم، وتقدير الجملة: ليجزيهم الله أحسن ممّا كانوا يعملون، أي سيعطيهم الله أفضل ممّا أعطوا.

٣ - إنّ الآيات المذكورة لا تختص بمسلمي الأمس، بل هي للأمس واليوم ولكل القرون والأزمنة.

ولا شك أنّ الاشتراك في أي نوع من الجهاد، صغيراً كان أم كبيراً، يستبطن مواجهة المصاعب والمشاكل المختلفة، الجسمية منها والروحية والمالية وأمثالها، إلاّ أنّ المجاهدين أناروا قلوبهم وأرواحهم بالإيمان بالله ووعوده الكبيرة. وعلموا أنّ كل نَفَس وكلمة وخطوة يخطونها في هذا السبيل لا تذهب سدىً، بل إنّها محفوظة بكل دقة دون زيادة أو نقصان، وإنّ الله سبحانه سيعطيهم في مقابل هذه الأعمال - باعتبارها أفضل الأعمال - من بحر لطفه اللامتناهي أنسب المكافآت وأليقها...

إنّهم إذا عاشوا هذا الإحساس فسوف لا يمتنعون مطلقاً من تحمل هذه المصاعب مهما عظمت وثقلت، وسوف لا يدعون للضعف طريقاً إلى أنفسهم مهما كان الجهاد مريراً ومليئاً بالحوادث والعقبات.

﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

سبب النّزول

روى الطبرسي رحمه الله في مجمع البيان عن ابن عباس، أنّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم لما سار إلى ميدان القتال، كان جميع المسلمين يسيرون بين يديه باستثناء المنافقين والمعذورين، إلاّ أنّه بعد نزول الآيات التي ذمت المنافقين، وخاصّة المتخلفين عن غزوة تبوك، فإنّ المؤمنين صمموا أكثر من قبل على المسارعة إلى ميادين الحرب، بل وحتى في الحروب التي لم يشارك فيها النّبي صلى الله عليه وآله وسلم بنفسه، فإنّ جميع السرايا كانت تتوجه إلى الجهاد، ويدعون النّبي صلى الله عليه وآله وسلم وحده، فنزلت الآية وأعلنت أنّه لا ينبغي في غير الضرورة أن يذهب جميع المسلمين إلى الجهاد، بل يجب أن يبقى جماعة منهم ليتعلموا العلوم الإسلامية وأحكام الدين من النّبي صلى الله عليه وآله وسلم ويعلموا أصحابهم المجاهدين عند رجوعهم من القتال[1].

وقد نقل هذا المفسّر الكبير سبباً آخر للنّزول بهذا المضمون أيضاً، وهو أنّ جماعة

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.

من أصحاب النّبي ﷺ انتشروا بين القبائل يدعونهم إلى الإسلام، فرحبّوا بهم وأحسنوا إليهم، إلاّ أنّ بعضهم قد لامهم على تركهم النّبي ﷺ والتوجه إليهم، وقد تأثر هؤلاء لذلك ورجعوا إلى النّبي ﷺ، فنزلت الآية تؤيد عمل هؤلاء في الدعوة إلى الإسلام، وأزالت قلقهم(١).

وروي سبب ثالث للنزول في تفسير «التبيان»، وهو أنّ الأعراب لما أسلموا توجّهوا جميعاً نحو المدينة لتعلم الأحكام الإسلامية، فسبّب ذلك ارتفاع قيمة البضائع والمواد الغذائية، وإيجاد مشاكل ومشاغل أُخرى لمسلمي المدينة، فنزلت الآية وعرّفتهم بأنّه لايجب توجههم جميعاً إلى المدينة وترك ديارهم وإخلاؤها، بل يكفي أن يقوم بهذا العمل طائفة منهم(٢).

التّفسير

محاربة الجهل وجهاد العدو

إنّ لهذه الآية ارتباطاً بالآيات السابقة حول موضوع الجهاد، وتشير إلى حقيقة حياتية بالنسبة للمسلمين، وهي: أنّ الجهاد وإن كان عظيم الأهميّة، والتخلف عنه ذنب وعار، إلاّ أنّه في غير الحالات الضرورية لا لزوم لتوجه المؤمنين كافة إلى ساحات الجهاد، خاصّة في الموارد التي يبقى فيها النّبي ﷺ في المدينة، بل يبقى منهم جماعة لتعلم أحكام الدين ويتوجه الباقون إلى الجهاد: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾.

فإذا رجع أصحابهم من الجهاد يقومون بتعليمهم هذه الأحكام والمعارف الإسلامية، ويحذّرونهم من مخالفتها: ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ والهدف من ذلك أن يحذر هؤلاء عن مخالفة أوامر الله سبحانه بإنذارهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

ملاحظات:

وهنا ملاحظات ينبغي التوقف عندها:

١ - إنّ ما قيل في تفسير هذه الآية إضافةً إلى أنّه يناسب سبب نزولها المعروف، فإنّه

---

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.

(٢) تفسير التبيان، ج ٥، ص ٣٢٣، ذيل الآية مورد البحث.

الأوفق مع ظاهر جمل الآية من أي تفسير آخر، إلاّ أنّ الشيء الوحيد هنا هو أنّنا يجب أن نقدر جملة «لتبقى طائفة» بعد ﴿مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ أي: لتذهب طائفة من كل فرقة، وتبقى طائفة أُخرى، وهذا الموضوع بالطبع مع ملاحظة القرائن الموجودة في الآية لا يستوجب إشكالاً. (فتأمل بدقة).

إلاّ أنّ بعض المفسّرين احتمل عدم وجود أيّ تقدير في الآية، والمقصود أن جماعة من المسلمين يذهبون إلى الجهاد تحت عنوان الواجب الكفائي، ويعرفون في ساحات الجهاد أحكام الإسلام وتعاليمه، ويرون بأنفسهم انتصار المسلمين على الأعداء، الذي هو بذاته نموذج من آثار عظمة وأحقية هذا الدين، وإذا ما رجعوا يكونون أوّل من يشرح لإخوانهم ما جرى(١).

والاحتمال الثّالث الذي احتمله بعض المفسّرين، وهو أنّ الآية تبيّن حكماً مستقلاً عن مباحث الجهاد، وهو أنّه يجب على المسلمين واجباً كفائياً أن ينهض من كل قوم عدّة أفراد بمسؤولية تعلم الأحكام والعلوم الإسلامية، ويذهبوا إلى معاهد العلم الإسلامية الكبيرة، وبعد تعلمهم العلوم يرجعون إلى أوطانهم ويبدؤون بتعليم الآخرين(٢).

ولكن التّفسير الأوّل كما تقدم - أقرب إلى مفهوم الآية، وإن كانت إرادة كل هذه المعاني ليس ببعيد(٣).

٢ - لقد تصور البعض وجود نوع من المنافاة بين هذه الآية والآيات السابقة، إذ الآيات السابقة أمرت الجميع بالتوجه إلى ساحات الجهاد، ووبخت المتخلفين بشدة، أمّا هذه الآية فتقول: إنّه لاينبغي للجميع أن يتوجهوا إلى ميدان الحرب.

ولكن من الواضح أنّ هذين الأمرين قد صدرا في ظروف مختلفة، فمثلاً في غزوة تبوك لم يكن هناك بدّ من توجه كل المسلمين إلى الجهاد لمواجهة الجيش القوي الذي أعدته إمبراطورية الروم لمحاربة الإسلام والقضاء عليه. أمّا في حالة مقابلة جيوش ومجاميع أصغر وأقل فليست هناك ضرورة لتوجه الجميع إلى الحرب، خاصّة في الحالات التي يبقى فيها النّبي ﷺ بنفسه، فإنّه يجب عليهم أن لا يُخلوا المدينة مع

---

(١) اختار الطبري هذا الرأي، في تفسيره، ج ١١، ص ٤٨، ذيل الآية مورد البحث ونقل ذلك القرطبي في تفسيره، وذكره جماعة من المفسّرين في ذيل الآية كاحتمال.

(٢) هذا التّفسير يناسب سبب النزول الذي أورده المرحوم الشيخ الطوسي في التبيان، ج ٥، ص ٣٢٣.

(٣) نلفت انتباهكم إلى أنّنا نعتبر استعمال كلمة واحدة في عدّة معان أمراً جائزاً.

احتمالات الخطر المتوقعة، وأن لا يغفلوا عن التفرغ لتعلم المعارف والأحكام الإسلامية.

وعلى هذا فلا يوجد أي نوع من التنافي بين هذه الآيات، وما تصوره البعض من التنافي هو اشتباه محض.

٣ - لا شك أنّ المقصود من التفقه في الدين هو تحصيل جميع المعارف والأحكام الإسلامية، وهي أعم من الأصول والفروع، لأنّ كل هذه الأُمور قد جمعت في مفهوم التفقه، وعلى هذا، فإنّ هذه الآية دليل واضح على وجوب توجه فئة من المسلمين وجوباً كفائياً على الدوام لتحصيل العلوم في مختلف المجالات الإسلامية، وبعد الفراغ من التحصيل العلمي يرجعون إلى مختلف البلدان، وخصوصاً بلدانهم وأقوامهم، ويعلمونهم مختلف المسائل الإسلامية.

وبناء على ذلك، فإنّ الآية دليل واضح على وجوب تعلم وتعليم المسائل الإسلامية، وبتعبير آخر فإنّها أوجبت التعلم والتعليم معاً، وإذا كانت الدنيا في يومنا الحاضر تفتخر بسنّها التعليم الإجباري، فإنّ القرآن قد فرض قبل أربعة عشر قرناً هذا الواجب على المعلمين علاوة على المتعلمين.

٤ - استدل جماعة من علماء الإسلام بهذه الآية على مسألة جواز التقليد، لأنّ التقليد إنّما هو تعلم العلوم الإسلامية وإيصالها للآخرين في مسائل فروع الدين، ووجوب اتباع المتعلمين للمعلمين.

وكما قلنا سابقاً، فإنّ البحث في هذه الآية لا ينحصر في فروع الدين، بل تشمل حتى المسائل الأُصولية، وتتضمن الفروع أيضاً على كل حال.

الإشكال الوحيد الذي يُثار هنا، هو أنّ الاجتهاد والتقليد لم يكن موجوداً في ذلك اليوم، والأشخاص الذين كانوا يتعلّمون المسائل ويوصلونها للآخرين حكمهم كحكم البريد والإرسال في يومنا هذا، لاحكم المجتهدين، أي إنّهم كانوا يأخذون المسألة من النّبي صلى الله عليه وآله وسلم ويبلّغونها للآخرين كما هي من دون إبداء أي رأي أو وجهة نظر.

ولكن مع الأخذ بنظر الاعتبار المفهوم الواسع للاجتهاد والتقليد يتّضح الجواب عن هذا الإشكال.

وتوضيح ذلك: إن ممّا لا شك فيه أنّ علم الفقه على سعته التي نراها اليوم لم يكن له وجود ذلك اليوم، وكان من السهل على المسلمين أن يتعلّموا المسائل من النّبي صلى الله عليه وآله وسلم،

لكن هذا لا يعني أنّ علماء الإسلام كان عملهم هو بيان المسائل فقط، لأن الكثير من هؤلاء كانوا يذهبون إلى الأماكن المختلفة كقضاة وأمراء، ومن البديهي أن يواجهوا من المسائل مالم يسمعوا حكمها بالذات من النّبي ﷺ، إلاّ أنّها كانت موجودة في عمومات وإطلاقات آيات القرآن المجيد. فكان هؤلاء قطعاً يقومون بتطبيق الكليات على الجزئيات - وفي الاصطلاح العلمي: ردّ الفروع إلى الأُصول وردّ الأُصول على الفروع - لمعرفة حكم هذه المسائل، وكان هذا بحد ذاته نوعاً من الإجتهاد البسيط.

إنّ هذا العمل وأمثاله كان موجوداً في زمن النّبي ﷺ حتماً، فعلى هذا فإنّ الجذور الأصليّة للاجتهاد كانت موجودة بين أصحاب النّبي ﷺ، ولو أنّ الصحابة لم يكونوا جميعاً بهذه الدرجة.

ولمّا كان لهذه الآية مفهوماً عاماً، فإنّها تشمل قبول أقوال موضّحي وناقلي الأحكام، كما تشمل قبول قول المجتهدين، وعلى هذا، فيمكن الاستدلال بعموم الآية على جواز التقليد.

٥ - المسألة المهمّة الأُخرى التي يمكن استخلاصها من الآية، هي الأهميّة الخاصّة التي أولاها الإسلام لمسألة التعليم والتعلم، إلى الدرجة التي ألزم فيها المسلمين بأن لا يذهبوا جميعاً إلى ميدان الحرب، بل يجب أن يبقى قسم منهم لتعلم الأحكام والمعارف الإسلامية.

إنّ هذا يعني أن محاربة الجهل واجب كمحاربة الأعداء، ولا تقل أهميّة أحد الجهادين عن الآخر. بل إنّ المسلمين ما لم ينتصروا في محاربتهم للجهل واقتلاع جذوره من المجتمع، فإنّهم سوف لا ينتصرون على الأعداء، (لأنّ الأُمّة الجاهلة محكومة بالهزيمة دائماً).

أحد المفسّرين المعاصرين ذكر في ذيل هذه الآية بحثاً جميلاً، وقال: كنت أطلب العلم في طرابلس وكان حاكمها الإداري من أهل العلم والفقه في مذهب الشافعية، فقال لي مرّة: لماذا تستثني الدولة العلماء وطلاب العلوم الدينية من الخدمة العسكرية وهي واجبة شرعاً وهم أولى الناس بالقيام بهذا الواجب؟ - يعرّض بي - أليس هذا خطأ لا أصل له في الشرع؟ فقلت له على البداهة: بل لهذا أصل في نص القرآن الكريم، وتلوت عليه الآية فاستكثر الجواب على مبتدىء مثلي لم يقرأ التّفسير وأثنى ودعا[1].

(١) تفسير المنار، ج ١١، ص ٧٨.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾

التّفسير

قتال الأقرب فالأقرب

أشارت الآية في سياق أحكام الجهاد التي ذكرت لحد الآن في هذه السورة - إلى أمرين آخرين في هذا الموضوع الإسلامي المهم، فوجهت الخطاب أوّلاً إلى المؤمنين وقالت: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾.

صحيح أنّه تجب محاربة الكفّار جميعاً، ولا فرق بينهم في ذلك، إلاّ أنّه من الوجهة التكتيكية وطريقة القتال يجب البدء بالعدو الأقرب، لأنّ خطر العدوّ القريب أكبر، كما أنّ الدعوة للإسلام وهداية الناس إلى دين الحق يجب أن تبدأ من الأقرب، والنّبي ﷺ قد بدأ بأمر الله سبحانه بدعوة أقاربه وعشيرته، ثمّ دعا أهل مكّة، ثمّ جزيرة العرب وقام بإرسال الرسل إليها، وبعدها كتب الرسائل إلى ملوك العالم، ولا شك أن هذا الأسلوب هو الأقرب للنجاح والوصول إلى الهدف.

ومن الطبيعي أنّ لكل قانون استثناء، فقد يكون العدو الأبعد - في بعض الأحيان - أشد خطراً من العدوّ القريب، وعندها تجب المبادرة إلى دفعه أوّلاً، لكن، كما قلنا، فإن هذا استثناء لا قانون ثابت ودائم.

وأمّا ما قلناه من أنّ المبادرة إلى مجابهة العدوّ الأقرب هي الأهم والأوجب. فإنّ أسبابه واضحة، وذلك:

أوّلاً: إنّ خطر العدوّ القريب أكبر وأشد من العدوّ البعيد.

ثانياً: إنّ اطلاعنا وعلمنا بالعدوّ القريب أكثر، وهذا من العوامل المساعدة والمقربة للنصر.

ثالثاً: إنّ التوجه لمحاربة العدوّ البعيد لا يخلو من خطورة إضافية، فالعدوّ القريب قد يستغل الفرصة ويحمل على الجيش من الخلف، أو يستغل خلو المقر الأصلي للإسلام فيهجم عليه.

رابعاً: إنّ الوسائل اللازمة ونفقات محاربة العدوّ القريب أقل وأبسط، والتسلط على ساحة الحرب في ظل ذلك أسهل.

لهذه الأسباب وأسباب أُخرى، فإنّ دفع العدوّ الأقرب هو الأوجب والأهم، والجدير بالذكر أنّ هذه الآية لما نزلت كان الإسلام قد استولى على كل جزيرة العرب تقريباً، وعلى هذا فإن أقرب عدو في ذلك اليوم ربّما كان إمبراطورية الروم الشرقية التي توجه المسلمون إلى تبوك لمحاربتها.

وكذلك يجب أن لا ننسى أنّ هذه الآية بالرغم من أنّها تتحدث عن العمل المسلح والبعد المكاني، إلاّ أنّه ليس من المستبعد أنّ روح الآية حاكمة في الأعمال المنطقية والفواصل المعنوية، أي إنّ المسلمين عندما يعزمون على المجابهة المنطقية والإعلامية والتبليغية يجب أن يبدؤوا بمن يكون أقرب إلى المجتمع الإسلامي وأشدّ خطراً عليه، فمثلاً في عصرنا الحاضر نرى أنّ خطر الإلحاد والمادية يهدد كل المجتمعات، فيجب تقديم التصدّي لها على مواجهة المذاهب الباطلة الأُخرى، وهذا لا يعني نسيان هؤلاء، بل يجب إعطاء الأهميّة القصوى للهجوم نحو الفئة الأخطر، وهكذا في مواجهة الاستعمار الفكري والسياسي والاقتصادي التي تحوز الدرجة الأُولى من الأهميّة.

والأمر الثّاني فيما يتعلق بالجهاد في الآية، هو أُسلوب الحزم والشدّة، فهي تقول: إنّ العدوّ يجب أن يلمس في المسلمين نوعاً من الخشونة والشدّة: ﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ وهي تشير إلى أنّ الشجاعة والشهامة الداخلية والاستعداد النفسي لمقابلة العدو ومحاربته ليست كافية بمفردها، بل يجب اظهار هذا الحزم والصلابة للعدوّ ليعلم أنّكم على درجة عالية من المعنويات، وهذا بنفسه سيؤدّي إلى هزيمتهم وانهيار معنوياتهم.

وبعبارة أُخرى فإنّ امتلاك القدرة ليس كافياً، بل يجب استعراض هذه القوّة أمام العدو. ولهذا نقرأ في تأريخ الإسلام أنّ المسلمين عندما أتوا إلى مكّة لزيارة بيت الله، أمرهم رسول الله ﷺ أن يسرعوا في طوافهم، بل أنّ يعدوا ويركضوا ليرى العدو - الذي كان يراقبهم عن كثب - قوتهم وسرعتهم ولياقتهم البدنية.

وكذلك نقرأ في قصّة فتح مكّة أنّ النبي ﷺ أمر المسلمين في الليل أن يشعلوا نيراناً في الصحراء ليعرف أهل مكّة عظمة جيش الإسلام، وقد أثر هذا العمل في معنوياتهم، وكذلك أمر أن يُجعل أبوسفيان كبير مكّة في زاوية ويستعرض جيش الإسلام العظيم قواته أمامه.

وفي النهاية تبشر الآية المسلمين بالنصر من خلال هذه العبارة: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ ويمكن أن يشير هذا التعبير - إضافةً لما قيل - إلى أنّ استعمال الشدّة والخشونة يجب أن يقترن بالتقوى، ولا يتعدى الحدود الإنسانية في أي حال.

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾

التّفسير

تأثير آيات القرآن المتباين على القلوب

تشير هاتان الآيتان إلى واحدة من علامات المؤمنين والمنافقين البارزة، تكملةً لما مرّ من البحوث حولهما.

فتقول أوّلاً: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا﴾[1] وهم يريدون بكلامهم هذا أن يبينوا عدم تأثير سور القرآن فيهم، وعدم اعتنائهم بها، ويقولون: إنّ هذه الآيات لا تحتوي على الشيء المهم والمحتوى الغني، بل هي كلمات عادية ومعروفة.

ولكن القرآن يجيبهم بلهجة قاطعة، ويقول ضمن تقسيم الناس إلى طائفتين: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

وهذا على خلاف المنافقين ومرضى القلوب من الجهل والحسد والعناد: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾.

وفي النهاية، فإنّ هؤلاء بعنادهم يغادرون الدنيا على الكفر: ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾.

ملاحظات:

وهنا ملاحظات ينبغي التنبه لها:

١ - إنّ القرآن الكريم يؤكّد من خلال هاتين الآيتين على حقيقة، وهي أنّ وجود

(١) إنّ ﴿مَا﴾ في جملة ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ﴾ زائدة في الحقيقة، وهي للتأكيد. وقال البعض إنّها صلة وهي تسلط أداة الشرط - أي ﴿وَإِذَا﴾ على جزائها، وتؤكّد الجملة.

البرامج والقوانين الحياتية لا تكفي بمفردها لسعادة فرد أو جماعة، بل يجب أن يؤخذ بنظر الاعتبار وجود الأرضية المهيئة والاستعداد للتلقي كشرط أساسي.

إنّ آيات القرآن كقطرات المطر تصيب الحديقة الغناء والأرض السبخة، فالذين ينظرون إلى الحقائق بروح التسليم والإيمان والعشق، يتعلمون من كل سورة - بل من كل آية - درساً يزيد في إيمانهم، ويفعّل سمات الإنسانية لديهم.

أمّا الذين ينظرون إلى هذه الآيات من خلف حجب العناد والكبر والنفاق، فإنّهم لايستفيدون منها، بل وتزيد في كفرهم ورجسهم. وبتعبير آخر فإنّهم يعصون كل أمر فيها ليرتكبوا بذلك معصية جديدة تضاف إلى معاصيهم، ويواجهون كل قانون بالتمرد عليه، ويصرون على رفض كل حقيقة، وهذا هو سبب تراكم المعاصي والآثام في وجودهم، وبالتالي تتجذّر هذه الصفات الرذيلة في كيانهم، وفي النهاية إغلاق كل طرق الرجوع بوجوههم وموتهم على الكفر.

وبتعبير آخر فإنّ (فاعلية الفاعل) في كل برنامج تربوي لا تكفي لوحدها، بل إنّ روح التقبل و(قابلية القابل) شرط أساسي أيضاً.

٢ - «الرجس» في اللغة بمعنى الخبيث النجس السيّىء، وعلى قول الراغب في كتاب المفردات، فإنّ هذا الخبث والتلوث أربعة أنواع: فتارةً يُنظر إليه من جهة الغريزة والطبع، وأُخرى من جهة الفكر والعقل، وثالثة من جهة الشرع، ورابعة من كل الجهات.

ولا شك أنّ السوء والخبث الناشىء من النفاق واللجاجة والتعنّت أمام الحق سيولّد نوعاً من الشرّ والخبث الباطني والمعنوي بحيث يبدو أثره بوضوح في النهاية على الإنسان وكلامه وسلوكه.

٣ - إنّ جملة ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ مع ملاحظة أنّ أصل كلمة (بشارة) تعني السرور والفرح الذي تظهر آثاره على وجه الإنسان، تبيّن مدى تأثير الآيات القرآنية التربوي في المؤمنين، ووضوح هذا التأثير بحيث تبدو علاماته فوراً على وجوههم.

٤ - لقد اعتبرت هذه الآيات «المرض القلبي» نتيجة حتمية وملازمة للنفاق والصفات القبيحة، وكما قلنا سابقاً فإنّ القلب في مثل هذه الموارد يعني الروح والعقل، ومرض القلب في هذه المواضع بمعنى الرذائل الأخلاقية والانحرافات النفسية، وهذا التعبير يوضح أنّ الإنسان إذا كان يتمتع بروح سالمة وطاهرة فلا أثر في وجوده لهذه الصفات

الذميمة، ومثل هذه الأخلاق السيئة كالمرض الجسمي خلاف طبيعة الإنسان، وعلى هذا فإنّ التلوّث بهذه الصفات دليل على الانحراف عن المسير الأصلي والطبيعي، ودليل على المرض الروحي والنفسي[1].

٥ - إنّ هذه الآيات تعطي درساً كبيراً لكل المسلمين، لأنّها تبيّن هذه الحقيقة، وهي أنّ المسلمين الأوائل كانوا يشعرون بروح جديدة مع نزول كل سورة من القرآن، ويتربّون تربية جديدة تصل إلى درجة بحيث تبدو آثارها بسرعة على محياهم، بينما نرى اليوم أشخاصاً، ظاهرهم أنّهم مسلمون، لا تؤثر فيهم السورة إذا قرأوها، بل إنّ ختم القرآن كلّه لا يترك أدنى أثر عليهم!

هل أنّ سور القرآن فقدت تأثيرها، أم أن تسمّم الأفكار، ومرض القلوب، ووجود الحجب المتراكمة من أعمالنا السيئة هي التي أدّت إلى خلق حالة عدم الاهتمام، وجعلت على القلوب أكنة لايمكن اختراقها؟

يجب علينا أن نلتجىء إلى الله من حالنا هذا، ونسأله أن يمنّ علينا بقلوب كقلوب المسلمين الأوائل.

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

التّفسير

يستمر الكلام في هذه الآيات حول المنافقين، وهي توبّخهم وتذمهم فتقول: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ والعجيب أنّهم رغم هذه الامتحانات المتلاحقة لايعتبرون ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

وهناك بحث بين المفسّرين في أنّه ما هو المراد من هذا الاختبار السنوي الذي يجري مرّة أو مرّتين؟

(١) كان لنا بحث آخر عن مرض القلب ومفهومه في القرآن راجع الآية (١٠) من سورة البقرة.

فالبعض يقول: إنّه الأمراض[1]، والبعض الآخر يقول: إنّه الجوع والشدائد الأُخرى، وثالث يقول: إنّه مشاهدة آثار عظمة الإسلام وأحقيّة النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم في ساحات الجهاد التي كان يحضرها هؤلاء المنافقون بحكم الضغط الاجتماعي وظروف البيئة التي يعيشونها، ورابع يعتقد أنّه رفع الستار عن أسرارهم، وفضيحتهم.

غير أنا إذا قرأنا آخر الآية حيث تذكر أنّ هؤلاء لم يتذكروا رغم كل ذلك، سيتّضح أنّ هذا الاختبار من الاختبارات التي ينبغي أن تكون سبباً في توعية هذه المجموعة.

ويظهر أيضاً من تعبير الآية أنّ هذا الاختبار يختلف عن الاختبار العام الذي يواجهه كل الناس في حياتهم، وإذا أخذنا هذا الموضوع بنظر الاعتبار فسيظهر أنّ التّفسير الرّابع - أي إزاحة الستار عن أعمال هؤلاء السيئة وظهور باطنهم وحقيقتهم - أقرب إلى مفهوم الآية.

ويحتمل أيضاً أن يكون للامتحان والابتلاء في هذه الآية مفهوم جامع بحيث يشمل كل هذه المواضيع.

ثمّ تشير الآية إلى الموقف الإنكاري لهؤلاء في مقابل الآيات الإلهيّة، فتقول: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾.

إنّ خوف هؤلاء وقلقهم ناشيء من أنّ تلك السورة تتضمن فضيحة جديدة لهم، أو لأنّهم لا يفهمون منها شيئاً لعمى قلوبهم، والإنسان عدوّ ما يجهل.

وعلى كلِّ حال، فإنّهم كانوا يخرجون من المسجد حتى لا يسمعوا هذه الأنغام الإلهيّة، إلاّ أنّهم كانوا يخشون أن يراهم أحد حين خروجهم، ولذلك كان أحدهم يهمس في أذن صاحبه ويسأله: ﴿هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ ؟ وإذا ما اطمأنوا إلى أنّ الناس منشغلون بسماع كلام النّبي صلى الله عليه وآله وسلم وغير ملتفتين إليهم خرجوا: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟﴾.

إنّ جملة ﴿هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾، كانوا يقولونها إمّا بألسنتهم، أو بإشارة العيون، في حين أنّ الجملة الثّانية ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ تبيّن أمراً واحداً هو نفس ما عيّنته الجملة الأُولى، وفي الحقيقة فإنّ ﴿هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ تفسير لنظر بعضهم إلى البعض الآخر.

وتطرّقت الآية في الختام إلى ذكر علة هذا الموضوع فقالت: إنّ هؤلاء إنّما لا

---

(١) بحار الأنوار، ج ٥، ص ١٧٥.

يريدون سماع كلمات الله سبحانه ولايرتاحون لذلك لأنّ قلوبهم قد حاقت بها الظلمات لعنادهم ومعاصيهم فصرفها الله سبحانه عن الحق، وأصبحوا أعداءً للحق لأنّهم أناس جاهلون لافكر لهم: ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾.

وقد ذكر المفسّرون لقوله تعالى: ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ احتمالين:

الأوّل: إنّها جملة خبرية. كما فسّرناها قبل قليل.

الثّاني: إنّها جملة إنشائية، ويكون معناها اللعنة، أي إنّ الله سبحانه يصرف قلوب هؤلاء عن الحق. إلاّ أنّ الاحتمال الأوّل هو الأقرب كما يبدو.

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾

التّفسير

آخر آيات القرآن المجيد

إنّ هذه الآيات برأي بعض المفسّرين، هي آخر الآيات التي نزلت على النّبي ﷺ، وبها تنتهي سورة براءة، فهي في الواقع إشارة إلى كل المسائل التي مرّت في هذه السورة، لأنّها تبيّن من جهة لجميع الناس، سواء المؤمنون منهم أم الكافرون والمنافقون، أنّ جميع الضغوط والتكاليف التي فرضها النّبي ﷺ والقرآن الكريم، والتي ذكرت نماذج منها في هذه السورة، كانت كلها بسبب عشق النّبي ﷺ لهداية الناس وتربيتهم وتكاملهم.

ومن جهة أُخرى فإنّها تخبر النّبي ﷺ أن لا يقلق ولا يتحرق لعصيان وتمرد الناس، والذي ذكرت منه - أيضاً - نماذج كثيرة في هذه السورة، وليعلم أنّ الله سبحانه حافظه ومعينه على كل حال.

ومن هنا فإنّ خطاب الآية الأُولى موجّه للناس، فهي تقول: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، خاصّة وأنّه قد وردت لفظة ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ بدل (منكم)، وهي تشير إلى شدة ارتباط النّبي ﷺ بالناس، حتى كأنّ قطعة من روح الناس والمجتمع قد ظهرت

بشكل النّبي ﷺ. ولهذا السبب فإنّه يعلم كل آلامهم، ومطلع على مشاكلهم، وشريكهم في غمومهم وهمومهم، وبالتالي لايمكن أن يُتصور صدور كلام منه إلاّ في مصلحتهم، ولا يخطو خطوة إلاّ في سبيلهم، وهذا في الواقع أوّل وصف للنّبي ﷺ ذكر في هذه الآية.

ومن العجيب أنّ جماعة من المفسّرين الذين وقعوا تحت تأثير العصبية القومية والعربية قالوا: إنّ المخاطب في هذه الآية هم العرب! أي إنّ النّبي ﷺ قد جاءكم من هذا الأصل!.

إنّنا نعتقد أن هذا هو أسوأ تفسير ذكر لهذه الآية، لأنا نعلم أنّ الشيء الذي لم يجر له ذكر في القرآن الكريم هو مسألة الأصل والعرق، ففي كل مكان تبدأ خطابات القرآن بـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ و﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ وأمثالها، ولايوجد في أي مورد «يا أيّها العرب» و«يا قريش» وأمثال ذلك.

إضافة إلى أنّ ذيل الآية الذي يقول: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ينفي هذا التّفسير بوضوح، لأنّ الكلام فيه عن كل المؤمنين، من أي قومية أو عرق كانوا.

وممّا يثير الأسف أنّ بعض العلماء المتعصبين قد حجّموا عالمية القرآن وعموميته لكل البشر، وحاولوا حصره في حدود القومية والعرق المحدودة.

وعلى كلِّ حال، فبعد ذكر هذه الصفة ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أشارت الآية إلى أربع صفات أُخرى من صفات النّبي ﷺ السامية، والتي لها الأثر العميق في إثارة عواطف الناس وجلب انتباههم وتحريك أحاسيسهم.

ففي البداية تقول: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي أن الأمر لاينتهي في أنّه لا يفرح لأذاكم ومصاعبكم، بل إنّه لايقف موقف المتفرج تجاه هذا الأذى، فهو يتألم لألمكم، وإذا كان يصرّ على هدايتكم ويتحمل الحروب المضنية الرهيبة، فإنّ ذلك لنجاتكم أيضاً، ولتخليصكم من قبضة الظلم والاستبداد والمعاصي والتعاسة.

ثمّ تضيف أنّه ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ ويتحمس لهدايتكم.

«الحرص» في اللغة بمعنى قوة وشدة العلاقة بالشيء، واللطيف هنا أنّ الآية أطلقت القول وقالت: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ فلم يرد حديث عن الهداية، ولا عن أي شيء آخر، وهي تشير إلى عشقه ﷺ لكل خير وسعادة ورقي لكم، وكما يقال: إنّ حذف المتعلق دليل على العموم.

وعلى هذا، فإنّه إذا دعاكم وسار بكم إلى ساحات الجهاد المريرة، وإذا شدّد النكير على المنافقين، فإنّ كل ذلك من أجل عشقه لحريتكم وشرفكم وعزتكم. وهدايتكم وتطهير مجتمعكم.

ثمّ تشير إلى الصفتين الثّالثة والرّابعة وتقول: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ وعلى هذا فإنّ كل الأوامر الصعبة التي يصدرها، (حتى المسير عبر الصحاري المحرقة في فصل الصيف المقرون بالجوع والعطش لمواجهة عدو قوي في غزوة تبوك) فإنّ ذلك نوع من محبته ولطفه.

وهناك بحث بين المفسّرين في الفرق بين «الرؤوف» و«الرحيم»، إلاّ أنّ الذي يبدو أنّ أفضل تفسير لهما هو أنّ الرؤوف إشارة إلى محبّة خاصّة في حقّ المطيعين، في حين أنّ الرحيم إشارة إلى الرحمة تجاه العاصين، إلاّ أنّه يجب أن لا يغفل عن أنّ هاتين الكلمتين عندما تفصلان يمكن أن تستعملا في معنى واحد، أمّا إذا اجتمعتا فتعطيان معنى مختلفاً أحياناً.

وفي الآية التي تليها، وهي آخر آية في هذه السورة، وصف للنّبي ﷺ بأنّه شجاع وصلب في طريق الحق، ولا ييأس بسبب عصيان الناس وتمردهم، بل يستمر في دعوتهم إلى دين الحق: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فهو حصنه الوحيد... أجل لا حصن لي إلاّ الله، فإليه استندت و﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

إنّ الذي بيده العرش والعالم العلوي وما وراء الطبيعة بكل عظمتها، وهي تحت حمايته ورعايته، كيف يتركني وحيداً ولا يعينني على الأعداء؟ فهل توجد قدرة لها قابلية مقاومة قدرته؟ أم يمكن تصور رحمة وعطف أشد من رحمته وعطفه؟

إلهنا، الآن وقد أنهينا تفسير هذه السورة، ونحن نكتب هذه الأسطر، فإن أعداءنا قد أحاطوا بنا، وقد ثارت أُمتنا الرشيدة لقلع جذور الظلم والفساد والاستبداد، بوحدة لانظير لها، واتحاد بين كل الصفوف والطبقات بدون استثناء حتى الأطفال والرضّع ساهموا في هذا الجهاد والمقارعة، ولم يتوان أي فرد عن القيام بأي نوع من التضحية والفداء.

ربّاه، إنّك تعلم كل ذلك وتراه، وأنت منبع الرحمة والحنان، وقد وعدت المجاهدين بالنصر، فعجّل النصر وأنزله علينا، وارو هؤلاء العطاشى والعشاق من زلال الإيمان والعدل والحرية، إنّك على كل شيء قدير.

سُورَة يُونس

مكيّة وعدد آياتها مائة وتسع

محتوى وفضيلة هذه السورة

هذه السورة من السور المكية، وعلى قول بعض المفسّرين فإنّها نزلت بعد سورة الإسراء وقبل سورة هود، وتؤكّد - ككثير من السور المكّية - على عدة مسائل أساسية وأُصولية، وأهمها مسألة المبدأ والمعاد.

غاية ما في الأمر أنّها تتحدث أوّلاً عن مسألة الوحي ومقام النّبي ﷺ، ثمّ تتطرق إلى نماذج وعلامات الخلقة العظيمة التي تدل على عظمة الله عزّوجلّ، وبعد ذلك تدعو الناس إلى الالتفات إلى عدم بقاء الحياة المادية في هذه الدنيا، وحتمية زوالها، ووجوب التوجه إلى الآخرة والتهيؤ لها عن طريق الإيمان والعمل الصالح.

وقد ذكرت السورة - كدلائل وشواهد على هذه المسائل - أقساماً مختلفة من حياة كبار الأنبياء، ومن جملتهم نوح وموسى ويونس عليهم السلام ولهذا سمّيت بسورة يونس.

وقد ذكرت كذلك، لتأييد هذه المباحث، كلاماً عن عناد وتصلب عبدة الأوثان، وترسم وتوضح لهم حضور الله سبحانه في كل مكان وشهادته، وتستعين لإثبات هذه المسألة بأعماق فطرة هؤلاء التي تتعلق بالواحد الأحد عندما يقعون في المشاكل والمعضلات، حيث يتّضح هذا التعلق الفطري بالله سبحانه.

وأخيراً فإنّها تستغل كل فرصة للبشارة والإنذار، البشارة بالنعم الإلهيّة التي لا حدود لها للصالحين، والإنذار والإرعاب للطاغين والعاصين، لتكملة ما ورد فيها من بحوث.

ولهذا فإنّنا نقرأ في رواية عن الإمام الصّادق عليه السلام: «من قرأ سورة يونس في كل شهرين أو ثلاثة مرّة، لم يخف عليه أن يكون من الجاهلين، وكان يوم القيامة من المقربين»(١)، وذلك لأنّ آيات التحذير والوعيد وآيات التوعية كثيرة في هذه السورة، وإذا ماقُرئت بدقة وتأمل، فإنّها ستكشف ظلمة الجهل عن روح ابن آدم، وسيبقى أثرها

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج٢، ص٢٩٠، وتفاسير أُخرى؛ ووسائل الشيعة، ج ٦، ص ٢٥١.

عدّة أشهر على الأقل، وإذا ما أدرك الإنسان محتوى السورة وعمل بها، فإنّه سيكون - يقيناً - يوم القيامة من المقربين.

ربّما لانحتاج أن نذكّر بأنّ فضائل السور - كما قلنا سابقاً - لايمكن تحصيله بمجرّد تلاوة الآيات من دون إدراك معناها، ومن دون العمل بمحتواها، لأنّ التلاوة مقدمة للفهم، والفهم مقدمة للعمل!.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾

التّفسير

رسالة النّبي

في هذه السورة نواجه - مرّة أُخرى - الحروف المقطعة في القرآن، والتي ذكرت بصورة (ألف ولام وراء) وقد تحدثنا في بداية سورة البقرة وآل عمران والأعراف في تفسير هذه الحروف بالقدر الكافي، وسنبحثها في المستقبل - إن شاء الله تعالى - في الموارد المناسبة، وسنضيف إليها مباحث ومطالب جديدة.

بعد هذه الحروف تشير الآية أوّلاً إلى عظمة آيات القرآن وتقول: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

إنّ التعبير بـ﴿تِلْكَ﴾ وهي اسم إشارة للبعيد، بدل (هذه) التي تشير للقريب، والذي جاء نظيره في بداية سورة البقرة، يعتبر من التعبيرات الجميلة واللطيفة في القرآن، وهو كناية عن عظمة ورفعة مفاهيم القرآن، لأنّ المطالب اليسيرة والبسيطة يشار لها غالباً باسم الإشارة القريب، أمّا المطالب المهمّة العالية المستوى، والتي تعانق السحاب في علو أفقها، فإنّها تُبيّن باسم الإشارة البعيد.

إنّ توصيف الكتاب السماوي - أي القرآن - بأنّه (حكيم) هو إشارة إلى أنّ آيات القرآن محكمة ومنظمة ودقيقة، بحيث لايمكن أن يأتيها أو يخالطها أي شكل من أشكال

الباطل والخرافة، فهي لا تقول إلاّ الحق، ولا تدعو إلاّ إلى طريق الحق.

أمّا الآية الثّانية فإنّها تبيّن - ولمناسبة تلك الإشارة التي مرّت إلى القرآن والوحي الإلهي في الآية السابقة - واحداً من إشكالات المشركين على النّبي ﷺ، وهو نفس الإشكال الذي جاء في القرآن بصورة متكررة، وهذا التكرار يبيّن أن هذا الإشكال من إشكالات المشركين المتكررة، وهو: لماذا نزل الوحي الإلهي من الله على إنسان مثلهم؟ ولماذا لم تتعهد الملائكة بمسؤولية هذه الرسالة الكبيرة؟ فيجيب القرآن عن هذه الأسئلة فيقول: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾.

الواقع أنّ كلمة ﴿مِّنْهُمْ﴾ تضمنت الجواب على سؤالهم، أي إنّ القائد والمرشد إذا كان من جنس أتباعه، ويعلم أمراضهم، ومطلع على احتياجاتهم، فلا مجال للتعجب، بل العجب أن يكون القائد من غير جنسهم، بحيث يعجز عن قيادتهم نتيجة عدم اطلاعه على وضعهم.

ثمّ تشير إلى محتوى الوحي الإلهي. وتلخصه في أمرين:

الأوّل: إنّ الوحي الذي أرسلناه، مهمته إنذار الناس وتحذيرهم من عواقب الكفر والمعاصي: ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾.

والثّاني: هو ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

وفي الوقت الذي يوجد بحث بين المفسّرين في المقصود من ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾، إلاّ أنّ أحد التفاسير الثلاثة المذكورة هنا - أو كل الثلاثة - قابل للقبول بصورة علمية.

فالتّفسير الأوّل: إن «قدم الصدق» هذا إشارة إلى أنّ الإيمان له «سابقة فطرية»، وإنّ المؤمنين عندما يظهرون إيمانهم فهم في الحقيقة يصدقون فطرتهم - لأنّ أحد معاني القدم هو السابقة - كما يقولون: لفلان قدم في الإسلام، أو قدم في الحرب(١)، أي إنّ له سبقاً في الإسلام أو الحرب.

والثّاني: إنّه إشارة إلى مسألة المعاد ونعيم الآخرة، لأنّ أحد معاني القدم هو المقام والمنزلة، وهو يناسب كون الإنسان يرد إلى منزله ومقامه برجله، وهذا التّفسير يعني أنّ للمؤمنين مقاماً ومنزلة ثابتة وحتمية عند الله سبحانه، وأنّ أي قوّة لا تستطيع تغييرها وجعلها في شكل آخر.

---

(١) بحار الأنوار، ج ٢٤، ص ٤٠ و ٤١.

أمّا التّفسير الثّالث فهو أنّ القدم بمعنى القدوة والزعيم والقائد، أي إنّنا أرسلنا للمؤمنين قائداً ومرشداً صادقاً.

لقد وردت عدّة روايات عن طريق الشيعة والسنة لهذه الآية تفسر قدم الصدق بأنّه النّبي ﷺ أو ولاية علي عليه السلام وتؤيد هذا المعنى(١).

وكما قلنا فإنّ من الممكن أن تكون البشارة بكل هذه الأُمور هي المرادة من التعبير أعلاه.

وتنهي الآية حديثها بذكر اتهام طالما كرّره المشركون واتهموا به النّبي ﷺ، فقالت: ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾.

إنّ كلمة ﴿إِنَّ﴾ و«لام» التأكيد وصفة «المبين»، كلها دلائل على مدى تأكيد أُولئك الكفار على هذه التهمة، وعبروا بـ (هذا) لتصغير مقام النّبي ﷺ والتقليل من أهميته.

أمّا لماذا اتهموا النّبي ﷺ بالسحر؟ فجوابه واضح، ذلك أنّهم لم يكونوا يمتلكون الجواب المقنع مقابل إعجاز كلامه وشريعته وقوانينه العادلة الرفيعة. فلم يكن لهم سبيل إلاّ أن يفسروا هذه الظواهر الخارقة للعادة بأنّها سحر، وبهذا فقط يمكنهم إبقاء البسطاء تحت سيطرة الجهل وعدم الاطلاع على الواقع.

إنّ أمثال هذه التعبيرات التي كانت تصدر من ناحية الأعداء ضد النّبي ﷺ دليل بنفسها على أنّ النّبي ﷺ كان يقوم بأعمال خارقة للعادة، بحيث تجذب القلوب والأفكار نحوها، خاصّة وأن التأكيد على السحر في شأن القرآن المجيد هو بنفسه دليل قاطع وقوي على الجاذبية الخارقة الموجودة في هذا الكتاب السماوي، ولأجل خداع الناس فإنّهم كانوا يجعلونه في إطار السحر.

وسنتحدث عن هذا الموضوع في الآيات المناسبة إن شاء الله تعالى.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾

---

(١) تفسير البرهان، ج ٢، ص ١٧٧، وتفسير القرطبي، ج ٥، ص ٣١٤٥.

التّفسير

معرفة الله والمعاد

بعد أن أشار القرآن الكريم إلى مسألة الوحي والنّبوة في بداية هذه السورة، انتقل في حديثه إلى أصلين أساسيين في تعليمات وتشريعات جميع الأنبياء، ألا وهما المبدأ والمعاد، وبيّن هذين الأصلين ضمن عبارات قصيرة في هاتين الآيتين.

فيقول أوّلاً: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾. وكما أشرنا سابقاً، فإنّ كلمة (يوم) في لغة العرب، وما يعادلها في سائر اللغات، تستعمل في كثير من الموارد بمعنى المرحلة، كما نقول: في يوم ما كان الاستبداد يحكم بلادنا، أمّا اليوم فهي في ظل الثورة الإسلامية تنعم بالحرية، وهذا يعني أنّ مرحلة الاستبداد قد انتهت وجاءت مرحلة استقلال الشعب وحريته(١).

وعلى هذا فإنّ مفهوم الجملة أعلاه يكون: إنّ الله سبحانه قد خلق السماء والأرض في ست مراحل، ولما كنّا قد تحدثنا عن هذه المراحل الست سابقاً، فإنّنا لا نكرر الكلام هنا(٢).

ثمّ تضيف الآية: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾. كلمة ﴿الْعَرْشِ﴾ تأتي أحياناً بمعنى السقف، وأحياناً بمعنى الشيء الذي له سقف، وتارةً بمعنى الأسرّة المرتفعة، هذا هو المعنى الأصلي لها، أمّا معناها المجازي فهو القدرة، كما نقول: فلان تربع على العرش، أو تحطمت قوائم عرشه، أو أنزلوه من العرش، فكلها كناية عن تسلم القدرة أو فقدانها، في الوقت الذي يمكن أن لايكون للعرش أو الكرسي وجود في الواقع أصلاً، ولهذا فإنّ ﴿اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ تعني أنّ الله سبحانه قد أمسك بزمام أُمور العالم(٣).

«التدبر» من مادة (التدبير) وفي الأصل من (دبر) بمعنى الخلف وعاقبة الشيء، وعلى هذا فإنّ معنى التدبير هو التحقق من عواقب الأعمال، وتقييم المنافع، ثمّ العمل طبق

---

(١) من أجل مزيد التوضيح، وذكر الأمثلة في هذا المجال راجع ذيل الآية (٥٤) من سورة الأعراف.

(٢) المصدر السابق.

(٣) لمزيد التوضيح والاطلاع على معاني العرش المختلفة، راجع تفسير الآية (٥٤) من سورة الأعراف والآية (٢٥٥) من سورة البقرة.

ذلك التقييم، إذن، وبعد أن تبيّن أنّ الخالق والموجد هو الله سبحانه، اتّضح أنّ الأصنام، - هذه الموجودات الميتة والعاجزة - لايمكن أن يكون لها أي تأثير في مصير البشر، ولهذا قالت الآية في الجملة التالية: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾(١).

وتتحدث الآية التالية - كما أشرنا - عن المعاد، وتبيّن في جمل قصار أصل مسألة المعاد، والدليل عليها، والهدف منها!.

فتقول **أوّلاً**: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًاۖ﴾ وبعد الاستناد إلى هذه المسألة المهمّة والتأكيد عليها تضيف: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ﴾ ثمّ تشير إلى الدليل على ذلك بقولها: ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي إنّ هؤلاء الذين يشكّون في المعاد يجب عليهم أن ينظروا إلى بدء الخلق، فإنّ من أوجد العالم في البداية يستطيع أن يعيده من جديد. وقد مرّ بيان هذا الاستدلال بصورة أُخرى في الآية (٢٩) من سورة الأعراف ضمن جملة قصيرة تقول: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ وقد سبق شرح ذلك في تفسير سورة الأعراف.

إنّ الآيات المرتبطة بالمعاد في القرآن توضح أنّ العلة الأساسية في تشكيك وتردد المشركين والمخالفين، هي أنّهم كانوا يشكّون في إمكان حدوث مثل هذا الشيء، وكانوا يسألون بتعجب بأنّ هذه العظام النخرة التي تحولت إلى تراب، كيف يمكن أن تعود لها الحياة وترجع إلى حالتها الأُولى؟ ولهذا نرى أنّ القرآن قد وضع إصبعه على مسألة الإمكان هذه ويقول: لا تنسوا أن الذي يبعث الوجود من جديد، ويحيي الموتى هو نفسه الذي أوجد الخلق في البداية.

ثمّ تبيّن الهدف من المعاد بأنّه لمكافأة المؤمنين على جميع أعمالهم الصالحة حيث لا تخفى على الله سبحانه مهما صغرت: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِۚ﴾ أمّا أُولئك الذين اختاروا طريق الكفر والإنكار، ولم تكن لديهم أعمال صالحة - لأنّ الاعتقاد الصالح أساس العمل الصالح - فإنّ العذاب الأليم وأنواع العقوبات بانتظارهم: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾.

وهنا نقطتان تسترعيان الانتباه:

١ - لما لم يكن لله سبحانه وتعالى مكان خاص، وخاصّة إذا علمنا أنّه موجود في

---

(١) لقد أوضحنا توضيحاً كافياً مسألة الشفاعة المهمّة في المجلد الأوّل في تفسير الآية (٤٧) من سورة البقرة.

كل مكان في جميع العوالم، وأنّه أقرب إلينا منّا، فإنّ هذه الحقيقة قد جعلت المفسّرين يفسرون ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ في هذه الآية، والآيات الأُخرى في القرآن، تفاسير مختلفة:

فقيل: إنّ المقصود هو أنّكم ترجعون إلى جزاء الله سبحانه.

وربّما اعتبر بعض الجاهلين هذا التعبير دليلا على تجسم الله سبحانه في يوم القيامة، وبطلان هذه العقيدة أوضح من أن يحتاج إلى بيان وإثبات.

إلاّ أنّ الذي يبدو بدقة من خلال آيات القرآن الكريم، أنّ عالم الحياة كقافلة تحركت من عالم العدم وتستمر في مسيرتها اللانهائية نحو اللانهاية التي هي ذات الله المقدسة، بالرغم من أنّ المخلوقات محدودة، والمحدود لايمكن أن يكون لا نهائياً قط، غير أنّ سيره إلى التكامل لا يتوقف أيضاً، وحتى بعد قيام القيامة فإنّ السير التكاملي سيستمر، كما أوضحنا ذلك في بحث المعاد[١].

يقول القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾[٢].

ويقول: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ﴾[٣].

ولما كان بداية الحركة من جهة الخالق، حيث شعت منه أوّل بارقة للحياة، وأنّ هذه الحركة التكاملية - أيضاً - تسير نحوه، فقد عبّرت الآية بالرجوع. وبعبارة مختصرة فإنّ هذه التعبيرات إضافةً إلى أنّها تشير إلى أن بداية حركة عامّة الموجودات من الله سبحانه، فإنّها تبيّن أيضاً أنّ هدف هذه الحركة وغايتها، هي ذات الله المقدسة. وإذا لاحظنا أن تقديم كلمة «إليه» يدل على الحصر، سيتّضح أنّ أي وجود غير ذات الله المقدسة لايمكن أن يكون هدفاً وغاية لهذه الحركة التكاملية لا الأصنام ولا أي مخلوق آخر، لأنّ كل هذه الوجودات محدودة، ومسير الإنسان مسير لا نهائي.

٢ - إنّ كلمة «القسط» تعني في اللغة إعطاء سهم آخر، ولذلك فقد أخفي فيها مفهوم العدل والإنصاف. واللطيف أنّ الآية قد استعملت هذه الكلمة في حق ذوي الأعمال الصالحة فقط، ولم تذكرها في جزاء الكافرين والسيئي الأعمال، وذلك لأنّ العذاب

---

(١) لمزيد من الإيضاح راجع كتاب «المعاد وعالم الآخرة».

(٢) سورة الانشقاق، الآية: ٦.

(٣) سورة الفجر، الآيتان: ٢٧، ٢٨.

ليس على شكل الحصص والأرباح، وبتعبير آخر فإنّ كلمة القسط تناسب الجزاء الحسن فقط، لا العقاب.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾

التّفسير

جانب من آيات عظمة الله

لقد مرّت في الآيات السابقة إشارة عابرة إلى مسألة المبدأ والمعاد، إلاّ أنّ هذه الآيات وما بعدها تبحث بصورة مفصلة هذين الأصلين الأساسيين اللذين يمثلان أهم دعامة لدعوة الأنبياء، وبتعبير آخر فإنّ الآيات اللاحقة بالنسبة للسابقة بمثابة التفصيل للإجمال.

لقد أشارت الآية الأُولى التي نبحثها إلى جوانب من آيات عظمة الله سبحانه في عالم الخلقة فقالت: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾.

إنّ الشمس التي تعم العالم بنورها لاتعطي النور الحرارة للموجودات فحسب، بل هي العامل الأساس في نمو النباتات وتربية الحيوانات، وإذا دقّقنا النظر رأينا أنّ كل حركة على وجه الكرة الأرضية، حتى حركة الرياح وأمواج البحار وجريان الأنهار والشلالات، هي من بركات نور الشمس، وإذا ما انقطعت هذه الأشعة الحياتية عن كرتنا الأرضية يوماً فإنّ السكون والظلمة والموت سيخيّم على كل شيء في فاصلة زمنية قصيرة.

والقمر بنوره الجميل هو مصباح لليالينا المظلمة، ولا تقتصر مهمّته على هداية المسافرين ليلاً وإرشادهم إلى مقاصدهم، بل هو بنوره المناسب يبعث الهدوء والنشاط لكل سكان الأرض.

ثمّ أشارت الآية إلى فائدة أُخرى لوجود القمر فقالت: ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ

﴿ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ أي إنّكم لو نظرتم إلى القمر، وأنّه في أوّل ليلة هلال رفيع، ثمّ يكبر حتى يكون بدراً في ليلة النصف من الشهر، وبعدها يبدأ بالنقصان التدريجي حتى اليوم أو اليومين الأخيرين حيث يغيب في المحاق، ثمّ يظهر على شكل هلال من جديد ويدور إلى تلك المنازل السابقة، لعلمتم أنّ هذا الاختلاف ليس عبثاً، بل إنّه تقويم طبيعي دقيق جدّاً يستطيع الجاهل والعالم قراءته، ويقرأ فيه تأريخ أعماله وأُمور حياته[1].

ثمّ تضيف الآية: إنّ هذا الخلق والدوران ليس عملاً غير هادف، أو هو من باب اللعب، بل ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.

وفي النهاية تؤكّد الآية: ﴿يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ إلاّ أنّ هؤلاء الغافلين وفاقدي البصيرة بالرغم من أنّهم يمرون كثيراً على هذه الآيات والدلائل، إلاّ أنّهم لا يدركون أدنى شيء منها.

وتتطرق الآية الثّانية إلى قسم آخر من العلامات والدلائل السماوية والأرضية الدالّة على وجوده سبحانه، فتقول: ﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ فليست السماء والأرض بذاتهما من آيات الله وحسب، بل إنّ كل واحدة من الموجودات التي توجد فيهما تعتبر آية بحد ذاتها، إلاّ أنّ الذين يدركون تلك الآيات هم الذين سمت أرواحهم وصفت نتيجة لتقواهم وبعدهم عن المعاصي، وهم الذين يقدرون على رؤية وجه الحقيقة وجمال المعشوق.

ملاحظات:

وهنا ملاحظات ينبغي الانتباه لها:

١ - هناك نقاش طويل بين المفسّرين في الفرق بين كلمتي الضياء والنور، فالبعض منهم اعتبرهما مترادفتين وأنّ معناهما واحداً، والبعض الآخر قالوا: إنّ الضياء استعمل في ضوء الشمس فالمراد به النور القوي، أمّا كلمة النور التي استعملت في ضوء القمر فإنّها تدل على النور الأضعف.

الرأي الثّالث في هذا الموضوع هو أنّ الضياء بمعنى النور الذاتي، أمّا النور فإنّه أعم من الضياء ويشمل الذاتي والعرضي، وعلى هذا فإنّ اختلاف تعبير الآية يشير إلى هذه

---

(١) لقد بحثنا في المجلد الثّاني حول كون القمر تقويماً طبيعياً يمكن من خلال حالاته المختلفة تعيين أيّام الشهر بدقّة (راجع تفسير الآية ١٨٩ من سورة البقرة).

النقطة. وهي أنّ الله سبحانه قد جعل الشمس منبعاً فوّاراً للنور، في الوقت الذي جعل للقمر صفة الاكتساب، فهو يكتسب نوره من الشمس.

والذي يبدو أنّ هذا التفاوت مع ملاحظة آيات القرآن، هو الأصح، لأنا نقرأ في الآية (١٦) من سورة نوح: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ وفي الآية (٦١) من سورة الفرقان، ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ فإذا لاحظنا أنّ نور السراج ينبع من ذاته، وهو منبع وعين للنور، وأنّ الشمس قد شُبهت في الآيتين بالسراج، سيتّضح أنّ هذا التفاوت مناسب جداً في الآيات مورد البحث.

٢ - هناك اختلاف بين أهل الكتاب وكتّاب اللغة في أن ﴿ضِيَآءً﴾ جمع أم مفرد، فالبعض، كصاحب كتاب «القاموس»، اعتبرها مفرداً، إلاّ أنّ البعض الآخر كالزجّاج اعتبر الضياء جمعاً للضوء، وقد قبل هذا المعنى صاحبا تفسير «المنار» وتفسير «القرطبي»، وخاصّة صاحب المنار، حيث استفاد على أساس هذا المعنى استفادة خاصّة من الآية، فهو يقول: إنّ ذكر الضياء بصيغة الجمع في شأن نور الشمس إشارة إلى الشيء الذي أثبته العلم اليوم بعد قرون، وهو أنّ نور الشمس مكون من سبعة أنوار، وبتعبير آخر سبعة ألوان، هي الألوان التي تظهر في قوس قزح، وتلاحظ عند مرور النور عبر المناشير البلورية[(١)].

ولكن يبقى هنا سؤال، وهو: هل أنّ نور القمر، رغم أنّه أضعف، غير متكون من الألوان المختلفة؟

٣ - هناك بحث ونقاش بين المفسّرين في أنّ ضمير ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾ يعود إلى القمر فقط، أم يرجع إلى الشمس والقمر؟ فالبعض يعتقد أن الضمير وإن كان مفرداً، إلاّ أنّه يعود إلى الاثنين معاً، ونظير ذلك في الأدب العربي غير قليل.

اختيار هذا الرأي من أجل أن القمر ليس الوحيد الذي له منازل، بل إنّ للشمس أيضاً منازل، ففي كل وقت تكون في برج خاص، والاختلاف في الأبراج هذا هو مبدأ التاريخ والأشهر الشمسية.

والحق أنّ ظاهر الآية يوحي بأنّ هذا الضمير المفرد يعود للقمر فقط، لقربه منه، وهذا بنفسه يحتوي على نكتة، ذلك:

---

(١) تفسير المنار، ذيل الآية مورد البحث.

أوّلاً: إنّ الأشهر التي عرفت في الإسلام والقرآن رسمياً هي الأشهر القمرية.

ثانياً: إنّ القمر كرة متحركة ولها منازل، أمّا الشمس فإنّها تقع في وسط المنظومة الشمسية، وليس لها حركة ضمن مجموع هذه المنظومة، وإنّ اختلاف الأبراج ومسير الشمس في المدار الفلكي ذي الاثني عشر برجاً، والذي يبدأ من الحمل وينتهي بالحوت، ليس بسبب حركة الشمس، بل بسبب حركة الأرض حول الشمس، ودوران الأرض هذا هو السبب في أن نرى الشمس تقابل كل شهر واحداً من البروج الفلكية الاثني عشر، وعلى هذا فليس للشمس منازل مختلفة خلافاً للقمر. (دققوا جيداً).

إنّ هذه الآية في الحقيقة تشير إلى إحدى المسائل العلمية المرتبطة بالأجرام السماوية كانت خافية على البشر في ذلك الزمان حيث لم يدركوا هذا الفرق بين حركة الشمس والقمر.

٤ - لقد عدت الآيات أعلاه اختلاف الليل والنهار من آيات الله سبحانه، وذلك لأنّ نور الشمس إذا استمر في إشعاعه على الأرض، فإنّ من المسلّم أن درجة الحرارة سترتفع إلى الحد الذي تستحيل معه الحياة على وجه الأرض.

وكذلك الليل إذا استمر فإنّ كل شيء سينجمد لشدّة البرودة.

إلاّ أنّ الله سبحانه قد جعل هذين الكوكبين يتبع أحدهما الآخر لتهيئة أسباب الحياة والمعيشة على وجه الكرة الأرضية[1].

إنّ أثر العدد والحساب والتأريخ والسنة والشهر في نظام حياة البشر والروابط الاجتماعية والمكاسب والأعمال لا يخفى على أحد.

٥ - إنّ مسألة العدد والحساب التي أُشير إليها في الآيات أعلاه، هي في الواقع واحدة من أهم مسائل حياة البشر في جميع النواحي والمجالات.

نعلم أنّ أهمية أية نعمة تتّضح أكثر عندما نلاحظ الحياة بدون تلك النعمة، وعلى هذا فلو أن حساب التاريخ وامتياز الأيّام والأشهر والسنين رفع من حياة البشر، مثلاً لا توجد أيام واضحة ومحددة للأسبوع، ولا أيّام الشهر، ولا عدد الشهور والسنين، ففي هذه الحالة ستتعرض كل المسائل التجارية والاقتصادية والسياسية وكل الاتفاقيات والبرامج الزمنية المعدة للخلل وعندها سوف لا يثبت حجر على حجر وستنفرط عقدة

(١) لقد أوردنا توضيحات أُخرى حول هذا الموضوع في المجلد الأوّل (راجع تفسير الآية ١٦٤ من البقرة والآية ١٩٠ من سورة آل عمران).

النظم في الأعمال، وحتى وضع الزراعة وتربية الحيوانات والصناعات الإنتاجية ستعمها الفوضى والاضطراب.

لكن لما كان الله سبحانه قد خلق الإنسان ليحيا حياة سعيدة مقرونة بالنظام، فإنّه قد وضع وسائلها تحت تصرفه.

صحيح أن الإنسان يمكنه تنظيم أعماله إلى حدّ ما بالأُمور الاعتبارية، إلاّ أنّه إذا لم يستند إلى الميزان الطبيعي فإنّ مقياسه الجعلي لا يكون عاماً وشاملاً، وليس قابلاً للاعتماد.

إنّ دوران الشمس والقمر - وبتعبير أصح دوران الأرض حول الشمس - والمنازل التي لهما، يشكل تقويماً طبيعياً واضح الأساس ويستفيد منه الجميع في كل مكان، ويعتمدون عليه، فكما أن مقدار اليوم والليلة يعتبر مقياساً زمنياً صغيراً ينشأ نتيجة عالم طبيعي، أي حركة الأرض حول نفسها، فإنّ الشهر والسنة يجب أن تستند إلى دوران طبيعي، وعلى هذا المنوال فإنّ حركة القمر حول الأرض يشكل مقياساً أكبر، فإنّ الشهر يساوي ثلاثين يوماً تقريباً، وحركة الأرض حول الشمس ينتج منها مقياس أعظم، وهو السنة.

قلنا: إنّ التقويم الإسلامي يستند إلى التقويم القمري ودوران القمر، ورغم أنّ دوران الشمس في الأبراج الاثني عشر طريقة جيدة لتعيين الأشهر الشمسية، إنّ هذا التقويم مع أنّه طبيعي، إلاّ أنّه لا ينفع الجميع، وإنّما يستطيع علماء النجوم فقط عبر رصد النجوم من تحديد كون الشمس في البرج الفلاني، ولهذا السبب فإنّ الآخرين مجبورون على مراجعة التقاويم التي نظمت من قبل هؤلاء المنجمين، بينما يعطي دوران القمر المنتظم حول الأرض تقويماً واضحاً يستطيع قراءة خطوطه وخرائطه حتى الأميون وسكّان البوادي.

وتوضيح ذلك أن هيئة القمر تختلف في كل ليلة في السماء عن الليلة السابقة واللاحقة، بحيث لا توجد ليلتان في طول الشهر تتحد فيهما هيئة القمر في السماء، وإذا دققنا قليلاً في وضع القمر كل ليلة فإنّنا سنعتاد رويداً رويداً على تعيين تلك الليلة من ليالي الشهر.

وقد يتصور البعض أنّ صورة القمر في النصف الثاني من الشهر تتكرر في صور النصف الأوّل بعينها، وأنّ صورة القمر في ليلة الإحدى والعشرين مثلاً هي بعينها

صورته في الليلة السابقة، إلاّ أنّ هذا اشتباه كبير، لأنّ جانب النقص في القمر في النصف الأوّل هو الطرف الأعلى، في حين أنّ جانب نقصه في النصف الثّاني من الطرف الأسفل، وبتعبير آخر فإنّ أطراف الهلال الدقيقة تكون إلى الشرق في البداية، بينما هي في الجانب الغربي عند أواخر الشهر، إضافةً إلى أنّ القمر يرى في الغرب أوائل الشهر، أمّا في أواخره فإنّه يرى في الشرق، ويتأخر كثيراً في طلوعه. وعلى هذا فإنّه يمكن الاستفادة من شكل القمر مع تغييراته التدريجية كعداد يومي، ولتحديد أيّام الشهر بدقة من خلال شكل القمر.

على كل حال، فإنّنا في هذه الموهبة التي نسميها «النظام التأريخي»، مدينون لهذا الخلق الإلهي، ولولا حركات القمر والشمس (والأرض) لكان لنا وضع مضطرب وفوضوي في الحياة لم يكن في الحسبان تصوره.

إنّ السجناء في الزنزانات الانفرادية المظلمة، والذين أضاعوا الزمان والأوقات ولم يهتدوا إليها، قد أحسوا بهذه الحيرة وعدم الهدفية والتكليف.

يقول أحد السجناء في عصرنا الحاضر الذي قضى شهراً في زنزانة انفرادية مظلمة لعملاء الظالمين: لم تكن لي أيّة وسيلة أو طريقة لتحديد أوقات الصلاة، إلاّ أنّهم عندما كانوا يأتونني بالغداء كنت أصلي الظهر والعصر، وإذا ما أتوا بالعشاء أصلي المغرب والعشاء، وصلاة الصبح عادة مع الفطور! ولكي أحسب الأيّام فإنّي كنت آخذ وجبات الطعام بنظر الاعتبار، فكل ثلاث وجبات أعدها يوماً، غير أني لا أعلم ماذا حدث عندما خرجت من السجن، فقد رأيت اختلافاً بين حسابي وحساب الناس!.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ
عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨
إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن
تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٩ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا
سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠﴾

التفسير

أهل الجنّة والنّار

كما مرّت الإشارة، فإنّ القرآن قد عرض في بداية هذه السورة بحثاً إجمالياً عن موضوع المبدأ والمعاد، ثمّ بدأ بشرح هذه المسألة، ففي الآيات السابقة كان هناك شرح وبحث حول مسألة المعاد، ويلاحظ في هذه الآيات تفصيل حول المعاد ومصير الناس في العالم الآخر.

ففي البداية يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا﴾ فهم لايعتقدون بالمعاد وتجاهلوا الآيات البينات فلم يتدبروا فيها كيما تستيقظ قلوبهم ويتحرك فيهم روح الاحساس بالمسؤولية ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ فكلتا هاتين الطائفتين مصيرهم إلى النّار: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

إنّ النتيجة الطبيعية والحتمية لعدم الإيمان بالمعاد هي الارتباط بهذه الحياة المحدودة والعلائق المادية، والاطمئنان بها والاعتماد عليها، ونتيجة ذلك - أيضاً - هو تلوّث الأعمال وفساد السلوك في أنماط الحياة المختلفة، ولاتكون عاقبة ذلك إلاّ النّار.

وكذلك فإنّ الغفلة عن الآيات الإلهيّة هي أساس البعد عن الله سبحانه، والابتعاد عن الله هو العلّة لعدم الإحساس بالمسؤولية والتلوّث بالظلم والفساد والمعصية، وعاقبة ذلك لا تكون إلاّ النّار.

بناءً على هذا، فإنّ كلا الفريقين أعلاه - أي الذين لا يؤمنون بالمبدأ، أو لا يؤمنون بالمعاد - سيكونان ملوّثين حتماً بالاعمال الذميمة، ومستقبل كلا الفريقين مظلم.

إنّ هاتين الآيتين تؤكّدان مرّة أُخرى هذه الحقيقة، وهي أنّ إصلاح مجتمع ما وإنقاذه من نار الظلم والفساد، يتطلب تقوية رُكني الإيمان بالله والمعاد اللذين هما شرطان ضروريان وأساسيان، فإنّ عدم الإيمان بالله سبحانه سيقتلع الإحساس بالمسؤولية من وجود الإنسان، والغفلة عن المعاد يذهب بالخوف من العقاب، وعلى هذا فإنّ هذين الأساسين العقائديين هما أساس كل الإصلاحات الاجتماعية.

ثمّ يشير القرآن إلى وضع فئة أُخرى في مقابل هذه الفئة، فيقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ فإنّ نور الهداية الإلهيّة الذي ينبعث من نور إيمانهم يضيء كل آفاق حياتهم، وقد اتّضحت لهم الحقائق بإشراقات هذا النور بحيث

لم تعد شراك المذاهب المادية وزبارجها، ولا الوساوس الشيطانية وبريق المطامع الدنيوية قادرة على التعتيم على أفكارهم ودفعهم في طريق الانحراف عن الصواب والحق.

إنّ وضع هؤلاء في الحياة الأُخرى أنّهم ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾.

إنّ هؤلاء يرفلون في محيط مملوء بالصلح والصفاء وعشق الله وأنواع النعم، ففي كل وقت تنير وجودهم نفحة ورشحة من ذات الله وصفاته، فإنّ ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ وكلما التقى بعضهم بالآخر فإنّهم يتحدثون عن الصفاء والسلام ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ وأخيراً فإنّهم كلّما التذوا بنعم الله المختلفة شكروا ذلك ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

ملاحظات:

١ - المقصود من لقاء الله الذي جاء في الآية الأُولى ليس هو اللقاء الحسّي قطعاً، بل المقصود أنّ الإنسان إضافةً إلى الحصول على الثواب وعطايا الله، فإنّه يشعر يوم القيامة بنوع من الحضور القلبي بالنسبة للذات المقدسة، لأنّه حينئذ سيرى آيات الله وعلاماته بصورة أوضح في كل مكان، وسيحصل على رؤية وإدراك جديد لمعرفته(١).

٢ - إنّ الحديث في قوله تعالى: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ﴾ عن هداية الإنسان في ظل الإيمان، وهذه الهداية لا تختص بعالم الآخرة، بل إنّ الإنسان ينجو بنور إيمانه في هذه الدنيا من كثير من الاشتباهات والخدع والأخطاء والمعاصي المتولّدة من الطمع والأنانية والأهواء، وسوف يحدد طريقه إلى الجنّة في الآخرة في ظلّ إشعاع هذا الإيمان كما يقول القرآن: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم﴾(٢).

وفي حديث عن النبي ﷺ: «إنّ المؤمن إذا خرج من قبره صُوّر له عمله في صورة حسنة فيقول له: أنا عملك، فيكون له نوراً وقائداً إلى الجنّة»(٣).

٣ - ورد في هذه الآيات: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ في الوقت الذي عبّرت آيات أُخرى من القرآن بـ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، وبتعبير آخر، فإنّنا نقرأ في مواضع أُخرى

---

(١) لمزيد التوضيح راجع المجلد الأوّل من تفسيرنا هذا ذيل الآية (٤٦) من سورة البقرة.

(٢) سورة الحديد، الآية: ١٢.

(٣) التفسير الكبير للفخر الرازي، الجزء ١٧، ص ٤٠؛ وتفسير الدرّ المنثور، ج ٣، ص ٣٠١.

أنّ الأنهار تجري من تحت أشجار الجنّة، أمّا هنا فإنّ الأنهار تجري من تحت أهل الجنّة!.

إنّ هذا التعبير يمكن أن يشير إلى أنّ قصور أهل الجنّة قد تكون مبنيّة على الأنهار، وهذا يضفي عليها جمالاً خارقاً.

وقد يشير إلى أنّ أنهار الجنّة مسخرّة لأوامرهم وفي قبضتهم، كما نقرأ في قصّة فرعون أنّه كان يقول: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾(١).

وقد احتمل كذلك أن تكون «تحت» بمعنى «بين أيدي» أي إنّ أنهار الماء تجري مقابلهم.

٤ - ممّا يلفت النظر أن آخر آية من الآيات قيد البحث تشير إلى ثلاث حالات، أو ثلاث نعم كبيرة لأهل الجنّة:

الحالة الأُولى: هي حالة التوجه إلى ذات الله المقدسة، والبهجة التي تحصل لهم نتيجة هذا التوجه لا يمكن مقارنتها بأية لذّة أُخرى.

الحالة الثّانية: اللّذة التي تحصل نتيجة الارتباط بالمؤمنين الآخرين في ذلك المحيط المفعم بالودّ والتفاهم، وهذه اللّذة هي أحلى لذّة بعد لذة التوجه إلى الله سبحانه.

الحالة الثّالثة: اللّذة التي تحصل من التمتع بأنواع نعم الجنّة، وهي تدفعهم إلى التوجه إلى الله أيضاً، وبالتالي حمده وشكره. (فتأمل بدقّة).

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾

التّفسير

الهمج الرّعاع

الكلام في هذه الآيات يدور كذلك حول عقاب المسيئين، فتقول الآية الأُولى بأنّ

(١) سورة الزخرف، الآية: ٥١.

الله سبحانه إذا جازى المسيئين على أعمالهم بنفس العجلة التي يحب بها هؤلاء تحصيل النعم والخير، فستنتهي أعمار الجميع ولا يبقى لهم أثر: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾. إلاّ أنّ لطف الله سبحانه لما كان شاملاً لجميع العباد، حتى المسيئين والكافرين والمشركين، فلا يمكن أن يعجل بعذابهم وجزائهم لعلهم يعون ويتوبون، ويرجعون عن الضلال إلى الحق والهدى.

هذا إضافةً إلى أنّ الجزاء إذا ما تمّ بهذه السرعة فإنّه يعني زوال حالة الاختبار التي هي أساس التكليف تقريباً، وستتصف طاعة المطيعين بالجبر والاضطرار، لأنّهم بمجرّد أن يعصوا فسيلاقون جزاءهم الأليم فوراً.

واحتُمل أيضاً في تفسير هذه الآية أنّ جماعة من الكفار العنودين، الذين تحدث القرآن عنهم مراراً، كانوا يقولون للأنبياء: إذا كان ما تقولونه حقّاً، فادعوا الله أن ينزل علينا البلاء، فإذا استجاب الله تعالى دعوة هؤلاء ما كان ليبقى من هؤلاء أحد.

لكن يبدو أنّ التّفسير الأوّل هو الأقرب.

وفي الختام تقول الآية: يكفي عقاباً لهؤلاء أن نتركهم وشأنهم ليبقوا في حيرتهم، فلا هم يميزون الحق من الباطل، ولا هم يجدون سبيل النجاة من متاهاتهم: ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

عند ذلك تشير الآية إلى وجود نور التوحيد في فطرة الإنسان وأعماق روحه وتقول: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾.

نعم... إنّ خاصية المشاكل والشدائد الخطيرة، أنّها تزيل الحجب عن فطرة الإنسان الطاهرة، وتحرق في فرن الحوادث كل الطبقات السوداء التي غطت هذه الفطرة، ويسطع عندها - ولو لمدّة قصيرة - نور التوحيد.

ثمّ تقول الآية: إنّ هؤلاء الأفراد إلى درجة من الجهل وضيق الأُفق بحيث إنّهم يعرضون بمجرّد كشف الضرّ عنهم، حتى كأنّهم لم يدعونا ولم نساعدهم: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

أمّا من الذي يزين لهم أعمالهم؟ فقد بحثنا ذلك في ذيل الآية (١٢٢) من سورة الأنعام، ومجمل الكلام هو:

إنّ الله سبحانه هو الذي يزين الأعمال، وذلك بجعل هذه الخاصية في الأعمال

القبيحة والمحرّمة، بحيث إن الإنسان كلما تلوّث بها أكثر، فإنّه سيتطبع عليها، وبمرور الزمن يزول قبحها تدريجياً، بل وتصل الحال إلى أن يراها حسنة وجميلة.

وأمّا لماذا سمّت الآية أمثال هؤلاء «مسرفين» فلأنّه لا إسراف أكثر من أن يهدر الإنسان أهم رأس مال في وجوده، ألا وهو العمر والسلامة والشباب والقوى، ويصرفه في طريق الفساد والمعصية، أو في طريق تحصيل متاع الدنيا التافه الفاني، ولايربح من ذلك شيئاً.

ألا يعد هذا العمل إسرافاً، وأمثال هؤلاء مسرفين؟

وهنا يجب الالتفات إلى نقطة مهمّة:

الإنسان في القرآن الكريم

لقد وردت حول الإنسان تعبيرات مختلفة في القرآن الكريم:

فعبّرت عنه آيات كثيرة أنّه «بشر» وعبّرت عنه آيات متعددة بالإنسان، وفي آيات أُخرى «بني آدم»، والعجيب أنّ في كثير من الآيات التي عبّرت عنه بالإنسان، ذكرت صفاته المذمومة وغير الحميدة.

فقد عرفته هذه الآيات بأنّه موجود كثير النسيان وناكر للجميل، وفي آية أُخرى بأنه موجود ضعيف: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾[1]، وفي آية أُخرى بأنّه ظالم وكافر: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[2]، وفي موضع آخر أنّه بخيل: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا﴾[3]، وفي موضع آخر أنّه عجول: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولًا﴾[4] وفي مكان آخر أنّه كفور: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا﴾[5]، وفي مورد آخر أنّه موجود كثير الجدل: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾[6] وفي موضع آخر أنّه ظلوم جهول: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[7]، وفي مكان آخر أنّه كفور مبين: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾[8]، وفي مكان آخر أنّه موجود قليل التحمل والصبر، يبخل عند النعمة، ويجزع عند البلاء: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾[9]، وفي مورد آخر مغرور: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ

(١) سورة النساء، الآية: ٢٨.
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٣٤.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ١٠٠.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ١١.
(٥) سورة الإسراء، الآية: ٦٧.
(٦) سورة الكهف، الآية: ٥٤.
(٧) سورة الأحزاب، الآية: ٧٢.
(٨) سورة الزخرف، الآية: ١٥.
(٩) سورة المعارج، الآيات: ١٩ - ٢١.

﴿ٱلْكَرِيمِ﴾(١)، وفي موضع آخر أنّه موجود يطغى عند الغنى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾(٢).

وبناء على هذا فإنّا نرى القرآن المجيد قد عرّف الإنسان بأنّه موجود يتضمّن جوانب وصفات سلبية كثيرة، ونقاط ضعف متعددة.

فهل أنّ هذا هو نفس ذلك الإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم وأفضل تكوين: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾(٣)؟

وهل أنّ هذا هو نفس الإنسان الذي علمه الله ما لم يعلم: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(٤)؟ وهل هو نفس الإنسان الذي علمه الله البيان: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾(٥).

وأخيراً، فهل أنّ هذا هو الإنسان الذي حثّه الله على السعي والكدح في المسير إلى الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾(٦).

يجب أن نرى من هم الذين تتكرّس فيهم كل نقاط الضعف هذه، بالرغم من كل هذه الكرامة والمحبّة الإلهيّة؟

الظاهر أنّ هذه المباحث تتعلق بمن لم ينشأ في حجر القادة الإلهيين، بل نشأ ونما كما تنمو الأعشاب، فلا معلم ولا دليل، وقد أطلق العنان لشهواته وغاص وسط الأهواء والميول.

من الطبيعي أنّ مثل هذا الإنسان لا يستفيد من إمكاناته وثرواته العظيمة، ويسخرها في طريق الانحرافات والأخطاء، وعند ذلك سيظهر كموجود خطر، وفي النهاية عاجز وبائس، وإلاّ فالإنسان الذي يستفيد من وجود القادة الإلهيين، ويستغل فكره في مسير الحركة التكاملية والحق والعدل، فإنّه يخطو نحو مرتبة الآدمية، ويستحق اسم «بني آدم» ويصل إلى درجة لا يرى فيها إلاّ الله سبحانه، كما يقول القرآن: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾(٧).

---

(١) سورة الانفطار، الآية: ٦.
(٢) سورة العلق، الآيتان: ٦، ٧.
(٣) سورة التين، الآية: ٤.
(٤) سورة العلق، الآية: ٥.
(٥) سورة الرحمن، الآيتان: ٣ و ٤.
(٦) سورة الانشقاق، الآية: ٦.
(٧) سورة الإسراء، الآية: ٧٠.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

التّفسير

الاعتبار بالظّالمين السابقين

تشير هذه الآيات أيضاً إلى معاقبة الأفراد الظالمين والمجرمين في هذه الدنيا، وقد نبّهت المسلمين - بعد أن أطلعتهم على تاريخ من قبلهم - إلى أنّهم إذا سلكوا نفس طريق هؤلاء، فسينتظرهم نفس المصير.

فالآية الأُولى تقول: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ﴾ ثمّ تضيف: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

ثمّ تبيّن الآية التالية هذا الأمر بصورة أكثر صراحة، وتقول: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

ملاحظات:

١ - إنّ كلمة «قرون» - جمع قرن - تستعمل عادة بمعنى الزمان الطويل، ولكن حسب ما قاله علماء اللغة فإنّها جاءت أيضاً بمعنى القوم والجماعة الذين يعيشون في عصر واحد، لأنّ مادتها الأصلية بمعنى الاقتران والقرب، والمراد هنا في هذه الآية هو المعنى الأخير، أي: الجماعات والأقوام الذين يعيشون في عصر واحد.

٢ - لقد ذكرت الآيات - أعلاه - أنّ سبب فناء وهلاك الأقوام السابقة هو الظلم، وذلك لأنّ للفظ الظلم من المفهوم والمعنى الجامع ما يدخل ضمنه كل نوع من الذنب والفساد.

٣ - يستفاد من جملة: ﴿وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ﴾ أنّ الله سبحانه يهلك فقط أُولئك الذين لا أمل في إيمانهم حتى في المستقبل، وعلى هذا فإنّ الأقوام التي يمكن أن تؤمن في المستقبل لا يشملها مثل هذا العقاب، لأنّ الفرق كبير بين أن يقال: لم يؤمنوا، وبين أن يقال: لم يكونوا يؤمنون (فتدبّر).

٤ - إنّ جملة ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ لا تعني النظر بالعين الباصرة قطعاً، ولا تعني التفكر والنظر القلبي، لأنّ الله سبحانه منزّه عن كليهما، بل المراد منها أنّها حالة شبيهة بالانتظار، أي إنّنا سنترككم وأنفسكم ثمّ ننتظر ماذا تعملون؟

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾

سبب النّزول

قال بعض المفسّرين: إنّ هذه الآيات نزلت في عدّة نفر من عبدة الأوثان، ذلك أنّهم أتوا إلى النّبي ﷺ وقالوا له: إنّ ما ورد في هذا القرآن من الأمر بترك عبادة أصنامنا الكبيرة، اللات والعزّى ومناة وهبل، وذم هذه الآلهة، ممّا لا يمكن أن نتحمله، فإذا أردت أن نتبعك فأْتِ بقرآن آخر لا يوجد فيه هذا الذم والتوبيخ لآلهتنا، أو غيّر على الأقل هذه الأُمور التي وردت في هذا القرآن! فنزلت هذه الآيات وأجابتهم(١).

التّفسير

كتعقيب للآيات السابقة التي كانت تتحدث عن المبدأ والمعاد، تبحث هذه الآيات نفس الموضوع والمسائل المتعلقة به.

في البداية تشير إلى واحد من الاشتباهات الكبيرة لعباد الأصنام، وتقول: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾.

إنّ هؤلاء الجهلة العاجزين لم يرضوا بالنّبي ﷺ قائداً ومرشداً لهم، بل كانوا يدعون

---

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث؛ وبحار الأنوار، ج ٩، ص ٢١٣ (بتفاوت يسير).

لاتباع خرافاتهم وأباطيلهم ويطلبون منه قرآناً يوافق انحرافاتهم ويؤيدها، لا أنّه يصلح مجتمعهم، فبالإضافة الى أنّهم لم يؤمنوا بالقيامة، ولم يشعروا بالإثم في مقابل أعمالهم كان قولهم هذا يدل على أنّهم لم يفهموا معنى النّبوة، أو أنّهم كانوا يتخذونها هزواً.

إنّ القرآن الكريم يلفت نظر هؤلاء إلى هذا الاشتباه الكبير، ويأمر النّبي ﷺ أن يقول لهم: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ﴾(١) ثمّ يضيف للتأكيد: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾. ولست عاجزاً عن تغيير أو تبديل هذا الوحي الإلهي - فحسب - بل: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

ثمّ تتطرق الآية التالية إلى دليل هذا الموضوع وتقول: قل لهم بأنّي لست مختاراً في هذا الكتاب السماوي: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ والدليل على ذلك ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾ لكنّكم لم تسمعوا منّي مثل هذا الكلام مطلقاً، ولو كانت هذه الآيات من عندي لتحدثت بها لكم خلال هذه الأربعين سنة، فهل لا تدركون أمراً بهذه الدرجة من الوضوح: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

وكذلك، ومن أجل التأكيد يضيف: بأنّي أعلم أنّ أقبح أنواع الظلم هو أن يفتري الإنسان على الله الكذب: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ وعلى هذا فكيف يمكن أن أرتكب مثل هذا الذنب الكبير؟!.

وكذلك فإنّ التكذيب بآيات الله سبحانه من أشدّ الكبائر وأعظمها: ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ فإذا كنتم جاهلين بعظمة ما ترتكبونه من الإثم في تكذيب وإنكار آيات الحق، فإنّي لست بجاهل بها، وعلى كل حال فإنّ عملكم هذا جرم كبير، و﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

ملاحظات:

١ - إنّ المشركين كانوا يطلبون من النّبي ﷺ إمّا أن يستبدل القرآن بكتاب آخر، أو يبدله، والفرق واضح بين الاثنين، ففي الطلب الأوّل كان هدفهم هو اقتلاع وجود هذا الكتاب تماماً ليحل محله كتاب آخر من طرف النّبي ﷺ، أمّا في الطلب الثّاني فكانوا يريدون على الأقل أن تبدل الآيات التي تخالف أصنامهم حتى لايشعروا بأي ضيق وانزعاج من هذه الناحية.

---

(١) كلمة ﴿تِلْقَآءِ﴾ مصدر أو اسم مصدر وجاءت بمعنى المقابلة والمحاذاة، وفي الآية وأمثالها بمعنى الناحية والعندية والجهة، أي إنني لا أستطيع تغيير ذلك من ناحيتي، أو من عندي.

ونحن نرى كيف أنّ القرآن الكريم أجابهم بلهجة قاطعة بأنّ النّبي ﷺ ليس له أي اختيار وتصرف في التبديل، ولا التغيير، ولا تسريع نزول الوحي أو تأخره.

وندرك من ذلك حماقة وغباء هؤلاء فهم يقبلون بالنّبي الذي يتبع خرافاتهم وأهواءهم، لا القدوة والمربي والقائد والدليل!.

٢ - ممّا يستحق الانتباه، أنّ النّبي ﷺ في الإجابة عن الطلبين اكتفى بذكر عدم القدرة بتنفيذ الطلب الثّاني وقال: إنّي لا أستطيع أن أغيّره من تلقاء نفسي، وبهذا البيان يكون قد نفى الطلب الأوّل بطريق أولى، لأنّ تغيير بعض الآيات إذا كان خارجاً عن حدود صلاحية النّبي ﷺ، فهل بإمكانه تبديل كل هذا الكتاب السماوي؟

إنّ هذا نوع من الفصاحة في التعبير، حيث إنّ القرآن الكريم يعيد ويكرر كل المسائل في غاية الضغط والاختصار في العبارة، بدون جملة أو كلمة زائدة إضافية.

٣ - يمكن أن يقال: إنّ الدليل المذكور في الآيات - أعلاه - على أنّ القرآن ليس من النّبي ﷺ، وأنّه حتماً من الله سبحانه، ليس مقنعاً، فما هو وجه الملازمة في أنّ هذا الكتاب إذا كان من النّبي ﷺ فلابدّ أن يكون قد سُمعت منه نماذج ومقاطع من قبل؟

إلاّ أنّ جواب هذا السؤال واضح بأدنى دقة وتأمل، لأنّ النبوغ الفكري وقدرة الاكتشاف والإبداع في الإنسان - حسب ما قاله علماء النفس - يبدأ من سن العشرين ويصل كحد أقصى إلى سن الخامسة والثلاثين أو الأربعين، أي إنّ الإنسان إذا لم يُقدم حتى ذلك الوقت على إبداع وابتكار عمل جديد، فلايمكنه بعد هذا السن غالباً.

إنّ هذا الموضوع الذي يعتبر اليوم كشفاً نفسياً لم يكن في الماضي واضحاً إلى هذا الحدّ، إلاّ أنّ أغلب الناس يعلمون هذا الموضوع بهداية الفطرة، بأن من غير الممكن أن يكون للإنسان معتقد ويعيش بين قوم، ولا يُظهر ذلك مطلقاً. والقرآن الكريم قد استند أيضاً إلى هذا الأساس وهو: كيف يستطيع النّبي ﷺ إلى هذا العمر أن يمتلك مثل هذه الأفكار ويكتمها الى ذلك الوقت؟

٤ - كما أشرنا في ذيل الآية (٢١) من سورة الأنعام، فإنّ القرآن قد عرّف في موارد كثيرة جماعة من الناس بأنّهم «أظلم» وربّما يبدو لأوّل وهلة أن هناك تناقضاً، فإنّا إذا وصفنا جماعة بأنّهم أظلم، فكيف يمكن أن تتقبل مجموعة أُخرى هذه الصفة؟

وقد قلنا في جواب هذا السؤال: إنّ كل هذه العناوين ترجع إلى عنوان واحد، وهو

مسألة الشرك والكفر والعناد والافتراء والتكذيب بالآيات الإلهيّة، والآيات التي نبحثها، تنحدر من هذا الأصل أيضاً. (لمزيد التوضيح راجع تفسير الآية (٢١) من سورة الأنعام).

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾

التّفسير

آلهة بدون خاصية!

واصلت الآية الحديث عن التوحيد أيضاً، وذلك عن طريق نفي أُلوهية الأصنام، وذكرت عدم أهلية الأصنام للعبادة وانتفاء قيمتها وأهمّيتها: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾.

من البديهي أن الأصنام - حتى لو فرضنا أنّها منشأ الضر والنفع والربح والخسارة - ليست لها لياقة أن تكون معبودة، إلاّ أنّ القرآن الكريم يريد بهذا التعبير أن يوضح هذه النقطة، وهي أنّ عبدة الأصنام لايمتلكون أدنى دليل على صحة هذا العمل، ويعبدون موجودات لا خاصية لها مطلقاً، وهذه أقبح وأسوأ عبادة.

ثمّ تتطرق إلى ادعاءات عبدة الأوثان الواهية، ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي إنّ هذه الأصنام والآلهة تستطيع بشفاعتها أن تكون سبباً للضر والنفع رغم عجزها عن أي عمل بصورة مستقلة.

لقد كان الاعتقاد بشفاعة الأصنام أحد أسباب عبادتها، وكما جاء في التواريخ، فإنّ عمرو بن لحي كبير العرب عندما ذهب إلى المياه المعدنية في الشام لمعالجة نفسه بها، جلب انتباهه وضع عبدة الأصنام، ولما سأل منهم عن الباعث على هذا العمل والعبادة، قالوا له: إنّ هذه الأصنام هي سبب نزول الأمطار، وحل المشاكل، ولها الشفاعة بين يدي الله، ولما كان رجلاً خرافياً وقع تحت تأثير هذه الأجوبة، وطلب منهم بعض الأصنام ليأخذها إلى الحجاز، وعن هذا الطريق راجت عبادة الأصنام بين أهل الحجاز[1].

(١) بحار الأنوار، ج ٩، ص ٨٤؛ وسيرة النبي، لابن هشام الحميري، ج ١، ص ٥٠.

إنّ القرآن يقول في دفع هذا الوهم: ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وهو كناية عن أنّ الله سبحانه لو كان له مثل هؤلاء الشفعاء. فإنّه يعلم بوجودهم في أي نقطة كانوا من السماء والأرض، لأنّ سعة علم الله لا تدع أصغر ذرة في السماء والأرض إلاّ وتحيط بها علماً.

وبتعبير آخر، إن ذلك يشبه تماماً ما لو قيل لشخص: أعندك مثل هذا الوكيل؟ وهو في الجواب يقول: لا علم لي بوجود هذا الوكيل، وهذا أفضل دليل على نفيه حيث لايمكن أن لا يعلم الإنسان بوكيله.

وفي آخر الآية تأكيد لهذا الموضوع حيث تقول: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

لقد بُحث موضوع الشفاعة بصورة مفصلة في المجلد الأوّل ذيل الآية (٤٦) من سورة البقرة.

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾

التّفسير

إنّ هذه الآية - تتمّة للبحث الذي مرّ في الآية السابقة حول نفي الشرك وعبادة الأصنام - تشير إلى فطرة التوحيد لكل البشر، وتقول: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾.

إنّ فطرة التوحيد هذه، والتي كانت سالمة في البداية، إلاّ أنّها قد اختلفت وتلوّثت بمرور الزمن نتيجة الأفكار الضيقة، والميول الشيطانية والضعف، فانحرف جماعة عن جادة التوحيد وتوجهوا إلى الشرك، وقد انقسم المجتمع الإنساني إلى قسمين مختلفين: قسم موحّد، وقسم مشرك: ﴿فَٱخْتَلَفُوا۟﴾. بناءً على هذا فإنّ الشرك في الواقع نوع من البدعة والانحراف عن الفطرة، الانحراف المترشح من الأوهام والخرافات التي لا أساس لها.

وقد يطرح هنا هذا السؤال، وهو: لماذا لا يرفع الله هذا الاختلاف بواسطة عقاب المشركين السريع، ليرجع المجتمع الإنساني جميعه موحّداً؟

ويجيب القرآن الكريم مباشرة عن هذا السؤال بأنّ الحكمة الإلهيّة تقتضي حرية البشر

في مسير الهداية، فهي رمز التكامل والرقي، ولو لم يكن أمره كذلك فإنّ الله سبحانه كان سيقضي بينهم في اختلافاتهم: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

بناءً على هذا فإنّ ﴿كَلِمَةٌ﴾ في الآية إشارة إلى السنّة وقانون الخلقة الذي يقتضي حرية البشر، لأنّ المنحرفين والمشركين لو كانوا يعاقبون سريعاً ومباشرة، فإنّ إيمان الموحّدين سيكون إجبارياً ونتيجة للخوف والرهبة، ومثل هذا الإيمان لا يُعدُّ فخراً، ولا دليلاً على التكامل، والله سبحانه قد أجّل العقاب والجزاء لعالم الآخرة لينتخب الصالحون والطاهرون طريقهم بحرية تامّة.

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾

التّفسير

المعجزات المقترحة!

مرّة أُخرى يتطرق القرآن الكريم إلى اختلاق المشركين للحجج عند امتناعهم عن الإيمان والإسلام ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

من الطبيعي، وبدليل القرائن التي سنشير إليها بعد حين، أنّ هؤلاء لم يقصدوا أي معجزة، لأنّ من المسلّم أنّه كان للنّبي ﷺ إضافةً إلى القرآن معاجز أُخرى، وتاريخ الإسلام وبعض الآيات القرآنية شاهدة على هذه الحقيقة.

إنّ هؤلاء كانوا يظنون أنّ الإعجاز أمر بيد النّبي ﷺ، وهو يستطيع أن يقوم به في أي وقت وبأية كيفية يريد، مضافاً إلى أنّه مأمور أن يستفيد من هذه القوّة مقابل كل مُدّعٍ لجوج معاند والعمل حسب ميله لإقناعه وإقامة الحجة عليه، ولهذا فإنّ القرآن الكريم يأمر النّبي ﷺ مباشرة: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ وبناء على هذا، فإنّ المعجزة ليست بيدي لآتيكم كل يوم بمعجزة جديدة إرضاءً لأهوائكم وحسب ميولكم ورغباتكم، ثمّ لا تؤمنون بعد ذلك بأعذار واهية وحجج ضعيفة.

وفي النهاية تقول الآية بلهجة التهديد: ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ فانتظروا العقاب الإلهي، وأنا أنتظر النصر!

أو كونوا بانتظار ظهور مثل هذه المعجزات، وأكون بانتظار عقابكم أيّها المعاندون!.

ملاحظتان:

وهنا ملاحظتان ينبغي الالتفات إليهما:

١ - كما أشرنا أعلاه فإنّ كلمة ﴿ءَايَةٌ﴾ أي المعجزة - وإن كانت مطلقة وتشمل كل أنواع المعاجز - إلاّ أنّ القرائن تبيّن أنّ هؤلاء لم يطلبوا المعجزة لمعرفة صدق النّبي ﷺ، بل كانوا طلاب «معاجز اقتراحية»، أي إنّهم كانوا كل يوم يقترحون على النّبي ﷺ معجزة جديدة ويأملون أن يطيعهم في ذلك، فكأنّ النّبي ﷺ إنسان لاعمل له سوى صنع المعجزات، وهو منتظر لكل من هبّ ودبّ ليقترح عليه شيئاً فيحقق له اقتراحه، غافلين عن أن المعجزة هي من فعل الله سبحانه أوّلاً، ولا تتم إلاّ بأمره وإرادته، وهي - ثانياً - معجزة لمعرفة أحقّية النّبي ﷺ والاهتداء به، ووقوعها مرّة واحدة كاف لهذا الغرض، وعلاوة على ذلك فإنّ نبيّ الإسلام قد أظهر من المعجزات القدر الكافي، فطلب المزيد لا يكون إلاّ بدافع الاقتراحات الأهوائية والشهوانية.

والشاهد على أنّ المقصود من (الآية) هنا المعجزات الاقتراحية، هو:

أوّلاً: إنّ نهاية الآية تهدد هؤلاء، ولو كانوا يطلبون المعجزة لاكتشاف الحقيقة، فلا وجه لهذا التهديد.

ثانياً: رأينا قبل عدّة آيات أن هؤلاء كانوا عنودين ولجوجين إلى الحدّ الذي اقترحوا فيه على النّبي ﷺ أن يبدل كتابه السماوي، أو يغير على الأقل الآيات التي تشير إلى نفي عبادة الأصنام.

ثالثاً: حسب القاعدة المسلمة لدينا بأنّ «القرآن يفسر بعضه بعضاً»[1] فإنّا نستطيع أن نفهم جيداً من خلال بعض الآيات - كالآيتين (٩٠) و(٩٤) من سورة الإسراء - أنّ عبدة الأصنام اللجوجين هؤلاء، لم يكونوا طلاب معجزة لأجل الهداية، ولهذا نراهم كانوا يقولون أحياناً: نحن لن نؤمن لك حتى تفجر العيون من هذه الأرض اليابسة، ويقول الآخر: إنّ هذا ليس بكاف، بل يجب أن يكون لك بيت من ذهب، وثالث يقول: وهذا أيضاً لا يقنعنا حتى ترقى في السماء أمام أعيننا، ويضيف رابع أنّ هذا الرقي في السماء

---

(١) بحار الأنوار، ج ٢٩، ص ٣٥٢.

ليس كافياً أيضاً إلاّ إذا أتيتنا بكتاب من الله لنا!! وأمثال ذلك من السفاسف والخزعبلات.

إذن، فقد اتّضح ممّا قلنا أعلاه أنّ الاستدلال بهذه الآية على نفي أية معجزة، أو كل المعجزات غير القرآن الكريم زيف يجانب الحقيقة، (وستطالعون - إن شاء الله مزيداً من التوضيح حول هذا الموضوع في ذيل الآية (٥٩) من سورة الإسراء).

٢ - يمكن أن تكون كلمة ﴿ٱلْغَيْبُ﴾ في جملة: ﴿إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ إشارة إلى أنّ المعجزة أمر مربوط بعالم الغيب، وليست من اختيارات الرّسول ﷺ، بل هي مختصة بالله تعالى.

أو أن تكون إشارة إلى أن مصالح الأُمور والوقت المناسب لنزول المعجزة هي جزء من أسرار الغيب ومختصات الله سبحانه، فمتى رأى أنّ الوقت مناسب لنزول المعجزه، وأنّ طالب المعجزة باحث عن الحقيقة، أنزل المعجزة، لأنّ الغيب والأسرار الخفية من مختصات ذاته المقدسة.

إلاّ أنّ التّفسير الأوّل يبدو أقرب للصواب.

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾

التّفسير

يدور الكلام في هذه الآيات - أيضاً - حول عقائد وأعمال المشركين، ثُمّ دعوتهم إلى التوحيد ونفي كل أنواع الشرك.

فالآية الأُولى تشير إلى بعض سلوكيات المشركين الحمقاء، وتقول: إنّنا عندما نبتلي الناس بالمشاكل والنكبات من أجل إيقاظهم وتنبيههم، ثمّ نرفع هذا البلاء عنهم ونذيقهم طعم الراحة والهدوء بعد تلك الضرّاء، فإنّهم بدلاً من أن ينتبهوا لهذه الآيات ويرجعوا إلى الصواب، يسخرون بها، أو يفسرونها بتفسيرات غير صحيحة، فمثلاً يفسرون الابتلاءات والمشاكل بأنّها نتيجة غضب الأصنام، والنعم والطمأنينة بأنّها دليل على شفقتها، أو أنّهم يعدون كل هذه الأمور صدفة محضة: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا﴾.

إنّ كلمة ﴿مَّكْرٌ﴾ في الآية أعلاه، والتي تعني بشكل عام إعمال الفكر، تشير إلى التوجيهات الخاطئة وطرق التهرّب التي يفكر بها المشركون عند مواجهة الآيات الإلهيّة، وظهور أنواع البلايا والنعم.

إلاّ أنّ الله سبحانه حذر هؤلاء بواسطة نبيّه، وأمره أن ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾. وكما أشرنا مراراً، إلى أنّ المكر في الأصل هو كل نوع من التخطيط المقترن بالعمل المخفي، لا المعنى الذي يفهم من هذه الكلمة اليوم، وهو الاقتران بنوع من الشيطنة، وعلى هذا فإنّه يصدق على الله سبحانه كما يصدق على العباد(١). لكن ما هو مصداق المكر الإلهي في هذه الآية؟

الظاهر أنّها إشارة إلى نفس تلك العقوبات الإلهيّة التي يحلّ بعضها في نهاية الخفاء وبدون أية مقدمة وبأسرع ما يكون، بل إنّه يعاقب ويعذب بعض المجرمين بأيديهم أحياناً. ومن البديهي أن من هو أقدر من الكل وأقوى من الجميع على دفع الموانع وتهيئة الأسباب، ستكون خططه - أيضاً - هي الأسرع. وبتعبير آخر فإنّ الله سبحانه في أي وقت يريد إنزال العقاب بأحد العباد أو تنبيهه، فإنّ هذا العقاب سيتحقق مباشرة، في حين أنّ الآخرين ليسوا كذلك.

ثمّ يهدّد هؤلاء بأن لا تظنوا أنّ هذه المؤامرات والخطط ستُنسى، بل إنّ رسلنا - أي الملائكة - يكتبون كل هذه المخططات التي تهدف إلى إطفاء نور الحق: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ ولذلك يجب أن تهيئوا أنفسكم للجواب والعقاب في الحياة الأُخرى.

---

(١) لمزيد التوضيح راجع المجلد الثّاني من تفسيرنا هذا، ذيل الآية (٥٤) من سورة آل عمران، وذيل الآية ٩٩ من سورة الأعراف، وذيل الآية ٣٠ من سورة الأنفال.

وسنبحث كتابة الأعمال والملائكة المأمورين بها في الآيات المناسبة.

وتغوص الآية التالية في أعماق فطرة البشر، وتوضح لهؤلاء حقيقة التوحيد الفطري، وكيف أنّ الإنسان عندما تلّم به المشاكل الكبيرة وفي أوقات الخطر، ينسى كل شيء إلاّ الله تبارك وتعالى ويتعلق به، لكنّه بمجرّد أن يرتفع البلاء وتزول الشدّة وتحل المشكلة، فإنّه سيسلك طريق الظلم ويبتعد عن الله سبحانه.

تقول الآية: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ في هذا الحال بالضبط تذكروا الله ودعوه بكل إخلاص وبدون أية شائبة من الشرك، و﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ فيرفعون أيديهم في هذا الوقت للدعاء: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾. فلا نظلم احداً ولانشرك بعبادتك غيرك.

ولكن ما أن أنجاهم الله وأوصلهم إلى شاطىء النجاة بدؤوا بالظلّم والجور: ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ لكن يجب أن تعلموا - أيّها الناس - إنّ نتيجة ظلمكم ستصيبكم أنتم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ وآخر عمل تستطيعون عمله هو أن تتمتعوا قليلاً في هذه الدنيا: ﴿مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا(١) ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

ملاحظات:

وهنا يجب الالتفات إلى عدّة ملاحظات:

١ - إنّ ما قرأناه في الآيات أعلاه غير مختص بعبدة الأوثان، بل هو قانون كلي ينطبق على كل الأفراد الملوّثين من عبيد الدنيا المشغوفين بها فعندما تحيط بهم أمواج البلايا والمحن وتقصر أياديهم عن كل شيء، ولا يرون لهم ناصراً ولا معيناً، فإنّهم سيمدون أيديهم بالدعاء بين يدي الله سبحانه ويعاهدونه بألف عهد وميثاق، وينذرون ويقطعون العهود بأنّهم إن تخلصوا من هذه البلايا والأخطار سيفعلون كذا وكذا.

إلاّ أنّ هذه اليقظة والوعي التي هي انعكاس لروح التوحيد الفطري، لا تستمر طويلاً عند أمثال هؤلاء، فبمجرّد أن يهدأ الطوفان وتنقشع سحب البلاء، فإنّ حجب الغفلة ستغشي قلوبهم، تلك الحجب الكثيفة التي لاتنقشع عن تلك القلوب إلاّ بالطوفان.

(١) إنّ كلمة ﴿مَّتَٰعَ﴾ منصوبة بفعل مقدر، وفي الأصل كانت: (تتمتعون متاع الحياة الدنيا).

ورغم أنّ هذه اليقظة مؤقتة، وليس لها أثر تربوي في الأفراد الملوّثين جدّاً، أنّها تقيم الحجّة عليهم، وستكون دليلاً على محكوميتهم.

أمّا الذين تلوثوا بالمعاصي قليلا، فإنّهم سيتنبهون في هذه الحوادث ويصلحون مسارهم. وأمّا عباد الله الصالحون فأمرهم واضح، فإنّ توجههم إلى الله سبحانه في السراء بنفس قدر توجههم إليه في الضراء، لأنّهم يعلمون أن كل خير وبركة تصل إليهم، وتبدو ظاهراً أنّها نتيجة للعوامل الطبيعية، فإنّها في الواقع من الله تعالى.

وعلى كل حال، فإنّ هذا التذكير والتذكر قد جاء كثيراً في آيات القرآن المجيد.

٢ - لقد ذكرت «الرحمة» في الآيات أعلاه مقابل «الضراء»، ولم تذكر السراء، وهي إشارة إلى أنّ أي حسن ونعمة تصل إلى الإنسان فهي من الله سبحانه ورحمته اللامتناهية، في حين أنّ السوء والنقمات إذا لم تكن للعبرة، فإنّها من آثار أعمال الإنسان نفسه.

٣ - إنّ الضمائر في بداية الآية الثّانية من الآيات التي نبحثها وردت بصيغة المخاطب، إلاّ أنّها في الأثناء بصيغة الغائب، ومن المسلم أن لذلك نكتة ما:

قال بعض المفسّرين: إنّ تغيير أسلوب الآية من أجل أنّها تبيّن حال المشركين ودعائهم بإخلاص في حال ابتلائهم بالطوفان والبلاء ليكونوا درساً وعبرة للآخرين، ولهذا فإنّها فرضتهم غائبين وفرضت الباقين حضوراً.

وقال البعض الآخر: إنّ النكتة هي عدم الاعتناء بهؤلاء وتحقيرهم، حيث إنّ الله سبحانه قد قبل حضور هؤلاء وخاطبهم. ثمّ أبعدهم عنه وتركهم.

ويحتمل أيضاً أن تكون الآية بمثابة تجسيم طبيعي عن وضع الناس، فما داموا جالسين في السفينة ولم يبتعدوا عن الساحل فإنّهم في إطار المجتمع، وعلى هذا يمكن أن يكونوا مخاطبين، أمّا عندما تبعدهم السفينة عن الساحل، ويختفون عن الأنظار تدريجياً، فإنّهم يعتبرون كالغائبين، وهذا في الواقع تجسيم حي لحالتين مختلفتين عند هؤلاء.

٤ - إنّ جملة ﴿أُحِيطَ بِهِمْ﴾ تعني أنّ هؤلاء قد أحاطت بهم الأمواج المتلاطمة من كل جانب، إلاّ أنّها هنا كناية عن الهلاك والفناء الحتمي لهؤلاء.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

التّفسير

لوحة الحياة الدّنيا

مرّت الإشارة في الآيات السابقة إلى عدم استقرار ودوام الحياة الدنيا، ففي الآية الأُولى من الآيات التي نبحثها تفصيل لهذه الحقيقة ضمن مثال لطيف وجميل لرفع حجب الغرور والغفلة من أمام نواظر الغافلين والطغاة ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

إنّ قطرات المطر هذه تسقط على الأراضي التي لها قابلية الحياة. وبهذه القطرات ستنمو مختلف النباتات التي يستفيد من بعضها الإنسان، ومن بعضها الآخر الحيوانات ﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ﴾.

إنّ هذه النباتات علاوة على أنّها تحتوي على الخواص الغذائية المهمّة للكائنات الحيّة الأُخرى، فإنّها تغطي سطح الأرض وتضفي عليها طابعاً من الجمال ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ﴾ في هذه الأثناء حيث تتفتح الجنابذ وتورق أعالي الأشجار وتعطي ذلك المنظر الزاهي وتبتسم الأزهار وتتلألأ الأعشاب تحت أشعة الشمس، وتتمايل الأغصان طرباً مع النسيم، وتُظهر حبات الغذاء والأثمار أنفسها شيئاً فشيئاً وتجسم جانباً دائب الحركة من الحياة بكل معنى الكلمة، وتملأ القلوب بالأمل، والعيون بالسرور والفرح، بحيث ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ . . . في هذه الحال وبصورة غير مرتقبة يصدر أمرنا بتدميرها، سواء ببرد قارص، أو ثلوج كثيرة، أو إعصار مدمّر، ونجعلها كأن لم تكن شيئاً مذكوراً ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾.

﴿لَّمْ تَغْنَ﴾ مأخوذة من مادة (غنا) بمعنى الإقامة في مكان معين، وعلى هذا فإنّ جملة ﴿لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ تعني أنّها لم تكن بالأمس هنا، وهذا كناية عن فناء الشيء بالكلية بصورة كأنّه لم يكن له وجود مطلقاً!.

وللتأكيد تقول الآية في النهاية: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

إنّ ما ذكر أعلاه تجسيم واضح وصريح عن الحياة الدنيوية السريعة الانقضاء والخداعة، والمليئة بالتزاويق والزخارف، فلا دوام لثرواتها ونعيمها، ولا هي مكان أمن وسلامة، ولهذا فإنّ الآية التالية أشارت بجملة قصيرة إلى الحياة المقابلة لهذه الحياة، وقالت: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾.

فلا وجود ولا خبر هناك عن مطاحنات واعتداءات المتكالبين على الحياة المادية، ولا حرب ولا إراقة دماء ولا استعمار ولا استثمار، وكل هذه المفاهيم قد جمعت في كلمة دار السلام.

وإذا تلبّست الحياة في هذه الدنيا بعقيدة التوحيد والايمان بالمبدأ والمعاد، فإنّها ستتبدل أيضاً إلى دار السلام، ولا تكون حينئذ كالمزرعة التي أتلفها البلاء والوباء.

ثمّ تضيف الآية: إنّ الله سبحانه يهدي من يشاء - إذا كان لائقاً لهذه الهداية - إلى صراطه المستقيم، ذلك الصراط الذي ينتهي إلى دار السلام ومركز الأمن والأمان ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

ملاحظات:

١ - لما كان القرآن كتاب تربية وتكامل للإنسان، فإنّه يستعين بالأمثلة لتوضيح الحقائق العقلية في كثير من الموارد، وقد يجسّد المواضيع التي لها امتداد زمني طويل في مسرحية وتمثيلية قصيرة وقابلة للمطالعة أمام أعين الناس.

إنّ متابعة تأريخ مليء بالحوادث يتعلق بإنسان ما، أو جيل ما، والذي قد يطول لمائة سنة أحياناً ليس بالأمر الهين بالنسبة للأفراد العاديين، أمّا عندما تتلخص هذه الساحة والحياة في عدّة أشهر، كما هو الحال في حياة كثير من النباتات، من الولادة إلى الرشد والنمو والجمال، ثمّ الهلاك والموت، وتظهر أمام الإنسان، فإنّه يستطيع أن يرى ببساطة مراحل حياته وكيفيتها في هذه المرآة الشفافة.

جسّموا هذه اللقطات أمام أعينكم تماماً: حديقة مليئة بالأشجار والخضرة والنباتات الدائمة الثمر، وصخب الحياة يعم كل أرجائها... وفجأة في ليلة مظلمة، أو يوم صحو

تغطي السحب السوداء وجه السماء، وترعد وتبرق ثمّ تهب الأعاصير العاتية وتنهمر الأمطار الشديدة من كل جانب وتدمّرها.

غداً نأتي لرؤية تلك الحديقة... الأشجار متكسرة... النباتات والأعشاب مبعثرة وميتة، وكل شيء أمامنا ملقىً على الأرض بصورة لا نصدق معها أنّ هذه هي تلك الحديقة الغنّاء الجميلة التي كانت تبتسم في وجوهنا بالأمس!.

نعم، هكذا هي الحوادث في حياة البشر، خصوصاً في عصرنا الحاضر حيث تدمّر زلزلة أو حرب لاتطول إلاّ ساعات قليلة مدينة عامرة وجميلة، ولا تبقي منها إلاّ الأنقاض والأجساد المتناثرة هنا وهناك.

آه... ما أشد غفلة الذين يفرحون بمثل هذه الحياة الزائلة الفانية؟!

٢ - في جملة ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ ينبغي الالتفات إلى أنّ الاختلاط في الأصل - كما قال الراغب في المفردات - هو الجمع بين شيئين أو أكثر، سواء كانت سائلة أو جامدة، والاختلاط أعم من الامتزاج، لأن الامتزاج يطلق عادة على السوائل، وعلى هذا يكون معنى الجملة أنّ النباتات يختلط بعضها بالبعض الآخر بواسطة ماء المطر، سواء النباتات التي تنفع الإنسان، أو الحيوان[1].

وتشير الجملة أعلاه - أيضاً - إشارة ضمنية إلى هذه الحقيقة، وهي أنّ الله سبحانه ينبت من ماء المطر، الذي هو نوع واحد وليس له إلاّ حقيقة واحدة، أنواع النباتات المختلفة التي تؤمّن مختلف حاجات الانسان والحيوان من المواد الغذائية.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾

(١) يتّضح ممّا قيل أعلاه أنّ الباء في ﴿بِهِ﴾ سببية، ولكن قد احتمل البعض أنّها بمعنى (مَعَ)، أي إنّ ماء ينزل من السماء ويختلط بالنباتات، وينميها وينضجها، إلاّ أنّ هذا الاحتمال الثّاني لا يناسب آخر الآية الذي يقول: ﴿مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ﴾ لأنّ ظاهر هذه الجملة أنّ المقصود هو الاختلاط بين أنواع الأعشاب، لا اختلاط الماء والنبات. دققوا ذلك.

التّفسير

بيض الوجوه وسود الوجوه

مرّت الإشارة في الآيات السابقة إلى عالم الآخرة ويوم القيامة، ولهذه المناسبة فإنّ هذه الآيات تبيّن مصير الصالحين وعاقبة المذنبين فتقول في البداية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[1].

ومع أن هناك بحثاً بين المفسّرين في المقصود من الزيادة في هذه الجملة، إلاّ أنّنا إذا علمنا أنّ القرآن يفسّر بعضه بعضاً، رأينا أنّ المراد هو الإشارة إلى الثواب المضاعف الكثير، الذي يتضاعف أحياناً عشر مرات، وأُخرى آلاف المرات حسب نسبة الإخلاص والطهارة والتقوى وقيمة العمل، فنقرأ في الآية (١٦٠) من سورة الأنعام. ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾.

وفي الآية (١٢٧) من سورة النساء: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾.

وفي الآيات المرتبطة بالإنفاق في سورة البقرة الآية (٢٦١) يدور الحديث أيضاً عن مكافأة الصالحين ومضاعفة عملهم إلى سبعمائة ضعف، أو مضاعفته أضعافاً كثيرة من قبل الله سبحانه.

والنقطة الأُخرى التي ينبغي الالتفات إليها هنا، هي أن من الممكن أن تستمر هذه الزيادة والإضافة حتى في عالم الآخرة، أي أنّه في كل يوم سيمنحهم الله سبحانه موهبة ولطفاً جديداً، وهذا يبيّن أن حياة العالم الآخر ليست على وتيرة واحدة، بل تستمر في حركتها نحو التكامل إلى ما لا نهاية.

والرّوايات التي وردت عن النّبي ﷺ في تفسير هذه الآية، والتي تبيّن أنّ المراد من «الزيادة» هو التوجه إلى نور الذات الإلهيّة المقدّسة والاستفادة من هذه الموهبة المعنوية الكبيرة قد تكون إشارة إلى هذه النكتة[2].

---

(١) ينبغي التنبه إلى أن ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ في هذه الجملة مبتدأ مؤخر، ومعنى الآية هكذا. الحسنى للذين أحسنوا، ولذلك فإنّ ﴿زِيَادَةٌ﴾ المعطوفة عليها مرفوعة، والحسنى صفة للمثوبة المقدّرة، وقد حلّت محلّ الموصوف.

(٢) تفسير علي بن إبراهيم القمي، ج ١، ص ٣١٢؛ وتفسير القرطبي، ج ٨، ص ٣٣٠.

وفي بعض الرّوايات المنقولة عن أهل البيت عليهم السلام، فسّرت «الزيادة» بزيادة النعم الدّنيوية التي يتفضل بها الله على الصالحين علاوة على ثواب الآخرة[1]، ولكن لا مانع من أن تكون الزيادة في الآية أعلاه إشارة إلى كل هذه المواهب.

ثمّ تضيف الآية: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾. ﴿يَرْهَقُ﴾ مأخوذة من مادة «رهق»، وهي بمعني التغطية القهرية والجبرية، «والقتر» بمعنى «الغبار» والدخان.

وفي النهاية تقول: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ التعبير بالأصحاب إشارة إلى التناسب الموجود بين روحية هذه المجموعة ومحيط الجنّة.

ثمّ يأتي الحديث في الآية التالية عن أصحاب النّار الذين يشكلون الطرف المقابل للمجموعة الأُولى، فتقول: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ وهنا لا يوجد كلام عن الزيادة، لأنّ الزيادة في الثواب فضل ورحمة، أمّا في العقاب فإنّ العدالة توجب أن يكون بقدر الذنب ولا يزيد ذرة واحدة. إلاّ أنّ هؤلاء عكس الفريق الأوّل مسودة وجوههم ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾[2].

ويمكن أن يقول قائل: إنّ هؤلاء يجب أن لا يروا من العقاب إلاّ بقدر ذنوبهم، وأنّ اسوداد الوجه هذا، وغبار الذل الذي يغطيهم شيء إضافي. لكن ينبغي الانتباه إلى أنّ هذه هي خاصية وأثر العمل الذي ينعكس من داخل روح الإنسان إلى الخارج، تماماً كما نقول: إنّ الأفراد المعتادين على شرب الخمر يجب أن يجلدوا، وفي الوقت نفسه فإنّ الخمر تولد مختلف أمراض المعدة والقلب والكبد والأعصاب.

وعلى كل حال، فقد يظن المسيئون أنّهم سوف يكون لهم طريق للهرب أو النجاة، أو أنّ الأصنام وأمثالها تستطيع أن تشفع لهم، إلاّ أنّ الجملة التالية تقول بصراحة: ﴿مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾.

إنّ وجوه هؤلاء مظلمة ومسودة إلى الحد الذي ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

---

(١) بحار الأنوار، ج ٧، ص ٢٦٠.

(٢) من الممكن، بقرينة الآية السابقة، أن تكون جملة ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ بتقدير: (يرهقهم قتر وذلة)، وبقرينة المقابلة حذفتُ ﴿قَتَرٌ﴾ لأجل الاختصار.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

التّفسير

مشهد من قيامة عبدة الأوثان

تتابع هذه الآيات أيضاً البحوث السابقة حول المبدأ والمعاد ووضع المشركين، وتجسم حيرة وانقطاع هؤلاء عند حضورهم في محكمة العدل الإلهي، ووقوفهم بين يدي الله لمحاسبتهم.

فتقول أوّلاً: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾(1). واللطيف أنّ الآية أعلاه قد عبّرت عن الأصنام بشركائكم، في حين أنّ المشركين كانوا قد جعلوا الأصنام شريكة لله، لاشريكة أنفسهم.

إنّ هذا التعبير في الحقيقة إشارة لطيفة إلى أن الأصنام لم تكن شريكة لله، وأنّ أوهام وتخيلات عبدة الأوثان هي التي أعطتها هذا المقام، وهذا يشبه تماماً ما لو عيّن المشرف على التعليم معلماً أو مديراً غير صالح لمدرسة ما، صدرت منهما أعمال قبيحة وغير لائقة. فتقول للمشرف: تعال وانظر، هذا معلمك وهذا مديرك يرتكبان مثل هذه الأعمال، في حين أنّه. ليس معلمه ولا مديره، بل معلم المدرسة ومديرها الذي اختارهما.

ثمّ تضيف: أنّنا سوف نعزل هاتين الفئتين - أي العابدون والمعبودون - عن بعضهم البعض، ونسأل كلاًّ منهما على انفراد، تماماً كما هو المتداول في كل المحاكم حيث يسأل كل واحد على انفراد، فنسأل العابدين: بأي دليل جعلتم هذه الأصنام شريكة لله

---

(١) إنّ ﴿مَكَانَكُمْ﴾ في الواقع مفعول لفعل مقدر، وكانت في الأصل (الزموا مكانكم أنتم وشركاؤكم حتى تسألوا) وهذه الجملة في الحقيقة تشبه الآية (٢٤) من سورة الصافات، حيث تقول: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾.

وعبدتموها؟ ونسأل المعبودين: لماذا أصبحتم معبودين؟ أو لماذا رضيتم بهذا العمل؟ ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾(١).

في هذه الأثناء ينطق الشركاء الذين صنعتهم أوهام هؤلاء: ﴿وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ فأنتم في الواقع كنتم تعبدون أهواءكم وميولكم وأوهامكم، لا أنّكم كنتم تعبدوننا، ولو سلمّنا ذلك فإنّ عبادتكم لنا لم تكن بأمرنا ولا برضانا، والعبادة كهذه ليست بعبادة في الحقيقة.

ثمّ، ومن أجل التأكيد الأشد، يقولون: ﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾(٢).

هناك بحث بين المفسّرين في المراد من الأصنام والشركاء، أي معبودات هي؟ وكيف أنّها تتكلم بهذا الكلام؟

فالبعض احتمل أن يكون المراد منها المعبودات الإنسانية والشيطانية، أو من الملائكة التي لها عقل وشعور وإدراك، إلاّ أنّهم رغم ذلك لا يعلمون بأنّ فئة تعبدهم، إمّا لأنّهم يعبدونهم حال غيابهم، أو بعد موتهم، وعلى هذا فإنّ تكلم هؤلاء سيكون أمراً طبيعياً جدّاً، وهذه الآية نظيرة الآية (٤١) من سورة سبأ، التي تقول: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾.

والاحتمال الآخر الذي ذكره كثير من المفسّرين، هو أنّ الله سبحانه يبعث الحياة والشعور في الأصنام في ذلك اليوم بحيث تستطيع إعادة الحقائق وذكرها، والجملة أعلاه للأصنام التي دعاها الله سبحانه للشهادة، وأنّهم كانوا غافلين عن عبادة من يعبدهم، وبذلك تكون أكثر تناسباً مع هذا المعنى، لأنّ الأصنام الحجرية والخشبية لا تفهم شيئاً أصلاً.

ويمكن أن نحتمل في تفسير هذه الآية أنّها تشمل كل المعبودات، غاية ما في الأمر أنّ المعبودات التي لها عقل وشعور تعيد الحقائق وتذكرها بلسانها، أمّا المعبودات التي لا عقل لها ولا شعور فإنّ الكلام عن لسان حالها، وتتحدث عن طريق انعكاس آثار

---

(١) «زيلنا» من مادة التزييل، بمعنى التفريق، قال بعض أرباب اللغة: إنّ مادتها الثلاثية، زال يزيل، بمعنى الفرقة، لا أنّها من مادة: زال يزول بمعنى الزوال.

(٢) ﴿إن﴾ في الجملة أعلاه مخففة من الثقيلة، وهي للتأكيد ومعنى الجملة هو: إنّنا كنّا عن عبادتكم لغافلين.

العمل، تماماً كما نقول: إنّ سيماءك تخبر عن سرك، والقرآن الكريم يبيّن أيضاً في الآية (٢١) من سورة فصلت أنّ جلود الإنسان ستنطق يوم القيامة، وكذلك في سورة الزلزلة يبيّن أنّ الأرض التي كان يسكنها الإنسان ستذكر الحقائق.

إنّ هذه المسألة ليست صعبة التصور في زماننا الحاضر، فإذا كان شريط أصم يسجل كل كلامنا ويعيده عند الحاجة، فلا عجب أن تعكس الأصنام أيضاً واقع أعمال عابديها!.

على كل حال، ففي ذلك اليوم وذلك المكان وذلك الحال - كما يتحدث القرآن في آخر آية من آيات البحث - فإنّ كل إنسان سيختبر كل أعماله التي عملها سابقاً ويرى نتيجتها، بل نفس أعماله، سواء: العابدون والمعبودون المضلون الذين كانوا يدعون الناس إلى عبادتهم، وسواء المشركون والمؤمنون، من أي قوم ومن أي قبيل: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ وفي ذلك اليوم سيرجع الجميع إلى الله مولاهم الحقيقي، ومحكمة المحشر تبيّن أن الحكم لايتم إلاّ بأمره ﴿وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾.

وأخيراً فإنّ جميع هذه الأصنام والمعبودات المختلقة التي جعلها هؤلاء شريكة لله كذباً ستفنى وتمحى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ فإنّ القيامة ساحة ظهور كل الأسرار الخفية للعباد، ولا تبقى أية حقيقة إلاّ وتُظهر نفسها، ومن الطبيعي أنّ هناك مواقف ومقامات لا تحتاج إلى سؤال أو جدال وبحث، بل إنّ الحال يحكي عن كل شيء، ولا حاجة للمقال.

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾

التّفسير

الحديث في هذه الآيات عن علامات ودلائل وجود الله سبحانه وأهليته للعبادة، وتعقب أبحاث الآيات السابقة حول هذا الموضوع.

ففي البداية تقول: قل لهؤلاء المشركين وعبدة الأوثان الحائرين التائهين عن طريق الحق: من يرزقكم من السماء والأرض؟ ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

«الرزق» يعني العطاء والبذل المستمر، ولما كان الواهب لكل المواهب في الحقيقة هو الله سبحانه، فإنّ «الرازق» و«الرزّاق» بمعناهما الحقيقي لايستعملان إلاّ فيه فقط، وإذا استعملت هذه الكلمة في حق غيره فلا شك أنّها من باب المجاز، كالآية (٢٣٣) من سورة البقرة التي تقول في شأن النساء المرضعات: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.

وينبغي - أيضاً - أن نذكّر بهذه النقطة، وهي أنّ أكثر أرزاق الإنسان من السماء، فالمطر المحيي للنبات، الذي تحتاجه كل الكائنات الحية مستقر في فضاء الأرض، والأهم من ذلك كله أشعة الشمس التي لايبقى بدونها أي كائن حي، ولاتنبعث بدونها أية حركة في أنحاء الكرة الأرضية فإنّها تأتي من السماء، وحتى الحيوانات التي تعيش في أعماق البحار فإنّها حية بنور الشمس، لأنا نعلم أنّ غذاء الكثير منها أعشاب صغيرة جدّاً تنمو في طيات الأمواج على سطح المحيط مقابل أشعة الشمس، والقسم الآخر من هذه الحيوانات تتغذى على لحوم الحيوانات البحرية الأُخرى التي تتغذى على تلك النباتات.

والأرض وحدها هي التي تغذي جذور النباتات بواسطة موادها الغذائية، وربّما كان هذا هو السبب في أن تتحدث الآية أوّلاً عن أرزاق السماء، ثمّ عن أرزاق الأرض حسب تفاوت درجة الأهمية.

ثمّ تشير الآية إلى حاستين من أهم حواس الإنسان، واللتان لايمكن كسب العلم وتحصيله بدونهما، فقالت: ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾. وفي الواقع فإنّ هذه الآية أشارت إلى النعم المادية أوّلاً، ثمّ إلى المواهب والأرزاق المعنوية التي تصبح النعم المادية بدونها فاقدة للهدف والمحتوى.

إن كلمة «سَمِعَ» مفردة، وهي بمعنى الأذن، و«الأبصار» جمع بصر بمعنى العين، وهنا يأتي هذا السؤال، وهو: لماذا ذكرت كلمة السمع في كل القرآن بصيغة المفرد، وأمّا البصر فإنّها جاءت تارة بصيغة المفرد، وتارةً أُخرى بصيغة الجمع جواب هذا السؤال مذكور في المجلد الأوّل من هذا التّفسير ذيل الآية ٧ من سوره البقرة.

ثمّ تطرقت الآية إلى ظاهرتي الموت والحياة اللتين هما أعجب ظواهر عالم الخلقة،

فتقول: ﴿وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَیَّ مِنَ ٱلۡمَیِّتِ وَیُخۡرِجُ ٱلۡمَیِّتَ مِنَ ٱلۡحَیِّ﴾ وهذا هو نفس الموضوع الذي حيّر عقول علماء الطبيعة وعلماء الأحياء، وهو كيف أتى الموجود الحي إلى الوجود من موجود ميت؟ فهل إنّ مثل هذه المسألة - التي لم تفلح جهود ومساعي العلماء الحثيثة إلى الآن في كشف أسرارها - أمراً بسيطاً ومرتبطاً بالصدفة وبدون برنامج وهدف؟ لا شك أنّ من وراء ظاهرة الحياة المعقدة والظريفة والمليئة بالأسرار علم وقدرة خارقة وعقل كليّ.

إنّه لم يخلق الكائن الحي في البداية من الموجودات الأرضية الميتة وحسب، بل إنّه قرر عدم خلود الحياة، ولهذا خلق الموت في قلب الحياة ليفسح المجال عن هذا الطريق لتغير الأحوال والتكامل.

ويحتمل - أيضاً - في تفسير هذه الآية أنّها تشمل الموت والحياة المعنويين إضافة إلى الموت والحياة الماديين، لأنّنا نرى أناساً عقلاء طاهرين ورعين مؤمنين يولدون أحياناً من أبوين ملوثين منحرفين لا إيمان لهما، ويلاحظ أيضاً عكس ذلك حيث يأتي إلى الوجود أناسٌ تافهون لا قيمة لهم من أبوين فاضلين(١). خلافاً لقانون الوراثة.

طبعاً، لا يوجد مانع من أن تكون الآية أعلاه تشير إلى كلا القسمين، لأنّ كليهما من عجائب الخلقة ومن الظواهر العجيبة في العالم، وهما موضحان لهذه الحقيقة، وهي أن لقدرة الخالق العالم الحكيم دخلاً في هذه الأُمور إضافةً إلى الأُمور الطبيعية.

وقد أعطينا توضيحات أُخرى حول هذا الموضوع في المجلد الخامس ذيل الآية (٩٥) من سورة الأنعام.

ثمّ تضيف الآية: ﴿وَمَن یُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ﴾، والكلام في الواقع بدأ عن خلق المواهب، ثمّ عن حافظها وحارسها ومدبرها، وبعد أن يطرح القرآن الكريم هذه الأسئلة الثلاثة يقول مباشرة بأنّ هؤلاء سيجيبون بسرعة: ﴿فَسَیَقُولُونَ ٱللَّهُۚ﴾.

يُستفاد من هذه الجملة جيداً أنّه حتى مشركي وعبدة الأصنام في الجاهلية كانوا يعلمون أنّ الخالق والرازق والمحيي ومدبر أمور عالم الوجود هو الله سبحانه، وقد علموا هذه الحقيقة عن طريق العقل، وكذلك عن طريق الفطرة، وهي أنّ هذا النظام

---

(١) لقد جاء هذا المضمون في روايات متعددة في الجزء الأوّل ص ٥٤٣ من تفسير البرهان في ذيل الآية (٩٥) من سورة الأنعام.

الدقيق للعالم لا يمكن أن يكون وليد الصدفة والفوضى، أو مخلوقاً من قبل هذه الأصنام.

وفي آخر الآية يأمر الله نبيّه ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ فإنّ الوحيد الذي له أهلية العبادة هو الذي بيده الخلق وتدبير أمره، وإذا كانت العبادة لأجل أهلية وعظمة ذات المعبود، فإنّ هذه الأهلية والعظمة منحصرة في الله تعالى، وإذا كانت من أجل أنّه مصدر الضر والنفع، فإنّ ذلك مختص بالله أيضاً.

وبعد أن عرضت الآية السابقة نماذج من آثار عظمة وتدبير الله في السماء والأرض، وأيقظت وجدان وعقل المخالفين ودعتهم للحكم في أمر الخالق، واعترف هؤلاء بذلك، خاطبتهم الآية التالية بلهجة قاطعة وقالت: ﴿فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾ لا الأصنام، ولا سائر الموجودات التي جعلتموها شريكة للباري عزّوجلّ، والتي تسجدون أمامها وتعظمونها.

كيف يمكن أن يكون هؤلاء أهلاً للعبودية في حين أنّهم ليسوا فقط غير قادرين على المشاركة في خلق العالم وتدبيره فحسب، بل منغمسون في الفقر والاحتياج من الرأس حتى أخمص القدم.

ثمّ تنتهي إلى ذكر النتيجة: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ وأنّى تولوا وجوهكم عن عبادة الله وأنتم تعلمون ألاّ خالق ولا معبود حقّاً سواه؟

إنّ هذه الآية في الواقع تطرح طريقاً منطقياً واضحاً لمعرفة الباطل وتركه، وهو أن يخطو الإنسان أوّلاً في سبيل معرفة الحق بآليات الوجدان والعقل، فإذا عرف الحق فإنّ كل ما خالفه باطل وضلال، ويجب أن يضرب عرض الحائط.

وتقول آخر آية في بيان العلة في عدم اتباع هؤلاء للحق رغم وضوح الأمر وظهور الحق: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[(١)] وفي الواقع فإنّ هذه خاصية الأعمال السيئة المستمرة لهؤلاء بحيث تُظلم قلوبهم وتلوث أرواحهم إلى درجة لايرون معها الحق رغم وضوحه وتجلّيه، ويسلكون نتيجة لذلك طريق الضلال.

بناء على ذلك، فإنّ الآية أعلاه لا دلالة لها مطلقاً على مسألة الجبر، بل هي إشارة إلى آثار أعمال نفس الإنسان، لكن لاشك أنّ هذه الأعمال لها تلك الخاصية بأمر الله،

(١) كاف التشبيه هنا إشارة إلى المطلب الذي ذكر في آخر جملة من الآية السابقة، ومعنى الآية هكذا: كما أنّه ليس بعد الحق إلاّ الضلال، ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾.

تماماً كما نقول لشخص: لقد قلنا لك مائة مرّة أن لا تحوم حول المواد المخدرة والمشروبات المسكرة ولا تتناولها، لكنّك لم تصغ لنا، فأصبحت الآن من المدمنين عليها ومحكوماً بأن تبقى تعيساً لمدّة طويلة.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُاْ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣٤) قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥) وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾

التّفسير

واحدة من علامات الحق والباطل

تعقب هذه الآيات أيضاً الاستدلالات المرتبطة بالمبدأ والمعاد، وتأمر الآية الأُولى النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أن ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ ثمّ تضيف: ﴿قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُاْ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ ولماذا تصرفون وجوهكم عن الحق وتتجهون نحو الضلال؟

وهنا سؤالان:

الأوّل: إنّ مشركي العرب غالباً لا يعتقدون بالمعاد، خاصّة بالصورة التي يذكرها القرآن، وإذا كان هذا حالهم فكيف يطلب القرآن منهم الاعتراف به؟

الثّاني: في الآية السابقة كان الكلام عن اعتراف المشركين وإقرارهم، إلاّ أنّ هذه الآية تأمر النّبي أن يقرّ هو بهذه الحقيقة، فلماذا هذا الاختلاف في التعبير؟

إلاّ أنّ الانتباه إلى مسألة يوضح جواب كلا السؤالين، وهي: إنّ المشركين بالرغم من عدم اعتقادهم بالمعاد الجسماني، إلاّ أنّ ذلك القدر الذي آمنوا به من أن بداية الخلق كانت من الله كافٍ لتقبل المعاد والاعتقاد به، لأنّ كل من عمل عملاً في البداية قادر على إعادته، وبناءً على هذا فإنّ الاعتقاد بالمبدأ إذا ما اقترن بشيء من الدقة كافٍ لإثبات المعاد، ومن هنا يتّضح لماذا أقر النّبي صلى الله عليه وآله وسلم بهذه الحقيقة بدلاً من المشركين، فإنّه بالرغم من كون الإيمان بالمعاد من لوازم الإيمان بالمبدأ، إلاّ أنّ هؤلاء لما لم يتوجهوا إلى هذه الملازمة، اختلف طراز التعبير وأقر النّبي مكانهم.

ثمّ تأمر الآية الأخرى النّبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مرّة أُخرى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ لأنّ المعبود يجب أن يكون هادياً ومرشداً لعباده، خاصّة وأنّها هداية نحو الحق، في حين أنّ آلهة المشركين، أعمّ من الجمادات أو الأحياء، غير قادرة أن تهدي أحداً إلى الحق بدون الهداية الإلهية، لأنّ الهداية إلى الحق تحتاج إلى منزلة العصمة والصيانة من الخطأ والاشتباه، وهذا لايمكن من دون هداية الله سبحانه وتسديده، ولذلك فإنّها تضيف مباشرة: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾ وإذا كان الحال كذلك ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ﴾[1].

وتقول الآية في النهاية بلهجة التوبيخ والتقريع والملامة: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾.

وفي آخر آية إشارة إلى المصدر الأساس والعامل الأصل لهذه الانحرافات وهو الأوهام والظنون ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ وفي النهاية تخاطب الآية - بأسلوب التهديد - مثل هؤلاء الأفراد الذين لا يتبعون أي منطق سليم وتقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

ملاحظات:

١ - قرأنا في الآيات أعلاه أنّ الله سبحانه وحده الذي يهدي إلى الحق، وهذا الحصر إمّا لأنّ المقصود من الهداية ليس هو إراءة الطريق وحسب، بل هو الإيصال إلى المقصد، وهذا الأمر بيد الله فقط، أو لأنّ إراءة الطريق والدلالة عليه هو أيضاً من عمل الله في الدرجة الأُولى، وأمّا غيره من الأنبياء والمرشدين والمصلحين الإلهيين فإنّهم يطلعون على طريق الهداية عن طريقه وهدايته، ويصبحون علماء بتعليمه.

٢ - إنّ ما نقرؤه في الآيات أعلاه من أنّ آلهة المشركين لا تستطيع أن تهدي أحداً، بل هي بذاتها محتاجة إلى الهداية الإلهيّة، وإن كان لا يصدق على الأصنام الحجرية والخشبية، لأنّها لا تملك العقل والشعور مطلقاً، إلاّ أنّه يصدق تماماً في حق الآلهة التي لها شعور كالملائكة والبشر الذين أصبحوا معبودين.

ويحتمل أيضاً أن تكون الجملة المذكورة بمعنى القضية الشرطية، أي على فرض أنّ للأصنام عقلاً وشعوراً، فإنّها لا تستطيع أن تجد الطريق بدون الهداية الإلهيّة لنفسها، فكيف ستقدر على هداية الآخرين؟

---

(١) «يهدّي» كانت في الأصل «يهتدي»، فبدلت التاء دالاً وأُدغمت فشدّدت.

وعلى كل حال، فإنّ الآيات أعلاه تبيّن - بوضوح - أنّ من برامج الله الأصلية لعباده أن يهديهم إلى الحق، ويتمّ ذلك عن طريق منح العقل، وإعطاء الدروس المختلفة عن طريق الفطرة، وإرادة وإظهار آياته في عالم الخلقة، وكذلك عن طريق إرسال الأنبياء والكتب السماوية.

٣ - طالعنا في آخر آية من هذه الآيات أنّ أكثر المشركين وعبدة الأصنام يتبعون ظنونهم وأوهامهم، وهنا يأتي سؤال، وهو: لماذا لم يقل الله سبحانه: وما يتبع كلّهم بدل أكثرهم، لأنّا نعلم أنّ جميع المشركين شركاء في هذا الظن الباطل، حيث يعتقدون أنّ الأصنام آلهة بحق وتملك النفع والضر وتشفع عند الله، ولهذا فإنّ البعض اضطر إلى تفسير كلمة ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ بأنّها تعني «جميعهم»، وذهب البعض إلى أن هذه الكلمة جاءت أحياناً بهذا المعنى.

إلاّ أنّ هذا الجواب غير وجيه، والأفضل أن نقول: إنّ المشركين صنفان: صنف يشكل الأكثرية، وهم الأفراد الخرافيون الجهلاء الذين وقعوا تحت تأثير الأفكار الخاطئة، واختاروا الأصنام لعبادتها.

أمّا القسم الثّاني، وهم الأقلية، فهم الزعماء وأئمّة الكفر الواعون لحقيقة الأمر والمطّلعون على عدم صحة عبادة الأصنام وأنّها لا أساس لها، إلاّ أنّهم يدعون الناس لعبادتها حفظاً لمصالحهم، ولهذا السبب فإنّ الله يجيب الصنف الأوّل فقط لأنّهم مؤهلون للهداية، أمّا الصنف الثّاني فلم يعبأ بهم مطلقاً لأنّهم سلكوا هذا الطريق عن علم ووعي.

٤ - يعتبر جماعة من علماء الأصول هذه الآية وأمثالها دليلاً على أن الظن لا يمكن أن يكون حجة وسنداً بأي وجه من الوجوه، وأنّ الأدلة القطعية هي الوحيدة التي يمكن الاعتماد عليها.

إلاّ أنّ جماعة أُخرى يقولون: إنّنا نلاحظ بين الأدلة الفقهية أدلّة ظنية كثيرة، كحجية ظواهر الألفاظ، وشهادة الشاهدين العدلين، أو خبر الواحد الثقة وأمثال ذلك، ولذلك فإنّ الآية المذكورة دليل على أنّ القاعدة الأصلية في مسألة الظن هي عدم حجيته، إلاّ أنّ تثبت حجيته بالدليل القطعي كالأمثلة أعلاه.

إلاّ أنّ الحق هو أنّ الآية أعلاه تتحدث عن الظنون والأوهام التي لا أساس لها، كظنون وأوهام عبدة الأصنام فقط، ولا علاقة لها بالظن الذي يمكن الاعتماد عليه

والموجود بين العقلاء، وبناء على هذا فإنّ هذه الآية وأمثالها لايمكن الاستناد إليها بأي وجه في مسألة عدم حجية الظن. فتدبّر جيداً.

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾

التّفسير

عظمة دعوة القرآن وحقانيته

تتطرق هذه الآيات إلى الإجابة عن قسم آخر من كلمات المشركين السقيمة، فإنّ هؤلاء لم يجانبوا الصواب في معرفة المبدأ وحسب، بل كانوا يفترون على نبي الإسلام ﷺ بأنّه هو الذي اختلق القرآن ونسبه إلى الله، ورأينا في الآيات السابقة أنّهم طلبوا من النّبي ﷺ أن يأتي بغير هذا القرآن، أو يغيره على الأقل، وهذا بنفسه دليل على أنّهم كانوا يظنون أنّ القرآن من تأليف النّبي!

فالآية الأُولى تقول: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ واللطيف هنا أنّها بدل أن تنفي هذا الأمر نفياً بسيطاً، نفته نفياً شأنياً، وهذا يشبه تماماً أن يقول شخص ما في مقام الدفاع عن نفسه: ليس من شأني الكذب، وهذا التعبير أعمق وأكثر معنى من أن يقول: إنّي لا أكذب.

ثمّ تتطرق الآية إلى ذكر الدليل على أصالة القرآن وكونه وحياً سماوياً: فتقول: ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي إنّ كل البشارات والدلالات الحقّة التي جاءت في الكتب السماوية السابقة تنطبق على القرآن ومن جاء به تماماً، وهذا بنفسه يثبت أنّه ليس افتراءً على الله بل هو حق، وأساساً فإنّ القرآن شاهد على صدق محتواه من باب أنّ طلوع الشمس دليل على الشمس.

ومن هنا يتّضح زيف الذين استدلوا بمثل هذه الآيات على عدم تحريف التّوراة والإنجيل، لأنّ القرآن الكريم لم يصدق ما كان موجوداً في هذه الكتب في عصر النزول، بل إنّه أيّد العلامات الواردة في هذه الكتب حول النّبي ﷺ والقرآن. وقد بيّنا توضيحات أكثر في هذا الباب في المجلد الأوّل من هذا التّفسير في ذيل الآية (٤١) من سورة البقرة.

ثمّ تذكر الآية دليلاً آخر على أصالة هذا الوحي السماوي وهو: إنّ في هذا القرآن شرح كتب الأنبياء السابقين الأصيلة، وبيان أحكامهم الأساسية وعقائدهم الأصولية، ولهذا فلا شك في كونه من الله تعالى، فتقول: ﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وبتعبير آخر: لا يوجد فيه أي تضاد وتناقض مع برامج وأهداف الأنبياء السابقين، بل يُلاحظ فيه تكامل تلك التعليمات والبرامج، وإذا كان هذا القرآن مختلقاً فلا بدّ أن يخالفها ويناقضها.

ومن هنا نعلم أنّه لا يوجد أي اختلاف بين الكتب السماوية في أصول المسائل، سواء كانت في العقائد الدينية، أو البرامج الاجتماعية، أو حفظ الحقوق، أو محاربة الجهل، أو الدعوة إلى الحق والعدالة، وكذلك إحياء القيم الأخلاقية وأمثال ذلك، سوى أنّ الكتاب الذي ينزل متأخراً يكون أرفع مستوى وأكمل من السابق، تماماً كاختلاف مراحل التعليم في الابتدائية والإعدادية والجامعة، حتى انتهت المراحل بالكتاب الأخير الخاص بالمرحلة النهائية لتحصيل العلم الديني، ألا وهو القرآن.

ولا شكّ في وجود الاختلاف في جزئيات الأحكام بين الأديان والمذاهب السماوية، إلاّ أنّ الكلام عن أصولها الأساسية المتحدة والمشتركة في كل مكان.

وذكر في الآية التالية دليل ثالث على أصالة القرآن، وخاطبت الذين يدعون أنّ النّبي ﷺ قد افترى هذا القرآن على الله، بأنّكم إن كنتم صادقين في دعواكم فأتوا بسورة من مثله، واستعينوا في ذلك بمن شئتم غير الله، ولكنّكم لا تستطيعون فعل ذلك أبداً، وبهذا الدليل يثبت أنّ القرآن من وحي السماء ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

إنّ هذه الآيات من جملة الآيات التي تبيّن إعجاز القرآن بصراحة، لا إعجاز كل القرآن فحسب، بل حتى إعجاز السورة الواحدة، وقد خاطبت كل العالمين - بدون

استثناء - بأنّكم إن كنتم معتقدين بأنّ هذه الآيات ليست من الله فأتوا بمثله، أو بسورة منه على الأقل.

وكما بيّنا في المجلد الأوّل في ذيل الآية (٢٣) من سورة البقرة، فإنّ آيات القرآن تتحدى أحياناً أن يؤتى بمثل كل القرآن، وأحياناً بعشر سور، وأحياناً بسورة واحدة، وهذا يوضح أنّ جزء القرآن وكلّه معجز. ولمّا لم تعين الآية سورة معينة فإنّها تشمل كل سورة من القرآن.

طبعاً لاشكّ أنّ إعجاز القرآن لاينحصر في جوانب الفصاحة والبلاغة وحلاوة البيان وكمال التعبيرات كما ظن ذلك جماعة من قدماء المفسّرين، بل إنّ جانب الإعجاز يتمثل أيضاً إضافةً لما مر في بيان المعارف الدينية، والعلوم التي لم تكن معروفة حتى ذلك اليوم، وبيان الأحكام والقوانين، وذكر تأريخ السابقين من دون أي خطأ أو تلبس بخرافة، وعدم وجود الاختلاف والتضادّ فيه(١).

مظاهر وتجليات جديدة من إعجاز القرآن

ممّا يلفت النظر أنّ مظاهر جديدة من إعجاز القرآن تتّضح مع مرور الزمن، حيث لم تكن تجلب الانتباه - سابقاً - ولا يُهتم بها، ومن جملتها المحاسبات الكثيرة التي أجريت على كلمات القرآن بواسطة العقول الإلكترونية، والتي أثبتت أنّ لكلمات وفقرات القرآن وعلاقتها بزمن النزول خصوصيات جديدة، وما تقرؤونه أدناه نموذج منها:

إنّ تحقيقات بعض العلماء والمحققين أدت إلى كشف روابط معقدة ومعادلات حسابية دقيقة جدّاً في آيات القرآن حتى أنّها جمعت بين الحيرة واليقين في وجود مثل هذا النظام العلمي في بناء القرآن، وذلك عن طريق التحقيق الإحصائي والرّياضي لكشف القواعد الدقيقة والمعادلات الرياضية للآيات الشريفة والتي تذكرنا من ناحية الأهمّية والمعرفة باكتشاف نيوتن للجاذبية.

أحد علماء القرآن بدأ عمله من هذه المسألة البسيطة، وهي أنّ الآيات النازلة في مكّة قصيرة، والآيات التي نزلت في المدينة طويلة، وهذه مسألة طبيعية، فإنّ كل كاتب أو خطيب بليغ يغيّر من طول جمله ونغمات كلماته حسب موضوع الحديث، فمثلاً تكون جمل التوصيف قصيرة، أمّا مسائل التحليل والاستدلال فهي طويلة... وإذا كان الكلام

(١) لمزيد الاطلاع راجع المجلد الأوّل: الآيتان (٢٣) و(٢٤) من سورة البقرة.

لغرض تحريك العواطف أو للانتقاد او لبيان الأُصول العقائدية العامّة، فإنّ العبارة تكون قصيرة وبأسلوب الشعارات، أمّا إذا كان لبداية قصّة أو لبيان الكلام في استخلاص النتائج الأخلاقية و. . . فإنّ الأسلوب يكون هادئاً والعبارات طويلة.

إنّ المسائل التي طُرحت في مكّة هي من النوع الأوّل، بينما المسائل التي طُرحت في المدينة من النوع الثّاني، فما نزل في مكّة كان بداية ثورة وبيان للمبادىء العامّة، الاعتقادية والانتقادية، والذي نزل في المدينة كان لبناء مجتمع وبيان مسائل حقوقية وأخلاقية وقصص تاريخية واستخلاص النتائج الفكرية والعلمية.

وبما أنّ القرآن نزل بلغة البشر فلابدّ من أن يتبع السبك الجميل والبليغ في كلام البشر، وفي النتيجة مراعاة قصر وطول الآيات بما يناسب المفاهيم، وبالتالي يجب أن لايكون القصر والطول اعتباطياً وعشوائياً، بل يبدأ حسب قاعدة علمية دقيقة من الآيات القصيرة، ويسير على وتيرة تصاعدية واحدة نحو الآيات الطويلة، وعلى هذا الأساس يجب أن تكون كل آية أقصر من الآية التي نزلت بعد سنة، وأطول من الآية التي نزلت قبلها بسنة، وأن يكون مقدار الزيادة محسوباً ودقيقاً، وعلى هذا فلمّا كان الوحي قد نزل خلال ٢٣ سنة، فيجب أن يكون لدينا ٢٣ طولاً في الآيات كمعدل، وبناء على هذه القاعدة يمكن أن يكون لدينا ٢٣ عموداً بحيث تقسم كل الآيات حسب الطول في هذه الأعمدة، والآن من أين نستطيع أن نعلم أنّ هذا التقسيم صحيح؟

نحن نعلم سبب نزول بعض الآيات بواسطة الرّوايات الشريفة التي ذُكرت - بصراحة - في أية سنة نزلت هذه الآيات، والبعض الآخر يمكن تعيينه من خلال مفاهيمه، فمثلاً: الآيات التي تبيّن بعض الأحكام كتغيير القبلة، وتحريم الخمر، وتشريع الحجاب والزكاة والخمس، أو الآيات التي تتحدث عن الهجرة، فإنّ سِنّي تعيين هذه الأحكام معلومة.

وبتعجب مثير للدهشة نرى أنّ هذه الآيات التي يعلم عام نزولها، قد اجتمعت في نفس الأعمدة التي فرضت أنّها أخذت حسب الطول في هذا الجدول. «فتدبر جيداً».

والأعجب هو ملاحظة بعض الاستثناءات في موردين أو ثلاثة، بمعنى أنّ سورة المائدة مثلاً آخر السور الكبار النّازلة، في حين أنّ عدّة آيات منها يجب أن تكون حسب المعادلة - قد نزلت في السنين الأُولى! وبعد التحقيق في متون التفاسير والرّوايات

الإسلامية وأقوال المفسّرين المعتبرين، لوحظ أنّهم قالوا: إنّ هذه الآيات القليلة نزلت في البداية، لكن وضعت في سورة المائدة حسب أمر النّبي ﷺ، وبهذه الطريقة يمكن تعيين سنة نزول كل آية حسب هذا الحساب الرياضي، وكتابة القرآن حسب سنة النزول أيضاً.

أي أديب وبليغ في العالم يستطيع أن يعين سنة كتابة كل جملة من خلال طول العبارة؟ خاصّة وأنّه ليس نصاً كتابياً كأي أثر علمي أو أدبي جلس كاتبه مدّة معينة وكتبه وليس كتاباً ألفه كاتبه في موضوع ما، بل يحتوي على مسائل مختلفة نزلت بالتدريج حسب احتياج المجتمع، أو هي جواب لمسائل مطروحة من الحوادث والمسائل طُرحت على مدى مسيرة الدعوة وإبلاغ الرسالة، وقد بيّنت من قبل القائد، ثمّ جمعت ونظمت.

بل إنّ موسيقى ولحن لغات وكلمات القرآن الخاصّة - أيضاً - معجزة نادرة في نوعها كما ذكر ذلك بعض المفسّرين، وقد ذكروا شواهد مختلفة جميلة على هذا الموضوع، ومن جملتها الحادثة أدناه التي وقعت لسيد قطب المفسّر المعروف:

يقول في ذيل الآية محل البحث:

«ولن أذكر نماذج ممّا وقع لغيري ولكنّي أذكر حادثاً وقع لي وكان معي شهود ستة، وذلك منذ حوالي خمسة عشر عاماً.. كنّا ستة نفر من المنتسبين إلى الإسلام على ظهر سفينة مصرية تمخر بنا عباب المحيط الأطلسي إلى نيويورك، من بين عشرين ومائة راكب وراكبة أجانب ليس فيهم مسلم... وخطر لنا أن نقيم صلاة الجمعة في المحيط على ظهر السفينة! والله يعلم - أنه لم يكن هدفنا أن نقيم الصلاة ذاتها أكثر ممّا كان هدفنا هو حماسة دينية إزاء مبشّر كان يزاول عمله على ظهر السفينة، حاول أن يزاول تبشيره معنا!... وقد يسر لنا قائد السفينة - وكان إنجليزياً - أن نقيم صلاتنا، وسمح لبحارة السفينة طهاتها وخدمها - وكلّهم نوبيون مسلمون - أن يصلي منهم معنا من لا يكون في «الخدمة» وقت الصلاة! وقد فرحوا بهذا فرحاً شديداً، إذ كانت المرّة الأُولى التي تُقام فيها صلاة الجمعة على ظهر السفينة... وقمت بخطبة الجمعة وإمامة الصلاة، والركاب الأجانب - معظمهم - متحلقون يرقبون صلاتنا!... وبعد الصلاة جاءنا كثيرون منهم يهنئوننا على نجاح «القدّاس»!!! فقد كان هذا أقصى ما يفهمونه من صلاتنا! ولكن سيدة من هذا الحشد - عرفنا فيما بعد أنّها يوغسلافية مسيحية هاربة من جحيم «تيتو» وشيوعيته! - كانت شديدة التأثر والانفعال، تفيض عيناها بالدمع ولا

تتمالك مشاعرها، جاءت تشدّ على أيدينا بحرارة؛ وتقول: - في إنجليزية ضعيفة - إنّها لا تملك نفسها من التأثر العميق بصلاتنا هذه وما فيها من خشوع ونظام وروح!... وليس هذا موضع الشاهد في القصّة.. ولكن ذلك ما في قولها: أي لغة هذه التي كان يتحدث بها «قسيسكم»! فالمسكينة لا تتصور أن يقيم «الصلاة» إلاّ قسيس - أو رجل الدين - كما هو الحال عندها في مسيحية الكنيسة! وقد صححنا لها هذا الفهم!. وأجبناها... فقالت: إنّ اللغة التي يتحدث بها ذات إيقاع موسيقي عجيب، وإن كنت لم أفهم منها حرفاً.. ثمّ كانت المفاجأة الحقيقية لنا وهي تقول: ولكن هذا ليس الموضوع الذي أُريد أن أسأل عنه... إنّ الموضوع الذي لفت حسي، هو أنّ «الإمام» كانت ترد في أثناء كلامه - بهذه اللغة الموسيقية - فقرات من نوع آخر غير بقية كلامه! نوع أكثر موسيقية كما لو كان - الإمام - مملوءاً من الروح القدس! - حسب تعبيرها المستمد من مسيحيتها!

تفكرنا قليلاً، ثمّ أدركنا أنها تعني الآيات القرآنية التي وردت في أثناء خطبة الجمعة وفي أثناء الصلاة! وكانت - مع ذلك - مفاجأة تدعو إلى الدهشة، من سيدة لا تفهم ممّا نقول شيئاً!(١).

وفي الآية التالية إشارة إلى واحدة من العلل الأساسية لمخالفة المشركين، فتقول: إنّ هؤلاء لم ينكروا القرآن بسبب الإشكالات والإيرادات، بل إنّ تكذيبهم وإنكارهم إنّما كان بسبب عدم اطلاعهم وعلمهم به: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ﴾.

في الواقع، إنّ سبب إنكارهم هو جهلهم وعدم اطلاعهم، لكن المفسّرين احتملوا احتمالات متعددة فيما هو المقصود من هذه الجملة وأنّ الجهل بأي الأُمور كان، وكل تلك الاحتمالات يمكن أن تكون مقصودة من الجملة:

الجهل بالمعارف الدينية والمبدأ والمعاد، كما ينقل القرآن قول المشركين في شأن المعبود الحقيقي (الله)، حيث كانوا يقولون: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾(٢). أو أنّهم كانوا يقولون في مسألة المعاد: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾(٣)، ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌ﴾(٤).

(١) تفسير في ظلال القرآن، ج ٤، ص ٤٢٢.
(٢) سورة ص، الآية: ٥.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٩٧.
(٤) سورة سبأ، الآيتان: ٧، ٨.

في الحقيقة لم يكن لهؤلاء أي دليل على نفي المبدأ والمعاد، وكان الجهل والتخلف الناشيء من الخرافات والتعود على مذهب الأجداد هو السدُّ الوحيد في طريقهم.

أو الجهل بأسرار الأحكام.

أو الجهل بمفهوم بعض الآيات المتشابهة.

أو الجهل بمعنى الحروف المقطعة.

أو الجهل بالدروس والعبر التي هي الهدف النهائي من ذكر تاريخ الماضين.

إنّ مجموع هذه الجهالات والضلالات كانت تحملهم على الإنكار والتكذيب، في حين أن تأويل وتفسير وتحقق المسائل المجهولة بالنسبة لهؤلاء لم يبيّن بعد ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾.

«التأويل» في أصل اللغة بمعنى إرجاع الشيء وعلى هذا فإنّ كل عمل أو قول يصل إلى هدفه النهائي نقول عنه: إن تأويله قد حان وقته، ولهذا يطلق على بيان الهدف الأصلي من إقدام معين، أو التّفسير الواقعي لكلمة ما، أو تفسير وإعطاء نتيجة الرؤيا، أو تحقق فرضية في أرض الواقع، اسم التأويل. وقد تحدثنا بصورة مفصلة حول هذا الموضوع في المجلد الثّاني ذيل الآية ٧ من سورة آل عمران.

ثمّ يضيف القرآن مبيناً أن هذا المنهج الزائف لاينحصر بمشركي عصر الجاهلية، بل إنّ الأقوام السابقين كانوا مبتلين أيضاً بهذه المسألة، فإنّهم كانوا يكذبون الحقائق وينكرونها دون السعي لمعرفة الواقع، أو انتظار تحققه: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾. وقد مرّت الإشارة أيضاً في الآيتين (١١٣) و(١١٨) من سورة البقرة إلى وضع الأمم السابقة من هذه الناحية.

الواقع، إنّ عذر هؤلاء جميعاً كان جهلهم ورغبتهم عن التحقيق والبحث في الحقائق الواقعية، في حين أن العقل والمنطق يحكمان بأنّه لا ينبغي للإنسان إنكار ما يجهله مطلقاً، بل يبدأ بالبحث والتحقيق.

وفي النهاية وجهت الآية الخطاب إلى النّبي ﷺ وقالت: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي إنّ هؤلاء سيلاقون أيضاً نفس المصير.

وأشارت الآية الأخيرة من آيات البحث إلى فئتين عظيمتين من المشركين، فتقول: إنّ هؤلاء لايبقون جميعاً على هذا الحال، بل إنّ جماعة منهم لم تخمد فيهم روح البحث عن

الحق وطلبه وسيؤمنون بالقرآن في النهاية. في حين أن الفئة الأُخرى ستبقى في عنادها وإصرارها وجهلها، وسوف لا تؤمن أبداً: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦٓ﴾.

ومن الواضح أنّ أفراد الفئة الثّانية فاسدون ومفسدون، ولذلك قالت الآية في النهاية: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ وهي إشارة إلى أنّ الذين لا يذعنون للحق، هم أفراد يسعون لحل عرى المجتمع، ولهم دور مهم في إفساده.

الجهل والإنكار

كما يستفاد من الآيات أعلاه أنّ قسماً مهمّاً من مخالفة الحق ومحاربته تنبع عادة من الجهل، ولهذا السبب قالوا: عاقبة الجهل الكفر!

إنّ أوّل مهمّة تقع على عاتق كل إنسان يطلب الحق أن يتريث في مقابل ما يجهل، ويتحرك صوب البحث ثمّ تحقيق كل جوانب المطلب الذي يجهله، وما لم يحصل على الدليل القاطع على بطلانه فلا ينبغي له رفضه، كما أنّه لا ينبغي له قبوله والاعتقاد به إذا لم يحصل لديه دليل قاطع على صحته، نقل العلاّمة الطبرسي في مجمع البيان حديثاً رائعاً عن الإمام الصادق عليه السلام في هذا الباب، حيث يقول: «إنّ الله خص هذه الأُمّة بآيتين من كتابه: أن لا يقولوا إلاّ ما يعلمون، وأن لا يردوا ما لا يعلمون، ثمّ قرأ: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾[(١)]، وقرأ: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ﴾[(٢)].

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُواْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٦٩.

(٢) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية ٣٩ من سورة يونس؛ وأصول الكافي، ج ١، ص ٤٣.

التّفسير

العُمي والصُمّ

تتابع هذه الآيات البحث الذي مرّ في الآيات السابقة حول إنكار وتكذيب المشركين، وإصرارهم على ذلك، فقد علّمت الآية الأولى النّبي ﷺ طريقة جديدة في المواجهة، فقالت: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

إنّ لإعلان الترفع وعدم الاهتمام هذا، والمقترن بالاعتماد والإيمان القاطع بالمذهب، أثراً نفسياً خاصاً، وبالذات على المنكرين المعاندين، فهو يفهمهم بعدم وجود أي إجبار وإصرار على قبولهم الدعوة الإسلامية، بل إنّهم بعدم تسليمهم أمام الحق سيحرمون أنفسهم، ولا يضرون إلاّ أنفسهم.

وقد ورد نظير هذا التعبير في آيات أُخرى من القرآن، كما نقرأ في سورة الكافرون: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[1].

ومن هذا البيان يتّضح أن محتوى مثل هذه الآيات لا ينافي مطلقاً الأمر بالتبليغ أو الجهاد في مقابل المشركين كيما تعتبر مثل هذه الآيات منسوخة، بل إنّ هذا نوع من المواجهة المنطقية عن طريق عدم الاكتراث لهؤلاء الأشخاص المعاندين.

وتشير الآيتان التاليتان إلى سبب انحراف هؤلاء وعدم إذعانهم للحق، وتبيّن أنّ التعليمات الصحيحة، والآيات المعجزة التي تهزّ الوجدان والدلالات الأُخرى الواضحة لا تكفي بمفردها لهداية الإنسان، بل إنّ استعداد التقبل ولياقة قبول الحق لازمة أيضاً، كما أنّ البذر لوحده ليس كافياً لإنبات النبات والأوراد، بل إنّ الأرض بدورها يجب أن تكون مستعدة. ولهذا قالت الآية: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ[2] إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

وهناك فئة ثانية يشخصون بأبصارهم إليك، وينظرون إلى أعمالك المتضمنة أحقيتك وصدق قولك، إلاّ أنّهم عمي لا يبصرون: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ[3] أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

(١) سورة الكافرون، الآية: ٦.
(٢) في الحقيقة هناك جملة مقدرة في هذه الآية تقديرها: «كأنّهم صُمّ لا يستمعون».
(٣) هنا أيضاً جملة مقدرة هي: «كأنّهم عمي لايبصرون».

ولكن اعلم وليعلم هؤلاء أنّ قصور الفكر هذا، وعدم البصيرة والعمى عن رؤية وجه الحق، والصمم عن سماع كلام الله ليس شيئاً ذاتياً لهم نشؤوا عليه منذ ولادتهم، وإنّ الله تعالى قد ظلمهم، بل إنّهم هم الذين ظلموا أنفسهم بأعمالهم السيئة وعدائهم وعصيانهم للحق، وعطلوا بذلك عين بصيرتهم وأذن أفئدتهم عن سماع الحق واتّباعه، فـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾.

ملاحظتان:

وهنا ينبغي الالتفات لملاحظتين:

١ - ما نقرؤه في الآية الثّانية من أنّهم يستمعون إليك، وفي الآية الثّالثة من أنّهم ينظرون إليك، إشارة إلى أنّ جماعة من هؤلاء يسمعون هذا الكلام المعجز، وجماعة أُخرى ينظرون إلى معجزاتك التي تدل كلها بوضوح على صدق كلامك وأحقّية دعوتك، إلاّ أنّ أحداً من هاتين الفئتين لم ينتفع من استماعه أو نظره، لأنّ نظرهم لم يكن نظر فهم وإدراك، بل نظر انتقاد وتتبع عثرات ومخالفة.

وكذلك لايستفيدون من استماعهم، لأنّهم لايستمعون لإدراك محتوى الكلام، بل للعثور على ثغرات فيه لتكذيبه وإنكاره، ومن المعلوم أنّ نيّة الإنسان ترسم شكل العمل وتغيّر من آثاره.

٢ - جاءت في آخر الآية الثّانية جملة: ﴿وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ وفي آخر الآية الثّالثة جملة: ﴿وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ وهي إشارة إلى أنّ الاستماع - أي إدراك الألفاظ - ليس كافياً بمفرده، بل إنّ التفكر والتدبر فيها لازم أيضاً لينتفع الإنسان من محتواها، وكذلك لا أثر للنظر بمفرده، بل إنّ البصيرة - وهي إدراك مفهوم ما يبصره الإنسان - لازمة أيضاً ليصل إلى عمقها ويهتدي.

﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ
كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ
فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولٞۖ فَإِذَا
جَآءَ رَسُولُهُمۡ قُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾

التّفسير

بعد بيان بعض صفات المشركين في الآيات السابقة، أُشير هنا إلى وضعهم المؤلم في القيامة. تقول الآية: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْۚ﴾.

الإحساس بقلة مقدار الإقامة في دار الدنيا وقصره، إمّا لأنّه بالنسبة للحياة الأُخروية لايبلغ سوى ساعة واحدة، أو لأنّ هذه الدنيا الفانية انقضت بسرعة بحيث كأنّها لم تكن أكثر من ساعة، أو لأنّهم لما لم يستفيدوا من عمرهم الاستفادة الصحيحة، فيتصورون أنّها لا تساوي أكثر من قيمة ساعة!.

بناءً على ما قلناه في التّفسير أعلاه، فإنّ جملة: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْۚ﴾ إشارة إلى مقدار بقائهم في الدنيا، أي إنّهم يحسون أنّ أعمارهم كانت قصيرة إلى الحد الذي يكفي لالتقاء شخصين وتعارفهما ثمّ تفرقهما!.

وقد احتمل أيضاً - في تفسير هذه الآية - أنّ المقصود هو الإحساس بقصر الزمان بالنسبة لحياة البرزخ، أي إنّ هؤلاء يعيشون في فترة البرزخ حالة شبيهة بالنوم بحيث لايشعرون بمرور السنين والقرون والأعصار، ويظنون في القيامة أنّ مرحلة برزخهم التي استغرفت آلاف أو عشرات الآلاف من السنين، لم تكن إلاّ ساعة، والشاهد على هذا التّفسير الآيتان (٥٥) و(٥٦) من سورة الروم، اللتان تقولان: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

يستفاد من هاتين الآيتين أنّ مجموعة من المجرمين يُقسمون في القيامة أنّ فترة برزخهم لم تكن أكثر من ساعة، إلاّ أنّ المؤمنين يقولون لهم: إنّ المدّة كانت طويلة، والآن قد قامت القيامة وأنتم لاتعلمون، ونحن نعلم أن البرزخ ليس متساوياً بالنسبة للجميع، وسنذكر تفصيل ذلك في ذيل الآيات المناسبة.

وبناءً على هذا التّفسير، فإنّ معنى جملة ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْۚ﴾ سيكون: إنّ هؤلاء يحسّون بأنّ زمان البرزخ كان قصيراً بحيث إنّهم لم ينسوا أي أمر من أُمور الدنيا، ويعرف بعضهم البعض الآخر جيداً، أو أنّ كلاً منهم يرى أعمال الآخرين القبيحة هناك، ويطّلع كل منهم على باطن الآخر، وهذا بحدّ ذاته فضيحة كبرى بالنسبة لهؤلاء.

ثمّ تضيف الآية أنّه سيثبت لكل هؤلاء في ذلك اليوم: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ

اللَّهِ﴾ وأنفقوا كل ملكاتهم وطاقاتهم الحيوية دون جدوى ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ بسبب هذا التكذيب والإنكار والإصرار على الذنب، ولأنّ قلوبهم وأرواحهم كانت مظلمة.

وتقول الآية التالية تهديداً للكفّار، وتسلية لخاطر النبي ﷺ: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾.

وتبيّن الآية الأخيرة من الآيات مورد البحث قانوناً كلياً في شأن كل الأنبياء، ومن جملتهم نبيّ الإسلام ﷺ، وكل الأمم ومن جملتها الأمّة التي كانت تحيا في عصر النبي ﷺ، فتقول: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ﴾ فإذا جاء رسولها وبلغ رسالته، وآمن قسم منهم وكفر آخرون، فإنّ الله سبحانه يقضي بينهم بعدله، ولا يظلم ربّك أحداً، فيبقى المؤمنون والصالحون يتمتعون بالحياة، أمّا الكافرون فمصيرهم الفناء أو الهزيمة: ﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

وهذا ما حصل لنبي الإسلام ﷺ وأمته المعاصرة له، فإنّ أعداءه هلكوا في الحروب، أو انهزموا في النهاية وطردوا من ساحة المجتمع وأخذ المؤمنون زمام الأُمور بأيديهم، وبناء على هذا فإنّ القضاء والحكم الذي ورد في هذه الآية هو القضاء التكويني في هذه الدنيا، وأمّا ما احتمله بعض المفسّرين من أنّه إشارة إلى حكم الله يوم القيامة، فهو خلاف الظاهر.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾

التّفسير

العذاب الإلهي واختيارات الرّسول

بعد التهديدات التي ذُكرت في الآيات السابقة المتعلقة بعذاب وعقاب منكري الحق،

فإنّ هذه الآيات تنقل أوّلاً استهزاء هؤلاء بالعذاب الإلهي وسخريتهم وإنكارهم. فتقول: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾؟.

هذا الكلام كان كلام مشركي عصر النّبي ﷺ حتماً، لأنّ الآيات التالية التي تتضمن جواب النّبي ﷺ شاهدة على هذا المطلب.

على كل حال، فإنّ هؤلاء أرادوا بهذه الكلمات أن يظهروا عدم اهتمامهم بتهديدات النّبي ﷺ من جهة، وتقوية قلوب الذين خافوا من هذه التهديدات وتهدئة خواطرهم ليرجعوا إلى صفوفهم.

وفي مقابل هذا السؤال، فإنّ الله سبحانه أمر نبيّه ﷺ أن يجيبهم بعدّة طرق:

فيقول أوّلاً: ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ فإنّي لست إلاّ رسوله ونبيّه، وإنّ تعيين موعد نزول العذاب بيده فقط، وإذا كنت لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً، فمن باب الأُولى أن لا أملكهما لكم.

إنّ هذه الجملة في الحقيقة إشارة إلى توحيد الأفعال حيث يرتبط كل شيء في هذا العالم بالله سبحانه، وكل الحركات والأفعال معلولة لإرادته ومشيئته، فهو الذي ينصر المؤمنين بحكمته، وهو الذي يجازي المنحرفين بعدالته.

من البديهي أنّ ذلك لا ينافي أنّ الله قد أعطانا قوى وطاقات نملك بواسطتها جلب النفع ودفع الضرر، ونستطيع أن نختار ما يتعلق بمصيرنا، وبتعبير آخر فإنّ هذه الآية تنفي الملكية بالذات لا بالغير، وجملة ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ قرينة واضحة على هذا الموضوع.

ومن هنا يُعلم أنّ استدلال بعض المتعصبين - ككاتب تفسير المنار - بهذه الآية على نفي جواز التوسل بالنّبي ﷺ ضعيف جدّاً، لأنّه إذا كان المقصود من التوسل أن نعتبر النّبي ﷺ ذا قدرة ذاتية ومالكاً للنفع والضر، فإنّ هذا شرك قطعاً، ولا يمكن أن يؤمن بهذا أي مسلم، أمّا إذا كانت هذه الملكية من الله سبحانه وهي داخلة تحت عنوان: إلاّ ما شاء الله، فما المانع من ذلك؟ وهذا هو عين الإيمان والتوحيد، إلاّ أنّه نتيجة الغفلة عن هذه النكتة أتلف وقته ووقت قُرّاء تفسيره بالبحوث الطويلة، وهو مع الأسف (رغم كل الامتيازات الموجودة في تفسيره) قد ارتكب كثيراً من هذه الأخطاء، والتي يمكن اعتبار التعصب منبعها جميعاً!

ثمّ يتطرق القرآن إلى جواب آخر ويقول: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ وبتعبير آخر فإنّ أي أُمّة إذا انحرفت عن مسير الحق، فسوف لن تكون

مصونة من العذاب الإلهي الذي هو نتيجة أعمالها، فعندما ينحرف الناس عن قوانين الخلقة والطبيعة فسيبدّدون طاقاتهم وملكاتهم في فراغ ويسقطون في النهاية في هاوية الانحطاط ويحتفظ تاريخ العالم في ذاكرته بنماذج كثيرة من ذلك.

في الواقع إنّ القرآن الكريم يحذر المشركين الذين كانوا يتعجلون العذاب الإلهي بأن لا يعجلوا، فعندما يحل موعدهم فإنّ هذا العذاب سوف لن يتأخر أو يتقدم لحظة.

ويجب الالتفات إلى أنّ الساعة قد تعني أحياناً لحظة، وأحياناً المقدار القليل من الزمن، بالرغم من أنّ معناها المعروف اليوم هو الأربع والعشرون ساعة التي تشكل الليل والنهار.

وتطرح الآية الأُخرى الجواب الثالث، فتقول: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا﴾ فهل تستطيعون أن تدفعوا عن أنفسكم هذا العذاب المفاجىء غير المرتقب؟ وإذا كان الحال كذلك ف ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾؟

وبتعبير آخر، فإنّ هؤلاء المجرمين الجريئين إن لم يتيقّنوا نزول العذاب فليحتملوا على الأقل أن يأتيهم فجأة، فما الذي يضمن لهؤلاء أنّ تهديدات النّبي ﷺ سوف لن تقع أبداً؟ إنّ الإنسان العاقل يجب أن يراعي الاحتياط على الأقل في مقابل مثل هذا الضرر المحتمل ويكون منه على حذر.

وورد نظير هذا المعنى في آيات أُخرى من القرآن، وبتعبيرات أُخرى، مثل: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا﴾ سورة الإسراء، الآية (٦٨). وهذا هو الذي يعبر عنه في علم الكلام والأُصول بقاعدة «لزوم دفع الضرر المحتمل»[(١)].

وفي الآية التالية ورد جواب رابع لهؤلاء، فهي تقول: إذا كنتم تفكرون أن تؤمنوا حين نزول العذاب، وأنّ إيمانكم سيقبل منكم، فإنّ ظنّكم هذا باطل لا صحّة له: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾، لأنّ أبواب التوبة ستغلق بوجوهكم بعد نزول العذاب، وليس للإيمان حينئذ أدنى أثر، بل يقال لكم: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾.

---

(١) يتّضح ممّا قلناه أعلاه، أنّ الآية المذكورة تشتمل على قضية شرطية، ذكر شرطها، إلاّ أنّ جزاءها مقدر، وجملة: ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ جملة مستقلة، وتقدير الآية هكذا: أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتاً أو نهاراً كنتم تقدرون على دفعه أو تعدونه أمراً محالاً فإذا كان الأمر كذلك ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾. وما احتمله البعض من أنّ جملة: ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ...﴾ هي جزاء الشرط بعيداً جداً. دققوا ذلك.

هذا بالنسبة لعقاب هؤلاء الدنيوي، وفي الآخرة: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾، فإنّ أعمالكم في الواقع هي التي أخذت بأطرافكم، وهي التي تتجسد أمامكم وتؤذيكم على الدوام.

ملاحظات:

١ - كما قلنا في ذيل الآية (٣٤) من سورة الأعراف، فإنّ بعض أهل البدع والأديان المختلقة في عصرنا استدلوا بآيات مثل: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ التي وردت مرّتين في القرآن، على نفي خاتمية نبيّ الإسلام ﷺ، وتوصلوا إلى أن كل دين ومذهب ينتهي في النهاية ويخلي مكانه لمذهب آخر، في حين أن الأُمّة تعني القوم والجماعة لا المذهب.

إنّ هدف هذه الآيات هو أنّ قانون الحياة والموت لا يختص بالأفراد، بل إنّه يشمل الأقوام والأمم أيضاً، فإذا سلكوا طريق الظلم والفساد فإنّهم سينقرضون لا محالة، خاصّة إذا لاحظنا في هذا البحث الآية التي قبلها والتي بعدها، فستثبت هذه الحقيقة بوضوح، وهي أنّ الكلام ليس عن نسخ المذهب، بل عن نزول العذاب وفناء قوم أو أُمّة، لأنّ الآية السابقة واللاحقة تتحدثان عن نزول العذاب والعقاب الدنيوي.

٢ - إذا لاحظنا الآيات أعلاه سيأتي هذا السؤال، وهو: هل ستبتلي المجتمعات الإسلامية أيضاً بهذا العقاب والعذاب في هذا العالم؟

والجواب عن هذا السؤال بالإيجاب، إذ لا دليل لدينا على أنّ هذه الأُمّة مستثناة، بل إنّ هذا القانون في حق كل الأُمم والملل، وما قرأناه في بعض آيات القرآن - الأنفال / ٣٣ - من أنّ الله سبحانه سوف لا يعذب هذه الأُمّة، فهو مشروط بواحد من شرطين: إمّا وجود النّبي ﷺ بين أُولئك، أو الاستغفار والتوبة من الذنوب، لا أنّه بدون قيد أو شرط.

٣ - تؤكّد الآيات أعلاه مرّة أُخرى على هذه الحقيقة، وهي أنّ أبواب التوبة تغلق حين نزول العذاب فلا ينفع الندم حينئذ، وسبب ذلك واضح، لأنّ التوبة في مثل هذه الأحوال تكون عن إكراه وإجبار، ومثل هذه التوبة لاقيمة لها.

﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۝٥٣ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٥٤ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ

وَٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾

التّفسير

لا معنى للشك في العذاب الإلهي

كان البحث في الآيات السابقة عن جزاء وعقاب المجرمين في هذه الدنيا والعالم الآخر، وتكمل هذه الآيات هذا البحث أيضاً.

فالآية الأُولى تقول: إنّ هؤلاء يسألونك بتعجب واستفهام عن حقيقة هذا الوعيد بالعذاب الإلهي في هذا العالم والعالم الآخر: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ﴾ ومن المعلوم أنّ «الحق» هنا ليس في مقابل الباطل، بل المراد منه هو: هل أنّ لهذه العقوبة حقيقة وواقعاً وأنّها ستتحقق؟ لأنّ الحق والتحقق مشتقان من مادة واحدة، ومن البديهي أنّ الحق في مقابل الباطل بهذا المعنى الواسع سيشمل كل واقع موجود، وستكون النقطة المقابلة له كل معدوم وباطل.

ويأمر الله سبحانه نبيّه أن يجيبهم على هذا السؤال بما أوتي من التأكيد: ﴿قُلْ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّۖ﴾ وإذا ظننتم أنّكم تستطيعون أن تفلتوا من قبضة العقاب الإلهي فأنتم على خطأ كبير: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾.

الواقع إنّ هذه الجملة مع الجملة السابقة من قبيل بيان المقتضي والمانع، ففي الجملة الأُولى يقول: إنّ عذاب المجرمين امر واقعي، ويضيف في الجملة الثّانية أنّ أية قدرة لاتستطيع أن تقف أمامه، تماماً كالآيتين ٧ - ٨ من سورة الطور: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾﴾.

إنّ التأكيدات التي تلاحظ في الآية تستحق الإنتباه، فمن جهة القسم، ومن جهة أُخرى إنّ ولام التأكيد، ومن جهة ثالثة جملة ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ وكل هذه تؤكّد على أنّ العقاب الإلهي حتمي عند ارتكاب الكبائر.

وتؤكّد الآية الأُخرى على عظمة هذه العقوبة، وخاصّة في القيامة، فتقول: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦۗ﴾[1]. في الواقع، إنّ هؤلاء مستعدون لأن يدفعوا

(١) في الواقع، إن في الجملة أعلاه جملة مقدرة، وهي: (من هول القيامة والعذاب).

أكبر رشوة يمكن تصورها من أجل الخلاص من قبضة العذاب الإلهي، لكن لا أحد يقبل من هؤلاء شيئاً، ولا ينقص من عذابهم مقدار رأس إبرة، خاصّة وأنّ لبعض هذه العقوبات صبغة معنوية، وهي أنّهم: يرون العذاب والفضيحة في مقابل اتباعهم ممّا يوجب لهم إظهار الندم مزيداً من الخزي والعذاب النفسي فلذلك يحاولون عدم إبراز الندم: ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾.

ثمّ تؤكّد الآية على أنّه بالرغم من كل ذلك، فإنّ الحكم بين هؤلاء يجري بالعدل، ولا يظلم أحد منهم: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾. إنّ هذه الجملة تأكيد على طريقة القرآن دائماً في مسألة العقوبة والعدالة، لأنّ تأكيدات الآية السابقة في عقاب المذنبين يمكن أن توجد لدى الأفراد الغافلين تَوَهُّمَ أَنَّ المسألة مسألة انتقام، ولذا فإنّ القرآن يقول أوّلاً إنّ الحكم بين هؤلاء يجري بالقسط، ثمّ يؤكّد على أنّ أي أحد من هؤلاء سوف لايظلم.

ثم، ومن أجل أن لا يأخذ الناس هذه الوعود والتهديدات الإلهيّة مأخذ الهزل، ولكي لايظنوا أنّ الله عاجز عن تنفيذ هذه الوعود، تضيف الآية: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لأنّ جهلهم قد حجب بصيرتهم وجعل عليها غشاوة فلم يعوا الحقيقة.

وتؤكّد آخر آية على هذه المسألة الحياتية مرّة أُخرى، حيث تقول: ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ وبناء على ذلك فإنّ له القدرة على إماتة العباد، كما أنّ له القدرة على إحيائهم لمحكمة الآخرة، وفي النهاية: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وستلاقون جزاء كل أعمالكم هناك.

ملاحظتان:

١ - من جملة الأسئلة التي تُطرح في مورد الآيات أعلاه: هل أنّ لسؤال المشركين عن واقعية العقاب الإلهي صفة الاستهزاء، أم أنّه كان سؤالا حقيقياً؟

ذهب البعض إلى أنّ السؤال الحقيقي علامة الشك، وهو لا يناسب وضع المشركين، إلاّ أنّه بملاحظة أنّ كثيراً من المشركين كانوا في حالة تردد، وجماعة منهم أيضاً كانوا على علم بأحقيّة النبي ﷺ، وقد وقفوا ضده نتيجة التعصب والعناد وأمثال ذلك، فسيبدو واضحاً أن كون سؤال هؤلاء حقيقياً ليس بعيداً أبداً.

٢ - إنّ حقيقة الندامة هي الندم على ارتكاب عمل اتّضحت آثاره السلبية سواء

استطاع الإنسان أن يجبر ذلك أم لا، وندم المجرمين في القيامة من النوع الثّاني، وإنّما كتموه لأنّ إظهاره سيزيد من فضيحتهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾

التّفسير

القرآن رحمة إلهية كبرى

لقد جاءت في بعض الآيات السابقة بحوث في شأن القرآن عكست جوانب من مخالفات المشركين. وفي هذه الآيات تجدد الكلام عن القرآن بهذه المناسبة أيضاً، ففي البداية تخاطب جميع البشرية خطاباً عالمياً وشمولياً وتقول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

لقد بيّنت هذه الآية أربع صفات للقرآن، ولإدراك مدلولاتها ومحتواها لابدّ أن نعتمد أوّلا على لغاتها ومعناها.

«الوعظ» و«الموعظة»، كما جاء في المفردات: هو النهي الممتزج بالتهديد، إنّ معنى الموعظة أوسع من هذا ظاهراً، كما نقل عن الخليل بن أحمد الفراهيدي في نفس كتاب المفردات، أنّ الموعظة عبارة عن التذكير بالنعم والطيبات المقترن برقة القلب، وفي الحقيقة فإنّ كل نصح وإرشاد يترك أثراً في المخاطب، ويخوفه من السيئات ويرغّبه في الصالحات يسمى وعظاً وموعظة، وطبعاً ليس معنى هذا أنّ كل موعظة يجب أن يكون لها تأثير، بل المراد أنّها تؤثر في القلوب المستعدة.

والمقصود من شفاء أمراض القلوب، وبتعبير القرآن شفاء ما في الصدور، هي تلك التلوّثات المعنوية والروحية، كالبخل والحقد والحسد والجبن والشرك والنفاق وأمثال ذلك، وكلها من الأمراض الروحية والمعنوية.

والمقصود من «الهداية» هو الهداية نحو المقصود، أي تكامل ورقي الإنسان في كافة الجوانب الإيجابية.

والمراد من «الرحمة» هي النِّعم المادية والمعنوية الإلهيّة التي تشمل حال الأفراد اللائقين، كما نقرأ في كتاب المفردات أنّ الرحمة متى ما نسبت إلى الله فإنّها تعني بذله وهبته للنعم، وإذا ما نسبت إلى البشر فإنّها تعني العطف ورقة القلب.

في الواقع، إنّ الآية أعلاه تشرح وتبيّن أربع مراحل من مراحل تربية وتكامل الإنسان في ظل القرآن.

المرحلة الأُولى: مرحلة الموعظة والنصيحة.

المرحلة الثّانية: مرحلة تطهير روح الإنسان من مختلف أنواع الرذائل الأخلاقية.

المرحلة الثّالثة: مرحلة الهداية التي تجري بعد مرحلة التطهير.

المرحلة الرّابعة: هي المرحلة التي يصل فيها الإنسان إلى أن يكون لائقاً لأن تشمله رحمة الله ونعمته.

وكل مرحلة من هذه المراحل تأتي بعد المرحلة السابقة لها، والجميل في الأمر أنّها تتمّ جميعاً في ظل نور القرآن وتوجيهاته.

القرآن هو الذي يعظ البشر، والقرآن هو الذي يغسل قلوبهم من تبعات الذنوب والصفات القبيحة، والقرآن هو الذي يوقد نور الهداية في القلوب ليضيئها، والقرآن أيضاً هو الذي ينزل النعم الإلهيّة على الفرد والمجتمع.

ويوضح أمير المؤمنين علي عليه السلام في كلامه الجامع في نهج البلاغة هذه الحقيقة بأبلغ تعبير، حيث يقول: «فاستشفوه من أدوائكم، واستعينوا به على لأوائكم، فإنّ فيه شفاء من أكبر الداء، وهو الكفر والنفاق، والغي والضلال»[1].

وهذا بنفسه يبيّن أنّ القرآن وَصْفَة لتحسين حال الفرد والمجتمع، وصيانتهم من أنواع الأمراض الأخلاقية والاجتماعية، وهذه الحقيقة أودعها المسلمون في كف النسيان، وبدل أن يستفيدوا من هذا الدواء الشافي، فإنّهم يبحثون عن دوائهم وعلاجهم في المذاهب الأُخرى، وجعلوا هذا الكتاب السماوي الكبير كتاب قراءة فقط، لا كتاب تفكر وعمل!

وتقول الآية الأُخرى من أجل تكميل هذا البحث والتأكيد على هذه النعمة الإلهيّة الكبرى - أي القرآن المجيد -: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ ولا يفرحوا

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٧٦.

بمقدار الثروات، وعظم المراكز، وعزة القوم والقبيلة، لأنّ رأس المال الحقيقي والأساس للسعادة الحقيقية هو هذا القرآن، فهو أفضل من كل ما جمعوه، ولا يمكن قياسه بذلك المجموع، إذاً ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

ملاحظتان:

١ - هل أنّ القلب هو مركز الإحساسات؟

ظاهر الآية الأُولى من هذه الآيات، كما هو ظاهر بعض آيات أُخرى من القرآن، أنّ مركز الأمراض الأخلاقية هو القلب.

إنّ هذا الكلام يمكن أن يعارضه في البداية هذا الإشكال، وهو أنّنا نعلم أنّ كل الأوصاف الأخلاقية والمسائل الفكرية والعاطفية ترجع إلى روح الإنسان، وليس القلب إلاّ مضخة أتوماتيكية لنقل الدم وتغذية خلايا البدن.

هذا حقّ طبعاً، فإنّ القلب له وظيفة إدارة جسم الإنسان، والمسائل النفسية مرتبطة بروح الإنسان، لكن توجد هنا نكتة دقيقة إذا ما لوحظت سيتّضح رمز هذا التعبير القرآني، وهي أنّ في جسم الإنسان مركزين كل منهما مظهر لبعض الأعمال النفسية للإنسان، أي إنّ كلّاً من هذين المركزين إذا تأثر بالانفعالات النفسية فإنّه سيظهر رد الفعل مباشرة: أحدهما المخ، والآخر القلب.

عندما نبحث المسائل الفكرية في محيط الروح، فإنّ انعكاس ذلك التفكير سيتّضح فوراً في المخ، وبتعبير آخر فإنّ المخ آلة تساعد الروح في مسألة التفكر، ولذلك فإنّ الدم يدور بصورة أسرع في المخ في حالة التفكير، وتتفاعل خلايا المخ بصورة أكبر، وبالتالي سوف تمتص كمية أكبر من الغذاء وترسل أمواجاً أكثر.

أمّا عندما يكون الكلام والبحث حول المسائل العاطفية كالعشق والمحبّة، والتصميم والإرادة والغضب والحقد والحسد، والعفو والصفح، فإنّ نشاطاً عجيباً يبدأ في قلب الإنسان، فأحياناً تشتد ضرباته، وأحياناً تقل إلى الحد الذي يُظن معه أنّه سيتوقف عن العمل، ونشعر أحياناً أن قلبنا يريد أن ينفجر، كل ذلك نتيجة للارتباط الوثيق للقلب مع هذه المسائل.

لهذه الجهة ينسب القرآن المجيد الإيمان إلى القلب، فيقول: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى

قُلُوبِكُمْ﴾(١). ويعبر عن الجهل والعناد وعدم الإذعان للحق بأنّه عمى القلب: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾(٢).

ومن نافلة القول، فإن مثل هذه التعبيرات ليست مختصة بالقرآن، بل تلاحظ في أدب اللغات المختلفة في الأزمنة الغابرة، وتلاحظ اليوم أيضاً مظاهر هذه المسألة بأشكال مختلفة. فغالباً ما نقول للشخص الذي نحترمه ونحبّه: إنّ لك مكاناً في قلوبنا، أو أنّ قلوبنا منشدة إليك، والأُدباء يجسدون هذا المعنى ويجعلون سنبلة العشق نابعة من القلب دائماً.

كل ذلك لأنّ الإنسان يحس دائماً بتأثير خاص في قلبه في حالة العشق والغرام، أو الحقد والحسد، أي إنّ أوّل قدحة في هذه المسائل النفسية عند انتقالها إلى الجسم تتجلّى في القلب.

إضافة إلى كل هذا، فقد أشرنا سابقاً إلى أن أحد معاني القلب في اللغة هو عقل وروح الانسان، ومعنى ذلك أن القلب لاينحصر بهذا العضو الخاص الموجود داخل الصدر، وهذا بنفسه يمكن أن يكون تفسيراً آخر لآيات القلب، لكن لاجميعها، لأنّ بعضها صرّحت بأنّها القلوب التي في الصدور - دققوا ذلك -.

٢ - ما هو الفرق بين الفضل والرحمة؟

هناك بحث مفصّل بين المفسّرين في الفرق بين الفضل والرحمة اللذين أُشير إليهما في الآية الثّانية.

أ - فالبعض اعتبر الفضل الإلهي إلى النعم الظاهرية. والرحمة إشارة إلى النعم الباطنية، وبتعبير آخر إنّ إحداها النعم المادية، والأُخرى النعم المعنوية. وقد جاءت مراراً في آيات القرآن جملة: ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾(٣) أو ﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾(٤) بمعنى تحصيل الرزق والموارد المادية(٥).

ب - وقال البعض الآخر: إنّ الفضل الإلهي بداية النعمة، ورحمته دوام النعمة. وإذا

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٤.
(٢) سورة الحج، الآية: ٤٦.
(٣) سورة الجمعة، الآية: ١٠.
(٤) سورة النّحل، الآية: ١٤.
(٥) تراجع سورة الرّوم، الآية: ٢٣؛ والبقرة، الآية: ١٩٨؛ والإسراء، الآية: ١٢؛ و...

ما لاحظنا أنّ الفضل هو بذل النعمة وهبتها، وأن ذكر الرحمة بعد ذلك يجب أن يكون شيئاً مضافاً على ذلك يتّضح المراد من هذا التّفسير. وما نقرؤه في روايات متعددة من أنّ المراد من الفضل الإلهي هو وجود النّبي ﷺ ونعمة النّبوة، وأنّ المراد من رحمة الله وجود علي عليه السلام ونعمة الولاية ربّما كان إشارة إلى هذا التّفسير، لأنّ النّبي ﷺ كان بداية الإسلام، والإمام علي عليه السلام سبب بقائه واستمراره فأحدهما علّة محدثة وموجدة، والآخر علّة مبقية(١).

واحتمل البعض الآخر أن يكون الفضل إشارة إلى نعم الجنّة، والرحمة إشارة إلى العفو عن الذنب وغفرانه.

ج - ويحتمل أيضاً أن الفضل إشارة إلى نعمة الله العامّة التي تعم العدو والصديق، والرحمة - بملاحظة كلمة ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ التي ذكرت كقيد للرحمة في الآية السابقة - إشارة إلى رحمته الخاصّة بالمؤمنين.

التّفسير الآخر الذي ذكر لهاتين الكلمتين، هو أنّ فضل الله إشارة إلى مسألة الإيمان، والرحمة إشارة إلى القرآن المجيد الذي سبق الكلام عنه في الآية السابقة.

طبعاً، إنّ أغلب هذه المعاني لا تضاد بينها، ويمكن أن تجمع جميعها في المفهوم الجامع للفضل والرحمة.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾

(١) للاطلاع على هذه الرّوايات، راجع تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٣٠٧ - ٣٠٨.

التّفسير

هو الشاهد في كل مكان!

كان الحديث في الآيات السابقة عن القرآن، والموعظة الإلهيّة والهداية والرحمة في هذا الكتاب السماوي، وتتحدث هذه الآيات عن قوانين المشركين المبتدعة والخرافية وأحكامهم الكاذبة، لأنّ الذي يؤمن بالله ويعلم أنّ كل المواهب والأرزاق منه، يجب أن يقبل هذه الحقيقة أيضاً، وهي أنّ بيان حكم هذه المواهب من حيث الحلية والحرمة بيده، وإنّ التدخل في هذا العمل بدون إذنه عمل غير صحيح.

الآية الأُولى وجهت الخطاب إلى النّبي ﷺ وقالت: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾ إذ إنّهم طبقاً لسننهم الخرافية حرموا قسماً من الدواب باسم «السائبة» و«البحيرة» و«الوصيلة»[1]، وكذلك حرّموا جزءاً من محاصيلهم الزراعية، وحرموا أنفسهم من هذه النعم الطاهرة المحلّلة، إضافةً إلى ذلك فإنّ كون الشيء حراماً أو حلالا ليس مرتبطاً بكم، بل هو مختص بأمر الله خالق تلك الموجودات.

ثمّ تقول: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾، أي إنّ لهذا العمل صورتين لا ثالث لهما: فإمّا أن يكون بإذن الله، أو أنّه تهمة وافتراء، ولما كان الاحتمال الأوّل منتفياً، فلم يبق إلاّ الثّاني.

الآن وقد أصبح من المسلم أنّ هؤلاء بهذه الأحكام الخرافية المبتدعة، إضافةً إلى أنّهم حُرموا من النعم الإلهيّة، فإنّهم قد افتروا على الساحة الإلهيّة المقدّسة، ولذلك تضيف الآية: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ ولذلك فإنّه لسعة رحمته لا يعاقب هؤلاء فوراً على أعمالهم القبيحة.

إلاّ أنّ هؤلاء بدل أن يستغلوا هذه الفرصة الإلهيّة ويشكروا الله على ذلك وينيبوا إليه، فإنّ أكثرهم غافلون: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

---

(١) (البحيرة) هي الحيوان الذي يلد عدّة مرّات، و(السائبة) هو البعير الذي أنتج عشرة أو اثني عشر ولداً، و(الوصيلة) كانت تطلق على الغنم إذا ولدت سبعة بطون. ولمزيد التوضيح راجع تفسير الآية (١٠٣) من سورة المائدة.

ويحتمل في تفسير هذه الآية أيضاً، أن كون كل هذه المواهب والأرزاق - عدا الأشياء المضرة والخبيثة المستثناة - محللة هو بنفسه نعمة إلهية كبرى، وإنّ كثيراً من الناس بدل أن يؤدّوا شكر هذه النعمة، فإنّهم يكفرون بها، ويحرمون أنفسهم من هذه النعمة بأحكامهم الخرافية وممنوعاتها.

وحتى لايتصور أحد أنّ هذه المهلة الإلهيّة دليل على عدم إحاطة علم الله سبحانه بكل أعمال هؤلاء، فإنّ آخر آية من آيات البحث تبيّن هذه الحقيقة بأبلغ عبارة وتوضح أنّ الله مطّلع على كل ذرات الموجودات في خفايا السماء والأرض، ومطّلع على دقائق أعمال العباد، فتقول: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾[1].

«الشهود» جمع شاهد، وهو في الأصل بمعنى الحضور المقترن بالمشاهدة بالعين أو القلب أو الفكر، والتعبير بالجمع إشارة إلى أنّ الله سبحانه ليس وحده المراقب لأعمال البشر، بل إنّ الملائكة المطيعين لأمره مطّلعون أيضاً على كل هذه الأعمال وناظرون إليها.

وكما أشرنا سابقاً، فإنّ التعبير بصيغة الجمع في حق الله سبحانه مع أنّ ذاته المقدّسة أوحدية من جميع الجهات، إشارة إلى عظمة مقامه، وأنّ له دائماً مأمورين مطيعين مستعدين لتنفيذ أمره والواقع فإن الكلام ليس عن الله وحده، بل عنه وعن كل هؤلاء المأمورين المطيعين.

ثمّ تعقب الآية على مسألة اطلاع الله على كل شيء بتأكيد أكبر، فتقول: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿يَعْزُبُ﴾ مأخوذة من العزوب، وهو في الأصل بمعنى الابتعاد عن البيت والأهل في سبيل إيجاد وتهيئة المراتع للأغنام والحيوانات، ثمّ استعملت بمعنى الغيبة والاختفاء بصورة مطلقة.

«والذّرة» بمعنى الجسم الصغير جدّاً، ولذلك يقال للنمل الصغير: ذرة، ولمزيد التوضيح راجع تفسير الآية (٤٠) من سورة النساء.

(١) لقد أرجع البعض ضمير ﴿مِنْهُ﴾ إلى الله، أي إنّ الآيات التي تتلوها من الله، إلاّ أنّ الضمير يرجع إلى الشأن أو القرآن ظاهراً، كما قاله كثير من المفسّرين، أي الآيات التي تتلوها في كل عمل مهم، أو الآيات التي تتلوها من القرآن.

«الكتاب المبين» إشارة إلى علم الله الواسع، والذي يعبر عنه أحياناً باللوح المحفوظ، وقد تحدثنا عن هذا الموضوع في تفسير الآية (٥٩) من سورة الأنعام.

ملاحظات:

١ - إنّ الآيات أعلاه قد أثبتت ضمن عبارات قصيرة هذه الحقيقة، وهي أنّ حق التشريع مختص بالله، وكل من يقدم على مثل هذا العمل بدون إذنه وأمره، فإنّه يكون قد افترى على الله، لأنّ كل الهبات والأرزاق تنزل من عنده، وإنّ الله سبحانه هو المالك الأصلي لها في الحقيقة، وبناءً على هذا فإنّ له الحق في أن يجعل بعضها مباحاً والبعض الآخر غير مباح.

ومع أنّ أوامره في هذا المجال تهدف إلى نفع العباد وتكاملهم وليس له أدنى حاجة لهذا العمل، إلاّ أنّه على كل حال هو صاحب الاختيار والتشريع، وقد يرى أنّ من المصلحة إعطاء أحد العباد كالنّبي ﷺ حق هذا العمل في حدود معينة، كما يستفاد من روايات متعددة - أيضاً - أنّ النّبي ﷺ قد حرم بعض الأمور أو أوجبها، والذي عبرت عنه الرّوايات بـ(فرض النّبي)[1]، ومن الطبيعي أنّ كل أوامره ونواهيه في حدود ما خوّله الله سبحانه من الصلاحيات، وحسب أمر الله.

إنّ جملة ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ دليل أيضاً على أن من الممكن أن يجيز الله أحداً بمثل هذه الإجازة.

إنّ هذا البحث مرتبط بمسألة «الولاية التشريعية»، والتي سنبيّنها بصورة أكثر تفصيلاً في محل آخر إن شاء الله تعالى.

٢ - إنّ تعبير الآيات أعلاه عن الرزق بالنزول - مع أنّنا نعلم أنّ المطر هو الوحيد الذي ينزل من السماء - إمّا لأنّ هذه القطرات المباركة تشكّل الأساس لكل الأرزاق، أو لأنّ المراد هو «النزول المقامي» الذي أشرنا إليه سابقاً، ومثل هذا التعبير يلاحظ في المكالمات اليومية، فمثلاً إذا صدر أمر من شخص كبير، أو هبة ما إلى شخص صغير، فيقولون: إنّ هذا الأمر صدر من الأعلى، أو أنّه وصلنا من فوق.

٣ - لقد أثبت علماء الأصول بجملة ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ قاعدة عدم حجية الظن، وقالوا: إنّ هذا التعبير يوضح أنّه لايمكن إثبات أي حكم من الأحكام

---

(١) أصول الكافي، ج ١، ص ٢٦٥.

الإلهيّة بدون القطع واليقين، وإلاّ فإنّه افتراء على الله وحرام. (لنا بحوث في هذا الاستدلال ذكرناها في مباحث علم الأُصول).

٤ - إنّ الآيات أعلاه تعطينا درساً آخر، وهو أنّ التشريع مقابل شريعة الله دين الجاهلية، حيث كانوا يعطون لأنفسهم الحق في وضع الأحكام مع ضيق أفكارهم وضحالتها، ولكن لا يمكن أن يكون المؤمن الحقيقي كذلك مطلقاً، وما نراه في عصرنا الحاضر من أنّ جماعة يتحدثون عن الله والإسلام، وفي الوقت نفسه يمدون يد الاستجداء نحو قوانين الآخرين غير الإسلامية، أو يسمحون لأنفسهم بأن يطرحوا جانباً قوانين الإسلام باعتبارها غير قابلة للتطبيق ويشرّعون بأنفسهم القوانين، فإنّ هؤلاء من أتباع سنن الجاهلية أيضاً.

إنّ الإسلام الواقعي لايقبل التجزئة، فعندما قلنا: إنّنا مسلمون، فيجب أن نعترف بكل قوانينه فما يقال من أنّ قوانين الإسلام غير قابلة بأجمعها للتنفيذ وهمٌ باطل لا أساس له، وهو ناشىء من التغريب وانهيار الشخصية.

طبعاً، إنّ الإسلام - نظراً لشموليته - قد أطلق لنا في بعض المسائل اتخاذ مقررات وقوانين مناسبة مع ذكر الأُصول العامّة حتى نستطيع أن ننظم احتياجات كل عصر وزمان حسب تلك الأصول بالاستشارة والتشاور، ثمّ نضعها في حيز التنفيذ.

٥ - أكّدت الآية الأخيرة حين الإشارة إلى سعة علم الله على ثلاث مسائل وقالت: إنّك لاتكون في حالة نفسية معينة، ولا تتلو أية آية، ولا تقوم بأي عمل إلاّ ونحن شاهدون عليك وناظرون إليك.

إنّ هذه التعبيرات الثلاثة إشارة إلى أفكار وأقوال وأعمال البشر، أي إنّ الله تعالى كما ينظر إلى أعمالنا، فإنّه يسمع كلامنا، وهو مطلع على أفكارنا ونيّاتنا، ولا يخرج عن إحاطة علم الله شيء منها.

ولا شك أنّ النية والحالات الروحية تقع في المرحلة الأُولى، والقول يأتي بعدها، ثمّ يتبعهما العمل والتنفيذ، ولهذا قد ورد نفس الترتيب في الآية.

ثمّ إنّنا نرى أنّ القسم الأوّل والثّاني قد ذُكرا بصيغة المفرد، والخطاب موجه إلى النّبي ﷺ، أمّا القسم الثّالث فإنّه ورد بصيغة الجمع والخطاب موجه لعامّة المسلمين، ويمكن أن يكون ذلك باعتبار أن اتّخاذ القرار في البرامج الإسلامية مرتبط بقائد الأُمّة

وهو النّبي ﷺ، كما أن تلقي آيات القرآن من الله وتلاوتها يتمّ عن طريقه، إلاّ أنّ العمل بهذه البرامج والأوامر متعلق بكل الأُمّة، ولا يستثنى من ذلك أحد.

٦ - لقد بيّنت آخر هذه الآيات درساً كبيراً لكل المسلمين... درس يستطيع أن يسلك بهم طريق الحق ويصرفهم عن الانحرافات والطرق الملتوية... درس فيه صلاح المجتمع مع التوجّه اليه، وهو: إنّنا يجب أن نعي هذه الحقيقة، وهي أنّ كل خطوة نخطوها، وكل كلام نقوله، وكل فكرة تخطر في أذهاننا، ولأي جهة ننظر، وعلى أي حال نكون، فليس الله سبحانه وحده يراقبنا ونحن على هذه الأحوال والأفعال، بل إنّ ملائكته تراقبنا أيضاً، وينظرون إلينا بكل دقة وانتباه.

إنّ أدنى حركة في خفايا السماء والارض لا تخفى على علمه ونظره، بل إنّها تثبت كلّها في ذلك اللوح المحفوظ الذي لا طريق للغلط والاشتباه والاختلاف إليه... في صفحة علم الله اللامتناهي... في فكر الملائكة المقربين وكتّاب أعمال الآدميين... في ملفنا وصحيفة أعمالنا كلنا.

ولم يكن ذلك بدون مبرر وعلة حيث يقول الإمام الصادق ؑ: «كان رسول الله إذا قرأ هذه الآية بكى بكاءً شديداً»[1] ... فإذا كان رسول الله ﷺ مع كل ذلك الإخلاص والعبودية، ومع كل تلك الخدمة للخلق والعبادة للخالق خائفاً من عمله في مقابل علم الله، فإنّ حالنا وحال الآخرين معلوم.

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾

التّفسير

طمأنينة الروح في ظل الإيمان

لما شرحت الآيات السابقة بعضاً من حالات المشركين والأفراد غير المؤمنين، بيّنت

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٥، ص ١١٦، ذيل الآية مورد البحث؛ وتفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٣٠٨.

هذه الآيات حال المؤمنين المخلصين المجاهدين المتقين الذين يقعون في الطرف المقابل لأُولئكَ تماماً، حتى يعرف النور من الظلمة، والسعادة من الشقاء من خلال المقارنة بينهم كما هو شأن القرآن وطريقته دائماً.

تقول الآية أوّلاً: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ومن أجل فهم دقيق لمحتوى هذا الكلام لابدّ أن نعرف معنى الأولياء جيداً.

«الأولياء» جمع ولي، وقد أخذت في الأصل من مادة: ولي، يلي، بمعنى عدم وجود واسطة بين شيئين، وتقاربهما وتتابعهما، ولهذا يطلق على كل شيء له نسبة القرابة والقرب من شيء آخر سواء كان من جهة المكان أو الزمان أو النسب أو المقام، بأنّه ولي، ومن هنا استعملت هذه الكلمة بمعنى الرئيس والصديق وأمثال ذلك.

بناءً على هذا، فإنّ أولياء الله هم الذين لايوجد حاجب وحائل بينهم وبين الله، فقد زالت الحجب عن قلوبهم ويتقلبون في نور المعرفة والإيمان والعمل الخالص، ويرون الله بعيون قلوبهم بحيث لايجد الشك أي طريق إلى تلك القلوب الوالهة، وبالنظر لهذه المعرفة بالله الأزلي والقدرة اللامحدودة والكمال المطلق، فإنّ كل شيء سوى الله حقير في نظرهم ولا قيمة له، وفانٍ لا أهميّة له.

إنّ من يرى المحيط يزهد في القطرة، ومن ينظر الى نور الشمس لا يهتم بنور الشمعة.

ومن هنا يتّضح أنّ هؤلاء لماذا لا يخافون؟ لأنّ الخوف ينشأ عادة من احتمال فقدان النعم التي يمتلكها الإنسان، أو من الأخطار التي يمكن أن تهدده في المستقبل، كما إنّ الغم والهم يرتبط عادة بما يتعلق بالماضي، ويستولي على الإنسان نتيجة فقدانه لإمكانيات وثروات كانت تحت يده.

إنّ أولياء وأحباء الله الحقيقيين متحررون من كل أشكال الارتباط والتعلق بعالم المادة، ويحكم «الزهد» بمعناه الحقيقي وجودهم، فهم لا يجزعون من فقدان الممتلكات المادية ولا يخافون من المستقبل، ولا يشغلون أفكارهم بمثل هذه المسائل. وبناءً على ذلك فإن الغموم والمخاوف التي ترتبط بالماضي والمستقبل، والتي تجعل الآخرين في حال اضطراب وقلق دائم، لا سبيل لها إلى وجود هؤلاء.

إنّ الماء في الإناء الصغير قد يهتز من نفخة إنسان، لكن المحيط الكبير لا يتأثر حتى

بالعاصفة، ولذلك سمّوه المحيط الهادي: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[1]. فلم يكن لهم تعلّق بما كان في أيديهم سابقاً، ولا يصيبهم الغم والحزن في اليوم الذي سيفارقونه، فإنّ روحهم أكبر، وفكرهم أسمى من أن تؤثر فيهم مثل هذه الحوادث في الماضي والمستقبل.

على هذا الأساس فإنّ الأمن والطمأنينة الواقعية هي الحاكمة على وجودهم، وعلى حدّ قول القرآن: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ﴾[2]، وبتعبير آخر: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[3].

والخلاصة هي أنّ الحزن والخوف عند البشر يتولّدان عادة من حبّ الدنيا، فمن الطبيعي أن لايصيب هؤلاء الذين نفضوا ايديهم وقلوبهم من حبها خوف، أو حزن.

كان هذا هو البيان الاستدلالي للمسألة، وقد يعرض هذا الموضوع أحياناً ببيان آخر يتخذ شكلاً عرفانياً بهذه الصورة:

إنّ أولياء الله غارقون في صفات جماله وجلاله، وذائبون في مشاهدة ذاته المقدّسة إلى حدٍّ نسوا كل شيء غيره، ومعلوم أنّ الغمّ والحزن والخوف والوحشة تحتاج حتماً إلى تصور فقدان وخسارة شيء ما، أو مواجهة عدو أو موجود خطر، فمن لم يجعل لغير الله مكاناً في قلبه ولا طريقاً إلى فكره، ولا يقبل في روحه إله غيره، كيف يمكن أن يغتم ويخاف ويستوحش؟

لقد اتّضحت ممّا قلناه هذه الحقيقة أيضاً، وهي أنّ المقصود من الغموم هي الغموم المادية والمخاوف الدنيوية، وإلاّ فإنّ وجود أولياء الله مملوء بالخوف والخشية. . . الخوف من عدم أداء الواجبات والمسؤوليّة. والأسف والحسرة على أن يكون قد فاتهم شيء من الموفقية، ولهذا الخوف والحسرة صفة معنوية، فهما أساس تكامل وجود الإنسان ورقيّه، بعكس الخوف والحزن الدنيويين فهما أساس الانحطاط والتسافل.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته المعروفة مع همام، حيث يجسّد فيها حالات أولياء الله في أرقى وصف: «قلوبهم محزونة، وشرورهم مأمونة»، ثمّ يقول: «ولولا الأجل الذي كتب الله عليهم لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين، شوقاً إلى الثواب، وخوفاً من العقاب»[4].

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٣.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٨٢.
(٣) سورة الرعد، الآية: ٢٨.
(٤) نهج البلاغة، خطبة ١٩٣. صبحي الصالح.

ويقول القرآن المجيد - أيضاً - في شأن المؤمنين: ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ﴾(١). وبناء على ذلك فإنّ لهؤلاء خوفاً آخر.

هناك بحث بين المفسّرين فيمن هم المقصودون من أولياء الله، إلاّ أنّ الآية الثّانية وضحت المطلب وأنهت النقاش، فهي تقول: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾.

الملفت للنظر أنّها ذكرت الإيمان بصيغة الفعل الماضي المطلق، والتقوى بصيغة الماضي الاستمراري، وهذا إشارة إلى أنّ إيمان هؤلاء قد بلغ حدَّ الكمال، إلاّ أنّ التقوى التي تنعكس في العمل اليومي، وتتطلب كل يوم وكل ساعة عملاً جديداً، ولها صفة تدريجية، فإنّها قد ظهرت على هؤلاء بصورة برنامج دائمي ومسؤولية متواصلة.

نعم... إنّ الذين يرتكزون على هذين الركنين الأساسيين: الدين والشخصية، يحسون بدرجة من الطمأنينة داخل أرواحهم بحيث لا تهزهم أية عاصفة من عواصف الحياة، بل يقفون أمامها كالجبل، كما وصفهم الحديث: «المؤمن كالجبل الراسخ لا تحركه العواصف»(٢).

وتؤكّد الآية الثّالثة على مسألة عدم وجود الخوف والغم والوحشة في شخصية وقلوب أولياء الحق بهذه العبارة: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ وعلى هذا فهم ليسوا خالين من الخوف والغم وحسب، بل إنّ البشارة والفرحة والسرور بالنعم الكثيرة والمواهب الإلهيّة اللامحدودة في هذه الدنيا والآخرة من نصيبهم. ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ ينبغي الانتباه إلى أنّ البشرى قد ذكرت مع ألف ولام الجنس بصورة مطلقة، فهي تشمل أنواع البشارات).

ثمّ تضيف من أجل التأكيد أيضاً: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ بل هي ثابتة حقّة، وأنّ الله سبحانه سيفي بما وعد به أولياءه، و﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

وحولت الآية الخطاب إلى النّبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي يمثل رأس سلسلة أولياء الله وأحبائه مخاطبةً له بلحن المواساة وتسلية الخاطر: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ﴾ ولا يمكن أن يقوم العدوّ بعمل مقابل إرادة الحق، فإنّه تعالى عالم بكل خططهم ودسائسهم. فـ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٤٩.

(٢) أصول الكافي، ج ٢، ص ٢٤١؛ وشرح أصول الكافي، للمولى محمد صالح المازندراني، ج ٩، ص١٨١.

بحثان

وهنا بحثان ينبغي التوقف عندهما:

١ - ما هو المراد من البشارة في الآية؟

هناك بحث وجدال بين المفسّرين في المراد من البشارة التي أعطاها الله في الآيات أعلاه لأوليائه في الدنيا والآخرة، فالبعض اعتبرها مختصة بالبشارة التي تقدمها الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار والموت، ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾(١).

والبعض الآخر يعتبرها إشارة إلى وعود الله بالنصر والتغلب على الأعداء، والحكم في الأرض ما داموا مؤمنين وصالحين.

وقد فسّرت هذه البشارة في بعض الرّوايات بأنّها المنامات الجيدة التي يراها المؤمنون.

إلاّ أنّه، وكما قلنا، فإنّ إطلاق هذه الكلمة، وألف لام الجنس في البشرى قد أخفيا فيها مفهوماً واسعاً بحيث إنّها تشمل كل نوع من البشارة وفرحة الانتصار والموفقية، ويندرج فيها كل ما ذكر أعلاه، وفي الواقع فإنّ كلاًّ منها إشارة إلى زاوية من هذه البشارة الإلهيّة الواسعة.

وربّما كان ما فسّرت به البشرى في بعض الرّوايات بأنّها المنامات الحسنة والرؤيا الصالحة إشارة إلى أنّ كل البشارات حتى الصغيرة منها، تدخل أيضاً في مفهوم البشرى، لا أنّها منحصرة بها.

الواقع. وكما قيل سابقاً أيضاً، فإنّ هذا هو الأثر التكويني والطبيعي للإيمان والتقوى حيث تبتعد عن روح الإنسان أشكال الاضطراب والقلق المتولدة من الشك والتردد، وكذلك المتولدة من الذنب والتلوّث والفجور، فكيف يمكن أن يشعر بالراحة والاطمئنان من لا إيمان له، ومن ليس له متكأ معنوي يعتمد عليه في أعماق روحه؟!

إنّه يبقى في سفينة وسط بحر هائج متلاطم الأمواج تقذف به الأمواج العظيمة في كل جانب وصوب وقد فتحت دوامات البحر أفواهها لابتلاعه!!

كيف يمكن أن يهدأ بال ويطمئن خاطر من تلطخت يداه بالظلم والجور وإراقة دماء

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٠.

الناس وغصب أموال وحقوق الآخرين؟ إنّه - وبخلاف المؤمنين - لايتمتع حتى بالنوم الهادىء، وغالباً ما يرى المنامات المرعبة التي يرى نفسه فيها مشتبكاً مع العدوّ، وهذا بنفسه دليل على اضطراب روح هؤلاء.

من الطبيعي أنّ الشخص الجاني - خاصّة إذا كان مطارداً - يرى في عالم الرؤيا أشباحاً مرعبة قد أحكمت الطوق لإلقاء القبض عليه، أو أنّ روح ذلك المقتول المظلوم تصرخ في أعماق ضميره وتعذبه، ولهذا فإنّه عندما يستيقظ يقول كيزيد: ما لي وللحسين[1]؟ أو يقول ما قاله الحجاج: ما لي ولسعيد بن جبير[2]؟!

٢ - الرّوايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام

لقد وردت في تفسير الآيات أعلاه روايات رائعة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام، نشير إلى بعض منها:

تلا أمير المؤمنين علي عليه السلام الآية: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ...﴾ ثمّ سأل أصحابه: أتعلمون من هم أولياء الله؟ فقالوا: أخبرنا بهم يا أميرالمؤمنين، فقال: «هم نحن وأتباعنا، فمن تبعنا من بعدنا طوبى لنا، وطوبى لهم أفضل من طوبى لنا»، قالوا: يا أمير المؤمنين، ما شأن طوبى لهم أفضل من طوبى لنا؟ ألسنا نحن وهم على أمر؟ قال: «لا، إنّهم حملوا ما لم تحملوا عليه، وأطاقوا ما لم تطيقوا»[3].

وفي كتاب كمال الدين: روي عن أبي بصير عن الصّادق عليه السلام أنّه قال: «طوبى لشيعة قائمنا المنتظرين لظهوره في غيبته، والمطيعين له في ظهوره، أُولئك أولياء الله الذين لاخوف عليهم ولا هم يحزنون»[4].

ويروي أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: إنّ أتباع هذا المذهب يرون في أواخر لحظات عمرهم ما تقرّ به أعينهم، قال الراوي: فقلت له بضع عشرة مرّة: أي شيء؟ فقال في كلّها: «يرى» لا يزيد عليها، ثمّ جلس في آخرها فقال: «أبيت إلاّ أن تعلم»؟ فقلت: نعم يابن رسول الله... ثمّ بكيت، فرقّ لي، فقال: «يراهما والله» فقلت: بأبي وأمي من هما؟ فقال: «ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلي عليه السلام لن تموت نفس

(١) بحار الأنوار، ج ٤٥، ١٩٥ و ١٩٧.
(٢) تفسير الثعالبي، ج ١، ص ٦٥.
(٣) تفسير نور الثقلين، ج٢، ص ٣٠٩.
(٤) المصدر السابق.

مؤمنة أبداً حتى تراهما». ثمّ قال: «إنّ هذا في كتاب الله» فقلت: أين، جعلني الله فداك؟ قال: «في يونس، قول الله ها هنا: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ﴾(١)

ولدينا روايات أُخرى بمضمون هذه الرّواية.

ومن الواضح أنّ هذه الرّواية إشارة إلى قسم من بشارات المؤمنين المتقين، لا جميعها، وواضح - أيضاً - أنّ هذه المشاهدة ليست مشاهدة جسم مادي. بل مشاهدة الجسم البرزخي بالنظر البرزخي، لأنّا نعلم أنّ روح الإنسان تبقى على جسمها البرزخي في عالم البرزخ الذي يمثل الفاصل بين هذه الدنيا وعالم الآخرة.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾

التّفسير

جانب من آيات عظمته

تعود الآيات أعلاه مرّة أُخرى إلى مسألة التوحيد والشرك والتي تعتبر واحدة من أهم مباحث الإسلام، وبحوث هذه السورة، وتجرّ المشركين إلى المحاكمة وتثبت عجزهم.

فتقول أولاً: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ وإذا كان الأشخاص ملكه ومنه، فمن الأولى أن تكون الأشياء الموجودة في هذا العالم ملكه ومنه، وبناءً على هذه فإنّه مالك كل عالم الوجود، ومع هذا الحال كيف يمكن أن يكون مماليكه شركاءه؟

ثمّ تضيف الآية: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ إذ لا دليل ولا برهان لهم على كلامهم ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾.

(١) تفسير نور الثقلين، ج٢، ص ٣١٠ (باختصار).

كلمة «الخرص» وردت في اللغة بمعنى الكذب، وكذلك وردت بمعنى الحدس والتخمين، وفي الأصل - كما قاله الراغب في مفرداته - بمعنى حرز الفواكه، ثمّ تخمينها على الأشجار، ولما كان الحدس والتخمين قد يخطئان أحياناً، فإنّ هذه المادة قد جاءت بمعنى الكذب أيضاً.

وأساساً، فإنّ اتباع الظن والحدس الذي لايستند إلى أساس ثابت يجرّ الإنسان في النهاية إلى وادي الكذب عادة، والأشخاص الذين جعلوا الأصنام شريكة لله سبحانه لم يكن لهم مستند في ذلك إلاّ الأوهام... الأوهام التي يصعب علينا اليوم حتى تصورها، إذ كيف يمكن أن يصنع الإنسان تماثيل ومجسمات لا روح لها، ثمّ يعتبر ماصنعه وخلقه ربّاً له وأنّه هو صاحب إرادته، وأنّ أمره بيده؟! يضع مقدراته في يده وتحت تصرفه ويطلب منه حل مشاكله؟! أليست هذه الدعوى من أوضح مصاديق الزيف والكذب؟

بل يمكن استفادة هذا من الآية كقانون كلي عام - بدقّة قليلة - وهو أنّ كل من يتبع الظن والأوهام الباطلة فإنّه سينجّر في النهاية إلى الكذب... إنّ الحق والصدق قائم على أساس القطع واليقين، أمّا الكذب فإنّه يقوم على أساس التخمينات والظنون والشائعات!

ثمّ ومن أجل إكمال هذا البحث، وتبيّن طرق معرفة الله، والابتعاد عن الشرك وعبادة الأوثان، أشارت الآية الثّانية إلى جانب من المواهب الإلهيّة التي أودعت في نظام الخلقة والدالّة على عظمة وقدرة وحكمة الله عزّوجلّ، فقالت: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾.

إنّ نظام النور والظلمة الذي أكدت عليه آيات القرآن مراراً، نظام عجيب وغزير الفائدة، فهو من جهة يضيء عرصة حياة البشر بإفاضة النور في مدّة معينة ويحركها ويبعثها على السعي والجد، ومن جهة أُخرى فإنّه بإرخاء سدول الليل المظلم وهدوئه يهيّىء الروح والجسد المتعبين للعمل والحركة من جديد.

نعم ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أُولئك الذين يسمعون ويدركون، وبعد إدراك الحقيقة يتبعونها ويسيرون على نهجها.

ملاحظات:

١ - إنّ الهدوء والسكون النفسي الذي هو الهدف من خلق الليل بات من المسلمات العلمية بعد أن أثبته العلم اليوم، فإنّ حجب الظلام ليست وسيلة إجبارية لإيقاف

النشاطات اليومية وحسب، بل لها أثر مباشر على السلسلة العصبية وعضلات الإنسان وسائر الحيوانات فتجعلهم في حالة استراحة ونوم وسكون، وما أجهل بعض الناس الذين يحيون الليل بالملذات والرغبات، ويقضون النهار - وخاصّة الفجر المنشط - في النوم، ولهذا السبب فإنّ أعصابهم متوترة وغير متزنة دائماً.

٢ - إذا علمنا أنّ الإبصار بمعنى النظر، فإنّ معنى جملة: ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ سيصبح: إنّ الله قد جعل النهار ناظراً، في حين أنّ النهار مُبْصَر لا مُبْصِر! إنّ هذا تشبيه ومجاز من قبيل توصيف السبب بأوصاف المسبب، كما يقولون في شأن الليل: ليل نائم، في حين أنّ الليل لاينام، بل هو سبب لأن ينام الناس.

٣ - إنّ الآيات أعلاه تدين الظن والوهم مرّة أُخرى وتردّه، لكن لما كان الكلام عن أوهام عبدة الأوثان الخرافية التي لا أساس لها، فإنّ الظّن هنا لا يعني الظّن العقلائي المدروس الذي يعتبر حجة في بعض الموارد، مثل شهادة الشهود وظاهر الألفاظ والإقرارات والمكاتبات، وبناء على هذه فإنّ الآيات أعلاه لا يمكن أن تكون دليلاً على عدم حجية الظن.

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٨) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (٦٩) مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠)﴾

التّفسير

تستمر هذه الآيات - أيضاً - في بحثها مع المشركين، وتذكر واحدة من أكاذيب واتهامات هؤلاء لساحة الله المقدسة، فتقول أوّلاً: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾.

إنّ هذا الكلام قاله المسيحيون في حق المسيح عليه السلام، ثمّ عبدة الأوثان في عصر الجاهلية في حق الملائكة، حيث كانوا يظنون أنّها بنات الله، وقاله اليهود في شأن عزير. ويجيبهم القرآن بطريقين:

الأوّل: إنّ الله سبحانه منزّه عن كل عيب ونقص، وهو مستغن عن كل شيء: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ﴾ وهذا إشارة إلى أنّ الحاجة إلى الولد، إمّا للحاجة الجسمية إلى قوته ومساعدته، أو للحاجة الروحية والعاطفية، ولما كان الله سبحانه منزّه عن كل عيب ونقص وحاجة، فلا يمكن أن يتخذ لنفسه ولداً.

﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ ومع هذا الحال فأي معنى لأن يتخذ لنفسه ولداً ليطمئنه ويهدئه، أو يعينه ويساعده.

ممّا يلفت النظر أنّ الآية عبّرت هنا بـ ﴿ٱتَّخَذَ﴾ هذا يوحي أنّ هؤلاء كانوا يعتقدون أنّ الله تعالى لم يلد ذلك الولد، بل يقولون: إنّ الله قد اختار بعض الموجودات كولد له، تماماً مثل أُولئك الذين لا يولد لهم ولد، ويتبنون طفلاً من دور الحضانة وأمثالها.

على كل حال، فإنّ هؤلاء الجاهلين وقصيري النظر وقعوا في اشتباه المقارنة بين الخالق والمخلوق، وكانوا يقيسون ذات الله الصمدية على وجودهم المحدود المحتاج.

والجواب الثّاني الذي يذكره القرآن لهؤلاء هو: إنّ من يدعي شيئاً يجب عليه أن يقيم دليلاً على مدعاه: ﴿إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أي إنّكم على فرض عدم قبولكم للدليل الأوّل الواضح، فإنّكم لا تستطيعون أن تنكروا هذه الحقيقة، وهي أنّ ادّعاءكم وقولكم تهمة وقول بغير علم.

وتعيد الآية التّالية عاقبة الافتراء على الله المشؤومة. فتوجه الخطاب إلى النّبي ﷺ وتقول: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ﴾.

وعلى فرض أنّ هؤلاء يستطيعون بافتراءاتهم وأكاذيبهم أن ينالوا المال والمقام لعدّة أيّام، فإنّ ذلك ﴿مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾.

الواقع أنّ هذه الآية والتي قبلها ذكرتا نوعين من العقاب لهؤلاء الكذابين الذين نسبوا إلى الله تهمة اتّخاذ الولد:

الأوّل: إنّ هذا الكذب والافتراء لايمكن أن يكون أساساً لفلاح ونجاح هؤلاء أبداً، ولا يوصلهم إلى هدفهم مطلقاً، بل إنّهم يصبحون حيارى تائهين تحيط التعاسة والشقاء والهزيمة بأطرافهم.

الثّاني: على فرض أنّهم استطاعوا أن يستغفلوا الناس ويخدعوهم بهذه الكلمات

لعدة أيّام، ويصلوا عن طريق الديانة الوثنية إلى رفاه وعيش رغيد، إلاّ أنّ هذا التمتع لا دوام ولا بقاء له، والعذاب الإلهي الخالد في انتظارهم.

ملاحظات:

١ - إنّ كلمة ﴿سُلْطَٰنٍ﴾ تعني هنا الدليل، وهذه الكلمة أعمق وأبلغ من كلمة الدليل، لأنّ الدليل بمعنى الدلالة والإرشاد أمّا السلطان فهو الشيء الذي يسلط الإنسان على الطرف المقابل، ويناسب موارد البحث والجدال والنقاش، وهو إشارة إلى الدليل القاطع القوي.

٢ - «المتاع» يعني الشيء الذي يستفيد منه الإنسان ويتمتع به، ومفهومه واسع جدّاً يشمل كل لوازم ووسائل الحياة والمواهب المادية، يقول الراغب في المفردات: كل ما ينتفع به على وجه ما، فهو متاع ومتعة.

٣ - إنّ التعبير بـ ﴿نُذِيقُهُمُ﴾ الذي ورد في شأن العذاب الإلهي يشير إلى أنّ هذا العذاب الذي سينال هؤلاء بدرجة من الشدّة بحيث كأنّهم يذوقونه بألسنتهم وأفواههم، وهذا التعبير أبلغ جداً من المشاهدة، بل وحتى من لمس العذاب.

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾

التّفسير

جانب من جهاد نوح

الآيات أعلاه بداية لبيان قسم من تأريخ الأنبياء وقصص وحوادث الأُمم الماضية لتوعية وإيقاظ المشركين والفئات المخالفة، فيأمر الله نبيّه أن يتابع حديثه السابق مع المشركين بشرح تاريخ الماضين ليكون عبرة لهم.

في البداية تطرقت إلى قصّة نوح، فقالت: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ ولهذا فإنّي لا أخاف غيره، ثمّ تضيف: ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ أي ادعوا أصنامكم أيضاً لتعينكم في المشورة، حتى لايبقى شيء خافياً على أحد ولايتعرض منكم إلى الهم والغم أحد ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ بل اتّخذوا قراركم في شأني بكل وضوح.

﴿غُمَّةً﴾ من مادة غم، وهي تعني خفاء الشيء وتغطيته، وإنّما يقولون للحزن: غمّ أيضاً لأنّه يغطي قلب الإنسان.

ثمّ يقول: ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾(١).

إنّ نوحاً رسول الله الكبير صمد مقابل أعدائه الأقوياء المعاندين وواجههم بقاطعية وحزم وفي منتهى الشجاعة والشهامة مع أصحابه القليلين الذين كانوا معه، وكان يستهزىء بقواهم ويريهم عدم اهتمامه بخططهم وأفكارهم وأصنامهم، وبهذه الطريقة كان يوجه ضربة نفسية عنيفة إلى أفكارهم.

وإذا علمنا أنّ هذه الآيات نزلت في مكّة في الوقت الذي كان يعيش فيه النّبي ﷺ ظروفاً تشبه ظروف نوح، وكان المؤمنون قلّة، سيتّضح أنّ القرآن يريد أن يعطي للنّبي - أيضاً - نفس هذا الدرس بأن لا يهتم بقدرة العدوّ، بل يسير ويتقدم بكل حزم وجرأة وشجاعة، لأنّ الله يسنده وينصره، ولا تستطيع أيّة قوّة أن تقف في مقابل قدرته.

ومع أنّ بعض المفسّرين اعتبر تعبير نوح هذا أو أمثاله في تاريخ سائر الأنبياء نوعاً من الإعجاز، لأنّهم مع عدم امتلاكهم الإمكانيات الظاهرية فإنّهم كانوا يهدّدون العدو بالهزيمة، وأعلنوا خبر انتصارهم النهائي، وهذا لايمكن قبوله إلاّ عن طريق الإعجاز، إلاّ أنّ هذا على كل حال درس كبير لكل القادة الإسلاميين بأن لا يخافوا ولا ينهاروا أمام عظمة الأعداء وكثرتهم، بل إنّهم باتكالهم على الله كانوا يدعون هؤلاء إلى الميدان

---

(١) هناك بحث بين المفسّرين في أنّه ما هو جزاء شرط جملة ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم﴾؟ ومن بين الاحتمالات التي طرحوها يبدو للنظر أن اثنين منها هما الأقرب: **الأوّل**: إنّ جملة ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ﴾ هي جزاء الشرط، وإنّ جملة: ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ جملة معترضة فصلت بين الشرط والجزاء.

الثاني: إنّ الجزاء محذوف والجمل التالية تدل على ذلك، والتقدير هكذا: فافعلوا ما تريدون فإنّي متوكل على الله في الواقع، إنّ جملة: ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ من قبيل العلة حلت مورد المعلول، و﴿شُرَكَآءَكُمْ﴾ في الجملة التالية إشارة إلى الأصنام، والواو قبلها بمعنى مع. (فتدبّر جيداً).

بكل حزم واقتدار ويستصغرون قوتهم، فكان هذا عاملاً مهمّاً في تقوية معنويات الأتباع والمؤيدين، وتدمير معنويات العدوّ وانهيارها.

وذكرت الآية التّالية بياناً آخر عن نوح من أجل إثبات أحقيّته، هناك حيث تقول: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ[١] إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾، فإنّي أعمل له، ولا أريد الأجر إلاّ منه ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

إنّ مقولة نوح هذه درس آخر للقادة الإلهيين بأن لا يتوقعوا أي جزاء مادي ومعنوي من الناس لقاء دعوتهم وتبليغهم، لأنّ هذا التوقع يوجد نوعاً من التعلق النفسي الذي يؤدّي الى عرقلة أساليب الدعوة الصريحة والنشاطات الحرة، ومن الطبيعي عن ذلك أن يقلّ تأثير دعوتهم وإبلاغهم، ولهذا السبب فإنّ الطريق الصحيح في الدعوة إلى الإسلام أن يعتمد المبلّغون والداعون في إدارة أُمورهم المعاشية على بيت المال فقط، لا بالاحتياج إلى الناس!

وتبيّن الآية الأخيرة عاقبة ومصير أعداء نوح، وصدق توقعه وقوله السابق بهذه الصورة: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾[٢] ولم ننقذهم وحسب، بل ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾.

وفي النهاية توجه الخطاب إلى النّبي ﷺ وتقول: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (٧٤)﴾

التّفسير

الرّسل بعد نوح

بعد انتهاء البحث الإجمالي حول قصّة نوح، أشارت هذه الآية إلى الأنبياء الآخرين الذين جاؤوا بعد نوح وقبل موسى عليه السلام لهداية الناس كإبراهيم وهود وصالح ولوط

(١) جواب هذا الشرط محذوف أيضاً، وتقديره: فإن توليتم فلا تضروني، أو: فإن توليتم فأنتم وشأنكم.

(٢) «الفلك» بمعنى السفينة، والفرق بينها وبين السفينة أنّ السفينة مفرد وجمعها سفائن أما الفلك فإنّها تطلق على المفرد والجمع.

ويوسف عليه السلام، فقالت: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ فقد كانوا مسلّحين كنوح بسلاح المنطق والإعجاز والبرامج البناءة، إلاّ أنّ الذين سلكوا طريق العناد وكذّبوا الأنبياء السابقين، كذّبوا هؤلاء الأنبياء أيضاً ولم يؤمنوا بهم ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ وكان ذلك نتيجة للعصيان والتمرّد وعداء الحق الذي أوصد تلك القلوب ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

ملاحظتان:

١ - جملة: ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ تشير إلى أنّ فئة من بين الأُمم كانوا لا يسلمون أمام دعوة أي نبيّ ومصلح، واستمروا في الثبات على موقفهم، ولم تكن تؤثر فيهم دعوة الأنبياء المتكررة أدنى أثر، وبناءً على هذا فإنّ الجملة المذكورة تشير إلى طائفة وقفت في وجه دعوة أنبياء متعددين في زمانين (وهذا هو ظاهر الجملة حيث إنّ مرجع كل الضمائر واحد).

وقد احتمل أيضاً في معنى هذه الآية أنّها تشير إلى جماعتين مختلفتين، إحداهما كانت في زمن نوح وكذّبت دعوته، والأُخرى هم الذين جاؤوا بعد أُولئك وسلكوا طريقهم في إنكار وتكذيب الأنبياء، وبناء على هذا، فإنّ معنى الجملة يصبح: إنّ المعتدين أقوام آخرون امتنعوا عن الإيمان بالشيء الذي امتنع الماضون عن الإيمان به.

طبعاً، بملاحظة أنّ مخالفي دعوة نوح قد هلكوا أثناء الطوفان، سيقوى هذا الاحتمال في تفسير هذه الآية، إلاّ أنّ ذلك يستلزم على كل حال أن نفرق بين مرجع الضمائر في الجملة، وهي واو الجمع في كانوا، وليؤمنوا، وكذبوا.

٢ - من الواضح أنّ جملة: ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ لاتدل على الجبر، وقد أخفي تفسير ذلك فيها، لأنّها تقول: إنّنا نطبع على قلوب المعتدين حتى لا يدركوا شيئاً، وبناءً على هذا فإنّ الاعتداءات المتكررة المتلاحقة على حدود الأحكام الإلهيّة والحق والحقيقة كانت تصدر من هؤلاء، وكانت تترك أثرها على قلوبهم تدريجياً حتى سلبت منهم قدرة تشخيص وتعيين الحق، ووصل الأمر بهم إلى أن يصبح التمرد والعصيان والمعصية طبيعة ثانية لديهم، بحيث لا يذعنون ولا يسلّمون أمام أية حقيقة[1].

(١) ذكرنا تفصيل هذا المطلب في المجلد الأوّل ذيل الآية (٧) من سورة البقرة.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَـٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَـٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَـٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَـٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّـٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾

التّفسير

جانب من جهاد موسى وهارون

لقد جرى ذكر قصص الأنبياء والأُمم السابقة كنماذج حيّة، وبدأ الحديث أوّلاً عن نوح عليه السلام، ثمّ عن الأنبياء بعد نوح، ووصل الدور في هذه الآيات إلى موسى وهارون عليهما السلام ومواجهاتهم المستمرة مع فرعون وأتباعه، فتقول الآية الأُولى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَـٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾(١).

«الملأ» كما أشرنا إلى ذلك سابقاً تطلق على الأشرف الأثرياء اللامعين الذين يملأ ظاهرهم العيون ويلاحظ حضورهم في كل مكان من المجتمع، وتأتي عادة في مثل هذه الآيات محل البحث بمعنى المناصرين والمشاورين والملتفين حول شخص ما.

ونرى الكلام في هذه الآيات يدور حول بعثة موسى إلى فرعون وملئه فقط، في حين أنّ موسى مبعوث لكل الفراعنة وبني إسرائيل، وعلّة ذلك أنّ مقدرات المجتمع في يد الهيئة الحاكمة، وبناءً على هذا فإنّ أي برنامج إصلاحي وثوري يجب أن يستهدف هؤلاء أوّلاً، كما تقول ذلك الآية (١٢) من سورة التوبة: ﴿فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾.

إلاّ أنّ فرعون وأتباعه امتنعوا عن قبول دعوة موسى، وعن التسليم في مقابل الحق: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ ونظراً للتكبر والاستعلاء وعدم امتلاكهم لروح التواضع فإنّهم لم يلتفتوا إلى الحقائق الواضحة في دعوة موسى، وأصرّوا واستمروا في إجرامهم: ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾.

---

(١) المراد من الآيات هي تلك الآيات المتعددة المشهورة التي كانت لموسى في بداية أمره.

وتتحدث الآية التّالية عن مراحل مواجهة الفراعنة لموسى وأخيه هارون، وأوّل تلك المراحل هي مرحلة الإنكار والتكذيب والافتراء واتهامهما بسوء النية، وإبطال سنن الأجداد، والإخلال بالنظام الاجتماعي، كما يقول القرآن: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾.

إنّ جاذبية دعوة موسى الخارقة من جهة، ومعجزاته الباهرة من جهة أُخرى، وتزايد نفوذه بصورة محيرة من جهة ثالثة، دفعت الفراعنة إلى التفكير في حلٍّ لهذه المسألة، فلم يجدوا وسيلة أفضل من رميه بالسحر، فأعلنوا أنّه ساحر وأنّ عمله سحر ليس إلاّ، وهذه التهمة سائدة في جميع مراحل الأنبياء وعلى طول تاريخهم، خاصّة نبي الإسلام ﷺ.

إلاّ أنّ موسى عليه السلام نهض للدفاع عن نفسه، فأزاح الستار وأوضح كذب هؤلاء وأبطل تهمتهم، ففي البداية: ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ أَسِحۡرٌ هَٰذَا﴾[1].

صحيح أنّ لكلّ من السحر والمعجزة نفوذاً وتأثيراً، وأن من الممكن أن يؤثر الحق والباطل على إدراكات الناس ونفسياتهم، إلاّ أنّ السحر الذي هو أمر باطل يتميز تماماً عن المعجزة التي هي حق، إذاً لا يمكن المقارنة بين نفوذ الأنبياء ونفوذ السحرة، فإنّ أعمال السحرة تفتقد إلى الهدفية ومحدودة ولا قيمة لها، ومعجزات الأنبياء لها أهداف إصلاحية وتغييرية وتربوية واضحة، وتعرض بشكل واسع وغير محدود.

إضافة إلى أنّه: ﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ وهذا التعبير دليل آخر على امتياز عمل الأنبياء عن السحر، ففي الدليل السابق أثبت اختلاف السحر والمعجزة ووجه وهدف الاثنين وافتراق أحدهما عن الآخر، أمّا هنا فإنّ الدليل يستعين لإثبات المطلب باختلاف حالات السحرة وأصحاب المعاجز.

إنّ السحرة، وبحكم عملهم وفنهم الذي له صفة الانحراف والإغفال، أفراد انتهازيون يفكرون في الربح، يستغفلون الناس ويخادعونهم، ويمكن معرفتهم من خلال أعمالهم. أمّا الأنبياء فهم رجال يطلبون الحق، حريصون على هداية الناس، مطهرون، لهم هدف وغاية، ولا يهتمون بالأُمور المادية.

إنّ السحرة لايرون وجه الفلاح مطلقاً، ولا يعملون إلاّ من أجل المال والثروة

(١) الواقع، أنّ للجملة أعلاه محذوف مقدر يفهم من مجموع الكلام، وكانت في الأصل هكذا: أتقولون للحق لما جاءكم سحر، أسحر هذا.

والمنصب والمنافع الشخصية، في حين أنّ هدف الأنبياء هداية خلق الله وإصلاح المجتمع الإنساني من جميع جوانبه المادية والمعنوية.

ثمّ يستمر فرعون وملؤه في رمي موسى عليه السلام بسيل الاتهامات الصريحة، حيث ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾. الواقع، أنّهم قدموا صنم «سنة الآباء» وعظمتهم الخيالية والأسطورية حتى يوجهوا الرأي العام ضد موسى وهارون، بأنّهما يريدان أن يعبثا بمقدّسات مجتمعكم وبلادكم.

ثمّ استمروا في هذا التشويه، وقالوا بأنّ دعوتكم إلى دين الله ما هي إلاّ كذب محض، وكل هذه مصائد وخطط خيانية بهدف التسلط على الناس: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

في الحقيقة، إنّ هؤلاء لما كانوا يسعون دائماً من أجل الحكم الظالم على الناس كانوا يظنون أنّ الآخرين مثلهم، وهكذا كانوا يفسرون مساعي المصلحين والأنبياء.

﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ لأنا على علم بنواياكم وخططكم الهدامة.

وكانت هذه هي المرحلة الأُولى من المواجهة السلبية مع موسى.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾

التّفسير

المرحلة الثّانية

تفصل هذه الآيات مرحلة أُخرى من المجابهة، وتتحدث عن إجراءات فرعون العملية ضد موسى وأخيه هارون.

فعندما لاحظ فرعون قسماً من معجزات موسى، كاليد البيضاء والحية العظيمة، ورأى أنّ ادّعاء موسى ليس واهياً بدون دليل وبرهان، وأنّ هذا الدليل سيؤثر في جميع أنصاره أو الآخرين قليلاً أو كثيراً، فكّر بجواب عملي كما يقول القرآن: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ

ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ فقد كان يعلم أنّ كل عمل يجب أن يؤتى من طريقة ويجب أن يستعين بالخبراء بذلك الفن.

هل أنّ فرعون كان حقيقة في شك من أحقية دعوة موسى، وكان يريد أن يحاربه ويواجهه عن هذا الطريق؟ أم أنّه كان يعلم أنّه مرسل من الله، إلاّ أنّه كان يظن أنّه يستطيع بواسطة ضجّة السحرة وغوغائهم أن يهدّىء الناس، ويمنع مؤقتاً خطر نفوذ موسى في الأفكار العامّة، ويقول للناس بأنّه إن جاء بعمل خارق للعادة فإنّنا غير عاجزين عن القيام بمثله، وإذا شاءت إرادتنا الملوكية ذلك، فإنّ مثل هذا الشيء سهل يسير بالنسبة لنا!

ويبدو أنّ الاحتمال الثّاني أقرب، ويؤيد ذلك سائر الآيات المرتبطة بقصّة موسى التي وردت في سورة طه وأمثالها، وأنّه هبّ لمجابهة موسى عن وعي ودراية.

على كل حال: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾.

جملة ﴿أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ تعني في الأصل: القوا كل ما تستطيعون إلقاءه، وهذا إشارة إلى الحبال والعصي الخاصّة التي كان جوفها خالياً، وصبّت فيه مواد كيماوية خاصّة بحيث إنّها تتحرك وتتقلب إذا ما قابلت نور الشمس. والشاهد على هذا الكلام الآيات التي وردت في سورة الأعراف والشعراء، ففي الآيتين (٤٣) (٤٤) من سورة الشعراء نقرأ: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾. ولكن من الطبيعي أنّها تتضمن هذا المعنى أيضاً بأن أظهروا كل ما تملكون من القدرة في الميدان.

على كل حال، فإنّ هؤلاء قد عبؤوا كل ما يملكون من قدرة، وألقوا كل ما أتوا به معهم في وسط الحلبة: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾ فأنتم أفراد فاسدون ومفسدون لأنّكم تخدمون حكومة جبارة وظالمة وتعملون على تقوية دعائم هذه الحكومة الغاشمة الدكتاتورية وهذا بنفسه أقوى دليل على كونكم مفسدين، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

في الواقع، إنّ كل إنسان ذي عقل وعلم يستطيع أن يدرك هذه الحقيقة حتى قبل انتصار موسى على السحرة، وهي أنّ عمل السحرة لا يقوم على أساس من الحق. لأنّه يصب في طريق تقوية دعائم الظلم والجور، فأي شخص لم يكن يعلم أنّ فرعون غاصب وظالم ومفسد؟ ومعه ألا تعتبر خدمة مثل هذا الجهاز الحاكم مشاركة في ظلمه وفساده؟

وهل يمكن أن يكون عمل هؤلاء صحيحاً وإلهياً؟ كلاّ مطلقاً، وبناءً على هذا كان من الواضح أنّ الله سيبطل هذه المساعي المفسدة.

هل أنّ التعبير بـ﴿سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾ دليل على أنّ السحر حقيقة واقعية، إلاّ أنّ الله يبطله، أم أنّ المقصود من الجملة هو أنّ الله يكشف كون السحر باطلاً؟

إنّ الآية (١١٦) من سورة الأعراف تقول: إنّ سحر السحرة قد أثر في أعين الناس فخوفوهم به: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ وهذا التعبير لا ينافي أن يكون هؤلاء قد أوجدوا نوعاً من الحركات الواقعية في تلك الحبال والعصي بواسطة سلسلة من الوسائل المرموزة كما وقع ذلك في المفهوم والمعنى اللغوي للسحر، وخاصّة بالاستفادة من الخواص الفيزيائية والكيميائية للأجسام المختلفة، إلاّ أنّ من المسلّم به أنّ هذه الحبال والعصي لم تكن موجودات حيّة كما ظهرت أمام أعين الناس، كما قال القرآن في سورة طه الآية (٦٦): ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾. بناء على هذا، فإنّ بعض تأثير السحر واقعي، والبعض الآخر وهم وخيال.

وفي الآية الأخيرة، إنّ موسى قال لهؤلاء: إنّ النصر والغلب لنا في هذه المبارزة حتماً، لأنّ الله سبحانه قد وعد أن يظهر الحق بواسطة المنطق القاطع، ومعجزات أنبيائه القاهرة، ويفضح ويخزي المفسدين وأهل الباطل وإن كره المجرمون ذلك: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

والمراد من «كلماته» إمّا وعد الله بنصرة الرسل وإحقاق الحق، أو معجزاته القاهرة القوية[١].

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾

---

(١) لقد بحثنا مفصلاً جزئيات مواجهة موسى لفرعون والفراعنة، ومسائلها الرائعة في ذيل الآيات (١١٣) وما بعدها من سورة الأعراف من المجلد الخامس، وبحثنا السحر وحقيقته في المجلد الأوّل ذيل الآية (١٠٢) سورة البقرة، فراجع.

التّفسير

المرحلة الثالثة:

عكست هذه الآيات مرحلة أُخرى من المواجهة الثورية بين موسى وفرعون، ففي البداية تبيّن وضع المؤمنين فتقول: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾.

إنّ هذه المجموعة الصغيرة القليلة، والتي كان الشباب والأشبال يشكّلون أكثريتها بمقتضى ظاهر كلمة ذريّة، كانت تواجه ضغوطاً شديدة من فرعون وأتباعه إلى درجة أنّهم خافوا أن يصل بهم الأمر إلى ترك دين موسى نتيجة هذه الضغوط الشديدة: ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

وهناك بحث بين المفسّرين في أنّه من كانت هذه الذريّة التي آمنت بموسى؟ وإلى من يعود ضمير ﴿مِّن قَوْمِهِۦ﴾ إلى موسى أم فرعون؟

فذهب البعض إلى أنّ هؤلاء كانوا نفراً قليلا من قوم فرعون والأقباط كمؤمن آل فرعون، وزوجة فرعون وماشطتها ووصيفتها، والظاهر أنّ الدليل على اختيار هذا الرأي أنّ أغلب بني إسرائيل قد آمنوا، وهذا لا يناسب التعبير بـ ﴿ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ لأنّه يدل على صغر هذه المجموعة.

إلاّ أنّ البعض الآخر يرى أنّهم جماعة من بني إسرائيل، والضمير يعود إلى موسى، لأنّ اسم موسى قد ذكر قبله، وحسب قواعد اللغة والنحو فإنّ الضمير يجب أن يرجع إليه.

ولا شك أنّ المعنى الثّاني أوفق لظاهر الآية، والدليل الآخر الذي يؤيد ذلك هو الآية التالية التي تقول: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ...﴾ أي إنّه خاطب المؤمنين بـ «قومي».

الإشكال الوحيد الذي يبقى على هذا التّفسير، هو أنّ جميع بني إسرائيل قد آمنوا بموسى، لا جماعة منهم.

إلاّ أنّ هذا الإيراد يمكن دفعه بملاحظة هذه النقطة، وهي أنّنا نعلم أنّ الشباب في كل ثورة هم أوّل مجموعة تنجذب إليها، فإضافة إلى قلوبهم الطاهرة وأفكارهم السليمة، فإنّ الحماس والهيجان الثوري لديهم أكبر وأقوى، علاوة على أنّهم غير متعلقين بالأُمور المادية التي تدعو الكبار إلى المحافظة عليها وغيرها من الملاحظات المختلفة الأُخرى، فليس لهم مال وثروة يخافون ضياعها، ولا منصب ولا مقام يخشون فقدانه.

بناءً على هذا، فمن الطبيعي أن تنجذب هذه الفئة إلى موسى، وتعبير «الذريّة» يناسب هذا المعنى جدّاً.

هذا إضافةً إلى أنّ كبار السن الذين التحقوا فيما بعد بهذه الفئة لم يكن لهم دور مهم في المجتمع آنذاك، وكانوا ضعفاء وعاجزين، وهذا التعبير - كما نقل عن ابن عباس(١) - في حقهم ليس ببعيد كما أنّنا حينما ندعو بعض أصدقائنا نقول: اذهب وادعُ الأولاد، بالرغم من أنّهم قد يكونون كباراً، وإذا لم نتفق وهذا المعنى للآية، فإنّ الاحتمال الأوّل يبقى على قوته.

إضافةً إلى أن الذريّة وإن كانت تطلق عادة على الأولاد، إلاّ أنّها من ناحية الأصل اللغوي - كما يقول الراغب في المفردات - تشمل الصغير والكبير.

والملاحظة الأُخرى التي ينبغي الالتفات إليها هنا، هي أنّ المراد من الفتنة التي تستفاد من جملة ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ هو صرف هؤلاء عن دين موسى بالتهديد والإرعاب والتعذيب، أو بمعنى آخر إيجاد مختلف المصاعب والعراقيل أمامهم سواء كانت دينية أو غير دينية.

على كل حال، فقد حدّث موسى هؤلاء بلسان المحبّة والمودة من أجل تهدئة خواطرهم وتسكين قلوبهم: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾.

إنّ حقيقة التوكل هي إلقاء العمل والتصرف في الأُمور على كاهل الوكيل، وليس معنى التوكل أن يترك الإنسان الجدّ والسعي وينزوي في زاوية ويقول: إنّ الله معتمدي وكفى، بل معناه أن يبذل قصارى جهده، فإذا لم يستطع أن يحل المشكلة ويرفع الموانع من طريقه، فلا يدع للخوف طريقاً إلى نفسه، بل يصمد أمامها بالتوكل والاعتماد على لطف الله والاستعانة بذاته المقدسة وقدرته اللامتناهية، ويستمر في جهاده المتواصل، وحتى في حالات القدرة والاستطاعة فإنّه لا يرى نفسه مستغنياً عن الله، لأنّ كل قدرة يتمتع بها هي من الله في النهاية.

هذا هو مفهوم التوكّل الذي لا ينفك عن الإيمان والإسلام، لأنّ الفرد المؤمن والمذعن لأوامر الله يعتقد أنّه قادر على كل شيء، وكل عسير مقابل إرادته سهل يسير، ويعتقد بوعد الله تعالى للمؤمنين بالنصر.

---

(١) تفسير الميزان، ج ١٠، ص ١١٢؛ وتفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.

إنّ هؤلاء المؤمنين المخلصين أجابوا دعوة موسى بالتوكل: ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾. ثمّ رجوا من الله سبحانه أن ينجيهم من شر الأعداء ووساوسهم وضغوطهم ويؤمّنهم: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ والجميل في الأمر أنّ فرعون قد وصف في الآية الأُولى بأنّه من ﴿الْمُسْرِفِينَ﴾ وفي الآية الثّالثة سمّي هو وأعوانه باسم ﴿الظَّالِمِينَ﴾، وفي آخر آية بأنّهم من ﴿الْكَافِرِينَ﴾.

إنّ هذا التفاوت في التعبيرات ربّما لأنّ الإنسان يشرع في مسير الذنب والخطأ من الإسراف أوّلاً، أي التعدي على الحدود، ثمّ الظلم، وينتهي عمله أخيراً إلى الكفر والإلحاد!

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

التّفسير

المرحلة الرّابعة: مرحلة البناء من أجل الثّورة

شرحت هذه الآيات مرحلة أُخرى من نهضة وثورة بني إسرائيل ضد الفراعنة. فتقول أولاً: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ فالأمر الإلهي يقرر اختيار البيوت لبني اسرائيل بمصر وأن تكون هذه البيوت متقاربة ومتقابلة.

ثمّ تطرقت إلى مسألة تربية النفس معنوياً وروحياً، فقالت: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ ومن أجل أن تطرد آثار الخوف والرعب من قلوب هؤلاء وتعيد وتزيد من قدرتهم المعنوية والثّورية قالت: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

يستفاد من مجموع هذه الآيات أنّ بني إسرائيل كانوا في تلك الفترة بصورة جماعة

متشتتة مهزومة ومتطفلة وملوّثة وخائفة، فلا مأوى لهم ولا اجتماع مركزي، ولا برنامج معنوي بنّاء، ولا يمتلكون الشجاعة والجرأة اللازمة للقيام بثورة حقيقية.

لذلك فإنّ موسى وأخاه هارون قد تلقوا مهمّة وضع برنامج في عدّة نقاط من أجل تطهير مجتمع بني إسرائيل، وخاصّة في الجانب الروحي:

١ - الاهتمام أوّلاً بمسألة بناء المساكن، وعزل مساكنهم عن الفراعنة، وكان لهذا العمل عدّة فوائد:

إحداها: أنّهم بتملّكهم المساكن في بلاد مصر سيشعرون برابطة أقوى تدفعهم للدفاع عن أنفسهم وعن ذلك الماء والتراب.

والأُخرى: أنّهم سينتقلون من الحياة الطفيلية في بيوت الأقباط إلى حياة مستقلة.

والثّالثة: أنّ أسرار أعمالهم وخططهم سوف لن تقع في أيدي الأعداء.

٢ - أن يبنوا بيوتهم متقاربة ويقابل بعضها الآخر. لأنّ القبلة في الأصل بمعنى حالة التقابل، وإطلاق كلمة القبلة على ما هو معروف اليوم إنّما هو معنىً ثانوي لهذه الكلمة(١).

وأدّى هذا العمل إلى تجمع وتمركز بني إسرائيل بشكل فاعل، واستطاعوا بذلك وضع المسائل الاجتماعية بصورة عامّة قيد البحث والتحقيق، وأن يجتمعوا مع بعضهم لأداء المراسم الدينية والشعائر المذهبية، وأن يرسموا الخطط اللازمة من أجل حريتهم.

٣ - التوجه إلى العبادة، وخاصّة الصلاة التي تحرر الإنسان من عبودية العباد، وتربطه بخالق كل القوى والقدرات، وتغسل قلبه وروحه من لوث الذنوب، وتحيي فيه الشعور بالاعتماد على النفس وعلى قدرة الله حيث ستدبّ وتنبعث روح جديدة في الإنسان.

٤ - إنّ هذه المهمّة وجهت الأمر لموسى - باعتباره قائداً - بأن يطهّر روح بني إسرائيل من أشكال الخوف والرعب التي كانت من إفرازات سنين العبودية والذلة الطويلة، وأن يربّي وينمّي فيهم الإرادة والشهامة والشجاعة وذلك عن طريق بشارة المؤمنين بالفتح والنصر النهائي، ولطف الله ورحمته.

---

(١) بعض المفسّرين لم يأخذوا القبلة في الآية أعلاه بمعنى المقابل، بل فسروها بنفس معناها، أي قبلة الصلاة، ويعتبرون جملة: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ شاهداً على ذلك، إلاّ أنّ المعنى الأوّل أنسب لمفهوم الكلمة اللغوي الأصلي، إضافة إلى أنّ إرادة كلا المعنيين من هذه الكلمة لا إشكال فيه أيضاً، كما مر علينا نظير هذا مراراً.

الملفت للنظر أنّ بني إسرائيل من أولاد يعقوب، وجماعة منهم من أولاد يوسف طبعاً، وقد حكم هو وإخوته مصر سنين طويلة، وسعوا في عمران هذا الوطن، إلاّ أنّه نتيجة لتركهم طاعة الله والغفلة والخلافات الداخلية وصلوا إلى مثل هذا الوضع المأساوي، إنّ هذا المجتمع المسحوق المصاب يجب أن يبنى من جديد، ويمحو نقاط ضعفه ويستبدلها بالخصال الروحية البناءة ليعيد عظمة الماضي.

ثمّ أشارت إلى إحدى علل طغيان فرعون وأزلامه، فتقول على لسان موسى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ﴾.

إنّ اللام في ﴿لِيُضِلُّوا۟﴾ لام العاقبة، أي إنّ جماعة الأشراف الأثرياء المترفين سيسعون من أجل إضلال الناس شاؤوا أم أبوا، وسوف لا تكون عاقبة أمرهم شيئاً غير هذا، لأنّ دعوة الأنبياء والأطروحات الإلهيّة توقظ الناس وتوحدّهم وبذلك لا يبقى مجال لتسلط الظالمين وكيد المعتدين وستضيق الدنيا عليهم، فلا يجدوا بدّاً من معارضة الأنبياء.

ثمّ يطلب موسى عليه السلام من الله طلباً فيقول: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾.

«الطمس» في اللغة بمعنى المحو وسلب خواص الشيء، واللطيف في الأمر أنّ ما ورد في بعض الرّوايات من أنّ أموال الفراعنة قد أصبحت خزفاً وحجراً بعد هذه اللعنة(١)، ربّما كان كناية عن أنّ التدهور الاقتصادي قد بلغ بهم أن سقطت فيه قيمة ثرواتهم تماماً وأصبحت كالخزف لا قيمة لها!

ثمّ أضافت ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: اسلبهم قدرة التفكير والتدبّر أيضاً لأنّهم بفقدانهم هاتين الدعامتين (المال والفكر) سيكونون على حافة الزوال والفناء، وسينفتح أمامنا طريق الثورة، وتوجيه الضربه النهائية لهؤلاء.

اللّهم إن كنتُ قد طلبتُ ذلك منك في حقّ الفراعنة فليس ذلك نابعاً من روح الانتقام والحقد، بل لأنّ هؤلاء قد فقدوا أرضية الإيمان أبداً: ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ ومن الطبيعي أنّ الإيمان بعد مشاهدة العذاب - كما سيأتي قريباً - لا ينفع هؤلاء أيضاً.

ثمّ خاطب الله سبحانه وتعالى موسى وأخاه بأنّه: الآن وقد أصبحتما مستعدين لتربية وبناء قوم بني إسرائيل ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا﴾ في سبيل الله ولا تخافا سيل

---

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث؛ وبحار الأنوار، ج ١٣، ص ١١٥.

المشاكل، وكونا حازمين في أعمالكما ولا تستسلما أمام اقتراحات الجاهلين، بل استمرّا في برنامجكما الثوري ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾

التّفسير

الفصل الأخير من المجابهة مع الظّالمين

هذه الآيات جسّدت آخر مرحلة من المواجهة بين بني إسرائيل والفراعنة وبيّنت مصير هؤلاء في عبارات قصيرة، لكنّها دقيقة وواضحة - كما هو دأب القرآن - وتركت المطالب الأُخرى تُفهم من الجمل السابقة واللاحقة.

فتقول أوّلاً: إنّنا جاوزنا ببني إسرائيل البحر - وهو نهر النيل العظيم أطلق عليه اسم البحر لعظمته - أثناء مواجهتهم للفراعنة، وعندما كانوا تحت ضغط ومطاردة هؤلاء: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ إلاّ أنّ فرعون وجنوده طاردوا هؤلاء من أجل القضاء على بني إسرائيل: ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ﴾.

«البغي» يعني الظلم، «والعدو» بمعنى التعدي، أي إنّ هؤلاء إنّما طاردوهم وتعقبوهم لغرض الظلم والتعدي عليهم، أي على بني إسرائيل.

جملة ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ﴾ توحي بأنّ فرعون وجنوده قد تتبعوا بني إسرائيل طوعاً، وتؤيد بعض الرّوايات هذا المعنى، والبعض الآخر تخالف هذا المعنى[1]، إلاّ أنّ ما يفهم ويستفاد

(١) بحار الأنوار، ج ١٣، ص ١١٠ و ١١٧ و ١٢٣ و ١٣٤ و ١٤٠.

من ظاهر الآية هو الحجة على كل حال.

أمّا كيفية عبور بني إسرائيل للبحر، وأي إعجاز وقع في ذلك الحين، فإنّ شرح ذلك سيأتي في ذيل الآية (٦٣) من سورة الشعراء، إن شاء الله تعالى.

على كل حال، فإنّ هذه الأحداث قد استمرت حتى أوشك فرعون على الغرق، وأصبح كالقشة تتقاذفه الأمواج وتلهو به، فعند ذاك زالت حجب الغرور والجهل من أمام عينه، وسطع نور التوحيد الفطري وصدع بالإيمان: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ فلست مؤمناً بقلبي فقط، بل إنّي من المسلمين عملياً: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾.

ولما تحققت تنبؤات موسى عليه السلام الواحدة تلو الأُخرى وأدرك فرعون صدق هذا النّبي الكبير أكثر فأكثر وشاهد قدرته وقوته، اضطر إلى إظهار الإيمان على أمل أن ينقذه ربّ بني إسرائيل كما أنجاهم من هذه الأمواج المتلاطمة ولذلك يقول: آمنت أنّه لا إله إلاّ الذي آمنت به بنو إسرائيل!

إلاّ أنّ من البديهي أنّ مثل هذا الإيمان الذي يتجلّى عند نزول البلاء ونشوب أظفار الموت، إيمان اضطراري يتشبث به كل جان ومجرم ومذنب وليست له أيّة قيمة، أو يكون دليلاً على حسن نيّته أو صدق قوله، ولهذا فإنّ الله سبحانه خاطبه فقال: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾.

وقد قرأنا سابقاً في الآية (١٨) من سورة النساء: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ﴾ ولهذا فإنّ كثيراً من الناس ما أن تستقر بهم الحال وينجون من الموت يعودون إلى أوضاعهم وأعمالهم السابقة، ونظير هذا التعبير الذي ورد أعلاه جاء أيضاً في اشعار وكلمات الأدباء العرب والعجم، مثل:

أتت وحياض الموت بيني وبينها ... وجادت بوصل حين لا ينفع الوصل[1]

لكن ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗ﴾ آية للحكام المستكبرين ولكل الظالمين والمفسدين، وآية للفئات المستضعفة.

---

(١) تاريخ مدينة دمشق، لابن عساكر، ج ٩، ص ٢٥٣.

هناك بحث بين المفسّرين فيما هو المراد من البدن هنا، فأكثرهم يرى بأنّ المراد هو جسد فرعون الذي فارقته الروح، لأنّ عظمة فرعون في أفكار الناس في ذلك المحيط بلغت حدّاً بحيث إنّ الكثير لولا ذلك لم يكن يصدق أن فرعون يمكن أن يغرق، وكان من الممكن أن تنسج الأساطير والخرافات الكاذبة حول نجاة وحياة فرعون بعد هذه الحادثة، لذلك ألقى الله سبحانه جسده خارج الماء.

اللطيف هنا، أنّ البدن في اللغة - كما قال الراغب في مفرداته - يعني الجسد العظيم - وهذا يدلنا على أنّ فرعون كان عظيم الهيكل ممتلىء الجسم كما هو الحال في الكثير من أهل الترف والرفاه الدنيوي!

إلاّ أنّ البعض الآخر قالوا: إنّ أحد معاني البدن هو الدرع، وهذا إشارة إلى أنّ الله سبحانه قد أخرج فرعون من الماء بدرعه الذهبي الذي كان على بدنه ليعرف عن طريقه، ولا يبقى أي مجال للشك في أنّه فرعون.

هذه النقطة أيضاً تستحق الانتباه، وهي أنهم استفادوا من جملة ﴿نُنَجِّيكَ﴾ أنّ الله سبحانه قد أمر الأمواج أن تلقي بدنه على مكان مرتفع عن الساحل لأنّ مادة «النجوة» تعني المكان المرتفع والأرض العالية.

والنقطة الأُخرى التي تلاحظ في الآية أنّ جملة: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ﴾ قد بدأت بفاء التفريع، ومن الممكن أن يكون ذلك إشارة إلى أنّ إيمان فرعون الباهت في هذه اللحظة اليائسة وفي ساعة الاحتضار كان كالجسد بدون روح ولذلك أثر بالمقدار الذي أنجى الله جسد فرعون من الماء بعد أن فارقته الروح، حتى لايكون طعمة للأسماك وليكون عبرة للأجيال القادمة!

ويوجد الآن في متاحف مصر وبريطانيا جثة أو جثتين من جثث الفراعنة التي بقيت محنّطة بالمومياء، فهل أنّ بدن فرعون المعاصر لموسى من بينها حيث حفظوه فيما بعد بالمومياء، أم لا؟

لا يمكننا إثبات ذلك، إلاّ أنّ تعبير ﴿لِمَنْ خَلْفَكَ﴾ يقوي هذا الاحتمال في أن بدن ذلك الفرعون من بين هذه الأبدان، ليكون عبرة لكل الأجيال القادمة، لأنّ تعبير الآية مطلق ويشمل كل الأجيال في المستقبل (فتدبر جيداً).

ويقول في نهاية الآية: إنّه وبالرغم من كل هذه الآيات والدلالات على قدرة الله،

ومع كل الدروس والعبر التي ملأت تاريخ البشر فإنّ الكثير معرضون عنها ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾.

وتبيّن آخر آية من هذه الآيات النصر النهائي لبني إسرائيل، والرجوع إلى الأرض المقدسة بعد الخلاص من قبضة الفراعنة، فتقول: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾.

إنّ التعبير بـ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ يمكن أن يكون إشارة إلى أنّ الله سبحانه قد وفى بما وعد به بني إسرائيل وأرجعهم إلى الوطن الموعود، أو أنّ ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ إشارة إلى طهارة وقدسية هذه الأرض، وبذلك تناسب أرض الشام وفلسطين التي كانت محط الأنبياء والرسل.

وقد احتمل جماعة أن يكون المراد أرض مصر، كما يقول القرآن في سورة الدخان / الآيات (٢٥) - (٢٨): ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

وقد جاء هذا المضمون في الآيتين (٥٧) و(٥٩) من سورة الشعراء، ونقرأ في آخرها: ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

من هذه الآيات نخرج بأنّ بني إسرائيل قد بقوا فترة في مصر قبل الهجرة إلى الشام، وتنعّموا ببركات تلك الأرض المعطاء.

ثمّ يضيف القرآن الكريم: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ الطَّيِّبَٰتِ﴾ ولا مانع بالطبع من أن تكون أرض مصر هي المقصودة، وكذلك أراضي الشام وفلسطين. إلاّ أنّ هؤلاء لم يعرفوا قدر هذه النعمة ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ وبعد مشاهدة كل تلك المعجزات التي جاء بها موسى، وأدلة صدق دعوته، إلاّ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وإذا لم يتذوقوا طعم عقاب الاختلاف اليوم، فسيذوقونه غداً.

وقد احتمل - أيضاً - في تفسير هذه الآية، أن يكون المراد من الاختلاف هو الاختلاف بين بني إسرائيل واليهود المعاصرين للنبي ﷺ في قبول دعوته، أي إنّ هؤلاء رغم معرفتهم صدق دعوته حسب بشارات وعلامات كتبهم السماوية، فإنّهم اختلفوا، فآمن بعضهم، وامتنع القسم الأكبر عن قبول دعوته، وإنّ الله سبحانه سيقضي بين هؤلاء يوم القيامة.

إلاّ أنّ الاحتمال الأوّل أنسب لظاهر الآية.

كان هذا الحديث عن قسم من ماضي بني إسرائيل المليء بالعبر، والذي بُيّن ضمن

آيات في هذه السورة، وما أشبه حال أولئك بمسلمي اليوم، فإنّ الله قد نصر المسلمين بفضله مرّات كثيرة. وقهر أعداءهم الأقوياء بصورة إعجازية، ونصر بفضله ورحمته هذه الأمة المستضعفة على أولئك المتجبرين، إلاّ أنّهم وللأسف الشديد، بدل أن يجعلوا هذا النصر وسيلة لنشر دين الإسلام في جميع أرجاء العالم، فإنّهم قد اتّخذوه ذريعة للتفرقة وإيجاد النفاق والاختلاف بحيث عرّضوا كل انتصاراتهم للخطر! اللّهم نجّنا من كفران النعمة.

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾

التّفسير

لا تدع للشك طريقاً إلى نفسك!

لمّا كانت الآيات السابقة قد ذكرت جوانب من ماضي الأنبياء والأُمم السابقة، وكان من الممكن أن يشكك بعض المشركين ومنكري دعوة النّبي ﷺ في صحة ذلك، فقد طلب القرآن من هؤلاء أن يراجعوا أهل الكتاب للتأكد والعلم بصحة هذه الأقوال، وليسألوهم عن ذلك، لأنّ كثيراً من هذه المسائل قد ورد في كتب هؤلاء.

إلاّ أنّه بدل أن يوجه الخطاب لهؤلاء، خاطب النّبي ﷺ فقال: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ ليثبت عن هذا الطريق بأنّه ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾.

ويحتمل أيضاً أنّ الآية أعلاه تطرح بحثاً جديداً ومستقلاً في صدق دعوة النّبي ﷺ، وتعلم المخالفين أنّهم إن كانوا في شك من أحقيته فليسألوا أهل الكتاب عن علاماته التي نزلت في الكتب السابقة كالتّوراة والإنجيل.

ونقل سبب آخر للنزول في بعض التفاسير[1] يؤيد هذا المعنى، وهو أنّ جمعاً من كفار قريش كانوا يقولون: إنّ هذا القرآن لم ينزل من الله، بل إنّ الشيطان يلقيه على محمّد!! وقد سبب هذا الكلام أن يقع عدّة أشخاص في وادي الشك والتردد، فأجابهم بهذه الآية.

هل كان النّبي شاكّاً؟!

يمكن أن يتراءى للنظر في البداية أنّ هذه الآيات تحكي عن أنّ النبي ﷺ كان شاكّاً في صدق الآيات التي كانت تنزل عليه، وأنّ الله سبحانه قد أزال شكّه عن الطريق أعلاه.

ولكن واقع الأمر أنّ النّبي ﷺ كان يتلقى مسألة الوحي مع الشهود والمشاهدة - كما تحكي آيات القرآن هذا المعنى - ومعه لا يبقى أي معنى للشك في هذا المورد. إضافةً إلى أنّ هذا الأُسلوب من خطاب القريب من أجل تنبيه البعيد رائج في العرف، وهذا هو المراد من المثل المعروف: إيّاك أعني واسمعي يا جارة[2]، وتأثير مثل هذا الكلام أكبر من الخطاب الصريح في كثير من الموارد.

إضافةً إلى أن ذكر الجملة الشرطية لا يدل دائماً على احتمال وجود الشرط، بل هو للتأكيد على مسألة ما أحياناً، أو لبيان قانون كلي عام، فنقرأ مثلاً في الآية (٢٣) من سورة الإسراء: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ وينبغي الانتباه إلى أنّ المخاطب في الآية هو النبي ظاهراً، إلاّ أنّه لما كان النّبي ﷺ فقد أباه قبل ولادته وأُمّه في طفولته، فإنّ من الواضح أنّ احترام الوالدين طُرح هنا كقانون عام بالرغم من أن المخاطب ظاهراً هو النّبي ﷺ.

وكذلك نقرأ في سورة الطلاق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ وهذا التعبير لايدلّ على أن النّبي قد طلّق امرأة في حياته، بل هو بيان قانون عام، والبديع في هذا التعبير أنّ المخاطب في بداية الجملة هو النّبي، وفي نهايتها كل الناس.

ومن جملة القرائن التي تؤيد أنّ المقصود الأساس في الآية هم المشركون

---

(١) تفسير روح الجنان لأبي الفتوح الرازي، ج ٦، ص ٢٢٧ ذيل الآية مورد البحث.

(٢) بحار الأنوار، ج٩٠، ص ١٤٥.

والكافرون، الآيات التي تتلو هذه الآية والتي تتحدث عن كفر وجحود هؤلاء.

ويلاحظ نظير هذا الموضوع في الآيات المرتبطة بالمسيح، عندما يسأله الله يوم القيامة: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾؟ فإنّه ينكر هذه المسألة بصراحة، ويضيف: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ سورة المائدة من الآية (١١٦).

ثمّ تضيف الآية التالية: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ من بعد ما اتّضحت لك آيات الله وصدق هذه الدعوة.

إنّ الآية السابقة تقول بأنّك إن كنت في شك فاسأل أُولئك المطلعين العالمين، وتقول هذه الآية بأنّك يجب أن تسلم مقابل هذه الآيات بعد أن ارتفعت عوامل الشك، وإلاّ فإنّ مخالفة الحق لا عاقبة لها إلاّ الخسران.

إنّ هذه الآية قرينة واضحة على أنّ المقصود من الآية السابقة هم عموم الناس بالرغم من أن الخطاب موجه إلى شخص النّبي ﷺ، لأنّ من البديهي أنّ النّبي ﷺ لم يكن يكذب الآيات الإلهيّة مطلقاً، بل كان المدافع المستميت الصلب عن دينه.

ثمّ إنّها تخبر النّبي ﷺ بأنّ من بين مخالفيك جماعة متعصبين عنودين لا فائدة من انتظار إيمانهم، فإنّهم قد مسخوا من الناحية الفكرية، وتوغّلوا في طريق الباطل إلى الحدّ الذي فقدوا معه الضمير الإنساني الحي تماماً، وتحولوا إلى موجودات لايمكن اختراقها، غاية ما في الأمر أنّ القرآن الكريم يبيّن هذا الموضوع بهذا التعبير: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وحتى إذا جاءتهم كل الآيات والدلالات فإنّهم لايؤمنون: ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ ولا أثر لإيمانهم في ذلك الوقت.

إنّ الآيات الأُولى من الآيات مورد البحث تدعو عامّة الناس إلى المطالعة والتحقيق والسؤال من أهل العلم، ثمّ طلبت منهم أن ينصروا الحق ويدافعوا عنه بعد أن اتّضح لهم، إلاّ أنّ الآيات الأخيرة تقول: لا تتوقّع أن يؤمن كل هؤلاء، لأنّ البعض قد فسد قلبه بحيث لايمكن إصلاحه، فلا يثبّطك عدم إيمانهم عن مواصلة الطريق. ولا تتعب نفسك في سبيل هدايتهم، بل توجّه إلى الأكثرية من الناس ممّن لهم أهلية الهداية.

وكما كررنا مراراً، فإنّ مثل هذه التعبيرات - ليست دليلاً على الجبر أبداً، بل هي من قبيل ذكر آثار عمل الإنسان، لكن لما كان أثر كل شيء بأمر الله، فإنّ هذه الأُمور تنسب إلى الله أحياناً.

ويبدو أنّ ذكر هذه النقطة مهم أيضاً، وهي أنّنا قرأنا في بعض الآيات السابقة في شأن فرعون أنّه قد أظهر الإيمان بعد نزول العذاب والوقوع في قبضة الطوفان، إلاّ أنّ مثل هذا الإيمان لما كان يتصف بالاضطرار لم ينفعه. إلاّ أنّ هذه الآيات تقول إنّ هذا لم يكن أُسلوب وطريق فرعون وحده، بل هو طريق كل العنودين الأنانيين المستكبرين المُسْوَدّة قلوبهم الذين وصلوا إلى قمة الطغيان ولديهم نفس هذه الحالة، فإنّ هؤلاء أيضاً لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم، ذلك الإيمان العديم الأثر بالنسبة لهؤلاء.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾

التّفسير

الأُمّة التي آمنت في الوقت المناسب!

تحدثت الآيات السابقة عن فرعون خاصّة، والأقوام السابقة بصورة عامّة، وهي أنّ هؤلاء امتنعوا من الإيمان بالله في وقت الاختيار والسلامة، إلاّ أنّهم لما أشرفوا على الموت والعذاب الإلهي أظهروا الإيمان الذي لم يكن نافعاً لهم آنذاك.

وتطرح الآية التي تبحثها هذه المسألة كقانون عام، فتقول: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾، ثمّ استثنت قوم يونس فقالت: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي إلى آخر عمرهم.

إنّ كلمة «لولا» تعني هنا النفي على رأي بعض المفسّرين، ولذلك تمّ الاستثناء منها بواسطة «إلاّ» وعلى هذا الأساس يصبح معنى الجملة: لم يؤمن أي من الأقوام والأُمم التي عاشت في الماضي في المدن والأماكن المعمورة أمام أنبياء الله بصورة جماعية إلاّ قوم يونس.

إلاّ أنّ البعض الآخر معتقد بأنّ كلمة «لولا» لم تأت بمعنى النفي، بل أتت دائماً بمعنى التحضيض - ويقال للسؤال المقترن بالتوبيخ والتحريك تحضيض - إلاّ أنّ لازم مفهومها في مثل هذه الموارد يكون نفياً، ولهذا يمكن أن يستثنى منها بـ«إلاّ».

وعلى كل حال، فلا شك في أنّ جماعات كثيرة من الأقوام السالفة آمنوا أيضاً، إلاّ أنّ الذي يميز قوم يونس هو أنّهم آمنوا بأجمعهم دفعة واحدة، وكان ذلك قبل حلول

العقاب الإلهي الحتمي، في حين أنّ جماعة كبيرة من بين الأقوام الأُخرى بقوا على مخالفتهم وعنادهم حتى صدر القرار الإلهي بالعذاب الحتمي، فلمّا رأى هؤلاء العذاب الأليم أظهر أغلبهم الإيمان، إلاّ أنّ إيمانهم - وللسبب الذي قلناه سابقاً - لم يكن له أثر ولا نفع.

قصّة إيمان قوم يونس

كانت قصّة هؤلاء على ما جاء في التواريخ، أنّه عندما يئس يونس من إيمان قومه القاطنين أرض نينوى في العراق، دعا على قومه باقتراح من عابد كان يعيش بينهم، في حين أنّ عالماً كان معهم أيضاً اقترح على يونس أن يدعو لهؤلاء لا عليهم، وأن يستمر في إرشاده أكثر من قبل ولا ييأس.

يونس اعتزل قومه بعد الدعاء عليهم، فاجتمع قومه الذين كانوا قد جربوا صدق أقواله حول ذلك الرجل العالم، ولم يكن أمر العذاب القطعي قد صدر بعد، إلاّ أنّ علاماته قد شرعت في الظهور، فاغتنم هؤلاء الفرصة وعملوا بنصيحة العالم وخرجوا معه خارج المدينة للتضرع والدعاء، وأظهروا الإيمان والتوبة، ومن أجل أن يزداد توجههم الروحي فرقوا بين الأُمهات والأولاد، ولبسوا اللباس الخشن البالي وهبّوا للبحث عن نبيّهم فلم يعثروا له على أثر.

إلاّ أنّ هذه التوبة والإيمان والرجوع إلى الله، الذي تمّ في الوقت المناسب وعن وعي مقترن بالإخلاص قد أثر أثره، وارتفعت علامات العذاب وعادت المياه إلى مجاريها، ولمّا رجع يونس إلى قومه بعد أحداث ووقائع كثيرة وقعت له قبلوه بأرواحهم وقلوبهم.

وسنبيّن تفصيل حياة يونس نفسه في ذيل الآيات (١٣٤ - ١٤٨) من سورة الصافات، إن شاء الله تعالى.

والجدير بالذكر، إنّ قوم يونس لم يستحقوا العذاب الإلهي الحتمي، وإلاّ لم تقبل توبتهم، بل كانت تأتيهم الإنذارات والتحذيرات التي تظهر عادة قبل العذاب النهائي، وقد كان مقدارها كافياً للتوعية، في حين أنّ الفراعنة مثلاً كانوا قد رأوا هذه الإنذارات مراراً - كحادثة الطوفان والجراد واختلاف ماء النيل الشديد وأمثالها - إلاّ أنّهم لم يعبؤوا بها مطلقاً ولم يأخذوها بمنظار جدي، واكتفوا بالطلب من موسى أن يدعو الله ليرفع عنهم هذه الابتلاءات ليؤمنوا، لكنّهم لم يؤمنوا مطلقاً.

ثمّ إنّ القصّة أعلاه تبيّن بصورة ضمنية مدى تأثير القائد الواعي الرشيد الحريص في

القوم أو الأمّة، في حين أن العابد الذي لا يمتلك الوعي الكافي يعتمد على الخشونة أكثر، وهكذا يفهم من هذه الرّواية منطق الإسلام في المقارنة بين العبادة الجاهلة، والعلم الممتزج بالإحساس بالمسؤولية.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

التّفسير

لا خير في الإيمان الإجباري

لقد طالعنا في الآيات السابقة أنّ الإيمان الاضطراري لا يجدي نفعاً أبداً، ولهذا فإنّ الآية الأُولى من هذه الآيات تقول: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ وبناء على هذا فلا يعتصر قلبك ألماً لعدم إيمان جماعة من هؤلاء، فإنّ من مستلزمات أصل حرية الإرادة والاختيار أن يؤمن جماعة ويكفر آخرون، وإذا كان الأمر كذلك ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾؟

إنّ هذه الآية تنفي بصراحة مرّة أُخرى التهمة الباطلة التي قالها ويقولها أعداء الإسلام بصورة مكررة، حيث يقولون: إنّ الإسلام دين السيف، وقد فرض بالقوّة والإجبار على شعوب العالم، فتجيب الآية - ككثير من آيات القرآن الأُخرى - بأنّ الإيمان الإجباري لا قيمة له، والدين والإيمان شيء ينبع عادة من أعماق الروح، لا من الخارج وبواسطة السيف، خاصّة وأنّها حذرت النّبي ﷺ من إكراه وإجبار الناس على الإيمان والإسلام.

الآية التّالية قد ذكرت هذه الحقيقة أيضاً، وهي أنّ البشر وإن كانوا أحراراً في اختيارهم، إلاّ أنّه ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ولهذا فإنّ هؤلاء قد ساروا في طريق الجهل وعدم التعقل، ولم يكونوا مستعدين للاستفادة من رأس مال فكرهم وعقلهم، وسوف لا يوفقون للإيمان وهم على هذا الحال، إذ ﴿وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

ملاحظتان:

١ - من الممكن أن يُتصور في البداية أنّ هناك تنافياً وتضاداً بين الآية الأُولى والثّانية، إذ إنّ الآية الأُولى تقول: إنّ الله لا يجبر أحداً على الإيمان، في حين أن الآية الثّانية تقول: إنّ أحداً لايمكن أن يؤمن حتى يأذن الله!

إلاّ أنّ التنبه إلى نكتة واحدة يرفع هذا التضاد الظاهري، وهي أنّنا نعتقد بأنّ الجبر غير صحيح، كما أنّ التفويض غير صحيح أيضاً، أي إنّ الناس ليسوا مجبورين تماماً على أعمالهم، ولا هم متروكون وأنفسهم يعملون ما يشاؤون، بل إنّهم في الوقت الذي يكونون فيه أحراراً في الإرادة، فإنّهم في حاجة للمعونة الإلهيّة، لأنّ الله سبحانه هو الذي يعطيهم حرية الإرادة، فالعقل والوجدان الطاهر هما من مواهبه وعطاياه، وإرشاد الأنبياء وهداية الكتب السماوية من جانبه أيضاً، وبناء على هذا ففي عين حرية الإرادة والاختيار، فإنّ منبع هذه الهبة وما ينتج عنها من جانب الله سبحانه. دققوا ذلك.

٢ - إنّ آخر جملة من الآية الأخيرة، أي ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ لاينبغي أن تفسر بمعنى الجبر مطلقاً، لأنّ جملة ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ دليل على اختيار هؤلاء، أي إنّ هؤلاء الأفراد قد امتنعوا من التفكير والتدبر أوّلاً. فابتلوا في النهاية بهذا العقاب، الذي هو الرجس وقذارة الشك والتردد وظلمة القلب والخطأ في التفكير الذي سلط على هؤلاء حتى سلبت منهم القدرة على الإيمان، إلاّ أنّه ينبغي الانتباه إلى أنّ مقدمات العذاب قد هيأها هؤلاء بأنفسهم، وفي مثل هذه الأحوال فإنّ الله تعالى لايأذن في إيمان هؤلاء.

وبتعبير آخر، فإنّ هذه الجملة تشير إلى أنّ إذن الله وأمره ليس أمراً اعتباطياً غير مدروس ومحسوب، بل إنّه يشمل أُولئك الذين لهم أهلية الإيمان، أمّا غير اللائقين فإنّهم سيحرمون منه.

﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

التّفسير

الموعظة والنصيحة

كان الكلام في الآيات السابقة عن أنّ الإيمان يجب أن يكون اختيارياً لا بالجبر والإكراه، ولهذا فإن الآية الأُولى هنا ترشد الناس إلى الإيمان الاختياري، وتخاطب النّبي فتقول: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾؟

إن كل هذه النجوم اللامعة والكواكب السماوية المختلفة التي يدور كل منها في مداره، وهذه المنظومات الكبيرة والمجرات العملاقة، وهذا النظام الدقيق الحاكم على كل تلك الكواكب، وكذلك هذه الكرة الأرضية بكل عجائبها واسرارها، وكل هذه الكائنات الحية المتنوعة المختلفة. . . تدل بالتمعن في دقائق صنعها والتدبّر في نظامها على المبدأ الأزلي للعالم. وستتعرفون أكثر على خالق هذه الكائنات.

إنّ هذه الجملة تنفي بوضوح مسألة الجبر وسلب حرية الإرادة، فهي تقول: إنّ الإيمان هو نتيجة التدبر في عالم الخلقة، أي إنّ هذا الأمر في اختياركم.

ثمّ تضيف أنّه رغم كل هذه الآيات والعلامات الدالّة على الحق، فلا داعي للعجب من عدم إيمان البعض، لأنّ الآيات والدلالات والإنذارات تنفع الذين لهم الاستعداد لتقبل الحق، أمّا هؤلاء فإنّه ﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾(١).

إنّ هذه الجملة إشارة إلى الحقيقة التي قرأناها مراراً في القرآن، وهي أنّ الدلائل وكلمات الحق والمواعظ لا تكفي لوحدها، بل إنّ الأرضية المستعدة شرط أيضاً في حصول النتيجة.

ثمّ تقول - بنبرة التهديد المتلبسة بلباس السؤال والاستفهام -: هل ينتظر هؤلاء المعاندون الكافرون إلاّ أن يروا مصيراً كمصير الأقوام الطغاة والمتمردين السابقين الذين عمّهم العقاب الإلهي، مصير كمصير الفراعنة والنماردة وشدّاد وأعوانهم وأنصارهم؟! ﴿فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾.

---

(١) نذر جمع نذير، أي المنذر، وهو كنايه عن الأنبياء والقادة الإلهيين، أو هي جمع إنذار، بمعنى تحذير وتهديد الغافلين والمجرمين الذي هو من برامج هؤلاء القادة الإلهيين.
وقد اعتبر البعض ﴿مَآ﴾ جملة ﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ﴾ نافية، والبعض جعلها بمعنى الاستفهام الإنكاري، وهي واحدة من حيث النتيجة، إلاّ أنّ الظاهر أن ﴿مَآ﴾ نافية.

وتحذرهم الآية أخيراً فتقول: يا أيّها النّبي ﴿قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ فأنتم بانتظار هزيمة دعوة الحق، ونحن بانتظار المصير المشؤوم الذي ستلاقونه، مصير المتكبرين الماضين.

وينبغي الالتفات إلى أنّ الاستفهام في جملة ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ﴾ استفهام إنكاري، أي إنّ هؤلاء بطبيعة سلوكهم هذا لايمكن أن ينتظروا إلاّ حلول مصير مشؤوم مظلم.

كلمة ﴿أَيَّامِ﴾ وإن كانت في اللغة جمع يوم، إلاّ أنّها هنا تعني الحوادث المهلكة التي وقعت للأقوام والأُمم السالفة.

ومن أجل أن لايتوهم متوهم أنّ الله سبحانه يصيب بعذابه الصالح والطالح، تضيف الآية: إنّنا إذا ما تحققت مقدمات نزول العذاب على الأمم السابقة، نقوم بإنقاذ عبادنا الصالحين: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾.

ثمّ تقول في النهاية: إنّ هذا ليس مختصاً بالأُمم السالفة والرسل والمؤمنين الماضين، بل ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾(١).

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥) وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦) وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ۚ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٠٧)﴾

التّفسير

الحزم في التّعامل مع المشركين

هذه الآيات والآيات التي تليها، هي آخر آيات هذه السورة، وتتحدث جميعاً حول

(١) إنّ جملة ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ كانت بهذا المعنى: كذلك ننج المؤمنين وكان ذلك حقاً علينا، أي إنّ جملة ﴿حَقًّا عَلَيْنَا﴾ جملة معترضة بين ﴿كَذَٰلِكَ﴾ و ﴿نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾. ويحتمل أيضاً أن تكون ﴿كَذَٰلِكَ﴾ متعلقة بالجملة السابقة، أي جملة ﴿نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾.

مسألة التوحيد ومحاربة الشرك والدعوة إلى الحق، وهي في الحقيقة فهرست أو خلاصة لبحوث التوحيد وتأكيد على محاربة ومجابهة عبادة الأصنام التي بيّنت مراراً في هذه السورة.

إنّ سياق الآية يوحي بأنّ المشركين كانوا يتوهمون أحياناً أن من الممكن أن يلين النّبي ويتسامح في عقيدته في شأن الأصنام ويعترف ويقرّ لهم عبادة الأصنام ولو جزئياً إلى جانب الاعتقاد بالله بنحو من الأنحاء.

إلاّ أنّ القرآن ينسف هذا التوهم الواهي بصورة قاطعة وحاسمة ويقطع عليهم أحلامهم هذه إلى الأبد، فلا معنى لأي نوع من المساومة واللين في مقابل الأصنام، ولا معبود إلاّ الله، لاتزيد كلمة ولا تنقص أُخرى.

ففي البداية يأمر النّبي ﷺ أن يخاطب جميع الناس: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ولا تكتفي الآية بنفي آلهة أُولئك، بل تثبت كل العبادة لله سبحانه زيادة في التأكيد فتقول: ﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾. ومن أجل تأكيد أكبر تضيف: أنّ هذه ليست إرادتي فقط، بل ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

إنّ التأكيد هنا على مسألة قبض الروح فقط من بين صفات الله، إمّا لأنّ الإنسان إذا كان يشك في كل شيء فإنّه لا يستطيع أن يشك في الموت، أو لأنّ هذه الآية أرادت أن تنبه هؤلاء إلى مسألة العذاب والعقوبات المهلكة التي أشير إليها في الآيات السابقة، ولوحت بالتهديد بالغضب الإلهي.

وبعد أن بيّنت الآية العقيدة الحقة في نفي الشرك وعبادة الأوثان بكل صراحة وقوّة، تطرقت إلى بيان دليل ذلك، دليل من الفطرة، ودليل من العقل:

﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ وهنا أيضاً لم يكتف بجانب الإثبات، بل نفي الطرف المقابل لتأكيد الأمر، فقالت الآية: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

«الحنيف» - كما قلنا سابقاً - تعني: الشخص الذي يميل ويتحول عن طريق الانحراف إلى جادة الصواب والاستقامة، وبتعبير آخر: يغض الطرف عن المذاهب والأفكار المنحرفة، ويتوجّه إلى دين الله المستقيم، ذلك الدين الموافق للفطرة موافقة كاملة ومستقيمة، وبناء على هذا فإنّ هذا التعبير يستبطن الإشارة إلى كون التوحيد فطرياً في الأعماق، لأنّ الانحراف شيء خلاف الفطرة، (فتدبّر).

وبعد الإشارة إلى بطلان الشريك بالدليل الفطري، تشير إلى دليل عقلي واضح،

فتقول: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إذ تكون قد ظلمت نفسك ومجتمعك الذي تعيش فيه.

أي عقل يسمح أن يتوجّه الإنسان لعبادة أشياء وموجودات لا تضر ولا تنفع أبداً، ولا يمكن أن يكون لها أدنى أثر في مصير الإنسان؟

وهنا أيضاً لم تكتف الآية بجانب النفي، بل إنّها تؤكّد إضافةً إلى النفي على جانب الإثبات فتقول: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾، وكذلك ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ لأنّ عفوه ورحمته وسعت كل شيء ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

التّفسير

الكلمة الأخيرة

هاتان الآيتان تضمّنت إحداهما موعظة ونصيحة لعامّة الناس، واختصت الثّانية بالنّبي ﷺ، وقد كملتا الأوامر والتعليمات التي بيّنها الله سبحانه على مدى هذه السورة ومواضعها المختلفة. وبذلك تنتهي سورة يونس.

فتقول أوّلاً، وكقانون عام: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ هذه التعليمات، وهذا الكتاب السماوي، وهذا الدين، وهذا النّبي كلها حق، والأدلّة على كونها حقّاً واضحة، وبملاحظة هذه الحقيقة: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾.

أي إنّي لست مأموراً بإجباركم على قبول الحق، لأنّ الإجبار على قبول الإيمان لا معنى له، ولا أستطيع إذا لم تقبلوا الحق ولم تؤمنوا أن أدفع عنكم العذاب الإلهي، بل إنّ واجبي ومسؤوليتي هي الدعوة والإبلاغ والإرشاد والهداية والقيادة، أمّا الباقي فيتعلق بكم، وعليكم انتخاب طريقكم.

إنّ هذه الآية إضافة إلى أنّها تؤكّد مرّة أُخرى مسألة الاختيار وحرية الإرادة، فإنّها دليل على أن قبول الحق سيعود بالنفع على الإنسان نفسه بالدرجة الأُولى، كما أنّ مخالفته ستكون في ضرره.

إنّ توجيهات القادة الإلهيين والكتب السماوية ما هي في الواقع إلاّ دروس لتربية وتكامل البشر، فلا يزيد الالتزام بها شيئاً على عظمة الله، ولا تنقص مخالفتها من جلاله شيئاً.

ثمّ تبيّن وظيفة وواجب النّبي ﷺ في جملتين: الأُولى ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ فإنّ الله قد حدّد مسيرك من خلال الوحي، ولا يجوز لك أن تنحرف عنه قيد أنملة.

والثّانية: إنّه ستعترضك في هذا الطريق مشاكل مضنية ومصاعب جمة، فلا تدع للخوف من سيل المشاكل إلى نفسك طريقاً، بل ﴿وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ فإنّ أمره حق، وحكمه عدل، ووعده متحقق لا محالة.

إلهنا ومولانا: إنّك وعدت عبادك الذين يجاهدون في سبيلك بإخلاص، والذين يصبرون ويستقيمون في سبيلك بالنصر.

اللّهم وقد أحاطت بالمسلمين مشاكل لا تحصى، ونحن عبيدك الذين لا نتوقف عن الجهاد والاستقامة بمنّك وتوفيقك، فاكشف عنا سُحُب المشاكل المظلمة بلطفك، وأنر أبصارنا بنور الحق والعدالة... آمين يا رب العالمين.

آمين

فهرس الجزء التاسع

سورة الأنفال

ما هي الأنفال؟ ٧
خمس صفات خاصة بالمؤمنين ١٠
أول مواجهة مسلحة بين الإسلام والكفر... .... ١٤
دروس مفيدة من ساحة المعركة ٢١
الفرار من الجهاد ممنوع! ٢٥
الذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون! .. ٣٠
بحثان: ١ - ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ ٣٢
٢ - لاستماع الحق مراحل ٣٢
دعوة للحياة ٣٣
الخيانة وأساسها ٣٩
الإيمان ووضوح الرؤية ٤١
سر بداية الهجرة ٤٥
القائلون شططاً ٤٧
الهدف من الجهاد وبشرى كريمة ٥٦
الخمس فرض إسلامي مهم ٥٧
بحوث: ١ - يوم الفرقان بين الحق والباطل ٥٨
٣ - ما هو المراد من ذي القربي؟ ٥٩
٤ - ما هو المراد من اليتامى والمساكين وابن السبيل؟ ٦٠
٥ - هل الغنائم منحصرة في غنائم الحرب؟ ٦٠
٧ - ما هو المراد من سهم الله؟ ٦٧
ستة أوامر أخرى في شأن الجهاد ٧١
المشركون والمنافقون ووساوس الشيطان ٧٣
سنة الله لاتقبل التغيير والتبديل ٧٧
بحثان: ١ - أسباب حياة الشعوب وموتها ٧٨
٢ - لا جبر في العاقبة ولا في التاريخ، ولا في سائر الأمور... .... ٨٢
مواجهة من ينقض العهد بشدة! ٨٢
المزيد من التعبئة العسكرية والهدف منها ٨٥
الهدف من تهيئة السلاح وزيادة التعبئة العسكرية ٨٨
بحثان: ١ - من هم المقصودون في الآية ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾؟ ٨٩
٢ - الاستعداد في كل مكان وزمان ... ٩٠
أهداف الجهاد في الإسلام وأركانه ... ٩١
الاستعداد للصلح ٩١
لاترتقبوا تساوي القوى ٩٥
بحوث: ١ - هل نسخت الآية الأولى؟ . ٩٦

٢ - أسطورة توازن القوى ٩٧
٣ - ما هو المراد من الآيتين؟ ٩٩
أسرى الحرب ٩٩
أربع طوائف مختلفة ١٠٧
بحوث: ١ - الهجرة والجهاد ١١١
٢ - المبالغة والإغراق في تنزيه الصحابة ١١٣
٣ - الإرث في قوانين الإسلام ١١٤
٤ - ما المراد من الفتنة والفساد الكبير؟ ١١٥

سورة التوبة

١ - أسماء هذه السورة ١١٦
٢ - متى نزلت هذه السورة؟ ١١٦
٣ - محتوى السورة ١١٦
٤ - لم لم تبدأ هذه السورة بالبسملة؟ . ١١٧
٥ - فضيلة هذه السورة وآثارها ١١٨
٦ - حقيقة تأريخية يسعى بعضهم إلى طمس معالمها ١١٩
إلغاء عهود المشركين ١٢٢
بحثان: ١ - هل يصح إلغاء المعاهدة من جانب واحد؟! ١٢٣
٢ - متى بدأت الأشهر الأربعة؟ ١٢٥
١ - الحج الأكبر! ١٢٦
٢ - المواد الأربع التي أعلنت ذلك اليوم ١٢٧
الشدة المقرونة بالرفق ١٢٨
١ - ما المراد من الأشهر الحرم؟ ١٣٠
٢ - هل الصلاة والزكاة شرط في قبول الإسلام؟ ١٣٠
٣ - الإيمان وليد العلم ١٣١
المعتدون الناقضون العهد ١٣١
بحثان: ١ - من هم المستثنون في هذه الآية؟ ١٣٣
٢ - متى يجوز إلغاء المعاهدة؟ ١٣٥
لم تخشون مقاتلة العدو؟! ١٣٥
من يعمر مساجد الله؟ ١٤٢
بحوث: ١ - ما المراد من العمارة؟ ... ١٤٣
٢ - العمل الخالص ينبع من الإيمان فحسب ١٤٤
٣ - الحماة الشجعان ١٤٤
٤ - هل المراد من الآية هو المسجد الحرام فحسب؟! ١٤٤
٥ - أهمية بناء المساجد ١٤٥
مقياس الفخر والفضل ١٤٧
بحثان: ١ - تحريف التاريخ ١٤٨
٢ - ما هو مقام الرضوان؟ ١٥١
كل شيء فداء للهدف ١٥٢
الماضي والحاضر مرهونان بهذا الأمر . ١٥٤
الكثرة وحدها لاتجدي نفعاً ١٥٥
بحوث: ١ - غزوة حنين ذات العبرة ... ١٥٧
٢ - من هم الفارون؟ ١٥٩
٣ - الإيمان والسكينة ١٦٠
لا يحق للمشركين أن يدخلوا المسجد الحرام ١٦٢
مسؤوليتنا إزاء أهل الكتاب ١٦٣
ما هي الجزية؟! ١٦٧

شرك أهل الكتاب ١٦٩
بحوث: ١ - من هو عزير؟! ١٧٠
٢ - ليس المسيح ابن الله ١٧٢
٣ - اقتباس هذه الخرافات ١٧٢
٤ - ما هو معنى ﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾؟ ... ١٧٢
درس تعليمي ١٧٤
المستقبل للإسلام ١٧٦
بحوث: ١ - المراد بـ «الهدى ودين الحق» ١٧٦
٢ - انتصار المنطق أم انتصار القوة؟ .. ١٧٧
٣ - القرآن وظهور المهدي ١٧٧
الروايات الإسلامية في المهدي «عجل الله فرجه الشريف» ١٧٩
الانتظار وآثاره البناءة ١٨٢
مفهوم الانتظار! ١٨٤
الحكمة الأولى، بناء الشخصية الفردية ١٨٦
الحكمة الثانية، التعاون الاجتماعي .. ١٨٧
الحكمة الثالثة، المنتظرون بحق لا يذوبون في المحيط الفاسد ١٨٧
كنز الأموال ١٩٠
أبو ذر والاشتراكية!! ١٩٥
وقف القتال «الإجباري» ٢٠٠
بحوث: ١ - فلسفة الأشهر الحرم! ... ٢٠٢
٢ - مفهوم النسيء وفلسفته في الجاهلية ٢٠٢
٣ - وحدة الكلمة مقابل العدو ٢٠٤
٤ - كيف يزين للناس سوء أعمالهم؟! . ٢٠٤
التحرك نحو سوح الجهاد مرة أخرى .. ٢٠٥
المدد الإلهي للرسول في أشد اللحظات ٢٠٨
قصة صاحب النبي في الغار ٢٠٩
الكسالى الطامعون ٢١١
التعرف على المنافقين ٢١٣
عدم وجودهم أفضل ٢١٦
المنافقون المتذرعون ٢١٩
بحوث: ١ - المقادير وسعي الإنسان .. ٢٢٢
٢ - لا وجود للهزيمة في قاموس المؤمنين ٢٢٢
٣ - صفات المنافقين ٢٢٣
علامة أخرى للمنافقين ٢٢٧
الأنانيون السفهاء ٢٢٨
موارد صرف الزكاة ودقائقها ٢٣٠
بحوث: ١ - الفرق بين الفقير والمسكين ٢٣١
٢ - هل يجب تقسيم الزكاة إلى ثمانية أجزاء متساوية؟ ٢٣٣
٣ - متى شرعت الزكاة؟ ٢٣٣
٤ - من هم المقصودون بـ ﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾؟ ٢٣٤
٥ - دور الزكاة في الإسلام ٢٣٤
٦ - ما الفرق بين العطف بـ «اللام» أو «في»؟ ٢٣٥
هذا حسن لا قبيح ٢٣٧
المنافقون والتظاهر بالحق ٢٤٠
مؤامرة أخرى للمنافقين ٢٤٢
علامات المنافقين ٢٤٥
تكرر التاريخ والاعتبار به ٢٤٨

صفات المؤمنين الحقيقيين ٢٥٠
جهاد الكفار والمنافقين ٢٥٣
مؤامرة خطرة ٢٥٦
المنافقون وقلة الاستيعاب ٢٥٩

فهرس الجزء العاشر

خبث المنافقين ٢٦٤
إعاقة المنافقين مرة أخرى ٢٦٨
أسلوب أشد في مواجهة المنافقين ٢٧١
دناءة الهمة ٢٧٤
العشق للجهاد ودموع الحسرة ٢٧٨
لا تصغوا إلى أعذارهم وأيمانهم الكاذبة ٢٨٣
الأعراب القساة والمؤمنون ٢٨٥
بحثان: ١ - التجمعات الكبيرة ٢٨٨
٢ - الأعراب من سكان المدن ٢٨٩
٣ - الأعراب والإنفاق ٢٨٩
السابقون إلى الإسلام ٢٩٠
بحوث: ١ - موقع السابقين ٢٩١
٢ - من هم التابعون؟ ٢٩٢
٣ - من هو أول من أسلم؟ ٢٩٣
٤ - هل كان الصحابة كلهم صالحين؟ . ٢٩٥
التوابون ٣٠٠
الزكاة مطهرة للفرد والمجتمع ٣٠١
التوبة والجبران ٣٠٦
بحوث: ١ - مسألة عرض الأعمال ... ٣٠٧
٢ - هل الرؤية هنا تعني النظر؟ ٣٠٩
٣ - الأعمال وعلم الله سبحانه ٣٠٩
معبد وثني في صورة مسجد! ٣١٥
بحوث: ١ - درس كبير ٣١٩
٢ - النفي لا يكفي لوحده! ٣٢١
٣ - شرطان أساسيان ٣٢٢
تجارة لا نظير لها ٣٢٢
ضرورة قطع العلاقات مع الأعداء ٣٢٧
بحوث: ١ - رواية موضوعة! ٣٢٨
٢ - لماذا وعد إبراهيم آزر بالاستغفار؟ ٣٣٠
٣ - ضرورة قطع كل رابطة بالأعداء .. ٣٣١
العقاب بعد البيان ٣٣٢
درس كبير ٣٣٥
الحصار الاجتماعي للمذنبين ٣٣٧
بحوث: ١ - المراد من توبة الله على النبي ﷺ ٣٣٨
٢ - غزوة تبوك وساعة العسرة ٣٣٨
٣ - ما هو معنى ﴿خُلِّفُوا﴾؟ ٣٤٠
٤ - درس كبير دائمي ٣٤٠
٥ - غزوة تبوك ونتائجها ٣٤٠
كونوا مع الصادقين ٣٤٣
معاناة المجاهدين لا تبقى بدون ثواب . ٣٤٧
محاربة الجهل وجهاد العدو ٣٥٠
قتال الأقرب فالأقرب ٣٥٤
تأثير آيات القرآن المتباين على القلوب . ٣٥٦
آخر آيات القرآن المجيد ٣٦٠

سورة يونس

محتوى وفضيلة هذه السورة ٣٦٣
رسالة النبي ٣٦٤
معرفة الله والمعاد ٣٦٧
جانب من آيات عظمة الله ٣٧٠
أهل الجنة والنار ٣٧٦
الهمج الرعاع ٣٧٨
الإنسان في القرآن الكريم ٣٨٠
الاعتبار بالظالمين السابقين ٣٨٢
آلهة بدون خاصية! ٣٨٦
المعجزات المقترحة! ٣٨٨
لوحة الحياة الدنيا ٣٩٤
بيض الوجوه وسود الوجوه ٣٩٧
مشهد من قيامة عبدة الأوثان ٣٩٩
واحدة من علامات الحق والباطل ٤٠٥
عظمة دعوة القرآن وحقانيته ٤٠٨
مظاهر وتجليات جديدة من إعجاز القرآن ٤١٠
الجهل والإنكار ٤١٥
العمي والصم ٤١٦
العذاب الإلهي واختيارات الرسول ... ٤١٩
لا معنى للشك في العذاب الإلهي ٤٢٣
القرآن رحمة إلهية كبرى ٤٢٥
١ - هل أن القلب هو مركز الإحساسات؟ ٤٢٧
٢ - ما هو الفرق بين الفضل والرحمة؟ ٤٢٨
هو الشاهد في كل مكان! ٤٣٠
طمأنينة الروح في ظل الإيمان ٤٣٤
بحثان: ١ - ما هو المراد من البشارة في الآية؟ ٤٣٨
٢ - الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام ٤٣٩
جانب من آيات عظمته ٤٤٠
جانب من جهاد نوح ٤٤٤
الرسل بعد نوح ٤٤٦
جانب من جهاد موسى وهارون ٤٤٨
المرحلة الثانية ٤٥٠
المرحلة الثالثة ٤٥٣
المرحلة الرابعة: مرحلة البناء من أجل الثورة ٤٥٥
الفصل الأخير من المجابهة مع الظالمين ٤٥٨
لا تدع للشك طريقاً إلى نفسك! ٤٦٢
هل كان النبي شاكاً؟! ٤٦٣
الأمة التي آمنت في الوقت المناسب! . ٤٦٥
قصة إيمان قوم يونس ٤٦٦
لا خير في الإيمان الإجباري ٤٦٧
الموعظة والنصيحة ٤٦٩
الحزم في التعامل مع المشركين ٤٧٠
الكلمة الأخيرة ٤٧٢
الفهرس ٤٧٤